



WHAT HAPPENED

Inside The Bush White House and Washington's
Culture of Deception

نصوير
أحمد ياسين

ماذا حدث

داخل أروقة البيت الأبيض في عهد بوش
وثقافة الخداع في واشنطن

نقله إلى العربية

أ. د. منذر محمود صالح محمد

سكوت مكيلان

الأفضل مبيعاً بحسب صحيفة نيويورك تايمز

ماذا حدث

داخل أروقة البيت الأبيض في عهد بوش
وثقافة الخداع في واشنطن

سكوت مكيلان

لتطوير

أحمد ياسين



@Ahmedyassin90

نقله إلى العربية

أ. د. منذر محمود صالح محمد

العبدان
Obekan

ماذا حدث

داخل أروقة البيت الأبيض في عهد بوش

وثقافة الخداع في واشنطن

تصوير
أحمد ياسين

Original Title:

WHAT HAPPENED

Inside the Bush White House and Washington's Culture of Deception

Scott McClellan

Copyright © 2008 by Scott McClellan

ISBN-13: 978-1-58648-556-6

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition

Published by: PublicAffairs, a member of the Perseus Books Group, 250 West 57th Street, Suite 1321, New York, NY 10019 (U.S.A.)

حقوق الطبع العربية محفوظة للمبيكان بالتعاقد مع بيلك أفيريس باريسيس بوكس جروب، نيويورك، الولايات المتحدة.

© 2009 للمبيكان

ISBN 978 - 54 - 718 - 3

الطبعة العربية الأولى 1430 هـ - 2009 م

الناشر المبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574/2937581، فاكس: 2937588، ص.ب: 67622 الرياض 11517

ح مكتبة المبيكان، 1430 هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ماكيلان، سكوت

ماذا حدث في أروقة البيت الأبيض في عهد بوش، / سكوت ماكيلان؛ مترجم محمود محمد - الرياض 1430 هـ

456 ص: 16.5 + 24 سم

ردمك: 3 - 718 - 54 - 9960 - 978

1 - الولايات المتحدة 2 - الأحوال السياسية أ. محمد، مترجم محمود (مترجم)

ب. العنوان

1430 / 2644

ميوي: 320,973

رقم الإيداع: 1430 / 2644

ردمك: 3 - 718 - 54 - 9960 - 978

امتياز التوزيع شركة مكتبة المبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 - ص.ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالتصوير فوتوكوبي، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر



الإهداء

إلى العاملين

في حقل الخدمة العامة

أحمد ياسين

المحتويات

9.....	مقدمة
17.....	1. فضيحة على قياس واشنطن
31.....	2. جزء صغير من مشروع عظيم
45.....	3. النشأة في عالم السياسة
69.....	4. الحاكم بوش يرشح نفسه للرئاسة
99.....	5. الحملة الدائمة
135.....	6. الأيام الأولى
	7. الحادي عشر من أيلول
153.....	ووقف إطلاق النار بين الحزبين
181.....	8. الترويج للحرب
221.....	9. تبوء منصب السكرتير الصحفي
243.....	10. الإنكار
279.....	11. الرهان على الرئاسة
309.....	12. حريق في الأجمة
335.....	13. الانتصار والوهم
365.....	14. الكشف للعيان والشعور بالمهانة
385.....	15. الانسلاخ عن الواقع
415.....	16. بعد المحاكمة
437.....	17. تغيير ثقافة الخداع
455.....	شكر وتقدير

مقدمة

كانت لجامعة تكساس دائماً مكانة خاصة بالنسبة لي ولعائلي. فقد كان جدي لأبي، المرحوم بيج كيتون العميد الذائع الصيت فهو من قاد كلية الحقوق فيها إلى عالم الشهرة على الصعيد الوطني. ولدت وترعرعت في مدينة أوستين بولاية تكساس، حيث توجد هذه الجامعة التي حصلت منها على درجة البكالوريوس.

أعرف جيداً برج جامعة تكساس، والمبنى الرئيس في وسط الحرم الجامعي الذي تزينه عبارة مقتبسة من إنجيل يوحنا المعمدان، منقوشة على حجر يعلو مدخله الجنوبي: «لا بد لك من أن تعرف الحقيقة، ولا بد للحقيقة أن تقوم بتحريرك».

دائماً ما أثارت هذه الكلمات القوية فضولي، بصفتي مؤمناً وإنساناً عادياً أهتم جداً بالمعنى الأكثر شمولية للحياة. لكنني لم أصل إلى سبر غور الرسالة التي تريد هذه الكلمات إيصالها بحق، إلا في السنوات القليلة الماضية.

ربما كانت أعظم نعمة من الله بها علينا في الحياة هي القدرة على التعلم من تجاربنا، وعلى الأخص من أخطائنا كي نصلح من أنفسنا. هذه الميزة الإنسانية الفريدة تتجذر في إرادتنا الحرة، وتتبرعم في قدرتنا على اكتساب المعرفة المبنية على فهم الحقيقة - الحقيقة كما هي، وليس كما نتخيلها أو نشتتها. وهذا يتضمن الاعتراف بأخطائنا والقبول بتحمل المسؤولية عنها. كما تساعدنا مشاعر الندم التي تتابنا في الوصول إلى الحقيقة، وإلى الحرية التي تتزامن معها في الوقت الذي نصبح فيه أكثر التصاقاً بالصورة التي أراد الإله خالقنا، أن نكون عليها.

تحت والدتي التي بدأت حياتها الوظيفية في واحدة من المدارس الثانوية مدرسة للتاريخ والحقوق المدنية أن تردد العبارة الآتية: «من يصنع التاريخ هم الناس وليست الأحداث». ما قالته هو عين الصواب. فالتاريخ متجذر في الخيارات التي يقوم بها الناس، وهم أشخاص لهم عيوبهم، ولهم أخطاؤهم.

هذا كتاب يتناول شريحة من التاريخ كنت شاهداً عليها خلال سني خدمتي في البيت الأبيض، كما يتناول أشخاصاً حسني النوايا، ولكن لهم أخطاؤهم -بمن فيهم أنا- قاموا بصنع ذلك التاريخ. كتبت هذا الكتاب ليس من منطلق تصفية حسابات ضد أحد، أو بغية تضخيم للدور الذي قمت به، بل بكل بساطة، كي أدون ما أعرفه وما تعلمته أملاً في أن يكون سجلّي عاملاً في تعميق فهمنا للتاريخ المعاصر، وعلى الأخص فيما يتعلق بالأحداث التي تلت الهجمات المأساوية في الحادي عشر من شهر أيلول، سبتمبر، سنة 2001.

بدأت عملية تدوين هذا الكتاب بوضع نفسي تحت المجهر. لم تستطع الجهود التي بذلتها في خدمة إدارة الرئيس بوش أن ترقى بي إلى ما كنت أصبو إليه بصفتي موظفاً حكومياً. لم أفهم جيداً المنحى الذي قدت نفسي إليه عبر قبولي منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض في سن الخامسة والثلاثين، ولم يكن لي من الخبرة حينها سوى النذر اليسير. الآن، أفهم ذلك بشكل أفضل بكثير. هذا الكتاب هو توثيق للعملية المؤلمة في كثير من مراحلها، والتي أدت إلى وصولي إلى هذا الفهم.

كنت غالباً ما أتعثر في طريقي، وأعجز عن القيام بواجبي تجاه نفسي، وتجاه الرئيس الذي كنت أعمل لديه، وكذلك تجاه الشعب الأمريكي. حاولت ممارسة لعبة واشنطن استناداً إلى القوانين المرعية، ولم أكن أجيد ممارسة هذه اللعبة في بعض الأحيان. لم يكن باستطاعتي أن أكون صادقاً مع الآخرين لأنني لم أكن صادقاً مع نفسي. الأخطاء التي وقعت كانت أخطائي أنا، وكان لا بد لي من تحمل العواقب.

لكن قصتي الشخصية ليست لها سوى أهمية ضئيلة ضمن الصورة التاريخية العريضة. فالقصة الأهم هي تلك القصة الأكبر التي لم يكن لي فيها سوى دور صغير - إنها القصة التي تدور حول كيف انخرفت رئاسة جورج دبليو بوش بشكل رهيب عن مسارها.

أمضيت بصفتي السكرتير الصحفي ساعات لا حصر لها أدافع عن هذه الإدارة من على منصة غرفة اللقاءات الصحفية في البيت الأبيض. وبالرغم من أن ما قلته آنذاك كان مبعثه إحساسي بصدق ما أقول، فقد تبين لي لاحقاً أن بعض ما صرحت به كان تشويهاً مريعاً للحقيقة. حاولت على امتداد هذه الصفحات أن أمسك بتلابيب بعض من هذه الحقائق التي أرادت القوى الفاعلة داخل البيت الأبيض طمسها أو تغييبها.

قد لا يكون أصدقائي وزملائي القدامى الذين سكنوا وعملوا، أو ما يزالون يسكنون ويعملون داخل تلك الفقاعة الجوفاء سعداء بالمنظور الذي أعرضه في هذا المقام. أنا متأكد من أن العديد منهم ما زالوا على اقتناع بأن إدارة بوش كانت على صواب بشكل لا يقبل اللبس بالنسبة لرسم سياسة الكثير من أفكارها المثيرة للجدل، وبأن عدم الاحترام الذي يبيده معظم الأمريكيين تجاه هذه الإدارة غير منصف لها. الزمن وحده قادر على كشف الحقيقة حول ذلك. لكنني بتُّ الآن مقتنعاً بشكل لا يقبل اللبس بعكس ذلك.

كانت الحلقة التي شكلت نقطة الانطلاق بالنسبة لهذا الكتاب هي الفضيحة المتعلقة بتسريب معلومات سرية تتعلق بالأمن القومي - التي أطلق عليها اسم قضية بليم. بدأت هذه القضية أول ما بدأت حول اللفظ الذي أثارت إدارة بوش حول مسألة أن عراق صدام حسين كان يشكل «خطراً كبيراً ومتزايداً» مما يستدعي وجوب إزالته. عندما تم الإعلان عن هوية عميلة سرية تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية أثناء فترة الصراع الحزبي الذي تلا هذا الإعلان، والذي أدى بدوره إلى تحويل هذا اللفظ إلى آخر فضائح واشنطن، وجدتني متورطاً في عملية الخداع التي تلت ذلك. كانت تلك لحظة حاسمة في المهمة الموكلة إلي في خدمة الرئيس، كما كانت أكثر تجاربي في الحياة إيلاماً.

عندما تبين لاحقاً للعيان أن الكلمات التي تقوّهت بها كانت كاذبة، منعني التزاماتي وولائي للرئيس من القيام بأي تعليق حولها. لكنني قطعت وعداً للصحفيين وللجمهور على حد سواء بأنني سوف أروي القصة التي أعرفها كاملة يوماً ما. أدركت بعد مغادرتي البيت الأبيض أن القصة لن يكون لها معنى من دون وضعها ضمن السياق الشخصي والسياسي والمؤسساتي التي حدثت فيه. وهكذا تحولت القصة إلى كتاب.

لم تكن كتابة هذه القصة سهلة. عندما شرعت في الكتابة، تلقيت بعضاً من أفضل النصائح من قبل أحد المحررين الرئيسيين في واحدة من دور النشر التي عبرت عن رغبتها في نشر كتابي. قال لي إن أصعب تحدٍّ بالنسبة لي يكمن في وجوب وضع معتقداتي الخاصة وإدراكي الحسي موضع تساؤل طيلة فترة الكتابة. كانت نصيحته تلك ذات رؤية، دائماً ما كنت أجد نفسي أمحص أفكارى ومزاعمي وتفسيرى للأحداث. وكان العديد من

الاستنتاجات التي توصلت إليها على العكس تماماً مما كنت أؤمن به عند بداية المشروع. كانت الرغبة في الوصول إلى الحقيقة تشكل صراعاً بالنسبة لي، لكنه كان صراعاً مجزياً. لا أزعم بأنني أحتكر الحقيقة. ولكن بعد الصراع المرير الذي خضته أثناء التجارب التي مررت بها خلال الأشهر القليلة الماضية، وجدت نفسي أقرب بكثير، وأكثر من أي وقت مضى، إلى الحقيقة كما أؤمن بها.



سوف يمر العديد من القراء على هذا الكتاب بدافع الشعور بالفضول نحو الرجل الذي يعد الشخصية المحورية في قصتي؛ ألا وهو الرئيس جورج دبليو بوش. سوف تطلعون على علاقتي به، وكذلك على خبراتي كأحد أفراد فريقه وأنتم تقرؤون هذه الصفحات. أكتفي الآن بإدراك أن جل ما يعرفه الشعب عن بوش هو صحيح. فهو شخص يتسم بالجاذبية والذكاء، ولديه كم هائل من الحنكة السياسية. كان مصدراً للإلهام لي ولكثير من الناس الآخرين؛ وهذا ما دفعني إلى أن أكون واحداً من مؤيديه. شخصيته الأسيرة وسجله كحاكم شعبي غير محازب أسس لأسلوب بناء وحقق مصالح الناس. كنا جميعاً نأمل ونؤمن بأنه قادر أن يقوم بنفس العمل لصالح الأمة.

بدا وكأن بذار العظيمة مزروعة في تربة إدارة بوش. فبالرغم من أن بوش وصل إلى البيت الأبيض بعد معركة قضائية طويلة ومضنية حول نتيجة انتخابات سنة 2000، إلا أنه بدأ رئاسته بحسن نية مشهودة. كما تربح فوق مدة مطولة ونادرة من الوحدة الوطنية التي أعقبت الكارثة الوطنية التي فاقت الوصف، والتي حلت بأمتنا في شهر أيلول، سبتمبر، سنة 2001.

كان الفريق الذي اختاره بوش مثيراً للإعجاب من الناحية النظرية. فقد مثل نائب الرئيس ديك تشيني دعماً جاداً وخبرة واسعة على أعلى المستويات في الحكومة. أما وزير الدفاع دونالد رامسفيلد فقد كان مثلاً للنجاح في البنتاغون، وكان يفخر بأن لديه سيرة ذاتية ربطت مع إنجازات في مجالي إدارة الأعمال والعمل الحكومي. وكان كولن باول، القائد العسكري الذي يحظى بقدر واسع من الاحترام، أكثر رجال الإدارة شعبية

في البلاد، وكان من الممكن أن يصبح أول رئيس أمريكي من أصول إفريقية لو أبدى اهتماماً بهذا المنصب. وحتى كارل روف كبير مستشاري بوش السياسيين، كانت له سمعة ممتازة بصفته مفكراً إستراتيجياً حاذقاً ساعد في جعل الحزب الجمهوري القوة السياسية الأعظم في البلاد.

آمنت بقيادة جورج بوش وخططه من أجل أمريكا، وكنت واثقاً من مصداقيته واستقامته وحكمته. إلا أن الآمال العريضة التي رافقت الأيام الأولى لرئاسته ذهبت أدراج الرياح.

غادر رامسفيلد وباول منصبيهما، وكانت حقبة توليها لمنصبيهما مثيرة للجدل ومخيبة للآمال. اعتُبر الدور الذي لعبه تشيني على نطاق واسع شريراً ومدمراً لإرث الرئيس. وأما بالنسبة إلى عبقرية روف السياسية فقد أضحت مرتبطة بسمعته بصفته رجل مخبرات يعطي الأولوية للمصالح السياسية على حساب المصالح الوطنية.

ضمن هذا الوضع، بقي الرئيس بوش على حاله. فهو واثق من نفسه، وسريع البديهة، وواقعي، وعنيد كما يجب على القادة أن يكونوا أحياناً. متفرد في أسلوبه، ومخلص لمعتقداته. لم ألتق يوماً بـ بلندون جونسون (هو الآخر من تكساس ويتصف أيضاً بالعناد، وهو من غطت الحرب المثيرة للجدل التي خاضها على إنجازاته الداخلية) أوريثشارد نيكسون (وهو رئيس انخفضت نسبة التأييد التاريخية له بعد فضيحة ووترغيت إلى درجة لم يصل إليها سوى جورج بوش). ولكن استناداً إلى ما ذكره المؤرخون، فإن الرجلين المذكورين استحوذت عليهما الحاجة إلى تسوية ما قاما به، وتملكهما الغضب وأخيراً الإحباط في الوقت الذي انهارت رئاستيهما تحت ضغط الحرب والفضائح. يختلف جورج دبليو بوش عنهما. فهو لم يتغير أبداً - بالرغم من أنه لم يكن ذلك القائد الذي تخيلته سابقاً.

لقد كان قرار خوض الحرب على العراق هو ما حرف رئاسة بوش عن مسارها. لقد كانت خطوة مأساوية خارج المسار الصحيح فرضتها جملة من الأحداث (صدمة الحادي عشر من أيلول، بالإضافة إلى نجاحنا العسكري الأولي المدهش والسريع والخادع في أفغانستان)، وكذلك الطبيعة البشرية (الطموح والثقة المفرطة بالنفس وخداع الذات)، بالإضافة إلى عاطفة تستند إلى إلهام رباني (الإشارة هنا إلى اعتقاد بوش الراسخ بحق

البشرية الذي منحها إياه الله في أن تعيش بحرية). لقد كانت مسألة إزاحة «الخطر الشديد والمتزايد» الذي كان العراق يمثلُه وسيلة لتحقيق ذلك الهدف العظيم المتمثل في إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط كمنطقة تحكمها أنظمة ديمقراطية تتعايش فيما بينها بسلام.

يبدو أن التاريخ على وشك أن يؤكد على ما توصل إليه معظم الأمريكيين اليوم - أن قرار غزو العراق كان خطيئة إستراتيجية خطيرة. لا أحد، بمن فيهم أنا، يستطيع أن يتنبأ بالطريقة التي سوف يُنظرُ فيها إلى الحرب بعد عقود من الآن عندما يكون باستطاعتنا استيعاب تأثيرها بشكل كامل. ما أعرفه هو أن الحرب يجب أن تُشنَّ فقط عند الضرورة، لكن حرب العراق لم تكن ضرورية.

إن شن حرب غير ضرورية كان خطأ فادحاً، لكنني، وعبر استحضار كل ما حدث على امتداد إدارة بوش، توصلت إلى فتاعة بأن خطأ أكثر فداحة قد وقع - وتمثل ذلك في القرار القاضي بالابتعاد عن الصدق والصراحة في الوقت الذي كنا بأمس الحاجة إلى كليهما.

أضحت واشنطن كما سوف أشرح في هذا الكتاب، موئلاً لحملات تجيش مستمرة، وميداناً للعبة سياسية لا نهاية لها، تستند إلى التلاعب بظلال الحقيقة، والحقائق المجتزأة، ولوي عنق الحقيقة، والتشويش عليها. أضحي الحكم ملحقاً بالسياسة بدلاً من أن يكون العكس هو الصحيح، وأصبح النصر الانتخابي والإمساك بزمام السلطة مقياس النجاح. وهذا يعني أن تقوم أنت بتصنيع القصة قبل أن تقوم هي بتصنيعك. لقد تمت تنحية الصدق والصراحة جانباً في معركة الهدف منها هو الفوز بأخر حلقات الأخبار.

بالطبع، لم يكن الخداع في السياسة يوماً أمراً جديداً. لكن الجديد في الأمر هو الدرجة التي يهيمن فيها هذا الخداع على خطابنا السياسي الوطني هذه الأيام.

كثير من هذا الخداع لا يكاد يبين، أو يبدو غير مؤذٍ، أو يتم قبوله كجزء من النهج. لقد مورس معظم هذا الخداع بشكل لا شعوري أو بشكل ضمني من دون أن يكون هناك سوء

نية في فعل ذلك اللهم إلا بما يخدم النزعة إلى التحكم في القرار في لعبة السلطة والنفوذ التي تتعاضم قوتها التدميرية يوماً بعد يوم.

بعض هذا الخداع هو خداع للنفس. أما أولئك المتورطون فيه فهم يقنعون أنفسهم بصواب ما يقولونه، بالرغم من أنهم في أعماقهم يعرفون أن ما ينقصهم هو الصدق والصراحة. فبدلاً من أن يُيقوا مناوراتهم السياسية خارجاً بعد انتهاء الحملة الانتخابية، فهم يُبقون عليها جزءاً من الطريقة التي تمارس فيها السياسة في واشنطن. أصبح الخداع الذي تنتجه واشنطن سرطانياً في خطابنا السياسي يدمر بشكل كبير قدرة زعمائنا المنتخبين على ممارسة الحكم بشكل فاعل، والقيام بما هو أفضل لخدمة مصالح أمريكا.

أصبح العديد من السياسيين وأتباعهم ملتزمين عاطفياً برؤية حزبية حول الحقيقة مقررّة سلفاً، ولا تسمح إلا بقدر ضئيل من التفاهم أو التعاون مع الطرف الآخر. أما الفواصل الرمادية للحقيقة، والتي لا تكاد تبين، فقد ضاعت بين (أيديولوجيات) «الأبيض والأسود» التي يعتنقها الحزبان الجمهوري والديمقراطي. وهكذا، فلا بد من أن ينتج عن كل ذلك انقسام دائم، وتزاحم خانق وعجز عام عن مواجهة التحديات الكبرى التي نواجهها بشكل بناء.

لا أعتقد أن جورج بوش كان قد انخرط في هذه الممارسات الهدامة عن سابق تصور وتصميم. لكنه اختار أن يمارس لعبة واشنطن كما وجدها عند تسلمه الرئاسة بدلاً من القيام بتغيير هذه الثقافة تنفيذاً لما تعهد به أثناء حملته الانتخابية لمنصب الرئيس، شأنه في ذلك شأن الكثير ممن سبقوه إلى هذا المنصب. وكما الآخرين ممن أتوا قبله، فقد انخرط إلى حد ما في عملية خداع للنفس، ربما كانت ضرورية من الناحية النفسية لتسويق الوسائل المطلوبة للفوز بالعبة السياسية.

توقع الحملة الدائمة وسائل الإعلام في شراكها بحيث تتحول هذه الأخيرة إلى شريك تحريضي في عملية الاستقطاب التي تمارسها هذه الحملة. فهي تؤكد على الصراع

والجدل والسلبية، وتركز ليس على التأثير الذي تحدثه السياسات في العالم الحقيقي والحقائق الأشمل التي تنطلق منها، بل على مظاهر السباق المحموم في السياسة - حول من هو الفائز، ومن هو الخاسر، ولماذا.

حاولت عبر التدقيق في هذه الأعراض والطريقة التي أدت فيها إلى انهيار واحدة من الإدارات الرئاسية على الأقل، أن أسهم في زيادة فهمنا لثقافة الخداع في واشنطن، وكيف يمكن لنا كشعب أمريكي، أن نقوم بتغيير هذه الثقافة.

بالرغم من أن الوقت الذي أمضيته في البيت الأبيض في عهد بوش لم يحقق لي ما كنت أصبو إليه، فإن تفاؤلي بمستقبل أمريكا قد أصبح أكثر قوة. لقد التقيت الكثير، الكثير من الناس التواقين إلى إجراء تغيير إيجابي والجاهزين لتكريس حياتهم وطاقاتهم من أجل مستقبل بلادنا. وما زلت أؤمن بكلمات قالها الحاكم - آنذاك، بوش تؤكد أنه من الممكن إثبات أن «السياسة بعد انقضاء زمن على تلطخ المثل، تستطيع أن تكون أفضل وأكثر سموًا». أنا مقتنع بأننا لو أمعنا النظر في السبب الذي أدى إلى انحراف نظامنا، وفكرنا بجدية في مسألة إصلاحه، فلن يكون هناك ما لا نستطيع تحقيقه.

أمل أن يقدم هذا الكتاب إسهاماً في النقاش الدائر على الصعيد الوطني.

سكوت ماكليان

نيسان، إبريل، 2008

1

فضيحة على قياس واشنطن

كانت الإدارات الرئاسية على امتداد التاريخ الأمريكي تمر بأوقات عصيبة تكتنفها الحروب والفضائح. حدث أن أصبحت السكرتير الصحفي للبيت الأبيض في وقت كانت إدارة الرئيس بوش تعاني من الاثنتين معاً، وكانتا مرتبطتين مع بعضهما بعضاً ارتباطاً وثيقاً.

في أواخر شهر أيار، مايو سنة 2003، عندما طلب إلي الرئيس أن أبدأ مهامى ناطقاً رئيساً باسم البيت الأبيض اعتباراً من شهر تموز، يوليو، لم يدر في خلدي وجوب أن أحسب حساب الكم الهائل من السُميّة وروح الخصام السائدتين في واشنطن - أو مدى اللفظ والاستقطاب اللذين ستكون إدارة بوش على وشك أن تنساق إليهما.

بحلول شهر تشرين الأول، أكتوبر، أي بعد أقل من ثلاثة أشهر على استلامي مهامى الجديدة، وجدتني في الخطوط الأمامية مدافعاً عن «بيت أبيض» أصبح محاطاً بفضيحة تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم عشية بدء حملة إعادة انتخاب الرئيس؛ لقد أدت هذه الفضيحة إلى زيادة صخب العداء لنا من قبل بعض وسائل الإعلام، وإلى انقضاخ نقادنا الحزبيين علينا. أما بالنسبة لعامة الشعب الأمريكي الذي بدأ يتململ من التحقيقات التي لا نهاية لها في الأفق، والفضائح المرتبطة برئاسة كلينتون، فقد كانت هذه الحال تكريساً لأسوأ ما رأوه في واشنطن.

أما القصة التي تسربت إلى صحف واشنطن فقد كانت تتمحور حول كيف أن البيت الأبيض نزع الغطاء بشكل متعمد عن (فاليري بليم)، العميلة السرية التي تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. قام بعض من موظفي الإدارة الذين لم يتم الكشف عن هوياتهم بتسريب هويتها إلى صحفيين بغية معاقبة زوجها (في أسوأ الأحوال) أو

تدمير مصداقيته (في أفضلها) وهو جوزيف ويلسون، السفير السابق الذي صرح في العلن أن الإدارة ضللت البلاد في جرها إلى حرب في العراق. أشارت بعض القصص الإخبارية إلى أن مساعدين في البيت الأبيض هم من قام بكشف هوية بليم أمام خمسة من الصحفيين على الأقل. كان الجهد المنسق الذي رتب له البيت الأبيض في كشف هويتها يعني أن الموظفين المتورطين في هذه العملية، على علم منهم، أو من دون علمهم، قاموا بتسريب معلومات سرية تخص الأمن القومي.

بعد الإعلان عن البدء في التحقيق الجنائي الذي تقوم به وزارة العدل في التاسع والعشرين من شهر أيلول، وعلى مدى أسبوعين، كنت أرفض بشدة فكرة أن يكون البيت الأبيض وراء مثل هذا التسريب. وكنت قد نفيت قبل ذلك أي تلميح إلى احتمال أن يكون زميلي من تكساس كارل روف، الذي غالباً ما كان مستهدفاً من قبل منتقدينا بصفته أقرب مستشاري الرئيس متورطاً في عملية التسريب تلك. بعد ذلك قمت بإضافة كبير موظفي نائب الرئيس سكوتر ليبى إلى قائمة من قمت بالدفاع عنهم.

ومع حلول موعد اللقاء الصحفي في البيت الأبيض بتاريخ العاشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر، كنت أبحث عن طريقة أتجنب بواسطتها التعليق على أي نقاط محددة تتعلق بقضية بليم، والتي أصبحت الآن جزءاً من موضوع التحقيق الذي تم الإعلان عنه مؤخراً. وكان المدخل الذي كنت أبحث عنه قد جاء على مشارف نهاية لقاء يوم الجمعة على شكل سؤال وجهته لي فيكتوريا جونز وهي صحافية إذاعية لطيفة لكنها متشككة، وتدير برنامجاً حوارياً ليبرالياً النزعة، ومن المنتقدين لإدارة بوش.

قالت جونز: «قلت لنا يا سكوت في بداية هذا الأسبوع إن أياً من كارل روف واليوت أبرامز ولويس ليبى لم يقم بالكشف عن أي معلومات سرية ذات صلة بعملية التسريب. هل لك أن تطلعنا فيما إذا كان أياً من هؤلاء قد أبلغ أحد الصحفيين أن فاليري بليم كانت تعمل لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية؟».

كنت جاهزاً للإجابة عن مثل ذلك السؤال: «سبق وأن تحدثت إلى هؤلاء الأشخاص: وكما أخبرتكم سابقاً، أكد لي هؤلاء الأشخاص أنهم غير متورطين في هذه القضية. وهذا هو الموقف الآن».

دخل صحفي آخر على خط النقاش طالباً التوضيح: «لم يكونوا متورطين في ماذا؟» أجبت: «في تسريب معلومات سرية».

كان ما قلته نهائياً ومحددأ - تماماً كما أردت له أن يكون.

كنت أختار كلماتي بعناية. فبينما صدقتُ ما قاله لي كل من روف وليبي، لم أكن على ثقة لا يشوبها الشك في أن ما قالاه لي كان صحيحاً. لذلك تعمدت أن أبقى الكرة في ملعبهما عبر عبارة أنهما «أكدا لي» عدم تورطهما في هذه القضية. كانت هذه العبارة بمثابة جدار من نار صممته لحماية مصداقيتي في حال أصبحت الحقيقة أكثر تعقيداً - أو اختلافاً - عما كنت قد أخبرتُ به. لم يكن هذا يعني أنني كنت أتوقع ذلك؛ ذلك أنني كنت واثقاً حينها أن الرئيس أو نائبه لا يمكن لهما أن يطلبوا إلي أن أضلل الجمهور عمداً.

كانت التأكيدات العلنية التي أطلقتها من على المنصة يوم العاشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر، آخر التعليقات التي تنكر أن يكون لروف أو وليبي أي ضلع في الكشف عن اسم عميلة سرية تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، كما كانت آخر تعليقاتي حول أي قضايا أخرى يمكن أن تشكل جزءاً من التحقيقات الجنائية التي أفرزتها قضية تسريب اسم بليم.

كانت هناك مشكلة واحدة فقط. ما كنت قد قلته لم يكن صحيحاً.

قمت بإعطاء معلومات كاذبة من دون أن أقصد ذلك؛ ذلك أن خمسة من كبار المسؤولين في الإدارة كانوا متورطين في ما كنت قد أنكرته: روف، وليبي، ونائب الرئيس تشيني، وكبير موظفي الرئيس أندرو كارد، بالإضافة إلى الرئيس نفسه.

كانت العبارات الكاذبة التي تفوهت بها في لقاء يوم الجمعة ذاك، وعلى امتداد السنتين اللاحقتين لمهمتي كسكرتير صحفي تعد تصريحاً عن موقف البيت الأبيض

الرسمي حول قضية بليم. لم يكن يدور في خلدي إلا اماماً حينها، أن ما صرحت به، والخداع والتضليل اللذين كانا يتضمنان هذا التصريح، سيكون بمنزلة إنهاء لمهمتي ككبير الناطقين باسم الرئيس.

لقد سمحت لنفسي أن أكون هدفاً للخداع عبر تسويق غير مقصود للزيف. وكانت هذه المسألة حاسمة في عدم تمكيني من القيام بمهامي تجاه الرئيس بشكل فاعل.

لم يتبين لي أن ما قلته لم يكن صحيحاً إلا عندما بدأت وسائل الإعلام بتفنيده بعد سنتين تقريباً. أنا على يقين من أن الرئيس نفسه لم يكن على اطلاع على ذلك. لقد تم خداعه هو أيضاً، وهو بذلك تورط بشكل غير مقصود في خداعي أنا. لكن كبار المسؤولين في البيت الأبيض الذين كانوا يعرفون الحقيقة - بمن فيهم روف، وليبي، وربما نائب الرئيس تشيني - سمحوا لي، وحتى شجعوني على تكرار هذه الكذبة وتسويقها.

عندما بدأت الحقيقة تظهر تباعاً، كانت مصداقيتي ناطقاً باسم البيت الأبيض قد تلطخت جداً - وكانت هذه تجربة مؤلمة جداً بالنسبة لي.

أنا ألوم نفسي. فقد سمحت لنفسي أن أتعرض للخداع؛ إلا أن سلوك الرئيس وكبار مستشاريه كان أكثر مدعاة لخيبة الأمل.

خلال سنتي 2003 و2004، اختار البيت الأبيض أن يجانب الصراحة والصدق فيما يتعلق بفضيحة بليم؛ وقرر بدلاً من ذلك أن يشتري الوقت، وأدار أحياناً أذنًا صماء متذرعاً بالتحقيق الجاري كتعليل للصمت الذي التزم جانبه. كان الهدف من ذلك منع حدوث أي إحراج سياسي يمكن أن يعرض الرئيس للأذى، ويضعف من فرص إعادة انتخابه في تشرين الثاني، نوفمبر، سنة 2004. كان الدافع إلى ذلك مفهوماً، لكن السلوك كان خاطئاً - وشكل في نهاية المطاف هزيمة للذات. ولو أمعنا النظر قليلاً في ما حدث، لكان من السهولة بمكان تبيان أن ما حصل كان يشكل واحدة من سمات إدارة غالباً ما اختارت في اللحظات الحاسمة أن تستخدم التشويش والسرية بدلاً من الصدق والصراحة.

وبينما بدأت التأمل في حادثة التسريب هذه -وهي واحدة من أهم الحوادث التي مرت بي خلال فترة شغلي لمنصب السكرتير الصحفي- فإن رأيي في واشنطن بدأ يتكون أكثر من أي وقت مضى. فما كنت شاهداً عليه، وما بدأت التحقق منه في الوقت الذي كانت الأضواء مسلطة عليّ -حتى ما بعد هذه الحادثة- كان الحقيقة الأكبر، والأكثر مدعاة للحزن. إذ لم يقتصر الخداع على حادثة معزولة، أو حتى على البيت الأبيض في عهد بوش. فقد تغلغل في مفاصل خطابنا السياسي الوطني. وبينما كان الكم الأكبر من هذا الخداع عَرَضياً، ولم يكن قادتنا المنتخبون يمارسونه بشكل شعوري، فقد أضحى طريقاً مقبولة لكسب الحروب الحزبية أمام الرأي العام، وجزءاً هداماً تزداد وتيرته في ثقافة واشنطن. عندما قدمت إلى واشنطن عضواً في الإدارة الجمهورية، كنت أظن أن عقلية التلاعب السياسي كانت بشكل رئيس من صنع أسلافنا في البيت الأبيض في عهد الرئيس كلينتون، وأن الرئيس الذي كنت أعول عليه كثيراً، وأعني به جورج بوش، كان مصمماً تماماً على تغيير هذا النهج. لكنه اختار أن لا يقوم بذلك. بدلاً من ذلك، انغمست إدارته بالمناورات السياسية التي كانت لا تقل سوءاً، إن لم تكن أسوأ من سابقتها، وأكثرها كان يتعلق مباشرة بأكثر قراراته ارتباطاً بهذا الأمر - وأعني به قرار غزو العراق.



كتب الكثير عن حادثة تسريب المعلومات في قضية بليم على امتداد السنين القليلة الماضية، لدرجة أن الكثيرين ومن بينهم نحن الذين كنا جزءاً من عملية كشف هذه الأحداث، يجدون صعوبة في إعادة تركيب التفاصيل المتعلقة بالكيفية التي بدأت فيها هذه القصة. دعوني أعرض عليكم هذه التفاصيل.

كان اللفظ الهائل الذي أدى في نهاية المطاف إلى فضيحة التسريب قد بدأ بالتأكيد على الجهود العراقية الرامية إلى الحصول على كميات من اليورانيوم المركز والقابل للانشطار - وهو ما أطلق عليه وصف الكعكة الصفراء - من دولة النيجر الواقعة في غرب إفريقيا. استناداً إلى الوثائق التي اعترفت وكالة المخابرات المركزية فيما بعد أنها كانت مزورة، شكل هذا الزعم أحد العناصر التي استندت إليها الإدارة في جهودها سنة 2002 لإظهار أن نظام صدام حسين كان يسعى بشكل نشيط لإعادة بناء برنامج النووي الذي

تم صرف النظر عنه سابقاً، وأنه يمتلك ترسانة من الأسلحة البيولوجية والكيميائية. ولجملة هذه الأسباب، بالإضافة إلى الدعم الذي كان هذا النظام يقدمه للإرهاب، فقد قال الرئيس إن العراق كان «يشكل خطراً كبيراً وامتزائداً» على السلام في الشرق الأوسط وحتى على أمن الولايات المتحدة. كان هذا النقاش حول أسلحة الدمار الشامل النقطة الجوهرية التي بنى عليها رأيه في أن الولايات المتحدة محقة في قيادة حلفائها وكذلك الأمم المتحدة باتجاه شن حرب وقائية على العراق.

في خريف سنة 2002، وبينما كان الجدل محتدماً في واشنطن وفي العالم حول ما إذا كان شن حرب على العراق ضرورياً، طلب الكونغرس تقويماً استخباراتياً وطنياً حول وضع برنامج العراق لأسلحة الدمار الشامل. يمثل التقويم الاستخباراتي الوطني الرؤية الجماعية لكافة الوكالات المعنية التي تشكل المجموعة الاستخباراتية الأمريكية. أوضح التقويم الاستخباراتي الوطني في شهر تشرين الأول سنة 2002، بعنوان «برامج العراق المستمرة لإنتاج أسلحة الدمار الشامل» أن العراق «يحاول بشكل نشط الحصول على اليورانيوم الخام وعلى الكعكة الصفراء» (كانت عبارة «الكعكة الصفراء» تشير إلى المزاем المتعلقة بدولة النيجر). بناء على هذا التقويم الاستخباراتي الوطني، ولو بشكل جزئي، صوّت الكونغرس بأغلبية ساحقة، ومن كلا الحزبين، بتاريخ الحادي عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2002 بتفويض القائد الأعلى للجيش للقيام بعمل عسكري ضد العراق.

كانت النقلة اللاحقة في تطور مسألة اللفظ حول موضوع النيجر تتجسد في خطاب الرئيس عن حال الاتحاد سنة 2003 الذي ركز فيه بشكل رئيس على الخطر الذي يمثله العراق. ألقى الرئيس ذلك الخطاب في الوقت الذي كانت تتصاعد الاستعدادات الدعائية والعسكرية للغزو، وبينما كان صدام يستمر في تحديه للمطالب الصادرة عن مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة.

بعد أن تحدث بشيء من الاستفاضة حول سعي النظام العراقي الدؤوب والمستمر لامتلاك الأسلحة البيولوجية والكيميائية، بالإضافة إلى صلته بالإرهاب، فقد لمح

الرئيس باختصار وبطريقة تتم عن التشاؤم، إلى الزعم الأكثر مدعاة للخوف - بأن ذلك النظام يسعى باتجاه تطوير برنامج متقدم للأسلحة النووية. كان الرئيس قد ذكر سابقاً أن بإمكان العراق بناء قنبلة نووية «خلال سنة» إذا ما تسنى له الحصول على المواد الضرورية مثل اليورانيوم. الآن، نطق بما أصبح يعرف لاحقاً بـ «الكلمات الست عشرة» - وهي الإشارة الشخصية الأولى له إلى مسألة الزعم حول موضوع اليورانيوم النيجري: «تبين للحكومة البريطانية أن صدام حسين سعى مؤخراً إلى امتلاك كميات كبيرة من اليورانيوم من أفريقيا».

أضحت الكلمات الست عشرة تلك، السلسلة المترابطة لذلك اللفظ، والتي وجهت ضربة شبه قاصمة لمصداقية الرئيس وإدارته.

وبينما استمر الدفع باتجاه الحرب، تابع الرئيس مع آخرين من إدارته الترويج للحرب ضد العراق. ونظراً لأن شعبية وزير الخارجية كولن باول عند الحزبين كانت عارمة، بالإضافة إلى استقامته وأخلاقه التي لا يرقى إليهما الشك، فقد وجد البيت الأبيض أنه الشخص الأكثر منطقية وقدرة على الإقناع، وأفضل من يمكن أن يسهم في وضع حدٍ للجدل الدائر حول هذه القضية داخل الولايات المتحدة وخارجها. وعلى هذا الأساس، قام باول في الخامس من شباط، فبراير، بتقديم عرض أمام مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة حول الجهود العراقية الرامية إلى تطوير وتخزين أسلحة الدمار الشامل. لم يتضمن هذا العرض إشارة إلى المزاغم بشأن مسألة النيجر. فبعد أن قام بالتدقيق في المسألة من الناحية الاستخباراتية، اختار باول أن لا يستخدم هذه الورقة - وكان اختياراً حكيماً وموحياً في آن، كما تبين لاحقاً.

ومع ذلك، بقيت هذه المزاغم من أكثر الدلائل تأثيراً في الرأي العام فيما يتعلق بحجة الإدارة لشن الحرب؛ ذلك أن التهديد باستخدام السلاح النووي في هجوم عراقي كان يبدو أكثر إثارة للرعب بين معظم الأمريكيين من الهجوم المستبعد أكثر. بواسطة الأسلحة البيولوجية أو الكيميائية على التراب الأمريكي. لهذا السبب تصدرت كلمات مستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس عناوين الصحف في الثامن من أيلول: «تكمن المشكلة هنا

في أنه سيكون هناك نوع من الترقب الدائم حول المدة التي سيستغرقها [صدام] للحصول على الأسلحة النووية. لكننا لا نريد أن يتحول دخان المدفع إلى غمامة من الفطر».

إذاً، بينما كانت أمريكا على وشك شن الحرب، أصبحت المزاعم حول مسألة النيجر قضية ثانوية.

في السابع من آذار، مارس، سنة 2003، وقبل أيام من قيام الرئيس بإطلاق عملية تحرير العراق لنزع أسلحة صدام وقلب نظامه، قام محمد البرادعي المدير العام للجنة التفتيش والتدقيق للأسلحة النووية التابعة للأمم المتحدة، ووكالة الطاقة الذرية الدولية، بالإدلاء بتصريح كان له وقع الصاعقة، وذلك ضمن الملاحظات التي قدمها إلى مجلس الأمن: فالتقارير الاستخباراتية حول مسألة اليورانيوم ليست لها أي مصداقية، كما أنه «لا يوجد أي دليل أو أي إشارة ذات قيمة» تدل على أن العراق أعاد بناء برنامج لإنتاج الأسلحة النووية. ذهب أبعد من ذلك عندما أشار ضمناً إلى أن الوثائق التي استندت إليها المزاعم بشأن مسألة النيجر كانت مزورة: «استناداً إلى التحليل المعمق، توصلت وكالة الطاقة الذرية الدولية بالتعاون مع خبراء محايدين إلى الاستنتاج بأن هذه الوثائق التي شكلت أساس هذا التقرير حول صفقة يورانيوم جرى عقدها مؤخراً بين العراق والنيجر ليست صحيحة. وهكذا، فقد توصلنا إلى الاستنتاج بأن هذه المزاعم لا أساس لها من الصحة».

بعد ذلك بيومين اثنين، سأل تيم روسيت مقدم برنامج «واجه الصحافة» Meet the Press على محطة NBC الوزير باول عن الملاحظات التي أدلى بها البرادعي، ذكر باول في معرض إجابته أن المعلومات الواردة حول صفقة اليورانيوم قدمت لنا بحسن نية، وأنه إذا تبين أن هذه المعلومات خاطئة، ف«لا بأس»، لكنه أكد لروسيت أن الموضوع ما زال قضية مفتوحة على الاحتمالات كافة وخاضعة للتحقيقات. ثم تابع بعدها تكرار نقطة أخرى رئيسة بالنسبة إلى الإدارة وتتلخص في أننا قللنا في السابق من شأن قدرات العراق النووية. وحذر باول من «أنه يتوجب علينا أن نكون أكثر حذراً بشأن برامج الأسلحة النووية». «شاهدنا كيف أن وكالة الطاقة الذرية الدولية أعطت للعراق ما يشبه

صك البراءة في أوائل التسعينات من القرن الماضي. لتكتشف فيما بعد أن لديهم برنامج أسلحة نووية نشط، لم يكتشفوها حينها».

كان باول محقاً في ما قاله من أن تقارير المخابرات السابقة قللت من أهمية التهديد الذي كان يشكله نظام صدام حسين. وقد أكدت ملحوظاته تلك على انعدام الثقة من قبل العديد من الموظفين الأمريكيين، في وكالة التفتيش النووية التابعة للأمم المتحدة، وقد استخدم بعض موظفي الإدارة والبيت الأبيض غياب هذه الثقة لإقناع أنفسهم بدرجة عالية من اليقين أن النظام العراقي كان يشكل تهديداً حقيقياً ومنتزاعاً في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول.

على أي حال، لم يكن للشكوك حول دقة المزاعم المتعلقة بمسألة النيجر أهمية تذكر لإبطاء الزخم في الاستعدادات للمواجهة العسكرية. فمع حلول التاسع عشر من آذار، كانت الحرب مع العراق قد بدأت.

في مقالة نشرت في جريدة النيويورك بتاريخ الحادي والثلاثين من آذار مارس، ناقش سيمون هيرش وثائق النيجر وأطلق عليها من دون أي موارد صفة التزوير. وبالرغم من أن هيرش كان معروفاً بأرائه الليبرالية (ومن ثم لم يكن العديد من القابعين في الطرف المحافظ يلقي بالآرائه) فقد كانت وسائل الإعلام الرئيسية تعدّه صحافياً جاداً ذا صلات قوية مع بعض مراكز القرار السياسي، كما أن مقالاته تلك ألقت الضوء على شكوك حول وثائق النيجر.

الفكرة التي تقول إن إدارة بوش استندت في جزء من حجتها لشن حرب مثيرة للجدل إلى معلومات استخباراتية غير صحيحة هي فكرة قابلة للأخذ والرد؛ ذلك أن الأمريكيين يميلون إلى التسامح مع أخطاء ارتكبت بشكل غير مقصود، خصوصاً إذا كان ذلك ناتج عن إفراط في الحذر من احتمال خطر داهم في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول. أما إذا كان قادة الإدارة قد اختاروا بشكل متعمد تجاهل الحقائق في معرض تسويقهم للحرب، وإذا تعمدوا إخفاء الحقائق كي يجعلوا من قضيتهم أكثر قوة ومصداقية مما هي

عليه، وهذا أسوأ بكثير، فإن الأمريكيين لن يكونوا عندها متسامحين إلى تلك الدرجة. كان هذا هو الاتهام الجديد الأكثر فاعلية، والذي ظهر في واحد من أعمدة الرأي في صحيفة نيويورك تايمز في شهر أيار، مايو، سنة 2003 بقلم نيكولاس كريستوف الحائز على جائزة بوليتزر، والمناهض للحرب على العراق.

أبلغ «سفير سابق في إحدى الدول الإفريقية» لم يشأ أن يفصح عن اسمه، الصحفي كريستوف أنه قد تم إيفاده إلى النيجر للحصول على أجوبة عن أسئلة معدة من قبل مكتب نائب الرئيس حول طلب العراق الحصول على اليورانيوم. ذكر كريستوف أن «هذا الموفد الذي بقي اسمه طي الكتمان ذكر في تقريره إلى وكالة المخابرات المركزية، وإلى وزارة الخارجية أن المعلومات الواردة خاطئة بشكل لا لبس فيه، وأن الوثائق قد تم تزويرها. وقد انتشر فضح الموفد لهذا التزوير في أروقة الإدارة كافة، وبدأ أن هذا التقرير كان مقبولاً لدى أركان الإدارة - باستثناء أن الرئيس بوش ووزارة الخارجية استمرا في الإشارة إلى هذه الصفقة المزعومة».

كانت تلك عبارات قاسية كتبها صحفي ليبرالي شهير في صحيفة يعتبرها الكثيرون صحيفة التوثيق الوطنية. كانت الشكوك تحوم حول صدقية المزاعم بشأن صفقة النيجر منذ وقت طويل. لكن كريستوف يشير الآن إلى أن هناك ما هو أدهى وأمر - فلقد استخدمت الإدارة المزاعم حول صفقة اليورانيوم وهي تعلم أن هذه المزاعم «خاطئة بشكل لا لبس فيه».

كان الاتهام المحدد الذي أطلقه كل من كريستوف ومصدر معلوماته غير المعلن قد زاد من حدة اللفظ الذي كان قد انتشر بسرعة البرق والمتمثل في استخدام البيت الأبيض للمخابرات لاختلاق قضية أراد تسويقها للكونغرس والرأي العام لتسويغ خوضه الحرب على العراق. وفي الوقت الذي اجتاحت القوات الأمريكية العراق، فإن الكشف عن المخزون الهائل من أسلحة الدمار الشامل الذي توقع الجميع أن يتم الإعلان عنه لم يتحقق. وكرد فعل من قبل منتقدي الإدارة وخصوصاً من الحزب الآخر، بدأ هؤلاء بكيال الاتهامات إلى الرئيس بأنه قام بتضليل الأمة عن سابق تصور وتصميم إن بواسطة المبالغة، أو الضغط

على المخابرات لتبرير الحرب. في أفضل الأحوال، عبّر منتقدو الحرب على العراق عن اعتقادهم أن الرئيس لم يكن صادقاً مع الشعب الأمريكي. كانوا يعتقدون أن الرئيس ومستشاريه قد تجاهلوا، أو ضربوا عرض الحائط بكل التحذيرات والدلائل المتعلقة بعمل المخابرات كي يجعلوا من التهديد الذي يمثله العراق أكثر جدية مما هو عليه، وليخلقوا جواً من التوتر يؤدي بهم إلى كسب التأييد الشعبي المطلوب.

وفي الوقت الذي لم تبد وسائل الإعلام الوطنية اهتماماً فورياً بما كتبه كريستوف، فقد استرعت كتاباته اهتمام البيت الأبيض، وخصوصاً مكتب نائب الرئيس. وعلى نفس نمط ردة فعل البيت الأبيض في عهد كلينتون، الذي كان يسارع إلى الرد بسرعة وعدوانية على منتقديه، بدأ البيت الأبيض في عهد بوش باتخاذ خطوات للقيام بهجوم معاكس. وكان على نائب الرئيس تشيني الذي أصبحت سمعته ومصداقيته بالتحديد موضع تساؤل، وعلى مكتبه أن يأخذ دوراً قيادياً في هذه الجهود التي بدأت في أواخر شهر أيار، مايو، سنة 2003.

تحقق مكتب نائب الرئيس بسرعة عبر استفسارات أجراها مع وزارة الخارجية من هوية مصدر معلومات كريستوف الذي كان اسمه حتى الآن طي الكتمان. إنه السفير السابق جوزيف ويلسون الذي تم إيفاده إلى النيجر للتحقق من المزاعم بشأن صفقة اليورانيوم في كانون الثاني، يناير سنة 2002. تحت غطاء من السرية، بدأ كل من نائب الرئيس ومساعد الموثوق سكوتر ليبى بذل كل ما باستطاعتهما من جهد لتشويه سمعة ويلسون عن طريق بعض الصحافيين المختارين. وهكذا، ومن دون معرفة أي شخص آخر في ذلك البيت الأبيض المقسوم إلى دوائر صغيرة ضيقة مغلقة بالسرية -بمن فيهم رئيس أركان البيت الأبيض، ومستشارة الأمن القومي، ومدير وكالة المخابرات المركزية- قام الرئيس بنزع غطاء السرية عن أجزاء مهمة من المعلومات الواردة في التقييم الاستخباراتي الوطني الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2002 كي يستعملها كل من نائب الرئيس وليبي لهذا الغرض.

في الوقت نفسه، كان ليبى ومسؤولون رفيعو المستوى في الإدارة بمن فيهم نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج، وكارل روف، والسكرتير الصحفي حينها أري فليشر

يتقاسمون بشكل سري فيما بينهم جزءاً آخر من المعلومات السرية المتعلقة بالأمن القومي - وأعني بذلك هوية زوجة جو ويلسون، فاليري بليم، ودورها كموظفة في وكالة المخابرات المركزية في ترتيب رحلة ويلسون الاستقصائية إلى النيجر. كان الهدف من هذه التسريبات تشويه سمعة ويلسون عبر الخط من شأن تأكيدات العلنية أنه سافر إلى النيجر بترتيب من وكالة المخابرات المركزية بموجب طلب من نائب الرئيس. لكن دائرة الذين كانوا على اطلاع على هذه التسريبات كانت ضيقة جداً، كما أن بعض من اشترك في هذه التسريبات لم يكن يعرف أن هوية بليم كانت واحدة من أسرار الدولة.

كان يمكن أن تكون لهذه القرارات - أي قرار الدفاع عن الرئيس وشن حملة شعواء لتشويه سمعة جو ويلسون، وفضح دور زوجته في وكالة المخابرات المركزية كجزء من هذه الحملة - تأثيرات عميقة بعيدة المدى على مصداقية إدارة بوش.



في الوقت الذي كانت الجهود لتشويه سمعة ويلسون قيد التحضير، كنت ما أزال في منصب نائب السكرتير الصحفي. كان قد وقع الاختيار عليّ كي أخلف آري فليشر الذي عبّر عن نيته في ترك المنصب في منتصف شهر تموز، يوليو. ولذلك فقد كانت واجباتي منصبة في مكان آخر، ومن ثم لم يكن لدي أي اطلاع على الجهود الخفية لفضح هوية بليم وتشويه سمعة ويلسون. كان اللفظ الذي أحدثته الكلمات الست عشرة ما يزال في طور التشكل ولم يكتمل نموه إلا في أوائل شهر تموز، يوليو، سنة 2002، وذلك قبل نحو أسبوع من تسلمي مهام جديدة.

في ذلك الوقت، كنت كغيري من موظفي البيت الأبيض، أرى أن تأكيدات ويلسون ليست سوى تعبير عن هجوم لثيم ذي نكهة حزبية. لم يدر في خلدي أن هناك أي سبب يستدعي أن تكون الحرب موضع تساؤل، ولم أشعر بوجود أي سبب يدفعني شخصياً إلى التشكيك بدوافعها. كانت ثقتي كاملة بالأعضاء البارزين في الفريق الرئاسي، ولم أر أي سبب موجب للتشكيك في نزاهة الرئيس.

تبين لي بالطبع أن الإدارة كانت منشغلة بالتنافس مع منتقديها في كابيتول هيل، وفي الصحافة عن دور المخابرات في فترة ما قبل الحرب، وحول قضية الحرب نفسها. لكنني شعرت أنها ليست سوى جزء من اللعبة في واشنطن المعاصرة - حملة مستمرة بين الجانبين، كل واحد منهما يحاول تشكيل الرأي العام ونيل رضاه. وكنت أتصور أننا بكل بساطة نقوم بما يجب علينا القيام به - أي القيام بهجوم معاكس ضد الاتهامات اللئيمة للرئيس بأنه كذب بشكل متعمد كي يجبر الأمة إلى الحرب. احتلت الحرب الحزبية التي جرت في التسعينات من جديد مسرح الأحداث، وكانت وسائل الإعلام تتطلع إلى تغطية أخبار الطرفين المنتصر والمهزوم. غرقت الحقائق من جديد في لجة من اللفظ، بما في ذلك الكيفية التي اختلق فيها البيت الأبيض قضية الحرب.

كانت دراما السرية والخداع، والاتهامات، والاتهامات المضادة التي نتجت عن ذلك تمثّل على مسرح السلطة السياسية في واشنطن العاصمة. اكتشفت أن جزءاً من هذه المسرحية كان مثيراً، وبينما كانت السياسة هدفاً في حياتي بأقصى ما يمكن أن تسعفني ذاكرتي، لم يكن يدور في خلدي أبداً أنني سوف ألعب دور ممثل مساعد مشهور في هذه الدراما - ذات المغزى التاريخي - التي تحظى بجمهور عريض من المشاهدين.

2

جزء صغير من مشروع عظيم

هناك مسحة من المثالية عند العديد منا ممن يعملون في سلك السياسة، فتحن نتوق إلى وجود قائد عظيم - القائد الذي نتصوره رئيساً أسطورياً ذا شخصية قوية، متحرراً من الهفوات ونقاط الضعف الشخصية، وملتزماً بالنضال من أجل المثل العليا وتجسيد أكثر ما يمكن تجسيده من شخصية كاميلوت التي تمثل الحقيقة والجمال والصلاح في أبهى صورها.

لكن أغلبنا مشدودون بما يكفي إلى الواقع الذي يبين لنا أن قائداً استثنائياً كهذا موجود فقط في مخيلاتنا، ومع ذلك، فإننا نعلل أنفسنا بالأمال بقدوم ذلك القائد النادر المتمتع بمواهب استثنائية، وبجاذبية فريدة، وبالتزام مطلق بالنضال في سبيل المجد والحصول عليه بالطريق الصحيحة، وبشرف ونبل.

يخلد تاريخنا مثل تلك القيادات النادرة، يطل علينا من نُصَبِهِم الحجرية الهائلة الحجم في عاصمة الوطن كل من جورج واشنطن، وجيفرسون، ولينكولن. يحدقون في الفضاء عبر رؤوسهم المصنوعة من الغرانيت (مع تيدي روزفلت) في جبل روشمور رامزين إلى المثل الأمريكية: الحرية، والديمقراطية، والأمل، وتكافؤ الفرص لكل الناس من مختلف مناحي الحياة. تُبَجَّلُ ذكرى مارتن لوثر كينغ جونيور وذلك بسبب تحديه لأمريكا أن ترقى إلى مستوى مُثلها في المساواة والعدل للجميع.

وبينما كنت أرى جورج بوش القائد الأكثر جاذبية وإلهاماً في العالم عندما بدأت العمل لديه، كنت أعتقد أن لديه ما يكفي من هذه الميزات التي تؤهله كي يكون رئيساً جيداً، إن لم أقل رئيساً عظيماً. اعتقدت أيضاً أنه يمتلك تفهماً نادراً لما ينشده المواطن

العادي على امتداد أمريكا في شخصية القائد، وأنه ملتزم بمنحه إياه. وهكذا، فقد غمرني الإحساس بالحماسة عندما دعاني الحاكم آنذاك، بوش في كانون الثاني، يناير، إلى الانضمام إلى فريقه.

كنت جالساً أنتظر بشيء من التوتر في مكتب الاتصالات ذي الإطارات الخشبية بسقفه العالي داخل مبنى عاصمة الولاية ذي القبة الوردية اللون. عادت كارن هيوز من جديد وقالت: «الحاكم جاهز لاستقبالك» وبينما كنت ألج إلى ردهة الاستقبال الفسيحة المزخرفة خارج مكتب الحاكم، قمت بارتداء قناع اللعبة.

كان عقلي في تلك اللحظة في حال تركيز شديد، كما اعتاد أن يكون أثناء مباريات التنس التي كنت أخوضها عندما كان بمقدوري حينها أن أدفع بكل ما يمكن أن يشئت ذهني من حولي بعيداً عني - الناس وحركة الهواء والضجيج - وأركز بشكل كامل على الكرة وأرض الملعب. كنت أشعر بتدفق الأدرينالين مني. كان يتتابني مزيج من الإحساس بالثقة والقلق في الوقت نفسه. كانت لحظة من نوع خاص.

استمتعت بموقعي في السياسة التكساسية، ولم أشعر أبداً بالتوتر الذي يعد سمة السياسة في واشنطن. فلقد تبين لي أن الحرب الحزبية التي طغت على مشهد السياسة الوطنية في الجزء الأكبر من عقد التسعينيات كانت متعبة ومنفرة. لكنني عرفت أن هذا العرض المقدم لي من جورج دبليو بوش هو فرصة لا تحدث إلا مرة واحدة في الحياة، وتمثل في أن أكون جزءاً صغيراً من شيء عظيم. كان هذا العرض يساوي في عرف الرياضة الانضمام إلى فريق لكرة القدم لديه فرصة كبيرة للفوز بالكأس العظيمة، وربما لدخول التاريخ كواحد من أعظم الفرق.

ظننت أن أداء بوش كحاكم لولاية تكساس يؤكد أن لديه القدرة على تغيير الجو السياسي في واشنطن والقيام ببعض الإنجازات الكبيرة. وبالرغم من أنني كنت ملتزماً بالعمل في مكتب الحاكم، إلا أنني كنت في أعماقي أشعر بأن احتمال أن ألحق به إلى واشنطن يمكن أن يكون خياراً بالنسبة لي لو قرر خوض معركة الرئاسة والفوز بها كما توقع له الجميع.

كانت كارن هيوز مديرة مكتب بوش للاتصالات منذ أمد بعيد، ولقد تحدثنا سوياً عن إمكان انضمامي إلى فريق بوش بصفتي كبير الناطقين باسم مكتبه حين يصبح حاكماً. حان الوقت الآن كي يصادق على التوصية التي رفعتها إليه بهذا الشأن. كنا، أنا وبوش، نعرف بعضنا بعضاً منذ أن ترشح لمنصب الحاكم لأول مرة، ومنذ أن بدأت عملي كاستراتيجي سياسي شاب من تكساس، ولكن هذه المعرفة لم تكن بهذا العمق على المستوى الشخصي.

لم يكن قد قرر بعدُ رسمياً الدخول في السباق الرئاسي. لكن الجميع كانوا يعرفون أنه سوف يشرع في تطبيق خطة محكمة بهذا الشأن، حتى لو تحدث علناً عن ذلك أعضاء من داخل فريق بوش. كان كبير مستشاريه السياسيين كارل روف غارقاً حتى أذنيه في عملية التخطيط الإستراتيجي للقيام بحملة على الصعيد الوطني. بعد ذلك بمدة وجيزة، كانت كارن هيوز، مستشارته الإعلامية الأكثر وثوقاً، ستنضم إلى لجنة الرئاسة التجريبية تاركة وراءها مساعدة خبيرة وناطقة رفيعة المستوى وهي ليندا إدواردز التي كانت تمتلك إمكانيات صحفية قوية لكن كانت تنقصها الخلفية السياسية. تمت ترقية ليندا إلى مرتبة مديرة الاتصالات في مكتب الحاكم، بينما كان الموقع الذي طلب إلي أن أشغله هو نائب مديرة الاتصالات.

طلبت إلى كارن ملء الفراغ الذي سوف يحدثه غيابها الوشيك. وطالما أن بوش كان من المتوقع أن يدخل مضمار السباق الرئاسي إلى البيت الأبيض ويكون في المرتبة الأولى بين المتسابقين معتمداً في ذلك على اسم عائلته، وعلى نجاحه كحاكم لولاية تكساس، فإنه بالإضافة إلى سجله كحاكم، وسياساته سوف يكون موضع تمحيص مكثف من قبل وسائل الإعلام الوطنية. أرادت كارن أن تتأكد من أن مكتب الاتصالات الحكومي التابع له، والذي سيكون في الطرف الآخر المتلقي، يحتوي على الخبرة السياسية والحس المرهف المطلوبين من أجل معالجة الهجوم المتوقع من قبل وسائل الإعلام الوطنية التي تمثل مراكز القوى.

قبل أسابيع قليلة على ذلك، قال ريغي بشور، وهو باحث ذكي في الشؤون الإستراتيجية سبق له أن أشرف عليّ في الفوز بثلاث حملات انتخابية قمت بإدارتها على مستوى الولاية: «لقد كان رجال الحاكم يقومون بمراقبتك. إنهم يبحثون عن ناطق رئيس ذي خلفية سياسية. إنهم يرغبون بالتحدث إليك، إذا كانت لديك رغبة في ذلك».

لم يكن قد مضى سوى عدة أيام على انتهائي من الإشراف على حملة لصالح والدتي للفوز بمنصب مهم، وهو منصب مراقب الحسابات في ولاية تكساس سنة 1998 كان التنافس فيها محموماً، وكانت والدتي في المراتب الأخيرة في هذه الحملة، وكان مفاجئاً أن تفوز هي بهذا المنصب؛ حينها لم أفكر في واقع الأمر في ما سيكون آتياً بانتظاري. كانت قوانين محاسبة الأقارب تمنعني من الالتحاق بوالدتي في وظيفتها الجديدة، وكان تركيزي المباشر يتمثل في مساعدتها أثناء الفترة الانتقالية للقيام بواجباتها الجديدة: مثل إدارة طاقم واحد من المكاتب الكبيرة في الولاية؛ والإمساك بزمام خزانة الولاية بما في ذلك ميزانيتها خلال سنتين والتي تفوق 80 بليون دولاراً؛ والقيام بتقديرات مالية حول تكلفة التشريعات؛ والتصديق على كمية الأموال التي يمكن للمشرعين في الولاية إنفاقها، من ضمن أشياء أخرى. كان الهدف من كل ذلك مساعدتها في اختيار مستشارين رئيسيين يمكن الوثوق بهم.

كان (ريغي بشور) يلوح باقتراح ليس من السهل مقاومته. أخجلت كلماته تواضعي. فلقد كنت أحب الحاكم. كان من السهل دائماً أن تتحدث إليه، وكان واقعياً جداً، وبدأ لنا أنه شخص صادق عندما كنا نقوم بزيارته. قدرت كثيراً أسلوب قيادته التي تجاوزت حدود القضايا الحزبية، والفريق الرائع الذي جمعه حوله كي يضع خطته موضع التطبيق، لكنني لم أكن أتصور يوماً أنني سأصبح جزءاً من هذا الفريق. فقد كان أعضاء فريق بوش على درجة عالية من الذكاء الضمني، وكان يبدو عليهم التواضع، كما كانوا يظهرون التزاماً بخدمة قضية أكبر من مصالحهم الشخصية - وهذا ما يفسر حسن علاقاتهم مع بعضهم بعضاً. أن يكون المرء ضمن هذا الفريق كان يعني الانتماء إلى أفضل مجموعة مواهب في الولاية. وكان العمل لدى بوش أقصى ما يحلم به المرء في مجال السياسة بولاية تكساس.

الآن، عندما دخلت إلى مكتب بوش في مستهل الجلسة التشريعية التي تلت إعادة انتخابه حاكماً للولاية بنسبة ساحقة، انتابني إحساس عارم بالتواضع والامتنان: وتساءلت: لماذا وقع اختيار حاكم تكساس المتمتع بالتأييد الشعبي، والذي من الممكن جداً أن يصبح الرئيس القادم للولايات المتحدة، عليّ أنا من بين كل الناس؟

كانت أضواء المكتب الكبير المستطيل الشكل خافتة، وكان مكتب الحاكم في أحد أطراف المكتب، وكانت مقابله في الطرف الآخر مجموعته من كرات البيسبول الموقّع عليها، وإلى جانب كرات البيسبول، كانت هناك أريكة، وزوج من الكراسي، وطاولة صغيرة. كان هناك أيضاً رسم لسام هوستون الشهير، الذي كان رئيساً لجمهورية تكساس وحاكماً لتكساس كولاية، بعد انضمامها إلى الاتحاد؛ وهو يرتدي ثوباً فضفاضاً على الطراز الروماني وإكليلاً من الغار شبيه بذلك الذي كان يضعه قيصر روما القديمة - ولم تكن أبداً تلك هي الطريقة التي يتخيل معظم أهالي تكساس أن تكون عليه صورة حاكمهم، خصوصاً في السنوات الأولى على تحول تكساس إلى ولاية. اعتاد بوش أن يمازح سلفه بالإشارة إلى الرسم كدرس للقادة السياسيين بأن يكونوا يقظين حول ما يوافقون على القيام به.

كان الحاكم مسترخياً في كرسيه وظهره إلى الوراء، وكان يضع رجلاً فوق أخرى. كان هذا هو الوضع التقليدي في الاسترخاء الذي كنت سأشاهده عليه مرات كثيرة في السنين القادمة.

رحب بي بوش بطريقة تتم عن روح طيبة: «كيف حالك يا سكوت؟ تفضل بالجلوس».

أجبت: «يشرفني أن أكون هنا يا سعادة الحاكم».

قال إنني موجود هناك لأن مواهبي لفتت الأنظار.

تحدثنا قليلاً عن والدتي، وعن حملتها الانتخابية، وكال لي المديح بسبب الطريقة الممتازة التي أدت فيها حملتها.

قلت: «كل ما فعلته أنني ابتعدت عن طريقها».

ضحك ضحكة خفيفة لأنه فهم ما كنت أرمي إليه، ثم عقب قائلاً: «كان هذا ذكاء منك».

والدتي هي شخص في منتهى الحيوية. وذات شخصية قوية من الطراز الأول وتمتلك طاقات غير محدودة، تماماً كالمرأة التي كانت تحاول أن تضمني إلى فريق بوش. الفرق الأكبر بين المرأتين هو أن كارن كانت أطول بمقدار قدم تقريباً من والدتي التي لا يتجاوز طولها إلا بالكاد، الأقدام الخمسة. كنت قد داعبت كارن بالقول إن العمل معها لن يشكل أي مشكلة نظراً لأن شخصيتها تشبه إلى حد بعيد شخصية والدتي. فكلتا هاتين قويتان وممثلةتان حيوية، وتناضلان من أجل الحصول على ما تريده، كما أن كليهما تتحدثان بسرعة.

كان بوش يعبر دائماً عن إعجابه بالنساء اللواتي يتمتعن بشخصية قوية بمن فيهن والدتي. كان يحب فيها حماسها وطاقاتها وكلامها الصريح. كما أحب ضالة حجمها وصرامتها. فقد تم انتخابها لتبوء منصب على مستوى الولاية في الوقت الذي انتخب بوش للمرة الأولى حاكماً للولاية، ونشأت بينهما صداقة منذ ذلك الحين.

أما أنا، فلم أكن أبدؤ أقل تحفظاً عن الصورة التي رسمت لوالدتي، ولكن ما كنت لأجلس حيث كنت في ذلك اليوم لولا أن والدتي طلبت إلي القيام بمساعدتها في الفوز في وظيفتها في سياسة الولاية.

سألني الحاكم بطريقة مباشرة: «لماذا تريد أن تعمل لدي؟»

قلت: «لأنتي مؤمن بك».

أسرع بوش إلى القول: «المسألة لا تتعلق بشخصي، بل بالأجندة».

قلت: «نعم يا سيدي، أنت محق، هذا ما أعنيه. أنا أوّمن بأهدافك، كما أوّمن بقيادتك. أنا معجب بالطريقة التي استطعت فيها إقناع الجميع من أجل إنجاز ما هو مطلوب».

تابعت شرح كيف أن أفراد جيلي انتابهم الملل من المشاحنات السياسية على المستوى الوطني، وكيف أنهم تواقون إلى وجود قادة يمكن أن يترفعوا عن الانتماءات الحزبية، تماماً كما كان بوش يفعل في تكساس في الوقت الذي كانت واشنطن تسير

في الاتجاه المعاكس. تحدثنا عن أسلوبه في الحكم والنفس الإيجابي الذي عمل على إطلاقه، وأهدافه (أجندته) الأكثر شمولية، وكيف أنه أحاط نفسه ببعض من أفضل وأذكي الأشخاص في تكساس للعمل في فريقه.

تحدث بوش بحماس عن أهدافه (أجندته)، وعن تركيزه على ضرورة الوصول إلى نتائج. قال إنه يؤمن بقوة أن برامج الحكومة التي تخدم هدفاً شرعياً يجب أن تمهد لها السبل كي تحقق النتائج المتوخاة منها.

من زاوية أشمل، كان السبب في اعتقاده أن «المسألة تتعلق بالأهداف الموجودة في الأجندة» يكمن في الدرس الذي تلقاه في مجال السياسة (والذي تعلمه من الفترة التي تلت رئاسة والده) والمتمثل في أن ما يهم هو النتائج. فالناس يحكمون على القادة، والتاريخ يذكرهم استناداً إلى النجاحات التي يحققونها. أكثر من أي شيء آخر. ومع مرور الوقت، وصلت إلى الاستنتاج بأن رؤية بوش للسياسة الوطنية تقضي بأن عامة الناس لا يكترون بالوسيلة التي ينتهجها القائد للوصول إلى هذه النتائج، سواء كانت تستند إلى قاعدة عريضة من الدعم من قبل الحزبين أم لا. وسواء كان المرء صريحاً ومباشراً في الأسلوب الذي اتبعه لتحقيقها أم لا. طالما تبين أن البرامج أثبتت نجاحها، فإن عامة الناس تميل إلى تذكر النتائج النهائية فقط، وليس الوسيلة التي اتبعها القادة في الوصول إليها. وفي الوقت الذي بدأنا العمل على اتفاق طويل الأمد، مبني على علاقتنا المهنية وعلى محبتنا لتكساس، لم يكن بمقدوري بعد، تقدير إلى أي مدى يمكن لهذا الرأي أن يطفئ، إيجاباً أو سلباً، على مقاربة بوش للحكم عندما يصل إلى واشنطن.

فيما بعد، تحدث عن بعض توقعاته بشأن الناطقين باسمه - أهمية أن يبقى واحد منهم ملتزماً بالرسالة الموكلة إليه، والحاجة إلى الحديث عما توافق عليه، وليس عما ترفضه، وكيف كان يحب أن يكون هو صانع الأحداث الكبيرة في الوقت الذي يحدده بنفسه من دون أن تكون هناك حاجة إلى أن يظهر الناطقون باسمه أمامه؛ وأخيراً، التأكد من أن البيانات العلنية يتم تنسيقها داخلياً بحيث يكون الجميع دائماً يتحدثون بصوت واحد، وأن لا يكون هناك سوى الحد الأدنى من المفاجآت.

أضاف بوش: «لم أتخذ بعد قراراً حول إمكان ترشيحي لمنصب الرئيس. ما زلت أفكر في هذا الموضوع. لكنك تملك حدساً سياسياً جيداً، وسوف أكون بحاجة إلى مساعدتك في مراقبة ما يدور حولي في هذا المكتب إذا قررت تلمس إمكان البدء في عملية الترشح».

أخبرته بأنني فهمت ما يعنيه، وعند هذه النقطة، أنهى هذا الحديث.

لقد اتفقنا. لم ارتكب أي خطأ جسيم. وهكذا فقد تم التعاقد معي.

بدا كل شيء في تلك اللحظة يميل إلى صالحني. فقد انضمت هنا، وفي هذا المكان إلى فريق يتبع قائداً ذا إنجازات كبيرة، وذا قدرة مجربة في تهدئة المياه الحزبية. لديه القدرة على لم شمل الناس وتحقيق نتائج إيجابية. لم يكن هناك في الأفق أي سبب يدعو إلى توقع أي شكل من أشكال خيبة الأمل.



كنت حينها في الثلاثين من عمري. ونظراً لأنني نشأت في بيئة سياسية على المستوى المحلي، وفي عاصمة تكساس، ولكوني عملت على مستوى الولاية مدة عقد تقريباً، فقد تبين لي أن السياسة غالباً ما تتحول إلى نوع من رياضة علاقات.

يمكن للانتخابات أن تكون لها روحية لئيمة. لكن مراقبة ما كان يجري في واشنطن في التسعينيات كانت تشبه الأسابيع الأخيرة من الحملات الانتخابية الحامية الوطيس التي تحولت إلى حملات سلبية لا نهاية في الأفق لها، تشن على شاشات التلفاز أسبوعياً، وعلى مدار الساعة.

كانت المداولات والحلول الوسط المقترحة، وهي عناصر مفصلية في عملية الحكم، خصوصاً في ظل ديمقراطية مؤسساتية وتمثيلية تطفئ على المشهد السياسي. كان من لديه أفضل الأفكار أو السياسات أقل أهمية بكثير من الشخص الذي استطاع كسب الرأي العام إلى جانبه. كانت الصراعات واللفظ والسلبية تحظى بتغطية متزايدة في وسائل الإعلام، كما استقطبت الأصوات الحزبية والأيديولوجية اهتماماً أكبر من الأصوات الداعية إلى الأخذ بالإجماع والبراغماتية العقلانية. وكأي عضو في الحزب الجمهوري،

كنت أميل إلى اعتبار الديمقراطيين أكثر صخباً وأقل عدالة في تكتيكهم، ولكن كان من الواضح أيضاً أن الحزبين يتحملان المسؤولية نفسها في تدهور المناخ في واشنطن حيث تبدأ منها الانتخابات، إلا أن الحملات فيها لا تتوقف أبداً.

أخذت رئاسة كلينتون فن الحملات الناجحة إلى مستويات جديدة غير مسبقة. فقد بدأ هذا النوع من الحملات أثناء انتخابات سنة 1992، عندما تعهد فريق كلينتون الذي كان بقيادة الثنائي الممتلئ نشاطاً وحيوية، والمكون من جورج ستيفانوبولوس وجيمس كارفيل بعدم السماح لأحد بالاستهزاء بمرشحهم أو الانتقاص من قدره أو إذلاله كما حصل مع مايكل دوكاكيس سنة 1988. قام نفر من الديمقراطيين الذين شنوا هذا النوع من الحملات الانتخابية الهجومية الفعالة بالاستيلاء على البيت الأبيض لصالح حزبهم للمرة الثانية فقط خلال سبعة انتخابات. ولسوء الحظ، عندما استتب الأمر لإدارة كلينتون داخل البيت الأبيض، واصلت هذه الإدارة إلى حد كبير، ممارسة الموقف نفسه الحزبي وتحطيم الخصوم، مستخدمة في ذلك أساليب لا أخلاقية كاللف والدوران، و«الرد السريع»، والتشويش، والمراوغة، والإخضاع بالإكراه وذلك بغية تشويه سمعة أولئك الذين يتحدثونها علناً.

في الوقت نفسه، رد الجمهوريون في الكونغرس بقيادة نيوت غينغريتش، الذين ألتمهم خسارة موقع الرئاسة بالأسلوب نفسه. فقد سعوا إلى نزع السلطات السياسية من يد الرئيس عبر الدفع بخطط أيديولوجية تحول كلينتون إلى أشلاء، وتهاجم أعضاء الكونغرس من الديمقراطيين بدلاً من محاولة التوصل إلى الدفع باتجاه طرق مشتركة بما يتماشى مع أولوياتهم السياسية. بعض ما قام به أتباع غينغريتش من أعضاء الكونغرس الجمهوريين كان ببساطة ينم عن تموضع سياسي ذكي، كما فعلوا في مسألة تطوير ما أسموه «عقد مع أمريكا» والتهيل له كمجموعة خطط (أجندة) متناسقة، ومجموعة من النقاط المشتركة التي يمكن التباحث بشأنها مع مرشحين للكونغرس كي يلتفوا حولها. ساعدتهم هذه المناورة في انتزاع سيطرة الديمقراطيين على مجلس النواب سنة 1994. لكن بعضاً مما فعلوه كان يستند إلى اتهامات مبالغ فيها بسوء الأمانة وانعدام الأخلاق والفساد مستخدمين في

ذلك ثقافة الفضائح السائدة في واشنطن كسلاح لمهاجمة كلينتون وحلفائه. بدا مهرجان الفضائح وكأنه لا نهاية في الأفق له: بدءاً بترافيلفيت، ووايت وتر، مروراً بالإف بي أي غيت، وقضية فينس فوستر، وقضية سجلات فواتير شركة روز القانونية، وبالطبع، انتهاءً بقصة مونيكا لوينسكي.

ربما تبدو بعض هذه الفضائح في نظر التاريخ من دون أي قيمة تذكر، وبعضها الآخر سوف يكون مزعجاً، إلا أنها لن تقيم الدنيا ولا تقعد لها. لكن تأثيرها على سياسة التسعينات كان واضحاً للعيان ولا خلاف عليه. أصبحت سياسة «الضربة القاضية» هي القاعدة. هناك فقط رابحون وهناك خاسرون. أما بالنسبة إلى وسائل الإعلام، فإن المسألة تدور حول من انتصر ومن هُزم. وأما بالنسبة إلى القادة المنتخبين، فإن الحقيقة التي تقبع في كواليس القصة لم تعد لها الأولوية؛ فالأولوية هي أن يكونوا في موقع الهجوم: فأنت إما أن تحبك خيوط القصة بطريقة تخدم فيها مصلحتك السياسية مع الشعب الأمريكي، أو أن تقوم بالرد بطريقة دفاعية على تلك القصة. وكما أظن أن هذا الكتاب سوف يبين لاحقاً، فإن هناك خطأ مباشراً يربط بين الأسلوب الذي يعتبر الحقيقة أمراً ثانوياً بالمقارنة مع تحقيق نصر سياسي، وبين التشويش والمراوغة وغياب الاستقامة الفكرية ساعداً في جر بلادنا إلى حرب ضد العراق.

لكن شيئاً مفايراً لهذا كان يحدث في تكساس في عقد التسعينات. فقد كان هناك حاكم جمهوري ذو شعبية عريضة يعمل بتفاهم تام مع نائب الحاكم الذي كان ينتمي إلى الحزب الديمقراطي، ومع رئيس مجلس نواب ديمقراطي للولاية من أجل المجيء بتشريعات وسياسات تلبي حاجات معظم سكان الولاية، وترضي رغباتهم، سواء كانوا من المحافظين أو من الليبراليين.

لم تكن هناك خصومة تذكر بين قادة الفرعين التنفيذي والتشريعي الحكوميين، ويعود الفضل في ذلك بدرجة كبيرة إلى تأثير النائب الديمقراطي للحاكم، بوب بولوك، وفهم بوش العميق لطبيعة السياسة في ولاية تكساس. لم تكن القضية تتعلق في من ينال الإطاراء على نتائج هذا التعاون. وكان من غير المقبول أو المسموح به ممارسة اللعبة السياسية

خلال الدورة التشريعية. فممارسة الحكم لم تكن مبنية على إقناع الناس أو بيع مواقف لهم بمقدار ما كانت مبنية على التشاور والاتفاق على حلول وسط بما يخدم مصالح ولاية تكساس بأفضل الطرق الممكنة. آمن معظم قادة الولاية بأنهم انتخبوا من قبل الشعب للقيام بذلك تحديداً، وأن عليهم العمل على الوفاء بالتزاماتهم تجاه ناخبينهم.

بعد انتخابه لمنصب الحاكم مباشرة، شرع بوش بمد يده إلى القادة الديمقراطيين، بمن فيهم بولوك القوي أملاً في أن يمارس الحكم على مبدأ المشاركة بين الحزبين. ينتخب الحاكم ونائبه في تكساس بشكل منفصل. كانت لبولوك جذور عميقة في حكومة تكساس كونه خدام سابقاً لأربع دورات كمراقب الحسابات، وكان يتمتع بنفوذ قوي. يمنح قانون تكساس سلطات كبيرة لنائب الحاكم ليتراأس مجلس شيوخ تكساس، حيث كان من صلاحياته تعيين رؤساء اللجان، وكان يقرر وجهة سير التشريعات، وكان له تأثير مباشر على مشروعات القوانين التي كان له إما أن يقرها أو يلغوها. كانت شخصية بولوك القوية كقوة تكساس نفسها، قد جعلت منه أكثر فاعلية من أي نائب حاكم عادي آخر.

لهذه الأسباب مجتمعة، عرف بوش أن بناء جسور الثقة والعلاقة الوثيقة التي تربطه إلى بولوك، بالإضافة إلى رئيس المجلس الديمقراطي بيت لينى، سيسكلان العامل الحاسم في تمرير أولوياته. غالباً ما كان الثلاثة يتحدثون، ويجتمعون بشكل روتيني مرة واحدة في الأسبوع على الأقل خلال مدة انعقاد الجلسة. بكل المعايير، أسس بوش لعلاقة زمالة قوية مع بولوك ولينى أكبر بكثير من تلك التي قامت بها سلفه الديمقراطي أن ريتشاردز.

قام بوش أيضاً بمد يد التعاون وبناء علاقات مع القادة الديمقراطيين الآخرين في السلطة التشريعية، خصوصاً ولكن ليس على سبيل الحصر، مع رؤساء اللجان الرئيسيين. ولم يكن مستغرباً من بوش أن يتوقف في مكتب أحد الأعضاء والقيام بزيارته من دون موعد مسبق. وعندما كان يحين موعد الانتخابات، لم يكن بوش يقوم بحملة ضد القادة الديمقراطيين القائمين على رأس عملهم من الذين عملوا معه وقاموا بمد يد المساعدة له لإنجاز أولوياته.

هذه المقاربة اللا حزبية أتت أكلها. ففي الحقبة الأولى له في الحاكم. استطاع بوش تمرير التعديل الأكبر على نظام التعليم في الولاية منذ عدة عقود، ودعم القوانين العدلية المتعلقة بالأحداث، ووضع الإصلاحات موضع التطبيق في ما يتعلق بالمعونة الاجتماعية وقضايا المحاكم، وهي قضايا جوهرية في حملته كحاكم للولاية.

القيادة تعني بالنسبة لي توحيد الناس حول هدف مشترك بدلاً من وضع حدود تفصل بينهم على أسس عقائدية (أيديولوجية)، وعلى هذا الأساس اعتبرت قيادة بوش ملهمة. فقد تحالف بشكل رائع مع بولوك وليني لبناء مقاربة للحكم، والمحافظة على ثنائية حزبية تعتمد على مبدأ الزمالة.

هل يمكن لقيادته أن تثمر عن حركة سياسية جديدة على المستوى الوطني أيضاً كما حصل في ولاية تكساس؟ العديد ممن ينتمون إلى جيل الشباب كانوا يتطلعون إلى تغيير كهذا. في المحصلة، أليس من واجب السياسة أن تمثل قضايا أسمى وأفضل مما قدمه لنا قادتنا في واشنطن؟ وبوجود القيادة الرئاسية الصحيحة، ألا يمكن لقادتنا المنتخبين أن يضعوا جانباً موضوع الإفراط في شن حملات انتخابية لا تنتهي وممارسة السياسات اللاذعة، ويعملوا معاً لخدمة مصالح أمتنا على أفضل وجه؟ كنت أؤمن بأن لديهم المقدرة على القيام بذلك، شأني في ذلك شأن العديد من الأمريكيين.

دائماً ما كنت أنظر إلى السياسة على أنها تؤدي إلى إحداث فرق إيجابي يصب في الصالح العام - وهذا الاعتقاد زرع في داخلي منذ سني حياتي الأولى. وكان هذا هو السبب في أنني، من جملة أسباب أخرى، اخترت مهنة في هذا الحقل. وكنت أعتقد لدرجة تشبه اليقين، أن جورج بوش يمكن أن يكون تجسيداً لما كنت أنا والعديد من الآخرين نتوق إلى تحقيقه: قائد كان باستطاعته أن يجعلنا نعتقد أنه من المجدي الذهاب إلى واشنطن في المحصلة - للتحقق من إمكانية تغيير السلوكيات التدميرية التي سيطرت عليها خلال حقبة التسعينات.

ركز بوش بصفته حاكماً على القضايا الكبيرة التي كان لها وقع إيجابي كبير على كل أهالي ولاية تكساس. وعندما كان الأمر يتعلق بقضايا خلافية مثل قضية الإجهاض على

سبيل المثال، كان يبحث عن أرضية مشتركة عبر تحديد الطرق العملية لتخفيض حالات الإجهاض مثل تقديم الدعم للمبلغين عن حالات الأبوّة، وتشجيع التبني. لم يبذل جهوداً من أجل قضايا صغيرة تؤدي إلى الانقسام، أو يختار كلماته بعناية كي يسعد مجموعة محددة من سامعيه، أو يسعى لوضع مجموعات من الناس في مواجهة بعضها بعضاً من أجل مكاسب سياسية.

توسعت شعبيته في تكساس لتشمل الطيف الديمقراطي، والمستقلين بالإضافة إلى الجمهوريين. وبوصول معدل الدعم الشعبي له إلى ما فوق السبعين بالمائة، فإن بوش استطاع جذب دعم واسع لقيادته، وسياساته، وطريقته في الحكم.

لقد كان سجله الناصع الحافل بالإنجازات التي تجاوزت الحدود الحزبية معلماً في حملته الانتخابية لمنصب رئيس الولايات المتحدة. ركزت شعارات حملتنا على ما هو فريد في شخص بوش. فقد كان «داعية وحدة» لا «داعية تقسيم»؛ كان يمثل «نموذجاً جمهورياً مختلفاً» عن نموذج غينفريتش، ومجموعته المتشددة ذات العقلية التي تنزع نحو المواجهة. لقد قدم خطة (أجندة) «محافظة مليئة بالرفق»، والتزم بتغيير النمط المر الذي يطبع واشنطن وذلك عبر جمع الجمهوريين والديمقراطيين لحل المشكلات الكبرى.

جعل بوش من القيادة مسألة مبدأ، ومن الثنائية الحزبية سجلاً، كما أن (الأجندة) المحافظة المليئة بالرفق تبعث في نفسي الكثير من الأمل، كما في نفوس أولئك الذين سادعوهم قريباً جداً زملائي - زملائي من أعضاء فريق بوش.

لهذا السبب كنت هناك، أمسك بتلابيب فرصة العمر التي لا تتكرر في أن أكون جزءاً من مشروع عظيم - لأنني آمنت أن السياسة باعتبارها مبدأ، يمكن أن تكون أفضل بكثير من السياسة الممارسة يومياً. لا عجب إذاً أن أكون في غاية السعادة والتواضع كوني تعاقدت للعمل لدى جورج دبليو بوش.

3

النشأة في عالم السياسة

يختار العديد من الناس الانخراط في العمل السياسي كطلبة نشطين في الجامعة، أو كمواطنين من الأجيال الشابة المهتمين بقضايا مدنية، أو كأشخاص متوسطي العمر المهتمين بقضايا مجتمعاتهم. القليل منهم، مثلي، يولدون والسياسة تجري في عروقهم. فلقد انخرطت في العمل السياسي بشكل أو بآخر، منذ نعومة أظفاري.

كانت والدتي نموذجاً طليعياً للنساء في حقل السياسة. ففي سنة 1972، عندما كنت أبلغ من العمر أربع سنوات، تم انتخابها لعضوية مجلس أمناء مدرسة أوستن. بعد سنين قليلة، أصبحت أول امرأة تتبوأ مقعد رئاسة المجلس. ومع اقتراب انتهائي من الدراسة في الصف الثالث الابتدائي انتخبت كأول امرأة لمنصب محافظ مدينة أوستن، وأعيد انتخابها ثلاث مرات متلاحقة مدة كل منها سنتين في سابقة لم تشهدها المدينة من قبل.

أذكر أنني ذهبت إلى مؤتمر محافظي الولايات المتحدة في مدينة أتلانتا بولاية جورجيا مع والدتي وأخويّ التوأم الأكبر مني سنأ خلال رئاستها الأولى في نهاية السبعينات. كانت ترافق فترة انعقاد المؤتمر دائماً احتفالات خاصة بالنسبة للأولاد، بينما ينهمك المسؤولون المنتخبون في عقد الاجتماعات.

كنا نذهب، من بين النشاطات الأخرى، إلى منطقة الملاهي التي تسمى «سته أعلام ترفرف فوق جورجيا». كنت ولداً صغيراً، أحب دائماً الإثارة الناجمة عن لعبة الأفعوانية في مدينة الملاهي (لم أكن في ذلك العمر أعرف سوى القليل عما يمكن لهذه اللعبة أن تمثله كتحضير جيد لأي شخص يود دخول معترك السياسة). كان أخواي الأكبر مني سنأ أقل حياً للمغامرة مني (لا أحاول هنا الإشارة إلى عامل ضعف في الشخصية!)، أو ربما أقل رغبة مني في الانتظام في صف طويل للاستمتاع بدقيقتين

من ارتفاع نسبة الأدرينالين في الدم. وهكذا، كانا يتركاني أنتظر وحدي في الصف من أجل هذا الانقلاب المزدوج في الهواء الذي يكاد يذهب بالعقل. بينما كنت أقف هناك واضعاً بطاقة كتب اسمي عليها بأحرف كبيرة مطبوع عليها شعار مؤتمر المحافظين، نظر إليها طالب جامعي بحجم مساعد حكم في لعبة كرة القدم وسألني: «إذاً، والدك هو محافظ مدينة أوستن؟»

وحيث إنني كنت حينها في سن العاشرة، وكوني غير مدرك كم كان غير مألوف ذلك الإنجاز الذي حققته والدتي في تلك الأيام، فقد أجبتة بكثير من الثقة: «كلا، إنها والدتي».

بدت علامات الدهشة على وجه ذلك الشاب الذي هتف لأصدقائه: «اسمعوا يا شباب، إليكم هذا النبأ. والدة هذا الفتى هي محافظ أوستن!»

احمرّ وجهي قليلاً بسبب أنني تسببت في لفت النظر إليّ من دون أن أرغب في ذلك في طابور انتظار لعبة الأفعوانية، لكن ذلك لم يمنعي من مشاركتهم قليلاً في الحديث عن واحد من الأبطال الذين اعتبرهم مثلاً أعلى بالنسبة لي - والدتي. كان ذلك درساً سياسياً مبكراً بالنسبة لفتى لم يفكر حينها كثيراً بمغزى جنس والدتي في منصب محافظ، أو كم كان من غير المألوف في تلك الأيام أن تشغل امرأة منصب قائد سياسي.

بالنسبة لي، كانت امرأة خارقة مفعمة بالطاقة والحيوية: كانت تعد لنا غداءنا الذي نتناوله في المدرسة، وتحضر طعام العشاء (عندما يتوفر لها الوقت)، وكانت تأخذني بالسيارة إلى مباريات التنس، وتحضر المباريات الصغيرة التي كنت أخوضها في الدوري، وتساعدني في واجباتي المدرسية، وتشتري لي شطائر الهامبرغر والبطاطا المقلية من مطعم هوليدي هاوس في الجوار، وكانت تعاقبنا أنا وإخوتي عندما نسيء التصرف، وتسمح لي أن ألهو في مكتبها، أو في غرف المجلس الخلفية، وتأخذني إلى حفلات الاستقبال (يمكن أن أضيف هنا أن تلك الحفلات كانت كثيرة جداً)، وتدير فيما تبقى لها من الوقت، شؤون مدينة كبيرة.

كانت والدتي معظم وقتها في منصب محافظ للمدينة أما عزباء. كان ذلك يبدو طبيعياً بالنسبة لي في سن ما قبل المراهقة. الآن فقط أستطيع أن أقدر بشكل كامل كم كانت والدتي وما تزال، امرأة متميزة.

انفصل والداي بالطلاق عندما كنت في سن العاشرة. لم أكن حينها أفهم لماذا حدث ذلك. كان والدي الذي يعمل محامياً أباً صالحاً بالنسبة لي في تلك السنين البريئة، لكننا ابتعدنا عن بعضنا بعضاً مع مرور السنين.

كانت لدي ذكريات دافئة مع والدي، شأني في ذلك شأن معظم الأطفال: كنت أمسك بشعر صدره عندما كان يتظاهر بأنه سوف يرمي بي وأنا في سن الرابعة أو الخامسة، في المياه الزرقاء من الطرف العميق لبركة السباحة. وكان يحملني عالياً بين ذراعيه وهو يمشي في عتمة الباحة الأمامية لمنزلنا وهو يشير إلى مجموعة الدب الأكبر أو إلى نجوم الجوزاء، أو يقص علينا حكايات من الأسطورة الإغريقية، أو يساعديني في التدريب مع فريق البيسبول الصغير. لكن الأوقات التي تحدثنا فيها إلى بعضنا بعضاً أو قضيناها سوياً أضحت أقل، وأكثر تباعداً بعد الطلاق بينه وبين والدتي. نادراً ما نلتقي أو نتحدث إلى بعضنا بعضاً هذه الأيام، لكنه ما يزال الأب الذي أعرفه، والذي أتذكره بشغف، والذي سيبقى حبي له دائماً غير مشروط.

كنا، أخوأي وأنا، محظوظين لأننا كنا مقربين جداً من أجدادنا الأربعة، وقد كان لهم تأثير إيجابي عارم علينا ونحن نتجه إلى بلوغ سن الرشد.

كانت جدي ماكميلان التي عملت متطوعة في مخزن الكنيسة التجاري، وقامت بتعليم الإسبانية في مدارس الحضانة في مدينة سان أنطونيو، تحب أن تدلنا وتتركنا نستمتع بأوقاتنا. قامت بتربية أربع بنات وصبي واحد، هو والدي؛ بينما كان جدي يعمل مهندساً بترولياً، وهو أحد أوائل الخريجين من جامعة تكساس الذين يحملون شهادة جامعية في هذا التخصص. كان رجلاً طيباً، نحيل البنية؛ لم يكن يتحدث كثيراً؛ ولقد نشأ وترعرع في مدينة صغيرة بولاية تكساس. كان يستمتع بقضاء أوقات فراغه مع العائلة، والعمل في فناء منزله المتواضع في مدينة سان أنطونيو، بالإضافة إلى الاستماع إلى التعليق على

مباريات فريق لونغهورن تكساس لكرة القدم والبيسبول على جهاز الراديو الذي كان يضعه بجانب مضجعه. لم تكن مقدرته على السمع على ما يرام في سني عمره الأخيرة، لكن مجرد التواجد بالقرب منه كان يمنحنا شعوراً بالارتياح.

من ناحية أخرى، كان جدنا كيتون يُدرّس القانون، وكما كانت والدتي تحب دائماً أن تقول، في عائلتنا كانت جدتي كيتون هي القانون. التحقت جدتي كيتون بجامعة تكساس في أوائل الثلاثينات من القرن الماضي منتقلة من جامعة جورجيا في مدينتها الأصلية، أتلانتا للدراسة في كلية الحقوق. سجلت في الصف الذي كان يقوم بتدريسه جدي. كان أستاذاً شاباً تخرج حديثاً من كلية القانون، وحدث ما حدث بعد ذلك. لم تنه جدتي أبداً دراستها في مجال القانون، كانت تعني بي وبأخوي كثيراً، ترعى شؤوننا وتتأكد من أننا نحسن التصرف.

كان جدي بيج كيتون عميد كلية القانون الشهير في جامعة تكساس. كان شخصاً حاد الذكاء، تزوج من جدتي في الرابع من آذار، مارس؛ أو كما كان يحب أن يمازحنا بالقول: «بعد يومين من حصول تكساس على استقلالها [الذي يحتفل به في الثاني من شهر آذار كل سنة] فقدت أنا استقلالي»، وبدلاً من الإشارة إلى عدد السنين التي مرت على زواجهما، كان يتحدث عن الجولات «الثلاث والستين» التي خاضها عند احتفالهما بعيد زواجهما.

لم يكن الاثنان يفترقان أبداً. حتى هذا اليوم، يمتلئني شعور بالألم عندما أتذكر تلك اللحظة التي أخذت فيها جدي لعيادة جدتي المريضة في المستشفى. كانت في المستشفى منذ بضعة أيام، في الوقت الذي كان هو غير قادر على الحركة من دون مساعدة الكرسي المتحرك أو الهيكل المساعد على المشي بسبب الوهن والتقدم في السن، وكان مضطراً لملازمة المنزل، معانياً من القلق على مصير شريكه حياته.

أجلسته في الكرسي بجانب سرير جدتي في المستشفى. لم تكن تقوى على الجلوس في اليوم الذي زرناها فيه. لاحظت أن جدي كان يحاول بأقصى ما أوتي من قوة كي ينحني إلى الأمام وهو جالس في كرسيه. كان يحاول دفع نفسه إلى الأعلى، فأمسكت به من تحت

ذراعيه كي أساعده. كان يركز على شيء واحد فقط - جدتي. استطاع أخيراً الوقوف، وهو يرتجف قليلاً، وقد استخدم كل ما أوتي من قوة كي ينحني ببعض المساعدة مني ويقبلها وهو يقول: «أحبك يا مادج. أمل أن تعودني قريباً إلى المنزل».

في تلك اللحظة، فكرت أن ذلك كان كل ما في الأمر. فهنا يقف إنسان حقق الكثير، وكان يمتلك قدرات فكرية عظيمة وشخصية قوية؛ لكن ما يهم بالنسبة له في سني حياته الأخيرة هذه أكثر من أي شيء آخر ليس كل ما قام بإنجازه في مجال اختصاصه، بل ما تقاسمه مع عائلته التي قدم لها الخير الكثير.

نشأ جدي في مزرعة صغيرة في الشمال الشرقي من ولاية تكساس. بعد أن كان يقطف القطن في شبابه المبكر في مقاطعة ريد ريفر، أقسم أنه سوف يحصل على «وظيفة ثابتة» عندما يكبر في السن. وجد تلك الوظيفة، ومعها منضدة لتلاوة الكتاب المقدس في كلية القانون في جامعة تكساس. بعد أن شق طريقه بفترة وجيزة في كلية القانون، قام بشق طريقه نحو منصب الأستاذية. وانتهى به الأمر إلى سلك التدريس إلى أن بلغ سن السادسة والثمانين. عمل لمدة خمس وعشرين سنة عميداً لكلية القانون وحولها إلى واحدة من أفضل كليات القانون في كافة أنحاء الوطن؛ وأصبح في ما بعد واحداً من أهم خبراء قانون الضرر في البلاد.

رويت لي منذ عدة سنوات قصة طريفة عن جدي، أخبرني بها صديق للعائلة تخرج من كلية القانون بجامعة تكساس، بعد وفاة جدي بفترة قصيرة. كان هذا الصديق يدرس في واحد من المقررات التحضيرية للقانون التي كان جدي يقوم بتدريسها.

كان جدي يقف على منصة غرفة الصف التي تشبه المسرح، وينظر من فوق نظاراته التي كانت تسترخي فوق أرنبة أنفه، وسأل الطلبة عن السمات التي يجب أن يتمتع بها المحامي الناجح. قفز أحد الطلبة من مقعده في الصفوف الخلفية في نهاية الغرفة وقال: «أيها العميد كيتون، أنا مؤمن بأن الصحيح هو الصحيح، والخطأ هو الخطأ، كما أؤمن بعتمية انتصار الخير على الشر. هل تظن أن هذا يؤهلني كي أصبح محامياً ناجحاً؟»

ولكن، من دون أن يضيع لحظة واحدة، نظر جدي إلى ذلك الطالب وأجابه: «لا، ولكنك سوف تكون مرسالاً ناجحاً». ضجت بعدها القاعة بالضحك.

تأملت في هذه القصة التي تعكس صورة الرجل الذي أعرفه؛ الرجل الذي كانت له طريقته العظيمة الذكية في طرح أفكاره. كان جدي يشرح للطلبة أن القانون ليس دائماً الأبيض مقابل الأسود، ولا يجوز لمحام أن ينظر إليه من هذه الزاوية. فالحقيقة تميل إلى احتواء خطوط رفيعة من الفوارق، وظلال من اللون الرمادي.

كان ساعة جدي التدريسية توصف من قبل الطلبة بأنها ساعة الكوميديا. إلا أنه كان يشتهر بالكم الهائل من المعرفة التي يمتلكها عن القانون، وبالتأثير الذي يحدثه في تطويره نحو الأفضل. أما بالنسبة إلى زملائه في حقل اختصاصه الذين عرفوه وتعلموا منه، فقد كان جدي بالنسبة إليهم أكثر من مجرد رجل صالح؛ لقد كان إنساناً عظيماً استحق الاحترام، وحاز على الإعجاب، وكان على الآخرين مجاراته في ذلك.

كانت بعض أفضل الأوقات التي قضيتها مع جدي وجدتي هي تلك التي كنا نحضر فيها مباريات كرة القدم في جامعة تكساس. فقد كانت لديهما أربع بطاقات مخصصة لأعضاء هيئة التدريس؛ وكنت في العادة أدعو صديقاً لحضور المباريات معنا.

بدأت حضور مباريات كرة القدم في جامعة تكساس في سني عمري الأولى في عقد السبعينات، وأتذكر بكثير من الشوق الأيام التي كان يلعب فيها إيرل كامبل، الفائز بكأس هيسمان، ولقبنا الوطني الذي خسرناه. كانت كرة القدم في جامعة تكساس جزءاً من حياتنا العائلية، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من حياتي أيضاً.

بالعودة إلى عقد الخمسينات وأوائل الستينات، اعتاد جدي أن يكون رياضياً أيضاً. فقد تم التعاقد معه لفترة وجيزة كعميد لكلية القانون في جامعة أوكلاهوما قبل أن يصبح عميداً لكلية القانون في جامعة تكساس. وكان أيضاً عضواً في المجلس الرياضي الذي ساعد في التعاقد مع باد ويلكينسون لصالح جامعة أوكلاهوما. قاد ويلكينسون فريق سونرز الرياضي إلى الفوز على فريق جامعة تكساس في واحدة من أكثر المنافسات إثارة في الرياضة الجامعية.

عرفت زوجتي المستقبلية، جيل، أن الغزل بيننا كان جاداً كوني سمحت لها بأن تحتفظ ببطاقات الموسم العائدة لي، كانت تعيش في أوستين، وكنت أعمل في واشنطن عندما التقينا.

في مرحلة الشباب، كانت السياسة والأحداث الجارية هي ما كنا نتحدث عنه ونناقشه ونحن جالسون إلى طاولة المطبخ، أكثر من الحديث عن الألعاب الرياضية في لونغهورن. تعلمت أن السياسة هي طريق يمكن بواسطتها إحداث تغيير إيجابي في حياة الناس. كان جدي يحب أن يقول: «ليست المسألة في كمية الدولارات التي تكسبها، بل في الفرق الذي يمكن لك أن تحدثه بواسطتها»، وكان يشير بذلك إلى ما يهم أكثر في حياة الإنسان.

أن تنشأ تحت الأضواء السياسية المحلية في أوستين، هو أمر له إيجابياته وسلبياته. حاولت والدتنا المحافظ، أن تبقى الأشياء طبيعية كما هي، ولم نحاول أبداً، أنا وإخوتي الثلاثة، أن تكون تصرفاتنا خارج نطاق ما هو طبيعي. اعتادت والدتي أن تذكرني بالقول: «ما يقوم به أصدقائك شيء، وما تقوم به أنت، يمكن أن يصل إلى الصفحات الأولى في الصحف».

حاولنا تجنب لفت الأنظار إلينا من دون مسوغ وبأي ثمن، في الوقت الذي كنا نمارس حياتنا بطريقة طبيعية. وبالرغم من أننا كنا أبناء المحافظ، فإننا لم نكن لنَدَع حياة الأبهة والاحتفالية والأضواء السياسية تغير من طبيعة حياتنا - فقد كنا مجرد أولاد نحاول أن نكبر ونحن نستمتع بحياتنا وسط عائلة من الطبقة الوسطى.

حاولت والدتنا قدر المستطاع أن تبقىنا متواضعين. لم أكن سعيداً جداً يوم أخذتني بسيارتها من المدرسة عندما كنت في المرحلة الإعدادية وأخبرتني أن علينا أن نتوقف لحضور حفل استقبال الخريجين السابقين من جامعة تكساس أي - إم في وسط المدينة، وأنه ليس لدينا الوقت الكافي كي نمر بالمنزل.

كنت ألبس قميصاً قصير الكمين باللونين البرتقالي والأبيض ويحمل الرقم 1 عند ذهابي إلى المدرسة في ذلك اليوم لأنه كان أسبوع المنافسة في كرة القدم بين فريقي جامعة تكساس وجامعة تكساس أي - إم. كانت الآن تحاول إقناعي من دون جدوى أن

اللباس الذي ارتديه لن يشكل مشكلة بالنسبة إلى الخريجين من طلبة جامعة تكساس أي- إم السابقين.

قالت والدتي: «لا تقلق! سوف يُفاجئون بذلك، سوف يكون الأمر مسلياً».

قلت في سري ساخراً: نعم سوف يكون مسلياً بالتأكيد. كل ما أتذكره من حفل الاستقبال في وسط المدينة، والحاضرين الذين كانوا يرتدون الملابس الفاخرة على شرفة في الطابق العلوي، أن أحد الخريجين، وكان ثملاً إلى حد ما، أتى من خلفي، وحاول رفع قميصي فوق رأسي. وكان زملاؤه من الخريجين الواقفين بالقرب مني يضحكون على حساب ارتياكي المراهق.

نعم، أظنان من التسلية يا أمي.

مع ذلك، كانت تلقي عليّ وعلى إخوتي دروساً في أهمية الخدمة العامة كطريق تحدث فرقاً إيجابياً، وتغير الأشياء إلى ما هو أفضل.

نشأنا، أنا وإخوتي في منزل ديمقراطي، تماماً مثل والديّ. كانت والدتي ديمقراطية معتدلة تميل نحو المحافظة، وأقرب إلى الوسطية السياسية عندما كانت تشغل منصب المحافظ في مدينة أوستن (بالرغم من أن المحافظين في ولاية تكساس والمرشحين لمجلس المدينة لا يرشحون لهذه المناصب تحت أي شعار حزبي). كان الائتلاف الذي تنتمي إليه يضم الجزء الأكبر من القسم الشمالي الغربي من المدينة الأقرب إلى المحافظين، والشرق الذي تقطنه غالبية ساحقة من الأمريكيين من أصول إفريقية، لكن سكان المناطق المدنية الليبرالية في محيط الجامعة كانوا يعارضونها. بشكل عام، كانت تعمل على الإبقاء على ضرائب منخفضة، وتؤكد من أن الخدمات في المدينة ممولة بشكل كامل، وتحافظ على نوعية الحياة الرائعة لمدينة أوستن في الوقت الذي تشجع النمو الاقتصادي. في تلك الحقبة، كانت مدينة أوستن في خضم نمو اقتصادي متعاظم - فقد ارتفع عدد سكانها من 322000 ألفاً إلى 461000 خلال عشر سنين - وأصبحت حجر الرchy التقاني، بالإضافة إلى كونها المدينة التي تضم الجامعة والحكومة.

كان لدى والدتي من الصرامة ما يكفي لمواجهة البيئة المعبأة سياسياً بحيث كانت قادرة على معرفة كيف تشكل ائتلاًفاً ناجحاً، وكيف تهيب الأرضية المشتركة لإنجاز ما يجب إنجازه، على الأقل حتى موعد فترتها الثالثة عندما تحول المجلس إلى الليبرالية بشكل واضح. تعلمت الكثير عن فن السياسة المتمثل في المداولات والإقناع الفكري، وكيفية طرح الحلول الوسط، من أجل تحقيق ما تريد، وذلك عبر قضاء مدة لا بأس بها من الوقت في مجلس المدينة والغرف الخلفية مرافقاً لوالدتي. على أي حال، يمكن أن تكون السياسة في مدينة أوستن صعبة الممارسة، ولم يكن من السهل تجاهل الأشياء القبيحة التي كانت تقال عن والدتي. لكنني تعلمت مع إخوتي أن لا ندع الضيق الذي كنا نشعر به جراء ذلك يطفو على السطح. من الصعب أن لا تنظر إلى الأشياء من منظور شخصي إذا كانت والدتك هي من يتم الهجوم عليها، إلا أن هذه الدروس التي تعلمتها في صباي جعلت من السهل عليّ فيما بعد أن لا أنظر إلى الأشياء من زاوية شخصية خلال سنوات النضوج التي قضيتها في عالم السياسة المشوب بالمطبات والحفر.

ربما كانت التهديدات بالقتل التي تلقيتها والدتي أثناء شغلها منصب المحافظ الجزء الأكثر إزعاجاً. أعتقد أن تلك التهديدات لم تطلق سوى مرات قليلة، كل واحد منها كان يطلق أثناء انطلاق حملتها الانتخابية. أذكر أن أحد إخوتي سمع صوت شخص عندما رفع سماعة الهاتف يقول: «سوف أقوم بقتل والدتك».

لم تترجم هذه التهديدات أبداً، ولكنني أذكر أن تهديدات كهذه أطلقت عندما كانت والدتي تحضر مباراة في دوري البيسبول للصغار كنت أشارك فيها وكان تحيط بها ثلة من رجال شرطة أوستن بملابس مدنية على مدار الساعة.

تعلمت أن للسياسة وجهاً قبيحاً لا يستطيع معظم الناس استيعابه بشكل كامل أبداً. جعلتني هذه المعرفة أشعر باحترام عظيم لكل من يرغب في أن يقدم التضحيات من أجل القيام بالعمل في مجال الخدمة العامة. أظهرت لي هذه المعرفة أيضاً أن هناك بعض الأشخاص الغاضبين والمنفرين الذين توفر لهم السياسة المجال كي ينفسوا من إحساسهم بالإحباط. لا يمكن أن تدع أشياء كهذه تردعك عن المطالبة بتحقيق ما تؤمن

به. وكما قال جدي لوالدي مرة: «يا كارول، إذا لم يكن بمقدورك أن تجعلي شخصاً ما، يستشيط منك غضباً، فاعلمي أنك ربما لم تحقق شيئاً».

ارتدتُ وإخوتي المدارس الحكومية، وشاركنا في النشاطات اللاصفية، كما شاركنا في ألعاب مختلفة من البيسبول إلى كرة السلة وكرة المضرب واللعب في ملاعب كرة القدم ذات الأرضية الرملية. كنا نتشاجر بين الحين والآخر شأننا في ذلك شأن الإخوة الصغار في كل مكان. ولما كنا متقاربين في السن، فقد كانت روح المنافسة موجودة بيننا، إلا أنها قربتنا من بعضنا بعضاً عندما كان واحدنا يحتاج إلى الآخر.

لم تكن السياسة بعيدة عن أي منا في المدرسة أيضاً.

ففي أعقاب صدور الحكم الشهير عن المحكمة العليا سنة 1971 بشأن قضية سوان ضد مجلس شارلوت-ميكلينربيرغ للتعليم، فإن منطقة المدارس المستقلة في أوستن كانت واحدة من العديد من المدن على امتداد البلاد التي خضعت لحكم قضائي يوجب استخدام الحافلات وسيلة لإلغاء الفصل العنصري. أعقب ذلك الحكم «نزوحاً للبيض» في أجزاء عديدة من البلاد، بما في ذلك مدينة أوستن. بين سنتي 1971 و 1972، أعادت بعض العائلات من البيض في مدينة أوستن تموضعها في مناطق المدارس المجاورة للمدينة.

في سنة 1972، تم انتخاب والدتي لعضوية مجلس المدارس في مدينة أوستن مع ثلاثة مرشحين كانوا يواجهون معارضة من قائمة المرشحين المعارضين لاستخدام الحافلات (كان بعضهم يصفهم بأنهم من دعاة الفصل العنصري). فازت والدتي بمقعدها في المجلس بأغلبية 75 بالمائة من الناخبين، وما تزال تذكر باعتزاز الطريقة السلمية والناجحة لدمج المدارس، والتي قام بها مجلس المدارس، على امتداد السنوات الخمس التي قضتها فيها.

خلال الفترة التي قضتها والدتي في عضوية المجلس، قامت بتطوير خطة مركزية للصف السادس الابتدائي كخطوة أولى لإلغاء الفصل العنصري في المدارس. بموجب هذه الخطة، كان على التلامذة الذين درسوا في مدارس ابتدائية غالبية تلامذتها من

البيض، استخدام نفس الحافلات التي يركبها أقرانهم الذين كانوا يدرسون في مدارس غالبية تلامذتها من الأقليات لتقلهم إلى مدرسة تتوسط منطقتي أوستن لتلامذة الصف السادس. كانت الحافلة تقلني أنا وإخوتي من منزلنا في منطقة غرب أوستن، حيث كان الأولاد يرتادون مدرسة كاسيس الابتدائية، للدراسة في مركز بيكر لتلامذة الصف السادس في وسط مدينة أوستن. كما كان تلامذة المرحلة الابتدائية من المناطق التي غالبية سكانها من أصول إفريقية وإسبانية ينقلون أيضاً بواسطة الحافلات إلى مركز بيكر. لم يعتقد المجلس أن هذه الخطة أضافت عبئاً غير مبرر على أي من المناطق عبر نقل تلامذة من واحدة من المناطق إلى أخرى بواسطة الحافلات عبر المدينة، على العكس من ذلك، كان التلامذة من كلا المنطقتين يُقلّون إلى نقطة تتوسط هاتين المنطقتين.

كنت رئيساً لمجلس التلامذة في مركز بيكر لتلامذة الصف السادس. كانت المدرسة ضخمة، ومختلفة إلى حد كبير عن المدرسة الابتدائية التي كنت أرتادها في جوارنا، والتي لم يكن يرتادها سوى عدد محدود من التلامذة من أصول إفريقية وإسبانية. أتذكر بكثير من الحنين السنة التي قضيتها في مركز بيكر. فلو لم تكن هناك حافلات ما كنت لألتقي بهيرمان هيل، وهو تلميذ من أصول إفريقية كان نائب رئيس مجلس التلامذة. وبالرغم من أن هيرمان اختلف معي بشدة حول زعمي بأنني لاعب كرة السلة الأفضل، فقد وافق على حضور مراسم زفافي بعد عشرين سنة على ذلك.

صادقت في مركز بيكر أيضاً، هيب فام الذي كان قد هاجر مع عائلته من فيتنام مؤخراً. كان هيب، التلميذ الذكي الذي كان ما يزال يتعلم اللغة الإنجليزية، يطلق عليّ تحبباً اسم تشاك نوريس (كان يلفظ الاسم بلكنته الفيتنامية «تشاك نور»)، وكنت بالمقابل كنت أطلق على هيب الذي كان يلبس حزاماً أسود، اسم بروس لي. لم أتعلم رياضة الكاراتيه، لكن هيب حاول أن يعلمني بعض الحركات (لكن الدروس التي تلقيتها منه لم تبقَ في ذاكرتي). كانت صديقتي التي هجرتني فيما بعد، واسمها كاميل موجيكا من الصف السادس، فتاة جميلة وذكية من أصول إسبانية. ولم تكن مثل هذه الصداقات مألوفة في تلك الأيام.

كان ترحيبي بالاندماج بين الأعراق جزءاً من إرثي العائلي الذي يعود إلى ما قبل موقع والدتي في إدارة مجلس المدارس. أثناء فترة استلام جدي مهام العمادة بكلية القانون في جامعة أوكلاهوما، قام بالإدلاء بشهادته في قضية إيدا سيبول فيشر، وهي امرأة سوداء وقفت في وجه القانون الذي أقرته الولاية لعزل الطلبة السود في كلية القانون، وقد تمت المحاكمة في منطقة معزولة من داخل مبنى الكابيتول. فقد سبق للولاية أن تسرعت في افتتاح كلية القانون في أعقاب صدور حكم قضائي من المحكمة العليا بشأن دعوى سبق لفيشر أن أقامتھا وتقضي بأن أوكلاهوما لا يمكن لها أن تمتنع عن توفير فرصة تدريس القانون للجميع. استذكر بروفيسور القانون السابق من ولاية تكساس، وخبير القانون الدستوري الشهير على مستوى البلاد تشارلز آلان رايت في احتفال تأبيني لجدي أقيم سنة 1999 أنه «لم يكن من المدعاة للدهشة أنها لم تشعر أن ذلك كان يشكل حماية «مساوية» ضمنها لها التعديل الرابع عشر للدستور»، وتابع قائلاً: «استطاعت أن تفرض فعلاً جديداً في محكمة الولاية عبر تحديها لدستورية كلية القانون الفورية تلك».

بعد دعوته للإدلاء بشهادته من قبل المحامي ثورغورد مارشال، الذي أصبح فيما بعد، قاضياً في المحكمة العليا، ذكر جدي أن «الكلية الجديدة لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارها مساوية لكلية القانون العريقة في جامعة أوكلاهوما».

وكما قال رايت في مراثاته، فلقد أدلى جدي بشهادته في منتهى الهدوء والعقلانية، بعكس أحد زملائه من الشباب في عضوية هيئة التدريس بكلية القانون في جامعة أوكلاهوما الذي أخذ جانب فيشر في القضية، لكنه كان عاطفياً وأقل قدرة على كبح جماح انفعالاته أثناء التعليقات التي أدلى بها. دفعت شهادة البروفيسور الشاب مناصري الفصل العنصري في أوكلاهوما إلى مطالبة مجلس الجامعة بفصله. قام جدي بصفته عميداً للكلية، بإرسال رسالة إلى مجلس الأمناء يدعم فيها حق الأستاذ في التعبير عن آرائه بحرية، مشيراً إلى «الضرر الذي سيلحق بسمعة الجامعة على الصعيد الوطني لو تم فصل ذلك الأستاذ من عمله بسبب التعبير الصادق عن رأيه حول الفصل العنصري». وانتصر منطق دفاع جدي عن الأستاذ. أخبره رئيس المجلس فيما بعد، أنه لو لم يرسل

تلك الرسالة. لكان ذلك الأستاذ قد طرد من وظيفته. اشتهر جدي فيما بعد، وعلى مر السنين، بالتعاقد مع أفضل الأساتذة من ذوي الآراء المتباينة، وكان يدافع عن حقهم في ممارسة الحرية الأكاديمية عندما كانوا يطرحون آراء مثيرة للجدل.

عند عودته إلى منصبه كعميد، أشرف جدي على عملية الدمج السلمي التي تمت في كلية القانون في جامعة تكساس بعد قرار المحكمة العليا بشأن قضية سويت ضد بينتر، وهي قضية شهيرة أخرى كانت تمر عبر أروقة النظام القانوني عندما كان جدي ما يزال يعمل في جامعة أوكلاهوما. كانت عائلتي كلها تشعر بالفخر لأن عميد أسرتنا كان بطل الدعوة إلى المساواة في الحقوق وحرية التعبير، كما أن اهتمامي الشخصي بالعمل في مجال الخدمة العامة يعود الفضل فيه بدرجة كبيرة إلى الإلهام الذي كان يمنحني إياه.

في نهاية المطاف، عملت رئيساً للمجلس الأعلى للطلبة في المرحلة المتوسطة، ثم رئيساً لمجلس الطلبة في مدرسة أوستن الثانوية، وهو الموقع نفسه الذي كانت والدتي تتبواه منذ تسع وعشرين سنة.

خلال فترة رئاستي للمجلس الأعلى للطلبة، نشأت صداقة بيني وبين زميل لي، كان رئيساً لمجلس طلبة مدرسة جونستون الثانوية في مدينة أوستن، واسمه جون بار. كان قد نشأ بدوره في جو سياسي. فقد كان والده صديقاً مقرباً ومستشاراً لعضو الكونغرس حينها جيك بيكل الذي كان عضواً في مجلس النواب عن مدينة أوستن وكان قد خلف ليندون جونسون في الكونغرس. في السنة التي تعرفنا إلى بعضنا بعضاً، كانت والدتي تخوض الانتخابات ضد بيكل (وخسرتها حينها). في السنين التي تلت تعارفنا، تحدثنا، جون وأنا، عن ظاهرة كيف أنه بالرغم من أننا ننتمي إلى حزبين مختلفين تماماً، فإن آراءنا السياسية متشابهة إلى حد بعيد. غالباً ما كنا نتحدث عن الخطر الذي يواجه الديمقراطية بسبب المتشددین والأيديولوجيين التطهيريين الذين لا يقبلون بالحلول الوسط من كلا الحزبين.

أقلعت عن أنواع الرياضة كافة في المرحلة الثانوية عدا كرة المضرب التي برعت فيها لدرجة أنني أصبحت أحتل المرتبة الأولى في الفردي والزوجي. وقد حل فريق مدرستي الثانوية في المرتبة الثانية على مستوى الولاية في تلك السنة.

كان تحصيلي في المرحلة الثانوية جيداً، فقد تخرجت بمرتبة الشرف وكنت من بين العشرين من المئة الأوائل في صفي، لكن أداء أخوتي الأكبر مني سناً كان أفضل من أدائي، فقد ألقى أحدهما خطبة الترحيب في حفل التخرج وألقى الثاني خطبة الوداع فيه (لقد سبقه أخواه التوأم).

بعد أن داعبت مخيلتي فكرة الانضمام إلى الأكاديمية البحرية ولعب كرة المضرب هناك، قررت البقاء في موطني، والانضمام إلى جامعة تكساس. انضمت إلى الأخوية التي كان اثنان من إخوتي أعضاء فيها، وتابعت الدراسة بغية الحصول على شهادة في الدراسات الحكومية. بالإضافة إلى ذلك، عرض علي مدرب كرة المضرب ديف سيندار موقعاً في فريق كرة المضرب الذي يحتل المرتبة الأولى، من دون أن يؤهلني هذا العرض للحصول على منحة دراسية. وبعد أن تبين لي أن فرصتي في جعل هذا الفريق ينتقل إلى الدور الثاني قليلة، انتهى بي المطاف إلى ترك موقعي في فريق كرة المضرب في منتصف الطريق عندما كنت في السنة الدراسية الثانية.

بحلول منتصف السنة الأولى من دراستي في الجامعة، انتخبت رئيساً لجماعة «سيفما» في إيبسيلون Sigma Phi Epsilon، التي يزيد عدد أعضائها عن 120 عضواً ولمدة سنة. كانت الأخويات في تلك الفترة تخضع لمراقبة لصيقة من قبل الجامعة ومدعي عام المقاطعة بسبب الغموض المستمر الذي يكتنفها.

كان الغموض جزءاً من نظام ثقافة الأخويات في جامعة تكساس، ولهذا النظام تاريخ طويل من سوء السمعة على الصعيد الوطني. لم تكن هذه الأخويات جزءاً من ثقافة الجامعة التي أشعر حيالها بالارتياح. عندما كنت طالباً في السنة الأولى، توفي مارك سيبيرغر، وهو عضو في أخوية أخرى، جراء تسمم كحولي في قضية غامضة. ثم فقدت

فيما بعد صديقاً من أيام الطفولة، وكان شاباً ممتازاً من النواحي كافة. اسمه سكوت فيليبس الذي كان قد انضم إلى إحدى الأخويات، وتورط في حادثة غامضة أدت إلى وفاته. (عندما كان يعمل كمدرّب متطوع، وقع من على جرف عالٍ بينما كانت تتم مطاردته من قبل مجموعة من الشبان المتطوعين المتورطين في «غموض معاكس».)

دفعتنى حوادث مثل هذه، كما آخرين من جامعة تكساس، إلى الإحساس بضرورة تغيير ثقافة الغموض هذه. كان مركز أخوية سيغ إيب Sig Ep يعمل بدأب لحث الجماعات التي تنتمي إليه على السير ضمن توجه جديد أكثر إيجابية. لم يكن من السهل فرض مثل هذا التغيير، لكنني قررت أن أحاول القيام بذلك - جزئياً بحكم الضرورة، وأيضاً بحكم الاختيار بعد التجربة المؤسفة التي مرت بها في رئاسة الجماعة.

استلمت مسؤولياتي رئيساً للجماعة قبل عطلة عيد الميلاد في سنتي الأولى بالجامعة. عندما عدنا إلى الكلية، وكما كانت التقاليد تقتضي، كان صف التطوع الخريفي يمارس طقوسه في الأسبوع الجهنمي غير الخاضع للرقابة. كان هذا يتضمن الحرمان من النوم، والكثير من الغموض الكلامي، وبعض الغموض الجسدي أيضاً. وبحكم أنني مرت بتجربة الغموض في مرحلة التطوع، فقد كنت أعتبرها طريقاً خاصة للتعبير عن الحب الأخوي.

أثناء هذا الأسبوع الجهنمي الخاص، كانت الأمور تخرج عن السيطرة. فقد أصيب أحد المتطوعين في عينه في لحظة من الإرهاق شبه التام الناجم عن عدم النوم في وقت متأخر من إحدى الليالي. كانت حادثة غريبة - فقد انسكب في عينه صباغ شعر من أحد الذين كانوا يلبسون ثياباً توحى بالجنون كجزء من الطقوس الغامضة، مما أدى إلى فقد مؤقت لبصره. أحضره أحد الإخوة المنتمين إلى الأخوية إلى غرفتي في بيت الأخوية. نقلناه حالاً إلى غرفة الطوارئ حيث تمت معالجته وإعادته إلى منزله في صباح اليوم الثاني.

عبر الأطباء حينها عن القلق من أن الإصابة في عينه يمكن أن تؤثر عليه لبقية حياته. وبالرغم من ذلك أصر المتطوع على أنه غير راغب بإثارة مشكلة بسبب هذه المسألة. قلت

له إن عليه أن يفعل ما يعتقد أنه صواب بغض النظر عما يمكن أن يعنيه ذلك للآخرين، ولكن تبين لي أيضاً أن المشكلة الغامضة كانت ضرورية بالنسبة لأخويتنا من أجل أن يتم التعامل معها بصدق وبوضوح، وأن التغطية على حادثة من هذا النوع لن يكون لها وقع إيجابي على المدى الطويل.

بعد أن ناقشت المسألة مع مستشار الجماعة وهو خريج متطوع، اتفقنا على أنه من الأفضل القيام بإعلام مجلس خريجي الجماعة الذي كان يضم محامين كانوا محققين في قلقهم بشأن المسؤولية المحتملة. قلت للخريجين إنني أتحمّل المسؤولية عن نتيجة أي عمل قد نضطر إلى القيام به. قرروا أخيراً معالجة الموضوع داخلياً، لكننا جميعاً اتفقنا أن هذه الثقافة الضبابية يجب أن تتوقف داخل الأخوية، مرة وإلى الأبد.

وقفت في اجتماعات الجماعة، وحثت بقوة بصفتي رئيساً على وجوب إلغاء فعاليات الأسبوع الجهنمي في المستقبل. كان هذا موقفاً متصبلاً اتخذته حينها. كان عليّ أنا أن أتحمّل الجزء الأكبر من الانتقاد من زملائي وإخوتي من أعضاء الأخوية الذين كانوا يعتبرون أن الضبابية فعلٌ يمارسه الجميع في جامعة تكساس منذ مدة طويلة. كانوا يتساءلون عن السبب الذي يدفع جماعتنا إلى طلب التغيير بسبب حادثة واحدة تورط فيها متطوع لم تكن لديه أي مشاعر حقاً بسبب ما جرى له. لم يقم مجلس الخريجين بأي فعل داعم لي في العلن. ربما كانوا ولسبب مفهوم، شديدي الحساسية تجاه تحمل المسؤولية عن هذا الموقف الذي لا يتمتع بالتأييد بين أعضاء الأخوية. إلا أنني تمسكت بموقفي بالرغم من أنني كنت وحيداً في ذلك الجانب. كلفني ذلك الموقف خسارة بعض الصداقات، والتسبب في ارتفاع بعض أصوات الانتقاد. كنت متصبلاً في موقفني لأنني كنت مؤمناً بأن هذا ما يجب أن يتم، وأن هذا هو عين الصواب. انضم إليّ لاحقاً عدد من أعضاء الأخوية. وتوصلنا بشكل فعلي إلى وقف الضبابية في أخويتنا - على الأقل مؤقتاً.

لسوء الحظ، لم يستمر هذا التغيير طويلاً. إذ قررت مجموعة صغيرة من الأعضاء في الخريف الثاني، بعد جولة من احتساء الخمر، اصطحاب بعض المتطوعين ليمارسوا متعة التجذيف.

بعد المحاولات التي قمت بها من أجل معاقبة أولئك المتورطين في تلك القضية، وصلت إلى لحظة الحقيقة. فإذا كان أعضاء الأخوية قد اتخذوا قراراً بالاستمرار في تلك الطريق المؤدية إلى تدمير الذات في وقت كانت المواقف تتغير بسرعة حول مسألة قبول مثل هذه التصرفات، فسيكون هذا هو خيارهم في المرحلة الجامعية الأولى. لكنني قررت أن لا أكون جزءاً من هذه العملية. انتهى بي المطاف إلى تقديم استقالتي من رئاسة الأخوية قبل عدة أشهر من انتهاء ولايتي. في الوقت نفسه، بقيت أمارس نشاطي كواحد من أربعة قادة طلابيين عملوا مع إداري الجامعة لتطوير الأساليب المناسبة للتحرك بعيداً عن الضبابية.

لسوء الحظ، وبالرغم من الجهود المستمرة التي بذلت من أجل إنهاء هذه الضبابية، فقد تواصل هذا الشر الاجتماعي في جامعة تكساس وفي أماكن أخرى. أقرت ولاية تكساس تشريعاً يجرم الضبابية، كما تبنت جامعة تكساس قواعد صارمة تمنع بموجبها الضبابية وتطالب ضحاياها الإبلاغ عن الحوادث التي تسببها إلى مكتب العميد. علقـت نشاطات العديد من التنظيمات في الجامعة على مر السنين بسبب خرق هذه القواعد. ومع ذلك، ما تزال الضبابية مستمرة. ففي كانون الأول، ديسمبر سنة 2005، توفي أحد المتطوعين في أخوية «لامبدا في إيبسيلون Lambda Phi Epsilon» نتيجة لحادثة ناجمة عن الضبابية. وبسبب تلك الحادثة، فقد تم تعليق هذه الأخوية حتى سنة 2011. كما وجهت اتهامات جنائية لثلاثة من أعضاء الأخوية. من المحزن جداً أن مأس كهذه تستمر في تلطيخ السجل الجيد لمؤسسة عظيمة مثل جامعة تكساس.

كان لهذه التجربة الجامعية تأثير علي لم تستطع السنون محوه. أهم ما في الأمر، فقد كشفت لي هذه التجربة كم هي صعبة محاولة تغيير ثقافة سلبية كرسـت وجودها في إحدى المؤسسات على مر السنين. فبالرغم من أن الحاجة إلى التغيير في غاية الوضوح، وبالرغم من أن بعضهم من ذوي النيات الحسنة يناضلون من أجل إحداث هذا التغيير، فإن عدم المبالاة الاجتماعية والدوافع الأنانية لثلة من الأفراد الذين يستفيدون من النظام السائد تتسبب في جعل المحاولات المبذولة من أجل للإصلاح التنظيمي صعبة

المنال. وهو درس ينبغي على أولئك الذين يريدون إصلاح الثقافة السياسية المفلسة في واشنطن أن يأخذوه على محمل الجد.

فتحت استقالاتي من رئاسة الأخوية في أوائل خريف سنة 1989 الطريق لي للاستثمار في فرصة أخرى - تبين فيما بعد أنها كانت حاسمة في تحديد مسار مهنتي. كنت على مسافة فصلين دراسيين لإنهاء متطلبات التخرج من جامعة تكساس بالرغم من أنني لم أكن قد قررت حينها ما الذي سأفعله بعد التخرج. ونظراً لعبء المقررات الدراسية الخفيف نسبياً، والذي كنت مطالباً به في ذلك الوقت، ولكوني أتمتع بفسحة من وقت فراغ ناجم عن انتهاء التزاماتي تجاه الأخوية، فقد قمت بالاتصال ببيل تريون، وهو أحد الخريجين الذين كانوا ينتمون إلى أخوية «سيفما في إيبسيلون» عندما كنت في السنتين الأولى والثانية من دراستي الجامعية، وكان حين اتصالي به يعمل لصالح الحملة الانتخابية للحاكم الجمهوري. أخبرت بيل بأن لدي متسع من الوقت، وبأنني أرغب بالتطوع من أجل اكتشاف معنى أن يكون المرء جزءاً من حملة سياسية على مستوى الولاية. كان ذلك يشكل نمواً طبيعياً منبثقاً من تاريخي العائلي، كما أنني أحببت الفكرة لأنني ظننت أنها ستقدم لي فرصة للعمل في مدينة أوستن.

لماذا ركزت على هذه الفرصة في الحزب الجمهوري؟ لم يكن هذا الاختيار يعكس ميلاً أيديولوجياً قوياً محدداً. شعرت بشكل عام، براحة أكبر في جو الحزب الجمهوري في ولاية تكساس الذي يميل نحو المحافظين: إلا أن انتمائي كان مبعثه إرثي العائلي، وليس العقيدة المحافظة المتصلبة. خلال الثمانينات، لحقت بوالدتي كما العديد من ديمقراطيين ولاية تكساس الذين هاجروا إلى الجمهوريين.

كانت تكساس ولاية الحزب الواحد لأكثر من مئة سنة، أي منذ فترة نهاية إعادة البناء التي أعقبت الحرب الأهلية. ومع ذلك، فقد كان طيلة هذه الفترة جناح محافظ، وآخر ليبرالي في الحزب الديمقراطي بولاية تكساس. أصبحت ولاية تكساس منذ سنة 1980 تصوت للجمهوريين في الانتخابات الرئاسية. اعتقد العديد من ديمقراطيين ولاية

تكساس خلال عقد الثمانينات أن الحزب الديمقراطي على الصعيد الوطني قد ذهب بعيداً باتجاه اليسار. كانت والدتي من بين كثيرين ممن اعتقدوا ذلك، وكذلك أنا. غيرت ولاءها الحزبي سنة 1985 أثناء فترة ثورة ريغان. ترشحت لعضوية الكونغرس عن الحزب الجمهوري في السنة اللاحقة (وخسرت حينها أمام عضو الكونغرس جيك بيكل). كان ذلك في السنة التي بلغت فيها سن الثامنة عشرة؛ في الواقع، كان أول صوت أدليت به في اقتراع كان لوالدتي في الانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري. أدليت بصوتي سنة 1988 لأول مرة في الانتخابات الرئاسية لصالح جورج بوش الأب، الذي التقيته للمرة الأولى أيضاً أثناء احتفال انتخابي لصالح والدتي (لم أتوقع أن أتعرف عليه بشكل شخصي أكثر بعد خمس عشرة سنة على ذلك اللقاء).

أعاد بيل الاتصال بي عصر ذلك اليوم وسألني إذا كنت أرغب في العمل مساعداً صحفياً بدوام جزئي لصالح كليتون ويليامز، المرشح لمنصب الحاكم. كان ويليامز رجل أعمال ذا شخصية تضج بالحيوية جمع ثروة شخصية عن طريق الاستثمارات الناجحة في الفاز الطبيعي، والعقارات، والمصارف، ووسائل الاتصال. حتى إنه ظهر أيضاً في بعض الإعلانات التجارية التلفزيونية الناجحة عن شركة الاتصالات الهاتفية «كليديستا» للمسافات البعيدة، التي يملكها، والتي أسماها تيمناً باسمه واسم زوجته موديسستا، وهو يرتدي بذلة رسمية وقبعة راعي بقر. وعد كليتون بأنه سوف يحضر أسلوبه التكساسي المميز، وذكاءه كونه رجل أعمال، وموقفه الحازم ضد الجريمة إلى قصر الحاكم في مدينة أوستن. لكنه كان سياسياً ساذجاً، وعديم الخبرة إلى درجة كارثية.

بعد لقائي بالسكرتير الصحفي بيل كينيون، تم التعاقد معي مباشرة وبدأت العمل في الحال. من بين الواجبات الأخرى التي تطلبتها مقتضيات الوظيفة هي أنه عليّ التواجد في المكتب الساعة السادسة من صباح كل يوم قبل الجميع وذلك لمتابعة ما تكتبه الصحف الرئيسية، وأخذ قصاصات منها، ونسخ القصص المهمة المتعلقة بالحملة الانتخابية، بالإضافة إلى القضايا الرئيسية التي تهم الولاية وذلك كي تكون في متناول الجميع بمن فيهم المرشح نفسه لقراءتها مباشرة. وازدادت الساعات التي التزمت

العمل فيها، والتي تراوحت من عشرين إلى خمس وعشرين ساعة في الأسبوع. إلى ما بين ثلاثين وخمس وثلاثين ساعة أسبوعياً.

وقعت عقداً للعمل في حملة ويليامز لمنصب الحاكم في فترة مبكرة من حياتي المهنية، وكانت نقلة جيدة بالنسبة إلى شاب له طموح سياسي مثلي، ذلك أن التزامي والجهد الذي كنت أبذله كانا لافت انتباه. انتهى الأمر بويليامز إلى الفوز بالانتخابات التمهيدية لمنصب الحاكم بأغلبية ساحقة. هازماً ثلاثة من منافسيه المشهورين من دون الحاجة إلى إجراء انتخابات جديدة - وهو إنجاز مؤثر لمرشح يتقدم إلى هذا المنصب للمرة الأولى. وقد ساعده في الفوز الكم الكبير من أمواله الشخصية التي ضخها في الحملة الانتخابية، بالإضافة إلى جاذبيته التي استقطبت الناخبين، وبدا وكأنه يمثل وعداً عظيماً استحوذ على توق الناخبين الذي لا ينقطع. بتحقيق شيء مختلف عما يعدهم به أي سياسي نمطي.

بعد فترة وجيزة من انقضاء الانتخابات التمهيدية، سألني كينيون عن رغبتني في العمل بدوام كامل في وظيفة صحفية ذات دور أكثر أهمية وتلخص في السفر قبل ويليامز، المرشح، والتأكد من أن المناسبات العامة بما في ذلك المؤتمرات الصحفية معدة بشكل جيد، وكذلك الستائر الخلفية للمنصة ومواقع الكاميرات، وأن ويليامز سيقدم له عرض مختصر حول المظاهر المهمة للحدث. اقتنصت الفرصة وأجلتُ التقدم إلى الامتحانات النهائية في ذلك الصيف. كان من المثير جداً الانتقال إلى الصفوف الأولى في الحملة الانتخابية واغتنام الفرصة كي أتعرف جيداً على الشخص الذي سيكون الحاكم المقبل لولاية تكساس.

انتهى ويليامز من الانتخابات التمهيدية بتبوء موقع قوي، وبزخم يتعاضم يوماً بعد يوم، متقدماً على منافسته الديمقراطية المحبوبة التي تضج بالحيوية أن ريتشاردز بفارق كبير وواضح. كانت لويليامز جاذبية شعبية محافظة. كان ينظر إليه على أنه شخص من خارج اللعبة، وكرجل أعمال ناجح قادر على الوقوف في وجه بيروقراطية الولاية في أوستن، وعصرنة الحكومة، يحارب الجريمة بشكل فعال (كان يمكن له أن يعلم المجرمين

«متعة تفتيت الصخور»)، ويمثل على أكمل وجه القيم التي تشترك فيها غالبية المحافظين في ولاية تكساس. أما ريتشاردز، فإنها وبالرغم من أنها كانت محبوبة على الصعيد الشخصي، فإن العديد من الناخبين كان ينظر إليها كتقدمية أو ليبرالية أكثر من اللازم في ولاية مثل تكساس، كما أن خطابها سنة 1988 في مؤتمر الديمقراطيين الوطني الذي هاجمت فيه جورج هيربرت ووكر بوش التكتاسي عزز هذا الانطباع عنها.

عملت ريتشاردز مندوباً لمقاطعة ترافيس في ولاية أوستن عندما كانت والدتي تشغل منصب المحافظ، ولذلك فقد التقينا في مناسبات سياسية عندما كنت صغيراً. عندما خاض ويليامز معركته الانتخابية ضدها للفوز بمنصب الحاكم، كانت تحتل منصب أمين الخزانة في الولاية. كنت أعلم أن لديها الكثير من الجاذبية الشخصية، وأن من الصعب الفوز عليها، حتى عندما كان ويليامز متقدماً عليها بمعدل عشرين نقطة بعد الانتخابات التمهيدية. كنت أرى أنها تقبع في أقصى يسار الوسط، وكنت أعرف نقاط ضعفها حول هذه القضايا، لكنني كنت أعلم أيضاً مدى مهارتها في ضبط إيقاع موقعها أمام الجمهور وإعطاء الانطباع أنها تسير في الخط العام.

بعد الانتخابات التمهيدية مباشرة، بدأت مظاهر انعدام الخبرة السياسية لويليامز تؤذيه انتخابياً، حيث إنه أبدى بضع ملاحظات خرقاء وأفلتت منه زلات لسان مباشرة. على سبيل المثال، رفض ويليامز مصافحة ريتشاردز بعد انتهاء إحدى المناسبات لأنه سبق أن أبدى انزعاجه من حملة شعواء مجهولة المصدر شُنت عليه، ولأنها لم تكلف نفسها عناء إدانة هذه الحملة ضده. لكن رجال ولاية تكساس يفاخرون بتهذيبهم؛ وهكذا فإن طريقة ويليامز في تقريع منافسته علناً وبهذه الطريقة - والأنكى من ذلك، أنها سيدة - اعتبرت أنها تجاوزت لكل الحدود.

كانت نكتة بذينة أطلقها ويليامز أثناء جلسة صحفية غير رسمية في مزرعته أسوأ من تلك الحادثة بكثير. كان الطقس سيئاً في ذلك اليوم. مازح ويليامز مجموعة من الصحفيين قائلاً إن الطقس السيئ «يشبه إلى حد ما، الاغتصاب، وطالما أن عملية الاغتصاب لا يمكن مقاومتها، فالأفضل هو أن تسترخي وتستمتع بها». لم تكن هذه

المزحة مجرد تجسيد لخطيئة سياسية. بل كانت ملاحظة فظيعة انتفت منها كل المشاعر الإنسانية. وكانت حقيقة أن ويليامز يخوض معركته الانتخابية ضد امرأة، قد جعلت الأمر أسوأ بكثير بالنسبة إليه. تم إبلاغي فيما بعد أنه حالما خرجت هذه الكلمات من فمه، انبرى السكرتير الصحفي لويليامز، وتوجه بسرعة إلى الصحفيين قائلاً: «إن ما قيل ليس للنشر». لكن صحفياً واحداً على الأقل من بين الحاضرين أشار، وكان محقاً في ذلك، إلى أن أحداً لم يوافق على ذلك مسبقاً - كان كل ما كتبه الصحفيون يتمحور حول هذا التعليق. وكان لا بد للنكته التي أبداهها ويليامز أن تشق طريقها إلى عناوين الصحف وتتصدر التغطية التلفزيونية - وهذا ما حصل في اليوم الثاني.

ربما كان المرشح يخدع نفسه عندما أخبر أركان حملته أنه لا ضرورة للمبالغة في توقع التأثير السلبي الذي ستحدثه زلة اللسان تلك. بالطبع، كان بجانب الواقع إلى حد كبير، أمرني السكرتير الصحفي في اليوم الثاني أن أجمع كل القصاصات الإخبارية التي قامت بنشر عبارة ويليامز والتعليق عليها، وأن أنهض باكراً صبيحة نهاية الأسبوع تلك، للإجابة على المكالمات الهاتفية وذلك لكي يرى المرشح بأم عينيه عمق وفداحة الغضب الشعبي بسبب عبارته تلك. كانت أجهزة الهاتف في مكاتب حملتنا الانتخابية لا تتوقف عن الرنين، وكنت في البداية الوحيد الذي كان يجيب على هذه المكالمات كما طلب إلي أن أفعل. اعتبر التكساسيون عبارة ويليامز إهانة شخصية. أذكر ما قالته لي إحدى المتصلات وهي تتحدث بصوت تخنقه الدموع عن حادثة اغتصاب مأساوية تعرضت لها شقيقتها، وكيف أن هذا الاعتداء العنيف أدى إلى تشويه دائم لها وترك ندوباً عاطفية لا تندمل؛ وطالبتني بحقها في أن تسأل كيف يمكن لمرشح لمنصب الحاكم أن يتحدث بمثل هذه الخفة عن قضايا كهذه. لم تكن لدي أي إجابات أو أعذار كي أقدمها لها. ما استطعت فعله اقتصر على التعبير عن أخلص تعاطفي، والتأكيد لها بأن رسالتها سوف تصل إلى الجهة المقصودة. وهذا ما قمت به بالفعل، ولويليامز شخصياً على (سماعة) الهاتف عندما اتصل بي كينيون، السكرتير الصحفي، وطلب إلي قراءة بعض هذه المكالمات.

كان مقرر «القيادة» الذي قامت بتدريسه سارة ويدينغتون واحداً من المقررات المفضلة بالنسبة لي في جامعة تكساس. هذه الأستاذة هي صديقة قديمة لأن ريتشاردز والمعروفة

عبر تمثيلها لـ «جين لو» المجهولة. في قضية رو ضد ويد، وهي القضية التي أدت إلى جعل الإجهاض قانونياً في كل أنحاء الولايات المتحدة. كان عدد الطلبة المسجلين في هذا الصف قليلاً نسبياً بمعايير جامعة تكساس، ولم يسجل في هذا المقرر سوى عدد محدود من الطلبة المتميزين والمهتمين بالسياسة، وكان هذا المقرر يقدم المتعة والفائدة. كنت وقتها ما أزال أعمل بدوام جزئي في حملة ويليامز الانتخابية. كانت مناقشاتنا حادة ولكنها كانت دائماً ودية ما عدا ذلك اليوم الذي تلا تعليق ويليامز، عندما وجه إلي زملائي في الصف الأكثر ميلاً للبرالية عبارات قاسية. استطعت في نهاية المطاف أن أحملهم على إعطائي فرصة للكلام، وأهدئ من روعهم عبر تأكيدي لهم بأن تلك العبارة كانت مهينة، وتذكيرهم أيضاً بأنني لست أنا من تلفظ بتلك العبارة.

تهاوى تقدم ويليامز الواضح في استطلاعات الرأي إلى لا شيء في واقع الأمر، بسبب زلة اللسان تلك؛ بالإضافة إلى زلات أخرى مشابهة مع حلول يوم الانتخاب. ومع ذلك فقد كاد أن ينجح في تلك الانتخابات بفضل جاذبيته الشعبية. لكن ريتشاردز تقدمت عليه بفارق ضئيل.

تلك كانت تجربة مؤلمة استطعنا أن نتعلم منها نحن الذين عملنا لساعات طوال لصالح مرشح كنا نعهده ذكياً وواعداً. وكرجمة للوعد الذي قطعته على نفسي بأن لا أعود إلى عالم الحملات السياسية المليء بالمطبات، فقد شاركت لفترة قصيرة بواحد من المشروعات التجارية الذي أسس له بعض زملائي الذين كانوا ضمن فريق الحملة الانتخابية، قبل أن أقرر أن أقوم في الصيف الثاني بالعودة إلى الجامعة لإكمال متطلبات الحصول على شهادتي الجامعية الأولى.

لكن الوعد الذي قطعته على نفسي بعدم العودة إلى عالم الحملات الانتخابية كان مجرد وعد مؤقت. فبعد حصولي على الشهادة الجامعية في الصيف الثاني، أمضيت ست سنوات متأرجحاً بين حملة انتخابية وأخرى، ومحاولات كسب القواعد الشعبية السياسية، وحكومة ولاية تكساس.

في سنة 1994، وبناء على طلب من والدتي، أدت الحملة الانتخابية الناجحة الأولى لها بغية الوصول إلى موقع منتخب على مستوى الولاية. في أعقاب فوزها على المحافظ الديمقراطي، طلب إليّ سيناتور الولاية، توم هيوود أن أعمل بصفة رئيس لأركانها. سبق وأن أدت حملته الانتخابية في سنة 1992، التي خسرها بفارق ضئيل ضد السيناتور المتمرس في موقعه، والذي كانت الاستطلاعات تشير إلى أنه سيفوز فوزاً ساحقاً في تلك الانتخابات. نشأت صداقة قوية بيني وبين توم، وكذلك بيني وبين ابنته البارة دينيز، التي كانت تشرف على مصالح والدها عن كثب، خصوصاً بعد إصابته بمرض باركنسون.

لم يمنع المرضُ توم من القيام بمهامه كسيناتور، كما عملت معه لمدة ثمانية أشهر بما فيها مساعدته في المباشرة في فترته التشريعية الأولى كما اتفقنا. طلبت إليّ والدتي من جديد مساعدتها في حملة إعادة انتخابها التي فازت فيها بسهولة. بعد ذلك عملت في موقع القضايا الحكومية لحساب سلطة نهر كولورادو الأدنى (LCRA)، وهي شبه وكالة تتبع لولاية. قبل البدء في إدارة السباق الثاني لوالدتي، وكان السباق هذه المرة من أجل الفوز بمنصب أمين خزانة ولاية تكساس القوي النفوذ. في كل واحدة من هذه الحملات كنت أعمل أيضاً بصفة الناطق الرئيس.

في شهر كانون الثاني، يناير، سنة 1999، كنت أخطط للعودة إلى العمل لمصالح سلطة نهر كولورادو الأدنى عندما قابلتني كارن هيوود، مديرة الاتصالات في مكتب الحاكم بوش، حاملة إليّ دعوة ستغير مجرى حياتي.

4

الحاكم بوش يشرح نفسه للرئاسة

عندما كان جورج دبليو بوش حاكماً لولاية تكساس، كان يردد أنه يظن أن ذلك المنصب هو أفضل منصب في العالم. أميل جداً إلى الاعتقاد بأنه كان يعني ما يقوله؛ وعبر معرفتي الشخصية ببوش كما أعرفه الآن، فإنني أقدر السبب الذي حدا به إلى هذا القول.

الآن، من المهم أن نفهم أولاً أن حاكمية تكساس هي منصب ضعيف من الناحية الدستورية. والسبب في ذلك يعود إلى أن دستور سنة 1876، الذي كتب في نهاية مرحلة إعادة البناء، عندما كان أهالي تكساس ما يزالون يشعرون بالاستياء من الإدارة الجمهورية الأوتوقراطية المركزية التي فرضت عليهم بعد انتهاء الحرب الأهلية. قلص إلى حد كبير من سلطات الحاكم، وأدى إلى إنشاء حكومة ولاية لامركزية. وزع الدستور الجديد السلطات بين مجموعة من متبوعي المناصب المنتخبين بشكل مستقل، والمشرعين الذين يعملون بدوام جزئي. يحدد هذا المجلس التنفيذي الجماعي ما يستطيع أن يمارسه الحاكم من سلطات بشكل مستقل، وذلك لأن الموظفين الآخرين المنتخبين بدورهم بشكل مستقل أحراراً في ممارسة سلطاتهم بشكل مستقل، ومن الممكن أن لا يدعموا أهدافه (أجندته) بشكل كامل.

مع ذلك، يحمل منصب حاكم ولاية تكساس في طياته تأثيراً لاقتاً إذا كان الشخص الذي يتبوأ المنصب يعرف كيف يستعمل لغة الوعاظ التهديدية بشكل مؤثر. يتمتع حاكم الولاية أيضاً بحق الفيتو، بالإضافة إلى صلاحية تعيين عدد كبير من الأشخاص في مناصب مهمة وشهيرة داخل حكومة الولاية، بما في ذلك مجالس الجامعات، ولجان التشريع الرئيسية. كما أن له أن يدعو إلى عقد جلسات استثنائية للمجلس التشريعي الذي يلتئم بموجب نظام تكساس الفريد من نوعه (يمكن أن يطلق عليه بعضهم صفة الغريب)

في دورة واحدة مدتها أربعة أشهر ونصف تعقد مرة كل سنتين. ومن ضمن السلطات التي يمكن له ممارستها، تعيين كادر كبير، بالإضافة إلى صلاحيات وامتيازات أخرى مثل العيش في قصر، والتمتع بالحماية الأمنية واستخدام الطائرات التي تعود ملكيتها إلى حكومة الولاية. كما أنه يعد أرفع المناصب مكانة في الولاية، ويستحوذ على اهتمام وسائل الإعلام والاهتمام الشعبي أكثر من أي موقع آخر في الولاية.

كان هذا المنصب مناسباً جداً لأسلوب بوش الشخصي في الحكم. فهو شخص يستمتع بممارسة حياة كاملة ومتوازنة - وكمعظم السياسيين - فهو يعتبر أن وجوده بين الناس منشطاً ومحفزاً. كما أنه يقدر عالياً الانضباط والرتابة في وتيرة عمل برنامجه. وفرت له السلطة التي يتمتع بها عبر المنصب المقدرة على تنفيذ مشروعات مُرضية وذات قيمة - ومن بينها التأثير الإيجابي في تقرير الوجهة التي تتحول نحوها الولاية. كان لساعات العمل الطبيعية والمحددة رونقها وامتيازاتها الخاصة بها، مما وفر له مرونة عظيمة كي يوازن بين العمل، والتمارين الرياضية، وأوقات الراحة.

يولي بوش أهمية كبيرة للتمارين الرياضية اليومية، وأعتقد أن علينا جميعاً أن نفعل ذلك. أذكر أحد الأيام سنة 1997، عندما كنت موظفاً في وكالة نهر كولورادو الأدنى، وكانت ساعات عملي محددة وطبيعية، حينها، وقبل أن أتعرض إلى إصابة في ركبتي، كنت أركض من ثلاثة إلى أربعة أميال يومياً. في ذلك اليوم، كنت قد أخذت استراحة الغداء لأمارس رياضة الجري بالقرب من ضفة بحيرة تاون ليك في مدينة أوستن. وبينما كنت أتمطى وأمشي بجانب البحيرة قبل البدء برياضة الجري، تجاوزني رجل من الجهة اليمنى مسرعاً وكان يعتمر قبعة ويضع على عينيه نظارات شمسية. ما كنت لألاحظ تجاوزه لي إلا بالكاد، لولا أنه كاد أن يتعثّر بي: وهو ما دفعني إلى الاستدارة لأتبين شخصيته. رأيت اثنين من الأشخاص يتبعانه على دراجتين جبليتين، وثالث يتبعه مشياً على قدميه. كان الشخص الذي يعتمر القبعة الحاكم بوش الذي كان يقفز في الهواء بعد انتهائه من رياضة الجري في ذلك اليوم، وكان الأشخاص الذين يمشون في إثره من حراسه.

كان بوش يحب ممارسة رياضة رفع الأثقال في مبنى الألعاب الرياضية المجاور، أثناء فترة استراحة الغداء عدة مرات في الأسبوع، وكان يمتلك اللياقة التي مكنته من

القيام بذلك. وفرت له المكانة التي حظي بها عبر موقعه فرصاً كثيرة للتواصل مع شرائح عريضة من الناس، خصوصاً الناس العاديين الطيبين من أهالي تكساس الذين كان بإمكانه الالتقاء بهم، وإلقاء التحية عليهم، والتوجه إليهم في خطاباته. أتصور أن غالبية الناس سيكونون سعداء بالاستمتاع في ممارسة مثل هذه الوظيفة المريحة جداً، والمهمة، وذات المكانة المرموقة، لو أتاحت لهم الفرصة.

تبين لي أن العمل في مكتب الحاكم بوش الذي بدأ في أوائل سنة 1999 مجزياً ويمثل في الوقت ذاته الكثير من التحديات. دائماً ما كانت هناك مناسبات أو قضايا تتوجب معالجتها، بما في ذلك حملته الانتخابية غير المعلنة حتى الآن لمنصب رئاسة الولايات المتحدة.

عبر موقعي كنائب لمديرة الاتصالات، غالباً ما كنت على تواصل مع الحكم بوش لأنني كنت أرد على استفسارات الصحافة، وأحضر المناسبات العامة معه في مدينة أوستن وكذلك في أرجاء الولاية، وأكتب التصريحات والبيانات الصحفية له، من بين واجبات عديدة أخرى. بدأت أتعرف عليه عن كثب أكثر فأكثر. شخصاً وكزعيماً سياسياً، ونشأت بيننا بالتدرج علاقة تسودها الإلفة الشخصية.

على العكس من الحاشية الرئاسية، تسود حاشية الحاكم نوعاً من الحميمية، وتكون صغيرة إلى حد ما، وكان بوش يفضل أن تكون كذلك دائماً، لم يكن يتحمس لوجود كثير من الناس من حوله للاهتمام بشؤونه، والسير من ورائه، أو توجيهه إلى أين يذهب أو ماذا يقول. كان من المألوف في الرحلات التي قام بها عندما كان حاكماً للولاية أن يرافقه فقط مساعد شخصي، والناطق باسمه، واثنان أو ثلاثة من حراسه الأمنيين، وكانوا الأفضل من بين ضباط قسم السلامة العامة في ولاية تكساس.

هناك عدد من اللحظات التي ما زلت أذكرها جيداً خلال فترة الأشهر الستة التي قضيتها في مكتب الحاكم قبل أن تنطلق على العمل في الحملة الانتخابية الرئاسية.

في مكتب الاتصالات التابع للحاكم، واجهت للمرة الأولى قضية سياسية تتعلق بالحياة أو بالموت - عقوبة الإعدام. اتخذ الحاكم بوش موقفاً متشدداً حول مسألتني وقف تنفيذ

أحكام الإعدام أو تخفيف هذه العقوبة. كان يؤمن أن عقوبة الإعدام تساهم في إنقاذ حياة الأبرياء عبر تأثيرها الرادع. وكان يرى أنه إذا توفرت الفرصة الكاملة للمجرم المدان في المرور بكل مراحل المحكمة، وإذا أدانت المحكمة بصورة لا يرقى إليها الشك، فإن الحاكم لا يملك صلاحية تجاوز قرار المحلفين. على أي حال، كانت خياراته بموجب قانون الولاية محدودة وتتمثل في إيقاف مؤقت لتنفيذ العقوبة لا يتعدى الثلاثين يوماً، كما أن بإمكانه تخفيف العقوبة فقط إذا تلقى توصية للقيام بذلك من مجلس العفو وإطلاق السراح المشروط التابع لولاية تكساس (الذي يقوم الحاكم بتعيين أعضائه). كان عليّ كناطق باسم الحاكم أن أجيب على تساؤلات المتعلقة بقضايا محددة، وكذلك على أسئلة تتعلق بالطريقة التي يراجع فيها الحاكم هذه القضايا قبل المصادقة على حكم الإعدام.

تعرض جورج دبليو بوش إلى حملة واسعة من التمهيص أكثر من أي حاكم آخر لتكساس، وذلك بسبب أنه ابن رئيس سابق للولايات المتحدة، ومرشح محتمل لرئاسة الولايات المتحدة في المستقبل. كانت القضايا المتعلقة بعقوبة الإعدام من بين أكثر القضايا تعقيداً. تنفذ أحكام الإعدام في ولاية تكساس بمعدلات هي الأعلى بين كل ولايات الاتحاد؛ وقد تم تنفيذ 152 حكم بالإعدام في تكساس خلال فترة ولاية جورج بوش كحاكم للولاية؛ وهو رقم أثار الكثير من الجدل. كان من بين من نفذ فيهم الحكم بالإعدام عدد لا بأس به من المجرمين الذين كان معدل ذكائهم أدنى مما كان في الغالب، العتبة التي تضعهم في حال أقرب إلى التخلف العقلي، بمن فيهم «كارلا في تاكر»، المسيحية التي ولدت من جديد، والتي شهدت قضيتها في سنة 1998 مناشدات لمنحها العفو من البابا يوحنا بولس الثاني، ومن محافظين شهيرين مثل نيوت غينغريتش وبات روبرتسون.

على أي حال، ربما كانت عقوبة الإعدام القضية المهمة الأولى التي كان عليّ التعامل معها بشكل مباشر مع وسائل الإعلام، والتي كان موقفي الشخصي بشأنها لا ينسجم مع موقف جورج بوش. ففي الوقت الذي أؤمن تماماً بضرورة اتخاذ موقف صارم من الجريمة، كانت دائماً تتتابني الشكوك حول عقوبة الإعدام. وكان رأيي ينطلق من أساس أخلاقي. تزعجني جداً فكرة أن يسقط شخص بريء ضحية هذا النظام، وأن تطبق عليه عقوبة الإعدام بسبب جريمة لم يرتكبها. أؤمن بأن عقوبة السجن المؤبد المرافقة

بعدم إمكان إطلاق السراح. والتي تعزل المجرمين المدانين عن المجتمع يمكن لها تحقيق الهدف نفسه - عبر إبعاد هذا الشخص مرة وإلى الأبد، عن إمكان إيذاء شخص بريء آخر - من دون إجبار المجتمع على القيام بدور اعتقد أنه ليس من حقه أن يمارسه. يجب أن يعزل المجرم المدان في مكان انفرادي من سجن تكون فيه المراقبة صارمة، ويعامل بشيء من الإنسانية، ولكن بحقوق أقل بكثير من تلك التي يتمتع بها أفراد المجتمع. كما أتساءل، كما فعلت العديد من الدراسات على مر السنين، فيما إذا كان لعقوبة الإعدام أي تأثير ردعي.

كي أكون واضحاً، أنا لست ضد تطبيق عقوبة الإعدام بالمطلق. إذا كانت هناك قضية تستدعي تطبيق هذه العقوبة، فإنه يجب تطبيقها على مرتكبي الهجوم في الحادي عشر من أيلول، سبتمبر. القضية بالنسبة لي هي من التعقيد بحيث لا يمكن النظر إليها من منظار الأبيض مقابل الأسود. ولكن لدي شكوك كثيرة حولها، تماماً كالشكوك التي سأشعر بها لاحقاً حيال ضرورة شن حرب على العراق (وهي أيضاً سياسة ذات صلة بمسألة الحياة أو الموت)، عندما طلب إلي بوصفي ناطقاً رسمياً القيام بالدفاع عن هذا الموقف بالرغم من تأنيب الضمير الذي عانيت منه بشأن هذا الموضوع أيضاً.

لم أعبر علناً عن شكوكي حول جدوى عقوبة الإعدام. في المحصلة، كنت أعبر عن اقتناعات الحاكم، وليس عن اقتناعاتي حول الموضوع. كان لا يتوانى عن إعلان دعمه لتطبيق عقوبة الإعدام، وكان هذا موقفاً سبق له أن أعلن عنه عندما كان يخوض حملته الانتخابية لفوز بمنصب الحاكم، والذي أيدته فيه الغالبية العظمى من أهالي تكساس. أكثر من ذلك، كانت عقوبة الإعدام جزءاً من قانون الولاية. وإذا، حتى لو رغب الحاكم في عدم إعطاء الموافقة على تنفيذه، فلا بد له مع ذلك، من الالتزام بتطبيق قوانين ولاية تكساس بأمانة. لهذه الأسباب مجتمعة، خاطبت نفسي قائلاً إن شكوكي الشخصية لا تقدم ولا تؤخر. أصدرت تصريحات باسم الحاكم بوش مدافعاً فيها عن موقفه، ورددت على اللفظ الذي أثارتته هذه القضية بالطريقة التي أرادها بوش. وهذا بالضبط ما يقوم به الناطق الرسمي.

هناك أيضاً لحظة جديرة بأن يتوقف المرء عندها: وتتعلق بقانون أكثر صرامة ويتعلق بقيادة السيارة تحت تأثير المسكرات تمت المصادقة عليه في ولاية تكساس. بعد قيام قيادات لجنة «الأمهات المناهضات للسائقين المغمورين» بحملة مركزة لفرض هذا القانون، وافق مشرعو ولاية تكساس على إصدار قانون سنة 1999 أصبح بموجبه الحد الأدنى المطلوب من نسبة الكحول في الدم 0.8 بدلاً من 0.10. أذكر حينها أنني اقترحت على كارن هيوز أن من المستحسن الترتيب لاحتفال علني للتوقيع على هذا القانون، بحيث يمكن للحاكم أن يؤكد على أهمية القانون الجديد. أجابت كارن: «لا أعتقد أنه سيقوم بأي شيء في العن حول هذا الموضوع. لا أدري بالضبط ما هو السبب، إلا أنني أظن أن الأمر له علاقة بـماضيه».

وجدت إجابتها وجيهة، لكنني لم أتوقف عندها كثيراً في ذلك الوقت. لست متأكداً لماذا، بالضبط: ربما لأن الصحف التي تهتم بالشؤون اليومية لم تعر الأمر اهتماماً كبيراً، إلى حين وقوع أحداث قبل يوم الانتخابات سنة 2000 جعلتني أتذكر الحوار الذي دار بيني وبين كارن، وأفكر بالموضوع من زاوية جديدة.

عموماً، كانت تجربتي في مكتب الحاكم جيدة. تعلمت الكثير عن الحكومة، والسياسة، وفن الاتصال. مددت يد المساعدة لإدارة كانت تعطي نتائج جيدة لولاية تكساس وشعبها بعيداً عن الروح الحزبية. كما كنت ألعب دوراً مفيداً في مهنة سياسي واعد يعدده العديد من الناس رئيساً مستقبلياً محتملاً للولايات المتحدة. كل ذلك كان أمراً مثيراً وحماسياً.

استمتعت ببعض اللحظات الرائعة من الوفاق الشخصي مع بوش، عندما كنا على متن طائرة صغيرة نجلس لوحدها في مقدمة الطائرة، أو نتجاذب أطراف الحديث في مكتب الحاكم. حدثت واحدة من اللحظات المفضلة في اليوم الذي كنت أول الواصلين إلى اجتماع لمراجعة القوانين التي تم إقرارها في جلسة المجلس التشريعي، والتي يمكن للحاكم أن يستخدم حق النقض، (الفيتو) لإسقاطها. وبحكم وصولي باكراً. دعاني الحاكم إلى المطبخ حيث كان يحضر لنفسه واحدة من الوجبات المفضلة لديه وهي شطيرة مكونة من زبدة الفستق والمربى. كان يلبس قميصاً قصير الكمين، أبيض اللون

وسروالاً من الجينز، وكان حافي القدمين: سألتني فيما إذا كنت أرغب بتناول شطيرة. أجبت: بالتأكيد. أعدت واحدة لي، وتحدث إلي عن جملة من الموضوعات المختلفة، وكانت أغلب تلك الموضوعات لا علاقة لها بالسياسة.

بعد انقضاء مدة ليست بالبعيدة على بدئي بالاستقرار بهدوء في عملي بمكتب اتصالات الحاكم، وذلك في المدة التي تلت الجلسة التشريعية، ومدة توقيع القوانين التي أعقبتها، طلبت إلي كارن هيوز التي كانت حينها مديرة حملة بوش الانتخابية لسنة 2000، التقدم خطوة أخرى إلى الأمام. حدث الأمر هذه المرة في أواخر شهر تموز، يوليو سنة 1999، وكانت تلك الخطوة تتعلق بالانضمام إلى آلة الحملة الرئاسية الجاهزة للانطلاق على أن أشغل موقع نائب السكرتير الصحفي. كان الفريق بحاجة إلى ملء الفراغ الذي تسببت به مفادرة المتحدث الرسمي الوطني ديفيد بيكويث، وهو مسؤول مخضرم متخصص في مجال الاتصال السياسي في واشنطن، وكان أيضاً الناطق الرسمي السابق لنائب الرئيس. تعود معرفتي ببيكويث إلى سنة 1992، عندما كان يعمل في تكساس لصالح المرشحة لمجلس الشيوخ الأمريكي كاي بيلي هاتشيسون. كنت أحب بيكويث، لكن كارن كانت تراه مثل مدفع ينطلق في كل الاتجاهات، وكان أقل حذراً مما يجب، وغير ملتزم كثيراً بالمهمة الموكولة إليه كما ترغب هي بذلك. أعربت كارن عن ثقتها في قدرتي على تعاطي الأمور بحذر، وعلى الالتزام بالمهمة الموكولة إلينا، وأحسّت بأنني قادر بشكل جيد على استيعاب النبرة التي يفضل بوش استخدامها في تصريحاته.

اكتسبت خبرة لها قيمتها أثناء تعاملتي مع الصحافة الوطنية خلال الفترة التي سبقت الانتخابات التمهيدية وانتخابات الولايات التمهيدية المبكرة. قضيت معظم وقتي في الرد على الاستفسارات الصحفية الواردة من صحفيين من ذوي ميول مختلفة، وكذلك من مؤسسات إخبارية، وذلك بشكل شخصي، وأيضاً على الهاتف، والمشاركة في اجتماعات الإستراتيجية الإعلامية.

كان الحاكم بوش يبدو في طريقه إلى تأمين ترشيح حزبه للانتخابات؛ عرضت عليّ كارن أن أكون السكرتير الصحفي المتنقل عندما تتحول الحملة إلى مستوى الانتخابات

العامّة. كانت كارن تتابع سفرها بانتظام كونها ناطق رئيس باسم الحملة، ولكن بسبب أن كل الحاشية الصحفية تتبع المرشح في كل خطوة يخطوها، كان لا بد من وجود ناطق ثانٍ متنقل. قبلت العرض بكثير من الحماسة.

لم يتحقق النصر التمهيدي بالسرعة والسهولة اللتين كنا نتوخاها. فقد حقق السيناتور ماكين نصراً مفاجئاً في ولاية نيوهامبشير، وتلا ذلك نصر حققه بوش في السباق المحموم في ولاية جنوب كارولينا. بدأ تقاذف الاتهامات بين الطرفين حول حصول الكثير من الافتراءات، والأحابيل القذرة، والهجمات السلبية والضربات تحت الحزام بدءاً من السباق في ولاية جنوب كارولينا والمستمرة في معركة الانتخابات التمهيدية في باقي الولايات، والتي أدت إلى شعور بالمرارة أتصور أنها ما تزال تخيم على بعض الأماكن إلى يومنا هذا.

ربما تتساءلون فيما إذا كانت تلك الأساليب (التكتيكات) الفظة المؤذية في إدارة الحملات الانتخابية هي أحد الأهداف التي أصوب عليها عندما أشجب المبالغة في المدى الذي تذهب إليه واشنطن في حملاتها التي لا تتوقف، وسياستها التي هي أشبه بالأرض المحروقة. أنا بالتأكيد لا أبنى تشويه سجل الخصم، ولا أتقاضى عنه؛ كما أنني لا أفبرك أكاذيب عنه أو أغمز من قناته عبر نشر حملات هامسة للإساءة إليه، بل أرى أن وظيفة وسائل الإعلام هي المساعدة في كشف الحقائق في مثل هذه الظروف، لكن القلق لا يساورني بشأن الحملات الانتخابية القاسية والصعبة، بل بشأن أساليب تكتيكات مثل هذه تتسرب إلى سلوك الحكومات، فـ(التكتيكات) الانتخابية القاسية قديمة قدم الديمقراطية، ولكن مع نهاية الانتخابات، فإن القادة المنتخبين من كلا الحزبين - خصوصاً الذين يستلمون السلطة - مدينون للشعب أن يعملوا يداً واحدة من أجل حل مشكلات البلاد عبر المداوولات والقبول بالحلول الوسطى. وهذا ما قاموا بفعله في أغلب مراحل التاريخ الأمريكي، حتى بعد حدوث حملات انتخابية كانت سلبية بشكل متوحش أو تم خوضها بضراوة. (كانت لنا حصتنا من هذا النوع من الحملات في ولاية تكساس). يجب علينا إيجاد وسيلة نعود بواسطتها إلى تلك التقاليد.

نهض ماكين من كبوته بعد خسارته في ولاية جنوب كارولينا بواسطة الانتصار الذي حققه في ولاية ميشيغان، لكن ذلك الانتصار كان الأخير بالنسبة إليه، ذلك أن بوش فاز في نهاية المطاف بترشيح الحزب الجمهوري.

غالباً ما توصف الحملات السياسية «بالفوضى المنظمة». الحملات الرئاسية هي فوضى منظمة على نطاق واسع. هناك العديد من النقاط التي يجب التركيز عليها، مثل جمع التبرعات، وممارسة الخداع، والبحث في الإستراتيجية، والاتصالات، ودفع العمل إلى الأمام، والتقصي، وتنظيم المناسبات؛ وكل واحدة من هذه النشاطات تستوجب إبقاء الصحون تدور فوق العصي بالوقت نفسه. قضيت معظم زمن الانتخابات التمهيدية في ممارسة مهمة الناطق الصحفي كنت أقوم خلالها بالرد على استفسارات وسائل الإعلام، وأجراء مقابلات، والمشاركة في اجتماعات إستراتيجية الاتصالات، والمناقشات. بعد أن تم تعييني بوظيفة المتحدث الرسمي المتنقل أثناء الانتخابات العامة، قضيت معظم وقتي متنقلاً كوني عضواً في فريق بوش المتنقل. أما في الأيام التي لم نكن نساfer فيها، فقد كنت أعود لإجراء الاتصالات الهاتفية، والمقابلات التلفزيونية من مركز الحملة الرئيس، والمشاركة في الاجتماعات الصباحية المخصصة لكبار أعضاء فريق بوش حيث كنا نناقش إستراتيجية الاتصالات بما في ذلك النقاط التي يجب الحديث عنها، بالإضافة إلى موضوع رسالة اليوم.

تتضمن ذكرياتي عن موكب الحملة الانتخابية عدداً لا يحصى من الأسفار الجوية، ومواكب الدراجات النارية، والحافلات الصحفية، وغرف الفنادق، والاحتفالات الجماهيرية الضخمة، والعلاقات الإعلامية المتنقلة. كنت أقوم بتنسيق الرسائل والردود، ونحن على طرقات السفر مع كارن هيوز، الناطقة الرئيسة باسم الحملة؛ ومنها، كنت أعود مع فريق الاتصالات إلى مركزنا الرئيس في أوستن - بمن في ذلك الناطق باسم الحملة على المستوى الوطني آري فليشر، ومدير قسم الرد السريع دان بارتليت.

كان من ضمن مهامى القيام بمهمة إدارة الإنذار المبكر، وجمع المعلومات الأمنية لصالح الحملة الانتخابية. عبر إقامة علاقات وثيقة مع الصحفيين الذين كانوا يغطون تنقلات

بوش في أسفاره، بما في ذلك قضاء وقتي بينهم، فقد التقطُنتُ مفيدة من المعلومات - مثل تطوير خيوط الحبكة التي تزودنا بالدفع اللازم الذي نحتاجه، والاطلاع على الهجمات التي ترد إلينا من المعارضة، أو الآراء الواردة من داخل معسكر آل غور بواسطة زملائهم الذين يقومون بتغطية العرض الطُّرقي للحملة الانتخابية للديمقراطيين. وكما هي الحال في أي معركة إستراتيجية، من المفيد الاطلاع على المزاج العام للخصم، وعلى طريقة تفكيره.

شكلت الحملة الانتخابية فرصة لي كي أتعرف إلى بوش أكثر، نظراً إلى أنني قضيت معظم وقتي بالقرب منه، بما في ذلك إطلاعه على المعلومات الإعلامية التي تهمة، وكان هذا يتم غالباً بوجود كارن هيوز. تتطلب الصرامة التي تتميز بها الحملات الانتخابية الرئاسية انضباطاً، وحيوية، وتركيزاً من قبل المرشح لهذا المنصب. السفر منهك جداً، وغالباً ما يتضمن المشاركة في العديد من المناسبات في كثير من المدن، وفي أي يوم؛ لكن ربما ينعم المرء بيوم أو يومين من الراحة في منزله بعد قضاء بضعة أيام مسافراً في القافلة الانتخابية. يكون المرشح دائماً تحت الأضواء، فهو يلقي خطابات، ويجري مقابلات، ويحضر اجتماعات لجمع التبرعات، ويصافح الأيدي الممدودة إليه من وراء خطوط من الحبال؛ و، نعم، يحمل الأطفال بين ذراعيه. يجب عليه أن يشارك في لعبته كل دقيقة من كل يوم.

نجح بوش في التعامل مع هذه الضغوطات بشكل لاف. فقد كرس وقتاً كافياً لتصفية ذهنه، وترتيب أوراقه، وأخذ قسط وافر من النوم (أقله، في معظم الأحيان). كما تفهم أيضاً أهمية أن يكون في موقع متقدم في السباق. فالحملة الانتخابية هي سباق ماراثون، فهم بوش طبيعته عبر مراقبة حملة والده في سنة 1988 وتقديم النصح له. كان يمتلك أيضاً مقدرة عظيمة في الإبقاء على تركيزه على الصورة الكبيرة من دون أن ينتابه القلق بشأن القصص «الإجرائية الصغيرة» - التحليل اليومي للتفاصيل الصغيرة المتعلقة بسباق الخيل الذي ترغب الصحافة في نقلها، والتي لا تجد في الغالب، أي اهتمام يذكر من قبل عامة الشعب.

أدرك بوش أيضاً أهمية المحافظة على روح الدعاية لديه، خصوصاً عندما بدأت تشتد سخونة الحملة الانتخابية. يشتهر بوش بأنه يحتفظ بحجرة أدراج تحتوي على الكثير من القصص الغريبة؛ اخترت بدلاً من سرد هذه القصص في هذا الكتاب أن أتركها في تلك الحجرة من الأدراج المقفلة. ولكن علي القول إننا قضينا أوقاتاً مريحة جداً وخصوصاً عند اقتراب نهاية الحملة الانتخابية. كانت النهاية وشيكة بشكل أو بآخر (أو هذا ما تبادر إلى أذهاننا)، وانتابنا إحساس بأننا، وبعد عدة أشهر من التنقل والسفر، سوف نعود قريباً إلى بيوتنا.

كان الاحتفاظ بروح الدعاية وراء الستار يساعد المرشح وجميع من حوله بتحمل جو الحملة الانتخابية المتوتر والمملوء بالضغط من دون أن يفقد أحد ملكاته الفكرية. كان بوش يحب أن يداعب أعضاء فريقه المتنقل وذلك بسؤالهم في نهاية اليوم فيما إذا كانوا يشعرون بالتعب بسبب عملهم طيلة اليوم. كانت لديه طريقة ذكية في القبض على فريسته. فلو قال أحدهم إنه كان يشعر بالتعب، كان يسارع في إبلاغ أعضاء الفريق الآخرين عن حجم التعب الذي كان يشعر به طيلة اليوم. وكان يلتفت بعدها إلى عضو الفريق ذاك ويسأله: «كم خطاباً ألقىت هذا اليوم؟ وكم يداً ممدودة إليك قمت بمصافحتها؟» كانت تلك طريقة لطيفة يذكرنا فيها بالشخص الذي كان عليه أن يتحمل أثقل الأعباء في سفرنا في ذلك اليوم. لقد كان هذا أسلوباً أعاد بوش استعماله في حملة سنة 2004. أثناء رحلات امتدت زمناً أطول من الحملة الأولى. ونعم: أذكر أنني وقعت في هذا الشَّرَك في إحدى المرات.

ففي إحدى الأمسيات، ومع اقتراب نهاية الحملة الانتخابية استدار الرئيس من مقعده بجانب المر في مقدمة الطائرة المخصصة للحملة الانتخابية وأشار إلى واحد من أعضاء الفريق في الصف الأخير من الجزء المخصص لفريق العمل، على بعد صفوف قليلة منه إلى الورا. كان عضو الفريق، إريك تيريل قد وقَّع على شيكات تتعلق بمصاريف سفر محدودة. كان لطيفاً في أسلوب حديثه، وكان شخصاً يؤثر الابتعاد عن الأضواء لدرجة أن من السهولة بمكان أن تتغاضى عنه. كان بوش يدعو: «تشيك دود»، وهو لقب أعطي

له منذ بداية الحملة الانتخابية. كان إريك هذا، قد تراهن مع ليف من زملائه في طاقم السفر أن بإمكانه أن يتابع سفره مع بوش من بداية الحملة إلى نهايتها من دون أن يعرف بوش اسمه الحقيقي. لكن بوش استدار في تلك الأمسية، وأشار إليه قائلاً: «إريك تيريل؛ أنت إريك تيريل، لقد أمسكتُ بك، لقد وقعتُ في الفخ».

وفي الوقت الذي كان بوش يضحك مزهواً بانتصاره، كان على إريك أن يدفع الرهان الذي خسره.

بالعودة إلى الماضي، أذكر أنني مررت بتجربة لا تنسى عندما كنت مسافراً مع الحاكم بوش في بداية الحملة الانتخابية؛ ولقد كشفت لي هذه التجربة عن أشياء أكبر من النزعات المقيتة في واشنطن المعاصرة والمتمثلة في قضاء وقت غير محدد من أجل الفوص في ماضي المرشح الشخصي. كما أظهرت جانباً مثيراً للفضول في شخصية بوش - وهو الجانب الذي أثبت أهميته في بعض الأحيان أثناء إدارته الرئاسية.

أذكر أننا كنا نقوم بحملتنا الانتخابية في الغرب الأوسط. وقد حدث هذا بعد وقت قصير على ضمان بوش لترشيح الحزب الجمهوري له. كانت كارن هيوز تسافر معنا أثناء المواجهة الشرسة بين معسكري بوش وماكين في الانتخابات التمهيدية، ولكنها قررت بعد انقضاء تلك المواجهة ملازمة بيتها للتركيز على الصورة الإستراتيجية الأشمل للانتخابات العامة بعيداً عن متطلبات الطريق ومستلزماته، بينما كنت أثناء ذلك الناطق الوحيد باسم الحاكم.

بعد الانتهاء من إحدى المناسبات الانتخابية، وصلنا إلى فندق محلي حجزت فيه بعض الغرف لأعضاء الفريق لأخذ قسط من الراحة. كنا، بوش وأنا، قد قمنا بإحدى الزيارات، توجهنا بعدها إلى جناحه. كان مساعده الشخصي لوغان والترز في إثرنا مع بعض عملاء الأمن السريين. في الطريق إلى الطابق العلوي، بدأ بوش بطرح الأسئلة، والتدث بشأن ما يدور في سلك الصحافة. وحالما اقتربنا من غرفته، ذكرت له بأن التطرق إلى موضوع الكوكايين متواصل في الصحف وأنه يتسرب من بين ظلال الحملة الانتخابية.

كان الصحفيون في المراحل الأولى من الحملة الانتخابية قد سألوا بوش عن موضوع إشاعة تعاطيه للكوكايين في مراحل شبابه الأولى. كانت الإشاعات تنتشر، لكن أياً من هذه الإشاعات لم يتم إثباتها. كان بوش يتجنب دائماً الخوض في أسئلة لها علاقة بماضيه عبر القول بطريقة مُراوغة وغامضة مقصودتين: «عندما كنت شاباً لم أشعر بالمسؤولية، كنت شاباً لا أشعر بالمسؤولية». أغلب الصحفيين والمعلقين - أراهن أن أغلب الناخبين كذلك - التقطوا الرسالة. كان بوش في واقع الأمر يقر بأنه ارتكب بعض الأخطاء بما في ذلك تناول الكحول والمخدرات، في الوقت الذي رفض أن ينجر إلى سيل لا ينتهي من الأسئلة عما قام به بالضبط وكيف يمكن أن يؤثر ذلك على قدرته لاستلام زمام الحكم وذلك بعد مرور سنوات على تلك التجربة. بعد ذلك كان بوش ينتقل إلى الموضوع الأشمل الذي كان يرغب في التأكيد عليه: الرسالة الأهم التي يمكن أن يرسلها مرشحون مبتدئون مثله إلى أبنائهم هي أنهم تعلموا من أخطائهم، وأن على أبنائهم تجنب ارتكاب مثل هذه الأخطاء.

استطاع سام أتليسي، الصحفي المخضرم الذي يعمل في صحيفة «دالاس مورنينغ نيوز» في شهر آب، أغسطس، سنة 1999، أن ينتزع جواباً جزئياً غير مباشر من بوش حول هذه المسألة. تركّز السؤال حول ما إذا كان بوش قادراً على الوفاء بالمعايير التي تتطلبها التحقيقات الأمنية التي يجريها مكتب التحقيق الفيدرالي (FBI) حول خلفية من قد يعينون في منصب فيدرالي، والتي من بينها سؤال يتعلق بتعاطي المخدرات خلال السنين السبع الأخيرة. أجاب بوش أنه على استعداد للقيام بذلك؛ وأكد على أنه لم يتعاط الكوكايين خلال تلك المدة. سئل في اليوم الثاني عن مدى وفائه بتلك المعايير أثناء فترة إدارة والده، عندما كان يعمل بصفة مستشار غير رسمي لبوش الأب. هذه المرة، كان السؤال يغطي مدة خمس عشرة سنة. أكد بوش أنه على استعداد للقيام بذلك أيضاً؛ ثم قام بوضع حد لهذا الموضوع بالقول إنه لم يتعاط الكوكايين منذ سنة 1974 على الأقل. بعد ذلك عاد إلى مقولة «الشباب اللا مسؤول»، وأوضح أنه لن يتطرق إلى هذا الموضوع مرة أخرى.

على الرغم من ذلك، عادت القصص الإخبارية وأعمدة الرأي للحديث بشكل متواتر حول هذا الموضوع من جديد. أكد بعض النقاد أن هذا الموضوع يدخل في صلب النقاش حول ترشيح بوش. وأشاروا إلى أن بوش كان منافقاً عندما تبني اتخاذ عقوبات صارمة ضد المتعاطلين لكميات قليلة نسبياً من الكوكايين طالما أنه هو نفسه كان قد تعاطاها في الماضي، خصوصاً أنه لم يواجه أي مشكلات تستحق الذكر بسبب فعلته تلك.

كل ما تقدم، كان في خلفية الحديث الذي جرى بيني وبين بوش في طريقنا إلى الجناح المخصص له في فندق في مكان ما، من الغرب الأوسط. ذكرت للحاكم أن الصحيفة المحلية في تلك البلدة نشرت صورة مبتذلة له بجانب قصة تتحدث عن الإشاعات الدائرة حول موضوع الكوكايين. كانت الصورة لرأس بوش، وكانت تظهر فيها سبابته وهي تلمس أرنبة أنفه. كان التعبير بالطبع محض مصادفة، لكنها أضحت موحيةً على الأقل كونها عرضت بالتزامن مع القصة المرافقة لها. هز بوش رأسه وكأنه غير مصدق، وتنهد قائلاً: «غير معقول، لا بد أنك تمزح!»

حينما وصلنا إلى جناحه، دعاني الحاكم للحاق به إلى الغرفة الخلفية. بقي لوغان في ردهة غرفة الجلوس، وكان يحضر لمكالمة هاتفية كان بوش سيتلقاها من أحد المؤيدين. أشار بوش إليّ أن أجلس وأسترخي في غرفته بينما كان يرد على المكالمة. لم أكن أعرف من هو المتصل؛ ولكن من نغمة الحديث الدائر، كان باستطاعتي الاستنتاج بأنه كان واحداً من كبار المتبرعين، ولو أنه لم يكن من أصدقائه القدامى. ونظراً لأن تعليقاتي حول الصورة في الصحيفة المحلية كانت ما تزال طرية في ذاكرته، فقد أثار بوش خلفية هذا الموضوع في تلك المكالمة.

سمعت بوش يقول: «يبدو أن وسائل الإعلام لن تتوقف عن الحديث حول هذه الإشاعات السخيفة عن الكوكايين». وتابع قائلاً: «هل تصدقني إذا قلت لك إنني لا أتذكر فيما إذا كنت قد تعاطيت الكوكايين أم لا. لقد كنا نقيم بعض الحفلات الماجنة حينها، وأصدقك القول إنني لا أتذكر».

هذا الكلام الذي لم أملك إلا أن أسمعه أصابني بالصدمة، وما يزال يلازمي إلى يومنا هذا - ليس بسبب ما كشفه أو ما خبأه عن الشاب جورج بوش، بل بسبب ما قاله عن بوش كرجل أكبر سنًا وكقائد سياسي، خصوصاً كما كشفت عنه تجاربي اللاحقة في العمل لديه.

أذكر أنني سألت نفسي: كيف يمكن أن يتم ذلك؟ كيف يمكن لشخص أن ينسى أنه تعاطى مادة ممنوعة مثل الكوكايين؟ إنه أمر لا يُصدق.

أجريت مقارنة بين ذاكرة بوش، أو غيابها وبين ذاكرتي. عندما كنت شاباً صغيراً، كنت أعاني من مشكلة الإفراط في تناول الكحول في الحفلات أو في البلدة مع أصدقائي. كنت متواجداً مرة أو مرتين بين مجموعة من الأشخاص الذين كانوا يدخلون الماريغوانا. ولكن كان هناك دائماً حد رسمته بيني وبين المخدرات. أقرب اللحظات التي اختبرتها مع المخدر كانت الإمساك بلفافة ينبعث منها الدخان في يدي في منزل أحد الأصدقاء، حدثت فيها لبعض الوقت كما لو أنني كنت تحت تأثير إغراء تدخينها - وكان القصد من ذلك مجرد محاولة مني لداعبة أصدقائي وليس أي شيء آخر - ومن ثم قمت بتمريرها إلى الشخص الواقف إلى جانبي، قائلاً: «شكراً ولكن: لا، شكراً». أو شيئاً من هذا القبيل. بعد أن تكرر الشيء نفسه مرتين، تبين لأصدقائي أن من غير المجدي حتى محاولة إغرائني بتدخينه.

سواء قمت بتدخين ملء قِدرٍ من الماريغوانا أم لا، فهو ليس بذئياً أهمية. المهم أنني أعرف ماذا حدث: أي أنني أتذكر. وجدت من الصعوبة بمكان، استيعاب كيف أن بوش يمكن أن يقول إنه ببساطة لا فكرة لديه البتة حول ما حدث في ماضيه الشخصي.

أنا أعرف بوش، وأعرف أنه يؤمن تماماً بما يقول. إنه ليس ذلك الشخص الذي يوزع الكذب يمناً ويسراً، خصوصاً عندما يجري حديثاً خاصاً مع أحد مؤيديه أو أحد أصدقائه. ولذلك فإنني أصدق أنه كان يعني ما قاله في تلك المحادثة الهاتفية حول الكوكايين. كانت المرة الأولى التي شعرت فيها أنني أشهد بوش وهو يحاول إقناع نفسه بشيء ربما لم يكن صحيحاً، وأنه في أعماق نفسه، كان يعرف أن ذلك لم يكن صحيحاً.

وكان دافعه للقيام بذلك جد واضح: كان ذلك مفيداً من الناحية السياسية. هو بالتأكيد، ليس السياسي الوحيد الذي يلجأ إلى آلية الدفاع عن النفس عبر استعمال الذاكرة الضبابية، خصوصاً في ثقافتنا السياسية التي تتجه أكثر فأكثر نحو الشفافية حيث يطلع الناخبون على مصادر أكبر للأخبار أكثر من أي وقت مضى: كما أن كل شيء تقريباً يعتبر بالنسبة للبعض لعبة عادلة.

في السنين التي تلت ذلك، وبما أنني كنت أعمل قريباً جداً من الرئيس، توصلت إلى نتيجة مفادها أنه يدفع نفسه أحياناً إلى الاعتقاد بما يتناسب واحتياجاته في تلك اللحظة. وهذا شبيه بشاهد في قاعة المحكمة لا يريد أن يورط نفسه بأي موقف خاطئ، لكنه يخشى أن يحث باليمين؛ ولذلك فهو يقول: «لست أذكر». فالشاهد يعلم علم اليقين أن أحداً لن يلج إلى داخل رأسه ليثبت أن ما قاله غير صحيح، ولذا فإن هذا يبدو نهجاً أقرب إلى السلامة منه إلى الكذب، على الخطى نفسها، يختار بوش اللجوء إلى الذاكرة الضبابية كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ضد أي إحراج سياسي محتمل. وهو يعقلن هذا الموقف لدرجة أنه يجعله مقبولاً، وذلك لأنه لا يؤكد صراحة على أن ما قاله يمكن أن يكون كذباً. وإذا تبين له فيما بعد، أن عكس ما صرح به هو الصحيح، فإن بإمكانه حينئذ إقناع عقله عبر إنكار حصول أي كذب.

بعبارة أخرى، أن يكون الإنسان مراوفاً لا يعني أن يكون كاذباً بالنسبة إلى طريقة تفكير بوش، فالأولى مقبولة، في حين أن الثانية غير مقبولة. كنت شاهداً على حدوث ذلك في لحظات خاصة أخرى، ومع أشخاص كان يثق بهم، بالإضافة إلى مناسبات أخرى أثناء الإدلاء بتصريحات صحفية أو في المؤتمرات الصحفية.

خداع الذات هو جزء من الطبيعة البشرية، وهو سلوك نمارسه جميعاً من حين إلى آخر. لكن هذا النوع من الخداع بالنسبة للسياسيين يصبح أكثر تميزاً، وربما أكثر وضوحاً. لن يكون بوش أول سياسي أو آخر سياسي يخادع نفسه؛ لكن المدى الذي ذهب إليه في عملية خداع الذات تجاوز إطار القضايا الشخصية التي يمكن القول إنها قد تصبح خارج حدود السيطرة، والأنكى من ذلك أن اقتناعه بصدق معتقداته الخادعة

للذات ترقى إلى مستوى السمة الشخصية التي تؤثر مباشرة في القضايا الكبرى التي لها علاقة بطبيعة الشخصية وأسلوب القيادة، وتنعكس على مسائل الحكم الحقيقية.

اللحظة الأخرى التي لا تتسى، تجلت في المرحلة الأخيرة من الحملة الانتخابية للرئاسة عندما تم الكشف عن أن بوش أدين بتهمة قيادة السيارة تحت تأثير الكحول خلال فترة الإجازة التي كانت العائلة تقضيها في كينيديانغفورت عندما كان في منتصف العشرينات، والسبب في الكشف عن هذه المعلومات يعود إلى أن الزخم الانتخابي كان لمصلحتنا في تلك الأيام الأخيرة، وذلك لأن بوش خرج في المقدمة بنتيجة المناظرات الرئاسية التي حصلت في شهر تشرين الأول، أكتوبر، تخطى بوش الآمال القليلة بشأنه خلال تلك المناظرات، بينما لم يستطع (غور) تحقيق الآمال الكبيرة المرجوة منه والمتمثلة في أنه سوف يطفئ بسهولة على بوش.

كان أداء غور في المناظرة الأولى والذي تميز بكثير من التهنيدات والمبالغة يصب في صالحنا مباشرة، فقد قمنا بتطوير رسالة مهمة للتقليل من شأن مصداقية غور، تلخص في أنه مستعد لقول أو فعل أي شيء كي يتم انتخابه، لم يخيب غور آمالنا فيه، ذلك أن التصريحات التي كان يطلقها والأفعال التي كان يقوم بها غالباً ما كانت تثبت هذا الانطباع في عقول العديد من الناخبين، كما كانت تتمايز بشكل ممتاز عن واحدة من أهم الرسائل التي كنا نطلقها باتجاه الناخبين: بوش إنسان صادق ويمكن أن تثقوا به من أجل القيام بما هو صواب، وليس بما هو مناسب من الناحية السياسية.

الآن، وقبل أربعة أيام على الانتخابات، كان بوش قد انتهى من لقاء جماهيري في شيكاغو، كنت أسير صوب الحافلات المخصصة لنقل طاقم الصحفيين إلى طائرة الحملة الانتخابية عندما قالت لي كارن إن محطة محلية تابعة لشبكة فوكس نيوز في ولاية مينيسوتا سوف تبث خبراً عن بوش مفاده أنه تم توقيفه بتهمة القيادة تحت تأثير الكحول عندما كان في العشرينات من عمره.

عدت بذاكرتي مباشرة إلى ذلك الحديث الذي جرى بيني وبين كارن منذ سنة مضت عندما قالت إن الحاكم بوش يفضل أن يتجنب التركيز الإعلامي على إقرار قانون ضد

القيادة تحت تأثير الكحول بسبب «شيء ما» له علاقة بماضيه». فجأة، اكتسبت كلمات كارن معنى محدداً.

بعد انقضاء دقائق على حديثي مع كارن في شيكاغو، اقترب مني كارل كاميرون، كبير مراسلي شبكة فوكس نيوز السياسيين والذي قام بتغطية الحملة الانتخابية كونه واحداً من الطاقم الصحفي المتنقل مشيراً إلى أنه سمع هذه الأنباء أيضاً، من المحطة المحلية التابعة لشبكته على ما أعتقد. أبلغني بأنه سوف يبث هذا الخبر على الهواء الخبر أولاً في نشرة أخبار المساء بالاشتراك مع برت هيوم، هناك في واشنطن.

اتصلت بدان بارتلت، الذي كان يشغل منصب مدير الردود السريعة في حملتنا هناك في أوستين. كان من بين أهم مسؤوليات مدير الردود السريعة المراقبة اللصيقة للمعارضة، وإيجاد طرق ووسائل لوضعها في حال الدفاع مثل الإشارة إلى أن الخصم يقول شيئاً، إلا أن تاريخه ممتلئ بعكس ما يقول. كما أن من بين الواجبات الرئيسة لمدير هذا المكتب القيام بتنسيق جهود الحملة الانتخابية بهدف إعداد رد سريع يتضمن الوتيرة الإخبارية نفس على الهجمات الموجهة إلى مرشحنا، وإعداد خبر عاجل بغية تدمير مصداقية الخصم. وإذا صدر الهجوم عن الخصم مباشرة، فإن الجهد المبذول من قبل مكتب الرد السريع يهدف إلى رد الضربة مباشرة وذلك لتجنب الوقوع في موقف دفاعي. أما إذا كانت الأخبار مسيئة، فإن الرد يتضمن في العادة محاولة نقل التركيز على هذا الخبر إلى مسار آخر في وسائل الإعلام ربما عبر إيجاد طريقة لوضعه ضمن إطار الحيل القذرة التي تتبعها المعارضة. أخبرته أن جهودي لإقناع كاميرون بتأجيل بث هذا الخبر إلى حين إعداد رد من أجل التوثيق ذهبت أدراج الرياح. وبناء على ذلك، اتصل دان بكاميرون وأعطاه ردنا الأولي.

إنها حقيقة سياسية قديمة. فالمرشح صاحب الماضي المثير للجدل بحاجة إلى الإفصاح عنه منذ البداية، وبشروطه هو، وإلا فإن خصومه يمكن أن يختاروا التوقيت والأسلوب المناسبين للكشف عنه بطريقة محسوبة، وذلك بغية إيقاع الكم الأقصى من الضرر السياسي. لهذا السبب فإن فرق الحملات الانتخابية الذكية تجري أبحاثاً وتقوم

بتحقيقات ليس فقط حول خصومها، بل على ذاتها وعلى مرشحيها أيضاً مستخدمة في ذلك مصادر المعلومات العامة، وكذلك تحقيقات سرية للكشف عن أسوأ ما في مرشحهم عبر الإنترنت، وملفات الصحف القديمة، أو الوثائق العامة، لأن «الأشخاص الشريرين» في الطرف المقابل يمكن أن تقع عليها أيديهم أيضاً.

كان كل فرد من فريق بوش يدرك هذا المبدأ بطبيعة الحال، لم يدرك في خلدي مطلقاً وجود سوى قلة من بين المستشارين الرئيسيين لبوش ممن كانوا على إطلاع على الحكم الذي صدر ضد بوش بسبب قيادته السيارة تحت تأثير الكحول، قادني الحديث مع كارن هيوز قبل سنة إلى الاعتقاد أنها كانت على دراية بالموضوع بشكل عام، وأنها لم تكن ملمة بالتفاصيل، وقد استندت في استنتاجي هذا إلى معرفتي بكارن وضبابية كلماتها («شيء ما، يتعلق بماضيه»).

عندما شارفنا على الانتهاء من الفعالية المسائية الأخيرة، علم بوش أن عليه مواجهة الإعلام الذي يغذي هذا الجنون حول قصة القيادة تحت تأثير الكحول. كان لهذه القصة التي انفجرت في وجوهنا في المراحل الأخيرة من السباق أن تغير من مسار الحملة برمتها. فقد طفت على السطح من جديد جميع الإشاعات حول الأيام الماجنة التي انغمس فيها بوش في مرحلة شبابه الأول بطريقة مثيرة مترافقة بأدلة دامغة، محددة وموثقة.

أبلغ بوش أركان الصحافة المجتمعين الذين كانوا يفتون توقفه في ولاية ويسكونسنون أن قصة القيادة تحت تأثير الكحول هي بالأساس صحيحة. قال بوش: «غالباً ما أقول إنني ارتكبت بعض الأخطاء في الماضي». وتابع قاتلاً: «كنت من حين لآخر، أفرط في الشراب. في تلك الليلة أفرطت في الشراب، وتم إيقا في. اعترفت للشرطي أنني كنت ثملاً. دفعت الغرامة. وندمت على حصول تلك الحادثة. لقد تعلمت الدرس جيداً».

تابع القول إنه لم يعلن على الملأ عن توقيفه بسبب قيادته تحت تأثير الكحول من قبل لأنه لم يشأ أن تعلم ابنتاه أي شيء حول هذا الموضوع. فقد طلب إليهما بصفته أباً أن لا تقودا سيارة تحت تأثير الكحول لأنه لا يريد لهما أن يقوموا بفعل ما فعله هو من قبل.

استمر بوش في الحديث عن التوقيت المشبوه لإذاعة هذا الخبر، متسائلاً فيما إذا كان لمثل هذا النشر دوافع سياسية. وكانت هذه محاولة لنقل مادة الحديث من الأفعال المشينة التي ارتكبها بوش إلى التركيز على سلوك المعارضة أملاً في يرد الأشمئزاز الشعبي من شن الحملات السلبية على الديمقراطيين. وفي الواقع، اعترفت المراسلة التلفزيونية في ولاية مين التي كانت أول من سربت الخبر بأن المعلومات التي تلقتها حول هذا الموضوع كانت من أحد النشطاء الديمقراطيين، وكان مندوباً إلى المؤتمر الديمقراطي العام.

ما هو التأثير الذي أحدثته قصة القيادة تحت تأثير الكحول على نتائج الانتخابات سنة 2000، والتي كانت متقاربة بشكل مذهل؟ ليس من السهل تخمين ذلك. اعتقد كارل روف، رئيس التخطيط الإستراتيجي لحملة بوش الانتخابية أن ذلك الكشف كان مسؤولاً عن خسارة الجمهوريين في ولاية مين حيث انطلق منها هذا الخبر، بالإضافة إلى خسارة دعم لا يستهان به على الصعيد الوطني والذي أدى ببوش إلى خسارة الصوت الشعبي وأوصل الانتخابات إلى مرحلة التمديد. لقد أدى إخفاق حملة بوش الانتخابية في إعادة «الشرف والكرامة» إلى البيت الأبيض بسبب هذا الكشف ببعض المحافظين الاجتماعيين إلى النأي بأنفسهم عن هذا السباق بدلاً من التصويت لمرشح يعتقدون الآن أنه يعاني من كثير من العيوب والنقائص.

بالنسبة لي، لم يكن لقصة القيادة تحت تأثير الكحول تأثيراً كبيراً على موقعي من جورج بوش، أو من حملته الانتخابية. كنت سأسجل اسمي ضمن قائمة مؤيديه لأنني كنت أؤمن أن بإمكانه أن يمثل قوة توحيد تأخذ بيد الأمة باتجاه التغلب على انقساماتها الحزبية المرة.

لم أعتبر سوء معالجة قضية القيادة تحت تأثير الكحول جنحة خطيرة ارتكبها جورج بوش بل هفوة صغيرة تسببت بها دوافع مفهومة: ومنها الرغبة في تجنب أي إحراج سياسي حول مسألة شخصية لها علاقة بماضيه، والتردد الأبوي في استعراض حلقة بعيدة من ماضيه أمام ابنتيه المراهقتين العاطفتين.

الأهم من كل ما تقدم، لم تكشف القصة شيئاً ملموساً يتعلق بقدرة بوش على ممارسة الحكم؛ ذلك أن هذه المخالفة حصلت منذ سنين عديدة، وامتنع بعدها بوش عن معاقرة الخمرة منذ أكثر من عشر سنوات. وعلى أي حال، لم تتضمن تلك الجريمة انتهاكاً لثقة الشعب. لا شك في أن القيادة تحت تأثير الكحول مسألة خطيرة يمكن أن تؤدي إلى عواقب مأساوية. لكنني لا أظن أن حادثة معزولة من القيادة تحت تأثير الكحول يجب أن تؤدي بشكل آلي إلى منع أي شخص من ممارسة مهمته في مجال الخدمة العامة، بعكس جرائم مثل الرشوة، أو الاختلاس، أو التزوير على سبيل المثال.

لكن هناك درساً سياسياً مهماً يمكن تطبيقه على قضايا حكومية أكثر أهمية خلال مدة رئاسته. فبينما تحدث بوش عن قضية القيادة تحت تأثير الكحول بجرأة وشجاعة، وأجاد في ما قام به، فقد كان ما فعله ليس سوى القليل الذي أتى متأخراً جداً، وبشروط الآخرين. فقد سمح لهذه القضية أن تتحول إلى لفظ أعظم مما تستحقه نظراً إلى أنه لم يعالجها في وقت أبكر، وبشروطه هو. وكانت النتيجة أن تلك القضية عمقت الشكوك التي كانت تنتاب بعضهم عن قوة شخصيته ومقدرته المستقبلية على القيادة في موقع الرئاسة بشكل غير مسوغ.

لم تكن تلك المرة الأخيرة التي أساء فيها جورج بوش التصرف حيال ما يثار من لفظ. لكن القضايا الآتية لها علاقة بالثقة الشعبية، وسوء في التعامل معها في الوقت المناسب بشكل مباشر، وبجرأة؛ وهذا سوف يؤدي إلى شكوك أعظم بكثير وإلى حرب حزبية أكثر تدميراً.

على أي حال، وصلت الانتخابات إلى نهايتها، وكان المرشحان متساويين كما يعلم الجميع، وأدت تلك الانتخابات إلى واحدة من أطول المعارك وأكثرها شراسة في التاريخ الأمريكي.

ذكرياتي حول إعادة عد الأوراق الانتخابية في ولاية فلوريدا، مثل ذكرياتي عن الحملة الانتخابية، هي أشبه بزوبعة - هذه المرة كانت زوبعة من التنقل بين مقاطعات وأخرى عبر

وسط وجنوب شرق فلوريدا، للإشراف على الجهود المبذولة على أرض الواقع، والتأكد من أنها تساعد في وضع الرأي العام بصورة ما يجري، وصياغته بطريقة مُرضية.

ليلة الانتخابات، كان بوش متقدماً على غور بفارق يقترب من ألفي صوت من مجموع من أدلوا بأصواتهم والبالغ ستة ملايين ناخب تقريباً. هذا الفارق الذي لا يكاد يذكر، أدى بشكل آلي إلى إعادة فرز للأصوات بموجب قانون ولاية فلوريدا الانتخابي. كان مندوبو فلوريدا الانتخابيين البالغ عددهم خمساً وعشرين مندوباً هم من سيقدر نتيجة الانتخابات نظراً لأن أيّاً من المرشحين لن يحصد الأصوات اللازمة من دونهم. وبالإضافة إلى العد الآلي المتنقل من مقاطعة إلى مقاطعة أخرى، قرر القائمون على حملة غور أن يطالبوا بالعد اليدوي في كل صناديق الاقتراع في بعض المقاطعات المختارة؛ وهكذا، أخذت المعركة القانونية حول دستورية وعدالة عملية إعادة فرز أصوات الناخبين وقتاً أطول بكثير مما توقعه الجميع.

في صبيحة ثاني يوم من فترة الانتخاب الممدد، ذهبت لحضور اجتماع إستراتيجية وسائل الاتصال لمناقشة الحرب الكلامية التي بدأت بين الحملتين. قال دان بارتليت: «نحن بحاجة إلى عدد أكبر من الناطقين الميدانيين في فلوريدا، هل هناك من يريد أن يتطوع للقيام بذلك؟» (إذ إنه بينما كانت حملة غور قد وزعت أغلب ناظقيها مدفوعي الأجر في المراكز الرئيسة على الصعيد الوطني، أو في مدينة تالاهاسي، عاصمة ولاية فلوريدا، كان جزء من إستراتيجية اتصالاتنا يهدف إلى توزيع ناظقين مدفوعي الأجر في مقاطعات مختارة ذات أهمية خاصة بالنسبة لنا).

في الوقت الذي ارتفعت فيه اثنتان من الأيدي، فكّرتُ بيني وبين نفسي كم كنت منهكاً من السفر، وكم كنت متلهفاً ومتطلعاً إلى أخذ قسط مُستحق من الراحة. «لكن بضعة أيام إضافية أخرى على الطريق لن تشكل فارقاً كبيراً»، هذا ما استنتجته في نهاية المطاف، وقمت برفع يدي أيضاً.

بحلول منتصف عصر ذلك اليوم، كنا حفنة من الناطقين على متن طائرة خاصة أقلتنا إلى حيث تركزنا في مناطق إستراتيجية مختلفة حول فلوريدا. لم يكن قد تبقى

في حوزتي إلا التزر اليسير من الثياب النظيفة نظراً لأنه ومنذ نهاية الحملة، لم نتوقف عن السفر، لكنني استطعت أن أصطحب معي بعضاً مما يمكن ارتداؤه. أذكر أنني قلت لنفسني: «عليّ أن أتحمّل انقضاء نهاية الأسبوع هذه فقط. سينتهي كل شيء حينذاك بالتأكيد». لكنني لم أعرف حينها أنني لن أعود إلى أوسن إلا بعد ثلاثة أسابيع، وأن ماراثون إعادة فرز الأصوات سيستغرق ستة وثلاثين يوماً مسبباً الفوضى والتدمير في غرف الأخبار في طول البلاد وعرضها، وقلقاً غير مسبوق عند الملايين من الناخبين.

بدءاً من مقاطعة بينيلاس بالقرب من خليج تامبا، سافرت عبر الجزء الأوسط من الولاية، وصلت بعدها إلى مدينة كيسيمي قرب أورلاندو في نهاية الأسبوع الأول. حينها بدأت الأمور تأخذ شكلاً مثيراً للاهتمام عندما بدأ الفريق العامل في حملة غور باستهداف مقاطعات بروارد، وميامي-ديد، وبالم بيتش، من أجل إجراء إعادة الفرز اليدوي للأصوات؛ وتعد جميع تلك المقاطعات معاقل للديمقراطيين.

أذكر أنني انضمت في مقاطعة بروارد إلى فريق تنظيمي من المتطوعين مكون من مستشارين لبوب تافت حاكم ولاية أوهايو. كانوا هناك للمساعدة من أجل التأكد من تواجد متطوعين من فريق بوش عند الطاولات، ومن أن هؤلاء المتطوعين يعرفون متى يعترضون على أوراق الاقتراع، ومتى لا يعترضون. قمنا بتنسيق جهودنا خارج مكتب رئيس الحزب الجمهوري في المقاطعة إيدي بوزولي الذي كان يساعد في قيادة جهود فريق بوش. كانت عملية إعادة الفرز تتم حسب ما هو مطلوب من الناحية القانونية بسبب التقارب الشديد في نتائج الانتخابات. بقي جورج بوش في المقدمة. كان أي من المعسكرين يستطيع أن يطلب فرز الأصوات يدوياً؛ إلا أن بروارد، مثلها مثل باقي المقاطعات يمكن لها أن تطلب إعادة فرز الأصوات يدوياً فقط بعد إجراء تصويت في مجلس الناخبين التابع للمقاطعة، والمكون عادة من قاضٍ من المقاطعة واثنين من مندوبي المقاطعة. ويفترض بمجلس الناخبين من الناحية التقنية أن يصوت لصالح إعادة فرز الأصوات يدوياً فقط بعد القيام بذلك بشكل أولي في نماذج من الدوائر الانتخابية، وأن يكون هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن أخطاء خطيرة قد وقعت لتعليل إصدار مثل هذا الحكم.

بدايةً، صوّت مجلس الناخبين في مقاطعة بروارد ضد إعطاء أمر بإعادة فرز الأصوات يدوياً. أقام، المتطوعون الذين أوفدهم الحاكم تافت، وبوزولي. وأنا احتفالاً صغيراً في ذلك اليوم، وذلك لاعتقادنا بأن النتيجة كانت نهائية، ولأننا كنا نعتقد أنه لن يكون هناك أي تغيير. تم إرسالنا إلى مقاطعة ميامي- ديد؛ وعند وصولي إلى هناك، وجدت أن فريقاً موفداً من تافت قد وصل إلى هناك أيضاً. صوّت المجلس الانتخابي هناك أيضاً ضد إجراء إعادة فرز الأصوات يدوياً. واعتقدنا أن ذلك كان يمثل نصراً آخر. لكننا علمنا فيما بعد أن مجلس ناخبي مقاطعة بروارد غير من اتجاهه تحت ضغط مجموعة من المحامين الديمقراطيين تحت الاختبار المسجلين على قائمة حملة آل غور الانتخابية. فجأة، كان علينا التوجه إلى مدينة لوديرديل في مقاطعة بروارد.

انتقلت عملية إعادة فرز الأصوات إلى موقع أكبر، وهو مركز الأعاصير في مقاطعة بروارد. تم إحضار خمس عشرة أو عشرين طاولة طويلة إلى غرفة كبيرة الحجم بحيث يستطيع المتطوعون من الحزبين الجمهوري والديمقراطي الجلوس إلى هذه الطاولات والتدقيق في الأوراق الانتخابية بصورة مشتركة، الواحدة إثر الأخرى. علم مسؤولو المقاطعة أن أمامهم وقتاً محدداً كي يقوموا بمراجعة هذه الأوراق، ولهذا فقد كانوا يرغبون بإدخال أكبر عدد ممكن من الطاولات إلى تلك الغرفة. وإذا حدث واختلف متطوعو الحزب المعارض، الجالسون إلى إحدى الطاولات عن تقويم نية الناخب كما يظهر على ورقة الاقتراع، فإن هذه الورقة ستوضع جانباً من أجل أن تقرر المحكمة المكونة من ثلاثة أعضاء من المندوبين وضع هذه الورقة بواسطة الأغلبية. كان مجلس الناخبين مكوناً من اثنين من الديمقراطيين وجمهوري واحد (يمكنكم أن تعودوا بذاكرتكم إلى صورة المندوب الجمهوري بنظارته المتوضعة على رأسه، وعينيّه الجاحظتين محدقاً في ورقة الاقتراع وهو يحملها باتجاه الضوء).

أعتقد أن الوقت كان قد اقترب من منتصف ليل أول يوم من أيام إعادة فرز الأوراق الانتخابية عندما اكتشفنا قضية تدعو إلى القلق - ومادة دسمة لقصة إخبارية. جاء إيد ماكنيللي المحامي الذي كان يعمل في إدارة بوش الأولى (وكذلك في إدارته الثانية)

إلى مقاطعة بروارد للمساعدة في بعض القضايا القانونية. اقترب منا أحد المتطوعين في معسكر بوش بعد أن توقفت عملية إعادة الفرز في ذلك اليوم، وقال: «يوجد شيء هنا، أعتقد أن عليكم أن تروه». مشى بنا باتجاه إحدى الطاولات التي كان يشرف عليها، وأشار إلى أرض الغرفة. كانت أعداد لا يستهان بها من مخلفات أوراق الاقتراع المثقبة (وتدعى: تشاد Chad) مبعثرة فوق أرض الغرفة.

وكما أصبح معروفاً لدى العالم في ذلك الشهر، ولأهداف انتخابية، أن مخلفات أوراق الاقتراع المثقبة هي عبارة عن قطع صغيرة مستطيلة الشكل من الورق تشبه قصاصات الورق الملونة التي تنثر في المناسبات، وتتشكل عندما يحدث المرء ثقباً في بطاقة مخرمة. يمكن أن تتخذ هذه المخلفات أشكالاً مختلفة: فمخلفات أوراق الاقتراع المعلقة تتصل بورقة الاقتراع من واحدة من زواياها الأربع، والمخلفات المتأرجحة تتصل بورقة الاقتراع من زاويتين، أما المخلفات الثلاثية الأبعاد فهي متصلة بها من ثلاث زوايا. وهناك أيضاً المخلفات المنتفخة أو المنبعجة على شكل غمازة يظهر فيه بعض التلم ربما تسبب به أحد الناخبين الذين كانوا يحاولون الإدلاء بأصواتهم، إلا أن المخلفات بقيت معلقة ومتصلة بالزوايا الأربع. لم أعتقد يوماً أنني سأصبح خبيراً بمخلفات ورقة الاقتراع المثقبة، ولكن انتخابات سنة 2000 جعلت من ظاهرة المخلفات هذه قضية مهمة.

وبينما كنا نحدق في القطع الورقية الصغيرة المبعثرة فوق أرض الغرفة، طلع علينا إيد بفكرة ذكية. قال: «يمكن اعتبار هذه المخلفات دليلاً على وقوع جريمة». فإذا كان الأشخاص المعنيون قد بالغوا في طريقة إمساكهم بورقة الاقتراع، أو تعاملوا معها بشيء من اللامبالاة، أو - وهذا أسوأ بكثير - إذا تعمدوا تثقيب قطع من الأوراق بهدف تغيير نتائج الانتخابات، فإن ذلك يفسر وجود هذه المخلفات بكثرة على أرض الغرفة.

كان القادة الديمقراطيون المحليون قد غادروا المكان في تلك الليلة. بحثنا عن المسؤول المحلي عن الانتخابات الذي كان ما يزال موجوداً في الوقت الذي كانت فيه صناديق الاقتراع تسحب إلى مكان آمن في غرفة خلفية لها نافذة زجاجية كبيرة عند مدخلها الجانبي. حضر نائب العمدة لحراسة الغرفة. وبناءً على طلبنا، أمر المسؤول عن

الانتخابات بلم المخلفات المرمية على الأرض، وقام بوضعها في مغلف كتب عليه «دليل من مشهد الجريمة».

كان أفراد حملتنا ومؤيدونا قد تساءلوا عن مصداقية إعادة فرز الأوراق الانتخابية بطريقة يدوية، باعتبار أن أوراق الاقتراع قد استخدمت مرة ثانية بعد أن تم تمريرها عبر الآلة مرتين. كانت حجتنا أن التلف والتمزق الناجمين عن الاحتكاك المزدوج يمكن أن يغيرا وجهة الصوت الانتخابي، أو يتسببا في سقوط المخلفات، ولدينا الآن دليل يدعم حجتنا.

بعد التشاور مع إيد، ذهبت إلى الصحفيين بهدوء صبيحة اليوم الثاني كي أطلعهم على تطورات الليلة السابقة. سألتهم: «هل سمعتم بما حصل مساء أمس؟» عندما أجابوا بالنفي، قمت بشرح ما جرى. قلت: «استولى مسؤولو الانتخابات على كمية كبيرة من المخلفات المتساقطة على الأرض في وقت متأخر من ليلة أمس». تابعت قائلاً: «يجب عليكم أن تسألوا عن مغلف، وضعوا تلك الأوراق فيه». كنت أعرف أنه في جوفلوريدا الانتخابي المسموم سنة 2000، سيتصدر الغلاف المهور عبارة «دليل من مشهد الجريمة» مختلف وسائل الإعلام.

دعوت إلى عقد مؤتمر صحفي بالتنسيق مع إيدي بوزولي. قام إيدي بعمل عظيم: كان يقف خارج المبنى الذي يحمل اسم «مركز الإعصار» بحروف واضحة، وهو يقول: «ضرب إعصار مخلفات أوراق الاقتراع المثقبة مقاطعة بروارد ليلة أمس»، طارحاً أسئلة حول مصداقية عملية إعادة فرز الأصوات يدوياً برمتها.

بعد يومين على ذلك، تم إيفادي إلى مقاطعة بالم بيتش حيث كانت عملية إعادة فرز الأصوات يدوياً على وشك أن تبدأ هناك أيضاً. قمت بأخذ كيس بلاستيكي شفاف مملوء بكمية أكبر من المخلفات المتساقطة على الأرض من الليلة الثانية. رفض مسؤولو الانتخابات استلام كمية أخرى من المخلفات المتساقطة. لذا، فقد قمنا بذلك بأنفسنا، وكتبنا على الكيس عبارة «مخلفات أوراق الاقتراع المتساقطة من مقاطعة بروارد»، وكان عدد نتف الأوراق تلك يربو على المئة، وقد التقطناها من على السجاد والطاولات. رفعت

الكيس بيدي أمام الصحفيين عند وصولي إلى مدينة بالم بيتش، مثيراً أسئلة حول العملية من أساسها.

ظهر مارك راسيكوت، حاكم ولاية مونتانا، ومستشار بوش في برامج الأحد السياسة على شاشات التلفزيون في ذلك الأسبوع. كنت قد أرسلت له، بناء على طلب منه، الكيس الذي يحتوي على المخلفات المتساقطة. وصف محتويات الكيس بأنها «دليل واضح ودامغ» على «نعم مصداقية» عملية إعادة الفرز بطريقة يدوية.

شخصياً، كنت أعتبر عملية إعادة فرز الأصوات انتقائية، وغير عادلة، وأحياناً غير منطقية. فالسماع للمجالس الانتخابية التي تسيطر عليها غالبية ديمقراطية بتقرير مصير أوراق اقتراع متنازع عليها بالاستناد إلى ما تعتقد أنها كانت نية الناخب، لم يقنعني مطلقاً بأنه مسلك موضوعي. ففي مقاطعة بالم بيتش حيث كان المجلس الانتخابي يسابق الزمن لإكمال إعادة فرز الأصوات، كان كبير المحامين في حملتنا، جون بولتون (الذي أصبح فيما بعد المندوب الأمريكي الدائم في الأمم المتحدة في فترة إدارة بوش الثانية) وفريقه بمن في ذلك، مدعي عام ولاية فلوريدا مارك والاس الموجودين هناك قد ضبطوا المندوب الديمقراطي في المجلس وهو يوجه نواب العمدة لإحضار صناديق انتخابية محددة كي يتم إعادة فرز الأصوات الموجودة فيها. أين المشكلة؟ المشكلة في أنه كان قد تم الاتفاق على أن يتم اختيار الصناديق بطريقة عشوائية، إلا أن هذا المندوب كان يطلب إلى نواب العمدة إحضار صناديق كانت غالبية أصوات الناخبين فيها من الديمقراطيين - وبمن ثم كان هذا سيساعد في إضافة أصوات إضافية لآل غور.

بصراحة، أعتقد أن أركان حملة آل غور ارتكبوا خطأ استراتيجياً بسبب عدم دعوتهم إلى إجراء إعادة فرز الأوراق بصورة يدوية في كافة مقاطعات الولاية. كان من الصعب الاعتراض على إجراء مثل هذا الإجراء الذي لا يمكن وصفه إلا بالعادل.

على أي حال، وفرت لنا تلك المخلفات المتساقطة من أوراق الاقتراع المثقبة حججاً عظيمة لطرح تساؤلات حول انتقائية عملية فرز الأوراق بطريقة يدوية وذاتيتها. مع ذلك، استمرت عملية إعادة فرز أوراق الاقتراع لأسبوعين إضافيين. لم يشهد أحد مثل

ذلك من قبل. بالتأكيد، لم يؤهلني أي شيء في خلفية حياتي السياسية كي أتوقع حدوث مثل هذا الأمر. أتذكر أنني عندما كنت في الصف الثالث الابتدائي، بقيت مستيقظاً حتى الساعة الثالثة والنصف صباحاً أتابع نتائج الانتخابات التي فازت فيها والدتي بمنصب المحافظ بأكثر نتائج الانتخابات تقارباً في تاريخ مدينة أوستن. كان ذلك يشكل خروجاً نادراً عن المألوف بالنسبة لي. (فازت والدتي في عملية إعادة انتخابها بفارق هو الأكبر في تاريخ المدينة).

في اليوم الحادي والعشرين لمحنة إعادة فرز الأوراق، تم منحي إجازة أسافر فيها إلى المنزل لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وفي الوقت الذي كنت أنتظر اتصالاً يفيد بالحاجة إلى عودتي إلى فلوريدا، اتصل بي آري فليشر، الذي كانت قد تمت تسميته سكرتيراً صحفياً للمرحلة الانتقالية، من واشنطن وعرض علي منصب نائب السكرتير الصحفي للمرحلة الانتقالية. عرض علي أن أكون نائبه الأول إذا بقيت نتائج فلوريدا لصالحنا. قبلت العرض بسرعة.

وهكذا، فبدلاً من العودة إلى ولاية فلوريدا، توجهت إلى واشنطن لأبدأ العمل مع فريق المرحلة الانتقالية. كان لدينا مقراً مؤقتاً تم تجهيزه سلفاً وضع بتصرفنا إلى حين إعلان فوز بوش بمنصب الرئاسة بصورة رسمية، وتخصيص مقر حكومي بالإضافة إلى التمويل اللازم من إدارة الخدمات العامة في واشنطن.

تحول تركيزي بسرعة إلى مساعدة آري في الإدارة الصحفية ومعالجة العديد من القضايا المتعلقة بالمرحلة الانتقالية. عندما صادقت كاترين هاريس أمينة سر ولاية فلوريدا على إعلان فوز بوش بولاية فلوريدا، كان ديك تشيني قد بدأ الإشراف على عملية انتقال السلطة من مقر مؤقت قرب منزله في مدينة ماكلين بولاية فيرجينيا، على تخوم واشنطن. طلب بشكل رسمي قيام إدارة الخدمات العامة بتسليم المفاتيح إلى مكتب المرحلة الانتقالية الحكومي قرب البيت الأبيض. لكن إدارة الخدمات العامة التي كانت تحت سلطة البيت الأبيض، رفضت هذا الطلب، ولم يسعد هذا الرفض تشيني.

في الثاني عشر من شهر كانون الأول، ديسمبر، وبعد أن اتخذت المحكمة العليا قرارها المثير للجدل والقاضي بوضع نهاية لعملية إعادة فرز أوراق الاقتراع في ولاية فلوريدا، مبددة

بذلك جميع الأسئلة حول النتائج، دعت إدارة الخدمات العامة نائب الرئيس المنتخب إلى مناسبة صحفية في مكتب المرحلة الانتقالية. ولكن بما أنه كان ما يزال في فورة من الغضب بسبب الصفة التي تلقاها من قبل، طلب تشيني من آري إرسال موظف أدنى مرتبة - وكنت أنا ذلك الموظف - لاستلام المفاتيح. كان الهدف من ذلك إيصال رسالة لإدارة الخدمات العامة.

لم تكن لديّ أدنى فكرة حول طبيعة العمل الذي كنت سأقوم به. عندما وصلت إلى مكتب المرحلة الانتقالية، تم اصطحابي في جولة قصيرة، قمت بعدها بتسلم المفاتيح أمام حشد من الكاميرات التلفزيونية والثابتة. وبالرغم من أن الصحفيين المحتشدين كانوا يتوقعون سماع كلمة مني، فإنني لم أقل سوى عبارة: «شكراً لكم». أعتقد أن إدارة الخدمات العامة التقطت رسالة تشيني، وبدأ المسؤولون عنها منذ ذلك الحين القيام بكل ما يلزم لتعويض تشيني عن الإزعاج الذي تسببوا به له.

بعدها بأيام قليلة، كنت أقف في مكتبي الجديد وراء غرفة اللقاءات الصحفية - وهو مقر خالٍ إلا من اثنتين من الكراسي وجهاز كومبيوتر. حدث كل ذلك بسرعة كبيرة لدرجة أنه لم يتسنّ لي الوقت لاستيعاب الحقيقة المدهشة أنني الآن أعمل لدى رئيس الأمة الثالث والأربعين في الجناح الغربي من البيت الأبيض.



عموماً، قام بوش وأركان حملته بعمل جيد تمثل في توضيح صورته أمام الرأي العام، والبدء في عملية تغيير صورة الحزب الجمهوري على الصعيد الوطني. تم انتخاب بوش بناء على خطة عمل واضحة - خفض الضرائب، وإصلاح التعليم، وتقوية الضمان الاجتماعي، وسياسة دفاعية قوية، بالإضافة إلى تطوير القوات المسلحة. كما تم انتخابه استناداً إلى صورة شعبية واضحة كنموذج مختلف من الجمهوريين - «محافظ عطوف» قادر على فهم احتياجات ومصالح الطبقة الوسطى، والطبقة العاملة، والطبقة الفقيرة، ومهتم بتحقيقها، كما أنه جاهز للطلب إلى الحكومة التدخل لتحقيق ذلك إذا لزمّت الحاجة.

وفي الوقت الذي استلم بوش زمام السلطة - مدعوماً بشعور الارتياح الذي ساد الأمة بعد الانتهاء من العملية الانتخابية الطويلة، وأيضاً بخطاب غور الراقى الذي أعلن فيه

قبوله بقرار المحكمة - قطع بوش على نفسه عهداً بأنه سيقود الأمة إلى بداية جديدة بعد موسم سادس التهكم. كانت نيته على ما يبدو، أن يقوم بمد يده عبر الممر كما فعل في تكساس كي يؤسس لروابط من التعاون مع الديمقراطيين في الكونغرس، والأماكن الأخرى لتحقيق الأهداف التي يرنو إليها جميع الأمريكيين. وكانت الأيام الحافلة بالفضائح والمعارك الحزبية في واشنطن تشرف على نهايتها - أو هذا ما كنت أعتقد.

الأحداث التي وقعت في الشهور والسنين التي تلت، سوف تضع على المحك صدق نوايا بوش في إنهاء التجاوزات التي سببها عصر الصراعات الدائمة، وأيضاً عمق الالتزام الذي قطعه على نفسه في أن كل عضو من أعضاء إدارته سيكون ملتزماً بالمعايير الأخلاقية العالية.

5

الحملة الدائمة

بدأ التخطيط لمرحلة بوش الانتقالية بهدوء ومن دون ضجة قبل أكثر من سنة ونصف على موعد الانتخابات العامة. وقاد هذه المرحلة صديق عمر الرئيس الموثوق كلاي جونسون الذي ساعدته خبرته في مجال إدارة الأعمال جداً في القيام بهذا الدور (تبوأ مناصب تنفيذية في شركات بدءاً من شركة نيمان ماركوس وانتهاء بشركة فريتولي). فقد شغل منصب المدير التنفيذي للحاكم (وهذا المنصب يوازي منصب رئيس الأركان) بعد أن انتقل جو ألبو للعمل في إدارة الجهود المبذولة من أجل الانتخابات الرئاسية؛ وقبل ذلك، كان يشغل منصب مدير التعيينات خلال الفترة الأكبر من ولاية بوش كحاكم، مشرفاً على نحو ثلاثة آلاف من التعيينات للمجالس والمندوبين التي يقوم بها الحاكم. كان جونسون بارعاً في القيام بتخطيط المرحلة الانتقالية، وكان غير معروف بالنسبة لوسائل الإعلام ولعامّة الناس، وكان له مساره الخاص البعيد عن مسار الحملة الانتخابية.

تبين أن القرار بشأن البدء بعملية التخطيط للمرحلة الانتقالية في فترة مبكرة كان مفيداً جداً، خصوصاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة الانتخابية الممددة. ونظراً إلى أن التخطيط الذي قدّمه كلاي كان تفصيلياً فقد استطاع بوش وفريقه أن يقفوا على أرض صلبة، وينطلقوا إلى الفوز بالرئاسة في وقت مبكر. (عمل كلاي فيما بعد مديراً لموظفي البيت الأبيض، ويشغل حالياً منصب نائب المدير لشؤون الإدارة في مكتب الإدارة والموازنة).

كان لأحد ملامح السياسة المعاصرة تأثير عميق على المرحلة الانتقالية، ربما من دون قصدٍ أو وعيٍ من كلاي جونسون كونه لم يكن له باعٌ في السياسة، ولم تكن له أي خلفية سياسية. أشير هنا إلى «الحملة الدائمة»، وهذه عبارة مختصرة تشير إلى الطريقة التي يعمل بها القادة السياسيون في هذه الأيام على امتداد 365 يوم في السنة، وسنة إثر أخرى

وذلك بغية وضع إطار للدعم الشعبي والسيطرة على مصادر هذا الدعم كوسيلة رئيسة للبقاء في الحكم. وبسبب القوة التي تمثلها الحملة الدائمة وحضورها الطاعني، فإن التنافس على السلطة خلال سباق سنة 2000 لم ينتهِ بحفل التنصيب، بل ولج ببساطة إلى حقبة جديدة - الحكومة.

لا أعتقد أن أيّاً من كبار مستشاري بوش قام بتكريس جزء من وقته أثناء المرحلة الانتقالية لقراءة واستيعاب الدروس التي يتضمنها كتاب 'الحملة الدائمة ومستقبلها'. أعلم أنني لم أقرأ ذلك الكتاب حينها. لكنهم لو قرؤوا هذا الكتاب، ربما كانوا اتخذوا على ضوء تلك القراءة خطوات تخفف من تأثير الحملة الدائمة، وتمنع حدوث بعض المشكلات التي عصفت ببوش في لحظات حاسمة من فترة رئاسته. بدلاً من ذلك، فقد استوطنت الحملة الدائمة في البيت الأبيض في عهد بوش منذ البداية، وكانت على درجة من القوة بحيث إنها ضمنت لعب دور رئيس في الإدارة.

صدر كتاب «الحملة الدائمة» في حزيران، يونيو سنة 2000، وقام بتحريره اثنان من الباحثين اللذين يحظيان بكثير من الاحترام، ويعملان في اثنين من مراكز التفكير النافذة في واشنطن: وهذان المحرران هما نورمان أورنستاين من معهد (إنتربرايز) ذي الميول المحافظة، وتوماس مان من معهد بروكينغز ذي الميول الليبرالية. يهدف هذا الكتاب في بعض أجزائه إلى المساعدة في إرشاد الرؤساء المنتخبين المستقبليين وخلق عملهم أثناء التخطيط لاستلام السلطة في الفترة الانتقالية. هذا الكتاب يوضح من وجهة نظري أهم الظواهر الموجودة في واشنطن اليوم.

عندما تمت صياغة عبارة «الحملة الدائمة» للمرة الأولى (ربما كان بات كادال أول من استعملها سنة 1976، وكان أحد مساعدي كارتر) كما تشرح مقدمة الكتاب، فإنها كانت تشير إلى عملية ممارسة الحكم بطريقة تبني فيها الدعم الشعبي للإدارة وسياساتها، وتحافظ عليه. بهذا المعنى، تتحول الحملات السياسية الدائمة إلى وسيلة تستطيع بواسطتها أي إدارة ممارسة تأثير دائم على الأمة، طالما أن السياسات التي لا يفهمها الشعب أو يدعمها لا يمكن أن تستمر على المدى الطويل، أو يكون لها أي تأثير.

لكن المعنى الذي ترمي إليه عبارة «الحملة الدائمة»، والمبالغة في الطريقة التي تمارس فيها قد انحرفا إلى وجهة مزعجة. فكما يشرح البروفيسور هيو هيكلو المتخصص في الشأن الحكومي، في الفصل الأول من كتاب أورنستاين ومان فإن الحملة الدائمة كما تمارس اليوم هي «عملية مستمرة تهدف إلى السيطرة على مصادر الدعم الشعبي بحيث تشركه في عملية الحكم نفسها». بعبارة أخرى، لم يعد بالإمكان الآن التفريق بين شن الحملات وممارسة الحكم. إن الهدف من كتاب أورنستاين ومان، كما يلاحظ هيكلو، هو «شرح معنى الحملة الدائمة، واستيعاب كيف نشأت ولماذا، وتقويم نتائج قدرتنا على حكم أنفسنا بطريقة فاعلة، ولدراسة احتمال اتخاذ خطوات تهدف إلى التخفيف من آثارها الضارة».

إن فهم تأثير الحملة الدائمة على الحكم سواء في البيت الأبيض أو الكونغرس ضروري لاستيعاب كيف ضلت واشنطن طريقها، وكيف وقعت في شرك المشاحنات والحروب الحزبية الدائمة؛ وكيف، على وجه الخصوص، شردت إدارة جورج دبليو بوش بعيداً، وبقيت بعيدة جداً عن الدرب التي كان من المتوقع أن تسير عليها وذلك عبر المبالغة في استعمال أسلوب الحملة الدائمة وتكتيكاتها.

الحملة الدائمة هي مفهوم كان يمكن أن يثير حيرة وارتيك مؤسسي أمتنا. يلاحظ هيكلو أنهم عندما أسسوا نظامنا المبني على الديمقراطية التمثيلية كما هو منصوص عليه في دستورنا، فإنهم كانوا يتصورون نظاماً مثالياً للحكم يكون فيه المُشرِّعون الحياتيون والمسؤولون التنفيذيون الذين يتمتعون بدرجة عالية من الذكاء قادرين على وضع سياسة متحررة من ضغوط مجموعات المصالح والولاءات الحزبية. كما افترضوا أن أعضاء الكونغرس يجب أن يكونوا مواطنين بعقلية رجال الدولة بحيث يخدمون بلادهم لعدة أشهر في السنة، ويقومون بالاهتمام بمزارعهم، أو أعمالهم، أو مهنتهم بقية فترة السنة. كانوا يرون الأحزاب ضارة، وكانوا يأملون في أن لا تصبح الأحزاب مظهراً من مظاهر النظام الأمريكي (كلمة «حزب» ليس لها وجود في الدستور الأمريكي). كما تعمدوا التركيز على أن لا يتم اختيار أعضاء مجلس الشيوخ والرؤساء بواسطة الصوت الشعبي،

بل بواسطة نخبة من المشرعين في كل ولاية بالإضافة إلى الهيئة الانتخابية. ولو حدث أن أدى ذلك إلى عزلهم عن الرأي العام، فسيكون هذا أفضل. اعتبرت لغة الخطاب السائدة في القرن الثامن عشر في مجملها أن الناس هم «الفوغاء»، أي أنهم مجموعة من الأفراد المحدودي المعارف، والعاطفيين، والمهتمين بمصالحهم الخاصة؛ ومن ثم، لا يمكن الوثوق بقدراتهم على تقرير شؤون قضايا الدولة العليا. وكان لفكرة إدارة أعمال الحكومة بطريقة تخدم المصالح الشخصية لهذه المجموعة من الفوغاء أن تثير الهلع لدى رجال مثل واشنطن، وجيفرسون، وماديسون، ومونرو، وأدامز.

أما في عصرنا الحالي بالطبع، فقد تغيرت اللعبة السياسية بشكل دراماتيكي. فالشعب أصبح منخرطاً بشكل أعمق، وأكثر مباشرة في الشأن الحكومي من أي وقت مضى. ويعد هذا أمراً جيداً في كثير من النواحي. الحكومة أضحت بالتأكيد أكثر استجابة لحاجات الشعب مما كانت عليه في القرن الثامن عشر. لكن بعض الأساليب التي يفترض بأنها تعكس رغبات «الشعب» في العمل الحكومي (بغض النظر عن وضوحها) هي ملتبسة في أفضل الأحوال. كلنا على علم بوجود الكثير من المشكلات. تمارس مجموعات المصالح الحزبية الضيقة ومجموعات المصالح الخاصة الأخرى الضغط على الكونغرس لإصدار تشريعات تصب في صالح أعضائها، وليس في صالح المواطنين بشكل عام. تستخدم استطلاعات الرأي ليس فقط من أجل قراءة المزاج العام للناخبين وتوجيه القادة السياسيين نحو الطريق التي تؤدي إلى إيصال رسائلهم، بل أيضاً، في بعض الأحيان، من أجل تقرير السياسات التي سوف يتبنونها. فالجمع الدائم للتبرعات الذي يعتبر ضرورة في عصر يلعب فيه الإعلان التلفزيوني الباهظ التكاليف، والأشكال الأخرى من وسائل الاتصال المكلفة دوراً مهماً في النجاح السياسي، يوحد بين مجموعات المصالح القوية والمتبرعين الأثرياء من جهة، وبين الأحزاب والسياسيين من جهة أخرى بطريقة غالباً ما تترك احتياجات المواطن الأمريكي العادي في العراء.

تركز عملية الحكم بموجب هذا النظام الجديد بشكل رئيس على «التحكم بمصادر الدعم الشعبي»، كما كتب هيكلو؛ وذلك عن طريق استخدام وسائل الإعلام الإخبارية،

والمنابر السياسية، والمواقع الإلكترونية الشهيرة، والإعلانات المدفوعة الأجر، وبرامج الإذاعة الحوارية، والمنظمات المحلية، والدعاية التي تبثها مجموعات المصالح لاختلاق قصص تصب في مصلحة الشخص ذي الصلة. تتحول ممارسة الحكم في عصر الحملات الدائمة إلى نتاج للحملات بدلاً من أن يكون الأمر عكس ذلك. فمشروعات القوانين تكتب أحياناً ليس لتسويغ إنشاء نقاط للحديث تعزز من موقع الحزب الذي ينتمي إليه ذلك الشخص فقط، بل أيضاً لإرباك المعارضين بغية تحسين العمليات الحكومية، أو لتحقيق العدالة. المبادرات الرئاسية بدءاً ببرامج الرعاية الصحية وانتهاءً بالقيام بغزوات خارجية يتم التخطيط لها، وتسميتها، وتوقيتها، والقيام بها في الوقت الذي تكون العين (وربما العينان) مركزة على موعد الانتخابات، كما يتم إقرار الميزانيات ليس فقط من أجل توفير الحاجات الملحة للمواطنين ووضعها في مقدمة الاهتمامات، بل من أجل مكافأة الموالين السياسيين، ومعاينة الخصوم، والفوز بأصوات الناخبين في المناطق والولايات الساخنة انتخابياً عندما يقترب شهر تشرين الثاني، نوفمبر.

إن اختراق السياسة للحكومة كان أحد مظاهر الديمقراطية منذ البداية. ولكن منذ النصف الثاني من القرن العشرين، أصبحت أكثر شهرة وأكثر انتشاراً. كانت إدارة ريتشارد نيكسون - وهو أول رئيس بدأ بمأسسة العمليات السياسية الدائمة داخل البيت الأبيض - نموذجاً للعديد من السقطات التي نتجت عن الحملات الدائمة بقائمتها التي تحوي أسماء الخصوم، وسوء استخدامهما للأموال العامة (IRS)، ولوزارة العدل من أجل غايات سياسية، بالإضافة إلى الحيل القذرة المرتبطة بفضيحة ووترغيت التي أدت في النهاية إلى انهيار تلك الإدارة.

يمكن للمبالغة في الارتهان لعقلية الحملات الدائمة أن يعرض الإدارة إلى نوع من الشلل. فقد أدت إلى انهيار إدارة نيكسون، وكادت تؤدي بإدارة كلينتون إلى التهلكة بالرغم من - أو ربما بسبب - أن المراسل الإعلامي لصحيفة واشنطن بوست، هوارد كورتز أجرى اتصالات مع «أبواق السلطة» (spin doctors)، ومع الآلة الدعائية المضمخة بالزيت». وكما سأبين لاحقاً في هذا الكتاب، فقد تسببت بأذى كبير للبيت

الأبيض في عهد بوش الذي اعتنق فكرة الحملات الدائمة وقام بمأسستها أكثر بكثير من أي عهد سبقه.

القوة الثانية التي تشكل البيئة السياسية هذه الأيام تكمن في ثقافة الفضائح التي لا تتوقف أبداً؛ وهي الثقافة التي ولدت من رحم الحملات الدائمة التي كانت جذورها تضرب في عمق أرض واشنطن. هذا الإرث هو امتداد لرئاسة نيكسون كما وصفه بوب ودوورد الذي كان أحد الصحفيين الشباب المتصفين بالعناد. وهو من كشف محاولات التضليل التي قام بها البيت الأبيض في عهد نيكسون. قدم ودوورد عرضاً موثقاً لتأثير ثقافة الفضائح على الرؤساء الذين أعقبوا نيكسون بدءاً بجيرالد فورد وانتهاءً بكلينتون في كتابه المعنون: «الظل: Shadow».

وكما يشرح ودوورد، فقد أدت فضيحة ووترغيت إلى خلق حالة عميقة من عدم الثقة في البيت الأبيض، وإلى رأي شديد التهكم حول السياسة برمتها. طرحت جملة من الأسئلة المباشرة على بساط البحث. هل من الممكن أن يتورط رئيس آخر في قضية جنائية؟ هل يقوم كل رئيس بالتخطيط بشكل سري خلف الأبواب المغلقة كما فعل نيكسون؟ برزت إلى الوجود صناعة مبنية على الفضائح من ذلك عمل محقق الكونغرس الجريئين، وصحفيي التحقيقات، والمدعين العامين من ذوي العزم، والمحققين الأخلاقيين. يقول ودوورد: «إن ممارسة الخداع والعرقلة التي يمارسها الرؤساء لا يمكن أن يتم غض الطرف عنها بعد الآن». إلا أن سلسلة التحقيقات التي لا تنتهي، لم تضع حداً للخداع في واشنطن، بل حولتها إلى شكل آخر من أشكال لعبة حرب متعمدة لها أدواتها على جانبي خط التماس بين الحزبين، وداخل الحكومة وخارجها.

يشير ودوورد إلى أنه من المثير للدهشة أن أحداً من الذين تعاقبوا على خلافة نيكسون لم يستطع «أن يستوعب بشكل كامل عمق عدم الثقة» الذي خلفه نيكسون وراءه. تم التفاوضي عن تنامي الكثير من الجدل ذي المغزى، وغير ذي المغزى في هذه البيئة من الاستفسارات التي تناقص فيها حجم الثقة بدرجة كبيرة، والتي تحول بعضها إلى فضائح سيئة السمعة، ولازم المشهد لزمن طويل. كانت هناك فضيحة حجب تفاصيل الصفقة

كافة التي اعتقد أن فورد رفضها من أجل منح نيكسون العفو؛ وهناك أيضاً اللفظ الذي دار حول بيرت لانس في عهد كارتر، وفضيحة إيران - كونترا، ورفض ترشيح روبرت بورك في عهد ريفان، وتورط بوش الأب في فضيحة إيران - كونترا (داخل الأنشطة أو خارجها)، وسلسلة الفضائح الأقل أهمية بدءاً من فضيحة باسبورت غيت وترشيح جون تاور، وانتهاء بالتورط المزعوم لابن بوش، نيل، في فضيحة قروض المدخرات، وأخيراً، هناك السلسلة التي لا نهاية لها من اللفظ والفضائح التي حاصرت كلينتون بدءاً بوايت ووتر وانتهاء بلوينسكي.

ويختتم ودوورد بالقول إن كل واحد من بين هؤلاء الرؤساء أخفق في استيعاب اثنين من الدروس الأساسية التي يمكن استخلاصها من فضيحة ووتر غيت:

أولاً، إذا كانت هنالك أنشطة مشبوهة، قم بإعلان الحقائق مهما كان نوعها، في أول مناسبة، وبشكل كامل. ثانياً، لا تدع مجالاً للتحقيقات التي يمكن أن تفرض من أي جهة خارجية، والتي يمكن أن يديرها مدعون عامون، أو رجال كونفرس أو صحفيون أن تتحول إلى حال دائمة وصلبة من الشكوك والحروب.

وبما أن أحداً لم يعرف أيًا من هذين الدرسين اهتماماً، وبما أن الفضائح المثيرة لكثير من اللفظ جرفت في طريقها حياة العديد من ضحاياها، كان لا بد للشكوك المتزايدة والمعارك الحزبية التي نجمت عن ذلك من تقزيم موقع الرئاسة إلى درجة معينة. فقد صب الرؤساء الزيت على نار هذا اللفظ بسبب اختيارهم عدم الوقوف في وجهها بشكل مباشر وواضح؛ وهم بذلك زادوا من سعي دائرة الانتقام والعقوبات، في الوقت الذي سعى قادة الكونفرس من الحزبين إلى جر الرأي العام إلى موقع يخدم مصالحهم. وكانت النتيجة ولادة ثقافة مدمرة قوامها سلسلة لا تنتهي من الفضائح.

تقودني تجربتي وانخراطي في العمل السياسي إلى الاستنتاج بأن الرؤساء والدوائر الصغرى المرتبطة بهم تعلموا في واقع الأمر بعضاً من الدروس الخاطئة. فقد تبينوا مقاربة تهكمية في تعاملهم مع ثقافة الفضائح. فقد أدى بهم الخوف من الإحراج السياسي على المدى القصير بشكل لا إرادي إلى محاولة وضع اليد على الحقيقة وإخفائها وتزييفها.

ارتأى كبار مستشاري الرؤساء أن وظيفتهم تتمثل في حماية الرئيس، وجعل هذا الموضوع فوق أي اعتبار، ولذا، فقد قاموا ببناء جدار من الحماية حول المكتب البيضاوي، وتأكدوا من أن الرئيس معزول بما يكفي، ويفضل أن يكون غير مدرك للجانب الآخر، الأكثر مدعاة للنفور في عالم السياسة. وعندما يثور اللفظ، فإنهم يقنعون الرئيس باتخاذ خطاً دفاعية. لكن لا بد لهذا الأسلوب أن يؤدي إلى وضع سمعة الرئيس على محك التحقيقات، ويسمح لآلة الفضائح أن تفرض الشروط التي تحدد بموجبها مدة هذا اللفظ ومداه. وهكذا، فإن السؤال المركزي يصبح على الشكل الآتي: «ما الذي كان الرئيس يعرفه، ومتى عرفه؟» لكن من المثير للسخرية أنهم بينما يحاولون حماية أنفسهم، يسبب الرؤساء الأذية لشرفهم وكرامتهم، وغالباً ما يضعون موقعهم الرئاسي في دائرة الخطر، الجواب على كل ما تقدم، وكما سابين لاحقاً في هذا الكتاب، يكمن في قيادة رئاسية مسؤولة ومبدئية.

العنصر الجوهرى الثالث في بيئة واشنطن الحزبية المشبعة بالمرارة، الذي يشكل جزءاً لا يتجزأ من عملية الإفراط في ممارسة الحملة الدائمة، وثقافة الفضائح العميقة الجذور والذي يتجلى في الأسلوب الذي لا يعرف الرأفة، والمتمثل بشعار الفوز بأي ثمن، هو ما يوجه العديد من السياسيين ومستشاريهم في ممارسة الحكم بطريقة يضمنون فيها الدعم الشعبى ويسخرونه لخدمة مصالحهم - وهو ما يدعى بفلسفة السياسة كحرب.

كان لا بد من ظهور الحملات الدائمة وثقافة الفضائح من أن يؤدي إلى استفحال العداوة بين الحزبين. السبب الذي حدا بها للتحويل إلى حروب عقائدية (أيديولوجية) شاملة في عقد التسعينيات كان جملة من المفاصل التاريخية. حتى قبل فضيحة ووترغيت، كما حللها بشكل مقنع، لاني ديفيس، المستشار الخاص السابق للرئيس كلينتون، فقد ساعدت ثقافة الحروب التي وقعت في عقد الستينات في إطلاق هذا النوع من الثقافة.

في كتابه الموسوم «الفضيحة: Scandal»، يتحدث ديفيس عن المؤمنين الحقيقيين «باليمين الجديد»، والذين بدؤوا يسيطرون على الحزب الجمهورى على المستوى الوطنى في سنة 1964. وكانوا يرون الليبراليين «أعداء ثقافيين خانوا القيم الأمريكية، ومن ثم يجب القضاء عليهم». شهدت الحقبة نفسها ظهور التطهيريين الأيديولوجيين من «اليسار

الجديد». تبنى هؤلاء سياسات إصلاحية ثورية (راديكالية)، وزرعوا الخوف في الوسط الأمريكي بالكلام الإنشائي عن الثورة، والذي استخدموه للتعبير عن غضبهم بسبب ما كان يجري في فيتنام، والعلاقات العرقية، والثقافة السائدة بشكل عام. لكن طرّف النزاع من «اليمن الجديد» و«اليسار الجديد» ذهباً أبعد بكثير في تشدهم الأيديولوجي من حاملي لوائيّ المعايير المحافظة والليبرالية التقليديين. وكما كتب ديفيس:

كانت النتيجة أنه بحلول نهاية عقد الستينات، ومع نهاية الانتخابات الرئاسية سنة 1972، كان الحزبان تحت خطر أن يتم السيطرة عليهما من قبل التطهريين العقائديين الأيديولوجيين الذين شخصنوا خلافاتهم السياسية ضمن إطار من الكراهية والنقد اللاذع. تم إنشاء مقبرة خطيرة جديدة في الثقافة السياسية الأمريكية. فبالنسبة لليمن الجديد وللإسار الجديد، لم يعد كافياً أن تهزم خصومك السياسيين وتنتقد سياساتهم، أضحي الآن من الضروري أن تقوم بتدمير المعارضة، وأن تصف سياساتها بالشريرة.

كانت دوامة الهجوم والانتقام المتجذرة في الكم الهائل من اللفظ والفضائح البادي للعيان، والذي أعقب فضيحة ووترغيت يمثل أيضاً لحظات مفصلية إضافية، كما يشير ديفيس. لقد كانت عملية تمزيق بيرت لانسر إرباً إرباً، وهو مدير الموازنة في عهد كارتر، تمثل جزئياً انتقام الجمهوريين رداً على فضيحة ووترغيت. ومثلت هزيمة المرشح روبرت بورك لمنصب قاضٍ في المحكمة العليا بسبب الهجمات السلبية والتسريبات انتصاراً كبيراً للديمقراطيين. عاد الجمهوريون وهم يصبون جاماً غضبهم على زمن رئاسة كلينتون. لم تكن هناك أي مؤشرات على توقف مثل هذه المباحكات.

يركز ديفيس الذي ينتمي إلى الحزب الديمقراطي على حادثة بورك التي أطلق عليها وصف الحادثة الرئيسة التي أشعلت أكثر مظاهر ثقافة الفضائح وسياسة «أمسكت بك متلبساً» فظاعة. لم تكن القضية تتعلق بمسألة ما إذا كانت هناك أسباب وجيهة للوقوف ضد تعيين بورك في أعلى محكمة في بلادنا. أعرب ليبراليون وخبراء في القانون الدستوري عن قلق فلسفي مشروع، وأثاروا أسئلة حول ما إذا كانت مزاجية بورك تؤهله لشغل منصب قاضٍ في المحكمة العليا؛ وكانت في مجملها نقاط وجيهة تستوجب نقاشاً عقلانياً حولها.

لكن، كما يشير ديفيس، تجاوزت التكتيكات التي استخدمت لاستبعاده كل الخطوط. فالتضليل الإعلامي، والاتهامات المزيفة، والتسريبات التي تخدم المصالح الذاتية من أجل مكاسب سياسية - وهي جميعها جزء من الجانب المبتذل من عالم السياسة في يومنا هذا - أدت دوراً كبيراً في خسارة ترشيح بورك. فالليبراليون الذين قادوا الجهود من أجل منع هذا الترشيح، ربما حاولوا تعليل تكتيكاتهم بالقول إنها كانت ضرورية، وأنها ببساطة تمثل قواعد اللعبة في واشنطن - عقلية السياسة كحرب. لكن المحافظين كانوا يتميزون من الغيظ، لن ينسوا الطريقة الماكرة التي أسقط فيها الليبراليون بورك، حتى أنهم نحتوا فعلاً جديداً يرمز مصدره إلى إستراتيجية الهجوم الماكر أسموه «البوركة Borking».

بالعودة إلى الماضي، أعتقد أن انتخابات الرئاسة سنة 1988 كانت تشكل منعطفاً مهماً. فانا لا أذكر أن حملة وطدت العزم على إسقاط مرشح كما حاولت حملة المرشح جورج هيربرت ووكر بوش القيام به. اعتقد مستشاروه الإستراتيجيون أنه، وفي الوقت الذي كان مرشحهم متخلفاً جداً عن خصمه في استطلاعات الرأي، ليس بالإمكان الفوز عبر إتباع مناظرة شريفة حول القضايا الأساسية. قاموا بدلاً من ذلك بتطوير إستراتيجية محسوبة تتمثل في أن يقوموا بهجوم يركز على المناحي السلبية عند خصمهم، لا علاقة له بتقديم صورة بناءة لمرشحهم، بل بفعل كل ما كان ممكناً لتشويه صورة خصمهم مايكل دوكاكيس. كانت تلك الحملة، وبالاستناد إلى كل المعايير الموضوعية، مليئة بالمغالطات، وتشويه الصورة، وكل ما يمثل الحضيض في السياسة، متهمة دوكاكيس بكل ما يتخيله المرء بدءاً من منح إجازات خارج السجن لمجرمين خطرين، وانتهاءً بكره التعهد بالولاء (الإشارة هنا إلى أنه كان غير وطني). لقد كانت هذه الحملة كما عبر عنها كل من بتر وتوم ماثيوز غولدمان في كتابهما الموسوم «السعي نحو الرئاسة: The Quest for the Presidency» بمثابة «تقطيع أوصالٍ منظم لمايكل دوكاكيس»، مبني على «إستراتيجية الأرض المحروقة».

كان بوش الأب يؤمن بالتأكيد بالمدينة والشرف. ويشهد سجله وسلوكه الشخصي بذلك؛ وهو من أشرف وأنبل من التقيتهم في حياتي. لكنه أثناء حملة انتخابات سنة

1988، أذعن كلياً لبعض مستشاريه، ومن بينهم روجر إيليس والمرحوم لي أتواتير اللذين كان مصممين على الفوز بأي ثمن (ضمن معايير القانون). أنا واثق من أن الكثير من بين المحافظين عدوا ذلك جزءاً من اللعبة، وأنه كان ضرورياً للوصول إلى الخاتمة الصحيحة. لكن الدم الذي سال على الرصيف في نهاية معركة لئمة في الشارع السياسي، ومن طرف واحد بين بوش ودوكاكيس سال أيضاً في ممرات الكونغرس. كانت دوافع اللفظ والفضائح التي أحاطت بالبيت الأبيض في عهد الرئيس الحادي والأربعين تعود جزئياً إلى الرغبة في معاقبته جراء ما سمح به أثناء حملته الانتخابية. فقد تم تبني قواعد جديدة تنظم ممارسة «السياسة كحرب» بين الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء.

بحلول سنة 1992، شعر كلينتون ومستشاروه بأنهم تعلموا الدرس من حملة سنة 1988: قم بالرد على كل هجوم يوجه ضدك، واجه محاولات تشويه الصورة والمغالطات حول سجلك بإتباع الأساليب نفسها ضد الخصم. استخدم قواعد اللعبة التي يستخدمها الخصم نفسها؛ ولكن قم بذلك بشكل أفضل. اشتهرت حملة الآلة الحزبية لكلينتون منذ بداية حملة سنة 1992 بأساليبها التي تنزع نحو الهجومية ودفع الخصم إلى الوراء، وبطريقتها الذكية، وأحياناً غير الذكية في إرهاب الصحفيين، وقدرتها الفائقة على اللف والدوران، وسرعة ردودها على الاتهامات. لقد حوّل الفيلم الوثائقي المثير للإعجاب بعنوان «غرفة العمليات الحربية: The War Room» مناصري كلينتون وهما جورج ستيفانوبولوس وجيمس كارفيل إلى نجمين إعلاميين، وهو يظهر للعالم كيف أن فريقاً بارعاً ذا عقل بارد يدير حملة انتخابية، يستطيع الإمساك بمفاتيح الأخبار، ويساعد في بلورة آراء ملايين من الناس وتوجيهها حيث يشاء.

أي حزب من الحزبين يتحمل القدر الأكبر من اللوم لنشوء فلسفة «السياسة كحرب»؟ هذا سؤال في غاية الأهمية ويتطلب مساحة كتاب مطولة للإجابة عليه. هناك شيء واحد مؤكد: وهو أن فلسفة السياسة كحرب كانت تتطور بالتدريج على مدى عقود، وأن القادة المنتخبين في كلا الحزبين يتساوون في تحمل المسؤولية.

هناك من يضع المسؤولية الرئيسية على عتبات وسائل الإعلام. لكنني لا أتفق مع هذا الرأي. صحيح أن وسائل الإعلام لها مشكلاتها، وأكثرها لفتاً للأنظار يكمن في مشاركتها في تأجيج المعارك العقائدية (الأيديولوجية) نظراً لتعطشها الدائم إلى تصيد أشخاص أو قصص تفتت عليها. لكن قادتنا المنتخبين يملكون مفاتيح أعلى السلطات، ويتحملون من ثم المسؤولية الأكبر عنها، وأظن أن هذا ما يريده ويتوقعه معظم الأمريكيين منهم القيام به. بدلاً من ذلك، اختار أغلبهم السير في طريق ممارسة «السياسة كحرب» المدمرة، وذلك لتحقيق أهدافهم السياسية المباشرة والقصيرة المدى.

في مرحلة رئاسة كلينتون، والعقلية التي قادها نيوت غينغريتشر، التي تحكمت بالحزب الجمهوري، تفاقمت الحملات الدائمة، وثقافة الفضائح التي لا نهاية لها في الأفق، والسياسة كحرب كما لم تتفاقم في أي وقت مضى. وأفرز كل ذلك حرباً حزبية شاملة. ليس عليّ سوى القيام بالإشارة إلى بعض الأحداث المخجلة في تلك الحقبة كي أذكركم بالأسباب التي أدت إلى تشويش المواطنين، وشعورهم بالازدراء، ووقف التقدم باتجاه مواجهة مشكلاتنا الوطنية، وتمريغ سمعة واشنطن في الوحل: فينس فوستر، ووايت ووتر، وترافيل غيت، وفايل غيت، وإعاقة غينغريتشر لأعمال الحكومة، وباولا جونز، ومونيكا لوينسكي، و«الكلب الذي هز ذيله»، والعفو الممنوح لمارك ريتشر. يا لها من قائمة من الإرباكات على الصعيد الوطني - بعضها موثق، وبعضها الآخر غير موثق - سبب في تأجيحها عاملان: يتمثل الأول في غياب عنصر الصراحة والصدق من البيت الأبيض، ويتمثل العامل الثاني في التصميم ذي المبعث الحزبي على تدمير الأعداء السياسيين بأي ثمن!

بحلول انتخابات سنة 2000، أصبحت الحملات الدائمة وكل السلبيات المرتبطة بها تمثل واقعاً راهناً بالنسبة لفريق كلينتون، والكونغرس، وواشنطن. أصبح البيت الأبيض في عهد كلينتون يمثل هذا الأسلوب في الحكم عبر الحملات التي لا تنتهي، والتي تمت مأسستها بطريقة لم يسبق لها مثيل. كانت هي الطريقة المقبولة للقيام بالأنشطة. استوعب أغلب الأشخاص العاملين في السلك الحكومي والحملات فكرة أن الإمساك

بالخيوط السياسية جزء مهم من الأداء الوظيفي - خصوصاً في مناخ تسوده الحرب الحزبية. لم يعيروا إلا النذر اليسير من الاهتمام لتأثيره الإجمالي على السياسة الوطنية باستثناء اعتصار الأيدي بين الحين والآخر تعبيراً عن الشكوى، والتنهدات غير المجدية حيناً إلى الأيام الخوالي.

تواطأت وسائل الإعلام الوطنية مع هذا التوجه بحيث انقضت المحطات الإخبارية التي تبث على مدار الساعة على كل فضيحة، وعلى كل صراع، بغض النظر عن أهميته أو عدمها وذلك لملء أوقات البث على الهواء، وتحريك القدر المحشو باللفظ لجذب اهتمام المشاهدين. وأصبحت الأخبار السياسية تماثل تغطية الأحداث الرياضية التي تتناول «ألعاب الأسبوع» المسلية، والتحليل الفوري، والتركيز الدائم على الفائزين والخاسرين، وعلى الأبطال وكبوش الفداء. كما لم يلتزم العديد من النقاد بالتحليل الموضوعي للأحداث؛ بل قاموا بتشجيع أحد الطرفين، وأطلقوا أصوات الاستهجان ضد الطرف الآخر.

وعندما اندلعت الحرب الحزبية على هذا النطاق الواسع، كانت النتائج مدمرة جداً مسببة أضراراً لا تمحى لخطابنا السياسي الوطني. أضحت الهجمات السلبية الشرسة، وتزييف الحقائق، وحركات اللف والدوران، والشائعات التي لا أساس لها من الصحة، وإطلاق المعلومات المضللة سائدة في أوساطنا. تأصلت ثقافة عناوين الأخبار، ولسع السياط الكلامية التي تحظى بتغطية واسعة في وسائل إعلامنا في تلك الأرض اليباب. لم يعد يلقى أي بال يذكر للتوضيحات، كما أن المعلومات التي يتقدم بها الطرف الآخر يضرب بها عرض الحائط، أو لا تحظى بأي اهتمام؛ وتعرض القضايا المعقدة إلى تبسيط مبتذل في الغالب ضمن سياق الغالب والمغلوب. كما تتصور بمنطق الأبيض مقابل الأسود. ويسود في غالب الأحيان الجانب الذي يدير بفاعلية أحداث القصة، ويتم وضعه في موقع الهجوم - بغض النظر عن وجود فوارق واهية أحياناً، وتجاهل الحقائق الدامغة. فالخداع يلقي بالحقيقة جانبا.

أعتقد أن معظم الذين انخرطوا في تلك الطرق الملتوية من طريق النزاع الحزبي، بمن فيهم القادة المنتخبون، هم أشخاص طبيون بالأساس، إلا أنهم وقعوا فريسة للطبيعة

الدمرة للعبة في واشنطن. ولكن بما أن عقلية المناورة أصبحت تمارس على نطاق أوسع، وأضحت أكثر قبولاً، فإن ثقافة جديدة بدأت تتطور كنتيجة للحرب الحزبية الشاملة - ثقافة الخداع.

صن تزو، هو ضابط صيني قديم عُرفَ بوثقته العسكرية الموسومة: «فن الحرب: The Art of War» كتبها قبل عدة قرون قبل ولادة السيد المسيح. إنها واحدة من أقدم الكتب التي تتناول الإستراتيجية العسكرية، وأكثرها شهرة في العالم. وكان لها أيضاً تأثير عارم على عمل القيادة والحملات السياسية بسبب الرؤى الإستراتيجية التي تطرحها.

لم أعد أذكر اسم ذلك الإستراتيجي المتخصص في الشؤون السياسية الذي نصحتني بقراءة هذا الكتاب منذ عدة سنين، لكن مقطعاً ذا صلة من الكتاب يشير إلى أن «الحروب جميعها مبنية على فن الخداع». يتابع هذا الكتاب مناقشة الطرق العديدة التي تستخدم الخداع عند التحضير لخوض المعركة، وهي طرق تشبه مثيلاتها المتبعة عند القيام بحملة انتخابية بغية الفوز بمنصب، أو من أجل ممارسة السلطة عندما يتبوأ المرء المنصب. حتى أن صن تزو يشير إلى أن الإستراتيجية العسكرية الفعالة تتضمن ليس فقط خداع العدو، بل أفراد جيش القائد نفسه أيضاً، بحيث يدفعهم إلى إطاعة الأوامر من دون أن تكون لديهم المعرفة الكاملة بالمقاصد الحقيقية لقائدهم.

تهدف الحرب حرفياً إلى تدمير الأعداء. ربما كان من المنطقي استخدام الخداع في هذا السياق، طالما أن إلحاق الأذى بالعلاقات ليس سوى ثمن بسيط يتعين على المرء أن يدفعه إذا تحول الصراع من أجل البقاء إلى مسألة حياة أو موت. في السياسة، هناك أمثلة محدودة وغير ذات شأن يمكن أن يكون الخداع فيها مقبولا؛ على سبيل المثال، عندما يزعم أركان إحدى الحملات أن حملتهم أكثر نشاطاً مما هي عليه في الواقع مع بداية العملية، فإنهم بذلك يعطون انطباعاً خادعاً لأركان الحملة المضادة يدفعهم إلى زيادة الإنفاق والموارد في وقت مبكر. لكن ممارسة إستراتيجية الخداع على نطاق واسع يشمل السياسة والحكم، فإنها خطوة مبالغ فيها.

لسوء الحظ، أصبحت مقاربة صن تزو المعيار المتبع في عالم السياسة؛ ذلك أن الخداع يعد في هذه الأيام ضرورياً لإلحاق الهزيمة بأركان الحملة المضادة، وللوصول إلى الحكم أيضاً. اخترق هذا الأسلوب الذي يطلق عليه وصف «كل شيء مسموح به» عالم الحملات السياسية، وعبر بشكل طاعٍ إلى ضفة الحكم، خصوصاً عندما تكون الفنائم كبيرة. أصبحت واشنطن نتيجة لذلك، مرتعاً خصباً للخداع، وحقلًا تُفتال فيه الحقيقة.

كونوا على ثقة من أن ممارسة الحكم لا بد لها من أن تحتوي على عناصر عدائية. سوف يكون الناس والمجموعات دوماً على خلاف حول مسألة الاستخدام الصحيح لمصادر الحكم المحدودة. لكن، هل يجب أن تكون الحكومة مطية للحملات الدائمة بهدف السيطرة على الرأي العام بدلاً من أن تركز قدر الإمكان على النقاشات العقلانية، والمداولات، والأخذ بمبدأ الحلول الوسط؟ هل يجب أن تستند إلى مقولة الحرب الشاملة، والخداع، أم تتجذر في مستوى راقٍ من المصارحة، والشفافية، والصدق، والبحث عن الحقيقة؟ لكن الروح الحربية هي في الغالب السائدة في السياسة هذه الأيام.

لعب كلينتون وأركان فريقه اللعبة بحرفية عالية. فقد أظهروا مرونة فيها بعض التهور، ومقدرة على التحمل والتحكم في المعركة السياسية للحصول على الجائزة الكبرى، وأيضاً في الهجمات المعاكسة التي قاموا بشنها. ولكن في النهاية، أدت الأخطاء الفادحة التي ارتكبها بيل كلينتون إلى إضعافه، لكنها لم توجه ضربة قاصمة لرئاسته. لماذا؟

لأن كلينتون شخصية مغناطيسية، ولأنه يتمتع بشخصية مميزة (كاريزما) استثنائية، وبمقدرة نادرة على فرض جاذبيته على العديد من الأمريكيين، ونيل تقديرهم العالي - سواء كان هذا مبنياً على أساس مبدئي أو على البراغماتية السياسية - وذلك لممارسته الحكم باتجاه أقرب إلى الوسط. فقد نجح على جبهة السياسة، في حشد دعم الجمهوريين، وتفعيل سياسات تهم الوسط الأمريكي، بدءاً بنظام الخدمة الاجتماعية وانتهاء بتقليص الدين. لقد استوعب كلينتون أن خطة العمل الناجحة يمكن أن تغطي على الأخطاء الشخصية، والأحقاد الحزبية. عرف فريقه أن أعظم عامل إقناع في الفريق هو كلينتون نفسه، كما عرف هذا الفريق كيف يمارس لعبة الحملات الدائمة في

واشنطن أفضل من أي إدارة سبقتها في البيت الأبيض. لكن التزامه المفرط بالقواعد الحديثة الحالية - التي يشاركه فيها الجمهوريون من أتباع غينفريتش - أدى بالامة إلى دفع ثمن غالٍ.

لسوء الطالع، تعلمت إدارة بوش القادمة إلى البيت الأبيض بعض الدروس الخاطئة التي استخلصتها من مراقبة البيت الأبيض في عهد كلينتون. ففي الوقت الذي كانوا يخططون لقيام النظام الجديد في واشنطن، لم يفعلوا ما من شأنه إحداث أي تغيير في الواقع الراهن. وبدلاً من أن ينطلقوا بتفكيرهم خارج نطاق بوتقة الحملة الدائمة، فقد قبلوا بالقواعد الجديدة للعبة، وركزوا على الكيفية التي سيمارسونها بشكل أفضل، وليس على الكيفية التي يمكن لهم عبرها تغيير تلك اللعبة إلى لعبة أخرى تخدم مصالح الشعب الأمريكي بصورة أفضل.

من المثير للسخرية، أن لغة خطاب حملة بوش كانت قد هدفت إلى النأي به عن كل التجاوزات التي مارستها حملة كلينتون الدائمة، وأسلوبها في ممارسة الحكم. كان المعنى الضمني لكلمات بوش يؤكد على أنه سيضع حداً للمناورات السياسية الدائمة، والشروخ الحزبية العميقة التي تسببت بها. وبالرغم من أن واشنطن لم تستطع الحصول على ما يكفي من الحملة الدائمة، فقد كان الناخبون على ما يبدو، تواقين للتحرك خارج إطارها.

ركز بوش خلال حملته الانتخابية على هذه الناحية العاطفية. فهو سيعمل على «تغيير النغمة في واشنطن». وسوف يكون «موحداً، لا مفرقاً». سوف «يعيد الشرف والكرامة إلى البيت الأبيض». وسوف يمارس الحكم استناداً إلى كل ما هو صحيح، وليس إلى ما تخرج به استطلاعات الرأي. باختصار، سوف يبدل الروح التهكمية التي سادت عقد التسعينات بعصر جديد من النفحة الحضارية، والشرف، والأمل. لن تكون هناك بعد الآن أي حملات دائمة، أو على الأقل سيتم محو تجاوزاتها من الوجود، مرة وإلى الأبد.

لكن الحقيقة أثبتت أنها مختلفة تماماً. فبدلاً من تحقيق ما تقدم، قام فريق بوش بتقليد بعض أسوأ سمات عهد كلينتون في البيت الأبيض: ولم يكتفِ بذلك، بل ذهب بها إلى أبعاد أكثر عمقاً.

لم يجارِ بوش كلينتون في جبهة السياسة. على العكس تماماً - كان شعار الإدارة الجديدة هو: «أي شيء إلا كلينتون» عندما كان الأمر يتعلق بالسياسات. تباغت إدارة بوش بأنها كانت تركز على الأفكار، وليس على اللعب بكرات صغيرة مع أفكار قيمة ولكنها بالأساس ليست بذى قيمة تذكر كأفكار سياسية بالنسبة إلى البيت الأبيض مثل تقديم البسة موحدة في المدارس، أو ملاحقة الآباء المنهوكي القوى.

لكن مظهراً أساسياً من مظاهر رئاسة كلينتون تم تبنيه من قبل جورج بوش وفريقه، تمثل في الانتشار غير المسبوق للحملة الدائمة بكل أساليبها. وبالعودة إلى ما حدث، فإن من الواضح أن البيت الأبيض في عهد بوش قد تمت تهيئته كي يباري، بل يتجاوز هذا الأسلوب في الحكم، بالرغم من أنه أراد أن يتم ذلك على طريقته الخاصة.

الدليل الأكثر وضوحاً على قيام البيت الأبيض في عهد بوش بتبني مبدأ الحملة الدائمة يتمثل في العملية السياسية الشاملة التي وضعت موضع التطبيق منذ اليوم الأول. تبوأ كارل روف مركزاً ذا تأثير هائل داخل البيت الأبيض منذ بداية العهد. وقد ازدادت قوة هذا المركز بسبب التأثير الذي أضفته عليه شخصية روف القوية، بالإضافة إلى قربيه الشديد من الرئيس. كان واحداً من فريق يضم أهم ثلاثة لاعبين - مع كارن هيوز وأندي كارد - بالإضافة إلى الرئيس نفسه: هذا الفريق هو الذي حدد معالم الطريق الذي سار عليه البيت الأبيض في عهد بوش.

تعرفت على كارل للمرة الأولى سنة 1992 عندما كنت أدير حملة لمنصب عضو في مجلس الشيوخ في ولاية تكساس: قامت هذه الحملة باستئجار خدمات شركته الاستشارية السياسية للقيام بتوجيه الرسائل. لم أتحدث إليه كثيراً خلال تلك الفترة؛ فقد كانت له انشغالاته الكثيرة أيضاً مع كثير من العملاء الآخرين، وكان عمله معنا يقتصر على

مسألة توجيه الرسائل. لكن روف كان يؤسس لنفسه منذ ذلك الحين موقع المرشد الروحي للحزب الجمهوري في ولاية تكساس.

قبل ذلك بسنتين، وتحديدًا في سنة 1990، عندما كنت أعمل لصالح المرشح لمنصب حاكم ولاية تكساس الذي خسر الانتخابات حينها بفارق ضئيل، كان اثنان من موكلي روف اللذان كان اسماهما على بطاقة الولاية، وهما كاي بيلي هتشنسون وريك بيرى قد فازا في الانتخابات لمنصبَي أمين الخزانة، والمندوب الزراعي على التوالي، وقد منح هذا الفوز روف بعضاً من شهرته المبكرة كنجم سياسي صاعد في سماء الولاية.

بُعِدَ انتهاء الحملة الانتخابية لمجلس شيوخ الولاية التي خسرتها بفارق ضئيل جداً أمام عضو المجلس المتخندق في موقعه، عدت إلى أوستن للتأمل في خطوتي المقبلة. كان لديّ متسع كافٍ من الوقت كي أتطوع لمساعدة حملة هتشنسون الوليدة للوصول على مجلس الشيوخ في واشنطن. كانت تلك انتخابات خاصة للحلول مكان لويد بينتسين الذي أصبح وزيراً للخزانة. كانت هتشنسون ستتنافس مع بوب كروغر الذي كان يشغل سابقاً منصب مندوب السكك الحديدية في تكساس، والذي كان الحاكم قد عينه في هذا المنصب إلى أن يتم انتخاب البديل. كانت الحملة القليلة الخبرة تنطلق من مكتب روف في البداية؛ وكنت أساعد عبر إجراء اتصالات أحث فيها الناس على دعم الرحلة التي تزمع هتشنسون القيام بها إلى عشرين بلدة ومدينة في الولاية على امتداد الأيام الأربعة اللاحقة.

عند اقتراب موعد قيام هتشنسون برحلتها، سألني مدير حملتها إذا كان بإمكانني السفر معها في اليوم الأول فقط. في ذلك الحين، كان روف قد أعطى اسمي لبعض المخططين الاستراتيجيين في مجال الاتصالات في واشنطن العاصمة الذين كان يبحثون عن إحدى المواهب التي يمكن أن تساعد أحد موكلهم وهي الرابطة الأمريكية لإصلاح الضرر في الدعاوى القضائية التي أقامتها من أجل جهود الإصلاح في تكساس. لكن فكرة السفر برفقة من قد يصبح عضواً في مجلس الشيوخ الأمريكي بدت لي تجربة جيدة؛ وهكذا، قررت، ووافقت بسرعة.

تحول السفر لمدة يوم واحد إلى سفر استغرق أربعة أيام على متن طائرة صغيرة برفقة هتشنسون وزوجها راي. كانت الرحلة ممتعة جداً، وعرضت عليّ في نهايتها وظيفة في الحملة مدفوعة الأجر. ولكن في الوقت نفسه، كانت وظيفة أخرى قد عرضت عليّ للعمل في مجال الدعاوى القضائية من أجل جهود الإصلاح. ولكن بما أنني كنت قد انتهيت للتو من العمل في إحدى الحملات الانتخابية، لم أكن متأكداً من أنني أرغب في الانتقال إلى العمل في سباق تنافسي آخر، لذلك قررت قبول العرض بالعمل في وظيفة إصلاح الدعاوى القضائية. وما كنت لأحصل على هذه الوظيفة لو لم يقم روف بترشيحي لشغلها.

أصبح روف القوة الضاغطة في سياسة ولاية تكساس. وقد اعده الكثيرون من المراقبين السياسيين في الولاية منافساً شديداً يمكن أن يكون أحياناً قاسياً وعديم الرحمة يعمل ضمن نطاق عقلية «لا تأخذ معك أي مساجين».

بقيت على اتصال مع كارل بشكل متقطع على امتداد السنوات اللاحقة. قامت شركته سنة 1994 ببعض الأعمال لصالح عملية انتخاب والدتي لندوبية السكك الحديدية (التي نظمت صناعة الزيت والغاز في ولاية تكساس)، وهي الحملة الأولى التي قمت بإدارتها على مستوى الولاية. ولكن في تلك السنة، كان جهده منصباً على حملة انتخاب بوش لمنصب حاكم ولاية تكساس. كانت ولاية تكساس حينها تميل باتجاه الحزب الجمهوري، وقد قام روف بهندسة النصر الكاسح الذي حققه الجمهوريون في كل مكاتب الولاية في سنة 1998.

أذكر تلك الليلة الانتخابية جيداً. كانت والدتي تغوض واحدة من أكثر المعارك الانتخابية تقارباً، واعتبر الكثير من النقاد أن احتمال فوزها أمام منافسها ضئيل للغاية. لكننا حققنا المفاجأة، وكانت لنا يدٌ في تحقيق انتصار الجمهوريين الكاسح. كان كل واحد من المرشحين الجمهوريين يقيم حفل انتصاره الخاص في الفندق الذي يقع في وسط مدينة أوستن نفسه. كانت غرفتنا على بعد خطوات من قاعة الاحتفالات التي يقيم فيها أركان حملة بوش حفل انتصارهم.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، وبينما بدأت معالم فوز والدتي تتضح أيضاً، ظهر روف في الحفلة التي كانت تقيمها. كنت أجلس في منطقة معزولة إلى اليمين من الباب حيث كنا جهزنا طاوولات ووضعنا عليها أجهزة الحاسوب لمراقبة نتائج الفرز كما ترد إلينا. قال روف بصوت ملؤه الحيوية: «أود أن أهنئ الشخص الذي يعود إليه الفضل في هذا الانتصار - وها هو!»، قال ذلك وهو يستدير إلى جهة اليمين حيث كنت أقف وأشار إليّ: «ما كان لها أن تحرز هذا الانتصار لولاك. لقد قمتَ بعمل رائع يا صديقي».

كان هذا مديحاً مُسكِراً في نشوته بالنسبة إلى شاب في السادسة والعشرين من عمره. وها هو أهم مخطط استراتيجي سياسي جمهوري في ولاية تكساس - وصانع الملوك الجديد في سياسة ولاية تكساس - يذهب بعيداً في عبارات الإعلان عن مصداقية موقعي. تصافحنا وتعانقنا، ثم قلت له: «لم أكن أعلم أنني أنا من كنتَ تقصده بكلامك. إن كلماتك تعني الكثير بالنسبة لي. وأنا أقدر لك ذلك جداً».

كان روف يبحث عن استقطاب سياسيين جدد من الشباب مثلي في ولاية تكساس. فإذا كنت تبغي الحصول على وظيفة سياسية في سياسات الحزب الجمهوري، فما عليك سوى التواصل مع روف الذي كان على رأس قائمة من يتوجب عليك أن تقوم بزيارتهم. ولكن بالرغم من جدول أعماله المزدحم، كان من الكرم بحيث إنه لم يبخل بتقديم النصيح ومد يد المساعدة.

اعد العديد من المساعدين الشباب في ولاية تكساس أنفسهم من أتباع روف ومدرسته السياسية. لم ينتابني مثل هذا الشعور قط. فلطالما اعتبرت نفسي مساعداً أرقب إلى أن أكون مساعداً مستقلاً، غير مرتبط بالضرورة بأي مخطط استراتيجي أو معسكر داخل الحزب الجمهوري في ولاية تكساس. لكنني كنت أعرف أن روف هو صانع الملوك في سياسات الحزب الجمهوري في تكساس، ولذا فقد قدرت عالياً دعمه لي، ورحبت بهذا الدعم.

بعد انضمامي إلى فريق بوش سنة 1999، كنت أرى روف بين الحين والآخر في أحد اجتماعات كبار الموظفين في مكتب الحاكم. وبحلول الوقت الذي انضمت فيه إلى الحملة

بعد عدة أشهر، أصبحت أراه غالباً في أروقة المركز الرئيس لحملتنا وسط مدينة أوستن، خصوصاً بعد أن أصبحت في منصب السكرتير الصحفي المتنقل. وعندما لا أكون مسافراً، كنت أحضر اجتماع الرسائل اليومية لمساعدتي المرشح الرئيس التي كان يحضرها أيضاً كارل الذي كان ينضم إلى قافلة الحملة. وقد تعرفت أكثر إلى كارل بعد أن انضمت معه إلى كبار أعضاء أركان البيت الأبيض.

سوف أتذكر دائماً، وبكثير من الود كيف كان كارل يرمي بنكاته المرححة الخفيفة التي تخفف من عناء الحياة المتطلبة التي كانت تستنزفنا داخل البيت الأبيض. كان يمتلك في جانب من شخصيته نوعاً من الحماسة المحببة التي كانت ترفع من معنوياتنا خصوصاً أثناء التوترات التي تصاحب الحملات الانتخابية والمتمثلة في الانتقال من فندق إلى آخر وهو ما كان يجعلنا نشعر وكأننا في «يوم الخنزير الخارج من جحره: Groundhog Day».

مع اقتراب نهاية حملة الانتخابات في سنة 2004، على سبيل المثال، اعتاد كارل أن يرفع من وتيرة الحماس في نفوس زملائه من فريق بوش المسافرين في الحافلات الصغيرة عندما كان يقودنا في إنشاد أغاني مشهورة كانت رائجة في مؤتمر الحزب الجمهوري في نيويورك في شهر آب، أغسطس من تلك السنة. كان يبدأ بالصياح: «أربع سنوات أخرى، يا أمريكة، أربع سنوات أخرى، يا أمريكة»، أو ينشد أنشودة أخرى، وكانت هي المفضلة لدينا: «غَيِّرْ وجهتك، غَيِّرْ وجهتك! Flip-flop, flip flop!» (ربما تتذكرون الخُفَيْنَ الرَّجْرَجَيْنِ اللذين يلبسان على الشاطئ، واللذين كان يلوح بهما أعضاء المؤتمر للإشارة إلى مواقف جون كيري المتأرجحة حول العديد من القضايا). كنت أنشد وراءه مباشرة، ثم ينضم إلينا الآخرون أحياناً. أظن أن سائقنا التطوعي، وكان من مؤيدينا المحليين، كان يتساءل فيما إذا كان كارل قد قضى أياماً كثيرة على طرقات السفر، أو أنه كان يحتاج للهرب من أشعة الشمس. لا بد أن الكثيرين من النظارة كانوا يتساءلون، «هل حقاً هذا هو العبقري السياسي الشهير نفسه؟»

أذكر أنني في انتخابات سنة 2000، كنت أقضي بعض الوقت في مكتب كارل في مركز الحملة الانتخابية. كان عدد من المساعدين الآخرين في مكتبه أيضاً أو بالقرب من مكتبه.

كان كارل يتفحص أجهزة الهاتف، ويتابع الرسائل الإلكترونية، ويتلف الأرقام الواردة من مقاطعات فلوريدا. كانت قد استفزته قبل ذلك الطرق التي أعلنت فيها الشبكات فوز غور في فلوريدا قبل أن تغير تقاريرها. كان كارل يجول في أنحاء المركز الرئيس كلها قائلاً إن الدوائر الانتخابية المحافظة في أطراف فلوريدا ما يزال الناهبون يدلون بأصواتهم فيها، وأن التقارب في أماكن أخرى جعل من توقعات هذه الشبكات سابقة لأوانها. والآن، وبعد أن غيرت هذه الشبكات من مواقفها بدا كارل متشجعاً وأكثر إصراراً كما لو أن إرادته وحسب، كانت هي التي تقلب الموازين لصالحنا بطريقة سحرية.

بعد الساعة الواحدة صباحاً بقليل، كانت فوكس نيوز أول شبكة تعلن عن فوز بوش بولاية فلوريدا، ومن ثم فوزه بالانتخابات العامة. كان ذلك تطوراً مثيراً. لكنني، مثل الآخرين، التزمت جانب الصمت؛ ذلك أنني كنت غير متأكد من ذلك، وكنت أنتظر لأرى فيما إذا كان كارل بنظرته الثاقبة التي لا تخطئ الهدف موافقاً على ما أوردته تلك الشبكة. ولكن بعد دقائق من قضم الأظافر، لحقت الشبكات الأخرى بشبكة فوكس نيوز قابلة بذلك توقعاتها السابقة. لم يكن بالإمكان احتواء فورة الحماس التي أعقبت ذلك. أطلقنا الكثير من صيحات الابتهاج، ورفعنا أذرعنا، وتلاقت أكفنا في الهواء. قاد روف أركان الحملة الذين بقيوا معه في مركز الحملة الانتخابية في مسيرة جاب بها شارع الكونغرس في مدينة أوستن على البوابة الرئيسة لمبنى برلمان الولاية. كان من المفترض أن بوش سيطل من هناك، إلا أن النتائج التي وردت متأخرة أدت بالشبكات إلى تغيير أخبارها من جديد معلنة أن النتائج متقاربة لدرجة أن أحداً لا يستطيع الآن التكهّن بها، وأدى هذا بغور إلى إلغاء الاتصال الذي كان يزمع إجراءه للقيام بتهنئة بوش.

من دون شك، يعتبر كارل واحداً من أذكى المواهب السياسية في عصرنا هذا، بفضل طاقته التي لا حدود لها، وبفضل حماسه، ومعرفته العميقة بالتاريخ ورؤيته النفاذة التي يلج فيها إلى عقول الناخبين. إنه مفكر استراتيجي حاد الذكاء، واستراتيجي بارع، وشرس، ومراوغ. كارل يعيش السياسة، ويأكلها، ويتنفسها، ويعشق كل ما تأتي به، خصوصاً روح

المنافسة والمعارك الكلامية. يعتبر السياسة رياضة عنيفة. ويستمتع بالحروب الحزبية؛ وله سمعة بأنه عديم الرحمة عندما يكون مديراً، وربما لا تساوره أي أوهام، كما أن ما كان يثير انتباهي هو أنه ذلك الشخص المستعد، وهو في خضم المعركة، إلى أن يدفع بالأمور إلى أقصى ما هو مسموح به أخلاقياً وقانونياً.

يحب كارل أن يقحم نفسه في كل شيء، فهو يستمتع بصياغة السياسة كما يستمتع بالتخطيط السياسي الاستراتيجي. ينظر إلى الحكم والسياسة على أساس أنهما يرتبطان ببعضهما بعضاً ارتباطاً وثيقاً، وقد تبوأ موقعاً مهماً في قلب كل منهما في البيت الأبيض أثناء حكم بوش.

بعد تسميته مستشاراً للرئيس قبل أسابيع من حفل التنصيب، كلف روف بمسؤولية الإشراف على السياسات والإستراتيجية السياسية، وترأس أربعة مكاتب تهدف إلى تحقيق هدف رئيس واحد: تشكيل مصادر الرأي العام، والسيطرة عليها؛ تماماً كما كان الأمر عليه إبان الحملة الانتخابية، وذلك للمساعدة في تسويق خطط بوش وسياساته. كان لكل واحد من هذه المكاتب أهميته الخاصة، وبما أن تلك المكاتب قد وضعت جميعها تحت إشراف روف، فقد شكلت بمجملها غرفة عمليات هائلة، وفائقة القوة قادت ما يشبه الجهد المبذول في الحملة الانتخابية نفسها وذلك لتقوية موقف الرئيس أمام الرأي العام، والذي كانت تقاس درجة قوته عبر استطلاعات الرأي. كانت هذه المكاتب تقوم غالباً بواجبها على أكمل وجه.

عمل مكتب المبادرات الإستراتيجية بشكل رئيس ككتيبة تخطيط استراتيجي بعيد المدى. لم يكن لهذا المكتب وجود في الإدارات السابقة. ينبئني حدسي بأن هذا المكتب قام ببناء وتأسيس وتفعيل عدد من الفعاليات الموازية التي قامت بها مجموعات من العاملين السابقين في البيت الأبيض في عهود سابقة؛ لكن تأسيس هذا المكتب بشكله الحالي هو نتاج عظيم أبدعه روف نفسه. كان هذا المكتب يستشرف المستقبل لأسابيع وأشهر قادمة، ويخطط لما سيركز الرئيس عليه أمام الرأي العام فيما يتعلق بخططه وسياساته. بالإضافة إلى ذلك، فقد بقي مهتماً وفاعلاً في عمليات البيت الأبيض اليومية

موفداً عاملين في البيت الأبيض لحضور معظم الاجتماعات الرئيسية. كان مهتماً بشكل رتيب أيضاً بإجراء الأبحاث، ومراقبة بيانات استطلاعات الرأي، وتنسيق الاجتماعات الرئيسية المتعلقة بالشؤون الإستراتيجية، والقيام يومياً بأداء دور حيوي في مساعدة الرئيس على ترتيب سياساته (أجندته).

قام مكتب الشؤون السياسية بتنسيق طيف واسع من المناسبات والنشاطات ذات الطابع السياسي، مبقياً على اتصال مباشر مع اللجنة الوطنية للحزب الجمهوري، وكذلك مع الزعماء الجمهوريين، والنشطاء في الولايات، والجماعات على امتداد البلاد. كان ذلك المكتب مسؤولاً كذلك عن إعداد أوراق تتضمن معلومات سياسية مفصلة لرحلات بوش إلى مختلف الولايات والأقاليم المحلية، بما في ذلك عرض كامل عن الولاية التي سيزورها، يشمل المناخ السياسي السائد، والسمات السكانية، والقضايا المهمة، والنتائج الأخيرة للانتخابات، والسوق الإعلامية، ومندوبي الكونغرس، وقادة الولاية، وقادة الحزب الجمهوري، وملخص عن الزيارات السابقة لبوش وأعضاء حكومته لهذه الولاية أو تلك. كان ذلك المكتب في حقيقة الأمر يجهز فعلياً رزمة من المعلومات توفر للرئيس عرضاً فورياً للسياق السياسي حول أي شيء يريد أن يقوله أو يفعله خلال الزيارة، وهذا ما يجعل من الأسهل بالنسبة إليه توجيه الرسالة التي ينوي إلقائها في موقع خاص بشكل مناسب.

عمل مكتب الارتباط العام بشكل لصيق مع الدوائر الانتخابية الرئيسية، وكذلك بالتعاون مع مجموعات المصالح العامة، بدءاً من المؤسسات التجارية مثل غرفة التجارة، وانتهاءً بمجموعات مثل مجموعة الحق في الحياة، والمنظمات والقادة الأمريكيين من أصول إفريقية. كان العاملون في هذا المكتب يكلفون بالاتصال مع دوائر انتخابية مختلفة - مجموعات رجال الأعمال، والمنظمات الاجتماعية المحافظة، والقادة الأمريكيين من أصول إسبانية، والعديد من الأفراد والمجموعات الأخرى. ساعد مكتب الارتباط العام في تجييش هذه الدوائر الانتخابية بقدر ما اقتضت الحاجة وذلك لتسويق الأولويات المهمة، وترتيب اجتماعاتها مع الرئيس. كان من بعض مهامه أيضاً تحييد بعض المجموعات التي تحاول أن تثني إحدى المنظمات المؤثرة عن القيام باعتراض علني على إحدى المبادرات

التي يمكن أن تثير الهلع في نفوس أعضائها. مثال على ذلك، القيام بإقناع إحدى المجموعات التي تمثل كبار السن بأن لا تعترض علناً على الحسابات التقاعدية الخاصة أو الشخصية للعمال الشباب أثناء النقاش حول الضمان الاجتماعي الذي تم سنة 2005، بحجة أن الإصلاحات المستقبلية لن تؤثر سلباً على الأشخاص المتقاعدين حالياً.

أما مكتب العلاقات بين الجهات الحكومية فقد ركز على الولايات والمسؤولين المحليين، كان يقوم بالتنسيق الكامل مع المحافظين، ومندوبي المقاطعات، وحكام الولايات، ومسؤولين آخرين في الولايات حول السياسة، واللقاءات الرئاسية في واشنطن. وترتيب الزيارات إلى المناطق المحلية.

كان يرأس كل مكتب من المكاتب الأنفة الذكر طيلة الفترة التي قضاها بوش في منصبه، شخص مشهود له بالبراعة السياسية الهائلة، وسعة الأفق. وكان يعمل لدى كل من هؤلاء طاقم عمل نشيط، وأفراد واعدون ممن يتوقع لهم مستقبل ناجح؛ وهؤلاء كانوا يساعدون في تطوير مختلف الاستراتيجيات والواجبات والمبادرات، والعمل على وضعها موضع التنفيذ. وكان مدير كل مكتب من هذه المكاتب يقدم تقريره إلى روف مباشرة، حيث كان يعمل تحت إمرته، وبموجب توجيهاته.

ساعد وجود هذه المكاتب السياسية الأربعة ذات النفوذ والتأثير القويين داخل البيت الأبيض - أغلب هذه المكاتب كان موجوداً قبل رئاسة بوش - على تدعيم مكانة الحملة الدائمة في الأفق السياسي الوطني. وتعزز مفهوم «السياسة كحرب» عبر المقاربة الحزبية الحادة لفكرتي شن الحملة، والحكم التي مارسها روف وبشر بها.

كان روف يميل باتجاه مقاربة كل شيء بمنظور وجهة النظر السياسية، خصوصاً فيما يتعلق بالدوائر الانتخابية الرئيسة. فقد اكتشف أن الناخبين منقسمون بشكل أكثر حدة بسبب اعتبارات حزبية أكثر من أي وقت مضى في تاريخنا الحديث، وشعر أنه من الضرورة بمكان الإبقاء على قاعدة الحزب المكونة من المحافظين على الصعد الاقتصادية والاجتماعية والسياسة الخارجية في حال من الرضا والدعم الكامل للرئيس. يرى روف أن امتلاك قاعدة دعم صلبة قوامها المحافظون، وعدم تحييد المؤمنين بمبادئ الحزب سوف

يوفران للرئيس فرصة التواصل مع المستقلين، وتغيير آراء الناخبين من الديمقراطيين، وذلك بهدف الإبقاء على أغلبية في البلاد بنسبة 50 بالمائة زائد واحد على الأقل.

تتميز إستراتيجية «الخمسين بالمائة زائداً واحداً» التي تهدف إلى الاهتمام بمصالح العقائين الأيديولوجيين التطهيريين الذين يركزون بشكل مبالغ فيه على قضية واحدة، أو بمصالح دوائر انتخابية ذات مصالح حزبية ضيقة، عن الإستراتيجية السياسية للأغلبية العريضة المتمثلة في ممارسة الحكم بشكل متوازن من الوسط. على سبيل المثال، أرضى بوش المحافظين الاجتماعيين عبر تبنيه بقوة لفقرة من تعديل دستوري يقضي بمنع زواج المثليين الجنسيين في الوقت الذي كنا نتوجه نحو يوم الانتخابات العامة سنة 2004؛ وفي مناسبة أخرى، عاد بوش بطريقة مثيرة إلى واشنطن في منتصف الليل من مزرعته في كروفورد لتوقيع قانون فيدرالي يحيل بموجبه مسألة تقرير مصير تيري شيافو إلى المحاكم الفيدرالية، وهو بذلك قام بتوريط الحكومة الفيدرالية بقضية جدلية تبت فيها الولايات في العادة. وكان قرار بوش سنة 2001 المتمثل في تقليص دور الحكومة الفيدرالية في البحوث التي تتعلق بالخلايا الجذعية الجنينية، وممارسته لحق النقض «الفيتو» فيما بعد للتشريع الذي يهدف إلى التوسع في مثل هذه البحوث، قد هدأ من روع المحافظين الاجتماعيين، تماماً كما فعل دعمه للتشريع الذي يهدف إلى فرض حظر جزئي على حالات الإجهاض.

كانت كل خطوة يخطوها باتجاه اليمين تحظى بتغطية واسعة من وسائل الإعلام، وتساهم في خلق رؤية شعبية حول إدارة بوش. وبغض النظر عن المزايا التي تتمتع بها هذه القضايا، فإن قيام بوش بالتركيز عليها أدى إلى تشكيل صورة عن الرئيس الذي يركز على قضايا جامدة أيديولوجياً خيطة لمصالح جماعات مثل «مناصري الحياة» ذوي النفوذ القوي داخل دوائر انتخابية ينحصر اهتمامها في قضية واحدة فقط، بدلاً من أن يركز على مواجهة أولويات أكثر إلحاحاً تهم الشريحة العريضة في الوسط (الوسط، ويمين الوسط، ويسار الوسط) مثل الاقتصاد، والرعاية الصحية، والطاقة، والبيئة.

كانت لروف اليد الطولى في وضع هذه القضايا في مقدمة أولويات خطط بوش العامة. تلك كانت صرخة من الأيام الغابرة في الماضي البعيد عندما كان بوش حاكماً لولاية

تكسار، وكان حينها يمارس الحكم بشكل متوازن ممسكاً بالعصا من وسطها، ومتجنباً المبالغة في التأكيد على المسائل الخلافية التي تثيرها قضية واحدة بمفردها، أو دوائر انتخابية محافظة اجتماعياً، أو أي من المسائل التي تؤدي إلى انقسامات تدفع الناس إلى مواجهات فيما بينهم.

تتميز واشنطن عن تكساس بأن بيئتها السياسية مختلفة جداً إبان حكم بوش لهذه الأخيرة. فهناك مطالب أكثر يطرحها الأيديولوجيون التطهيريون الذين يمثلون منظمات القواعد الحزبية، والأمر نفسه بالنسبة لقادة الرأي الذين لهم نفوذ قوي في الدوائر الانتخابية نفسها. كان بوش ورووف يعيان هذه الحقيقة جيداً. استطاع بوش أن يمرر بحرية أكبر السياسات الوسطية حول الهجرة والتعليم الحكومي وتغطية نفقات الوصفات الصادرة عن الرعاية الطبية، عبر إرضاء المحافظين الاجتماعيين (بواسطة المبادرات التي تم ذكرها آنفاً)، والموافقة على إجراء تخفيض كبير على نسبة الضرائب (وهو ما أسعد القاعدة الاقتصادية)، واتخاذ موقف متشدد في مقاربته لمسألة الأمن القومي (وهو ما أسعد الصقور).

أدت هذه الإستراتيجية الغاية المرجوة منها في المرحلة الأولى من ولاية بوش، وساعدت في إعادة انتخابه. ولكن العيوب والنقائص بدأت تتكشف مع بداية المرحلة الثانية لحكم بوش، في الوقت الذي بدأت سياسة بوش في العراق تشل إدارته. عندما بدأت الأمور تنهار في العراق، تبين لكل من بوش ورووف أنه من المستحيل سياسياً بالنسبة له الظهور بمظهر المتراجع عن رؤيته بشأن عراق حر وديمقراطي قيد أنملة. كانا يعلمان أنه لو فعل ذلك، فسيظهر أمام قاعدته ضعيفاً، وستبدأ صورته بالتصدع. تحت مظلة إستراتيجية هذه القاعدة، فإن حلاً وسطاً يحظى بدعم قادة الكونغرس من الحزبين الجمهوري والديمقراطي كان بالأساس خارج نطاق التداول، ولم يحظ بأي تفكير جدي. كانت مسألة المبالغة في معاباة المحافظين الاجتماعيين، بالإضافة إلى مشكلات بوش، وضعف تأييد الرأي العام له، عوامل زادت من إحساسهما بالإحباط.

أن يكون لدى بوش مخطط بعيد المدى إستراتيجي وسياسي بارع، ومناور عظيم يمسك بتلابيب مصادر الدعم الشعبي مثل روف يعمل في البيت الأبيض لا يشكل بالضرورة مشكلة

بحد ذاتها. إلا أنه يتحول إلى مشكلة عندما تسيطر الإستراتيجية السياسية على مقدرات الأمور بشكل طاغٍ، ويصبح الحكم مجرد مطية للحملات الانتخابية. وعندما يكون المخطط الاستراتيجي بمثل مهارة وشخصية وقدرات كارل روف، فإن من السهولة بمكان، حصول ذلك. كان يحب أن يكون منخرطاً في كل شيء، إن لم أقل مسيطراً على أي شيء، وعلى كل شيء يمكن أن يؤثر في زيادة معدل التأييد لبوش. كان يعمل أحياناً بهدوء، ومن وراء الستار. كان يقحم نفسه أحياناً في بعض الاجتماعات. بشكل عام، كانت آراؤه حول معظم القرارات السياسية والإستراتيجية خصوصاً أثناء الحملات لتسويق السياسات بين الجماهير تحظى بثقل واحترام كبيرين.

لم يكن روف يدعى إلى اجتماعات مجلس الأمن القومي الحربية بشكل خاص. كان من الواضح أن تواجد شخص مثير للجدل مثل روف في هذه الاجتماعات سيوفر للنقاد مجالاً رحباً للتصيد؛ إلا أن استثناءه من الحضور بدا في حد ذاته وكأنه يثير علامات استفهام بشأن عدم الإحساس بقلق مماثل حول ما إذا كانت السياسة قد أثرت سلباً على اعتبارات صنع السياسة التي كان روف يُنظر لها عبر الدور الذي كان يلعبه.

كانت شخصية روف الطاغية داخل إدارة بوش، وتأثيره الملموس على السياسة، والإستراتيجية، والاتصالات السياسية، والرسالة التي يبغى إيصالها، تتعاظم من دون حسيب أو رقيب خصوصاً بعد أن تركت كارن هيوز، صاحبة الشخصية القوية، وأحد الأعضاء الرئيسيين في ترويكاستشاري بوش منصبها.

كانت كارن تمثل العنصر الثاني من عناصر التأثير الذي نشط في بداية عهد هذه الإدارة. كانت هي الأخرى مساعدة بوش الموثوقة منذ أمد طويل في تكساس. كان بوش يستمع إلى نصائحها وطروحاتها، وكان يأخذ بها عادة. أتذكر حديثاً دار بيننا في الأيام الأولى عندما كنت مسافراً معه من دون كارن. سألتني عن رأيي في العمل معها. قال خلال تلك المحادثة إن «كارن غالباً ما تكون على صواب. ليس دائماً، ولكنها على صواب معظم الوقت». كانت ثقة الرئيس بكارن، وقربها منه، بالإضافة إلى شخصيتها الطيبة (الديناميكية)، وتفكيرها الاستراتيجي اللامح، وقدرتها على استيعاب آراء القاعدة

العريضة من الشعب الأمريكي أسباباً جعلت منها مثل روف. لاعباً أساسياً في كل مظاهر الحياة في البيت الأبيض، بما في ذلك توجيه سياسته. وبالطبع، كان دورها المتمثل في الإشراف على جهاز الاتصالات الضخم في البيت الأبيض، والذي يلعب في سياسة هذه الأيام دوراً أكثر أهمية في مجال الحملة الدائمة، مهماً جداً في حد ذاته.

تعود تجربتي الأولى مع كارن إلى بداية عقد التسعينات عندما كانت تشغل منصب المدير التنفيذي للحزب الجمهوري في ولاية تكساس. كانت تبحث عن شخص لشغل منصب المدير المالي للإشراف على جمع التبرعات لصالح المنظمة. وبالرغم من أنني لم أكن مهتماً للعمل في حزب الولاية، كما أن خبرتي لم تكن في مجال جمع التبرعات، فقد تشجعت على اقتحام هذا المجال، فتم اقتراح اسمي لها كناشط سياسي واعد. بالنسبة لشاب في الثالثة والعشرين من عمره، كان هذا العرض يمثل فرصة للتأسيس لطريقي المهني.

لم تعرض عليّ تلك الوظيفة، ولم يكن هذا ليحزنني لأن العمل لصالح حزب الولاية أو أي منظمة حزبية معروفة لم يكن يشكل هدفاً بحد ذاته بالنسبة لي. بعد ذلك بمدة وجيزة، انطلقت صوب شلالات ويشيتا في تكساس لإدارة حملتي الخاصة - السباق إلى مجلس شيوخ ولاية تكساس لصالح رجل سوف يصبح فيما بعد صديقاً لي هو توم هيوود.

لم أتعرف بكارن حقيقة إلا عندما التقيت بها سنة 1998 من أجل الوظيفة الشاغرة التي كانت تبحث عن من يشغلها في مكتب اتصالات الحاكم بوش. أعجبتني جداً قدراتها العالية كخبيرة اتصالات، كما أحببت فيها النفس القيادي وشخصيتها الممتلئة بالحيوية.

أشرفت كارن على تدريبي في مجال الاتصالات. وقد كنت أمتلك أرضية صلبة من الخبرة في هذا المجال كبداية، كوني نشأت في كنف والدة احتلت دائرة الضوء السياسية المحلية، وكوني أصبحت فيما بعد مديراً لإحدى الحملات وناطقاً باسم حملاتها الناجحة على مستوى الولاية. الدور الأخير الذي قمت به لفت انتباه كارن. فبعد أن استلمت عملي، لاحظت أنها تتابع عن كثب ما كان الناطقون باسم بوش يقولونه. وعندما كانت تشعر أن ما صرح به هؤلاء الناطقون كان يمكن أن يطرح بشكل أقوى، وأكثر حذراً، وأفضل تعبيراً عما يعكس طريقة بوش وأسلوبه، كانت تلفت نظر الناطقين باسم بوش إلى ذلك.

كانت ترى أن وظيفتها تكمن في التأكد من أن الناطقين باسم بوش يلتزمون بأسلوبها وأسلوب بوش في مجال الاتصالات. لقد كانا يمثلان نمطاً واحداً. شحذت مهاراتي في مجال الاتصالات تحت إشرافها.

لكن قوة كارن في مجال الاتصالات كانت بطريقة أو بأخرى مصدر ضعف لها. فبالرغم من أنها كانت محبوبة على نطاق واسع، كان العديد من العاملين في مجال الإعلام يرون أنها متحمسة أحياناً أكثر مما يجب في ولائها لبوش. كانت أحياناً تبالغ في إظهار انضباطها كموظفة اتصالات تعمل لديه - فهي جاهزة دائماً لتلقي الرسائل أو إرسالها، وتؤكد دائماً على الإيجابيات، وتقلل من أهمية السلبيات، وتظهر بمظهر الحامي لبوش، ومن النادر أن تتراجع قيد أنملة، هذا إن تراجعت. لكن هذه الطريقة هي بالضبط ما أراده كل من بوش وكارن. ونظراً لأن كارن أتت من الوسط الإعلامي، فقد كانت تعرف أن وسائل الإعلام تميل دائماً باتجاه البحث عن الأضواء، واللفظ، وخصوصاً في تلك البيئة الوطنية المملوءة بروح المنافسة والجوائز القيمة. لم تكن راغبة في إعطائهم أي شيء يمكن أن يفيدوا منه. فمراقبة بث الرسائل كانت تتطلب انضباطاً شديداً من وجهة نظر كل من بوش وكارن. وكان الناطقون الرسميون الذين يصعب سحب المعلومات منهم مثل كارن، يحظون بتقدير عالٍ.

كانت كارن بحكم عملها كمستشارة للرئيس مسؤولة مبدئياً عن أربعة مكاتب، أضيف إليها لاحقاً مكتب خامس (مكتب الاتصالات العالمية). كان مكتب الاتصالات مسؤولاً عن التخطيط الاستراتيجي للاتصالات، وكان يضع في حسابه التخطيط لأسبوع أو اثنين إلى الأمام، وكان مسؤولاً أيضاً عن الإستراتيجية الإجمالية. كان المكتب المركزي الذي يقوم بتنسيق رسالة بوش التي تغطي البيت الأبيض والإدارة بمجملها. وكان أيضاً المكتب المسؤول عن التحقق من أن صورة اليوم تعزز الرسالة، كما صورة بوش التي أردنا أن نرسمها. أشير هنا إلى الصورة الفعلية الفوتوغرافية التي خططنا بعناية كي ينتهي بها المطاف إلى تصدر الصحف اليوم الثاني، أو العرض في نشرات الأخبار المسائية - وتتفاوت بين صورة يصافح فيها بوش الجنود إذا كان الموضوع يتناول استعدادات عسكرية وبين

صورة للمشهد الاحتفالي المرتب بعناية والذي يظهر بوش متحدثاً أمام تمثال الحرية في ذكرى الحادي عشر من أيلول، سبتمبر. كان فريق ريفان يتقن فن هذه الصنعة المسرحية بشكل كامل، أما الشخص الموكل بهذه المهمة في فريق بوش، وهو سكوت سفورزا، الذي كان يشغل منصب نائب مدير الاتصالات، فقد ذهب بهذا الفن إلى آفاق أعلى.

كان مكتب السكرتير الصحفي يعمل على مدار الساعة مركزاً بشكل أساسي على السلك الصحفي في البيت الأبيض، وفي البلاد كلها؛ وكان يعالج العلاقات الإعلامية اليومية مع أعضاء ذلك السلك، ويدلي بتصريحات يومية كونه الناطق الرئيس باسم البيت الأبيض. وكان هناك تنسيق كامل مع عاملين آخرين في مجال الاتصالات، لكن السكرتير الصحفي كان لديه كم كبير من الاستقلال الذاتي مكنه من إدارة المكتب بالطريقة التي رآها مناسبة. عندما استلمت منصب السكرتير الصحفي، كان دوري يتمثل في أن أقدم آراء الرئيس وقراراته وسياساته بأمانة، وأن أتبناها علناً، وأدافع عنها أمام وسائل الإعلام الوطنية.

أما مكتب الشؤون الإعلامية فقد ركز على وسائل الإعلام المحلية على امتداد الولايات المتحدة، وعلى العلاقات مع وسائل الإعلام اليومية. كان فريق الشؤون الإعلامية يجيب على تساؤلات من منافذ وسائل الإعلام المحلية، ويساعد في تنسيق هذه المنافذ عندما كان الرئيس يسافر إلى مناطقها المعنية، كما كان مسؤولاً عن تنسيق المقابلات الإعلامية للرئيس مع الصحفيين المحليين.

كان مكتب خطابات الرئيس مسؤولاً عن تحضير عدد لا يحصى من خطابات الرئيس وملاحظاته. ولعبت عملية كتابة الخطابات دوراً حاسماً في توجيه العملية السياسية. كانت المسودات الأولى لهذه الخطابات توزع إلى كل المكاتب ذات الصلة في البيت الأبيض، بما في ذلك مكتب كبار مستشاري الرئيس، وعدد محدد من مستشاري الرئيس للشؤون السياسية. كانت للرئيس الكلمة الفصل، ولكن لو أراد أحد المستشارين التأثير في العملية السياسية، فإن عملية كتابة الخطابات كانت ستكون واحدة من الوسائل للقيام بذلك.

بالإضافة إلى قدراتها الكبيرة في مجال الاتصالات، كانت كارن تتمتع بشخصية قوية، واستيعاب حماسي للآراء السياسية التقليدية السائدة عند القاعدة العريضة في أمريكا، بالإضافة إلى تفهمها للمنحى الذي تأخذه الغالبية العريضة في مركز الوسط حول أي قضية. هاتان السمتان أفاد منهما بوش بشكل كبير. فقد كان لكارن حضوراً قوياً فرض نفسه داخل البيت الأبيض، لم تتهيب يوماً طرح أفكارها بمنتهى القوة في الاجتماعات، أو الذهاب مباشرة إلى الرئيس والالتقاء به على انفراد. كانت تعرف جيداً كيف تتواصل مع الأمريكيين العاديين، بحيث إنها ساعدت الرئيس في أن يقوم بشرح سياساته وقراراته، والتأسيس لتناغم صحيح معهم.

قامت كارن بدور لا يقل أهمية عما سبق ذكره: فقد شكلت ثقلًا موازياً لا يستهان به لكارل روف. كانت له مواقف متشددة حول ما يجب القيام به. والأمر كان كذلك بالنسبة لكارن. وبينما كانت أفكار كارل تتركز بشكل رئيس حول القاعدة المحافظة، كان تركيز كارن ينصب على الأمريكيين العاديين الذين يتجهون نحو طيف الوسط السياسي. كانت خلافاتهما حول السياسة أقل مما كانت عليه حول الأسلوب، والرسالة، وصياغة السياسة، والتأكيد على البعد الشعبي. عمل الاثنان معاً بشكل جيد، إلا أنهما لم يترددا في إظهار خلافاتهما حتى أمام الرئيس نفسه. وهذا ما كان متوقعاً من شخصين قويي الإرادة، ومعتدين أيما اعتداد بنفسيهما، ويملكان قدراً لا يستهان به من المعرفة، ويتمتعان الدرجة بنفسها من الثقة التي منحها الرئيس لكليهما.

العضو الثالث في ترويكا البيت الأبيض كان أندي كارد، الموظف الحكومي الذي لا يكل ولا يمل، والذي أحضر معه سنوات من الخبرة إلى موقعه لرئيساً لأركان البيت الأبيض. بُني مجال نفوذه على أساسين متينين: مركزه، وقربه من الرئيس، بالرغم من أنه كان يمهد الطريق للرئيس. كان أقل حياءً للسيطرة، وعباراته أكثر لطفاً من كل من كارن وكارل. كان دوره يتركز على القيام بدور الوسيط، النزيه بين أركان موظفي البيت الأبيض، والتأكد من أن كل الآراء كانت تحظى بما تستحقه من الإصغاء والانتباه، في الوقت الذي كان يطرح آراءه بشكل خاص على الرئيس عندما كانت هناك حاجة لذلك،

أو عندما كان يرى ذلك مناسباً، وهذا يحدث عادة عندما تستغرق العملية السياسية الوقت الكافي كي تأخذ مداها.

استوعب أندي الكيفية التي يعمل بها كل من البيت الأبيض وواشنطن وذلك لأنه سبق له أن عمل في خدمة ريفسان ووالد الرئيس الحالي. أدرك أيضاً الثقة غير محدودة التي وضعها بوش في كل من كارل وكارن، ومدى التقدير الذي يكنه لآرائهما. عمل أندي على أن تأخذ العملية السياسية مجراها، وأن يشعر موظفو البيت الأبيض بأنهم ضمن هذه العملية. أدار باقتدار أهم سلعة بالنسبة للرئيس من حيث قيمتها - وقته - وذلك بالتأكد من أن الناس قابلوا الرئيس فقط عندما شعروا أنهم بحاجة لذلك. وأكثر ما كان لافتاً للنظر أن أندي أدار وأشرف على البيت الأبيض تماماً كما كان بوش يفضل - أي بحزم، وانضباط، وتركيز، وتخطيط مبني على التفكير والتركيز. أبقى أندي الإدارة مغلقة على نفسها متى أراد له بوش أن يقوم بذلك بطريقة جعلت المعلومات ترشح لقلة قليلة ومختارة من المسؤولين.

التقيت بأندي في قافلة الحملة سنة 2000. وكان هذا اللقاء إذا لم تخني الذاكرة قبل مؤتمر الحزب الجمهوري الذي طلب إليه الإشراف عليه. بدا شخصاً ودوداً جداً، ولطيفاً، وفي ملامحه مسحة من كبرياء، لكنني في واقع الأمر لم أتعرف عليه كما يجب، إلا عندما بدأنا العمل معاً في البيت الأبيض.

مع اقتراب نهاية المرحلة الانتقالية، وقبل حفل التنصيب بوقت قليل، جمع أندي كل الموظفين الذين سيعملون في الجناح الغربي من البيت الأبيض. لم يسبق للعديد منهم، مثلي أنا، أن عملوا في البيت الأبيض قبلاً. أصغينا بانتباه بينما كان يتحدث عما يمكن أن نتوقعه وما يتوقعه هو منا. تحدث عن العمل بشرف في ذلك المكان. كما أكد على أهمية العمل معاً بروح الفريق. نحن هنا جميعاً كي نقوم على خدمة الرئيس. تحدث عن أهمية فضيلة التواصل، وعن أهمية أن لا نسمح لوظيفة هنا هذه أن تتسلل إلى داخل رؤوسنا، وتدع الغرور يملكنا. تحدث أيضاً عن كثافة حجم العمل هناك. وأعلمنا أن مدة العمل في الجناح الغربي لا تتجاوز في العادة مدة سنتين. طلب إلينا «أن نتذكر متى يجب علينا

أن نترك العمل». ذكر لنا مثلاً لذلك: جون سنونو رئيس أركان البيت الأبيض في عهد الرئيس بوش الأب، والذي أخفق في تذكر موعد تركه للعمل مما اضطر رئيسه إلى أن يفرض عليه ذلك.

لم يكن من السهل تقدير ما كان يقوله آنذاك، ولكن بعد أن بدأت العمل في البيت الأبيض، استطعت استيعاب تنبيهاته بشكل أفضل بكثير. يمكن للمرء أن يكون مرتاحاً جداً داخل الفقاعة. وعندما يحصل ذلك، يصبح منظور المرء عقيماً، وتستنزف طاقاته. يمكن أن يستهلك المرء ذاته. يحتاج الرئيس إلى التغيير، وإلى منظورات، ورؤى، وطاقات جديدة في طاقم عمله. ولهذا فإن الاستدارة إلى الخلف تصبح مهمة؛ وإذا كان توقيتها صحيحاً، تصبح عملية مفيدة جداً.

بالطبع، لم يكن روف وهيز وكارد الأشخاص الوحيدين من ذوي النفوذ في البيت الأبيض في عهد بوش. فقد كان هناك اثنان من المستشارين المشهورين منذ البداية، وهما مستشارة الأمن القومي كونداليزا رايس، ونائب الرئيس ديك تشيني.

رايس التي أشرفت على بوش في قضايا السياسة الخارجية كانت الشخص الذي اعتمد عليه بوش عندما كان الأمر يتعلق بقضايا الأمن القومي التي بدأت أثناء الحملة الرئاسية. ولما كان بوش غير ملم كثيراً بالشؤون الخارجية، فقد اعتمد على فريق من العيار الثقيل ممن لهم باع طويل في مجال السياسة الخارجية لمساعدته في صياغة سياسة تعتمد في توجهها على مبادئه كالحرية والقوة العسكرية الضاربة وحرية التجارة. ترأست رايس ذلك الفريق الذي سمي آنذاك بفريق الفلكانيين؛ وضم هذا الفريق ريتشارد آرميتاج (الصديق المقرب من كولن باول)، وبول وولفويتز، وستيف هادلي (وهما من أتباع ديك تشيني)، وريتشارد بيرل، وبوب بلاكويل، وبوب زوليك (أحد أتباع جيمس بيكر)، ودوف زاكيم. كان جورج شولتز غالباً ما يدعى للاستماع إلى نصائحه، وعندما أصبح تشيني هو المرشح لمنصب نائب الرئيس، انضم بدوره إلى ذلك الفريق. نسب اسم هذا الفريق إلى تمثال فلكان المهيّب، وهو إله النار والآلات المعدنية عند الرومان، وهو من العلامات المميزة لموطن رايس في مدينة برمنغهام في ولاية ألاباما. طوّز بوش علاقة قوية مع رايس، وكان يثق بأحكامها، وسرعة بديتها ورؤاها. ومثلما كانت نظرة بوش متطابقة تماماً مع

أسلوب هيوز في أدائها في مجال الاتصالات، كذلك كان الأمر بين بوش ورايس في مجال الشؤون الخارجية.

أراد الرئيس منذ البداية انضمام نائب الرئيس وفريقه إلى عمليات البيت الأبيض. كان تشيني وكبار مستشاريه يشكلون جزءاً لا يتجزأ من فريق العمل. كان بوش يقدر عالياً خبرة تشيني ومعرفته، خصوصاً في مجال الأمن القومي وكان دائماً يطلب مشورته. في الوقت نفسه، كانت لتشيني ومستشاريه بالأساس، عملياتهم الخاصة بهم، كما سألين فيما بعد في هذا الكتاب.

كانت تربط بوش بتشيني علاقة وثيقة - وبالأساس، خاصة. كان تشيني يفضل تقديم مشورته للرئيس في جلسات مغلقة. كان يدعى مع كبار مستشاريه للمشاركة في جميع الاجتماعات الرئاسية التي يتم فيها عرض للسياسة الخارجية، واجتماعات الرئيس مع قادة الدول، واجتماعات الكونغرس، وما إلى ذلك. بطبيعة الحال، كان لتشيني تأثير كبير في مجال السياسة الخارجية، وكان يبدي اهتماماً خاصاً بمسائل تتعلق بالسياسة الاقتصادية، على الأخص، بمسألتي الضرائب والطاقة. أبدى بوش لتشيني احتراماً كبيراً عندما كلفه القيام بمهمة محددة وهي ترؤس لجنة الطاقة في المرحلة الأولى من حكم هذه الإدارة، كما كلفه بترؤس ما أطلق عليها عملية الكلاب المدربة على صيد الطيور مهمتها إقناع قادة الكونغرس ببرنامج التنصت على المكالمات الهاتفية الذي طُرح بعد أحداث الحادي عشر من أيلول. كما اعتمد بوش على مقدرة تشيني في صياغة ما كان بوش يعتبرها سياسات ضرورية لها علاقة بالأمن القومي حول مسائل مثل المحتجزين من مقاتلي القاعدة.

لكن الترويك المكونة من روف، وهيوز، وكارد - وعلى الأخص، روف - هي التي قادت الحملة الدائمة داخل البيت الأبيض متماهية في ذلك مع عقلية المناورة المبنية على الخطط السياسية والاتصالات التي استخدمها سلف بوش، والتي تسببت في نفور الكثير من الأمريكيين. كان ذلك يتم عبر الإعداد لحملات في غاية التنظيم بغية تشكيل مصادر للدعم الشعبي الذي يراد له أن يصب في مصلحة بوش، مثل الدفع باتجاه خفض الضرائب، وإصلاح التعليم، وتسويق الحرب على العراق.

كانت الترويكا وتركيبه البيت الأبيض مطية جيدة لبوش، أقله في بداية رئاسته. واذ أعلن تشيني في بداية سنة 2001 أن «أيام غرف الحرب والحملة الدائمة قد ولت إلى غير رجعة»، فإن الحقيقة كانت في مكان آخر. فقد تمت إعادة هيكلة الحملة الدائمة، كما تم وضع تعريف جديد لها، وتوسعت بحيث إنها أصبحت ملائمة للبيت الأبيض في عهد بوش. ثبت أن طرائق وأساليب الحملة الدائمة ناجحة جداً عندما استطاع البيت الأبيض في بداية عهد بوش تسويق اثنين من الموضوعات التي تشكل أولوية قصوى للشعب الأمريكي، وتمريضهما عبر الكونغرس. أسهمت النجاحات الأولى التي تحققت في بداية عهد بوش إلى خلق جو من الإحساس بأنها إدارة لا تقهر، وهي بذلك جعلت هذه الإدارة في موقف ضعيف أمام الأخطاء التي ارتكبت، والتي أدت إلى إلحاق أذى كبير برئاسة بوش.

6

الأيام الأولى

الأشهر الستة الأولى التي تلت استلام بوش لمقاليد الحكم في العشرين من كانون الثاني، يناير سنة 2001 كانت حاسمة في التعريف ببوش وإدارته. تبين لبوش وكبار مستشاريه أهمية تحقيق بعض الانتصارات عبر التوقيع على بعض قرارات تتعلق بسياسة الإدارة مثل خفض الضرائب وإصلاح التعليم. كما أراد أركان حكمه تصويره على أنه القائد القوي القادر على توحيد الشعب الأمريكي، وأنه يملك الثقل الضروري في مجال السياسة الخارجية (وهذه الأخيرة كانت مصدر قلق حول قدرة قيادة بوش).

في الوقت نفسه، كانت نغمة الأداء التي أطلقتها هذه الإدارة ذات أهمية قصوى. كانت الأغلبية الساحقة من الأمريكيين تتوق إلى أن يستعيد الخطاب السياسي الوطني حضارته. فقد أرهقها الإفراط في النزوع إلى الحروب الحزبية التي سادت عقد التسعينات، وكانت مستعدة للانتقال إلى مرحلة ما بعد فضائح كلينتون الشخصية، وأنهكها تمديد مدة الانتخابات سنة 2000. ولكن لم يكن مؤكداً أن واشنطن كانت مستعدة للاستجابة إلى الدعوة للعمل بشكل جماعي في جو يسوده التعاون الحزبي.

اكتشف بوش أثناء الحملة المزاج العام لغالبية الأمريكيين الذين كانوا في موقع الوسط السياسي، أو يميلون باتجاهه. حث الأمريكيين على وضع حد «السياسة الغضب»، والبدء في «انطلاقة جديدة بعد عصر من التهكم». قال بوش إنه ليس على واشنطن أن تكون «منطقة سياسة الصفر، أي سياسة الغالب والمغلوب».

الآن، وفي مستهل رئاسته، بدا لي أن بوش ملتزم بتطبيق هذه التوجهات. ففي الخطاب الذي ألقاه في حفل تنصيبه، عاد بوش إلى موضوع الحملات:

أمريكة في أفضل أحوالها، هي أهل للوفاء بالتزاماتها بالمبادئ وتضع نصب عينيها القيم المدنية. يتطلب المجتمع المدني من كل فرد من بيننا الإرادة الطيبة، والاحترام،

والتعامل العادل فيما بيننا، والتسامح. يبدو أن بعضهم من بيننا مؤمن بأن سياستنا يمكن أن تكون ضيقة الأفق، لأن مردود مداولتنا في زمن السلم يبدو غير ذي شأن. لكن المردود بالنسبة لأمريكة ليس قليل القيمة أبداً... يجب أن نكون على مستوى ما نشترك جميعاً فيه. المدنية ليست تكتيكاً، ولا عاطفة. إنها الخيار الحر لروح الثقة مقابل روح التهكم، وروح الجماعة مقابل الفوضى. إن هذا الالتزام، إذا ما حافظنا عليه، سيكون الطريق إلى الإنجاز الذي نحققه جميعاً.

لا أحد في البيت الأبيض، بمن فيهم أنا، كان ساذجاً لدرجة أنه لم يكن يعي صعوبة وضع حد للحروب الحزبية العميقة الجذور في واشنطن في الأيام الأولى تلك، لكنني كنت أؤمن بأن بوش كانت لديه الإرادة كي يقوم ببذل جهد جماعي ومنظم للارتقاء فوق المناوشات الحزبية المدمرة والانحرافات التي تتسبب فيها آلة الضجيج في واشنطن. لسوء الحظ، جرت الأمور عكس المبتغى. وعندما أنظر ورائي وأتذكر ما كان يجري في الغرف المغلقة خلف الأداء العلني للبيت الأبيض خلال تلك الأشهر الأولى من عمر الإدارة، فإني أتوصل إلى فهم أفضل لبعض العوامل التي أسهمت فيما بعد في انحراف رئاسة بوش عن خطها المرسوم.

كانت الأسابيع القليلة الأولى تعج بالنشاط الفوضوي. كان كل شيء يتم دفعة واحدة. انتقلت إلى شقتي الصغيرة في مركز المدينة في منتصف الطريق بين مبنى الكابيتول والبيت الأبيض بعد حفل التنصيب في نهاية الأسبوع. كانت متطلبات الانتقال إلى البيت الأبيض كنائب للسكرتير الصحفي من الكثافة بحيث إنها لم تترك لي سوى قليل من الوقت للاستمتاع بالاحتفالات التي كانت تجري. كنت كما الكثيرون غيري، قد أنهيت للتو حزم أمتعتي من المكتب الانتقالي في اليوم السابق. اقترح علينا جوهاغن، نائب رئيس أركان البيت الأبيض الجديد لشؤون العمليات الانتظار حتى مساء يوم الأحد قبل الدخول إلى مكاتبنا الجديدة في الجناح الغربي وذلك كي نفسح المجال لإكمال أعمال التنظيف والترتيب. عندما وطئت قدمي عتبة المبنى وأنا أحمل لوازمي الشخصية التي كنت قد وضعتها في علبة، شعرت بأن تلك اللحظة ستفتح أمامي بالتأكيد باب النجاح. سوف تكون

هناك العديد من اللحظات المشابهة خلال الأسابيع الأولى من ولاية بوش، بما في ذلك اللحظة التي قفلت فيها عائداً بسيارتي إلى المنزل بعد يوم عمل طويل في الجناح الغربي، أخذاً الطريق الشرقي باتجاه الجانب العشبي الجنوبي من البيت الأبيض. نظرت إلى يساري، وهناك كان البيت الأبيض - قصر الشعب - يلمع تحت الأشعة الصفراء الناعمة المنبثقة من طوفان من الإضاءة التي تشق عتمة ليل واشنطن. لا يمكن لهذا المنظر أن يشيخ أبداً.

أسرعنا نحت الخطى يوم الاثنين، وهو أول يوم عمل كامل لنا. استيقظت في الخامسة صباحاً، وشرعت في قراءة صحيفتي النيويورك تايمز والواشنطن بوست وهما أكثر صحيفتين تمليان توجه وسائل الإعلام الوطنية، وتصيفان عناوين الأخبار. انطلقت بعدها باتجاه البيت الأبيض حيث وصلت قبل الساعة صباحاً. عقدت عدة اجتماعات مبكرة من أجل مناقشة القضايا الصحفية المطروحة في ذلك اليوم بالإضافة إلى إستراتيجية الرسالة، وأعقب ذلك اجتماع السكرتير الصحفي الصباحي مع جمهرة من الصحفيين. تلا ذلك العرض الصحفي لفترة ما بعد الظهر، وهما الجلستان العلنيتان اللتان ستصبحان محور نشاطي اليومي في الدور الجديد الذي أقوم به. تحولت دورة العمل بسرعة إلى ما يشبه الروتين، إلا أنها لم تكن يوماً أقل تطلباً - أو مثيرة للملل أبداً.

منذ البداية، كان موضوع العراق يلوح في خلفية المشهد. في يوم الاثنين ذاك، ذكرت النيويورك تايمز نقلاً عن تقرير استخباراتي محلي جديد وذلك على صدر صفحتها الأولى أن العراق يعيد بناء المصانع «التي كانت الولايات المتحدة تشكك دائماً أنها تنتج أسلحة كيميائية وبيولوجية، استناداً إلى ما ذكره مسؤولون كبار في الحكومة». وأطلقت التايمز على ذلك التقرير امتحاناً أولياً لتعهد بوش «بأنه سيتخذ موقفاً أكثر تشدداً» من صدام حسين مما قام به سلفه المباشر.

بقي العراق على رأس القضايا التي ركزت عليها كل من الإدارة ووسائل الإعلام في الأشهر التي تلت استلام بوش للرئاسة. وضع مجلس الأمن القومي العراقي على رأس أولوياته في عملية صياغة سياسته. أما بشأن اليوم الأول، ونظراً إلى أنه لم يكن قد تم حتى ذلك الحين وضع سياسة محددة وصارمة حول هذا الموضوع، فقد أبلغنا الصحافة

أن الرئيس يتوقع من صدام حسين أن يلتزم باتفاقه مع الأمم المتحدة القاضي بعدم قيام نظامه بإنتاج أسلحة دمار شامل.

أصدر الرئيس بوش في اليوم نفسه مذكرة وجهها إلى مدير وكالة التنمية الدولية الأمريكية طالباً منه إعادة تفعيل ما يسمى سياسة مكسيكو- سيتي. هذه السياسة التي أقرها في البداية رونالد ريغان تقول إن أي منظمة غير حكومية تتلقى الدعم المالي من وكالة التنمية الدولية الأمريكية لا يمكن أن تمول أو تسوق لعمليات الإجهاض كطريقة من طرائق التخطيط العائلي، باستثناء حالات الاغتصاب، وسفاح القربى، وما يمكن أن يعرض حياة الأم إلى الخطر. كانت تلك إشارة مبكرة إلى قاعدة بوش الاجتماعية المحافظة توحى بأن إدارته ملتزمة بقوة بالقضايا التي تهم هذه القاعدة المحافظة.

وكما كان مخططاً، فقد ركز بوش علناً على إصلاح التعليم منذ الأسبوع الأول. بدأنا عملية الإطلاق يوم الثلاثاء مركزين على العناصر الرئيسة للمبادرة بما في ذلك ما يتوجب على الولايات فعله لتطوير أنظمة امتحاناتها السنوية لقياس مدى التقدم الذي أحرزه الطلبة، وكذلك مدى المرونة المتزايدة التي وفرتها عملية إنفاق الأموال الاتحادية، وشروط تقديم المساعدات الإضافية للمدارس ذات الدخل المتدني، ومبدأ تقديم خيار الدراسة للطلبة الذين يعتبرون بحكم الاسبين.

تم التركيز بشكل كبير على إظهار أن الرئيس يمد يده إلى أعضاء الكونغرس الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء. كان الكونغرس منقسماً بشكل حاد، لكن مجلس الكونغرس كان يسيطر عليهما الجمهوريون، وكان مجلس الشيوخ منقسماً بنسبة خمسين مقابل خمسين، ولكن نائب الرئيس تشيني كان يملك الصوت المرجح، مما منح الجمهوريين السيطرة على المجلس بالرغم من اتفاقهم مع الديمقراطيين على تقاسم السلطة. أما في مجلس النواب، فإن الانقسام كان على الشكل الآتي: 221 نائباً جمهورياً مقابل 211 نائباً ديمقراطياً، إضافة إلى اثنين من المستقلين. (نظراً إلى وفاة عدد لا يستهان به من النواب واستقالة آخرين، فقد كانت الأعداد تتفاوت قليلاً في الأشهر اللاحقة).

في الأسابيع الأولى من ولايته، عقد بوش سلسلة من الاجتماعات مع قادة الحزبين لمناقشة أهم الأولويات المتعلقة بالسياسة الداخلية بما في ذلك التعليم، وإلغاء الضرائب، ومبادرته التي تستند إلى الإيمان، وقانون حقوق المرضى - وهي أولويات أطلق عليها بوش وصف «القضايا الساخنة جداً على رأس القائمة». قمنا بتسجيل نقطة لصالحنا تتمثل في جذب الانتباه إلى حقيقة أننا مددنا يد التعاون إلى كلا الحزبين.

أول رحلة لي مع الرئيس بوش بعد انضمامي إلى أركان البيت الأبيض كانت إلى خلوة لأعضاء مجلس النواب من الحزب الديمقراطي، عقدت في منتجع يقع خارج مدينة بيتسبيرغ مباشرة في أول عطلة نهاية أسبوع من شهر شباط، فبراير. وقد سبق لبوش حضور خلوة أعضاء مجلس الشيوخ من الديمقراطيين. لم يحضر كلينتون أبداً خلوات الجمهوريين، ومن ثم فإن خطوة بوش حظيت باهتمام وسائل الإعلام، واستحققت الثناء من القادة الديمقراطيين وذلك لتخطيها الحواجز الحزبية. ولم تكن تلك الخلوة مفتوحة أمام الصحافة.

بدأ الرئيس إبداء ملحوظاته في تلك الخلوة بالقول: «سوف أبذل كل ما بوسعي من أجل تغيير نفمة الحوار في واشنطن. أمل أن يختلف الناس بطريقة مقبولة. أحد الأشياء التي صممت على تحقيقها هي القول: هذا هو موقعي، وأود أن أسمع رأيكم أيضاً. سوف يتطلب التعاون بين الحزبين أكثر من مجرد كلمات نلقيها من أجل التسويق لسياسة علاقات عامة جيدة - وأنا واثق من أننا هنا جميعاً من أجل القيام بذلك».

ثم أضاف قائلاً: «خضت انتخابات الرئاسة بناء على خطة عمل (أجندة). أنا هنا اليوم لأن هذا ما أريد أن أتحدث معكم بشأنه. أؤمن بأن فعل الشيء الصحيح يتمثل في القيام بفعل ما قلت إنك سوف تفعله» أثناء الحملة الانتخابية. أردف موضحاً أنه مصمم أن يثبت أن هذا التوقع في غير محله بالقول: «إن ما يتوقعه بعضهم هو أن شيئاً لن يحدث بسبب قرب موعد الانتخابات». وتابع: «أحد أسباب قدومي إليكم في هذا المكان هو لأقول لكم من أنا، وما هي أجندتي، ولأستمع إلى ما ترغبون في قوله».

تلقى بعد ذلك عدداً من الأسئلة. قال له عضو مجلس النواب العجوز تشارلي رانغل عن مدينة نيويورك، والذي يتمتع بقدر واسع من الاحترام بصوت أجش لكنه أسر: «أيها السيد الرئيس، أنت شخص جيد!» أقر بعدها أن بوش «أظهر الكثير من الشجاعة» بزيارته إلى تلك الخلوة لم يد التعاون إلى الديمقراطيين، وتساءل فيما إذا كان بوش سوف يحث قادة حزبه أيضاً على العمل معاً عبر جانبي المجلس. أجاب بوش أنه «ملتزم بحمل هذه الرسالة الحضارية نفسها إلى قيادة الحزب الجمهوري».

بعد عدة سنين، كنت أسمع رانغل عضو الأقلية في لجنة الطرق والوسائل، القوية النفوذ يعبر أكثر من مرة عن تقديره للرئيس بسبب دعوته قادة الحزبين إلى البيت الأبيض - وكانت تعقب ذلك شكاوى تفيد بأن بيل توماس، رئيس اللجنة من الحزب الجمهوري، لا يفعل الشيء نفسه، وذلك بعدم إفساحه المجال بما يكفي لأعضاء اللجنة من الحزب الديمقراطي للاشتراك في المداولات داخل اللجنة.

أما الخلوة، فقد كانت اجتماعاً ودياً. ولكن كان من الصعوبة بمكان القول فيما إذا كان الديمقراطيون منفتحين حقيقةً على الجهود المبذولة من أجل التعاون الحزبي، أو أنهم كانوا مقتنعين بصدق توجه بوش. بعضهم كان ما يزال منزعجاً من قضية إعادة فرز الأصوات في ولاية فلوريدا، بما في ذلك التحدث إلى المؤتمرات الحزبية للأمريكيين السود. قاموا بممارسة الضغط على بوش من أجل إجراء إصلاحات انتخابية مستخدمين نبرة تنم عن توتر واضح. ولكن رغبة يشوبها الشك برزت من بين صفوف قادة الحزب الديمقراطي، وغالبية المجتمعين، للتأكد من أن الرئيس سوف يحكم انطلاقاً من مصالح القاعدة العريضة، أي من الوسط، ويأخذ بعين الاعتبار مخاوف الديمقراطيين. كان التخطيط لأغلب الأشهر الستة الأولى قد تم مسبقاً من قبل كبار مستشاري الرئيس، وتم ذلك بطريقة المدرب البارع الذي يخطط (لذينة) من مباريات كرة القدم مسبقاً. وتعد السيطرة على مقادير (الأجندة) في واشنطن وسيلة للتركيز على الصورة الرئيسة، حتى عندما يكون المرء يرد على الأخبار اليومية، ويجب على ما هو غير متوقع. فهم روف هذه المعادلة جيداً، وعليه، فقد استطاع قيادة جهود التخطيط الاستراتيجي مستنداً إلى ما

كان قد زوده به عدد من كبار المساعدين في البيت الأبيض، خصوصاً كارن هيوز، وأندي كارد، وكوندوليزا رايس.

إحدى الطرق التي حاولنا فيها إطلاق هذه (الأجندة) كانت عبر الحصول على «موضوع الأسبوع»، الذي تتركز حوله أغلب عناصر النشاطات العامة التي يتضمنها جدول أعمال الرئيس. فكان يكرس أسبوعاً من أجل موضوع التعليم، يزور خلاله المدارس، ويتحدث إلى مجموعات من الآباء والمدرسين. كان يمضي أسبوعاً آخر يركز فيه على موضوع خفض الضرائب، ويجتمع مع «عائلات الضرائب» وصغار رجال الأعمال متحدثاً إليهم باستفاضة عن الفوائد التي سيجنونها بموجب خطته لتخفيض الضرائب، تماماً كما كان يفعل أثناء حملته الانتخابية. وكان يركز في أسبوع آخر على قضايا الدفاع، ويقوم بزيارته الأولى إلى إحدى القواعد العسكرية، وهي قاعدة فورث ستيوارت في ولاية جورجيا للتحديث عن مبادرته من أجل مشروع إسكان أفضل لأفراد القوات المسلحة، وكان يتبع ذلك باختلاق مناسبة لتسويق فكرة تطوير القدرات العسكرية من أجل مواجهة التهديدات الجديدة في عصر ما بعد الحرب الباردة، وهو ما كان يشكل أولوية في السياسة الخارجية طيلة مدة الحملة الانتخابية.

تلك كانت جزءاً من خطتنا المرسومة بدقة كي ندفع بالرئيس للبدء في انطلاقة سريعة، ولتقديمه كقائد قوي مصمم على الوفاء بوعوده التي أطلقها إبان حملته الانتخابية، وعلى تنفيذ الخطط المرسومة.

منذ الأيام الأولى من عملي، أصبحت جزءاً من العمليات السياسية والتشريعية وعمليات وسائل الاتصالات في البيت الأبيض. كانت لي حصتي من الاجتماعات: اجتماعات الإستراتيجية التشريعية لمناقشة المبادرات المهمة؛ اجتماعات يومية حول موضوع الاتصالات بإدارة كارن هيوز؛ اجتماعات مع رئيس المباشر، آري فليشر، وذلك قبل بدء الاجتماع مع كبار الموظفين، والجمهرة الصباحية، ولقاءات فترة ما بعد الظهر؛ والاجتماعات التي تعقد مرتين أسبوعياً لتنسيق مواعيد المناسبات العامة التي سيحضرها الرئيس؛ واجتماعات رسم السياسات حول موضوعات محلية محددة بما في ذلك مشروع

قانون حقوق المرضى، ومشروع قانون إصلاح تمويل الحملات الانتخابية، والمشكلات العرقية، والبيئة، والرعاية الطبية، وأبحاث الخلايا الجذعية، والتعليم.

تقاسمت مع زميلتي كلير بوكان المسؤوليات بحسب الموضوعات. تولت كلير القضايا الاقتصادية، وأخذت أنا على عاتقي أغلب الموضوعات المحلية الأخرى؛ بينما تولى المكتب الصحفي لمجلس الأمن القومي شؤون السياسة الخارجية. كنا نتأكد من أننا قمنا بتغطية جميع الموضوعات للسكرتير الصحفي عبر تحضير النقاط التي يريد التحدث بشأنها، ومساعدته في أن يكون مطلعاً أولاً بأول على الموضوعات كافة وذلك لتجنب وقوع أي مفاجآت في قاعة اللقاءات الصحفية. عندما كنت أنوب عن آري، كان عليّ القيام بالتركيز على موضوعات أكثر شمولية. كنت أحياناً أشارك أيضاً في الاجتماعات الرئاسية مكان آري بما في ذلك اجتماعات الكونغرس، واجتماعات عرض السياسات.

بالإضافة إلى قيامه بالتواصل مع أعضاء الكونغرس من الحزبين، فقد قام الرئيس بالتواصل مع كبار زعماء العالم. كانت تلك محاولة لإظهار الرئيس بمظهر المهتم «بالدبلوماسية الشخصية» الهادفة إلى تقوية تحالفاتنا في الخارج. كان من المهم إبراز مقدرة بوش على التأسيس لعلاقات شخصية قوية مع الحلفاء، أخذين بعين الاعتبار خبرته المحدودة في مجال السياسة الخارجية.

كانت واجباتي كنائب للسكرتير الصحفي تتضمن أيضاً مرافقة الرئيس في رحلات رئاسية مختارة. كلما سافر الرئيس إلى وجهة ما، كان يرافقه بيت أبيض افتراضي يتكون من مستشارين، وموظفي دعم، وعملاء سريين للحماية، وأفراد من الجيش. تمتد وكالة الاتصالات في البيت الأبيض (WHCA)، وهي ذراع للمكتب العسكري في البيت الأبيض خطوط اتصالات آمنة، وأخرى غير آمنة في الغرف التي يحتلها الرئيس، ومواقع الموظفين المرافقين في المواقع التي تجري فيها المناسبات، وكذلك في مكاتب الموظفين والأجنحة الرئاسية في الفنادق التي ينزل فيها الرئيس، وتقيم مراكز توثيق صحفية تتضمن منصة من أجل أي تصريحات أو مقابلات محتملة، كما تهيئ مكتباً صحفياً تضع فيه مجموعة من أجهزة الكمبيوتر وخطوط الاتصالات الهاتفية. يسافر السكرتير الصحفي عادة على

متن الطائرة الرئاسية (Air Force One) بينما يسافر واحد من نائبيه، كلير أو أنا، على متن طائرة الصحفيين المؤجرة المرافقة. أما في الرحلات الخارجية، فإن الناطق باسم مجلس الأمن القومي يرافقه أيضاً مع بقية أفراد السلك الصحفي التابع للبيت الأبيض.

أول رحلة لنا إلى الخارج كانت لمدة يوم واحد توجهنا فيها إلى مدينة سان كريستوبال في المكسيك في شباط، فبراير، حيث شارك الرئيس في سلسلة من النشاطات والاجتماعات مع الرئيس فينسينت فوكس. وكان من المفارقة التي تستشرف المستقبل أن المؤتمر الصحفي المشترك الأول الذي عقده الرئيس مع أحد زعماء العالم، وكان ذلك في مزرعة الرئيس فوكس، طغت عليه أسئلة حول العراق. كانت الطائرات الحربية البريطانية والأمريكية قد قصفت لتوها عدداً من مواقع الرادار والدفاعات الجوية بما في ذلك مواقع حول بغداد. كان تنفيذ هذه المهمة يتطلب موافقة من الرئيس لأن هذه المواقع تقع خارج منطقة حظر الطيران في العراق التي فرضناها بالتعاون مع البريطانيين. كان ذلك رداً على الجهود العراقية المكثفة من أجل محاولة إسقاط لطائراتنا داخل منطقة حظر الطيران، بما في ذلك إطلاق صواريخ أرض-جو. وكان ذلك أول عمل عسكري ذي شأن يوافق الرئيس الجديد على القيام به، وصف بوش هذا الرد «بالمهمة الروتينية» لتعزيز منطقة حظر الطيران، ولتذكير صدام حسين أن عليه الالتزام بالاتفاقات التي وقعها بعد حرب الخليج.

بعد انتهاء الزيارة، قفل آري عائداً إلى واشنطن مع بعض الموظفين لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وكانت هذه بداية لسلسلة من رحلات قمت بها على متن الطائرة الرئاسية، وتضمنت جولة رافقني فيها رئيس طاقم المضيفين في الطائرة - وكانت لحظة أخرى لا تنسى، ذكرتني باللحظة التي ابتسمت فيها الحياة لي عندما ولجت إلى داخل المعمة في البيت الأبيض.

حضر الرئيس والسيدة بوش حفل إقامة النصب التذكاري الوطني في أوكلاند هوما في اليوم الثاني، وكان يوم الاثنين قبل العودة إلى واشنطن. ما زلت أذكر بوضوح تجوالي في ذلك المتحف التفاعلي الذي أقيم تخليداً لذكرى التفجير الرهيب لمبنى مورا الاتحادي سنة 1995 الذي قام به تيموثي ماكفي. كانت صالة الشرف، وهي واحدة من محطات

الجولة. غرفة مظلمة كان الناس يسمعون فيها تسجيلاً لجلسة استماع في إحدى غرف الاجتماعات قطعها فجأة أصوات انفجارات قوية. وحالما تعود الإضاءة إلى الغرفة، فإنك تلاحظ فوراً صوراً لمئة وثمانية ستين شخص فقدوا حياتهم في ذلك التفجير.

في وقت لاحق من شهر شباط، فبراير، استضاف الرئيس طوني بلير رئيس وزراء بريطانيا العظمى في منتجع كامب ديفيد. كان العراق على جدول أعمال الاجتماع، وأثار فضول الصحفيين الذين غطوا المؤتمر الصحفي الذي عقد أثناء الزيارة. تحدث بوش وبلير عن ضرورة إعادة النظر في العقوبات المفروضة على العراق عبر الأمم المتحدة. كانت الفكرة تقضي بأن يتم فرض ما اصطلحنا عليه بمصطلح العقوبات الذكية التي تهدف إلى كبح لجام النظام من دون إيذاء الشعب العراقي وذلك بتشديد الرقابة على البضائع التي يمكن أن تستخدم لأهداف عسكرية، ومنع النظام الحاكم من الحصول على تمويل سري وغير قانوني من تهريب النفط. ردد بوش ما قاله بلير: «إن أي تغيير في العقوبات لا يجب أن يؤدي بحال من الأحوال إلى أي تشجيع أو تقوية لصادم حسين. عليه أن يفهم أننا سوف نقوم بمراقبته عن كثب، وإذا تحققنا من أنه يقوم بتطوير أسلحة دمار شامل، فسوف نقوم باتخاذ الإجراءات المناسبة. وإذا ثبت أنه يهدد جيرانه، فسوف نقوم باتخاذ الإجراءات المناسبة». كان صدام يُعتبر «مشكلة» وليس «خطراً رهيباً تزداد حدته» في الأيام الأولى تلك. كان الحديث يتركز آنذاك حول ما إذا كان يطور أسلحة دمار شامل، وليس حول أنه يقوم بتطويرها.

المسؤولية الأخرى التي كانت منوطة بي في الأشهر الأولى هي أنه كان يطلب إلي أحيانا التواجد في مقابلات صحفية لكبار المسؤولين. في بداية شهر شباط، فبراير، حضرت بعض المقابلات التي قمنا بترتيبها لرئيس أركان البيت الأبيض آندي كارد. ففي مقابلة مع وكالة الأسوشيتد برس لخص آندي بإيجاز شديد آراءه حول ثلاث من المسؤوليات الجوهرية المناطة بموظفي البيت الأبيض: الإشراف على «العناية بالرئيس وإطعامه»، والتأكد من عملية صياغة السياسة بشكل منضبط، وإدارة عملية الترويج لسياسات الرئيس وتسويقها. كان آندي يستوعب جيداً الصورة الكلية. عرف آندي، شأنه في ذلك شأن كارل روف، وكارن هيوز، والرئيس نفسه، أن تسويق السياسة وبيعها - وهذه طريقة

أخرى لتوصيف الحملات الدائمة - عامل مهم في تنفيذ ما هو مرسوم. ومقياساً رئيساً من مقاييس قوة الرئيس ونجاحه.

أشرف كارل روف على عملية التخطيط الاستراتيجي داخل البيت الأبيض فيما يتعلق بترويج السياسة وتسويقها. أسس روف لاجتماعات «إستراتيجية» دورية مستخدماً عبارة مشتقة ليس، كما قد يظن بعضهم، من عبارة قالها في واقع الأمر بوش نفسه، ولكن من عبارة ساخرة في برنامج Saturday Night Live قالها ويل فيريل الذي كان يقلد بوش في ميله إلى «تشويه اللغة الإنجليزية» (أي تحدث مثل بوش نفسه).

ركزت اجتماعات «الإستراتيجية» على التخطيط والإستراتيجية الطويلي الأجل لمدد تتراوح بين أسابيع وأشهر قادمة. كان مكتب روف للمبادرات الإستراتيجية يساعد على تنسيق الجهود بما في ذلك تحضير المواد وإجراء الأبحاث من أجل معرفة كيف تعامل البيت الأبيض في العهود السابقة مع تحديات مشابهة. كان النجاح الانتخابي هو الغاية القصوى - كسب المزيد من المقاعد للجمهوريين في الكونغرس سنة 2002، وإعادة انتخاب جورج بوش للرئاسة سنة 2004.

الحاضرون في اجتماعات الإستراتيجية هم روف، وكارن هيوز، وأندي كارد، ونائب رئيس أركان البيت الأبيض للشؤون السياسية جوش بولتين، وسكرتير أركان البيت الأبيض هاربيت مايرز، ومستشارة السياسة المحلية مارغريت لامونتين، ومستشارة الأمن القومي كوندوليزا رايس، ومستشار الاقتصاد الوطني لاري ليندسي، ومستشارة نائب الرئيس ماري ماتالين، وضابط الارتباط لشؤون التشريع نيك كاليو. كان لنواب كبار المستشارين هؤلاء اجتماعاتهم الإستراتيجية الدورية الخاصة بهم. كانت القضايا التي تحتل الأولوية في اجتماعات الإستراتيجية ترشح عبر سياسة البيت الأبيض، ووسائل الاتصالات فيه، ومن الأقسام التشريعية بحيث كان بالإمكان مناقشة الأفكار وتطويرها من أجل طرحها للنقاش في جلسات مقبلة. هكذا أصبحت ملماً بصياغة الإستراتيجية، وذلك لأن كارن هيوز كانت تسألنا جميعاً في الاجتماعات التي كنا نجريها في فريق الاتصالات بشكل منتظم عن مواد وأفكار جديدة.

كانت كارن هيوز بصفتها مستشارة للرئيس، مسؤولة عن إدارة رسالة الرئيس، والإشراف على كل اتصالاته. كان دورها الرئيس يتمثل في المساعدة على تعميم الرسالة وتنفيذها في كل أرجاء البيت الأبيض، والإدارة بشكل عام. كما قامت بدور المستشار بالنسبة إلى معظم القرارات المهمة التي اتخذت على مستوى كبار الموظفين، ومن قبل الرئيس نفسه.

وهكذا فقد تداخلت السياسة مع المناورات السياسية بعمق في نسيج البيت الأبيض في عهد بوش. رأى أغلبنا ممن سبق له العمل في مجال العمل السياسي سواء لمدة قصيرة أم طويلة أن هذا أمر طبيعي، لا يشوبه أي شر أو فساد. رأينا أن الرئيس كان أكثر انفتاحاً وأكثر وضوحاً، وصدقاً من سلفه، محقاً بشأن مواقفه من القضايا المطروحة، كما كنا على اقتناع بأن آراءه متطابقة مع آراء معظم الأمريكيين. كنا نرى أن أنه لا يوجد تناقض بين هذه الافتراضات وبين وجود عملية سياسية كبيرة تُحضر داخل البيت الأبيض، ومكرسة لإطلاق (أجندة) عامة. إنها مجرد جزء من اللعبة السياسية، وهي مهمة لا بد من القيام بها؛ ويسعدنا ويشرفنا أن نشارك في صنعها.

ولكن عندما يخطو المرء خارج عتبة المعمة في البيت الأبيض، ويعود بنظره إلى الماضي بمنظور الحاضر، تصبح من السهولة بمكان رؤية أن ما كنا نقوم به لا يختلف في كثير أو قليل مع ما كان يقوم به سلفنا المباشر. كانت لدينا، تماماً كإدارة كلينتون، هيكلية دقيقة لإدارة الحملة داخل البيت الأبيض، وهي التي حددت وجهتنا في معظم ما كنا نقوم به. كنا نركز دوماً على الطريقة التي نسيطر فيها على (أجندتنا)، ونصيغ الحبكة الإعلامية، ونبني الدعم الشعبي لسياساتنا - وهو بالضبط ما سعى إليه زعماء الحزب الديمقراطي في واشنطن. كان بوش قد قطع على نفسه عهداً بأنه سوف يغير من مسار الأمور في واشنطن. ولكن كيف له أن يقوم بالتغيير إذا كانت إدارته تمارس اللعبة نفسها، وبالشروط نفسها؟ لم أستطع تبين التناقض في ذلك الوقت، والأمر نفسه كان بالنسبة إلى معظم زملائي باعتقادي.

إلا أن النظام كان فاعلاً - أقله في الشهور الأولى من عمر الإدارة. فقد ساعدنا على تمرير مشروع الرئيس في تخفيض الضرائب بحلول نهاية أيار، مايو. وقد ارتأينا أن كمأ

كبيراً من الفائض المتوقع في الميزانية والبالغ 5,6 تريليون دولاراً (بما في ذلك مبلغ 2,6 تريليون دولاراً مخصصة للضمان الاجتماعي) يجب أن تعاد لدافعي الضرائب. وهذا برأينا سوف يؤدي إلى زيادة معدل النمو، وتوفير فرص العمل، ويخرج الاقتصاد (الذي وصفته بعض التقارير الاقتصادية في وقت لاحق، بالركود) من عجلة انحداره.

قام بوش بزيارة ست وعشرين ولاية خلال المئة يوم الأولى من رئاسته، وركزت العديد من هذه الزيارات على حث الجمهور كي يقوم بالضغط على الكونغرس من أجل أن يتحرك. كانت هناك الكثير من حملات التشكيك من قبل وسائل الإعلام، وفي بداية الأمر، لم يحظ بوش بكثير من الدعم في استطلاعات الرأي. لكن الجهد المبذول في الحملة أثبت فاعليته ونجاحه بشكل لافت. فالرزمة التي تم تمريرها لم تكن تغطي كل ما أراد بوش تحقيقه، ولكنه حصل على معظم ما كان يصبو إليه: خفض للضرائب بمعدل 1,35 تريليون دولار على مدى السنين العشر القادمة، وهو مبلغ أقل بمعدل 1,6 تريليون دولار مما كان يطمح إليه. تلقى بوش بعضاً من الدعم من كلا الحزبين، بما في ذلك الدعم الذي حصل عليه من اثني عشر من الديمقراطيين في مجلس الشيوخ.

كان مشروع قانون التعليم الذي أطلق عليه بوش وصف «لا أطفال من دون تعليم» (NCLB) نقطة إيجابية لصالح حملة الإدارة. ونظراً إلى أن مشروع القرار هذا، يهدف إلى ردم هوة التحصيل بين مدارس المناطق ذات الأداء العالي المستوى وبين مدارس المناطق ذات الأداء الأقل مستوى، فقد تم تمريره في مجلسي النواب والشيوخ في أعقاب جهد منظم بشكل جيد، مترافق بدعم شعبي. وبعد أن تمت تسوية الخلافات حول عدد كبير من التفاصيل، بما في ذلك بعض الجدل الحزبي حول مسائل تتعلق بمستويات التمويل (خصوصاً في مجلس الشيوخ الذي كان سيسيطر عليه الديمقراطيون لاحقاً)، وبعد الاتفاق بين أعضاء لجنة المؤتمر، فقد تم إقرار مشروع القانون هذا، وتمت المصادقة عليه، فأصبح نافذاً اعتباراً من كانون الثاني، يناير، سنة 2002.

كان هناك الكثير من المطبات على طريق الإدارة في الأشهر الأولى من عمرها.

فقد قرر السيناتور جيم جيفوردس عن ولاية فيرمونت وهو جمهوري معتدل منذ مدة طويلة، أن يفجر الحزب في الوقت الذي تقرر عرض تشريع خفض الضرائب للموافقة في نهاية شهر أيار، مايو؛ ذلك أنه أصبح مستقلاً، وقدم دعمه للديمقراطيين موفراً لهم بذلك فرصة السيطرة على مجلس الشيوخ، ومهيئاً الأرضية للسيناتور توم داشل عن ولاية جنوب داكوتا كي يصبح رئيساً للأغلبية في مجلس الشيوخ.

سببت مدة الستين يوماً المخصصة للمراجعة التنظيمية لأنظمة عهد كلينتون، والتي كانت ستدخل حيز التنفيذ، بعض المشكلات في الكيفية التي تم استقبالها من قبل الشعب؛ حينما تم رفض بعض قواعدها، أو إضعافها، ذلك أن بعض النقاد استغلوا هذه القرارات لتصوير بوش كعمادٍ للبيئة، أو كشخص يهتم بمصالح الشركات على حساب حماية أفراد الشعب الأمريكي.

أما حملة الرئيس في مجال الطاقة، التي قادها نائب الرئيس ديك تشيني، فقد عقدت سلسلة من الاجتماعات مع مجموعة من غير أصحاب المصالح الذين أبقيت أسماؤهم طي الكتمان. وأعطت هذه اللفتة انطباعاً أولياً عن هذه الإدارة بأنها ميالة نحو السرية، وعززت صورة البيت الأبيض في عهد بوش باعتباره مطية لأصحاب المصالح من الشركات.

وكما هي الحال بالنسبة إلى أي إدارة جديدة، كان هناك نوع من الخلل الذي فرض علينا تغيير إجراءاتنا، على سبيل المثال، حصلت عدة تسريبات إلى وسائل الإعلام حول المناقشات بشأن إستراتيجية رسالة البيت الأبيض - وهذا ما أثار حنق بوش، وكارد، وروف، وهيوز. ولكي تمنع أي تسريبات مشابهة في المستقبل، أعيدت جدولة عدة اجتماعات للتخطيط في مجال الإستراتيجية. فالاجتماع الذي كان يعقد مرتين أسبوعياً حول رسالة البيت الأبيض تحول إلى اجتماع عام يعرض فيه البرنامج العام، ونوع الموضوعات بدلاً من القيام بمناقشات علنية، ومداولات بشأن الأفكار. فقد تم تجيير هذه القرارات الإستراتيجية إلى اجتماعات يحضرها عدد أقل من المشاركين، وتقتصر على كبار المستشارين.

مع حلول فصل الصيف، بدا وكأننا نعاني بعض المشكلات في تحديد رسالة الصورة الشاملة كي نلج بها إلى الناس في وسط هذه الضوضاء الإعلامية. كنا نكافح من أجل إقرار تشريع ذي أولوية عالية مثل مشروع قانون يتعلق بحقوق المرضى، والمبادرة المرتكزة إلى العقائد. بدأت الانتقادات لعمليات البيت الأبيض في مجالي التشريع والاتصالات تطفو على السطح. كانت هناك الكثير من المناقشات داخل البيت الأبيض حول كيفية الخروج بطرق جديدة نركز فيها على أهم أولوياتنا بحيث تحذو وسائل الإعلام حذونا، وبحيث لا نقع في مطب الخوض في قضايا «الكرة الصغيرة»، أو نتعامل بمنطق ردة الفعل على (أجندات) الآخرين.

أما بالنسبة لي شخصياً، فقد كنت بدأت بالاستقرار في حياتي الجديدة، والتعود على مناخ عمليات البيت الأبيض الداخلية، والسفر مع الرئيس، والتعامل مع وسائل الإعلام الوطنية. في شهر نيسان، أبريل، كان عليّ أن أقف أمام ثلة ملؤها الحيوية من السلك الصحفي، والتي كانت تغطي أول أزمة لعهد بوش في البيت الأبيض في مجال السياسة الخارجية - أتحدث هنا عن عملية الهبوط الاضطراري البطولية في الأراضي الصينية لطائرة استطلاع أمريكية من نوع EP-3 Aries بعد اصطدامها في الجو مع مقاتلة صينية أرسلت لاعتراضها (وكانت نتيجة هذا الاصطدام سقوط الطائرة الصينية ومقتل قائدها). كان رجالنا، أعضاء طاقم الطائرة محتجزين في الصين في تلك الأثناء. نجح الرئيس وفريقه من أعضاء مجلس الأمن القومي في وضع نهاية سعيدة للموضوع من دون الحاجة إلى أي تصعيد في الأزمة، بما في ذلك عودة طاقمها من العسكريين. كان عليّ أيضاً الترتيب للقاء الصحفي الحي صبيحة اليوم الذي اتخذ فيه الرئيس قراره المثير للجدل حول البحوث في مجال الخلايا الجذعية، والذي أعلنه في الرسالة الأولى له وقت الذروة بصفته رئيساً من مدينة كروفورد في بداية شهر آب، أغسطس. كانت مثل تلك اللحظات بمثابة تعميد بالنار بالنسبة لي ناطق باسم الرئاسة، منحنتني بعض الثقة المبكرة في قدرتي على التعامل مع تحديات مشابهة في المستقبل عند الضرورة.

كان التركيز في الفترة الأولى من رئاسة بوش على الأهداف (الأجندة) الداخلية؛ إلا أن الرئيس بدأ بإثبات وجوده على صعيد جبهة السياسة الخارجية أيضاً. كان يدفع باتجاه سياسة الدفاع الصاروخي، التي ستؤدي في نهاية المطاف إلى انسحاب الولايات المتحدة من معاهدة وقف إنتاج الصواريخ المضادة للصواريخ الباليستية المبرمة مع روسيا (ABM). كانت عملية تطوير القدرات العسكرية تشكل أولوية قصوى بالنسبة لبوش، وبدأ وزير دفاعه دونالد ريمسفيد بالدفع باتجاه وضعها حيز التنفيذ. وجه بوش خطابه الرئيس الأول في مجال السياسة الخارجية في أوروبا عند توقيعه في وارسو حيث حث على ضرورة نشر الحرية في العالم أجمع. ركز بشكل كبير أيضاً على موضوع الدبلوماسية الشخصية، حيث أسس لعلاقات شخصية متينة مع زعماء العالم من أجل تقوية تحالفاتنا.

كما أوضح بوش وفريقه من أعضاء مجلس الأمن القومي أننا مصممون على اتخاذ مقاربة أكثر صرامة في التعامل مع صدام حسين ونظامه المارق، بالرغم من أن أحداً لم يكن يتوقع أن أزمة في تلك المنطقة كانت وشيكة. مع ذلك، كان بوش ومستشاروه يرسلون إشارات واضحة إلى صدام تفيد بأن عملاً عسكرياً قاسياً وارد إذا تجاوز ذلك النظام حدوده، ولن يكون ذلك العمل العسكري مجرد ردّ بالمثل، وفي الوقت الذي تزايد القلق داخل الإدارة من التآكل التدريجي والمستمر في نظام العقوبات الذي اعتمد في العقد الماضي، قامت روسيا بنقض مشروع قرار العقوبات الذكية على العراق والذي تقدمت به الولايات المتحدة إلى مجلس الأمن في صيف 2001.

لم تخلُ الأشهر السبعة الأولى من عمر الإدارة الأمريكية من عمليات الشد والجذب السياسي. كنت متأكداً من أن واشنطن ليست تكساس. كانت الثقة معدومة بين قادة الحزبين في الكونغرس. وكانت ذكريات المواجهات الماضية كثيرة، كما كان انعدام الثقة عميقاً بينهما. كانت مرارة نتائج انتخابات سنة 2000 ما تزال تحوم فوق رؤوس بعض الديمقراطيين. وكان الشك حول مسألة ما إذا كان الرئيس صادقاً في الشعار الذي رفعه في أنه سيكون «موحداً لا مفرقاً» أمراً شائعاً؛ كما أن بعض الليبراليين شككوا في أن عبارة

«المحافظ ذي القلب الرحيم» ليست أكثر من تناقض عديم المعنى. لكننا في إدارة بوش، كنا نستمتع بنجاحاتنا التي تجاوزت الحدود الحزبية في مجالي قانون خفض الضرائب، وقانون «لا أطفال من دون تعليم» لدرجة أننا كنا متفائلين بإمكان توحيد الأمة وراء مجموعة أهداف (أجندة) يتبناها بفخر معظم الأمريكيين: إن لم أقل كلهم.

ولكن بعد ذلك، جاء اليوم الذي تغير فيه كل شيء.

7

الحادي عشر من أيلول

ووقف إطلاق النار بين الحزبين

لن أنسى أبداً مثل معظم الأمريكيين، أين كنت في صباح الحادي عشر من أيلول، سبتمبر سنة 2001؛ فقد استقر في ذاكرتي إلى الأبد. كنت مسافراً مع الرئيس عندما كان يُحضّر للحديث عن إصلاحات في سلك التعليم، وعن مبادرته حول مهارة القراءة على وجه الخصوص، وذلك في إحدى المدارس الابتدائية في مدينة ساراسوتا بولاية فلوريدا. كانت هذه الفعالية جزءاً من رحلة لمدة يومين تهدف إلى حث الكونغرس على إقرار رزمة التعليم التي اقترحها بوش. كان السكرتير الصحفي آري فليتشر يرافق الرئيس على متن طائرة الرئاسة، بينما كنت مسافراً في صحبة مجموعة أكبر من الصحفيين المرافقين للرئيس في طائرة مُستأجرة.

شارك الرئيس في مناسبة تعليمية في مدرسة ابتدائية في مدينة جاكسونفيل، بولاية فلوريدا، في اليوم السابق؛ أما نحن فقد قضينا ليلتنا في منتجع «كولوني بيتش» في ساراسوتا (والذي كان سيفلق بسبب انتهاء الموسم في اليوم الثاني لمغادرتنا ذلك المنتجع).

كانت حافلات الصحافة التي تقل مجموعة كبيرة من صحفيي البيت الأبيض قد غادرت قبل نصف ساعة من انطلاق موكب الرئيس، من ثم كان بمقدور هؤلاء الصحفيين أن يحضروا مواقعهم قبل وصول الرئيس إلى مدرسة «إيما بوكر» الابتدائية. وكما هي العادة، فقد جهزت الشبكات غرفة للبت تتضمن كل ما تحتاجه من أجهزة البث بما في ذلك تدوين ملاحظات الرئيس على شاشات التلفزيون. تمت إقامة مركز للتوثيق يستوعب أفراد الطاقم الصحفي كافة، بحيث أصبح بمقدور الصحفيين كتابة الأخبار وإرسالها، وتلقي التصريحات، وكذلك تركيب منصة لإلقاء التصريحات بواسطة

السكرتير الصحفي أو موظفين آخرين في الإدارة. وعلى مسافة قريبة من ذلك المكان، أقيم مكتب صحفي تابع للبيت الأبيض.

بعد الوصول إلى المدرسة، والتحقق من غرفة البث، ومركز التوثيق، والمكتب الصحفي (في هذه الحال، كانت جميعها موجودة في أحد الصفوف الدراسية)، ذهبت إلى مكتبة المدرسة حيث كان من المقرر أن يتحدث فيها الرئيس بعد أن يقوم بزيارة إلى أحد الصفوف الدراسية. كانت كاميرا الشبكات، وطواقم الصوت، ومحطات وسائل الإعلام المحلية موجودة في الأمكنة المخصصة لها على منصة الصحافة وراء المقاعد التي وضعت من أجل أعضاء الجمهور الذي يتضمن إداريي مدارس، ومعلمين، وأولياء أمور. وقد خصصت مقاعد في الخلف لصحفي البيت الأبيض. جلست بين جودي كين الصحفية في صحيفة «يو. إس. إي. تودي» وبين دافيد سانفر من صحيفة نيويورك تايمز.

كنا نتحدث في العموميات عندما رن جهاز تلقي الاتصال الخاص بي. قرأت الرسالة. كان برايان برافو، وهو مساعد شاب في المكتب الصحفي، أول من أورد هذا الخبر العاجل في الوقت نفسه الذي كان يُبثُّ نحو الساعة الثامنة وخمسين دقيقة من صباح ذلك اليوم: اصطدمت إحدى الطائرات بمركز التجارة العالمي. تساءلت كيف يمكن لحادث غريب مثل هذا أن يقع. هل كانت طائرة صغيرة ربما تعرض ربانها إلى نوبة قلبية، وفقد السيطرة على طائرته؟ هل حدث خلل كبير في أنظمة المراقبة الجوية. بدا الوضع غامضاً جداً.

صحتُ قائلاً: «هذا مريع».

سألت جودي: «ماذا؟»

قلت: «أذاعت وكالة الأسوشيتد برس أن طائرة اصطدمت بمركز التجارة العالمي». وكان إحساس جودي وديفيد بالصدمة لا يقل عن إحساسي بها.

تحركنا بسرعة إلى مركز التوثيق لمشاهدة الحدث على شاشة التلفزيون. انضم إلينا معظم الصحفيين المرافقين لنا في رحلتنا، وكان الآخرون من بينهم موجودين سلفاً في تلك الغرفة. كنا نراقب المشهد بانتباه عميق محاولين فهم حقيقة ما جرى، عندما صاح أحد الصحفيين فجأة: «هناك طائرة ثانية اصطدمت بالبرج الآخر!»

أظنني لمحت بطرف عيني انفجاراً آخر في الوقت الذي كنت أتحدث إلى أحدهم، لكنني اعتقدت أن ذلك الانفجار ثانوي.

سألته: «هل أنت متأكد؟» كان الآخرون يتساءلون فيما إذا كان قد وقع انفجار جديد أيضاً.

أعيد بث المشهد نفسه بعد لحظات قليلة، ورأينا جميعاً اصطدام الطائرة الثانية بالبرج الثاني. سرت قشعريرة في ذراعي وفي ظهري. بدأت فكرة قيام أحدهم بالاعتداء على أمريكة بطريقة (دراماتيكية) ومميتة بالتسلل إلى مساحة شعوري. التفت معظم الصحفيين في تلك اللحظة صوبي ونظروا إليّ، حيث كنت أقف في المنطقة الخلفية من مركز التوثيق الصغير. كانت تلك ردة فعل طبيعية من قبلهم. كان ذلك حدثاً عظيماً. ما الذي يسمعه البيت الأبيض، وما الذي يقوله؟ لكنهم كانوا يعرفون جميعاً أن عليّ الخروج للتأكد مما حدث.

قلت: «سوف أعود بعد قليل». كان لا بد لي من اقتفاء أثر كبار المسؤولين المسافرين معنا ذلك اليوم، والاطلاع منهم على ما يعرفونه حول الموضوع. وبينما كنت أخطو خارج مركز التوثيق، رأي أحد موظفينا المتقدمين وقال قبل أن يسمع سؤالاً: «اتبعني». سوف أرافقك إلى المعقل». كانت تلك غرفة خاصة أقيمت كغرفة عمليات هادئة تحتوي على هواتف آمنة وأخرى غير آمنة كي تكون بتصرفنا أثناء زيارة الرئيس. في هذه المناسبة، كان معقل الرئيس شبيهاً بمعقل كبار الموظفين. كان ملاصقاً للغرفة الدراسية التي كان الرئيس يراقب فيها تلامذة الصف الثاني الابتدائي وهم يأخذون درساً في القراءة، وكان هو يشاركهم هذا الدرس. وكانت الطريق الوحيدة للولوح إلى ذلك المعقل هي عبر غرفة الصف الصغيرة تلك.

وبينما كنت اقترب مع الموظف المتقدم من غرفة الصف، كان الجمع الصحفي قد بدأ المغادرة. فقد انتهوا للتو من عملية تصوير الرئيس وهو يقرأ أمام تلامذة الصف، ولذا فإنهم الآن يُقتادون إلى الخارج، كما هي العادة بعد انتهاء عمليات تصوير من هذا النوع.

ولكن قبل دقيقة من حصول ذلك، قام جمع الصحفيين بتصوير أندي كارد وهو يتجه إلى الرئيس، ويهمس في أذنه قائلاً: «لقد ضربت طائرة ثانية البرج الثاني. أمريكة تتعرض لهجوم» وقد أعيد بث تلك اللقطة عدداً لا يحصى من المرات.

وبينما كنا نلج إلى غرفة الصف، سأل بعض أعضاء الجمع الصحفي عن معرفتي بحادث اصطدام الطائرة في نيويورك: فهم لم يكونوا قد سمعوا بحادثة الطائرة الثانية بعد.

أخبرتهم بأننا «شاهدنا للتو طائرة ثانية تصطدم بالبرج الثاني: هذا كل ما أعرفه». مراسلة محطة أخبار ABC لم تسمعي جيداً على ما يبدو، فسألتني: «هل قلت إن هناك طائرة ثانية؟»

أجبتها: «نعم، ضربت طائرة ثانية البرج الثاني، هذا كل ما أعرفه».

قادني بعدها الموظف المتقدم إلى معتل الموظفين، وكان على يساري، وبينما كنت أدخل إلى غرفة الصف، وأمشي صوب الجهة الخلفية نحو المعتل، نظرت إلى الرئيس الذي كان يجلس في كرسي الأستاذ أمام التلامذة. كان أحد التلامذة يقرأ أمام الرئيس، لكن كان من الواضح أن عقل الرئيس كان حيث وقع الهجوم. لم ألمح أبداً مثل ذلك التعبير البارد على وجهه من قبل. قرأت في عينيه أنه كان على يقين أننا نمر في حال حرب.

انضمت إلى فريق الموظفين المسافرين في المعتل. بعد بضع دقائق، دخل الرئيس وشاهد البرجين على شاشة التلفزيون وهما يحترقان. ثم جلس وتلقى بعض المكالمات الهاتفية طالباً معلومات أكثر عن الحادث. أذكر أنه طلب إلى أحدهم إغلاق جهاز التلفزيون. (يحب بوش عادة أن يكون الجو المحيط به خالياً من كل ما يمكن أن يشتت تفكيره). كان آري فليشر موجوداً هناك، وكذلك دان بارليت، وأندي كارد، وكارل روف، وديبورا لوار، عضو مجلس الأمن القومي، ومديرة غرفة المواقع في البيت الأبيض.

تحدث بوش مع نائب الرئيس عبر أحد الخطوط الهاتفية الآمنة، ومع مدير مكتب التحقيقات الفيدرالية روبرت مولر (الذي لم يكن قد مضى على استلامه للمنصب

أكثر من أسبوع)، ومع باتاكي، حاكم ولاية نيويورك، أخبر كل من تشيني ومولر الرئيس بالمعلومات التي لديهما بشأن الموضوع، والتي كما خمنت حينها، لم تكن أكثر من المعلومات التي كانت متوافرة لدينا في حينه. طلب الرئيس من الحاكم باتاكي إبلاغ سكان نيويورك أن الحكومة الفيدرالية ستبذل كل ما بوسعها للمساعدة في الرد على هذا الهجوم.

بعد إجراء تلك المكالمات، أمسك الرئيس برزمة من الأوراق الصفراء، وبدأ يخط بعض الملاحظات حول ما يجب أن يصرح به قبل مغادرة المدرسة. تجمهر كبار الموظفين المتواجدين في تلك الرحلة حول الرئيس. كان برنامج الزيارة موزعاً على مرحلتين: التوقف في إحدى الغرف الدراسية، ثم إبداء بعض الملاحظات حول التعليم لجمهور من الحاضرين لا يتجاوز الثلاثين شخصاً مجتمعين في المكتبة. أما الخطة الآن فتقتضي قيام الرئيس بإلقاء تصريح مقتضب حول ما حدث في نيويورك، وإعلام الحاضرين، وكذلك وسائل الإعلام أن عليه العودة إلى واشنطن حالاً للإطلاع على مجريات هذه المسألة، وقفت إلى جانب الرئيس من جهة، ووقف دان بالقرب منه، أما آري فقد جلس معه إلى الطاولة.

أشار الرئيس إلى أنه ليس بحاجة إلى بيان رسمي معد سلفاً. هو الآن يتحدث بصوت عالٍ، وهو يكتب مقاطع مما سيلقيه في الوقت الذي كان كارد وآري يزودانه بالأفكار. قال الرئيس: «وقعت اليوم مأساة وطنية، فقد اصطدمت طائرتان ببرجي مركز التجارة العالمي في هجوم إرهابي على بلادنا».

اعترض دان قائلاً: «لسنا متأكدين من أن ذلك كان هجوماً إرهابياً».

قال بوش: «إنه كذلك بالتأكيد، ماذا تظنه إذا؟» أنا وآري وافقنا الرئيس أن من الواضح أنه هجوم إرهابي.

أجاب دان: «ما أريد قوله هو أننا لم نتأكد من أي شيء بعد. فنحن لا نعرف من هو المسؤول».

قلت مقدماً أسهامي المتواضع: «إذاً، قل فقط هجوم إرهابي على ما يبدو». أضاف الرئيس هذه الكلمة الإضافية.

اتجه الرئيس برفقة الموظفين بعد ذلك مباشرة إلى المكتبة لإلقاء كلمته المختصرة. وفي واحدة من محطات تلك الكلمة، خرج عن النص المكتوب ليتوعد بأنه سوف يلاحق «هؤلاء الأشخاص» قبل القول «إن الإرهاب ضد بلادنا لن يمر من دون عقاب»؛ وهو بذلك كان يردد العبارات نفسها التي استعملها والده بعد غزو العراق للكويت. رأى جمعٌ أن تعليقات الرئيس الأولى كانت عادية جداً، وأنها لم تكن قوية، أو توفر الاطمئنان للشعب كما كان يجب أن تكون. لكنه استرد موقعه بسرعة وظهر بمظهر المتشدد، كما أضحت أقواله وأفعاله مبعث اطمئنان في الأيام التي تلت تلك الحادثة.

بينما كان الرئيس يضع اللمسات الأخيرة على خطابه، نظر آري إليّ. كنا نقف وراء الستائر التي كانت تستخدم دائماً كطوق مضروب حول الرئيس لحمايته. سألتني: «ألا تعتقد أنه يجب أن ترافقنا إلى واشنطن؟»

أجبت: «لا أظن ذلك، فأنا ضابط الارتباط الوحيد بين البيت الأبيض وبين السلك الصحفي. لذا، أظن أنه من الأفضل أن أبقى معهم لأزودهم بالمعلومات التي يمكنني الحصول عليها».

بعد عدة دقائق، غادر الرئيس متوجهاً إلى واشنطن.

عدت إلى مركز التوثيق، وهناك أبلغني المساعد الصحفي هاري وولف أن مراسلي الأخبار جاهزون للبث الحي من ساحة المدرسة. مشيت إلى الخارج، وذكرت لهم بشكل واضح أسماء الأشخاص الذين تحدث الرئيس إليهم، وما قاله لهم؛ وذلك لأنني أعتقد أنه من الأفضل في وقت الأزمات إعطاء المعلومات والوقائع بأسرع وقت ممكن للصحافة، وهذا ما حاولت القيام به.

وبينما كنت أفضل عائداً إلى مكتب التوثيق، هرولت نانسي هارمير، المخرجة في شبكة فوكس نيوز، نحوي. كنت أعرف نانسي جيداً. فقد غطت أنشطة حملتنا الانتخابية. قالت نانسي: «يا سكوت، يقول زملاؤنا في واشنطن إن مبنى المكتب التنفيذي قد ضرب أيضاً».

سألتها وأنا في حالٍ من الدهول: «مبنى المكتب التنفيذي؟»

أجابت: «نعم، يقولون إن سحابة من الدخان تخرج منه. هل سمعت أي شيء عن هذا الأمر؟»

شعرت بأن الضرب يقترب مني أكثر فأكثر؛ فأخي الأكبر، مارك، وهو عضو في مجلس مستشاري الرئيس للشؤون الاقتصادية، وكبير مستشاريه لشؤون السياسة الصحية، كان يعمل في مبنى المكتب التنفيذي. كما أن العديد من الزملاء الذين تربطني بهم معرفة جيدة كانوا يعملون هناك أيضاً، بمن فيهم أصدقاء مقربون. مرة أخرى، شعرت بقشعريرة تسري في كافة أنحاء جسدي.

قلت: «لم أسمع بأي شيء من هذا القبيل».

قفلت عائداً إلى مكتب التوثيق فوراً لأرى ماذا يمكنني القيام به على شاشة التلفزيون. كانت التقارير الواردة تؤكد أن مبنى البنتاغون قد تم ضربه. أكدت نانسي بعد ذلك مباشرة أن بعضاً من زملائها أكدوا أنهم شاهدوا الدخان يتصاعد من مبنى البنتاغون، لكنهم اعتقدوا أن ذلك الدخان كان ينبعث من مبنى المكتب التنفيذي، وأنه كان من الكثافة بحيث إنه حجب عنهم رؤية مبنى البنتاغون. كان من الصعب التصديق بأن مبنى وزارة الدفاع يمكن أن يقصف من قبل الإرهابيين. انتابني شعور بالألم الشديد، بالرغم من أن ذلك ترافق مع إحساسٍ ببعض الارتياح بعد أن علمت أن مبنى المكتب التنفيذي لم يكن هو المستهدف في الهجوم.

فكرت كثيراً بوالدتي في تلك اللحظة لأنني كنت أعلم أنها جد قلقة (كنت ما أزال غير متزوج حينها). كانت في مدينة أوستن، وكانت تشغل منصب مراقب النفقات في ولاية تكساس. خطوت إلى الخارج، واتصلت بمكتبها من هاتفي المحمول. ونظراً لأن إحساسي بالآزمة كان طاغياً، لم أتوقف حتى للسؤال فيما إذا كانت موجودة في المكتب. فقط، قمت بالطلب إلى مساعدتيها نورا ألفورادو وليزا رايت أن «تقولا لوالدتي إنني بخير، وإنني مع الرئيس في فلوريدا، وإنني أحبها وسوف أتصل بها مساء اليوم».

عدت بعد ذلك إلى العمل. عانيت من بعض المشكلات في محاولاتي الاتصال بكليير بوكان في البيت الأبيض؛ وكليير هذه، هي زميلتي التي تشغل موقع النائب الآخر للسكرتير

الصحفي. أذكر أن محاولتي الاتصال بها استغرق بعض الوقت لأن شبكة الاتصالات في واشنطن كانت مضغوطة أكثر مما ينبغي. ولكن عندما استطعت أخيراً الاتصال معها، استمرت كلير بتزويدي بكل ما لديها من معلومات، وذلك كي أستطيع إبلاغ الصحفيين بالمعلومات المتوافرة لدى البيت الأبيض. كما زودني أري بالمعلومات المتوافرة لديه، وبما فعله الرئيس وهم في طريقهم إلى واشنطن مستخدمين مهرباً غير مباشر للوصول إلى البيت الأبيض. بما في ذلك التوقف في قاعدتين جويتين. كان رجال الأمن السريون قلقين من أن يكون الرئيس نفسه مستهدفاً. علمت فيما بعد أن أندي كارد ونائب الرئيس اتفقا مع رجال الأمن السريين على أن الرئيس لا يجب عليه الآن العودة إلى واشنطن إلى أن ينجلي الغبار عن مدى هذا التهديد.

لم أكن على اطلاع على شيء من هذا في حينه؛ ولكن تم إخلاء معظم الموظفين ممن لا تستدعي طبيعة وظيفتهم التواجد في البيت الأبيض في أوقات كهذه. كان على كلير المُرَابطة في غرفة المواقف، كونها كبيرة الناطقين الصحفيين في البيت الأبيض وذلك من أجل القيام بواجب الاتصالات المنوطة بالمكتب.

بعد انقضاء فترة ما بعد الظهر، عدت إلى منتجع كولسوني مع بعض الموظفين الذين بقوا إلى جانبي في فلوريدا، بمن فيهم كيللي غانون، مديرة الصحافة المتقدمة، والمساعد في مكتب السفريات، جو بيلي، بالإضافة إلى هاري وولف، وأعضاء من السلك الصحفي في البيت الأبيض الذين تم الطلب إليهم البقاء معنا. كان مكتب السفريات التابع للبيت الأبيض مسؤولاً عن تنسيق الاحتياجات المتعلقة بالتنقل مثل تأمين الحافلات والطائرات، وحجز أماكن الإقامة للسلك الصحفي. كان هذا المكتب غير معروف نسبياً بالنسبة للجمهور قبل حادثة ترافيل غيت، وهي واحدة من سلسلة من الحوادث المثيرة للجدل التي تورط فيها البيت الأبيض في عهد كلينتون.

كان بو أول من أبلغني أنه ليس بالإمكان تأمين عودة السلك الصحفي - ومن ثم أنا - إلى واشنطن في تلك الأمسية. كان من المعروف أن نورم مينيتا، وزير النقل قد أمر بعدم

إعطاء الموافقة على إقلاع أي طائرة مدنية، ومنع كل الرحلات غير المصرح بها. وضعت أعداد من الطائرات الحربية في حال استنفار من أجل الدفاع عن الأجواء وتقديم الدعم في حال الضرورة. بقيت على اتصال بكليبر حتى مساء ذلك اليوم. استمعت في تلك الليلة من غرفتي في منتجع كولوني إلى الكلمة التي وجهها الرئيس إلى الأمة من المكتب البيضاوي. بدا في تلك الإطلالة أكثر ثقة بنفسه، وأكثر قوة في تلك الليلة مقارنة بما ظهر عليه في بداية ذلك اليوم.

توجهت في صباح اليوم الثاني إلى مركز التوثيق الصحفي في منتجع كولوني، وأقمت مركزاً في المكتب الصحفي التابع للبيت الأبيض. كان ذلك في الغرفة نفسها المحاطة بستائر زرقاء كبيرة. تابع بوزملاؤه في مكتب السفريات المحاولة لتأمين عودة الصحفيين إلى البيت الأبيض. ولما استطعنا أخيراً الحصول على إذن لطائرة الصحفيين المستأجرة للإقلاع من مطار ساراسوتا والهبوط في قاعدة أندرو الجوية فإن الشركة رفضت السماح لطائراتها بالطيران في ظل هذه الظروف.

أبلغنا الصحفيين أننا سنبدل قصارى جهدنا، ولكن علينا الآن إبلاغهم بأننا لن نستطيع تأمين عودتهم إلى منازلهم على متن طائرة الصحفيين المستأجرة.

بحلول ذلك الوقت، كان أحد صحفيي الشبكة الإعلامية قلقاً بسبب أنه لن يكون بمقدوره العودة إلى واشنطن لتغطية الحدث الأكبر في فترة رئاسة بوش، وأنه الآن يشعر بالخجل أو الحرج في التعبير عن إحساسه بالإحباط. ونظراً لكونه صحفياً متمرساً، فقد كان يرغب في أن يكون في قلب الأحداث. كان يزعجه أن يرى زملاءه من الشبكة الإعلامية نفسها الذين بقوا في واشنطن ينقلون الأخبار والتقارير من خارج البيت الأبيض، وهم يقفون في المنطقة نفسها التي كان هو ينقل منها الأخبار، والمعروفة باسم «منطقة شاطئ الحصى»، وحيث يقع في الخلفية مشهد نورث بورتيكو المهيّب، في الوقت الذي هو عالق هنا في مدينة ساراسوتا.

خرج ذلك الصحفي من بين جموع الصحفيين وتوجه إليّ أمامهم مشيراً بإصبعه وهو يقول: «بربك يا سكوت! أنت نائب مساعد الرئيس، ولديك القدرة على تأمين طائرة عسكرية نقلنا إلى واشنطن. هذا غير معقول!»

أزعجتني قليلاً وقاحة ذلك الصحفي. قلت له بالمقابل: «إن الجيش لديه أولويات أهم منك في الوقت الحاضر». كان ردي الحاسم والسريع كافياً لإسكاته، في الوقت الذي خيم الصمت على بقية الموجودين في الغرفة.

شعرت بالاستياء قليلاً كوني عنفتُ ذلك الصحفي أمام زملائه، إلا أن واحداً من مخرجي إحدى الشبكات اقترب مني لاحقاً وقال لي: «أريد فقط أن أقول لك إنك كنت محقاً في ما فعلته. فما قاله كان خروجاً على قواعد السلوك، وكنت محقاً بوضعه في حججه الطبيعي».

أعربت له عن تقديري لما قاله، فلم تسعدني قط شكوى ذلك الصحفي العلنية أمام جميع أفراد المجموعة. فالجميع كان يشاطره ذلك الإحساس بالإحباط الناجم عن كوننا جميعاً بعيدين عن موقع الحدث؛ ولم يكن عليه إلقاء اللوم عليّ أمام جميع من كنت أعمل معهم.

بحلول عصر ذلك اليوم، استطاع مكتب السفريات تأمين ثلاث حافلات لنقل حشد الصحفيين إلى واشنطن، العاصمة. كانت الرحلة ستستغرق ست عشرة ساعة. دعيتي كيلي غانون إلى الركوب معها في سيارة فورد إكسبيديشن، والتي ستوصلنا إلى واشنطن في وقت أسرع. قلت لها إن ذلك سيكون عظيماً، «ولكنني إذا ذهبت معك، فسيرافقنا مساعدي هاري». كان هاري وولف يبذل جهداً جباراً، مقدماً لنا الدعم ليومين من دون توقف وسط هذه المأساة.

حينئذ تذكرنا، أنا وكيلي، العميل السري للشؤون الصحفية. فمنذ أن حاول جون هينكلي اغتيال الرئيس رونالد ريغان بعد أن شق طريقه باتجاه منطقة الصحفيين خارج فندق هيلتون في واشنطن، قامت الشرطة السرية بوضع عميل لها بين الصحفيين. قالت كيلي: «يجب أن نسأله إذا كان يود مرافقتنا في طريق العودة».

قلت لها بنفَسٍ من روح الدعابة: «نعم، إذا أردنا الوصول بسرعة، فلن يضيرنا وجوده معنا». كنت أفكر في أن شارته سوف تساعدنا بالتأكيد إذا طلبت منا شرطة الطرقات

السريعة التوقف للتحقق من هوياتنا. أما بو، فلم يكن بمقدورنا مساعدته؛ وهكذا فقد كان عليه أن يبقى مع مجموعة الصحفيين الآخرين.

حال وصول الحافلات، والتأكد من أن كل شيء كان على ما يرام، انطلقنا في سيارة الإكسبيديشن. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر. قررنا تناوب قيادة السيارة على أساس أربع ساعات لكل منا، والعودة بأسرع ما يمكن. كان العميل السري هو الأكثر وزناً بيننا. ربما كان ذلك يعود إلى ثقل شارته!

في مكان ما، إلى الجنوب من حدود كارولينا الشمالية، استيقظت من غفوة قصيرة في المقعد الخلفي ونظرت إلى يميني عبر نافذة السيارة. كنا نتجاوز شاحنة كبيرة تحمل حاوية، وكان يتدلى من وسط الحاوية علم كبير لأمريكة. كنت حينها نصف مستيقظ، لكن شعوراً بالفخار غمرني في تلك اللحظة. كان واحداً من بين العديد من الأعلام التي نصببت على السيارات، والشاحنات، وأمام البيوت، وفي الصفوف الدراسية، والمكاتب، وواجهات المحال التجارية في طول البلاد وعرضها. كل ما كان يفرق بين الأمريكيين لم تعد له في تلك اللحظة قيمة. كنا نقف صفاً واحداً، وكنا أمة موحدة.

لن يعود بيت بوش الأبيض الذي وصلت إليه صباح ذلك اليوم كما كان عليه أبداً. كان يتم استدعاء أسلافنا الذين عملوا في البيت الأبيض في وقت الأزمات. الآن، جاء دورنا لمواجهة هذا التحدي. لقد كانت مسؤولية لم يتصور أحد من بيننا أنه سيواجهها عندما باشرنا عملنا هناك قبل ثمانية أشهر.

تم وضع كل المخططات الدقيقة لمرحلة فصل الخريف التي خرجنا بها بعد الاجتماعات حول «الإستراتيجية» جانباً. تحولت أولوياتنا من التركيز على القضايا الداخلية إلى مجال السياسة الخارجية، أو قضايا الأمن القومي. أصبحت رئاسة بوش الآن رئاسة لزم من الحرب. كنا ما نزال ندفع بالأولويات المحلية التي لها أهمية خاصة، خصوصاً ما يتعلق منها بالإجراءات الضرورية للإنعاش الاقتصادي، وقانون «لا أطفال من دون تعليم»: إلا أن حماية الوطن، والانتصار في الحرب ضد الإرهاب أصبحا يشكلان الآن أولويتنا القصوى.

كانت الأيام الأولى التي أعقبت هذه الهجمات لافتة. أذكر أنني كنت جالساً في الكاتدرائية الوطنية في واشنطن أثناء الصلاة لراحة نفس القتلى يوم الجمعة وذلك بعد ثلاثة أيام على وقوع الهجمات. كانت الملاحظات التي أطلقها الرئيس عاطفية ومطمئنة. فقد أشاد بكرم عمال الإنقاذ، ولطفهم، وشجاعتهم الذي «فاق كل التوقعات»، كما أشاد بالمتبرعين بالدم، وبالألاف الآخرين الذين بذلوا الجهد وقدموا ما استطاعوه من المساعدة. ركز على الشخصية الأمريكية التي اكتشفت ذاتها عبر «أفعال سامية من التضحية». تحدث بوش بعدها عن شعورنا بالوحدة الوطنية:

أظهر الأمريكيون عبر هذه الأفعال، كما في العديد من الأمثلة الأخرى المشابهة، التزاماً عميقاً ببعضهم بعضاً، ومحبة كبيرة لبلادنا. نشعر اليوم بما سماه فرانكلين روزفلت الشجاعة الحميمة المنبثقة من الوحدة الوطنية. إنها وحدة بين المعتقدات كافة، ومختلف الخلفيات.

فقد وُحِّدَت الأحزاب السياسية في مجلسي الكونغرس. وتتجلى الآن في الصلوات والشموع المضاءة، والأعلام الأمريكية التي ترفع بكل فخر، وبنفس من التحدي.

إن وحدتنا هي قرابة نشعر بها في أوقات الحزن، وتتمثل في تصميمنا العنيد على الانتصار على أعدائنا. وهذه الوحدة ضد الإرهاب تمتد إلى أرجاء العالم كافة.

عصر ذلك اليوم في مدينة نيويورك، كان الرئيس يمسك بقرن الثور وهو يقف إلى جانب رجل الإطفاء النيويوركي بوب بيكويت، موجهاً حديثه إلى جموع من عمال الإنقاذ الذين لم يكلوا أو يملوا من العمل في النقطة صفر من مكان وقوع الحادث. عندما صاح أحدهم أنه لا يستطيع سماع الرئيس، أجاب بوش في واحدة من أكثر لحظات رئاسته تميزاً ولفتاً للنظر: «ولكن أنا أسمعك. كل العالم يسمعك. والأشخاص الذين حطموا هذا المكان سوف يسمعون منا جميعاً في القريب العاجل».

في العشرين من شهر أيلول، سبتمبر، أذكر جيداً أنني كنت أشاهد التاريخ على بعد أمتار قليلة من المنصة التي كان الرئيس يخاطب من عليها جلسة مشتركة لمجلسي النواب والشيوخ. حذر في ذلك الخطاب نظام طالبان في أفغانستان، وأوضح أننا سنلاحق من

دون هودة الشبكة الإرهابية المتمثلة بالقاعدة إلى أن تفككها ونهزمها، كما أعلن عن إنشاء مكتب للأمن الداخلي تابع للبيت الأبيض برئاسة حاكم فيرجينيا توم ريدج. ذكر بوش أن الحملة ضد الإرهابيين ستكون طويلة، وسوف يتم خوضها على عدة جبهات - الاستخباراتية، والدبلوماسية، والعسكرية، والمالية، وعبر فرض القانون. وستتضمن بعض هذه الأفعال تحركات عسكرية مثيرة و(دراماتيكية) واضحة، بينما ستتضمن بعضها الآخر أعمالاً سرية غير مرئية. أوضح بوش أن «على كل أمة في كل بقعة من العالم أن تتخذ قرارها. إما أنتم معنا، أو مع الإرهابيين. اعتباراً من هذا اليوم، أي بلد يستمر في إيواء الإرهابيين أو يقدم لهم الدعم سوف تعدّه الولايات المتحدة نظاماً معادياً لها».

كما أعطى أوامره إلى القوات المسلحة بأن تكون على أهبة الاستعداد. بعد مرور أسبوعين على ذلك، أخطرتنا الوحدات العسكرية التي طلب إليها الاستعداد للقتال في أفغانستان، بأنها جاهزة للقيام بالمهمة. بادرت وحدتنا العسكرية بالهجوم على أفغانستان بمساعدة من بريطانيا العظمى، وبدعم من تحالف دولي عريض وصل إلى أكثر من تسعين دولة.

اتخذت الإدارة إجراءات أيضاً داخل الولايات المتحدة. ففي أعقاب الهجمات مباشرة، لم تكن هناك أولويات أكثر أهمية من جهود الاستجابة للحدث والتعافي من تأثيراته، ومساعدة نيويورك على إعادة بناء نفسها. كانت سلامة الطيران المدني لها أولوية قصوى، فاتخذت عدداً من الخطوات بدءاً من تفحص المسافرين، بما في ذلك الاتفاقية النهائية بشأن اتخاذ إجراءات ذات طابع فيدرالي تتعلق بعرض المسافرين على الشاشات بإشراف إدارة سلامة النقل الجديدة. تحرك الكونغرس أيضاً بعد عدة أسابيع لإقرار القانون الوطني، مقدماً بذلك دعماً قانونياً لاستنباط عدد من الوسائل الجديدة لمكافحة الإرهاب: تحول بعضها فيما بعد إلى قوانين مثيرة للجدل، عندما أثارت تساؤلات حول الخرق المحتمل للحريات المدنية. وقد أزيلت الجدران التي كانت تمنع مكتب التحقيقات الفيدرالي، ووكالة المخابرات المركزية من المشاركة في المعلومات الاستخباراتية، وجرى اتخاذ بعض الخطوات لتقوية أجهزة المخابرات وتجميعها والمشاركة فيما بينها. كان أكثر ما يلفت النظر حينها هو تقليص عدد من كان يسمح لهم بدخول الولايات المتحدة.

وجهت هجمات الحادي عشر من أيلول ضربة موجعة للاقتصاد الذي كان يشهد تراجعاً بالأساس، وبدأ يدخل، كما كنا سنعلم لاحقاً، في حال من الركود منذ شهر آذار، مارس (استناداً إلى المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية، وهو الحَكَمُ الرسمي في دوائر الأعمال). كانت المساعدة ضرورية من أجل استقرار صناعة الطائرات مالياً. قمنا في الكونغرس بالدفع باتجاه رزمة حوافز اقتصادية لمساعدة العمال الذين فقدوا وظائفهم، وتسريع تنفيذ قانون خفض الضرائب الذي سبق أن أُقرَّ في بداية السنة، وأشاع جواً من الارتياح بين الأمريكيين من أصحاب الدخل المتوسط، والمحدود. إلا أنه بينما وافق مجلس النواب على تمرير الرزمة بسرعة، فإن مجلس الشيوخ الذي كان يسيطر عليه الديمقراطيون رفض منح الموافقة. ولم يكن من الممكن تمرير نسخة مخففة من رزمة الحوافز هذه في الكونغرس إلا في السنة اللاحقة.

بالعودة إلى المرحلة التي أعقبت أحداث الحادي عشر من أيلول، هناك حادثة كان لها في رأيي تأثير هائل على الرئيس بوش، واستحوذت على تفكيره؛ ويبدو أن الكثير من الناس قد نسوا الموضوع برمته - وأعني بها الهجمات بالجمرة الخبيثة

أكثر ما كان يثير القلق في داخل البيت الأبيض والدوائر الاستخباراتية في الأيام والأسابيع التي أعقبت هجمات الحادي عشر من أيلول، هو احتمال وقوع موجة جديدة من الهجمات، فقد ازدادت حدة هذا القلق عندما تناهى إلى سمع البيت الأبيض صباح الرابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، أن شخصاً من فلوريدا يعاني من استنشاق جرعة مميتة من الجمرة الخبيثة.

يومها، كانت هناك إشارات تلمح إلى أن الحادثة يمكن أن تكون معزولة، وليست نتاجاً لعمل إرهابي. إلا أن مراكز مراقبة انتشار الأوبئة ومكتب التحقيقات الفيدرالي بدأ التحقيق بشأن هذا الموضوع بسرعة. في اليوم الثاني، توفي بوب ستيفنز، ضحية حادثة الجمرة الخبيثة في فلوريدا. كانت هناك آثار للجمرة الخبيثة في المبنى الذي يقع فيه مكتبه في مدينة بوكا راتون في اليوم السابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، وهو ما دفع المسؤولين إلى إخلائه، والبدا في فحص العاملين في ذلك المبنى. (في وقت أبكر

من ذلك اليوم، أعلن الرئيس في خطاب موجه إلى الأمة بدء عملية الحرية الثابتة، وهي التسمية التي أطلقت على الحملة العسكرية لإزاحة حكم طالبان من السلطة، وجلب إرهابيي القاعدة في أفغانستان إلى العدالة. (ولم يتم التأكد من مصدر الجمرة الخبيثة التي أدت إلى وفاة بوب ستيفنز.

كانت إحدى المهمات الموكلة إليّ في البيت الأبيض بعد هجمات الحادي عشر من أيلول، المساعدة في إبقاء آري فليشر محاطاً بأخر المستجدات حول هذا التهديد الإرهابي المحتمل بشن حرب جرثومية. بقيت على اتصال مع نظرائي في وزارة الصحة والخدمات الإنسانية؛ وبدأت العمل مع ليزا غوردون- هاغرتي، وهي موظفة حكومية في غاية الذكاء، وتعمل من دون كلل أو ملل في وحدة مقاومة الإرهاب في مجلس الأمن القومي برئاسة ريتشارد كلارك. كانت ليزا ضابط الارتباط مع مجلس الأمن القومي حول موضوع الهجمات بالجمرة الخبيثة.

بعد وفاة ستيفنز بعدة أيام، بدأت الرسائل الملوثة بالجمرة الخبيثة تظهر في كل من واشنطن ونيويورك؛ بما في ذلك رسالة أرسلت إلى مكاتب شبكة NBC الإخبارية، وأخرى إلى مكتب توم داشل، رئيس الأغلبية في مجلس الشيوخ. كانت الرسالة الموجهة إلى داشل تحتوي على كمية من البكتيريا القاتلة، وأدى ذلك إلى ازدياد المخاوف في واشنطن، وغيرها من المناطق.

بدأت تقارير تطفو على السطح، وتنتشر في كل مكان، من أن مسحوقاً أبيض كانت الناس تخشى أن يكون بودة الجمرة الخبيثة، أخذ في الانتشار. تبين بعد ذلك أن أغلب هذه التقارير كانت إنذارات كاذبة. لكن الخطر المحدق بالبلاد كان حقيقياً، ولم يمض وقت طويل قبل أن تبدأ الصحافة بالتساؤل عما إذا كان من الممكن أن تكون مصادر الجمرة الخبيثة إحدى الحكومات الأجنبية. لم تكن التقارير التي ترد إلينا بشكل سري حينها تشير إلى تورط أي جهة أجنبية من وراء البحار. ولكن بينما كان كل من آري، والمستشار الجديد لشؤون الأمن الوطني توم ريدج يدليان بتصريحاتهما الأولى حول الموضوع، لم يكن بالإمكان نفي أي احتمال بشكل نهائي.

بقيت قضية الجمرة الخبيثة مصدراً لقلق متزايد. بدأنا نتساءل متى يمكن لهذه الموجة أن تتوقف. فقد توفي كل من توماس موريس جونيور وجوزيف كيرسين، العاملان في مكتب البريد في منطقة تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة واشنطن في وقت لاحق من شهر أكتوبر بعد استنشاقهما للجمرّة الخبيثة. كما تبين فيما بعد أن مكتب البريد التابع للبيت الأبيض ملوث هو الآخر بآثار الجمرّة الخبيثة. أذكر جيداً أن كل البريد الوارد إلى البيت الأبيض ولشهور عدة بعدها، كان يتأخر بسبب فحصه والتحقق من نسبة الإشعاعات فيه.

في وسط التقارير التي كانت ترد إلينا، ومعظمها كان كاذباً، تلقيت اتصالاً هاتفياً نحو الساعة التاسعة من مساء يوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الأول، أكتوبر من بيل بيرس، وهو مسؤول في وزارة الصحة والخدمات الإنسانية، وكان مسؤول العلاقات العامة أيضاً، يحذرني من احتمال وجود حالة من الحمى الصفراء في مدينة أورلاندو، بولاية فلوريدا. فقد دخل رجل إلى مستشفى محلي وقد تم الحجز عليه احتياطياً للاشتباه بأنه يعاني من أعراض هذا المرض القاتل. كان بإمكاننا فقط تصور مدى الرعب الذي سيتسبب به لو أن هذه الأعراض كانت صحيحة.

أعلمت أري بالقصة، وانتظرت بقلق لأسمع معلومات إضافية من بيل بيرس حول الموضوع. حصلت عليها في وقت لاحق من تلك الليلة. كانت إنذاراً كاذباً آخر. فالرجل لم يكن يعاني من أعراض الحمى الصفراء بل من مرض الزهري. سألت بيل: «مرض الزهري؟ كيف يمكن لهم أن يخلطوا بين الحمى الصفراء والزهري؟» لم يحتر بيل جواباً، ولكن انتابنا شعور بالارتياح.

صعدت إلى مكتب أري مباشرة بعد إنهاء المكالمة، وقلت له: «حسنٌ. لدي أخبار طيبة: فالرجل في فلوريدا لا يعاني من الحمى الصفراء، لكن هناك أنباء سيئة بالنسبة له - فهو يعاني من مرض الزهري.

وكما ذكر أري فيما بعد في مذكراته بعنوان «الاكتواء: Taking heat» فقد أجاب بصيحة ملؤها الفرح: «نعم! إنه مرض الزهري! هو مصاب بمرض الزهري». ذهبنا جميعاً إلى بيوتنا، ونحن نشعر بشيء من الارتياح في تلك الليلة.

لكن مصدر الهجمات بالجمرة الخبيثة بقي غير مؤكد. تلقينا معلومات بعد يومين عن الجمرة الخبيثة التي وجدت في رسالة موجهة إلى داسل. كشف التحليل أنها من النوع نفسه الذي أرسل إلى الآخرين، ولكنها أكثر تطوراً. انهمك الآلاف من عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي في التحقيقات حول عمليات اختطاف الطائرات في الحادي عشر من أيلول، وحول الهجمات بالجمرة الخبيثة - متبعين لأي دليل، ومجررين مقابلات مع أصدقاء وجيران أولئك الذين تعرضوا للجمرة الخبيثة، محاولين التوصل إلى مصدرها.

أتذكر أيضاً الإحساس بالإحباط الذي عانى منه آري بسبب تقرير إخباري غير دقيق بثته شبكة أخبار ABC مساء السادس والعشرين من شهر تشرين الأول، أكتوبر، وهذه قصة أخرى نشرها في مذكراته التي أشرت إليها آنفاً. فطالما أن أحداً لا يستطيع نفي ضلوع أي مصدر بشكل رسمي، فإن وسائل الإعلام راحت تبحث في كل الاحتمالات. فقد ذكر برايان روس وهو صحفي مرموق في قسم التحقيقات التابع لشبكة أخبار ABC في مقدمة النشرة الإخبارية للشبكة المذكورة في تلك الليلة أنه علم من «ثلاثة مصادر وثيقة الاطلاع، ولكنها منفصلة» أن الاختبارات الأولى كشفت عن وجود مادة البينتونايت Bentonite الكيميائية المضافة إلى الجمرة الخبيثة، وأن الدولة الوحيدة المعروفة بأنها استخدمت هذه المادة لإنتاج الأسلحة البيولوجية هي العراق؛ وأضاف روس أن مادة البينتونايت هي «ماركة مسجلة باسم برنامج صدام حسين لإنتاج الأسلحة البيولوجية». أوضح بيتر جينينغز أن بعضهم قد يستنتج أن هذه مجرد «قنبلة دخانية» لربط الهجمات بالجمرة الخبيثة بالعراق.

ذكرت شبكة ABC أن آري «أنكر بأقوى العبارات» أن تلك المادة هي البينتونايت. لكن جينينغز تحدث أيضاً عن «الجدل المتفاقم بين أركان الإدارة حول ملاحقة صدام حسين».

تابع آري القصة من دون كلل أو ملل، و«استمر في التنقيب داخل شبكة ABC للتأكد من أن المسؤولين فيها سوف يقومون بتصحيح هذه القصة» بعد أيام من بثها لها. تراجعت شبكة ABC عن تقريرها السابق في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول، أكتوبر، قائلة «إن التحاليل الكيميائية اللاحقة» نفت وجود مادة البينتونايت في الجمرة الخبيثة

بالرغم من أنها كانت تحتوي على مادة السيليكا Silica التي لا تعد ماركة مسجلة باسم برنامج أي بلد بعينه». لكن الشبكة رفضت التراجع عن تقريرها السابق بشكل كامل، وهذا ما أصابنا جميعاً بالإحباط، وليس آري فقط: لأننا كنا حريصين على الحصول على معلومات دقيقة لتقديمها إلى الناس. ربما كانت تلك إشارة أولى واضحة من وسائل الإعلام الوطنية تقوم فيها بالتركيز على نزاع ضمني مع العراق على حساب الحقائق المهمة حول الضرورة الحقيقية التي تفرض قيام حرب.

مع حلول شهر تشرين الثاني، نوفمبر، تم تأكيد وقوع ست عشرة إصابة بالجمرة الخبيثة. فلقد توفيت امرأة من نيويورك، واسمها كاثرين غويان في نهاية شهر تشرين الأول، أكتوبر، جراء إصابتها بالجمرة الخبيثة. تأكد لمكتب التحقيق الفيدرالي أن المغلفات المرسلة إلى محطة NBC، والرسائل المرسلة إلى مكتب داشل، بالإضافة إلى تلك التي اكتشفت في فلوريدا مرسلة من علبة البريد نفسها في مدينة ترينتون في ولاية نيو جيرسي؛ وبدأ عملاؤه محاولة تعقب الشخص الذي من المحتمل أن يكون قد بعث بهذه الرسائل من علبة البريد تلك. لكن لم يكن من الممكن الجزم فيما إذا كان المصدر محلياً أو أجنبياً.

لم يوجه اتهام بالقتل بواسطة الجمرة الخبيثة إلى أحد حتى الآن بالرغم من أن العديد من المسؤولين عن تنفيذ القانون كانوا يعتقدون أن المصدر محلي. تم ذكر اسم أحد الأشخاص المشتبه بهم علناً: إلا أن اتهاماً لم يوجه له أبداً.

لا يجوز التقليل من تأثير الهجمات بالجمرة الخبيثة على سياسة صنع القرار داخل البيت الأبيض في عهد بوش. بعد حدوث تلك الهجمات مباشرة، قاد نائب الرئيس تشيني، ووزير الصحة والخدمات الإنسانية تومي ثومبسون الجهود من أجل إقرار قانون حول برنامج لقاح ضد الحمى الصفراء يطال جميع الأمريكيين على أمل التقليل من تأثير أي هجوم بالأسلحة البيولوجية يستخدم الحمى الصفراء. وبينما تم تلقيح معظم المستجيبين الأوائل، بالإضافة إلى العاملين في المستشفيات في نهاية المطاف - أي أولئك الذين يمكن أن يكونوا أول من يتعرض لخطر انتشار الحمى الصفراء - فإن الخطأ الأكثر طموحاً لم

تبصر النور أبداً. كما دفعنا باتجاه إقرار تمويل مشروع قانون يدعى مشروع الدرع الواقى من الأسلحة البيولوجية، والذي كان يهدف إلى تطوير لقاح. وتخزينه من أجل حماية الأمريكيين في حال حدوث هجمات بالأسلحة البيولوجية.

أعلم أن تفكير بوش قد تأثر كثيراً بهجمات الجمرة الخبيثة. كان مصمماً على منع قيام أي هجوم إرهابي آخر، وعلى تحدي أي نظام يعتقد أنه يسعى للحصول على أسلحة دمار شامل. وفي الوقت الذي ستكون خططه من أجل تحقيق هذه الأهداف موضع تساؤل، فإن قلقه بشأن هذه الموضوعات كان صادقاً.

في عطلة عيد الميلاد، وبعد انقضاء مدة قليلة على تراجع قصص الجمرة الخبيثة عن عناوين الصحف، سافرت إلى موطني الأصلي في أوستن لقضاء بعض الوقت مع عائلتي. أثناء ركوبي الطائرة، نظرت إلى المقعد الذي سأجلس فيه فوجدت ما بدا وكأنه آثار مسحوق أبيض على طرف المقعد. توقفت للحظة عابرة، وهزرت رأسي وخاطبت نفسي قائلاً: «لا بد أنك تمزح! فمن بين كل المقاعد على متن هذه الطائرة، لا أختار سوى هذا المقعد الذي توجد عليه آثار مسحوق أبيض». أخذت نفساً عميقاً، ونفضت هذا المسحوق على الأرض، ثم جلست في مقعدي يغمرني شعور بالسعادة كوني ذاهب للقاء عائلتي.

تساءلت فيما بعد عما قد كان من الممكن أن يحدث لو أن شخصاً آخر هو من اكتشف ذلك المسحوق. ربما كان موعد إقلاع الطائرة قد تأخر، أو ربما ألغيت الرحلة من أجل فحص هذا المسحوق، ورُكِّنت الطائرة جانباً. كانت لي نظرية شخصية حول مصدر هذا التلوث: إذ ربما كان هذا المسحوق من بقايا نوع من الفطائر المحلاة كان أحد المسافرين يتناوله في رحلة سابقة على متن هذه الطائرة - وهو نوع من الفطائر يكون مسحوق السكر فوقه.



كانت الوحدة التي شهدتها واشنطن في الأشهر القليلة التي أعقبت هجمات الحادي عشر من أيلول تغييراً رَحَبَ به الجميع. فقد كانت العواطف الجياشة التي وحدث الجميع شيئاً لم تألفه واشنطن منذ عقود. هل كان سينتهي المطاف بالسياسة كعقلية حربية، وبتجاوزات عصر الحملات الدائمة إلى إظهار تأثيرات جانبية إيجابية لهذه المأساة الوطنية غير المسبوقة؟

كلا، لم يكن هذا ليحدث. فالقوى التي حولت واشنطن على مدى عقود ثلاثة إلى سلسلة من الحروب الحزبية كانت أقوى بكثير. وكانت هذه القوى تعمل على جانبي خطوط التماس التي تفصل بين الحزبين.

بدأت أولى مظاهر التصدع في واجهة جدار هذه الكياسة تظهر مع بداية شهر كانون الثاني، يناير سنة 2002. فقد صرح كارل روف في اجتماع صحفي علني للجنة الوطنية التابعة للحزب الجمهوري في مدينة أوستن بولاية تكساس أن الحزب قرر أن يجعل من قيادة بوش للحرب ضد الإرهاب الموضوع الرئيس من أجل استعادة السيطرة على مجلسي النواب والشيوخ في الانتخابات النصفية القادمة.

كان روف أول مسؤول في الإدارة يجعل من موضوع الحرب شأنًا حزبيًا علنيًا، وكان هذا تحولاً لافتاً في نفمته عن التأكيد المستمر من قبل بوش على ضرورة قيام الوحدة الحزبية من أجل مواجهة الإرهاب الإسلامي المتطرف والحق الهزيمة به. قال روف: «بإمكاننا الخروج إلى الشعب الأمريكي بهذه القضية المتعلقة بكسب الحرب. بإمكاننا الخروج إلى البلاد حاملين لواء هذه القضية لأن الناس يثقون أن الحزب الجمهوري قادر على حماية القدرة العسكرية الأمريكية وتقويتها، وبالنتيجة حماية أمريكا».

في ذلك الوقت، أظهرت استطلاعات الرأي العام تقدم الحزب الجمهوري بفارق كبير (38 نقطة بحسب استطلاع غالوب)، باعتباره الحزب الأكثر وثوقاً بالنسبة إلى الأمريكيين في تعامله مع قضية الإرهاب، كما كان يتمتع بتفوق أكبر في القضايا المتعلقة بالسياسة الدفاعية. ولكن بينما كان كلا الحزبين يمكن أن يفيدا من هذه الميزة الكبيرة لتحقيق مكاسب سياسية في الانتخابات، فإن صراحة روف حول هذه الإستراتيجية أثارة حنق الديمقراطيين المشككين الذين أدانوا روف لمحاولته تسييس الحرب.

بدأ الرئيس بعد ذلك مباشرة بشن حملة علنية جديدة لصالح مرشحي الحزب الجمهوري لانتخابات الكونغرس، حتى ضد الديمقراطيين القائمين على رأس عملهم، مذكراً بطريقته في إدارة الحرب، بالتعاون مع زعماء الحزب الجمهوري الآخرين. لقد حافظ على علاقات جيدة مع أعضاء الكونغرس في ولاية تكساس عندما كان حاكماً لها،

وذلك لأنه رفض أن يشن حملات انتخابية ضد أحد منهم، حتى لو كان ينتمي إلى الحزب المعارض. ولذلك فقد أدت أفعال بوش إلى إثارة القلق في صفوف الديمقراطيين.

انتهت في شهر أيار، مايو، الفترة القصيرة من السلم الحزبي الذي أسست له هجمات الحادي عشر من أيلول إلى الأبد.

انطلقت الجولة الجديدة من الحرب بين الحزبين بسبب كشف مرعب بثته شبكة أخبار CBS. ففي نشرتها الإخبارية المسائية في الخامس عشر من شهر أيار، مايو، سنة 2002 التي استندت فيه إلى معلومات تلقتها من مصدر لم تشأ الإفصاح عنه، نقلت هذه الشبكة بطريقة مثيرة أن الرئيس تلقى معلومات استخباراتية في شهر آب، أغسطس، سنة 2001 «نبهته بشكل لا يقبل التأويل إلى احتمال وقوع هجوم على الولايات المتحدة بواسطة طائرات مختطفة».

تابع مراسل هذه الشبكة ديفيد مارتن تقريره قائلاً: «إن المعلومات الاستخباراتية اليومية التي يتلقاها الرئيس ترد إليه كل صباح، وغالباً ما يعرضها عليه مدير وكالة المخابرات المركزية بنفسه، وقد حذرت هذه التقارير قبل أسابيع من وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول أن الهجمات التي سيشنها بن لادن قد تتضمن اختطاف طائرات أمريكية».

أثار هذا التقرير الكثير من الأسئلة. هل كان التقرير يلمح إلى أن الرئيس تلقى معلومات كان عليه أن يتصرف بموجبها؟ هل كانت تلك المعلومات مجرد علامة تحذير محتمل، مثل الكثير من المعلومات الأخرى التي لم يتم التحقق منها؟ أم هل كانت توحى بأشياء أخرى؛ فربما كانت معلومات استخباراتية غير محددة تعود إلى سنوات سابقة؟

لم تتم الإجابة على أي من تلك الأسئلة حينها، إلا أن ذلك لم يعنِ إلا القليل بالنسبة إلى زعماء الحزب الديمقراطي في الكونغرس. فقد رأوا في ذلك التقرير فرصة لمهاجمة القضية التي تذرع بها الرئيس - والمتمثلة في قيادته الحرب ضد الإرهاب - والحد من شعبيته المتنامية قبل خوض الانتخابات النصفية في شهر تشرين الثاني، نوفمبر الثاني.

في صباح اليوم الثاني لبث التقرير في شبكة CBS أعلن توم داشل رئيس الأغلبية في مجلس الشيوخ أنه «قلق جداً» مما سمعه من «أن الرئيس تلقى تحذيراً في شهر آب، أغسطس، من وجود تهديد بخطر طائرات» من قبل القاعدة. طلب تسليم نسخة من التقرير الاستخباراتي المقدم للرئيس إلى محققين من الكونغرس من دون أي تأخير.

أما ريتشارد غيبهارت، رئيس الأغلبية في مجلس النواب، وهو نائب ديمقراطي عن ولاية ميسوري فقد استحضر فضيحة ووترغيت قائلاً: «أعتقد أن ما يجب علينا الآن القيام به هو الاطلاع على المعلومات التي كانت بحوزة الرئيس والبيت الأبيض والمتعلقة بالأحداث التي أوصلت البلاد إلى الحادي عشر من أيلول، ومتى حصل عليها، وما الذي قاما به بشأن هذه المعلومات في حينه».

لكن أكثر من أثار حنق البيت الأبيض والجمهوريين كانت السيناتور هيلاري كلينتون، العضو في مجلس الشيوخ عن الحزب الديمقراطي.

وبينما أكدت السيناتور كلينتون إنها لا تحاول تصيد أحد بعينه في هذه المسألة؛ بل تحاول فقط، البحث عن أجوبة؛ فقد نهضت من مقعدها في المجلس لتعلن «أننا اطلعنا اليوم على شيء كنا يجب أن نطلع عليه منذ ثمانية أشهر على الأقل: أن الرئيس بوش أحيط علماً السنة الماضية قبل وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول باحتمال وجود مؤامرة من القاعدة لخطر طائرة مدنية أمريكية». وأتت هذا الإعلان برفع نسخة من الصفحة الأولى لإحدى الصحف الشعبية وهي صحيفة نيويورك بوست، وكانت تحمل العنوان المثير الآتي: «بوش كان يعرف» وتحت هذا العنوان المثير كان هناك عنوان فرعي أقل إثارة: «قتلة الحادي عشر من أيلول».

سألت كلينتون: «ماذا كان يعرف الرئيس؟»

كان ذلك التلميح واضحاً: أن الرئيس توفرت لديه معلومات كان من الممكن أن يستخدمها لمنع وقوع الهجمات في الحادي عشر من أيلول، ومع ذلك، فهو لم يفعل شيئاً.

شعرت أنا وزملائي في البيت الأبيض بحلق شديد. فقد بدا ذلك الهجوم المدوي على الرئيس بمثابة إيدان باستئناف للحرب البشعة بين الحزبين، والتي حددت معالم واشنطن وثقافتها السائدة في عقد التسعينات من القرن العشرين. فالسياسة كحرب، والتلميح إلى العودة إلى سياسة الفضائح، والإشارة الفظيعة إلى احتمال أن يكون الرئيس قد تعمد إهمال واجبه تجاه سلامة الأمة - كان يراد لها أن تصب في صالح نتائج انتخابات تشرين الثاني، نوفمبر، القادمة.

جميع العناصر المعهودة للبدء في شن هذه الحرب الحزبية كانت متوافرة. فالقصة المتداولة، والانتهاكات الحزبية التي تلت تلك القصة ساهمت في إذكاء اللفظ الذي قامت وسائل الإعلام بتغطيته. كان عنوان هذه القصة يتكرر على امتداد أيام عدة، وقد عاد هذا العنوان إلى الواجهة من جديد، حتى بعد انقضاء سنتين عليه، وذلك عندما أصبحت المعلومة ذات السرية العالية التي كان التقرير اليومي المقدم للرئيس يتضمنها في متناول يد الجمهور. وكذلك في متناول يد لجنة الحادي عشر من أيلول المكلفة بالتحقيق فيما حدث بالفعل.

في اليوم الثاني، تصدرت هذه القصة الصفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز:

بعد أشهر من الدعم اللا محدود للأسلوب الذي يتبعه الرئيس بوش في حربه ضد الإرهاب، فإن زعماء ديمقراطيين في الكونغرس غيروا مسارهم اليوم وطالبوا بالكشف الكامل عن كل ما أحيط به السيد بوش في الصيف الماضي من معلومات حول خطر قيام الإرهابيين بختطف طائرات. كما دعوا إلى إجراء تحقيق علني شامل حول ما كانت الحكومة على اطلاع عليه قبل الحادي عشر من أيلول. ... لأول مرة منذ الحادي عشر من أيلول، تحولت الوحدة بين الحزبين حول الطريقة التي أدار بها السيد بوش الحرب ضد الإرهاب، إلى أسئلة حادة، وإلى اتهامات، وإشارات بالبنان لتحديد المسؤوليات. ... وقال الديمقراطيون الذين كانوا مترددين حتى الآن في تناول سياسة السيد بوش بالانتقاد، إن من واجبهم الحصول على المعلومات المطلوبة.

بدت ملاحظات كلينتون بالنسبة للبيت الأبيض ومناصريه خطوة محسوبة للإمساك بخيوط الحبكة فيما يخص من يتحمل اللوم بشأن هجمات الحادي عشر من أيلول، ملقية باللوم على عتبة باب الشخص الذي يقبع حالياً في المكتب البيضاوي. هل كانت تحاول حماية إرث زوجها عبر نقل اللوم بسبب التفاضل عن التقارير الاستخباراتية حول بن لادن، من زوجها إلى خليفته؟ أشار البيت الأبيض إلى أن السيناتور هيلاري كلينتون لم تكلف نفسها عن الاتصال بأحد لتتأكد من الحقائق وراء عناوين تلك الصحف قبل إلقاء كلمتها.

بالنسبة لنا، كانت الطريقة الماكرة التي اتبعتها زعماء الحزب الديمقراطي لشيطنة الرئيس وإدارته قد تجاوزت الحدود. فقد اعترض الجمهوريون بشدة على ذلك، وبادروا إلى القيام بهجوم معاكس شرس بقيادة البيت الأبيض. على إثر ذلك، تراجع الزعماء أنفسهم من الحزب الديمقراطي عن تلميحاتهم الأولى وعن إلقاءاتهم اللوم جزافاً، خصوصاً عندما تكشف لهم أن تسرعهم في اختلاق قصة مستغلين فيها مأساة مروعة كالتى حدثت يمكن أن ترتد عليهم في أعين الناس. ولكن قبل أن يسحبوا اتهاماتهم، طغت تلك القصة على الأخبار الصادرة من واشنطن لعدة أيام، وبدأ بعضهم مثل السيناتور كلينتون محاولة التخفيف من لهيب وسائل الإعلام التي وجدت في تصريحاتها مادة جنونية، عبر خلق دعم لفكرة تشكيل لجنة مستقلة للتحقيق في هجمات الحادي عشر من أيلول. قاوم البيت الأبيض الفكرة في البداية، وكانت حجته أن لجان مجلسي النواب والشيوخ هي من يجب أن تتولى التحقيق المطلوب.

ردت الإدارة على ذلك الهجوم بالمثل. وصف نائب الرئيس تشيني اقتراحات الديمقراطيين بمحاولة «صب الزيت على النار». وأعلن الرئيس بوش أنه «لو كان لدينا أدنى شك على الإطلاق في أن الإرهابيين على وشك القيام بهجمات على بلادنا، لكنا بذلنا كل ما في وسعنا للدفاع عن أمريكا». وفي إشارة منه إلى التلاشي المتسارع لروح الوحدة الحزبية، أضاف قائلاً: «وأنا متأكد من أن الرئيس كلينتون كان سيقوم بنفس ما قمنا به. أي رئيس آخر كان سيفعل الشيء نفسه».

هل يجب إلقاء اللوم على جهة ما، في هذا المقام؟ ربما. من السذاجة أن لا يتصور المرء أن الديمقراطيين كانوا يحاولون عبر ذلك تحقيق مكاسب انتخابية وذلك قبل أشهر قليلة على موعد الانتخابات النصفية للكونغرس. ولكن سيكون من الخطأ الافتراض بأن اتهاماتهم التي فاقت الحدود، وإشاراتهم ذات الدوافع الحزبية لم يكن لها ما يسوغها وأن الديمقراطيين وحدهم كانوا مسؤولين عن انهيار التعاون الحزبي في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول. فقد كان الديمقراطيون يردون، ولو بشكل جزئي، على محاولات الجمهوريين جني مكاسب سياسية من الجهود التي يبذلها الرئيس لشن الحرب على الإرهابيين.

لو كان الحذاء في القدم الأخرى - أي لو كان الرئيس ينتمي إلى الحزب الديمقراطي أثناء وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول - هل كان الجمهوريون سيتخذون الموقف نفسه الناري منه؟ ربما. فاتهمات الجمهوريين للرئيس كلينتون بأنه كان «يهز ذيل الكلب» سنة 1998 عبر شن هجمات جوية على العراق لحرف الأنظار عن فضيحة مونیکا لوينسكي، كانت لها الدوافع الحزبية نفسها. فالمشكلة في واشنطن متأصلة، وتتجاوز الأخطاء الشخصية التي يرتكبها أي شخص يعمل في السياسة.

في الحقيقة، كان لا بد لروح الوحدة بين الحزبين من الانهيار بسبب أن الشكوك وانعدام الثقة بين الحزبين وقادتهما في واشنطن أصبحت متجذرة في عمق المناخ التدميري الذي ساد في العقد السابق. ويبقى أن إلقاء اللوم على حزب بعينه، أو التلميح إلى أن زعماء أو أشخاصاً بعينهم هم فقط المسؤولون عن هذا الانقسام، يجعل الأمور تزداد سوءاً، ويدفعنا إلى تجاهل الأسباب الحقيقية التي أوصلتنا إلى هذا المستوى في خطابنا السياسي على المستوى الوطني.



أصبح الوصول إلى الحقيقة بعيداً عن هذا القنص الحزبي الذي لا نهاية له يزداد صعوبة بالنسبة للأمريكيين العاديين. فالحزبيون في واشنطن من الطرفين أصبحوا أكثر دهاء في استعمال الوسائل التي يغيبون فيها الحقيقة عبر خلطها بالحقائق الجزئية،

واللف والدوران السياسي، والتضليل، وتزييف الحقائق، وغياب أي شكل من أشكال الصدق الفكري. كما أن وسائل الإعلام أيضاً تركز على الفائزين والخاسرين في آخر المناوشات في الحملات والحملات المضادة بدلاً من قيامها بالتركيز على القضايا الجوهرية، وتأثيرها على حياة المواطنين الأمريكيين.

لكن الإمساك بالأسباب التي أدت إلى الانقسام في واشنطن، وإلى تسيد روح الحرب الحزبية وثقافة الخداع التي تنتجها ليس بالمهمة الصعبة. ففي اللحظة التي يتبين للناس أن المشكلة في واشنطن لا تكمن في أحد الحزبين أو في قادتهما، بل في ما يعاني منه الحزبان وقادتهما؛ عندها نستطيع البدء في عملية التحرك إلى ما وراء هذه المشكلة، ونضع من جديد واشنطن على الطريق الصحيح من أجل مواجهة أكبر تحدٍ تواجهه الأمة - ولتجنب بعض أكثر العواقب سوءاً؛ وهي العواقب الناجمة عن العداوات السياسية والحرب الكلامية في أيامنا هذه.

يلقي بعض المراقبين السياسيين - وخصوصاً الديمقراطيين - اللوم على كارل روف بسبب الكثير من التجاوزات التي طبعت حقبة الحملات الدائمة. فكارل ممارس قوي وموهوب للحروب السياسية المعاصرة. لكن كارل روف ليس هو المشكلة. فلم يكن كارل روف هو من أسس لهذه التجاوزات التي تمارس في الحملات الدائمة. كل ما عليكم القيام به هو العودة إلى الوراء، والتمعن في طبيعة الحملات التي كان يديرها أشخاص أمثال لي أتواتر وجيمس كارفيل، ومن تسيدوا هذا النوع من الحملات السياسية سابقاً لتروا كيف كانت الأمور تجري حينها. أستطيع القول إن التجاوزات التي مورست في الحملات الدائمة هي التي أدت إلى ظهور أشخاص مثل كارل روف.

ولكن لم يحظ مساعد سياسي بهذا القدر من التأثير داخل البيت الأبيض مثلما حظي به روف. فبحكم موقعه مستشاراً كبيراً يشرف على الشؤون السياسية والإستراتيجية، كان روف يسيطر على مركز السلطة ذي النفوذ الأقوى في البيت الأبيض. كانت هناك مراكز سلطة أخرى ذات نفوذ، لكن أيّاً منها لم يكن له مستوى النفوذ نفسه على طريقة الحكم في البيت الأبيض، وتقرير شكل سياسته، وعملياته مثل ما كان لروف. وبعبارة

كارن هيوز التي كان هدفها يتركز على مساعدة الرئيس في صياغة رسالته بطريقة تحظى بقبول الأمريكيين العاديين، وخصوصاً المتوضعين منهم في وسط الطيف السياسي، وبعكس آندي كارد رئيس أركان البيت الأبيض الذي كان وسيطاً نزيهاً بين وجهات النظر السياسية المتباينة، فقد كان كارل روف لاعباً مركزياً لا يمكن وصفه بالحيادي فيما يتعلق بأرائه السياسية أو العقائدية.

بكل بساطة ووضوح، كان دور روف ينحصر في مجال المناورات السياسية؛ وهو ما يفسر المكائد التي كانت تحاك داخل البيت الأبيض ونتائجها، سواء كانت هذه النتائج مفيدة أم ضارة.

أما فيما يتعلق بالحقيقة وراء شعار «بوش كان يعرف»، فإن كشف حقيقة ما جرى في الأشهر التي سبقت وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول، سيستغرق بدوره أشهراً عديدة. فقد تم الكشف سنة 2004 أن تصريحات الرئيس اليومية كانت تستند إلى التقارير الاستخباراتية نفسها التي كان الرئيس كلينتون يتلقاها في التسعينات. لسوء الطالع، أدت ردة الفعل الأولية الصادرة عن البيت الأبيض في عهد بوش على المطالب التي طرحها منتقدوه الحزبيين في الكونغرس وأماكن أخرى، والمتعلقة بتشكيل لجنة مستقلة، إلى عاصفة ملتهبة من الغضب. كانت تلك إشارة أولى إلى أن إدارة بوش لم تتقبل بشكل كافٍ فكرة الحاجة إلى ممارسة الشفافية في إدارة القضايا العامة.

لم يكن الرئيس بوش وكبار مستشاريه متحمسين يوماً لتحقيقات تقوم بها جهات محايدة. كانوا مقاومين للانفتاح، وكانوا يؤمنون أن التحقيقات تعني المراقبة اللصيقة لأمر يفضلون أن تبقى بعيدة عن الأعين. وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن ما قاموا به كان بالضرورة تجاوزاً للقوانين؛ بل يعني أن بعض ما قاموا به بشكل سري قد لا يبدو جيداً لو اطلع عليه الرأي العام، وقد يشكل إحراجاً للرئيس.

لم تكن سياسة الستائر المغلقة، أو الأبواب المقفلة أبداً سياسة جيدة في مجال العمل الحكومي، إلا إذا كانت تتعلق بقضايا جوهرية تمس الأمن القومي. فالسرية تشجع الناس

على القيام بأفعال لا يتمنون أن يطلع عليها الآخرون. فالانفتاح مسألة جوهرية بالنسبة إلى موضوع المحاسبة.

لم تخضع إدارة بوش إلى مبدأ المحاسبة الحقيقية، ويعود ذلك بشكل رئيس إلى أن بوش نفسه لم يمارس الانفتاح، أو العمل الحكومي في وضع النهار. فقد بدأ إيمانه بضرورة ممارسة السرية والعمل خلف الأبواب المغلقة يترجم إلى ممارسة فعلية منذ أن بدأ اللفظ يطفو على السطح. لكن السرية انتهت إلى تأجيل عواقب ممارستها، وليس إلى وضع حد لها. فمقاومة الانفتاح في زمن يسوده اللفظ يؤدي إلى هزيمة للذات في عصر الإنترنت، والفضاءات المفتوحة، وعمليات التمحيص الشديدة التي تقوم بها وسائل الإعلام.

عرف أندي كارد عبر خبرته في العمل لدى إدارتين سابقتين أن التحقيقات لا بد أن تجرف في طريقها ضحايا من بين العاملين في تلك الإدارات. كان مبدأ المراقبة مطلباً دائماً للبيت الأبيض، فكلما كانت هناك مراقبة أكثر، كان ذلك أفضل. ولكن لو أخذنا الطبيعة الحزبية لواشنطن بعين الاعتبار، فسنجد أنه حالما تخرج قصة ما، إلى العلن؛ فإن من الصعوبة بمكان، إعادتها إلى المكان الذي انطلقت منه. وبالرغم من أن البيت الأبيض في عهد بوش لم تكن لديه الرغبة يوماً في أن يقود حملة هدفها البحث عن الحقيقة، بشكل لا لبس فيه. فقد وصلت تلك الإدارة إلى الاقتناع بأن تحقيقاً حول الأحداث التي أدت إلى وقوع المأساة الناجمة عن هجمات الحادي عشر من أيلول هو أمر لا بد منه. وهكذا تمت ولادة لجنة التحقيق في أسباب وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة 2002؛ وكانت هذه اللجنة ترجمة لجهد حزبي مشترك يتجاوز الحروب السياسية، ويتطلع إلى كشف الحقيقة.

8

الترويج للحرب

يوم الاثنين الواقع في السادس عشر من أيلول، سبتمبر، كنت برفقة الرئيس في رحلة لمدة يوم واحد إلى مدينة دافينبورت، في ولاية أيوا. كان يخطط لإلقاء كلمة يحث فيها مجلس الشيوخ للموافقة على الميزانية التي تتضمن تمويلاً كاملاً للأولويات المهمة في الوقت الذي تقلصت النفقات المالية في مجالات أخرى. كنت بصفتي نائباً للسكرتير الصحفي أحل محل أري فليشر الذي قرر أن يأخذ استراحة من العرض الرئاسي المسافر برأ.

وبينما كانت «رسالة اليوم» التي تلاها تتركز حول ضبط النفقات المالية، فقد استمر الرئيس في الحديث عن العراق مردداً ما قاله من قبل في خطابه الموجه إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك منذ أيام مضت. كان خطابه في الأمم المتحدة مؤشراً على بداية جهد تبذله الإدارة بعناية وتخطيط دقيقين في حملة تصعيد تهدف إلى كسب الرأي العام في مواجهة عسكرية محتملة. عرض الرئيس الخطوط العريضة للقضية التي أثارها ضد نظام صدام حسين - قمعه الوحشي لأبناء شعبه، تجاهله الخادع والمدير لقرارات مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة المطالبة بإزالة الأسلحة البيولوجية والكيميائية لديه، واهتمامه بتطوير أسلحة نووية، ودعمه للإرهاب. أكد بوش أن هذه الأفعال جعلت من نظام صدام حسين «خطراً جدياً ومتزايداً» لا يمكن تجاهله بعد الآن في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول. ثم أوضح بشكل لا يقبل التأويل نواياه المتأصلة في سياسة سبق له أن حدد ملامحها قبل أشهر عدة:

سوف تعمل بلادي بالتعاون مع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لمواجهة هذا التحدي المشترك. إذا أظهر النظام العراقي تحدياً لنا مرة أخرى، فسوف يتحرك العالم بثبات وبشكل حاسم لمحاسبة العراق على أفعاله. سوف نعمل بالتعاون مع مجلس الأمن

من أجل إصدار القرارات الضرورية. ولكن لا يجوز أن يساور أحد الشك بنوايا الولايات المتحدة. سوف يتم تطبيق قرارات مجلس الأمن - والافسوف تتخذ إجراءات لا يمكن تجنب عواقبها. والنظام الذي فقد شرعيته سوف يفقد سلطته.

في هذا البيت الأبيض الذي كان يتباهى أن أهم رسالة له هي الانضباط، أسهم خطاب بوش في التأسيس لنقاش يدور حول «تعريف الأمريكيين بالأخطار المحدقة بهم» (كما وصفنا حملتنا التي روجت للحرب). استخدم الرئيس بوش وفريقه في مجلس الأمن القومي، بالإضافة إلى كبار مستشاريه منبر الأمم المتحدة لإبراز خطورة هذا التهديد، وضرورة مجابته. ربما كانوا يعلمون أن الضغط الدولي لن ينجح في أن يفرض على صدام حسين أن يظهر براءته من هذه التهم باختياره، وهو ما دعا تشيتي إلى الاعتقاد بأن طريق الأمم المتحدة غير مجدٍ. المرة الوحيدة التي التزم بها صدام كانت إثر الهزيمة العسكرية المدوية التي مني بها في حرب الخليج سنة 1991. لكن الغالبية رأت أن من الضروري إقناع الناس أن الجهود الدبلوماسية قد استنفذت قبل شن الحرب. من هنا أتى الإنذار الذي وجهه بوش - إما أن تتصرف الأمم المتحدة من دون أي تسويق، ومن دون تسامح مع أي خدع جديدة من قبل النظام العراقي، أو أن الولايات المتحدة سوف تقود حملة عسكرية بالطريقة التي يفهمها.

كان مناخ الرأي العام ميالاً إلى موقف البيت الأبيض، طالما أن هجمات الحادي عشر من أيلول بقيت حية في ذاكرة الأمريكيين. قبل أسبوع من ذلك الخطاب، وفي خطاب ألقاه في جزيرة إيليس، احتفل الرئيس بالذكرى الأولى لهجمات الحادي عشر من أيلول بطريقة استعراضية رائعة حيث كان تمثال الحرية إلى أحد جانبيه، وكان العلم الأمريكي يرفرف إلى الجانب الآخر. تحدث الرئيس عن الاستجابة إلى نداء التاريخ الذي يدعو إلى نشر الحرية، ولمح إلى موضوع العراق قائلاً: «لن نسمح لأي إرهابي أو طاغية بتهديد الحضارة بأسلحة الدمار الشامل. الآن أو في المستقبل، سيعيش الأمريكيون أحراراً من دون خوف، ولن يكونوا أبداً تحت رحمة أي مؤامرة أو أي سلطة». بطبيعة الحال، لم يكن كل الأمريكيين يدعمون فكرة المواجهة مع العراق. ارتفعت نسبة مؤيدي إسقاط صدام

حسين بالوسائل العسكرية إلى مستوى 74 بالمائة سنة 2001. ولكن مع نهاية صيف 2002، وبالتزامن مع القلق الذي عبر عنه حلفاء الولايات المتحدة، والمحللون العسكريون بشأن كلفة الفوز من ناحية القوة العسكرية والأموال، فقد انخفض هذا الدعم إلى مستوى أغلبية طفيفة استناداً إلى استطلاع غالوب الذي مولته صحيفة «يو. إس. إي تودي». ولكن ثمانية من بين كل عشرة أمريكيين كانوا يعتقدون أن نظام صدام حسين كان يدعم المنظمات الإرهابية التي تخطط لمهاجمة أمريكا، وكان تسعة من أصل عشرة من الأمريكيين يعتقدون أنه يمتلك أسلحة دمار شامل، أو أنه يعمل على تطويرها، كما كانت الأغلبية من المستطلعة آراؤهم يعتقدون - خطأً - أن صدام حسين متورط في هجمات الحادي عشر من أيلول.

وفرت العناصر الأخرى في المعادلة السياسية أيضاً قوة أكبر في يد الرئيس. فقد انخفض معدل التأييد الشعبي الذي يحظى به الرئيس من النسبة التي لم يسبق لها مثيل والتي بلغت 90 بالمائة بعد هجمات الحادي عشر من أيلول مباشرة، ولكن تلك النسبة كانت ما تزال مرتفعة، حيث راوحت في منتصف الستينيات. كانت آلة الحملة التابعة لبوش تتكون من فريق من المستشارين في شؤون الأمن القومي المؤهلين تأهيلاً عالياً، وكان أهم هؤلاء تشيني، وباول، ورمسفيلد، ورايس؛ ولحظ جميع هؤلاء أن مواقعهم قد تعززت بفضل النجاح الأولي السريع الذي تحقق في أفغانستان.

الأكثر من ذلك، ونظراً لأن انتخابات الكونغرس النصفية كانت على بعد شهرين فقط، فقد تعرض أعضاء الكونغرس، وخصوصاً أولئك الذين يمثلون دوائر انتخابية معتدلة أو ميالة قليلاً إلى المحافظين، لضغوط شديدة بسبب وقوفهم في وجه فريق الرئيس المتشدد خصوصاً في مرحلة ما بعد هجمات الحادي عشر من أيلول. وبالنسبة إلى بعض الديمقراطيين على الأقل، بمن فيهم أولئك الذين لديهم طموحات مستقبلية في الترشح للرئاسة، كان الوقوف ضد جهود البيت الأبيض والرئيس بوش لمواجهة صدام حسين يمثل خطراً أكبر بكثير على مستقبلهم السياسي من خطر مسيرته في مقاربة هذا الموضوع؛

خصوصاً في بيئة يدعم فيها الأمريكيون القلقون من احتمال حصول هجمات جديدة، مقارنة أكثر تشدداً بالنسبة إلى الموضوعات المتعلقة بالأمن القومي.

وهكذا كانت الرياح تجري بما تتهيئ سفن بوش وفريقه الذي بدأ بشن حملته لإقناع الأمريكيين أن الحرب على العراق مسألة حتمية وضرورية. كانت اللمسات الأخيرة لهذا المخطط قد تمت بعناية كبيرة خلال فصل الصيف؛ والآن، في أيلول سنة 2001، أضحي الوقت مناسباً لوضعه موضع التنفيذ. (وكما عبر عن ذلك أندي كارد في حديث أدلى به إلى صحيفة نيويورك تايمز، «من وجهة النظر الترويجية، فأنت لا تعرض بضاعتك في شهر آب، أغسطس».) ولكن في اليوم الذي بدأ الرئيس بوش رحلته إلى ولاية أيوا، كانت آلة إدارته المُشحمة بشكل جيد تتحرك بصوت مسموع.

نشرت صحيفة (وول ستريت جورنال) صباح ذلك اليوم، حديثاً لكبير مستشاري بوش الاقتصاديين لاري ليندسي يعرض فيه رأياً تحليلياً لكلفة الحرب المحتملة على العراق: ما بين مائة إلى مائتي بليون دولاراً. أضاف قائلاً إن هذه التكلفة لن يكون لها سوى تأثير طفيف على اقتصاد الولايات المتحدة طالما أنها لن تشكل سوى نسبة تتراوح بين 2 أو 3 بالمائة من الناتج الإجمالي الأمريكي المحلي.

اطلعت على الخبر بعد ولوجي إلى مكثبي مباشرة، بما أن هذه الصحيفة هي واحدة من الصحف التي طلب آري إليّ أن أطلع عليها كجزء من النظام الذي يؤسس له، والمتضمن التأكد من أن كل شخص في الفريق الصحفي قد قرأ واحدة من كبريات الصحف الوطنية مطلع كل صباح. كان هذا جزءاً من شبكة إنذار مبكر يساعد السكرتير الصحفي (أو نائبه) في معرفة القضايا التي عليه مناقشتها مع كبار الموظفين في الاجتماع الصباحي، بطريقة تجعله ملماً بكل الموضوعات خلال فترة اللقاء الصحفي.

كانت الأرقام التي ذكرها ليندسي مثيرة للدهشة. وهي مثيرة للسخرية نوعاً ما. بالعودة إلى تلك الأرقام من منظور أيامنا هذه، وبعد مرور خمس سنوات على بدء الحرب على العراق، فإن هذه الأرقام تبدو متدنية بشكل واضح (بالرغم من أن ليندسي افترض أن هذه الكلفة ستكون لحرب تمتد لفترة أقصر). ولكن في ذلك الحين، عندما توقع

العديد - خصوصاً من أركان الإدارة - حرباً سريعة وسهلة نسبياً، تعقبها مرحلة انتقالية سلسة نوعاً ما، تمويلها عائدات العراق من النفط بدرجة كبيرة، ربما كانوا تحت تأثير نوع من المخدرات.

لكن خطأ ليندسي الأكبر لم يكن في حجم الأرقام التي اختار أن يذكرها. كان مجرد ذكر أرقام يعد في حد ذاته خطأ كبيراً. فالحديث عن الكلفة المحتملة لحربٍ ما تزال في عهدة المستقبل لم يكن جزءاً من المخطط المرسوم للحرب، خصوصاً عندما كان البيت الأبيض في المراحل الأولى الحاسمة من بناء قاعدة عريضة من الدعم الشعبي لهذا المخطط. في الواقع، لم تكن أيٌّ من النتائج غير السارة لهذه الحرب - الخسائر البشرية، والآثار الاقتصادية، والمخاطر الجيوبوليتيكية، والارتدادات الدبلوماسية - جزءاً من هذه الرسالة. فقد كنا آنئذٍ في مرحلة التجيش لصالح الحملة. تماماً كما كنا عندما جال بوش في طول البلاد وعرضها وهو يقود حملة من أجل خفض الضرائب وإصلاح التعليم. كانت المرحلة الأولى تلك، تهدف إلى إقناع الرأي العام أن التهديد جدي، ويحتاج إلى مواجهة من دون أي تأخير. وهكذا فقد كانت الإشارة إلى أي كلف بشرية أو مالية محتملة، أو مناقشتها تصب في مصلحة منتقدينا، أو المعارضين للحرب.

خرق ليندسي القاعدة الأولى لرسالة البيت الأبيض في عهد بوش والتي تتضمن ضرورة الانضباط: لا تقم بأي تصريح إخباري من دون الحصول على إذن بذلك. أدى الخرق الذي قام به ليندسي إلى جعل فكرة الترويج للحرب أكثر صعوبة. وكون هذا الخرق أتى في اليوم نفسه الذي ركز فيه بوش على أهمية خفض النفقات المالية، فإنه قدم أيضاً للديمقراطيين حجة لاتهام رسالة الرئيس بالنفاق.

حالمًا قرأت الصحيفة، عرفت أن أحداً في البيت الأبيض لن يكون سعيداً، وأكثر من سيكون منزعجاً من هذه القصة هو الرئيس نفسه. قمت بلفت انتباه زملائي الآخرين في فريق والاتصالات، وتأكدت من أن كبار الموظفين الآخرين بمن فيهم أندي كارد قد اطلع على هذا الخبر أيضاً.

أكدت مجموعة الصحفيين على متن الطائرة الرئاسية المتجهة إلى ولاية أيوا أن التقديرات التي أعطاها لاري استحوذت على اهتمام كبير من قبل وسائل الإعلام. لم أبدِ أي اهتمام بالأسئلة المثارة حول هذا الموضوع. وعبرت عن ذلك بقولي إن من المبكر طرح توقعات حول طبيعة القرار الذي سيتخذه الرئيس. لكنني فهمت أن القصة يتم تداولها كخبر مهم في واشنطن. كنت أعرف أن الصحفيين يريدون معرفة ما يريد الرئيس قوله لو كان بإمكانهم ذلك. فكان لا بد لي من أقوم بلفت نظره إلى ذلك.

كان برنامج بوش قبل أن يدلي بخطابه في أيوا يتضمن جولة في مصانع سيرز التي كانت ستشكل الستارة الخلفية لخطابه، ولكن لم يكن ضمن برنامجي تلقي أي أسئلة. لكنني علمت أثناء الرحلة باتجاه دافينبورت من المدير المتقدم برايان مونتغمري أن مجمع الصحافة سيكون على بعد عدة أمتار فقط أثناء الرحلة. فكان لا بد لي من ألفت نظر الرئيس إلى موضوع القصة وأتأكد من أنه مستعد للإجابة في حال أراد أحد الصحفيين توجيه سؤال إليه.

أوقفت الرئيس في إحدى الزوايا الصغيرة المنعزلة خارج المنطقة الصناعية. قلت له: «سيادة الرئيس، يجب أن أتحدث إليك». حدق بي بوش بشيء من نفاذ الصبر. كان اهتمامه منصباً على الجولة. وكما دائماً، كان يحب أن يلتزم بالجدول المقرر له.

سألني: «ماذا لديك؟»

قلت: «سيدي، لا تتضمن الجولة أي خطة لتلقي أسئلة هذا الصباح. ربما يجب أن تعرف أنهم قد يحاولون أن يسألوك عن تصريحات لاري ليندسي في صحيفة وول ستريت جورنال الصادرة هذا اليوم».

سأل الرئيس: «ما الذي صرح به؟»

أجبت: «قال إن كلفة الحرب على العراق ستبلغ ما بين مائة ومائتي بليون دولار». بدا عليه الانزعاج بشكل واضح؛ وأدار رأسه جانباً وهو يتمتم بضع كلمات. فقد كان متضايقاً جداً، كما توقعت.

سأل الرئيس بشكل محدد وهو يحدد في وجهي: «لماذا قال ذلك؟»

قلت: «لا أعرف؛ فقد كان يتحدث إلى أحد الصحفيين، وأعتقد أن هذا التصريح أقلت من لسانه في معرض جوابه على أحد الأسئلة. وقد سبق لي أن قلت للصحافة إن الوقت مبكر للقيام بأي توقعات حول طبيعة القرار الذي سيتخذه الرئيس».

سأل الرئيس: «هل قام أحد بالتحدث إليه؟»

قلت: «نعم يا سيدي. من المفترض أن أندي قد قام بذلك».

تابع بوش بنبرة صوت أخذت بالارتفاع: «هذا غير مقبول. لا يجوز له التحدث في هذا الأمر. قم بإعلامهم أنني لا أنوي الإجابة على أي من أسئلتهم»؛ وكان يقصد بذلك الصحفيين.

أجبت: «لقد قمت بذلك بالفعل». عند هذه النقطة، خرج بوش من المنطقة المنعزلة ليبدأ جولته. وكنت خلفه مباشرة.

تمكن الرئيس من تجنب أي أسئلة كان يمكن أن تطرح حول تصريحات لاري غير المسؤولة في ذلك الصباح. وبعد انقضاء أربعة أشهر على تلك الحادثة، ترك لاري منصبه؛ فقد «استقال» من عمله في الإدارة كجزء من عملية إعادة تشكيل فريق الرئيس الاقتصادي (ذلك أن تصريحاته حول كلفة الحرب لم تساعده).

لاري الذي يعتبر خبيراً اقتصادياً رفيع المستوى قام بخرق مبدأ أساسي للبيت الأبيض في عهد بوش: وهو أن الرئيس لا يريد أن يتقدم عليه أي شخص. فوظيفته هي أنه هو من يصنع الأخبار، وليس أي شخص آخر - إلا إذا مُنِحَ إذنًا بموجب الخطة المرسومة. أما أن يقوم شخص بصنع الأخبار خارج إطار الرسالة فإن ذلك يجعل من الجريمة مضاعفة، كما يجعلها تقترب من الوضع الذي يجعلها من الأخطاء التي لا يمكن غفرانها، خصوصاً في تلك المرحلة الأولى الحاسمة التي كنا قد بدأنا في حملة الترويج الكبيرة لهذه الحرب.

عبر موقعي ناطقاً باسم البيت الأبيض، كنت أقدر الحاجة إلى إيصال رسالة واضحة ومرسومة. ففي عالم تسوده نشاطات الدوائر الإخبارية على مدار الأربع والعشرين ساعة

يوميًا، تقوم وسائل الإعلام بإمطار مشاهديها بآلاف من الرسائل التنافسية التي تبثها مترافقة مع صور وكلمات لا تحصى. أما فرص الحصول على فكرة واحدة واضحة ضمن هذا الخليط المتنافر من الرسائل فهي ضئيلة للغاية. ولكن عندما يكون منبر التصريحات الهدارة في البيت الأبيض تحت تصرفك، وكذلك البوق الإعلامي الرئاسي الهائل، فسيكون من الأسهل عليك إطلاق رسالتك، وتغطية أفكارك إعلامياً. مع كل ذلك، فمن الضروري أن تكون الرسالة متناسقة، ويعاد بثها مرة تلو المرة إذا كان لأي مفهوم أن يستقر في أذهان الناس، ويتم استيعابه بالشكل الصحيح. إذا كانت أي إدارة تأمل في التواصل مع الناس بشكل مؤثر، فعليها أن تقوم بتطوير رسائل بسيطة، ومباشرة ترتبط بمصالح الناس، وبمخاوفهم واحتياجاتهم. عليها بعد ذلك إيجاد الوسائل المختلفة لتأهيل هذه الرسائل كي تصبح قابلة للنشر في وسائل الإعلام حيث يتم توجيهها نحو الوجهة المقصودة المتمثلة في الرأي العام؛ وإلا فإن ما يريد الرئيس قوله سوف يصبح هباء منثوراً، ويضيع في الأثير، ومعه، ستضيع فرصة الرئيس في صنع الأحداث، والتأثير في المجتمع، و(الآمل في) إحداث تغيير إيجابي في حياة الناس.

هكذا، وبشكل عام، فهمت واحترمت ليس فقط تأكيد إدارة بوش على الاستمرار في الخط المرسوم المراد للرسالة أن تسلكه، وإنما دعمت هذا التوجه، وساهمت في صنعه ونشره جزءاً من الوظيفة المنوطة بي. ولكنني اليوم، وأنا أنظر إلى الوراء مستذكراً الحملة التي قمنا بشنها من أجل الترويج للحرب على العراق للشعب الأمريكي - وهي حملة شاركت فيها شخصياً، بالرغم من أن دوري لم يكن محورياً في صنعها - فإنني أرى بوضوح الجانب المظلم من تطبيق أساليب الحملات الحديثة على قضايا ذات ثقل تاريخي خطير. ساعدني استذكار تلك الفترة على بلورة فهمي للحملة الدائمة، بما في ذلك التجاوزات المدمرة التي ترافقها؛ وكذلك استيعاب كيف أن واشنطن، في حال الحرب الحزبية التي تمر بها حالياً، تمارس سياسة الخداع على ضفتي الحزبين. هذه الصورة ليست جميلة أبداً.

الأغلبية الساحقة من قادتنا المنتخبين أناس طيبون؛ إلا أنهم يقعون فريسة للجهود التي لا تنتهي من أجل السيطرة على الرأي العام وإخضاعه لمصالحهم. إنهم يتورطون

في سياسة الخداع من أجل الإبقاء على مصالحهم سواء كان ذلك بقصد أو من دون قصد (أعتقد في حقيقة الأمر، أن هذا الخداع هو في معظم الأحوال غير مقصود، أو لا شعوري). إنه جزء من الدعاية السياسية الهادفة إلى تسويق قضاياهم.

تباشر بعد ذلك وسائل الإعلام عملها. تقوم الصحافة عبر تركيزها على تغطية الصراعات، واللفظ، وشخصيات الفائزين والخاسرين، والحملة الدائمة، بتضخيم النقاط التي تشكل محور الحديث حول أحد الحزبين أو كليهما؛ ومن ثم فهي تقوم بنشر الأضاليل، وأنصاف الحقائق، وأحياناً الأكاذيب المفضوحة من أجل احتلال دائرة الضوء، وإيجاد شخص يمكن أن يكون صيداً لها. كما أنها عبر المبالغة في التأكيد على الصراعات واللفظ، والإقلال من قيمة القضايا الصعبة والمهمة، والهبوط بها إلى مستوى الأبيض مقابل الأسود، واقتباس ما يناسبها بصورة مجتزأة، فإن وسائل الإعلام تفاقم المشكلة، ومن ثم، يصبح من شبه المستحيل حتى على القادة ذوي النوايا الحسنة، تصحيح أو توضيح سوء التفاهم، أو الإيفال في التبسيط الذي يسود النقاش السياسي. وأخيراً، يصبح من الصعب أكثر فأكثر على الرأي العام استيعاب الحقائق الأكثر أهمية وسط هذا الكم من الصراع، واللفظ، والسلبية. يعتقد بعض الحزبيين أن مثل هذه الأجواء مناسبة أكثر لأنهم يستطيعون القيام بمناوراتهم بشكل أفضل في بيئة مسيسة تسييساً عالياً كهذه البيئة، ومن ثم تحقيق أهدافهم التي يصبون إليها. لكن القوة التدميرية لهذه الحرب الحزبية التي لا هوادة فيها هي التي كوّنت أفكاراً في المرحلة الآتية.

انهماك بوش وأركانها في البيت الأبيض في خريف سنة 2002 في التخطيط لحملة منظمة بعناية لتشكيل مصادر التأييد الشعبي والسيطرة عليها واستغلالها لمصلحتنا. قمنا بالشيء نفسه تقريباً بالنسبة إلى قضايا أخرى - مثل قضيتي خفض الضرائب والتعليم، ونجحنا في ذلك إلى حد بعيد. لكن الحرب ضد العراق كانت شيئاً آخر. فلو نحّينا جانباً التكلفة الإنسانية التي لا يمكن تعويضها، والثلث المادي الباهظ لهذه الحرب، فقد أدى قرار الحرب ضد العراق، والطريقة التي اتبعناها في الترويج لهذه الحرب إلى مزيد من الاستقطاب، وإلى حرب حزبية أكثر ضراوة. أدى غياب الصدق والصراحة في حملتنا للترويج للحرب إلى جملة من ردود الفعل قام بها خصومنا، وتسببت بشكل

أو بآخر في زيادة الأضاليل والتعتيم على الحقيقة. كما أدت الموجة الجديدة من الخداع إلى إلقاء ظلال كثيفة من التعتيم التي حجبت عن الناس رؤية الحقائق الثابتة والمهمة والحاسمة التي عليهم استيعابها بغية تجنب مشكلات مشابهة في المستقبل.

ضمن هذه المعمة، كانت وسائل الإعلام تلعب دوراً مشاركاً وتحريضياً. كان تركيزها الرئيس ينصب في اتجاه تغطية الحملات التي تروج للحرب، بدلاً من القيام بطرح أسئلة قاسية تبحث عن إجابات عن السبب المنطقي وراء الترويج لهذه الحرب، أو سبر أغوار الحقائق وراء هذه الحرب. كان البيت الأبيض يعلم أن وسائل الإعلام الوطنية سوف تقوم بتغطية شاملة لوجهة نظره حول الحرب حتى لو كان الدليل الملموس الداعي إلى شنّها واهياً. كان يمكن أن تُطرح بعض الأسئلة: إلا أن البيت الأبيض كان يتمتع بأكبر منصة دعائية، خصوصاً عندما كان الأمر يتعلق بمسألة تستحوذ على كثير من الإثارة واللفظ كالحرب. يميل الرأي العام إلى تصديق ما يسمعه من البيت الأبيض، أو ترك فسحة له كي يثبت حسن نواياه، إلى أن تثبت وسائل الإعلام المتربصة أن هذه المعلومات غير موثوقة.

ولكن في هذه الحال، سوف لن تقوم وسائل الإعلام بأداء دور كلب الحراسة، ولن تظهر سوى نزر القليل من التركيز على الحقيقة وتوخي الدقة؛ بل سيكون همها الأكبر التحقق من نجاح حملة الترويج للحرب. هل ربح الرئيس الجدل الدائر أم خسره؟ كيف كان رد الديمقراطيين؟ ما طبيعة العوامل الانتخابية للحملة؟ ماذا بينت استطلاعات الرأي؟ أما الحقيقة - بشأن الطبيعة الحقيقية للتهديد الذي كان صدام حسين يمثله، والطريقة المثلى لمجابهة هذا التهديد، والمخاطر المحتملة الناجمة عن الصراع العسكري - فلم يكن أحد يكثر لها كثيراً؛ وقد استمر ذلك على الأقل، إلى ما بعد حصول بوش على الدعم الضروري للبدء بشن الحرب، لأن الدعم الشعبي لقواتنا المسلحة حينها بدأ يفيق على الأذى المحتمل الذي يمكن أن تتعرض قواتنا له.

كانت هناك استثناءات. فقد طرحت مجموعة من الصحفيين أسئلة قاسية حول منطق الإدارة الرئيس الذي دفعها لشن الحرب، وركزت هذه الأسئلة في مجملها على

ضرورة الحرب، وكذلك على الحقائق المرتبطة بها. لكن هؤلاء لم يكن بمقدورهم تغيير مسار تركيز وسائل الإعلام الرئيس في الوقت الذي كانت الحملة من أجل الترويج للحرب في أوجها، أو إبطاء زخم مسيرة بوش المصمم على المضي في سعيه نحو الحرب.



في المرحلة التي سبقت الحرب، كنت أشغل منصب نائب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض. لم يكن دوري يتركز حول موضوع العراق، أو حتى بذل أي جهد من أجل الترويج لمثل هذه الحرب. قضيت جل وقتي في التركيز على مسائل لا علاقة لها بموضوع العراق. لكنني كنت أحياناً أحل مكان آري فليشر، ومن ثم كنت أشارك في حملة الترويج لشن الحرب، أو القيام بتجيش الرأي العام، والتحكم بميوله بطريقة تخدم مصالحنا.

كنت، مثلي مثل الكثير من الأمريكيين، غير متأكد من ضرورة شن الحرب، والنزوع نحو مبدأ الضربة الوقائية الذي كان يستخدم من أجل دفعنا للقيام بالحرب. كنت أتساءل عن السبب الذي يحدونا للتحرك بسرعة نحو المواجهة. لكنني كنت أثق بالرئيس وصناع السياسة في فريق الأمن القومي التابع له. لقد حازوا على ما يشبه الوسام العالمي لقيامهم برد سريع ومدرّس على هجمات الحادي عشر من أيلول، والمتمثل خصوصاً في الحرب على أفغانستان. الآن، كان معظمهم يعتقد أن العراق يمثل تهديداً جدياً، وهو ما أدى دوراً كبيراً في رغبتني بدعم قرار مواجهة صدام حسين عسكرياً، حتى لو لم يمثل ذلك الموقف بالضرورة تماهياً مطلقاً مع هذا القرار. فهم في واقع الأمر يمتلكون جميع مفاتيح المعلومات الاستخباراتية والشخصية عن صدام حسين ونظام حكمه. أما أنا، فلم تكن لدي مثل هذه المعلومات. وهكذا، ومثل معظم الأمريكيين، كنت أميل إلى حسن الظن بهم، إلى أن يثبتوا أنهم غير جديرين بحسن ظننا بهم.

لم تبدأ حملة الترويج لشن الحرب بشكل جدي إلا في خريف سنة 2002. ولكن الرئيس، كما علمت فيما بعد، كان قد اتخذ قراره بمواجهة النظام العراقي قبل ذلك بعدة أشهر. رأى كل من تشيني، ورمسفيلد، وولفويتز أن هجمات الحادي عشر من أيلول

كانت فرصة للملاحقة صدام حسين، وضرب نظامه، ووضع حد له كتهديد لأمريكا، وجعل منطقة الشرق الأوسط أكثر أمناً. أعطى بوش موافقته على ذلك.

كما ذكر بوش لبوب وودوارد في مقابلة أجراها معه في أواخر سنة 2003، فقد شعر أن على الولايات المتحدة أن تهتم بموضوع أفغانستان أولاً - أي إسقاط نظام طالبان، والسيطرة على الملاذ الآمن للقاعدة، كانت مقاربة بوش تعتمد منطق «الأولويات»؛ لأن العراق لم يغب أبداً عن بال بوش، أو فريق مجلس الأمن القومي التابع له جزءاً من نظريته الشمولية حول الحرب على الإرهاب.

أما متى، ولماذا اتخذ بوش قراره لشن الحرب على العراق فإنهما أهم سؤالين يجب البحث عن إجابة عليهما كي نفهم الطريقة التي استخدمتها إدارته للترويج لفكرة الحرب بين أفراد الشعب الأمريكي.

كانت السياسة الخارجية الأمريكية تنظر إلى صدام حسين نظرة يشوبها الازدراء. فقد رأوا فيه قوة مزعومة للاستقرار في الشرق الأوسط، وهي منطقة تحتوي على احتياطات نفطية هائلة تمثل مصالح أمنية وطنية للولايات المتحدة. اتخذ فريق بوش إجراءات ضد النظام العراقي أشد قسوة من الإجراءات المتخذة في عهد إدارة كلينتون، حتى قبل وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول. ولهذا السبب كانت الإدارة تدفع باتجاه فرض عقوبات ذكية على النظام العراقي عبر الأمم المتحدة، والتحرك باتجاه القيام بضربات عسكرية موجهة عند الضرورة كي لا يخرج صدام عن الخط المرسوم له، وربما لإضعاف نظامه بشكل قاتل.

ولكن بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، أبدى بوش وفريقه اهتماماً أكبر بموضوع العراق. فقد وصلوا إلى استنتاج مفاده أن الحرب على الإرهاب هي حرب شاملة يجب شنّها على عدة جبهات عسكرية وغير عسكرية - بما في ذلك من الناحية الضمنية، غزو العراق. ولهذا السبب تنحى بوش برمسفيلد جانباً، وتحدث معه على انفراد في أواخر شهر تشرين الثاني، نوفمبر سنة 2001، كما أكد ذلك الكاتب وودوارد في حديثه

مع الرئيس، ووجهه إلى ضرورة تحديث خطط البنتاغون الحربية حول العراق. حرص الرئيس على التأكد من أن تبقى هذه المبادرة طلي الكتمان، وأن يطلع عليها فقط عدد قليل جداً من الناس الموثوقين الذين لا يمكن أن يفشوا هذه الخطة. لكن هذا يعني في واقع الأمر أن بوش اتخذ فعلاً قراره بشأن الحرب - حتى لو أقتنع نفسه أن هذه الحرب يمكن تجنبها. كان مقتنعاً في قرارة نفسه أن القرار بشأن موضوع العراق، كما في الموضوعات الأخرى، لن يكون نهائياً وحاسماً إلا عندما يعطي أمره النهائي بشأن الحرب. ولكنني كما علمت لاحقاً، وبعد أن استعرضت في ذاكرتي مجريات ما حدث حينها، كانت الحرب واقعة لا محالة إذا أخذنا بعين الاعتبار التحضيرات التي كان يعد لها الرئيس منذ البداية.

دائماً ما كان الرئيس بوش يُنظرُ إليه كقائد بالفطرة، وليس كقائد ذي فكر منهجي. فهو ليس الشخص الذي يتأمل بعمق في الخيارات السياسية المتاحة - بما في ذلك خوض مناقشات مستفيضة حولها - قبل اتخاذ القرار الذي يراه مناسباً. بدلاً من ذلك، فإن خياراته مبنية على مشاعره وعلى معتقداته التي يؤمن بها إيماناً عميقاً. هكذا تكونت الفكرة بشأن العراق.

يؤمن بوش إيماناً عميقاً بأن جميع الشعوب لها حق إلهي في العيش بحرية. لم أراه في حياتي يتحدث عن موضوع آخر يمثل هذه الحرارة، في العلن وفي السر. يُعرف عنه اقتناعه وبشكل لا يرقى إليه الشك، مقتنه الشديد للطواغيت أمثال صدام حسين، كما يعرف عنه قناعته الراسخ بأن الطفافة لن يتخلوا أبداً عن رغبتهم بامتلاك أشد أنواع الأسلحة فتكاً في العالم. كان صدام بالنسبة لبوش، شخصاً لفظه العالم بسبب جرائمه ضد الإنسانية. كان هذا سبباً كافياً ليضع العراق على شاشة رادار الرئيس منذ بداية عهده في البيت الأبيض.

يؤمن بوش أيضاً أن من واجب أمريكا استعمال قوتها لقيادة العالم بأسره إلى مستقبل أفضل، وأكثر أمناً. كما يؤمن أن القائد يجب أن يفكر ويتحرك بشجاعة من أجل تحقيق مثله العليا. ولهذا السبب كان بوش يؤمن أن من المهم بالنسبة إلى مستشاريه أن يفكروا

بالقيام بأفعال محددة ذات أهداف إستراتيجية أكبر - تتيح لهم أن يكونوا جزءاً من الصورة الشاملة التي توضح ما تبغي هذه الإدارة تحقيقه.

أخيراً، كان بوش متخوفاً بشكل حقيقي، من احتمال أن يقوم الإرهابيون بضرب أمريكا من جديد. وقد زادت الهجمات بالجمرة الخبيثة من حدة هذه المخاوف. كان بوش يعني ما يقول عندما أكد أن لن ينسى أبداً درس الحادي عشر من أيلول. كان مصمماً على التحرك قبل أن تتحول مخاطر الهجوم من احتمال إلى واقع.

كانت نتيجة تجميع هذه المعتقدات كلها في بيئة ما بعد الحادي عشر من أيلول قد تجلت في أهم قرار اتخذته بوش خلال مدة رئاسته. فقد زال بسرعة الخط الفاصل بين الرغبة الموجودة سلفاً عند أعضاء فريق مجلس الأمن القومي في إسقاط صدام، وبين التأكيد الجديد على ضرورة التحرك ضد تهديدات حقيقية ومتزايدة قبل استفحالها.

هل قامت مستشارة بوش لشؤون الأمن القومي كوندي رايس بدراسة تقييمية شاملة لأسلوب بوش الصعب المراس في القيادة، أو بتقدير لأهمية الحاجة إلى ضبط إيقاع معتقداته الجامحة، وإبقائها تحت السيطرة؟ سنترك الحكم على ذلك للمؤرخين؛ ولكن، بصفة عامة، كان مستشارو بوش السياسيين للشؤون الخارجية مطية لأفكاره، لم يفعلوا إلا أقل القليل لكي يشككوا في جدواها، أو يدفعوه إلى إعادة التفكير بما فيه الكفاية كي يعيد النظر في العواقب المحتملة قبل التحرك إلى الأمام. وفي اللحظة التي يقرر بوش إطلاق مشروع ووضع موضع التنفيذ، كان من النادر أن تطرح تساؤلات حول جدوى أو مصداقية هذا المشروع. هذا ما كان بوش يتوقعه، وهو ما كان يتأكد من أن كبار مستشاريه يعرفونه حق المعرفة. كانت إستراتيجية تنفيذ إحدى السياسات مفتوحة للمناقشة والمداولات، ولكن سياسة لي الذراع كانت غير مسموح بها، كما لم يكن من المسموح الوصول إلى استنتاجات مخالفة حول السياسة المتبعة بعد أن يكون قد تم إقرارها ووضعها حيز التنفيذ.

هذا كان بالتأكيد ما حصل بشأن العراق. كان بوش مستعداً لتغيير النظام الحاكم، وكان هذا يعني بكل المعايير، نشوب حرب. وكان السؤال ليس حول ما إذا كانت الحرب ستقع؛ بل، بكل بساطة، متى وكيف.

بالرغم من أنني لم أنتبه إلى ذلك حينما أطلقنا حملتنا للترويج للحرب، فإن ما دفع ببوش نحو المواجهة العسكرية أكثر من أي شيء آخر، كانت الرؤية الطموحة والمثالية التي سادت البلاد في المرحلة التي أعقبت هجمات الحادي عشر من أيلول، المتضمنة تغيير بنية الشرق الأوسط عبر نشر الحرية فيه. كانت هذه الرؤية متجذرة في فلسفة الديمقراطية بالإكرام، ومبنية على الاعتقاد بأن العراق جاهز للتحويل من الديكتاتورية إلى رمز من رموز الحرية وذلك عن طريق استخدام القوة، ومستندة إلى ما يشبه اليقين بأن هذا التغيير ممكن التحقيق بأبخس الأثمان. كان الانطباع عن العراقيين بأنهم أناس عصريون، يتطلعون إلى الأمام، ويتوقون للحرية؛ إلا أنهم غير قادرين على تحقيقها تحت ظل نظام صدام حسين الديكتاتوري الوحشي. كان الرئيس وفريق القيادة العامل لديه يؤمنون أن النصر في العراق يمكن أن يتم بشكل حاسم وسريع، وأن الشعب العراقي سوف يرحب بالحرية ويعانقها.

اعتقد الرئيس ومستشاروه أنه بمجرد أن تنطلق الديمقراطية في العراق، فإنها ستكون نموذجاً يحتذى بالنسبة للمصلحين الآخرين التواقين إلى الحرية في الشرق الأوسط. كما اعتقدوا أن التأثير الإيجابي لعامل الدومينو هذا، يمكن أن يحدث تأثيراً في إيران المجاورة التي تضم مثل العراق نخبة كبيرة من المواطنين المتعلمين الذين يتطلعون إلى المستقبل، خصوصاً من الجيل الشاب. كانت أفغانستان تقترب حينها من تخوم الديمقراطية؛ وهي جارة لإيران وتقع على حدودها من طرف، كما العراق الذي يقع في الطرف الآخر من حدودها. سوف يكون العراق الحر مصدر إلهام وتشجيع للإيرانيين الإصلاحيين للانتفاض ضد حكومتهم وتغييرها؛ كما أن العراق الحر وإيران الحرة سوف يزيلان مصدرين رئيسيين من مصادر التهديد للسلام والاستقرار في قلب الشرق الأوسط - كطرفين في «محور الشر» كما أكد بوش في خطابه حول حال الاتحاد في كانون الثاني، يناير، سنة 2002. سيؤدي ذلك من ثم إلى خفض التوتر الدولي بشكل كبير، ويعزز قوة واحدة من المصالح الأمنية الوطنية الرئيسة الأمريكية عبر ضمان استقرار طويل الأجل لوضع الاحتياط النفطي الهائل الموجود في منطقة الشرق الأوسط. وكما يحب الرئيس بوش أن يردد دائماً القول إن الدول الحرة هي دول مسالمة لا تتحارب فيما بينها. وهكذا،

فإن استقدام الحرية إلى الشرق الأوسط سيكون بمنزلة خطوة عظيمة نحو بناء عالم أكثر سلاماً في القرن الحادي والعشرين.

كان الرئيس يؤمن دائماً بضرورة نشر الحرية والديمقراطية في كل أرجاء العالم، بما في ذلك منطقة الشرق الأوسط؛ كما عبر عن التزامه بهذه الرؤية في وقت سابق وذلك في كلمة ألقاها في وارسو في حزيران، يونيو سنة 2001. في ذلك الحين، لم يكن هناك أي تفكير جدي بشأن القيام بغزو عسكري على نطاق واسع من أجل فرض هذا النوع من التفكير بالإكراه. إلا أن أحداث الحادي عشر من أيلول أدت به إلى التركيز على وضع هذه الرؤية موضع التطبيق على العراق. وكان اعتقاد بوش بضرورة نشر الحرية على نطاق العالم أحد الأسباب التي حدت به إلى تبني قرار حول النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني يتم بموجبه إنشاء دولة فلسطينية حرة - وهي خطوة أخرى تساهم إيجابياً في بناء شرق أوسط أكثر حرية وأكثر استقراراً، تتضاءل فيه إلى حد بعيد فرص تصدير الإرهاب. وقد أصبح العراق الحر يشكل بالنسبة لبوش أولوية بعد الحادي عشر من أيلول لأنه كان يشكل مشروعاً أكثر قابلية للتحقيق من إيجاد حل للصراع الإسرائيلي - الفلسطيني.

أعود بذاكرتي إلى حديث دار بيني وبين الرئيس في المكتب البيضاوي بعد سنتين من ذلك عندما كنت أشغل منصب السكرتير الصحفي. في ذلك الوقت، كانت القصة المتداولة في وسائل الإعلام تتلخص في أن نتيجة الحرب في العراق ستحدد مسار إرثه أكثر من أي شيء آخر. سألت بوش عن هذا الموضوع. فأجاب بسرعة وحزم: «كلا، إن الحرب على الإرهاب هي التي سوف تحدد إرثي. كما أن موقع العراق في هذه الحرب هو ما سيحدد إرثي». كانت رؤيته العظيمة حول شرق أوسط حر تعطي أملاً وتوفر فرصة لسكان منطقة لم تحظ بأي منهما إلا بالكاد. هذه الحرب بدورها سوف تقضي على قدرة الإرهابيين من الإسلاميين المتطرفين على التحريض على الكراهية والعنف، وعلى جمع متطوعين من طبقات اجتماعية متدنية وفقيرة وغير متعلمة من أبناء هذه المنطقة. كل ذلك كان يعني بالنسبة له تحقيق النصر في الحرب على الإرهاب، وهو ما سيوفر الفرصة لبوش لتبوء موقع راسخ في التاريخ.

كان يشارك الرئيس حلمة في قيام شرق أوسط ديمقراطي عدد من كبار المسؤولين في إدارته مثل نائب وزير الدفاع بول وولفويتز ومؤيديه من المفكرين غير المحافظين. أما بالنسبة لديك تشيني ودونالد رمسفيلد فقد كان ينتابني شعور بأن اهتمامهما الرئيس كان ينصب على ضرورة إزالة التهديد الذي يتعرض له السلم الإقليمي والدولي، وعلى تحقيق أمن اقتصادي أكبر؛ ولم يكن نابعاً من الإيمان برؤية بوش لعالم تسوده الحرية التي سوف تؤدي حكماً إلى التغيير. لكنهما لم يبديا أي اعتراض على تلك الرؤية الديمقراطية، طالما أنها ترسخ التزام الرئيس بتنظيم حملة عسكرية كانا يؤيدان شنها لأسباب أخرى؛ لذا فقد كانا سعيدين بالانضمام إلى هذا الفريق.

ولكن الرئيس وأعضاء آخرين في إدارته لم يولوا هذه الرؤية التغييرية للمنطقة في مرحلة التعبئة النفسية لهذه الحرب الكثير من الاهتمام. فقد ركزوا بدلاً من ذلك على التهديد الذي تمثله أسلحة الدمار الشامل، وعلى العلاقة المحتملة بين العراق والإرهاب. وكما صرح بول وولفويتز لمجلة Vanity Fair في شهر أيار، مايو سنة 2003 فإن بوش وفريق الأمن القومي في إدارته «استقروا حول موضوع يتفق عليه الجميع، ويتمثل في أن أسلحة الدمار الشامل هي السبب الجوهرية في شن هذه الحرب». وتابع وولفويتز قائلاً:

كانت هناك دائماً ثلاثة مخاطر يمثلها العراق. تتمحور الأولى حول أسلحة الدمار الشامل، والثانية حول دعم الإرهاب؛ أما الثالثة فتتمثل بالمعاملة الوحشية التي يعاني منها مواطنو العراق من قبل النظام. ... أظن في الحقيقة أن بإمكانك إضافة خطر رابع يتجسد في العلاقة الوثيقة بين الأولى والثانية، فالمخاطرة الثالثة تشكل في حد ذاتها كما أظن أنني ذكرت سابقاً، سبباً لمديد المساعدة إلى العراقيين، ولكنه ليس إلى درجة تعريض حياة أبنائنا الأمريكيين إلى الخطر، وبالتأكيد ليس إلى المدى الذي ذهبنا إليه.

كما اعترف أن «ربط العراق بالإرهاب كان أكثر الموضوعات التي جرت حولها الكثير من الخلافات داخل الإدارة».

وهكذا فقد كان القرار القاضي بالتقليل من أهمية الرؤية الديمقراطية لبوش دافعاً لشن الحرب بالأساس خياراً له علاقة بترويج الحرب. لم أتأكد إلا بعد مرور وقت طويل

على استلامي مهمة السكرتير الصحفي، من أن الحلم حول شرق أوسط ديمقراطي كان في واقع الأمر أكثر الدوافع قوة عند الرئيس بوش في قراره شن الحرب. كنت أسمع الرئيس يكرر مرة تلو الأخرى، وبكثير من الحماس، الحديث عن فضائل الحرية أثناء محادثاته الخاصة مع زعماء العالم، وكذلك خلال أحاديث عابرة كنا نتبادلها بشكل غير رسمي.

يتوق جميع الرؤساء إلى بلوغ العَظْمَة؛ إلا أن قليلاً من هؤلاء يبلغها فعلاً. وكما سمعت بوش يقول ذات مرة إن الرئيس في زمن الحرب هو الذي يملك فرصة في بلوغ العَظْمَة، ويعود ذلك جزئياً إلى أن الاضطرابات ذات الأبعاد التاريخية توفر فرصة لإحداث تغير تحولي؛ وهو التغير الذي كان بوش يحلم في تحقيقه. رأى بوش في العراق فرصته السانحة لصنع إرث من العظمة. كان بوش يعتقد، وقد أسكرته قوة أمريكا التي لا تقاوم، أن التحول الناجح في العراق سوف يمثل الفصل الرئيس لتحقيق حلمه بشأن شرق أوسط ينعم بالحرية.

لكن مشكلة برزت هنا: وهذه المشكلة أصبحت بالنسبة لي في غاية الوضوح عندما استحضرتها من ذاكرتي - فقد نشأت هوة بين الهدف الأسمى والأعلى على قلب الرئيس من جهة، وبين التعليل العلني لشن هذه الحرب من جهة أخرى. لقد كان الرئيس بوش ومستشاروه يعلمون أن الشعب الأمريكي لن يقدم بالتأكيد الدعم لحرب تُشن بشكل رئيس من أجل تحقيق هدف طموح يتمثل بإحداث تغيير في الشرق الأوسط.

كان هناك دائماً نزوع قوي نحو الانعزالية في أمريكا، وكانت هناك مقاومة بين صفوف الأمريكيين لفكرة إرسال وحدات عسكرية إلى ميادين القتال، إلا في حال الضرورة القصوى. يفهم معظم المواطنين الأمريكيين اليوم أن وضعنا كقوة عظمى، والذي تحقق بفضل ثرواتنا العظيمة، ونفوذنا العالمي، وقوتنا العسكرية، ودورنا أننا أعظم ديمقراطية في العالم، يفرض على الولايات المتحدة أن تلعب دوراً قيادياً مسؤولاً في العالم. ولكن، ومن المنطلق نفسه، نحن أمة محبة للسلام، وليست لدينا طموحات للقيام بغزو العالم، أو في أن نصبح قوة إمبريالية. بدلاً من ذلك، نتوق إلى الحفاظ على مصالحنا في الداخل الأمريكي، وتبادل المصالح التجارية والتنافس بشكل سلمي مع الأمم الأخرى، واستعمال قوتنا العسكرية ليس من أجل «إصلاح» الأمم الأخرى، بل

من أجل حماية مصالحنا ومصالح أقرب حلفائنا إلينا عندما تتعرض هذه المصالح إلى تهديد مباشر.

كانت فكرة تغيير الشرق الأوسط بالقوة تتعارض مع مبدأ التواضع الموعود، وكان من الصعوبة بمكان على بوش وأركان إدارته القيام بالترويج لهذه الفكرة بين أفراد الشعب الأمريكي. كانت تلك ستؤدي إلى إثارة جميع أنواع النقاشات التي لن يكون من السهل الفوز بها - والتي حازت على كم أكبر من الاهتمام في أعقاب شن الحرب على العراق. هل كان من الواقعي التفكير بتحويل بلد مثل العراق يحكمه نظام متخندق من الدكتاتورية إلى الديمقراطية عن طريق استخدام القوة العسكرية بشكل رئيس؟ هل كان شعب العراق ومؤسساته المدنية جاهزين بشكل كامل لدعم فكرة قيامهم بحكم أنفسهم؟ ما أشكال التدخل والتواجد العسكري المطلوبين للمحافظة على الاستقرار أثناء قيام اضطرابات حكومية أو شعبية؟ ما الدور الذي يتوقع أن تلعبه الأصولية الإسلامية في النظام الجديد؟ ماذا عن التوترات العرقية والدينية المزمنة المتوضعة تحت السطح في هذا البلد الذي تفرض فيه رقابة محكمة؟ وكيف يمكن لنا أن نتأكد أن الحكومة الجديدة المنتخبة ديمقراطياً في العراق ستكون موالية للأمريكيين، وأنها مستعدة للعيش بسلام مع جارتها (وحليفة أمريكية) إسرائيل؟ لم يكن من السهل أبداً توجيه تلك الأسئلة، وذلك لأنها تتطلب عناية واهتماماً، وتخطيطاً دقيقاً.

لذا، وبدلاً من فتح باب صندوق الشرور هذا على مصراعيه، اختارت الإدارة طريقاً آخر - فقد أثرت عدم استخدام سياسة الخداع المكشوف: بل اختارت تعمية الحقيقة عبر إخفاء السبب الحقيقي الذي دعاها لاختيار طريق الحرب، والتأكيد على اختلاق حجج أقل شأنًا كان يمكن أن تتم معالجتها بطرق أخرى (مثل استخدام وسائل الضغط الدبلوماسية المكثفة)؛ وذلك في محاولة منها جعل التهديد الناجم عن أسلحة الدمار الشامل، وعلاقة العراق بالإرهاب يظهران كواقع شبه مؤكد، وأقل إثارة للتساؤلات مما كانتا عليه في الواقع، وتجاهل لبعض التحذيرات الحاسمة من قبل أجهزة المخابرات وعدم الاكتراث بها، والتقليل من شأن الأدلة التي تشير إلى الاتجاه المعاكس مستخدمة في

ذلك أسلوب التلميح والإشارات الضمنية لتشجيع الأمريكيين على تصديق ما تقدمه لهم من معلومات غير واضحة وربما كانت مزيفة (مثل امتلاك صدام حسين لبرنامج أسلحة نووية نشيط)، أو معلومات أخرى مكررة بشكل سمج، أو خاطئة تماماً (مثل الإشارة إلى أن صدام حسين كانت له علاقة عملية بالقاعدة).

عندما تقرر المشاركة في حملة انتخابية، فإنك تهدف إلى استخدام أقوى حججك. وهذا يشبه إلى حد ما، الإستراتيجية التي يتبعها المحامي في قاعة المحكمة. فهو لا يكثر بمسألة الاعتراف بنقاط الضعف في القضية التي يدافع عنها، أو الحجج المضادة الصحيحة التي يثيرها خصومه ضد حججه؛ فهو يترك هذه المهمة للمحامين الذين يمثلون الطرف الآخر. يركز بدلاً من ذلك بشكل مطلق على أكثر حججه إقناعاً ولو أدى ذلك إلى تقديم صورة من جانب واحد للقضية. هذه هي وظيفته. أما مهمة البحث عن الحقيقة المطلقة فتترك في عهدة أشخاص آخرين - القاضي وهيئة المحلفين.

تلك كانت الروحية التي قاربت فيها إدارة بوش الحملة للترويج للحرب. كان الهدف هو الفوز بالمناقشات الدائرة حول هذه القضية، ومن ثم دفع الكونغرس والشعب الأمريكي إلى تأييد قرار الإدارة بمواجهة صدام، ولتحقيق هذا الهدف، فقد تراجعت أهمية الصدق والصراحة حول الحرب المحتملة - أهدافها الأكثر شمولية، وكلفتها المحتملة، والمخاطر المتوقعة الناجمة عنها - إلى المرتبة الثانية.



في معرض تأسيسه لقاعدة يوسع عبرها دائرة الحرب على الإرهاب خارج حدود أفغانستان، ويفرض الديمقراطية في العراق، قام بوش بتحديد الخطوط العريضة لمبدأ جديد يتعلق بمفهوم الحرب الوقائية وذلك ضمن كلمة ألقاها في إحدى حفلات التخرج في مدينة ويست بوينت، أوائل شهر حزيران، يونيو. كنت أرافقه في تلك الرحلة. وكان من ضمن ما قاله بوش:

تكمّن أشد مظاهر الخطر على الحرية في التقاطع الخطر بين الراديكالية وبين التكنولوجيا. عندما تنتشر الأسلحة الكيميائية، والبيولوجية، والنووية؛ إضافة إلى

تكنولوجيا الصواريخ الباليستية - عندما يحدث هذا، يمكن حتى للدول الضعيفة أو المجموعات الصغيرة أن تضع يدها على مصادر قوة كارثية تستطيع بواسطتها ضرب الأمم العظيمة. ولقد عبر أعداؤنا عن هذه النوايا، وتم ضبطهم وهم يحاولون اقتناء تلك الأسلحة الرهيبة. هم يسمعون إلى امتلاك القدرة التي تمكنهم من ابتزازنا، أو إلحاق الأذى بنا، أو بأصدقائنا - ولكننا سنقف في وجوههم بكل ما نملك من قوة.

اعتمدت أمريكا في سياستها الدفاعية، ولمدة طويلة من القرن الماضي على مبدأي الردع والاحتواء. وما تزال هذه الاستراتيجيات موضع التطبيق في بعض الحالات. لكن التهديدات الجديدة يجب مواجهتها أيضاً بأفكار جديدة. ففكرة الردع - أي التهديد بالقيام برد فعل هائل ضد الدول الأخرى - لا قيمة لها أمام الشبكات الإرهابية المتخفية التي لا تدافع عن دول أو شعوب. لم تعد سياسة الاحتواء ذات جدوى عندما يكون باستطاعة حكام ديكتاتوريين غير متزنين تثبيت هذه الأسلحة على الصواريخ، أو إيصالها بشكل سري إلى حلفائهم الإرهابيين.

لا يمكننا الدفاع عن أمريكا أو عن أصدقائنا عبر التمنيات. كما أننا لا نستطيع الوثوق بوعود الطغاة الذين يوقعون على معاهدات حظر انتشار الأسلحة النووية بيد، ويخرقون هذه المعاهدات باليد الأخرى. ولو آثرنا الانتظار إلى أن تتحول هذه التهديدات إلى واقع ملموس، فإن هذا يعني أن الوقت قد فات.

الدفاع عن الوطن، والدفاعات الصاروخية هي جزء من خطة أمنية أكثر قوة، وتشكل أولوية جوهرية بالنسبة لأمريكا. مع ذلك، فمن غير الممكن كسب الحرب على الإرهاب بالوسائل الدفاعية. يجب أن نأخذ المعركة إلى أرض العدو، كي نخرب مخططاته، ونواجه أسوأ تهديداته قبل أن تظهر على السطح. الممر الوحيد الذي سيؤدي بنا إلى الأمان في العالم الذي ولجناه، هو الإمساك بزمام المبادرة. وهذه الأمة سوف تتحرك.

وصفت صحيفة نيويورك تايمز هذا الخطاب بأنه «خطاب شديد اللهجة يبدو وكأنه يهدف إلى إعداد الأمريكيين لحرب محتملة ضد العراق». وبالفعل، هذا ما كان يهدف

إليه. وفي الوقت الذي كنا قد بدأنا نبحث عن مصادر للحصول على دعم الرأي العام واستمالته لصالحنا كي نمرر قانوني خفض الضرائب وإصلاح التعليم في الكونغرس، ونقوم فيما بعد بالشئ نفسه بالنسبة إلى إصلاح نظام الضمان الاجتماعي، فقد وجدنا أنفسنا نستعد للترويج لمواجهة عسكرية في العراق.

أضحي مبدأ الضربة الوقائية حجر الزاوية في إستراتيجية الأمن القومي التي يتبناها البيت الأبيض، والتي كان سيتم الإعلان عنها بين منتصف شهر أيلول وآخره من تلك السنة. يرفع بوش الآن من احتمالات اللجوء إلى استخدام الضربات الوقائية، وهي خطوة كان من الممكن جداً اعتبارها راديكالية لو قام بها قبل هجمات الحادي عشر من أيلول. أوضح هذا المبدأ بشكل لا يرقى إليه الشك أنه بينما تتحرك الولايات المتحدة دائماً وفق خطوات مدروسة، وتزن عواقب أي فعل قبل الإقدام عليه، إلا أنها لن تتردد في استخدام القوة عند الاقتضاء كإجراء وقائي ليس فقط ضد تهديد «وشيك»، بل ضد أي تهديد «خطير ومتزايد» إذا دعت الحاجة إلى ذلك. كان هذا المبدأ يستند إلى فرضية أن انتظار التهديد كي يصبح وشيكاً قبل القيام بأي فعل تجاهه يعني أن استجابتنا لهذا التهديد ستكون متأخرة جداً. هذا المبدأ الجديد الذي أضحي جزءاً من الإستراتيجية الجديدة لأمننا القومي كان يهدف جزئياً وبشكل واضح إلى تمهيد الطريق لإزاحة صدام حسين عن الحكم بالقوة.

في صيف سنة 2002، وضع مساعدا بوش الخطوط العريضة لإستراتيجية تهدف إلى تنظيم دقيق للحملة القادمة التي تهدف إلى الترويج للحرب، لا أذكر أن أحداً اعترض على هذه الخطة؛ فقد حصلت على دعم كامل من جميع أفراد فريق السياسة الخارجية في إدارة بوش وكبار مستشاريه. في حقبة الحملات الدائمة، كان الأمر يتعلق دائماً بحشد الرأي العام لصالح الرئيس.

بطبيعة الحال، لم أنظر إلى المسألة من هذه الزاوية حينها. فقد كنت أنظر إليها كغالبية، إن لم أقل جميع من كانت لهم علاقة بالموضوع، على أنها مجرد واحدة من الطرق المتبعة للدفع بجدول أعمالنا العام باتجاه وضعه موضع التطبيق - لأنها ببساطة تعبر

عن الطريقة التي تمارس فيها واشنطن الحكم. لم أكلف نفسي عناء التوقف للتفكير في عواقب هذه الحملة التي هدفنا عن طرايقها إلى التحكم بمفاتيح النقاشات العامة حول هذا الموضوع: ذلك أنه عندما تكون في خضم العمل اليومي المكثف في البيت الأبيض، فإنك تركز فقط على الفوز بالمعارك اليومية؛ وهو ما يجعل من محاولتك التراجع، والنظر إلى المسألة برمتها عبر منظور واضح يساعدك في استيعاب المعنى الأشمل لكل ما كان يحدث، أمراً في غاية الصعوبة.

في كتاب «الحملة الدائمة: Permanent Campaign»، يتحدث المؤلف هيو هيكلو عن خطورة مثل هذه المقاربة:

يمكن أن يكون الأمن والازدهار خادعين، لكن الضغوط الناجمة عن زمن الحرب تقطر في عمق كل منهما الأخطار الناجمة عن الدمج بين الحملات السياسية وبين ممارسة الحكم. فالحملات الدعائية التي تمولها الحكومة تتزايد في ظل الحرب الشاملة في العصر الحديث. لكن من الكارثي الخلط بين الحملات الدعائية وبين حقائق الحملات التي تجبر لشن الحروب. إن الإخفاق في ممارسة الحكم على أساس حقائق الأمور بأفضل تجلياتها هو المعبر الأكيد باتجاه الكارثة التي لا مخرج منها للحاكم والمحكوم على حد سواء. يشير التاريخ إلى أن السبب الرئيس في كون الديمقراطيات الغربية كانت تحكم بشكل أفضل خلال الحرب العالمية الثانية من طريقة الحكم التي كان يمارسها أعداؤها يعود إلى أن قادة هذه الديمقراطيات كانوا يضعون حقائق الحرب أمام شعوبهم، وليس بسبب أنهم كانوا يمارسون الحملات الدعائية كي يرفعوا من معنويات شعوبهم؛ في الوقت الذي كان الديكتاتوريون الفاشيون يقعون في فخ تصديق الحملات الدعائية التي كانوا هم يروجون لها بين شعوبهم، فقد أطلع قادة أمثال روزفلت وتشرشل - حتى لو كان ذلك يتم بطرق تغلب عليها صفة العموميات - مواطنيهم على حقائق مؤلمة حول الوضع الذي كانوا يمرون به. ففي أول تقرير حول الحرب وجهه إلى الأمة في شهر كانون الأول، ديسمبر سنة 1941 على سبيل المثال، لم يكتف الرئيس روزفلت بإخبار الشعب «أن الأخبار سيئة حتى الآن». بل أضاف قائلاً: «هذه الحرب لن تكون فقط طويلة، وإنما

ستكون صعبة». وسيكون هناك عجز في الموارد: «سوف يتوجب علينا التخلي عن كثير من الضروريات نهائياً». ذكر روزفلت إنه لن يقول للشعب أن هناك الكثير من التضحيات التي يتوجب تقديمها مستقبلاً بل سيكون بانتظار هذا الشعب «شرف» المعاناة.

أما اليوم، فإن الأخطاء القاتلة التي ارتكبتها هذه الإدارة بادية للعيان: ذلك أن فريق بوش خلط بين حملات الدعاية السياسية وبين حقائق حملات الترويج للحرب، فتحن نسلط القسط الأكبر من اهتمامنا على خلق حالٍ من الهلع والطوارئ حول التهديد الذي يمثله صدام حسين بدلاً من ممارسة الحكم بناء على حقائق الأمور.

حالمًا اتخذ بوش قراره بشن الحرب على العراق، بوشر بوضع حجر الأساس للبدء في حملة شعبية واسعة لهذه الغاية. وكان مبدأ الحرب الوقائية جزءاً لا يتجزأ من هذا الجهد المركز؛ وكذلك بالنسبة إلى الارتفاع المتزايد في وتيرة التصعيد الكلامي بدءاً من أواخر سنة 2001، مروراً بسنة 2002. كان التصعيد الكلامي الذي مارسناه ضد صدام حسين قبل هجمات الحادي عشر من أيلول يركز على تحذيره من مغبة محاولاته لتطوير أسلحة الدمار الشامل، بينما كانت السياسة تركز على احتوائه عبر فرض مزيد من العقوبات. وبعد عدة أسابيع على وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول، استمر المستشارون في الحديث عن ضرورة قيام صدام حسين بالسماح للمفتشين الدوليين بالعودة إلى العراق. حتى أن نائب الرئيس ديك تشيني صرح لTIM RASIT في برنامج «واجه الصحافة Meet the Press» في السادس عشر من شهر أيلول سنة 2001 أن «صدام حسين الآن هو في عنق الزجاجة»، واعترف بعدم وجود أي دليل يربط صدام حسين بهجمات الحادي عشر من أيلول. ولكن، بحلول نهاية تشرين الثاني، نوفمبر، لم يستبعد الرئيس احتمال اتخاذ إجراء عسكري ضد العراق؛ وكان يقول إن العراق سوف يحاسب إذا ثبت أنه يطور أسلحة دمار شامل. عندما ظهر تشيني ثانية في برنامج «واجه الصحافة» في أوائل شهر كانون الأول، ديسمبر، أثار احتمال أن يكون العراق متورطاً في هجمات الحادي عشر من أيلول مستشهداً بتقرير - تم إسقاطه من التداول فيما بعد - يذكر أن أحد كبار ضباط الاستخبارات العراقية التقى في شهر نيسان، أبريل

سنة 2001 بمحمد عطا، وهو قائد مجموعة خاطفي الطائرات التي ضربت البرجين في الحادي عشر من أيلول. والآن، يقول تشيني بشكل لا يقبل الشك، إن صدام «يحث الخطى باتجاه تطوير أنواع أخرى من أسلحة الدمار الشامل» منذ سنة 1998.

أحياناً، كانت وسائل الإعلام تذكي نار الفتنة. قبل أن أشير إلى أحد الإرهابيين المتورطين في تفجيرات مركز التجارة العالمي سنة 1993، كمثال على ما أقول، قال تيم راسل في المقابلة نفسها التي أجراها مع تشيني في شهر كانون الأول، ديسمبر: «ما نعرفه هو أن العراق يؤوي الإرهابيين». ثم سأل تشيني: «إذا كانوا يؤوون الإرهابيين، فلماذا لا نخرج إلى هناك وننال منهم؟»

في الأشهر الأولى من سنة 2002، استمر التأسيس لهذه الحرب؛ ومع حلول شهر شباط، فبراير، لمحت كوندي رايس إلى الحاجة إلى القيام برد حاسم على نظام مثل النظام العراقي الذي يسعى للحصول على أسلحة دمار شامل. وفي محاولة منه للحصول على شيء من المصداقية، كان تشيني يؤكد أن العراق «يمتلك برنامجاً نشيطاً لتطوير أسلحة الدمار الشامل»، وأننا «نعرف أن صدام يعمل بنشاط وكده، وبأقصى ما يستطيع من جهد لتعزيز قدراته»، وأنه يرفع من وتيرة «الاتصالات والروابط» بين العراق والإرهابيين. كما أشار تشيني إلى أنه إذا «استدعت الحاجة إلى عمل عسكري»، فإن الرأي العام سوف يدعم هذا التوجه.

أوفد الرئيس نائبه تشيني إلى الشرق الأوسط «للتشاور مع الأصدقاء والحلفاء» في المنطقة بشأن العراق. قبل عودة تشيني من المنطقة، أكد بوش أن العراق «بلد يمتلك أسلحة الدمار الشامل. هذا بلد يحكمه شخص على استعداد لقتل أبناء بلده بالأسلحة الكيماوية؛ وهو شخص لا يسمح للمفتشين بالدخول إلى بلاده، لأن لديه ما يخفيه. لكن المرحلة الأولى من المواجهة معه ستكون عبر التشاور مع حلفائنا وأصدقائنا، وهذا ما سنقوم به بالضبط».

بعد لقائه ببوش فور عودته، قال تشيني إن القادة الذين التقى بهم «لا يقلون عنا قلقاً بعد أن اطلعوا على ما قام به [صدام] من أجل تطوير الأسلحة الكيماوية والبيولوجية،

وسعيه لامتلاك الأسلحة النووية؛ ونحن جميعاً نعرف الماضي القريب حين لجأ إلى استخدام الأسلحة الكيماوية». أضاف تشيني قائلاً:

إذا لم تكونوا قد اطلعتم على الحقائق، فإن تحقيقاً مروعاً ينشر هذا الأسبوع في مجلة «نيويورككر New Yorker» حول استخدام صدام للأسلحة الكيماوية سنة 1988 ضد الأكراد. إذا كان التحقيق الصحفي المنشور دقيقاً - وقد طلبت إجراء تحقيق لتأكيد صحة المعلومات الواردة فيه، إذا كان بإمكاننا الحصول على ذلك - فقد شن حملة على الأكراد لمدة استغرقت سبعة عشر شهراً، وقام بقصف مئتي قرية؛ وقد أدى هذا القصف إلى إزهاق أرواح آلاف مؤلفة من العراقيين. ليس هذا هو الشخص الذي نريد أن نراقبه وهو يطور أسلحة أكثر فتكاً - مثل الأسلحة النووية.

لكنه أضاف لاحقاً: «عندما نقول إننا بصدد القيام بفعل ما، فنحن نعني ما نقول؛ إننا مصممون على خوض الحرب ضد الإرهاب. هذه ليست إستراتيجية قصيرة الأمد بالنسبة لنا؛ نحن نعرف أن التاريخ يدعونا للقيام بالتحرك، ولن نضيع هذه الفرصة لجعل العالم أكثر أمناً، وأكثر حرية».

بعد عدة أيام، دفع تشيني الأمور باتجاه تصعيد أكبر عبر استحضاره لسيناريو شديد الخطورة حول شخص مجنون يسعى لامتلاك أسلحة نووية. فقد صرح تشيني لبرنامج Late Edition في محطة CNN: «هذا شخص شرير جداً، كما قال الرئيس؛ وهو يسعى بشكل دؤوب لامتلاك أسلحة نووية الآن، ونعتقد أن هذا شيء يدعو إلى القلق بالنسبة لنا ولكل سكان المنطقة».

امتد النقاش الحامي حول العراق بما في ذلك إصدار بيانات صريحة جعلت الأمور تبدو أقرب إلى التأكيد، إلى موعد بدء الحملة الانتخابية في الخريف حيث تم تضخيمه إلى درجة عالية وثابتة. في أواخر شهر آب، أغسطس سنة 2002، وفي خطاب ألقاه أمام مؤتمر قدامى المحاربين في الخارج في مدينة ناشفيل، قال تشيني: «ببساطة نقول، لا يخامرنا الشك بأن صدام حسين يمتلك الآن أسلحة دمار شامل، وما من شك في أنه يقوم بتحريكها الآن لاستخدامها ضد أصدقائنا، وضد حلفائنا، وضدنا».

العلاقة بين نائب الرئيس تشيني وبين الرئيس بوش كانت دائماً علاقة يكتنفها الغموض إلى حد ما. لكنها علاقة حميمة. فالاثنتان يقضيان أوقاتاً طويلة معاً، وتبقى أغلب الأحاديث بينهما طي الكتمان. لكن من الواضح أنه وبالعودة إلى سنة 2002، كان بوش على علم باللغة القوية التي كان تشيني يستخدمها ضد العراق. كان باستطاعة تشيني استخدام لغة أقوى من اللغة التي كان الرئيس يستخدمها. فأتى حملة إعادة انتخاب الرئيس سنة 2004 على سبيل المثال، كان تشيني يؤدي دور الكلب المهاجم الذي يلاحق كيري بلغة أكثر هجومية من لغة الرئيس نفسه. بالعودة إلى الماضي، يبدو لي واضحاً الآن أن بعضاً من الخطة نفسها قد استخدم في الحملة ضد العراق.

لكن اللغة القوية التي استخدمها تشيني يمكن أن تكون بسبب أن نائب الرئيس غير قادر على الالتزام بالخط المرسوم من قبل رسالة البيت الأبيض. فأحياناً، لا يكون باستطاعته ضبط نفسه وهو يعبر بشكل فح عن آرائه الثابتة أو حتى عجزته - التي تسبب الضرر للرئيس. تلك كانت روحية اللغة التي استخدمها في خطابه أمام مؤتمر قدامى المحاربين في الخارج عندما أكد تشيني بشكل أساسي أن عودة مفتشي الأمم المتحدة إلى العراق ستكون عديمة الجدوى وحتى مضللة. وهكذا كانت المسألة عندما قال تشيني قبل الغزو مباشرة: «باعتقادي أننا في الحقيقة سوف نستقبل هناك كمحررين». لم يكن ما صرح به ضمن الخطة؛ ذلك أن هذا النوع من التصريحات ساعد في رسم صورة زاهية لعراق لمرحلة ما بعد الغزو تسببت فيما بعد بالأذى للرئيس.

وبينما كان الرئيس يحضر لشرح قضية الحرب على العراق في الأمم المتحدة، أشارت كوندي رايس إلى موضوع التهديد النووي القادم من العراق بعبارات واضحة جداً في شهر أيلول سنة 2002: «تكمُن المشكلة هنا في أن الشكوك ستحوم دائماً حول السرعة التي يستطيع بها [صدام] امتلاك أسلحة نووية. ولكننا لا نريد أن يتحول دخان القنبلة إلى سحابة فطرية».

كانت اللغة الخطابية عالية النبرة في حملتنا للترويج للحرب مستمرة بوتيرة متصاعدة وأكثر جدية؛ وأصبح التهديد النووي الذي يمثله العراق بالإضافة إلى صلته بالقاعدة

موضوعاً مركزياً بشكل متزايد في النقاشات حول هذه القضية، وهو ما ساعد على خلق إحساس بالحاجة الملحة للتعامل مع هذا الخطر الداهم والمتفاقم القادم من العراق.

اتفق الرئيس في الرأي مع مستشاريه أن من المهم إظهار الرئيس وقد استنفذ كل الخيارات الدبلوماسية، بعكس الرأي الذي عبر عنه تشيني المتضمن أن طريق الأمم المتحدة عديمة الجدوى. فقد كان السعي باتجاه إصدار قرار جديد من الأمم المتحدة يقضي بدعوة صدام إلى إثبات براءته، والسماح للمفتشين بالعودة إلى العراق أمراً حاسماً في بناء الدعم الشعبي لخطوته اللاحقة. كان الموضوع الأهم بالنسبة للشعب الأمريكي هو الحصول على دعم قوي من الحزبين في الكونغرس. وكان هذا كله جزءاً من الحملة. كان من الممكن للأمريكيين أن يدعموا فكرة الحرب في حال تكون لديهم اقتناع بأن بوش استنفذ جميع الخيارات الدبلوماسية، وبأن الكونغرس بجناحيه الديمقراطي والجمهوري قد منحه الدعم القوي المطلوب.

ساهم الجهد المبذول من قبل البيت الأبيض الذي قاده تشيني من أجل تأمين لقاح ضد الحمى الصفراء لكل الشعب الأمريكي، والذي تم الدفع به علناً في الأسابيع الأخيرة من سنة 2002 في تأجيج جو الخوف من أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها العراق. يبدو لي أن من السخرية الإشارة إلى أن توقيته كان محسوباً بدقة، لكنه لم يؤد إلى إرباك حملة الترويج للحرب.

نظراً لأنني كنت أشغل في ذلك الوقت منصب نائب السكرتير الصحفي، لم يكن ينظر إليّ باعتباري جزءاً لا يتجزأ من هذه الحملة، كما أنني لم أكن أخطرُ بكل الخطط التي تروج للحرب. ولكنني كنت أقوم أحياناً ببعض الأدوار التي تهيئ للحرب.

استضاف بوش اجتماعاً لحكام الولايات من الجمهوريين في البيت الأبيض يوم الجمعة الواقع في العشرين من شهر أيلول، أي في الأسبوع نفسه الذي كان بوش قد قام فيه بزيارة ولاية أيوا، وهو أيضاً الأسبوع نفسه الذي صدرت فيه تصريحات لاري ليندسي حول الكلفة المحتملة للحرب. كان حكام الولايات قد وصلوا إلى واشنطن في الليلة السابقة لحضور

حفل الاستقبال السنوي الذي تقيمه رابطتهم في خريف كل سنة من أجل جمع التبرعات. وبينما التقى آري بجمهرة من الصحفيين في الصباح، فقد قمت بتمثيله في الاجتماع الآخر. ونظراً لأن وسائل الإعلام لم تدع إلى ذلك الاجتماع، فإن الرئيس بوش - وكان قد مضى على تركه منصب الحاكم سنتين - كان صريحاً جداً مع زملائه السابقين الذين هم الآن أصدقاءه الموثوقون، وحلفاؤه السياسيون. تركزت ملاحظاته على أمن البلاد، خصوصاً حول العراق. وكانت صراحة بوش بشأن ما ينوي القيام به في مقاربته للشأن العراقي بيّنة.

تحدث الرئيس عن اعتقال رمزي ابن الشيبة من قبل السلطات الباكستانية قبل تسعة أيام. كان ابن الشيبة على رأس قائمة تضم أكثر خمسة إرهابيين مطلوبين من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي لدوره في التخطيط لهجمات الحادي عشر من أيلول، وهجمات إرهابية أخرى. قال بوش: «سوف نعتقلهم الواحد وراء الآخر؛ أما بالنسبة لابن لادن، فمكانه غير معروف لدينا، لكن سلطته قد ضعفت إلى حد كبير».

ثم تحول بعد ذلك إلى موضوع العراق قائلاً: «من المهم أن تعرفوا أن العراق هو امتداد للحرب على الإرهاب؛ بدأنا في المداولات التي تجري في المحافل الدولية بتوجيه الاتهام إلى المذنب. المجتمع الدولي يكره المخاطرة، لكنني أؤكد لكم أنني سوف أبقى صامداً». قال بوش إنه يحاول إقناع قادة العالم لبناء شبكة دعم لهذه الحرب، منبهاً إلى أنه تحدث إلى الرئيس الروسي بوتين صباح ذلك اليوم.

انتقل بوش بعد ذلك إلى الحديث عن الموضوع المفضل بالنسبة إليه، تحدث عن «أهمية نشر الحرية، والحرية الفردية في كل أنحاء العالم». وذكر أن لديه آملاً كبيراً في أن تكون المرحلة الانتقالية في العراق سلمية: «أؤمن بأن تغيير النظام الحاكم يمكن أن يحدث إذا كان لدينا تفتيش فعال. أما صدام حسين فهو شخص معرض لأن يكون رأسه موضوعاً على طبق كبير» إذا مورس عليه ما يكفي من الضغط الخارجي.

أضاف بوش، مبدئياً احتقاره العميق لصدام: «إنه رجل متوحش، وقبيح، وبغيض لا بد له من أن يترك مكانه. وهو شخص عصابي أيضاً؛ فقد قام بقتل حراسه الأمنيين

مؤخراً، أفضل أن يمضي بسلام؛ لكن لو حدث وأطلقت القوات العسكرية من عقالها، فإنني أعدكم بأن الأمر سيتم بسرعة وحسم».

قام بوش بتحذير الحكام من مغبة الوقوع في المصيدة التي يمكن أن تنصبها المعارضة قائلاً: «لا تتورطوا في الجدل الذي يوحى بأنه لا يوجد من يملأ الفراغ الذي سيتركه صدام؛ كما أن خطتنا تتضمن التأكيد بأنه لن يكون هناك قطع في إمدادات النفط، فقد قمنا بدراسة كل الخيارات التي تؤمن الإبقاء على تدفق النفط».

أكد بوش «أن استخدام القوة العسكرية هو خيارى الأخير؛ نبوءتي هي ما يلي. اكتبوا ما سأقول. العراق وأفغانستان سوف يقودان ذلك الجزء من العالم إلى الديمقراطية. سوف يكونان بمثابة وسيطين لتغيير الشرق الأوسط والعالم بأسره».

أول سؤال تلقاه من الحكام الحاضرين كان حول التعليقات التي صدرت مؤخراً عن وزيرة العدل الألمانية التي قارنت بوش بهتلر. كانت ألمانيا على بعد أيام قليلة من الانتخابات العامة. وبالرغم من أن المستشار الألماني شرودر وعد الرئيس بأنه سوف لن يقف في وجه خطط بوش، أو يقوم هو أو مجلس وزرائه بما يمكن أن يعرقلها، فقد خطب في إحدى المناسبات العامة معلناً أن معارضته للحرب على العراق هي جزء من إستراتيجية حزبه للفوز في الانتخابات.

أجاب بوش بتهذيب: «لا يمكنني أن أنحدر إلى مستوى هذه القذارة» (كونه قورن بهتلر). ما أثار غضب بوش أكثر من أي شيء آخر هو أن زعيماً دولياً تراجع علناً عن التأكيدات التي قطعها على نفسه في جلسة خاصة، وكان أحياناً يذكر شرودر كمثال على ذلك، فلو أن بوش قطع على نفسه عهداً أمام زعيم أجنبي، يستطيع ذلك الزعيم أخذ هذا الوعد معه إلى المصرف - كان بوش يتوقع الشيء ذاته بالمقابل.

عندما سئل عن موضوع تجيش الرأي العام لصالح الحرب، قال بوش: «هناك قضية يجب أن يتم شرحها، وسوف أشرحها للشعب الأمريكي. العراق يشكل تهديداً يجب التعامل معه بطريقة عقلانية. إذا كان لا بد لنا أن نتحرك، فإن خياراتي في الواقع هي ثلاثة: الأول، أن يقوم أحد بقتله [أي صدام حسين]، والثاني أن ينتفض الشعب [العراقي]

للإطاحة به، والثالث هو العمل العسكري».

سأل أحد الحكام عن توقيت التحرك العسكري: فأجاب بوش: «إذا قررنا القيام بتحريك عسكري، فسيكون ذلك في أسرع وقت ممكن. ربما استغرق اتخاذ القرار في الأمم المتحدة بعض الوقت. هذا وقت خطر بالنسبة لنا [على الجبهة السياسية]. ينتابني القلق من أن الزمن سوف يفقد خطابي أمام الأمم المتحدة بريقه»، ثم أكد على ضرورة الدفع بهذه القضية إلى الأمام كي لا تفقد الزخم الذي اكتسبته خلال الفترة الماضية. كما لاحظ أن هذه المهمة تهدف إلى إزاحة صدام وتغيير نظامه مؤكداً أن ابني صدام وكبار مساعديه سوف تتم إزاحتهم أيضاً.

بعد ذلك بيضع دقائق، قال بوش: «لو وضع صدام يده على الأسلحة النووية، فسيغير العالم. وإذا فعل ذلك خلال مدة رئاستي، فساكون قد أخفقت».

في معرض إجابته على سؤال آخر، علق بوش قائلاً: «لا يوجد خطر أكبر من السماح لصدام حسين تطوير أسلحة دمار شامل. سوف نواجهه. المسألة الآن لا تتعلق بالتفتيش؛ إنها تتعلق بأسلحة الدمار الشامل، وبنزع سلاح النظام الذي يمتلكها. التفتيش هو وسيلة من أجل غاية، إنه شخص شرير. رأيت بنفسه شريط فيديو لصدام وهو يطلق النار من مسدسه على شخص لم تكن تعجبه سياساته. لقد قتل صهره».

ختم الرئيس ذلك الاجتماع بالقول: «إن إعطاء الأمر للوحدات العسكرية بالتحرك هو قرار صعب. لكنني أؤكد لكم أنه إذا كان لا بد لنا من الذهاب [إلى العراق]، فإننا سنكون حازمين وسريعين، وستكون المواجهة عنيفة، ولذلك فإن على الوحدات العسكرية أن تتحرك بسرعة. خلال حرب الخليج، احتاج الأمر إلى قيام عشر طلعات جوية لتدمير هدفين فقط. باستطاعتنا الآن القيام بطلعة جوية واحدة لتدمير هدفين. إذا قررنا القيام بشن الحرب، فإننا سوف نستعمل كل القوة العسكرية التي يملكها الجيش الأمريكي. الآن، إذا كان المشهد يشير إلى أنه يفقد سيطرته على زمام السلطة، فأنا واثق من أنه آيل إلى السقوط. فكما تعرفون، أنا مؤمن بقوة الحرية». كما أكد على أهمية أن «يتحدث القائد بوضوح»، وأن يكون «حازماً، وذا مصداقية، وقوياً، وفعالاً». وأعقب ذلك بالتعبير

عن اقتناعه «أن الحرية هي مبدأ إنساني. فتحن نؤمن بأن كل فرد في العالم له أهميته، وليس فقط المواطن الأمريكي».

بعد انتهاء الاجتماع، ومن على المنبر الصحفي المنصوب خارج المدخل الرئيس للجناح الغربي، وصف جون رولاند، حاكم ولاية كنتيكي الذي كان يشغل حينها منصب رئيس رابطة الحكام الجمهوريين ذلك الاجتماع بأنه كان «من القلب إلى القلب» حول العراق. لكن ذلك الاجتماع كان أيضاً مهرجاناً صاخباً حول الإستراتيجية ضم قائد الحملة وبعضاً من الأعضاء المهمين في فريقه - وهم حفنة من السياسيين المحليين الذين بمقدورهم القيام بدور حاسم في جمع الدعم الشعبي لقرار الغزو.

في منتصف شهر تشرين الأول، أكتوبر، ألقى بوش خطاباً رئيساً حدد فيه معالم التهديد في كل من ولايتي سينسيناتي وأوهايو. وفي وقت لاحق من الشهر نفسه، وافق الكونغرس بأغلبية ساحقة، وبطريقة فيها الكثير من التضامن الحزبي، قراراً مشتركاً من كلا الحزبين أطلق بموجبه يد الرئيس للقيام بعمل عسكري ضد العراق. زاد هذا الدعم الهائل من الكونغرس من موقفنا أمام الأمريكيين، وأقنع العديد منهم بضرورة استخدام القوة العسكرية ضد العراق. ونظراً لأن الكونغرس وقف وراء الرئيس بهذه القوة، فلا بد أنه يسير في الاتجاه الصحيح.

في منتصف شهر تشرين الثاني، نوفمبر سنة 2002، قبل بدء النقاش حول العراق الجديد في الأمم المتحدة بوقت قصير، تزوج سلفي آري فليشر، وأخذ إجازة شهر العسل. استلمت مهامه طيلة فترة غيابه. بعد يومين، أقر مجلس الأمن قراراً يحمل الرقم 1441، وقضى هذا القرار بإعطاء صدام حسين «فرصة أخيرة» لإثبات براءته من دون شروط وإلا فإنه «سيتحمل العواقب الوخيمة». بقيت ولمدة اثني عشر يوماً في واجهة الحملة الدعائية السياسية التي تحضر للبدء في المواجهة العسكرية - كنت فيها أجري المقابلات الصحفية، وأحضر الاجتماعات الرئاسية، وأشارك في بعض المناقشات على مستوى عالٍ.

أنشئت مجموعة العراق التابعة للبيت الأبيض صيف سنة 2002 لتنسيق عملية الترويج للحرب بين أفراد الشعب الأمريكي. وقد استمرت في العمل كمجموعة وسائل الاتصال الإستراتيجية بعد أن أزاح الغزو نظام صدام حسين عن السلطة، وكنت

أشارك في اجتماعاتها بعد أن عينت في منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. حضرت عدة اجتماعات لهذه المجموعة عندما كنت نائباً للسكرتير الصحفي بدلاً من سلفي حينما لم يكن بمقدوره حضور تلك الاجتماعات - بما في ذلك، في فترة شهر تشرين الثاني، نوفمبر.

أشار بعض المنتقدين إلى أن خطأ شريفة تتم مناقشتها في اجتماعات تلك المجموعة بهدف تضليل الجمهور بشكل متعمد. لم يكن الأمر كذلك. كانت هناك العديد من المناقشات حول كيفية ترتيب الأهداف والأفكار، وجعل روايتنا للقصة مؤثرة؛ ولكن لم تكن هناك أي مؤامرة تتعمد تضليل الرأي العام. على العكس من ذلك، كانت هناك مناقشات صريحة حول استراتيجيات وسائل الاتصال وإيصال الرسائل تركز على أرضية الأساليب المألوفة في الحملات الدائمة.

في ذلك الاجتماع الذي حضرته في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، الذي عقد بعد مدة قصيرة على صدور القرار الجديد للأمم المتحدة، تركزت المناقشة حول واحدة من الرسائل الرئيسة التي أردنا إيصالها إلى الشعب الأمريكي حينها - الحاجة إلى استخدام سياسة عدم التساهل تجاه النظام العراقي، وعدم القبول بأي نوع من التمويه أو الخداع من قبل صدام حسين. فقد دعا قرار الأمم المتحدة إلى التعاون الكامل وغير المشروط، والالتزام بالقرارات الدولية؛ وكان عليّ أن أؤكد على روحية هذه الرسالة من على المنصة، وهي رسالة كان الرئيس قد أكد عليها خلال اجتماعه مع أمين عام الأمم المتحدة كوفي عنان، والذي حضرته حينها.

بالرغم من أن حدسي كان يقول لي إننا ذاهبون إلى الحرب، فإنني لم أستوعب حينها أن رسائلنا كانت تظهر بوضوح وذكاء كم كان بوش مصمماً على تغيير النظام وذلك منذ الأيام الأولى لقراره مواجهة العراق؛ فقد كانت الكلمة التي ألقاها من على منبر الأمم المتحدة في شهر أيلول بمنزلة إنذار - فإما تقوم الأمم المتحدة بنزع أسلحة صدام حسين، أو أن الولايات المتحدة ستقوم بذلك. كانت رسالة عدم التساهل مؤشراً إضافياً على تصميم الرئيس على الإطاحة بالنظام بالقوة. لم يكن بمقدور صدام إثبات براءته

بصورة كليّة. فقد كانت سلطته تستند إلى وحشيته، وإلى قدرته على تصوير النظام بأنه أقوى مما هو عليه من أجل إخافة شعبه وكذلك إخافة أعدائه المحتملين مثل إيران. أعطت كل من سياسة عدم التساهل وقرار «الفرصة الأخيرة» الجديد بوش الكثير من المساحة من أجل المناورة، وحجة كبيرة لسياسته المتضمنة فرض تغيير النظام بالقوة.

بطبيعة الحال، سهل صدام حسين نسبياً على إدارة بوش القول إنها لا تملك خياراً آخر سوى القيام بغزو العراق، فبالرغم من السماح لمفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة بالعودة إلى العراق، فإنهم منعوا من زيارة بعض المواقع، وكانت التسجيلات التي قدمت لهم غير كاملة، وغير دقيقة؛ وقد ذكر المفتشون أنفسهم أن مهمتهم في ظل هذه الظروف سوف تستغرق شهوراً قبل أن يكون بمقدورهم التأكد من أن صدام قد التزم/ أو لم يلتزم بقرارات الأمم المتحدة. وقد توصل معظم الأشخاص الذين كانوا يراقبون ما يجري عن كثب إلى الاستنتاج بأن «صدام يمارس حيله القديمة نفسها. من الواضح أن لديه ما يخفيه. لقد مُنح الفرصة الأخيرة. وحان وقت التحرك». وهكذا فقد بدأنا بالتحرك.

أدار الرئيس بوش الأزمة بطريقة ضمنت بشكل كلي تقريباً أن استخدام القوة سيكون الخيار الوحيد الممكن. قام بذلك وفي جعبته التحذير الذي أطلقه في الكلمة التي ألقاها في الأمم المتحدة في شهر أيلول، بالإضافة إلى إعطاء الأوامر بزيادة الأسلحة وعديد القوات العسكرية في المنطقة، والتي لا يمكن لها ولأسباب لوجستية (أمور خدمية) البقاء في تلك المنطقة لأجل غير مسمى من دون أن يتم استخدامها. إنه أمر مثير للسخرية حقاً؛ ذلك أن أهم القواعد التي يتوجب على السكرتير الصحفي إتباعها هي: لا تقيد يدي الرئيس أبداً إذا لم تقتضِ الضرورة القصوى ذلك. وهذا يعني أنه لا يجوز لك أبداً أن تدلي بتصريح يمكن أن يحد من حرية الرئيس في تغيير المسار، أو القيام بخيار محدد في المستقبل. ولكن في المرحلة التي كان يتم الإعداد للحرب، سمح مستشارو الرئيس ليدي هذا الأخير أن تقيدا، وبذلك فقد وضعوا بوش في موقع جعل من مسألة تجنب الحرب أكثر صعوبة من القيام بشنها.

حقق الرئيس ومستشاروه عدة مكاسب عبر خلق هذا الدعم الهائل للحرب. فقد جعل مهمة خصومه السياسيين صعبة إلى درجة استثنائية، واضعاً جميع من عارضوا شن الحرب في موقع من يجادل ضد قضية تحولت إلى ما يشبه الأمر الواقع. أوقع صدام حسين في ما يشبه المصيدة، وأوضح أنه لم يعد مقبولاً بعد الآن استمرار هذا الدكتاتور بالمماطلة، والتلاعب بالمفتشين. كما أجبر دولاً أخرى - من بينها روسيا وفرنسا التي كانت تنحاز أحياناً إلى جانب العراق - على اتخاذ قرارات صعبة بشأن السماح بغزو تقوده الولايات المتحدة من أجل وضع حد لتهديد واضح ووشيك يمثلته نظام صدام حسين.

الأهم من هذا وذلك، فقد أحبط البيت الأبيض جميع المداولات والمناقشات حول الأهداف الأساسية والخطط الطويلة المدى لهذا الغزو. استطاع الرئيس ومستشاروه تجنب النقاش حول المسائل الكبرى المتعلقة بما يمكن أن يحدث مستقبلاً نتيجة لهذا الغزو، وذلك عبر الدفع بمسألة أسلحة الدمار الشامل إلى الواجهة، ومن ثم تراجع الحديث عن الموضوع الأكثر أهمية، والمتعلق بمستقبل الشرق الأوسط باعتباره مجرد تهديد طارئ على المدى القصير يجب معالجته الآن. فمن الذي سيتولى الحكم في العراق؟ وما الذي ستكون عليه ردة الفعل في المنطقة على هذا الغزو؟ وكم يلزم الولايات المتحدة من الوقت للبقاء في العراق؟ وأخيراً وليس آخراً، كيف سيتم حل التوترات بين التجمعات العرقية والدينية في البلاد؟

لم تظهر سوى قلة قليلة من هذه الأسئلة على شاشة الرادار الوطنية أثناء الإعداد لهذه الحرب. لكن كل هذه الأسئلة كانت ستلاحق الرئيس والأمة بأسرها من جديد في السنين اللاحقة عندما أصبح من الواضح أن المنطق الذي طرحه الرئيس لتعلييل لجوئه إلى الحرب - التهديد الذي تشكله أسلحة الدمار الشامل، وعلاقة العراق بالإرهاب - كان أقل من مقنع. إن الخداع وغياب الصدق اللذين تميزت بهما الحملة التي شنتها هذه الإدارة للترويج للحرب سيقوضان إلى حد كبير صدقية المرحلة الثانية من رئاسة بوش برمتها.



عندما كان بوش بصدد اتخاذ قراره للسعي إلى تغيير النظام الحاكم في العراق، فقد كان من الواضح أن فريق الأمن القومي لديه لم يقيم بما يكفي للتخفيف من حدة اندفاعه في اتخاذ هذا القرار، ولمساعدته في الاستيعاب الكامل لمحتوى هذا الصندوق المملوء باللهب الذي كان يفتحه، والمخاطر الناجمة عن ذلك، أنا أعرف الرئيس جيداً؛ ولذلك فأنا واثق من أنه لو قام أحد بإعطائه البلورة السحرية بحيث يمكنه عبرها استكشاف الكلف الحقيقية للحرب - أكثر من أربعة آلاف من الجنود قتلوا، وثلاثين ألفاً جرحوا، وعشرات الآلاف من المدنيين العراقيين الأبرياء قتلوا - لما اتخذ أبداً القرار بشن الحرب بغض النظر عما يمكن أن يقوله، أو يشعر أن عليه قوله علناً في هذه الأيام.

وبالرغم من أن أحداً لا يملك مثل هذه البلورة السحرية، فقد كان من السهولة بمكان إعداد دراسة متأنية تتضمن فهماً شاملاً لظروف وتاريخ العراق ومنطقة الشرق الأوسط وأخذها بعين الاعتبار في عملية اتخاذ القرار، كانت مسؤولية تقديم مثل هذه الدراسة تقع على عاتق مستشاري الرئيس الذين أخفقوا إخفاقاً ذريعاً في القيام بذلك. كان وزير الخارجية كولن باول الوحيد من بين جميع مستشاريه الذي أثار شكوكاً حول الحكمة من هذه الحرب. أما بقية أعضاء فريق السياسة الخارجية فقد كانوا منهمكين في مسألة تغيير النظام الحاكم، أو مهتمين على ما يبدو بالتكيف مع غرائز الرئيس وأفكاره بدلاً من طرح تساؤلات بشأنها، أو إعطائه دروساً حول المنطقة، كما كانت الحال بالنسبة لكوندي رايس.

أما المشكلة الأساسية الأكبر فقد تجلّت في الطريقة التي قرر فيها مستشارو بوش متابعة الحملة السياسية الدعائية لترويح الحرب بين الأمريكيين. كان كل ذلك جزءاً من الطريقة التي كان البيت الأبيض يمارس نشاطه بها، وكان ذلك هو الأسلوب المتبع في واشنطن؛ ويبدو أن أحداً لم يكن يرى أي مشكلة في استعمال هذه المقاربة في قضية خطيرة مثل القيام بعملية شن الحرب. كان يمكن لحملة ترويج للحرب أن تكون مقبولة أكثر لو ترافقت مع درجة عالية من الصدق والصراحة؛ لكن الأمر لم يكن كذلك. كانت أغلب الحجج التي سيقّت مدققة بعناية ويمكن إثباتها - وبالتحديد تلك الحجج التي طرحت

عبر ملحوظات أبقاها الرئيس، أو منتديات كتلك التي قدم فيها باول عرضه في مجلس الأمن في شهر شباط، فبراير سنة 2003. ولكن في الوقت الذي تصاعدت وتيرة الحملة، فقد تم التقليل من شأن التحذيرات ذات المصدقية، أو أنها ركنت جانباً. تم تجاهل المعلومات الاستخباراتية المضادة، وكانت تعامل بكثير من عدم الاكتراث. كانت الأدلة المستندة إلى مصادر موثوقة من الوسط الاستخباراتي تضاف إلى معلومات استخباراتية أقل مصداقية. فقد تمت إضافة التهديد النووي إلى تهديدات الأسلحة البيولوجية والكيميائية لخلق إحساس متعظم بالخطر الداهم، وضرورة مجابهته. أعطيت مسألة دعم الإرهاب ثقلأ أكبر عبر اللعب على الوتر المخادع الزاعم بوجود علاقة بين القاعدة والعراق. عندما وضعت هذه كلها في سلة واحدة، أصبحت القضية تمثل «خطراً كبيراً ومتزايداً» لا بد من مواجهته بصورة عاجلة.

اعتقد بعض مستشاري بوش، آخذين تاريخ صدام بعين الاعتبار، أن من الحصاد توقع الأسوأ؛ أما بعضهم الآخر، مثل تشيني، ورمسفيلد، وولفويتز، فقد كانوا يسمعون بشكل واضح لتنفيذ أهدافهم الخاصة بهم.

ربما كانت أهداف تشيني الشخصية هي الأكثر أهمية بين كل تلك الأهداف، آخذين بعين الاعتبار علاقته الوثيقة بالرئيس، وتأثيره عليه. وهي أيضاً الأجندة التي ربما بقيت طي الكتمان بسبب شخصية تشيني، ونزوعه نحو السرية. ربما كان دافعه هو إكمال المهمة التي بدأها عندما كان وزيراً للدفاع سنة 1991، عندما هزمت الولايات المتحدة صدام حسين، ودفعت بقواته خارج الكويت؛ إلا أنها لم تتقدم حينها نحو بغداد لوضع نهاية لنظام حكمه. كان تشيني أيضاً مرتبطاً ارتباطاً عميقاً بالسياسة الاقتصادية ومسائل الطاقة. من الممكن أنه كان ينظر إلى مسألة إزاحة صدام حسين على أساس أنها فرصة توفر لأمريكة ممارسة تأثير أكبر على احتياطات العراق من النفط، وهو ما يشكل فائدة لأمننا الاقتصادي والقومي.

على أي حال، عندما تقوم شخصيات لها ثقلها مثل تشيني ورمسفيلد وولفويتز بالسعي لتحقيق أهدافها وخططهما عن طريق الدفع بها إلى الرئيس بغية تنفيذها، فإن

تلك مشكلة واضحة. كان على كوندي رايس، مستشارة الأمن القومي، بصفتها المستشارة الأعلى للرئيس للشؤون الخارجية مواجهة أولئك المستشارين الأكثر خبرة والشديدي التمسك بأرائهم بدلاً من إفراح الطريق أمامهم. لكن تجاربي ومن قم اللاحقه مع كوندي ساقطني إلى الاعتقاد أن أكثر ما كان يهملها هو معرفة موقف الرئيس، ومن ثم تنفيذ رغباته في الوقت الذي تبذل جهداً سطحياً لمساعدته على استيعاب الاعتبارات والنتائج المحتملة كافة.

ما تقدم، يقودنا إلى سؤال مهم أثاره المنتقدون يتعلق بالرئيس نفسه. هل الرئيس غافل من الناحية الفكرية، أو كما يؤكد بعضهم، هل هو غبي فعلاً؟ يبدو الاتهام الأخير بالنسبة لي انعكاساً محزناً للمناخ السياسي السائد اليوم الفارق بالأوصاف السلبية التي يطلقها بعضهم على خصومهم، والنبرة العالية للكلام العاطفي الذي يستحوذ على اهتمام أكبر من الاهتمام الذي يناله الخطاب المتعقل والمتمدن. إن بوش يمتلك من الذكاء ما يكفي لكي يكون رئيساً، ولكن أسلوبه في القيادة، كما ذكرت آنفاً، يعتمد على حسه الفطري أكثر من اعتماده على النقاش الفكري العمق. يتركز فضوله الفكري على معرفة ما هو بحاجة إليه كي يقوم بتحديد سياساته، وتبنيها، والدفاع عنها. يقر بوش بحماسة بأهمية الدور الذي يلعبه الترويج للسياسات وتسويقها في عملية ممارسة الحكم هذه الأيام. وهكذا فإن مثل هذه المقاربة تبدو مفهومة إلى حد ما. ولكن كان على مستشاريه أن يقرؤا كم هي مؤذية قيادته الفطرية، وفضوله الفكري المحدود عندما تصل الأمور إلى حد اتخاذ قرارات مصيرية؛ وعلى ضوء المعطيات الموجودة حالياً، أصبح من المنطقي وضع إشارات استفهام حول قدرته على المحاكمة العقلية. من المؤسف قيام بعضهم بتصويره كشخص يعوزه الذكاء، ولكن هذه الصورة هي نتاج لأخطائه - التي كان من الممكن منع وقوعها لو أن معتقداته خضعت للتمحيص بشكل صحيح، وخضعت لانتقادات من كبار مستشاريه. فقد سمح كبار مستشاري بوش، وبالأخص من أعضاء فريق الأمن القومي، له بأن يكون في هذا الوضع الذي هو فيه هذه الأيام. وكانت نتيجة ذلك أن مصداقيته تفتت إلى شظايا، وتضرر موقعه على ما يبدو، إلى درجة لا يمكن إصلاحها.

تتحمل عقلية الحملة الدائمة بعض اللوم. فأتساءل مدة هذه الحملة، كانت الأولوية تتمثل في الحاجة إلى حشد الدعم الشعبي عبر تقديم أقوى عرض ممكن لقضيتك: بغض النظر عن كون قضية الحرب والسلام هذه مقاربة صادقة من الناحية الفكرية أم لا. الانضباط في توجيه الرسالة كان يعني تجنب السلوك القويم - على سبيل المثال، المراوغة في عملية رفض الأسئلة الموجهة إليك على أساس أنها مجرد «توقعات»، طالما أن قرار المضي في طريق الحرب ما يزال قيد الدرس. في جو واشنطن المعبأ حزياً، تعد الصراحة نوعاً من المخاطرة؛ إذ يمكن للنقاد أن يلوموا الكلمات ويوجهونها حيث يشاءون، وحيثما تقتضي مصلحتهم، ضاربين عرض الحائط بالإستراتيجية المخطط لها بشكل جيد.

في النهاية، يتحمل بوش بالطبع المسؤولية الكاملة عن غزو العراق. فهو من اتخذ قرار الغزو، وهو الذي وقّع على إستراتيجية الترويج للحرب التي لا يمكن وصفها بالصادقة أو الصريحة. يجب التعامل مع موضوع خطر كموضوع الحرب بانفتاح واستقامة. وهذا أقل ما يستحقه الشعب الأمريكي، وكذلك وحدتنا المقاتلة.

كان الجدل الدائر حول الكيفية التي استطاع بها بوش جر الأمة إلى الحرب على وشك أن ينفجر. وكانت الحرب الحزبية المبنية على حال دائمة من الارتياب على وشك أن تتدلع. فقد سبق وبُذِلَ الكثير من الجهد للترويج للحرب، وتم عرض الخطط التفصيلية لإسقاط نظام صدام حسين. لكن في المقابل لم يبذل جهداً موازياً، ولم تهدر طاقات وموارد من أجل الاستثمار في التخطيط لفترة ما بعد سقوط النظام، وبدء عهد الاحتلال. كان التخطيط والإعداد غير الكافيين واضحين وضوح الشمس في أعقاب هذا الغزو بعد أن طغى التمرد على المشهد، واغتتم الإرهابيون الفرصة ليتسببوا في أذى كبير للقوات الأمريكية، فقد ارتفع عدد الضحايا، وبدأ الشعب العراقي يعاني من دوامة عنف لا نهاية لها.

وقد تحولت الحرب إلى معضلة شكلت تحدياً متزايداً للإدارة. فبعد أن قام بخلق جو من الارتياب الذي أدى إلى تفاقم الحرب الحزبية، لم يعد بمقدور البيت الأبيض دعوة الحزب الآخر لتقديم الدعم له في الوقت الذي كان بأمس الحاجة إلى مثل هذا الدعم - من أجل الحرب، وكذلك من أجل قواتنا التي لبت نداء الواجب لخوضها. كانت الأسئلة

حول الخداع بشأن قضية الحرب تحوم فوق رؤوس الجميع. أما الحقيقة فقد كانت بين ناري سياسة الحزبين المتصارعين.

ولكن، ونحن نلج إلى شهر أيار، مايو سنة 2003، حين انتهى الجزء الأول من الحرب بنجاح، وحين وقف الرئيس مزهواً أمام الشعب الأمريكي، لم يكن باستطاعتي، وأنا داخل تلك المعمة، استشراف الحروب السياسية القادمة. كما لم يكن يدور في خلدي أن فرصة العمر سوف تكون في متناول يدي، وأنها ستضعني في الخطوط الأمامية للمعارك القادمة.

9

تَبَوُّءُ مَنْصِبِ السَّكْرَتِيرِ الصَّحْفِيِّ فِي الْبَيْتِ الْأَبْيَضِ

كانت المكالمات الهاتفية التي تلقيتها في عطلة نهاية الأسبوع تلك، منزلة مفاجأة بالنسبة لي. فقد اتصل بي آري إلى منزلي لإبلاغني أنه سيعلم يوم الاثنين الواقع في التاسع عشر من مايو، أيار سنة 2003 استقالته من منصب السكرتير الصحفي بحيث تصبح الاستقالة نافذة اعتباراً من منتصف شهر تموز، يوليو. كان تعليله لهذه الخطوة غير قابل للبس: قد أُكِّره على القيام بذلك.

قبل ذلك بأشهر قليلة، بادر آري في واحد من أحاديثنا العابرة إلى القول إن في نيته الاستمرار في عمله لبعض الوقت. حينها، كان يبدو مليئاً بالحيوية ومتحمساً للقيام بهذه الوظيفة. أعلم أنه كان يستمتع بالفعل بإجراء المقابلات الصحفية ومناوشة الصحفيين تحت أنوار مصابيح الأنوار الساطعة. لكنه كان يشغل هذا المنصب أثناء وقوع أحداث الحادي عشر من أيلول، والحرب في أفغانستان، وما بدا حينها أن الحرب في العراق قد وصلت إلى نهايتها الناجحة. فقد أعلن الرئيس قبل ذلك بأسبوعين، من على متن سفينة «يو. س. س. لينكولن» قبالة ساحل سان دييغو، وهو يقف أمام لافتة كتب عليها: «أنجزت المهمة» «أن العمليات العسكرية الكبرى في العراق قد انتهت؛ وأن الولايات المتحدة وحلفاءنا قد أحرزوا النصر». وكان آري قد عانى الكثير من الضغوط أثناء تأديته مهمة كبير الناطقين باسم الإدارة في أوقات عصيبة.

كان آري أيضاً قد تزوج حديثاً، إذ عقد قرانه في شهر تشرين الثاني، نوفمبر السابق. لم يكن بمقدوري تفهم ذلك في حينه؛ إلا أنني، وفي السنين التي تلت، استطعت أن أستوعب كيف تتراكم الضغوطات اليومية المستمرة، وتفعل فعلها في السكرتير الصحفي، فنحن

جميعاً لدينا كمّ محدودّ من المرات التي نستطيع فيها إعادة شحن طاقاتنا. وقد استنفذ آري كل طاقاته.

ذكر آري في تلك المكالمة أنه أوصى بأن أحل مكانه. قلت له إنه خدم الرئيس بامتداد كبير وإننا ستفتقده، كما عبرت لآري عن عميق امتناني له.

بعد أن أنهينا المكالمة، بدأ يتكون لدي إحساس بأنني ربما سأقحمُ قريباً في دائرة الضوء نفسها التي احتلها آري. طبعاً لم أكن حينها متأكداً؛ لكنني شعرت بأنني أظهرت ولائي الكامل لبوش. كنت موضع ثقته؛ وكانت علاقتنا قوية. برهنتُ أنني كنت أعرف الأسلوب الذي يرغب الرئيس في ممارسته، وأن لدي تفهماً عميقاً للطريقة التي كان يفكر فيها، والمبادئ التي كانت قراراته تنبثق منها - لهذه الأسباب مجتمعة

اعتقدت كارن هيوز أنني خلف جيد لآري بخبرته في واشنطن. كما أنني أظهرت أن بإمكانني تنفيذ ما أرادني الرئيس القيام به سواء على المنصة أم خارجها. فقد كنت أحل محل آري بشكل ممتاز في العديد من المناسبات؛ وعندما كان في إجازة لمناسبة عقد قرانه، استلمت جميع مسؤولياته، وأجريت العديد من اللقاءات الصحفية لمدة طويلة.

كما أظهرت أنني أحسن التصرف في حالات الأزمات والمآسي؛ وكان آخرها يوم السبت الواقع في الأول من شباط، فبراير سنة 2003، فقد كان آري خارج المدينة في عطلة نهاية الأسبوع، عندما انفجر المكوك الفضائي، كولومبيا عند دخوله إلى الغلاف الجوي وتسبب في قتل سبعة من رواد الفضاء الشجعان كانوا على متنه. في أوقات كتلك، كنت أعرف أن من المهم بشكل خاص تزويد الصحفيين بالحقائق والمعلومات من أجل التاريخ وذلك لكي يكون باستطاعتهم نقل الأخبار إلى الشعب الأمريكي بشكل كامل ودقيق.

بعد تلقي المكالمة الهاتفية من غرفة الموقع في ذلك الصباح، توجهت مباشرة إلى المكتب. كنت هناك من أجل مقابلة الرئيس الذي كان قد عاد مباشرة من كامب ديفيد لتوجيه خطاب إلى الأمة، وكنت أتبع خطواته كظله مدوناً الملاحظات بكل عناية. لن أنسى أبداً وقوفي في المكتب البيضاءوي في الوقت الذي كان يتحدث هاتفياً إلى أفراد

أسر رواد الفضاء الذين كانوا مجتمعين في قاعة المؤتمرات في مركز كينيدي للفضاء. لم يكن باستطاعة أي منا تخيل المعاناة التي كانوا يمرون بها: لكننا كنا نعلم أن ما كانوا يعانونه أبعد من الألم. كل ما كان باستطاعتي فعله هو الصلاة لأجلهم بطريقتي الأكثر شخصية والأكثر خصوصية، مثلي في ذلك، مثل الكثيرين في تلك القاعة وفي طول البلاد وعرضها.

قدم الرئيس إلى أفراد عائلات رواد الفضاء أصدق عزائه وصلواته، واصفاً ذلك اليوم بأنه «يوم مأساوي لأمريكة». بعد انتهاء المكاملة، كان على الرئيس الخروج من المكتب البيضاءوي إلى جناحه الخاص لفترة وجيزة جداً. فقد آله جداً التحدث إلى العائلات وكان يحتاج إلى ثوانٍ قليلة ليستجمع قواه قبل التوجه إلى حيث سيتحدث إلى الصحفيين حول هذه المأساة في قاعة روزفلت المجاورة.

عصر ذلك اليوم، وبعد أن وجه الرئيس خطاباً إلى الأمة، انضمت إلى جمع من الصحفيين وقمت بتزويد الصحافة بحقائق ومعلومات عن نشاط الرئيس في ذلك اليوم. وتاماً كما حدث في الحادي عشر من أيلول، كل ما استطعت أن أفكر به هو: لماذا؟ - لماذا كان على ذلك أن يحصل؟ وكم كنت أفضل أن لا أحمل عبء التعامل مع مسائل كهذه. لكن كانت هذه حقائق الحياة في البيت الأبيض: فقد كان علينا دائماً أن نكون على أهبة الاستعداد لتوقع كل ما هو غير متوقع.

بدا وكأن كل شيء كان يحدث بسرعة بعد أن أعلن آري عن ترك منصبه. وبحلول منتصف الأسبوع وتحديداً في التاسع عشر من شهر أيار، قابلت رئيس أركان البيت الأبيض أندي كارد لمناقشة التوقعات من قبل الجانبين. يوم الأحد، تحدثت إلى الرئيس. كان الرئيس قد استضاف حليفه الحميم، رئيس الوزراء الياباني كويزومي في منزله في كروفورد يومي الخميس والجمعة، وأمضى بعدها عطلة نهاية الأسبوع هناك. أثناء رحلة العودة على متن الطائرة الرئاسية، عرض عليّ المنصب بصورة رسمية.

قال الرئيس: «أخبرت الجميع أنه لا حاجة بي إلى البحث عن أي شخص آخر: فنحن لدينا الشخص المناسب بحسب رأيي».

أجبت: «هذا شرف لي يا سيدي. سأبذل كل ما بوسعي كي أخدمك وأخدم بلادتي بشكل مُرضٍ».

وافق الرئيس على كلامي، وقال: «يجب أن تشعر أن هذا تشريف لك. إذ ليس هناك العديد من الناس الذين يمكن لهم القول إنهم شغلوا منصب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض. إنها أخوية محدودة العدد».

كان ذلك الأسبوع دوامة بالنسبة لي. فقد تغير مجرى حياتي بسرعة؛ ذلك أن الواجبات اليومية التي كان يتعين عليّ القيام بها لم تترك لي سوى القليل من الوقت لكي أدع كل شيء آخر جانباً وبشكل كامل. ولكي أتأمل في كل الاعتبارات الضرورية والبعيدة المدى، والتي يتعين عليّ استقصاءها. كنا، الرئيس وأنا، نعرف بعضنا جيداً. كنت أعرف ما كان الرئيس يتوقعه، كما كنت أعرف متطلبات الوظيفة، وكنت أعرف كيف كان يريدني أن أقوم بها. ولكن كان عليّ التأكد من أمرين اثنين.

الأمر الأول يتعلق بحرية التواصل مع بوش. وعندما تحدثت إلى الرئيس بشأن ذلك طمأنتني قائلاً: «بالتأكيد؛ فأنا أعرف أنك تحتاج إلى ذلك من أجل القيام بعملك. سوف يكون بإمكانك التواصل معي في أي وقت تحتاج لرؤيتي».

أما الأمر الثاني فيتعلق بحرية حضور الاجتماعات المهمة. أردت التأكد من أنني سوف أكون حاضراً في جميع اللقاءات الرئاسية - بدءاً من اللقاءات الصحفية حول سياسة الحكومة وانتهاءً بالاجتماعات مع قادة العالم - والتي كان أري يحضرها. لن تكون هناك أي مشكلة حول هذا الأمر أيضاً، هذا ما قاله الرئيس. فكرت في أن أذهب أبعد من ذلك عبر طلب حضور اثنين من الاجتماعات اللذين لم تتم دعوة أري إلى حضورهما. ربما كان عليّ أن أطلب، لكنني لم أفعل، ذلك أنني قررت بيني وبين نفسي أن ذلك يمكن أن يتم طلبه بشكل أكثر فعالية بالتدريج عبر أندي أو عبر قنوات أخرى.

كنت أعرف ماذا يريد الرئيس عندما كان الأمر يتعلق بالسكرتير الصحفي. فهو لم يكن يريد من الناطق باسمه أن يخرج عن سياق النقاط التي عليه التحدث عنها، أو أن يكون في قلب الأحداث من دون مسوغ أو بشكل غير متوقع. ويعود ذلك جزئياً إلى كون بوش

يفضل أن يعلن الخبر بالتوقيت المناسب له، من دون أن يعطي وسائل الإعلام صلاحية ضبط إيقاع خطته. ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى أن بوش لم يكن يثق بالصحافة الأمريكية التي كان يعتقد بأنها تحمل في طياتها تحاملاً ليبرالياً ضد الجمهوريين. وبحكم أنه يعرف أن على السكرتير الصحفي التعامل مع الصحافة بشكل وثيق على امتداد اليوم، فقد أراد له الرئيس أن يكون على اطلاع على المعلومات الضرورية؛ إلا أن مفهومه لما هو «ضروري»، لا يترك للسكرتير الصحفي سوى مجال محدود جزئياً للحركة.

في المراحل الأولى من رئاسته، وفي تعليق تناقله الطاقم الصحفي العامل في البيت الأبيض قتل الرئيس من شأن أري من دون قصد بالقول إن هناك أوقاتاً سوف يقول لأري فيها إنه لن يطلع على بعض الأمور. وأضاف، عندما يحصل شيء كهذا، فإنه لا يتوقع من أري أن يحتج على ذلك. في نهاية المطاف هذا العديد من كبار مستشاري الرئيس حذوه في هذا الأمر.

لكن كل شيء كان يحدث بسرعة، ولم يكن لدي إلا القليل من الوقت للنظر في هذا العرض الوظيفي من وجهة نظر أنانية - أي التأمل فيما إذا كانت هذه الوظيفة مناسبة لي. فقد قطعت على نفسي عهداً منذ مدة طويلة بالالتزام بخدمة بوش. وكانت ردة فعلي الأولى، كشخص يؤمن إيماناً راسخاً بالعمل في مجال الخدمة العامة، أن هذا العرض الأخير المقدم لي للعمل بصفة كبير الناطقين باسم البيت الأبيض، ليس مجرد فرصة شخصية عظيمة، بل هو واجب لا بد لي من القيام به. كما كنت أوّمن دائماً بأن الله يفتح أبواباً لحكمة يعلمها هو. شعرت بأن هذا ما يحدث الآن بالضبط، فأنا لم أخطط يوماً للسير في طريق يؤدي بي إلى أن أصبح السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. وما فعلته ببساطة هو أنني ولجت الأبواب التي فتحت لي، وهذه الأبواب أوصلتني الآن إلى هذه اللحظة. ويمكن أن يكون السبب وراء دعوتي لولوج عتبة هذا الباب تحديداً خارج نطاق قدرتي على الاستيعاب؛ إلا أن إيماني بالله وبتدبيره كان لا يساورني الشك فيه.

لكن الطبيعة البشرية تقتضي أن يطرح المرء تساؤلات: وفي حقيقة الأمر يفرض علي إيماني القيام بذلك. وعندما توفر لدي الوقت للتقاط أنفاسي مباشرة بعد قبولي تبوء

هذا المنصب، أضحت تحفظاتي حول خوض هذه التجربة من الجدية بحيث إنتني أجَلْتُ الإعلان رسمياً قبولي لهذا المنصب إلى وقت متأخر من شهر حزيران، يونيو. كانت حجتي في ذلك هي أنني كنت بحاجة إلى الوقت لتحضير نفسي لهذا المنصب بهدوء، وبعيداً عن الأضواء. وعندما ظهر نبأ تعييني في منصب السكرتير الصحفي إلى العلن، فقد تلاشت هذه الفرصة. لكنني اغتنمت هذه الفسحة من الوقت للتشاور مع بعض من أكثر من أثق بهم من المستشارين - أستاذي السياسي، ووالدي، وأخي الأكبر مارك، الذي يتمتع بكثير من الحكمة، (والذي كان يتميز بالمنطق العام بالرغم من موقعه المزدوج بوصفه حاملاً لشهادة الدكتوراه وكطبيباً) بالإضافة إلى أحدث عضو في دائرتي المغلقة وأعني بها خطيبتتي جيل (كنت قد طلبت يدها في نهاية شهر آذار، مارس).

شجعوني جميعاً على قبول هذا العرض الذي وصفوه بالفرصة العظيمة. كما نصحوني بالاستمرار في هذا الموقع لسنتين كبداية. وذلك للتأكد من مجرى الأمور؛ وفي أي حال، فإن هذه التجربة ستكون مفيدة لي بشكل استثنائي.

لكن ذلك لم يخفف من شكوكي. كنت أتساءل فيما إذا كنت أرغب، في واقع الأمر، في أن أكون في دائرة الضوء في واشنطن التي تعج بالقبح والخسّة. ونظراً لأنني نشأت في كنف أمٍ انخرطت في العمل السياسي، فلم أكن ألقِ بالأبداً للإحساس بالمرارة الذي يتغلغل في لفة الخطاب، وبالتحديد، في واشنطن. هل كنت حقيقةً، أرغب في أن أضع نفسي - والآن، جيل - تحت المجهر السياسي؟ لم أكن لأعير الإهانات والتنايذ بالألقاب أي اهتمام أكبر من الاهتمام بالسهام التي كانت تطلق باتجاه والدي عندما كنت صبياً. ربما علمتني تجربة الصبا تلك، أن لا أنزعج على الإطلاق من أسوأ أشكال التهجم المبني على الكراهية، أو المنبثق من روح خسيصة. ولكن هل يستحق الأمر كل هذا العناء؟ كان شيء ما، حول هذه الحال، يعتصرني من الداخل.

كان السؤال الكبير يتمحور فيما إذا كنت سأتمتع بقدرٍ وافر من الحرية والمرونة والتسهيلات التي ستساعدني في القيام بعملٍ بشكلٍ مُرضٍ، وفي أن أكون السكرتير الصحفي الذي أملت أن أكونه. هل سأكون مؤثماً على السبب الحقيقي وراء كل قرار مهم

تتخذ الإدارة؟ هل سيسمح لي في أن أكون شاهداً على التدخل بين الضغط السياسي والمصلحة القومية التي تساعد في صياغة القرارات السياسية - أم أنني سأزود فقط بالمنتج النهائي، ويطلب إلي القيام بتسويقه تدريجياً؟ هل سيكون بإمكانني القيام بشكل دائم بالمساهمة في صياغة الرسالة التي تريد الإدارة توجيهها، والتأثير في وجهتها نحو الشفافية والصدق، أم أنني سأترك في الظلمة أحياناً؟

لم يكن حينها من السهل علي شرح كل تلك الهواجس للأشخاص الذي لجأت إليهم من أجل إسداء النصيحة الشخصي. كان من المتوقع أن تكون عشت هذه التجارب بنفسك في البيت الأبيض في عهد بوش. الآن فقط أضحي باستطاعتي تقدير كل ذلك والتأكد من أنه كان علي بذل جهد أكبر لتغييره حينها - ليس بالتدريج بعد أن بدأت العمل، بل قبل أن أوافق على قبول العرض.

لقد تمت طمأنتي إلى أنه سيكون بمقدوري ممارسة حرية التواصل مع الرئيس والاطلاع على معظم الاجتماعات الرئاسية، وكان هذا يعني أنني سأكون شاهداً على صياغة العديد من السياسات التي يتوقع مني أن أقوم بالدفاع عنها، وكانت هذه معاملة معيارية للسكرتير الصحفي للبيت الأبيض، وكانت غاية في الأهمية. فلكني يكون عمل السكرتير الصحفي فعالاً، عليه أن يكون مطلعاً على مجريات الأمور.

لكن كان من الواضح أن قيوداً ستكون مفروضة على حرية التواصل تلك، فتماماً مثل أري، سوف لن أدمى إلى بعض المناقشات الحساسة المتعلقة باتخاذ القرارات، خصوصاً تلك الاجتماعات التي تعقد على نطاق ضيق، وغير رسمي، والتي كان بوش يرغب أن تبقى المعلومات حولها في أضيق نطاق ممكن، ومقتصرة على أقل عدد ممكن من الأشخاص - ولا يتم الإعلان عنها إلا في مراحل لاحقة. فقد كان السكرتير الصحفي يستثنى من حضور اجتماعات «التخطيط الاستراتيجي»، ولم يكن بوش يشعر أن السكرتير الصحفي يجب أن يدعى بشكل منتظم إلى اجتماعات مجلس الأمن القومي. كما استثنى السكرتير الصحفي من حضور «اجتماعات الاتصالات» اليومية التي كانت تتم في المكتب البيضاوي وتضم كلاً من الرئيس، ونائب الرئيس، وأندي كارد، وكارل روف، وكوندي رايس، وكارن هيوز (وفيما بعد، دان بارتليت).

كانت هناك بعض الطرائق للتحايل على بعض هذه الإقصاءات التي لم تكن من بينها ما تم ذكره آنفاً، بالرغم من أنني بذلت بعض الجهد كي يتم ضمي إلى تلك الاجتماعات. كان ذلك يعني أحياناً ظهورك في اجتماع لم تتم دعوتك إليه بالأساس. كان من الممكن في أحيان أخرى الحصول على معلومات كاملة وفي الوقت المناسب من أشخاص حضروا الاجتماع. وفي بعض الأحيان، كان بإمكانني التوجه مباشرة إلى الرئيس الذي كان إما يخبرني بما أردت معرفته بنفسه، أو إذا اقتضت الضرورة، القيام بإجراء مكالمات هاتفية أتحدث فيها إلى المستشار ذي الصلة. كانت هذه الطرائق الالتفافية تساعدني بشكل دائم تقريباً في الحصول على المعلومات التي أحتاجها.

كنت أشعر أيضاً أنني أتمتع بميزة إضافية لم يكن أري يتمتع بها في مسألة الحصول على المعلومات. فقد كانت علاقتي بالرئيس أكثر قدماً نظراً لأننا ذوو جذور تكساسية. شعرت بأن الجميع في دائرة الرئيس الضيقة كان ينظر إلي باستحسان وثقة - ربما أكثر مما كان أري يتمتع بهما. على سبيل المثال، عندما علمت كوندي رايس أن أري كان يطلع على ملحوظات استلت من اتصالات الرئيس بقيادة الدول، قامت فوراً بسحب هذه الصلاحية منه. (كان البديل بالنسبة لي يكمن في التواجد في المكتب البيضاوي خلال إجراء هذه المكالمات الهاتفية المهمة والاستماع إلى ما كان يدور حينها بشكل مباشر). كان انطباعي أن كارن هيوز اعتبرت أن أري لم يكن أحياناً منضبطاً بما فيه الكفاية وهو على المنصة في قاعة اللقاءات الصحفية. على سبيل المثال، في إحدى اللقاءات الصحفية المصغرة، أثار أري زوبعة نارية عندما أشار إلى أن محاولة البيت الأبيض في عهد كلينتون تحقيق سلام شامل في الشرق الأوسط أدت في واقع الأمر إلى تصعيد في العنف هناك. كنت ألج إلى المكتب البيضاوي عندما سمعت كارن وهي تشكو أري إلى الرئيس بحضور كوندي. وقد أجبر أري على التراجع عن تصريحه ذاك في وقت لاحق من اليوم نفسه.

ولكن، وكما بدأت تتضح الأمور أمامي شيئاً فشيئاً، فإن ما كان مدعاة للانزعاج أكثر من مسألة القيود المفروضة على حرية السكرتير الصحفي في الوصول إلى المعلومات، هو ذلك الجو من السرية داخل الإدارة الذي يتجلى في الموقف السلبي من وسائل الإعلام الوطنية، وما ينتج عن هذه العقلية من دعم محدود للسكرتير الصحفي.

على سبيل المثال، كان الرئيس يرغب في حفظ المعلومات ضمن نطاق البيت الأبيض. كانت اجتماعات منتظمة تعقد بين الرئيس ونائب الرئيس، أو بينه وبين آندي كاردي أو كارل روف، وهذه الاجتماعات كان لها طابع سري. وهذا أمر مفهوم - فعندما يجتمع الرئيس مع مستشاريه المقربين، فإنهم يرغبون بالتحدث بكامل الحرية والصراحة؛ وأي طرف ثالث، حتى لو كان عضواً موثقاً في الفريق، يمكن أن يحد من هذه الحرية. لكن هذا الباب المغلق في البيت الأبيض في عهد بوش كان مدعاة للقلق قليلاً. فلقد كان لتشيبي من السلطة والتأثير أكثر مما كان لأي نائب رئيس في تاريخ الولايات المتحدة، ولا يعرف أحد بالضبط كيف استطاع أن يوسع دائرة نفوذه تلك. وبسبب أنه لم يكن بمقدوري الاقتراب من طريقة تفكيره، أو إدراك الطرائق التي يقدم فيها نصائحه إلى الرئيس، فقد ترك كل ذلك ثقباً أسود كبيراً في إدراكي لما يحصل داخل الإدارة. ولقد حصل الشيء ذاته عندما لم أخطّ علماً بصنع القرارات ذات الصلة، والتي اتخذت في لقاءات ثنائية، أو لقاءات لمجموعة صغيرة محددة. إن البقاء في العتمة هو وضع غير مريح البتة بالنسبة إلى أي سكرتير صحفي.

بشكل عام، تكون لدي اقتناع بأن إدارة بوش لم تقدم سوى الحد الأدنى من الدعم لدور السكرتير الصحفي. كانت هناك قلة قليلة فقط من بين كبار مستشاري الرئيس الذين أيدوا فكرة أن يكون السكرتير الصحفي على اطلاع بالتغيرات في مجريات السياسة التي تجري خلف الكواليس والأسباب وراء هذه التغيرات. الأسوأ من ذلك كله، فحتى بعد أن يكون السكرتير الصحفي قد أحيط علماً بواحد من التطورات المهمة، وتلقى التفاصيل حول هذا الحدث من أحد كبار المستشارين، فإنه سيجد نفسه متورطاً في لعبة الأسئلة العشرية. لا يجوز لمن تم تكليفه بإطلاع الصحافة والجمهور على الحقائق أن يفرض عليه خوض غمار مثل هذه الألعاب المثيرة للإحباط.

كان الإحباط الذي عانى منه آري بسبب صعوبة الحصول على المعلومات واحداً من الأسباب التي جعلته يحترق مهنيّاً في وقت أقرب مما توقع. فموقع السكرتير الصحفي، مثله مثل أي موقع رفيع المستوى في البيت الأبيض، هو وظيفة قاسية، ومستهلكة للوقت

بشكل لا يصدق. هناك الكثير من التحديات التي يجب مواجهتها يومياً من دون أن يتعين عليك أن تمضي وقتاً غير محدود في محاولة منك للسيطرة على مجريات الأمور، أو تحاول أن تلحق بالحدث في الوقت الذي تكون عقارب الساعة تتحرك، ويكون هناك بث حي بوجود الكاميرا والصحفيين في انتظارك بعد لحظات. ولا يجب على أي سكرتير صحفي أن ينتابه القلق من أن تكون الصحافة قد اكتشفت ما حدث داخل البيت الأبيض قبل أن يقوم هو بالإعلان عن ذلك.

مع مضي الوقت، بدأت أتبين أن السبب الذي جعل الآخرين يتعاملون مع السكرتير الصحفي بهذه الطريقة لا علاقة له بالشخص الذي يتبوأ هذا الموقع، بل هو متجذر في انعدام الثقة بوسائل الإعلام الوطنية؛ ذلك أنه لا الرئيس، ولا الغالبية الساحقة من مستشاريه في الدائرة الضيقة تعاملوا يوماً باحترام كبير مع وسائل الإعلام الوطنية بمن في ذلك طاقم الصحفيين العامل في البيت الأبيض. أشار آندي كارد ذات مرة إلى أنه يرى في وسائل الإعلام العاملة في واشنطن مجموعة «مصالح خاصة» أخرى يتعين على البيت الأبيض أن يتعامل معها كما يتعامل مع قوى الضغط أو المؤسسات التجارية. هذه الملاحظة كانت مذهلة وموحية في آن.

كان بوش شأنه شأن العديد من الرؤساء، يعد الصحافة بغيضة، أو شراً لا بد منه. فالصحفيون شرذمة من الوسطاء يقفون بينه وبين الشعب الأمريكي؛ وهم غالباً ما يبالغون في تنقية أو ترشيح رسائله الواضحة التي يوجهها إلى الشعب، ويعملون أحياناً على تخريب صورة إدارته أو إضعاف روابطها مع المواطنين. عززت الشكاوى من قبل المحافظين، على امتداد عقود من الزمن، من «وسائل الإعلام الليبرالية» والتي تعود إلى المرحلة التي وجه فيها سبيرو أغنيو نقداً عنيفاً ضد من وصفهم «بنواب السلبية المتأنقين» فرضية أن الصحافة لن تترك أبداً أي رئيس جمهوري مرتاح البال. وبسبب هذا الشحن العاطفي ضد الصحافة، لم تعتقد الغالبية العظمى من فريق بوش في البيت الأبيض بضرورة تزويد وسائل الإعلام بالكثير من المعلومات اللهم إلا القليل، القليل من البيانات المنتقاة بعناية كي تدعم موقف الرئيس، ولا توفر للمعارضة أي منصة لانتقاده.

غالباً ما أواجهُ إلى يومنا هذا، بأسئلة حول نقد «وسائل الإعلام الليبرالية». هل هذا صحيح؟ هل أن سبب المشكلة في واشنطن يعود جزئياً إلى حقيقة أن الصحفيين ذوي الميول اليسارية هم في حقيقة الأمر في حال حرب مع السياسيين المحافظين في محاولة منهم لإسقاطهم؟

جوابي على مثل هذه الأسئلة هو نفسه دائماً. ربما كان صحيحاً أن أغلب الصحفيين، والكتاب والإعلاميين العاملين في التلفزيون ليبراليون من الزاوية الشخصية، أو أنهم يتزعمون باتجاه اليسار، ويميلون نحو التصويت للديمقراطيين. تؤكد صحة ذلك الاستبيانات واستطلاعات الرأي بين العاملين في وسائل الإعلام؛ إلا أن هذا الميل باتجاه اليسار ربما أصبح أقل وضوحاً في السنين الأخيرة، مع بروز تنوع أكثر اتساعاً في مصادر الأخبار بما في ذلك فوكس نيوز التي تسلط الضوء على شعبية آراء المحافظين ومن ثم حيويتها التجارية. الأهم من ذلك، كل ما شاهدته بصفتي سكرتيراً صحفياً، ومراقباً منذ مدة طويلة للمشهد السياسي ووسائل الإعلام، يشير إلى أن أي محاباة ليبرالية ليس لها سوى تأثير محدود في الطريقة التي تصل فيها المعلومة إلى الجمهور الأمريكي.

فالعالية العظمى من الصحفيين - بمن فيهم أولئك العاملون في الطاقم الصحفي للبيت الأبيض - هم أناس شرفاء؛ عقولهم منفتحة ومهنيون. يبذلون كل ما بوسعهم لتقديم كل جوانب القصص التي ينقلونها، وهم بالتأكيد لا يتعاملون مع المعلومات أو البيانات الصادرة عن إدارة محافظة بقسوة مفرطة، أو تشكيك مبالغ فيه. وحتى عندما تنساب بعض المحاباة هنا أو هناك، فإنني على يقين من أن الجمهور يراها على حقيقتها. ولم تكن في إدارة بوش نعاني من أي صعوبة في إيصال كل الرسائل التي أردنا نقلها إلى الشعب الأمريكي.

وحقاً أقول إن طاقم الصحافة الوطنية ربما أظهر الكثير من المراعاة للبيت الأبيض وللإدارة فيما يتعلق بأهم قرار كان على الأمة مواجهته خلال سني وجودي في واشنطن، وأعني به شن الحرب على العراق. لكن انهيار منطق الإدارة حول أسباب شن هذه الحرب، الذي أضحى جلياً بعد أشهر على شنّها، لا يجوز أبداً أن يشكل مفاجأة

لأحد. كان من حق الشعب أن يكون أكثر اطلاعاً قبل هذه الوقائع، على أشكال الالتباس والشكوك والتوضيحات كافة التي كانت المخابرات تخفيها حول نظام صدام حسين. لم تفعل الحكومة إلا القليل، القليل لتوضيح هذه الالتباسات للشعب؛ وكان على الصحافة أن تركز على هذا الضعف، لكنها لم تفعل ذلك لأن تركيزها كان في مكان آخر - تغطية المسيرة باتجاه الحرب، بدلاً من التركيز على ضرورة تلك الحرب.

في هذه الحال، لم ترتقِ «الصحافة الليبرالية» إلى مستوى السمعة التي كانت تتمتع بها. ولو فعلت، لكانت قدمت خدمة أفضل للأمة.

سوف أخطو خطوة أخرى إلى الأمام في هذا السياق. إنني أميل إلى الاعتقاد أنه يجب اعتبار وسائل الإعلام ذات التوجه الليبرالي في الولايات المتحدة أمراً إيجابياً. فعندما أعود بالذاكرة إلى العديد من الإدارات الرئاسية الماضية - إدارتي بوش الأب والابن، وبيل كلينتون، ورونالد ريغان، وجيمي كارتر، وجيرالد فورد - فإنني أشاهد سلسلة من القادة المحافظين والوسطيين الذين هم إما على يمين الوسط، أو على يساره؛ والذين نهجوا سياسات صممت لإرضاء السواد الأعظم من الناخبين الأمريكيين المنتمين إلى الطبقة الوسطى. جميع هؤلاء الرؤساء كانوا على الأقل معتدلين فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية، وكان توجههم ينحو بشكل عام باتجاه تأييد رجال الأعمال، كما كانوا ضمن الخط العام حول معظم القضايا الأخرى بدءاً من السياسة الخارجية، مروراً بالتعليم، وانتهاءً بقضايا البيئة. كما كان قادة الكونغرس الذين تعاونوا معهم بشكل عام، ضمن التوجه نفسه - سواء كانوا محافظين أم وسطيين. ولم يكن هناك ليبراليون متطرفون على امتداد السنين الأربعين الأخيرة يحتلون أي مواقع ذات سلطات كبيرة في السياسة الأمريكية.

ضمن هذه الظروف، يمكن لوسائل الإعلام التي ينظر إليها عموماً على أنها ليبرالية أو تنزع نحو اليسار أن تؤدي دوراً مهماً ومفيداً. يمكن لها أن تدافع عن مصالح الناس وقضاياهم التي تنتزع اعترافاً قصير المدى من السياسيين المحافظين الذين يسرون ضمن الاتجاه السائد: مثل الأقليات العرقية، والنساء، والطبقة العاملة، والفقراء،

والمحرومين. وكما يقول المثل السائد، فالصحفي الليبرالي يجب أن يتبنى مبدأ «إراحة المذبذب وتعذيب المرتاحين»، في معرض إبرازه لقضايا يمكن لولاه أن يتم إهمالها أو تجاهلها، وفضحه للأخطاء، ومساعدته لأولئك الذين يعملون في مجالي الحكومة والتجارة في أن يتصرفوا بأمانة.

أكثر من ذلك، فأنا أرحب بوسائل الإعلام التي تعتمد التشكيك وتبدي عدم الثقة. وكلما أمعنت في ذلك، أضحت الأمور أفضل - طالما أنها تتصرف بأمانة وعدالة. فأولئك القابعون في سدة السلطة يتوجب عليهم بشكل دائم، أن يبذلوا كل ما بوسعهم كي يكسبوا ثقة من يحكمون. يجب أن يكونوا أمام تحدٍ دائم لإثبات أن ما يقومون به هو الصواب، ولإثبات أنهم جديرون بالثقة، ولإثبات أنهم خاضعون للمحاسبة. هذه هي الطريقة التي يمكن لنا بواسطتها الحصول على الحقائق المهمة، وأحياناً الصعبة. ففي مجتمع اليوم المبني على المعلومات، سيدفع أي صحفي أو وسيلة إعلام ثمناً باهظاً إذا تجاوز حدوده. فقد راقبت عن كثب كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث عندما ترك أحدهم في محطة CBS News الإخبارية لتعامله المسبق أن يلوث تغطيته لأحد الموضوعات (وتحديداً الفضيحة المتعلقة بالوثائق المزورة التي استخدمها دان راثر لاتهام بوش بتلقيه معاملة خاصة أثناء خدمته في سلك الحرس الوطني). فقد جلبت حفنة من العاملين في مجال الأخبار الذين استماتوا في محاولتهم إسقاط الرئيس المصيبة على رؤوس أصحابها أنفسهم.

لذا، لا أتفق مع أولئك الذين ينددون «بوسائل الإعلام الليبرالية». إذ لا مشكلة لي مع أي صحفي ليبرالي يؤدي وظيفته بروح مهنية، وكنت بالتأكيد سعيداً بالتعامل معهم بصفتي سكرتيراً صحفياً للبيت الأبيض. المشكلة الحقيقية في وسائل الإعلام تكمن في مبالفتها في الترويج للغط، وأيضاً مبالفتها في التركيز على من هو الرابع في واشنطن ومن هو الخاسر فيها، وبحثها الدائم عن يمكن لها أن تهاجمه. تتسبب هذه العادات السيئة في ضياع الحقائق الأكبر التي تهم المواطن في خضم هذا الخليط.

أغلب العاملين في البيت الأبيض في عهد بوش، لا يشاطرونني الرأي بشأن فوائد وجود وسائل إعلام ليبرالية التوجه. كما أظن أن القلق بشأن التعامل الليبرالي يساعد في فهم

ميل فريق بوش لبناء جدران لعزل وسائل الإعلام عنها. ولسوء الحظ، كان السكرتير الصحفي يجد نفسه أحياناً خارج هذه الجدران أيضاً.

بالرغم من كل هذه السلبيات، قبلت نصائح أفراد الدائرة الذين استشارتهم بشأن قبول منصب السكرتير الصحفي. فقد كانت لي دائماً حرية الوصول إلى الرئيس الذي كان منفتحاً عليّ بشكل مُرضٍ. كما شعرت بأن علاقاتي مع بقية أفراد الدائرة الداخلية كانت من المتانة بحيث إنه كان باستطاعتي التغلب على بعض العقبات الإضافية في وجه حسن أدائي لعملي. كنت أعتقد أن باستطاعتي العمل تدريجياً لإزالة العديد من العقبات التي شعرت أنه لا مسوغ لها. ولو كانت هذه العقبات هي المشكلة الوحيدة التي واجهتني في أدائي لهذه المهمة، لاتخذت الأمور منحى آخر تماماً.

إلا أنه وبحلول يوم الثلاثاء الواقع في الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، وهو اليوم الذي استلمت فيه منصبي رسمياً كسكرتير صحفي للبيت الأبيض، بدأت أتبين مدى صعوبة محاولة مساعدة الرئيس في تجاوز التحدي الأكبر الذي يواجهه - ألا وهو إعادة الاعتبار لمصداقيته التي كانت تتهاوى. وكذلك رأي الناس بأدائه.

أضحت الشكوك حول أسلحة الدمار الشامل في العراق أقوى من أي محاولة للتغطية عليها ليس فقط خارج نطاق الإدارة، بل داخلها أيضاً. مع ذلك، كان العديد من بيننا بمن فينا الرئيس نفسه يتعلق بجمال آمال زائفة، أدرك متأخراً صعوبة تحقيقها، أنه في الوقت المناسب فإن فريق التفتيش الذي تقوده الولايات المتحدة بمصادر تمويله الواسعة وكثرة أفراد سيكتشف أسلحة صدام - وهي الأسلحة التي كنا نعرف أنه يمتلكها - المخبأة داخل عنابر أو مدفونة تحت رمال الصحراء العراقية. لم يكن باستطاعة المخابرات أن تكون أكثر بعداً عن هذا الهدف. لا بد أن يكون صدام قد خبأ على الأقل بعضاً من أسلحة الدمار الشامل في مكان ما، في العراق. أي كشف في هذا الصدد سوف يكون مفيداً. كان هذا هو الأمل الكاذب الذي حدا بالرئيس كي ينبري للإعلان أننا وجدنا أسلحة على شكل مخبرين بيولوجيين متنقلين للأسلحة - لم ينقض سوى القليل من الوقت قبل أن تعلن المخابرات أن هذين المخبرين ليسا مخبرا أسلحة على الإطلاق.

بدأت شكوكي الخاصة تزداد، وتتخذ شكلاً أكثر وضوحاً وذلك قبل أسبوعين من اعتلائي منصة التصريحات في قاعة اللقاءات الصحفية. أذكر جيداً تلك اللحظة الفاصلة في تطوري النفسي - هي لحظة قلبت فيها الطاولة حيث تلقى السكرتير الصحفي رؤية قيّمة من أحد الصحفيين.

في أحد الأيام، أظلت أن كومبتون، وهي مراسلة مخضرمة ومحترمة تقوم بتغطية أخبار البيت الأبيض لصالح إذاعة ABC News، برأسها إلى داخل المكتب الذي كنت أشغله بصفتي نائباً للسكرتير الصحفي، والذي كان يقع خلف المنصة في قاعة اللقاءات الصحفية، مباشرة أسفل المنحدر حيث يتوضع مكتب السكرتير الصحفي. ونظراً لأن المكتب الصحفي السفلي كان متصلاً بشكل مريح بقاعة اللقاءات الصحفية والأكشاك المتصلة حيث كان الصحفيون التواقون إلى السبق الصحفي يعملون، فقد كانوا غالباً ما يمرون بي وبمساعدي الزميلة كلير بوكان، للحصول على تعليق أو معلومة. وكانت المواقع الرسمية للصحافة - وهي عبارة عن ردهة فيها عدد من المكاتب الصغيرة التي هيئت من أجل مراسلي الشبكات والصحفيين الذين يستخدمون وسائل الاتصال السلكي، وكان يشغل كلاً من هذه المكاتب من اثنين إلى أربعة من الصحفيين خلال أيام العمل؛ كما كان هناك قبو يشغله صحفيون يعملون في محطات الكابل، أو الإذاعة أو وسائل الإعلام المطبوعة، وقاعة اللقاءات الصحفية نفسها في الأسفل (لم يتم إعادة ترتيبها منذ مدة طويلة) حيث يقبع طواقم التصوير وفنيو الصوت الذين يعملون لصالح الشبكات ضيقة ولا تتمتع بأي قدر من الخصوصية؛ لذلك كان مكثبي مكاناً أفضل لتبادل الأحاديث.

كان دائماً من دواعي سروري التحدث إلى آن. بدت سعيدة جداً بالدور الذي تؤديه كونها صحفية. كانت عضواً في الطاقم الصحفي في الحادي عشر من أيلول، وقامت بنقل مباشر وحي لنشاط الرئيس في ذلك اليوم بدءاً من مغادرته لمدينة ساراسوتا في ولاية فلوريدا على متن الطائرة الرئاسية، وانتهاءً بعودته إلى واشنطن مساء اليوم نفسه.

في ذلك اليوم من شهر حزيران، يونيو، دخلت آن إلى مكثبي لتسألني عن موضوع يتعلق بالحرب في العراق التي كانت قد دخلت شهرها الثالث. ومع الإعلان عن انتهاء

العمليات العسكرية الكبرى، فقد بدأت قوات التحالف تقوم بعمليات تمشيط، بعد ذلك الانتصار العسكري السهل والسريع على جيوش صدام حسين. لكن الدكتاتور نفسه كان ما يزال طليقاً، كما تعرضت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر التي لم تكن عليها أي حراسة، للنهب والسلب بعد وقوع الغزو، وبدأ العسكريون الأمريكيون يلاحظون وقوع هجمات مفاجئة سريعة ومزعجة تتزايد يوماً بعد يوم تقوم بها مجموعات من المتمردين العراقيين الذين تزداد أعدادهم باستمرار، خصوصاً في المنطقة التي تدعى المثلث السني. بدأ التفاؤل الكبير - وحتى الاحتفالي - يتراجع أمام القلق بشأن الاحتمالات المستقبلية حول العراق.

وعندما بدأ الحديث ينحو باتجاه موضوع أسلحة الدمار الشامل، كنت أكرر الموقف الثابت للبيت الأبيض في ذلك الوقت، والذي كنت أتفق فيه معه: «إننا واثقون أن أسلحة الدمار الشامل سوف يتم اكتشافها في النهاية. فالمفتشون ما زالوا في المراحل الأولى من عملهم».

كانت ردة فعل أن غاية في الوضوح. فقد أكدت بكل ثقة «أنهم لن يجدوا أي أسلحة. ولو كانت هذه الأسلحة موجودة فعلاً، لكانوا اكتشفوها قبل الآن». تحدثت بأسلوب مملوء بالثقة باعتبار أنها صحفية عملت في واشنطن لفترة طويلة كانت كافية لكي تتوقع طبيعة نهاية هذه القصة.

شعرت بالاضطراب لبرهة وجيزة؛ ولكن بعد أن غادرت أن مكثتي، أخذت معها هذه الحقيقة الصعبة التي واجهتني بها. فقد وجدتني أكرر في داخل رأسي من جديد وبسرعة، النقاشات المنطقية التي كنا نؤكدنا على امتداد أيام حول اقتناعنا بوجود أسلحة دمار شامل عند صدام، بالرغم من أن كشفها هو في غاية الصعوبة - وكانت هذه النقاشات تركز على تاريخه الذي يؤكد على امتلاكه لها واستعمالها، وعلى سجله الممتلئ بخداع مفتشي الأمم المتحدة والاستهانة بذكائهم، وعلى التقارير المتناسكة التي قدمها محللون استخباراتيون ليس فقط من بيننا بل من بين حلفائنا أيضاً. كنا نذكر أنفسنا بأن فريق التفتيش على الأسلحة الذي كان يطلق عليه وصف مجموعة مسح

العراق، والذي كان يرأسه ديفيد كاي كان ما يزال يجوب في أميال من الوثائق الحكومية العراقية، ويقوم بترجمتها من اللغة العربية، ويبحث في مواقع مكشوفة من البلاد بعد تلقي معلومات حول عنابر تحت الأرض ومواقع دفن محتملة لهذه الأسلحة المروعة. كان صدام حسين حاكماً مروغاً مهتلئاً بنفس التحدي، وكان يتلاعب بالمفتشين في الصحراء على امتداد سنوات.

لجملة هذه الأسباب، كانت الشكوك ما زالت تتابنا بشأن وجود هذه الأسلحة. وكانت هذه النقاشات نفسها التي استمر بعضهم منا في طرحها في الأشهر اللاحقة - بالرغم من أننا بدأنا في نهاية المطاف بالتأكيد على وجود «برامح» لأسلحة الدمار الشامل بدلاً من وجود أسلحة الدمار الشامل، في الوقت الذي بدأ فيه عدد متزايد من الناس خارج دائرة البيت الأبيض يعتقدون أن المسوغ الرئيس للغزو خرج بشكل فج عن مساره الأصلي.

لكن كلمات أن كومبتون كانت تطاردني في أعماق داخلي. وكانت تجول في خاطري عندما قمت برفقة كارن هيوز، المستشارة السابقة للرئيس، بزيارة مكتبي الجديد، وذلك في اليوم الأول لاستلامي منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض.

التقيت بكارن بالمصادفة بعد وقت قليل من انتهائي من لقائي الصحفي الأول في منصبي الجديد. قالت وابتسامة تعلو وجهها: «استمعت إلى جانب من تصرّحك: كيف كان شعورك؟»

أجبت: «أظن أن الأمر مر بسلاسة، بشكل عام». كنا قد تورطنا في اللفظ الذي سببته الكلمات الست عشرة التي تلفظ بها الرئيس في خطابه حول حال الاتحاد - تبين فيما بعد أنه لا أساس له - من أن العراق حاول الحصول على مواد لصنع الأسلحة النووية من أفريقيا. في ظل هذه الظروف، ونظراً لأن الطاقم الصحفي في البيت الأبيض أضحى أكثر جرأة في تحديه للبيت الأبيض، تبين لي أنه لن يكون هناك مرحلة شهر عسل للسكرتير الصحفي الجديد. لكن الصحفيين المجتمعين في البيت الأبيض أبدوا بعض التساهل تجاهي في اليوم الأول لاستلامي المنصب الجديد. فقد كانوا يعرفون أن لديهم الكثير من الفرص للقيام بهجمات لفظية عليّ في الأشهر اللاحقة.

عقبت كارن قائلة: «بدوت مرتاحاً هناك من على المنصة».

قلت: «شكراً لك. لم تمنح لنا الفرصة للتحدث إلى بعضنا بعضاً منذ مدة. إذا كان لديك القليل من الوقت، فإنني أود القيام بزيارتك وسماع آراءك حول هذه الوظيفة».

قالت: «بالتأكيد، فباستطاعتي أن أنزل إليك في مكتبك بعد قليل».

كانت كارن قد استقالت من موقعها كمستشارة للرئيس منذ أكثر من سنة، أي في شهر حزيران، يونيو، سنة 2002 بسبب الإنهاك الشديد الذي ألم بها جراء قضائها ساعات عمل لا عد لها في البيت الأبيض، وبسبب توقعها لقضاء وقت أطول مع زوجها وابنها المراهق، روبرت. كانت ما تزال تعمل بدوام جزئي مستشارة للرئيس، ولخليفته دان بارتليت، وبعض كبار موظفي البيت الأبيض، حيث كانت تأتي إلى واشنطن مرة كل عدة أسابيع للمشاركة في مناقشات الصورة العامة للإستراتيجية. ومع قرار الرئيس ترشحه لإعادة انتخابه، فقد بدأنا نراها في أغلب الأحيان.

جلسنا إلى طاولة المؤتمرات المستديرة في مكنتي، قرب المدفأة. خارج النافذة، كان المدخل في نهاية الممر المؤدي إلى المدخل الرئيس للجنح الغربي، حيث كان أحد أفراد المارينز يحرسه ببذلته الزرقاء. كانت أربع شاشات تلفزيونية من حجم ثلاثة عشر إنش تومض بصمت على أحد الجدران، مبرمجة بشكل نمطي على ثلاث من محطات الكابل الإخبارية بالإضافة إلى محطة C-Span. ما عدا بعض أيام العمل في عطلة نهاية الأسبوع عند بث برنامج رياضي بعنوان Texas Longhorns على محطة C-Span، أو على أي محطة أخرى تبث بعض البرامج الخفيفة. إزاء جدار آخر، كانت تقبع أريكة مريحة تحت صور كبيرة للرئيس - واحدة منها له وهو يزور إحدى الوحدات العسكرية، وأخرى في احتفال لإحياء ذكرى أحداث الحادي عشر من أيلول، وصورة ثالثة يشارك فيها والده الضحك في أول لحظة ولجا فيها عتبة المكتب البيضاء بصفتي الرئيس والرئيس السابق يوم حفل توليه المنصب سنة 2001.

قامت كارن مباشرة بتوجيه أهم نصائحها لي. كانت تلك النصيحة تتعلق بمسألة المصادقية. قالت: «إن أهم ما يجب عليك القيام به في رأيي، هو التأكد من احتفاظ

الرئيس بمصداقيته أمام الشعب الأمريكي، فهي واحدة من أعظم مظاهر قوته. الشعب يثق به؛ ولذلك يجب أن تبقى نسبة مؤيديه بسبب صدقه وجدارته بالثقة عالية جداً في استطلاعات الرأي.

وتابعت قائلة: «أظن أن لديك فرصة حقيقية كي تكون سكرتيراً صحفياً مؤثراً للغاية. فالصحافة تحبك. وهم يعرفون أن بإمكانهم الوثوق بك، وإذا أحسنت إدارة عملك بالشكل الذي أنت قادر على القيام به، فسيذكرك التاريخ على أنك مايك ماكري آخر».

كان هذا بمثابة إطراء مُرضٍ ذي نفسٍ حزبي. فمايك ماكري كان السكرتير الصحفي لبيل كلينتون، والذي بقي في هذا المنصب أكثر من أي شخص آخر. أكثر من ذلك، فقد استطاع أن يبني لنفسه سمعة شخصية قوية ويحافظ عليها مستنداً في ذلك إلى مصداقيته بين صحفيي البيت الأبيض، وفي دوائر واشنطن بالرغم من أنه كان يقوم بعمله في وقت كان التأييد للرئيس على الصعيد الشخصي، وما أثير حول سمعته فيما يتعلق بأمانته يتناقض بسبب ما كشف عن مفامراته الخاصة.

لكن امتناني لكلمات لكارن كان يشوبه القلق. ذلك أنه لم يكن بوسعي نسيان تعليقات أن كومبتون قبل أسبوعين، ولم يحدث أي شيء منذ ذلك الوقت يمكن أن يؤدي إلى تحسين الأمور. وكما تكشفت الأمور شيئاً فشيئاً، فإن المنطق الرئيس الذي سوغنا خوض الحرب ضد العراق على أساسه يمكن أن يكون خاطئاً كلياً. كنت أعلم أنه سوف يكون من الصعوبة بمكان إزالة التوتر الناجم عن ذلك، أو تخفيف المشاحنات التي ستحصل في قاعة اللقاءات الصحفية. فاللفظ الناجم عن الكلمات الست عشرة كان مؤشراً أولياً، وسوف يستمر تأثيره مستقبلاً. وهكذا وجدتني أرى، وبشيء من الحزن، أن آري انسحب في الوقت المناسب - حتى أنني مازحته حول هذه النقطة. قلت له: «لقد اخترت الرحيل في الوقت المناسب».

لم تكن الكارثة قد ظهرت بعد في الأفق. فعلى المدى القصير، كانت غالبية الناس تنظر إلى الانتقادات المتصاعدة للرئيس ككتلة كبيرة من الملح. فقد كانت الانتخابات تلوح في الأفق، وكان النخبون يعرفون أن لغة الخطاب الرنانة ستكون أكثر حرارة. عندما يحس

الناخبون أن هجمات كهذه ليست أكثر من محاولة حزبية لتمرير الخصم في الوحل، فإنهم يميلون إلى عدم الخضوع لتأثير مثل هذه الهجمات محجّمين عن إطلاق أي أحكام إلى أن يتحققوا من صحة الانتقادات. كما أن الكثيرين من الأمريكيين الذين بدؤوا يتقبلون فكرة أنه لن يتم العثور على أسلحة الدمار الشامل في العراق، كانوا ما يزالون على موقفهم الداعم بقوة للحرب - على الأقل حتى الوقت الحاضر. كانوا يقولون بشيء من اللامبالاة: «لقد خدع صدام بوش؛ وماذا في ذلك؟ لقد خدع الجميع أيضاً. وهذا لا يغير حقيقة أنه كان قاتلاً متوحشاً ودكتاتوراً. إنه لأمر حسن أن يتم التخلص منه».

لكن العوامل التي صبت في صالحنا على المدى القصير لم تكن كذلك على المدى الطويل. فاستطلاعات الرأي المؤيدة لنا حجبت الرؤية عن بصائرنا. فقد افترضنا أن صبر الناس على الرئيس، وعلى الحرب سوف يستمر ما دمنا مستمرين في إظهار أننا نحرز تقدماً في مسألة تحقيق الديمقراطية في العراق. لكن الأعداد المتزايدة باطراد من القتلى والجرحى في صفوف الجنود الأمريكيين كانت تثبت كم كنا على خطأ. لقد أدى نجاحنا في الوصول إلى ما وصلنا إليه بسبب احتكارنا للتأييد الشعبي واستخدامه لصالحنا - وتجلى ذلك في حملتنا الدعائية السياسية لتسويق الحرب - إلى جعلنا نفترض أن المقاربة نفسها سوف تستمر في خدمة مصالحنا، وستساعدنا في التغلب على أي تحديات مستقبلية. لقد كان من الصعب، ونحن على أعتاب حملة إعادة الانتخاب، تغيير النهج الذي سرنا عليه بسبب ابتعادنا منذ البداية عن ممارسة مقاربة واضحة وصريحة في تحضيرنا للحرب، سواء أكان ذلك عن قصد أو عن غير قصد،

كان الخطأ الأكبر الذي ارتكبته باعتباري سكرتيراً صحفياً يتجسد في عجزني عن الوقوف في وجه هذا النوع من التفكير المتجذر في البيت الأبيض في عهد بوش. ولكن عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء، يتبين لي أنه كان من الصعوبة بمكان بالنسبة لي القيام بذلك. فالأوراق التي كان عليّ أن ألبسها كانت مكشوفة حتى قبل أن أقبل القيام بهذه الوظيفة، وهذا يعني أن النتيجة غير المرضية لسنوات عملي كسكرتير صحفي كان مقدراً لها أن تكون كذلك. وذلك منذ اللحظة التي خطوت فيها تلك الخطوة باتجاه المنصة للمرة الأولى في صباح ذلك اليوم من شهر تموز، يوليو.

ومهما يكن نوع تلك القوة المؤثرة خلف الطبيعة القتالية والسرية والباطنية للبيت الأبيض في عهد بوش، فإن بناءها كان قد أسس له بقوة في الوقت الذي طلب إلي أن أكون السكرتير الصحفي. وكان بإمكانني التأكد حينها أنه من غير الممكن أن تتغير بشكل ملحوظ أثناء مدة توليتي لهذا المنصب، خصوصاً وأن حملة إعادة الانتخاب كانت على الأبواب. لم يكن ذلك هو الوقت المناسب بالنسبة إلى أي شخص للقيام بإجراء أي تغييرات على واقع الحال. وفي النهاية، قررت قبول المنصب بسبب المحبة التي أكنها للرئيس، والالتزام بالخدمة العامة، وبسبب اقتناعي بأن هذه هي فرصة العمر بالنسبة لي.

ونظراً إلى أنني كنت قد استسلمت للقيود والصعوبات المتلازمة مع طبيعة منصب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض في عهد بوش، فقد ساورتني الشكوك بأن هناك ثمناً لا بد من دفعه. وفي الوقت الذي لم أكن أعرف بالضبط ما هو هذا الثمن، فإنه لم يدر في خلدي أن هذا الثمن سيكون باهظاً جداً. كما أنني لم أتوقع أن تكون بعض الدروس المستفادة من هذا المنصب الجديد مؤلمة بهذا الشكل.

10

الإنكار

كانت هوية عميلة المخابرات المركزية الأمريكية قد تسربت قبل أيام وأسابيع من استلامني منصبي الجديد سكرتيراً صحفياً للبيت الأبيض في الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2003. بعد سنتين على حدوث ذلك، بدأت أعرف من كان متورطاً في عملية التسريب تلك؛ وبعد انقضاء تسعة أشهر على ذلك التاريخ، اطلعت على المعلومات الصادرة عن تقويم الاستخبارات الوطنية التي تم الكشف عن سريتها - في الوقت نفسه، كانت وسائل الإعلام الإخبارية تكشف عن هذا الموضوع للعالم أجمع.

من الصعب على كل من ليس ملماً بطبيعة الحياة في واشنطن، أن يستوعب العالم المنغلق للبيت الأبيض في عهد بوش. لكن كبار مستشاري الرئيس كانوا يعتقدون أن هناك أسباباً وجيهة تستدعي إبقاء طبيعة الحملة ضد جو ويلسون طي الكتمان. فالرئيس ومن حوله كانوا متفقين على أنه من الضروري في بيئة مثل بيئة الحملة الدائمة في واشنطن، إبقاء الرئيس دائماً محصناً ضد الجانب المقيت للسياسة، أو أي سقطات محتملة ناجمة عنها. وعليه أن يبقى مترفعاً عن أي مشاجرة، وغير متورط في أي مشاحنات عدائية مكشوفة بين مستشاريه. وقد تعمد أن لا يعرف إلا أقل القليل عن التكتيكات التي يستخدمونها.

لهذا السبب، فإن السؤال الشهير الذي طرحه هوارد بيكر في حقبة ووترغيت: «ماذا كان الرئيس يعرف، وما الذي فعله حيال ذلك؟» لا يدخل في السياق المتصل بالحكم على السلوك الأخلاقي لإدارة بوش، أو في حقيقة الأمر، لأي إدارة حديثة أخرى سبقتها. فقد انتبه أفراد طاقم البيت الأبيض إلى أهمية حماية الرؤساء من معرفة ما قد يجرمهم. في ظل هذه الظروف، يمكن أن لا تكون حقيقة أن الرئيس «لم يكن يعلم» دفاعاً ذا معنى، بل مجرد حقيقة مؤسفة أخرى حول الكيفية التي تتم فيها الأمور في واشنطن.

في شهر حزيران، يونيو، سنة 2003، بدأت الحملة للنيل من مصداقية جويلسون منتقداً لاستخدام البيت الأبيض المخابرات لدعم فكرة شن الحرب. وكما تمت الإشارة سابقاً، كان نيكولاس كريستوف قد نشر تعليقاً في صحيفة نيويورك تايمز أشار فيه إلى مصدر لم يكشف عن هويته (تبين لاحقاً أنه جويلسون) يتهم فيه إدارة بوش بتجاهل الدليل الذي يضع بعض ادعاءاتها حول أسلحة الدمار الشامل العراقية محل تساؤل. كما نشر والتر بينكوس، وهو صحفي كان يعمل لمدة طويلة في صحيفة واشنطن بوست رواية لاحقة لتقصي الحقائق، قدم فيها تفاصيل تتناقض مع المقالة الأحادية الجانب عن النيجر، والتي نشرها كريستوف، في الوقت الذي استمر في التشكيك بمصداقية الإدارة حول الموضوع الأشمل المتعلق بالتقارير الاستخباراتية قبل الحرب.

في أوائل شهر حزيران، وفي الوقت الذي كان ما يزال يجري تحريات عن مضمون ما كتبه كريستوف، اتصل بينكوس بكاثي مارتن المشرفة على مكتب اتصالات نائب الرئيس. ذهبت مارتن إلى سكووتر ليبي لمناقشة ما كان بينكوس يتحسسه من معلومات. كان نائب الرئيس وليبي يُصعّدان بهدوء حملتهما لمجابهة مزاعم الموفد إلى النيجر المجهول الهوية: وكانت رواية بينكوس فرصة ثمينة لهما للقيام بذلك. أملى نائب الرئيس على ليبي النقاط التي عليه التحدث حولها، وهو بدوره استخدمها عندما كان يجيب على أسئلة بينكوس.

في الثاني عشر من شهر حزيران، يونيو، سنة 2003، تحت عنوان «وكالة المخابرات المركزية لا توافق على الشكوك المثارة حول البيانات بشأن العراق»، نشر بينكوس أنه بينما فتدت البعثة التي أوفدها وكالة المخابرات المركزية إلى النيجر المزعمة بشأن مسألة اليورانيوم والتي استخدمها الرئيس في خطابه حول حال الاتحاد، فإن هذه المعلومات لم تصل أبداً إلى المسؤولين في البيت الأبيض. وبدلاً من ذلك، أخفقت وكالة المخابرات المركزية «في إطلاع أي جهة على ما كانت تعرفه»، ومن ثم فقد ساعدت في «إبقاء رواية اليورانيوم حية» إلى حين إلقاء البرادعي تقريره في مجلس الأمن الدولي. كتب بينكوس أن وكالة المخابرات المركزية.

لم تذكر تفاصيل كان قد تضمنها تقرير السفير السابق، أو تكشف عن هويته مصدراً للمعلومات، وهو ما كان سيدعم مصداقية ما اكتشفه، وذلك في تقاريرها الاستخباراتية التي تتقاسمها مع منظمات حكومية أخرى. بدلاً من ذلك، لم تذكر وكالة المخابرات المركزية سوى أن المسؤولين في حكومة النيجر أنكروا أن تكون صفقة مثل هذه قد عقدت، كما ذكر أحد كبار المسؤولين في الإدارة.

ذكر «أحد كبار المسؤولين في وكالة المخابرات المركزية» لم يشأ الإفصاح عن هويته بينكوس بأن التقرير الاستخباراتي بشأن اليورانيوم «لم يكن سوى واحد من العوامل التي أدت إلى شن الحرب. كانت هناك أسباباً أخرى عديدة». لكن «أحد كبار المحللين في وكالة المخابرات المركزية» أشار إلى أن مسألة اليورانيوم برمتها من الزاوية الأشمل، «تدل على وجود مشكلات أكبر» فيما يتعلق بالاستخبارات حول برامج الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية في العراق، بالإضافة إلى ما نسب عن علاقته بالقاعدة. أشار هذا المحلل أنه في معرض التمهيد لشن الحرب على العراق «تم إهمال معلومات لا تتفق مع أهداف الإدارة، كما لم يتم التدقيق بشكل جدي في معلومات أخرى [تتفق] مع موقف الإدارة».

صب عمود الرأي الذي كتبه بينكوس الزيت على نار اللغظ المتزايد. حتى وهو يشير إلى أن البيت الأبيض لا يتحمل أي مسؤولية فيما يتعلق بالمزاعم بشأن النيجر، فإنه كرس الاعتقاد الذي بدأ بالانتشار أن مزاعم الإدارة حول أسلحة الدمار الشامل العراقية استندت إلى معلومات استخباراتية مزيفة، بل وأسوأ من ذلك، فقد تعمدت الإفراط في مبالغتها حول هذه المسألة من أجل تضليل الأمة التي ساقطتها إلى الحرب.

في هذا الجو من اللغظ المتزايد - ومع عدم اكتشاف أي أسلحة دمار شامل في العراق - فإن مصدر المعلومات المجهول الهوية الذي أشار إليه كريستوف، وهو جو ويلسون، قرر الخروج إلى العلن.

في الأحد الواقع في السادس من شهر تموز، يوليو، نشر ويلسون في أحد أعمدة الرأي في صحيفة نيويورك تايمز مقالاً بعنوان: «ما الذي لم أعثر عليه في إفريقيا». اتهم فيه

بشكل لا لبس فيه الإدارة في أنها استغلت المخابرات حول برنامج الأسلحة النووية في العراق لتسويق العمل العسكري الذي قامت به وذلك عبر المبالغة أو الإفراط في توصيف هذا التهديد.

بعد إجرائه العديد من اللقاءات مع مسؤولين حكوميين حاليين وسابقين، ومع أشخاص لهم علاقة بتجارة اليورانيوم في النيجر، كتب ويلسون في صحيفة التايمز ما يلي: «لم يستغرقني الكثير من الوقت قبل أن أصل إلى الاستنتاج أن من المشكوك فيه جداً أن تكون قد تمت أي صفقة في هذا الشأن على الإطلاق». كما ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عبر «عن الثقة المطلقة» بأن المعلومات التي «قدمها قد تم إيصالها إلى المسؤولين المعنيين في حكومتنا».

وفي معرض تساؤله عن الكيفية التي وظفت فيها «قيادتنا السياسية» هذه المعلومات قال ويلسون أنه «إذا كانت المعلومات قد تم تجاهلها لأنها لم تُرضِ بعض أصحاب الآراء المسبقة الصنع حول العراق، فإن من المنطقي القول إننا خضنا الحرب بناء على ادعاءات زائفة». في ذلك اليوم نفسه، وأثناء مقابلة مع مقدمة برنامج «واجه الصحافة» أندريا ميتشيل، أكد ويلسون أنه «مقتنع تماماً» بأن مكتب نائب الرئيس تلقى «إجابة محددة جداً» مبنية على نتائج رحلته لأن هذا هو «الإجراء العملي المعيارى» في حال إثارة مثل هذا السؤال من قبل مكتب رفيع المستوى كمكتب نائب الرئيس.

وفي معرض إبداء قناعته أن الإدارة كانت تعرف بشكل لا يقبل التأويل بأن المعلومات حول مسألة اليورانيوم كانت خاطئة، إذا كان الأمر يتعلق بالنيجر تحديداً، فإن ويلسون أشار إلى أن هذه الإدارة استخدمت هذا الموضوع بطريقة انتقائية بشكل يتماشى مع تقارير استخباراتية أخرى وذلك «لدعم قرارها» خوض الحرب، وهو القرار الذي كان قد تم اتخاذه سلفاً، وأن استخدام موضوع أسلحة الدمار الشامل لم يكن سوى ذريعة استخدمت «كغطاء» لأسباب أخرى كانت هي الدافع لغزو العراق.

حوّل أداء ويلسون بقعة الضوء باتجاه الاتهام الذي وجهه كريستوف ومنتقدون آخرون من أن إدارة بوش قد ضللت عن عمد الشعب الأمريكي. كما أثار ذلك حنق نائب الرئيس:

وزود وسائل الإعلام الوطنية بمادة دسمة للفظ، بما في ذلك شخصية براءة تجيد فن الكلام، وجاهزة كي تلقي اتهامات تفجيرية في وجه كبار المسؤولين.

كان توقيت هجوم ولسون سيئاً بالنسبة لإدارة بوش. فقد كان ضمن برنامج الرئيس القيام بجولة دبلوماسية مهمة إلى إفريقيا (من المفارقة أنها القارة التي انطلق منها اللفظ حول مسألة اليورانيوم). أكثر من ذلك، كان النصف الأول من شهر تموز، يوليو، المرحلة الانتقالية لنقل صلاحيات آري فليشر لي كسكرتير صحفي للبيت الأبيض. ولكننا كنا نعرف جميعاً أنه ليس بمقدور الرئيس دائماً اختيار كيف ومتى يتعامل مع مثل هذه الأمور. في بعض الأحيان، تفرض عليه الأحداث التي تقع خارج سيطرته مواجهتها في أوقات غير مناسبة. وكان هذا واحد من تلك الأوقات غير المناسبة.

وحيث إن الرئيس كان سيفادر واشنطن صباح الاثنين ذاك، فلم يكن هناك من مجال إلا إلى لقاء صحفي واحد في البيت الأبيض، على شكل حوار بعيداً عن أعين الكاميرا. إلا أن مقالة ولسون المتزامنة مع أسئلة ملحة طرحتها الصحافة صبيحة ذلك اليوم، ستدفع بالبيت الأبيض إلى الاعتراف بارتكاب خطأ جسيم - وهو شيء نادر الحدوث بالنسبة إلى أي إدارة، خصوصاً بالنسبة إلى إدارة بوش.

حاول آري فليشر خلال الدردشة مع الصحفيين بعد أن زوده مكتب نائب الرئيس بنقاط الرد، تصوير مقالة ولسون على أنها لم تقدم ما هو جديد باستثناء الكشف عن هوية المندوب الذي أوفد إلى النيجر. كما خالف فليشر فكرة أن تشيني وآخرين في الإدارة كانوا قد أحيطوا بالمعلومات التي عاد بها ولسون. قال فليشر: «لم يطلب مكتب نائب الرئيس منه القيام بمهمة في النيجر؛ ولم يتم إعلام مكتب نائب الرئيس عن مهمته، كما أنه لم يكن على اطلاع على مهمة السيد ولسون» إلا بعد أن تم نشرها في وسائل الإعلام مؤخراً.

لكن فليشر فجّر قنبلة صغيرة من غير قصد: «لقد اعترفنا منذ مدة طويلة - وهذا ليس خبراً جديداً لأننا قلناه مراراً وتكراراً - أن المعلومات التي وردت حول «الكعكة الصفراء» تبين أنها في الواقع معلومات خاطئة». ما قاله فليشر كان أبعد ما يكون عن وصفه «بمعلومات قديمة» بالنسبة لأولئك الذين يتابعون هذه القضية عن كثب.

صحيح أنه ومنذ الخطاب حول حال الاتحاد في شهر كانون الثاني، يناير، اعترفت وكالة المخابرات المركزية علناً أن التقرير الاستخباراتي حول قضية النيجر استند إلى معلومات غير صحيحة ومضللة. لكن فليشر يبدو الآن وكأنه يشير وللمرة الأولى أن كلمات الرئيس الست عشرة في خطابه حول حال الاتحاد استندت بشكل رئيس إلى وثائق النيجر. حتى تلك اللحظة، كان البيت الأبيض يصر على أن الرئيس استخدم لغة التعميم بشكل متعمد بحيث تتضمن دولاً إفريقية أخرى بالإضافة إلى النيجر.

التقط الصحفيون هذا الخيط الرفيع. وأمطروا فليشر بوابل من الأسئلة. وبعد تلقيه للعديد من أسئلة من الصحفيين وعلى رأسهم الصحفي المخضرم ديفيد سانفر من صحيفة نيويورك تايمز، انسحب فليشر بهدوء قائلاً إنه سوف يصدر بياناً يتضمن «الإجابة الدقيقة حول التصريح بإطاره العام فيما يتعلق بالخطاب» في وقت لاحق من ذلك اليوم. كان اعترافه بأن ما قاله الرئيس كان خطأ عد بعد ذاته خبراً مهماً، وكان لا بد من مناقشته من قبل كبار المستشارين، وموافقة الرئيس عليه.

جرت الكثير من المناقشات طيلة ذلك اليوم بين مستشاري الرئيس حول الاعتراف بما كان واضحاً أو إنكاره. كانت كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومي من بين أكثر المتحمسين للإقرار بهذا الخطأ، وقد وافق الآخرون على وجهة نظرها. أعلن البيت الأبيض بعدها أن «هناك تقريراً آخر يشير إلى أن العراق حاول الحصول على اليورانيوم من إفريقيا؛ إلا أن هذه المعلومات غير تفصيلية وغير محددة لدرجة تجعلنا متأكدين أن محاولات مثل هذه قد تمت بالفعل». لم يكن تقويم الاستخبارات الوطنية حول أسلحة الدمار الشامل في العراق قد نزعته عنه السرية رسمياً بعد، ولم يكن قد وضع بعد قيد التداول العام (بالرغم من أنه، كما علمت لاحقاً، تم نزع صفة السرية عنه بشكل سري كي يطلع عليه نائب الرئيس). وبالرغم من أن دولتين إفريقيتين أخريين قد تم ذكرهما في تقويم الاستخبارات الوطنية على أنهما مصدران محتملان لتزويد العراق باليورانيوم، فإن التقرير الاستخباراتي المحدد والمفصل والوحيد المتعلق بالمحاولات العراقية للحصول على اليورانيوم من إفريقيا كان يشير فقط إلى النيجر، وكان واضحاً أن هذا هو المستند الرئيس الذي انبثقت منه كلمات الرئيس الست عشرة.

نُسبَ إلى «مسؤولين كبار» بعد حصولهم على إذن من الرئيس أنهم يدققون في مسألة التراجع هذه. نشر والتر بينكوس في صحيفة واشنطن بوست خبراً بعنوان «البيت الأبيض يتراجع عن مزاعمه بشأن المشتريات العراقية»، وتضمن هذا الخبر الاقتباس الآتي: «بعد أن اطلعنا على ما بتنا نعرفه الآن، فإن الإشارة إلى محاولة العراق الحصول على اليورانيوم من إفريقيا، كان يجب أن لا تكون ضمن الخطاب الذي ألقى عن حال الاتحاد». نقلت صحيفة نيويورك تايمز أيضاً تصريحاً لمسؤول كبير قوله: «لم يكن بإمكاننا إثبات ذلك، ويمكن أن نكون في واقع الأمر على خطأ».

كان هذا هو الاعتراف العلني الأول بأنه كان على الرئيس أن لا يذكر شيئاً عن المزاعم بشأن اليورانيوم في خطابه عن حال الاتحاد، وأن المعلومات التي بنيت عليها تلك المزاعم كانت ناقصة وغير دقيقة. الجميع في البيت الأبيض كان يأمل أن يساعد هذا الاعتراف في وضع الكلمات الست عشرة وراء ظهورنا. لكن الحقيقة كانت عكس ذلك.

كان من المفترض بي كوني نائباً للسكرتير الصحفي أن أكون ضمن الطاقم الصحفي الموسع التابع للبيت الأبيض المرافق للرئيس في رحلته إلى إفريقيا على متن طائرة مستأجرة. ولكن بما أن أري كان على وشك ترك منصبه، قررت بدلاً من ذلك أن أقوم ببعض التحضيرات لوظيفتي الجديدة. وهكذا، فبينما بدأ اللفظ يزداد انتقاداً، والرئيس في طريقه إلى إفريقيا، منحت نفسي إجازة قصيرة لتصفية ذهني وللحصول على نصائح من بعض أسلافي الذين شغلوا هذا الموقع في الإدارات السابقة، وتلقي آراء من كبار المديرين في مجلس الأمن القومي حول أولوياتهم فيما يتعلق بالسياسة الخارجية. ونظراً إلى أن خلفيتي المهنية كانت بالأساس في مجال الاتصالات والعمل السياسي في ولاية تكساس وليس في مجال السياسة الخارجية فقد كنت أرغب في التعرف عن كثب على أكثر المناطق أهمية في الخارج، مولياً أهمية استثنائية لأكثرها سخونة.

كنت على علاقة وطيدة بكوندي رايس وبنائبها ستيفن هادلي: ذلك أن الاجتماعات تساعد في التأسيس لعلاقات جيدة، وكذلك لتقويتها مع العاملين في مجلس الأمن القومي الذين كنت أستطيع الاعتماد على خبراتهم وقت الحاجة.

ثبت لي أن محاولاتي لتعليم ذاتي آتت أكلها. ولكن في الوقت نفسه، كان اللفظ الناجم عن موضوع النيجر الذي وصل إلى مستوى مقلق، قد بدأ بالاتساع. ففي واشنطن، لا يكفي أبداً أن تعترف بالخطأ. فالصحافة تنتقل بعدها إلى إثارة أسئلة مرتبطة بهذا الخطأ: كيف حدث هذا الخطأ؟ من كان المسؤول عن هذا الخطأ؟ ما هي عواقب هذا الخطأ؟ لا تتوقف هذه الأسئلة حتى يشعر وحش وسائل الإعلام المتصور جوعاً بالرضا في أنه اصطاد كل الحقائق.

وحالما انتشر الخبر في أرجاء المعمورة، كان فريق طوني بلير يستشيط غضباً بشكل سري من البيت الأبيض. كانت الحكومة البريطانية - التي قدمت دعماً هائلاً لبوش في العراق - تؤكد على صحة المزاعم بشأن قضية النيجر، قائلة إن استخباراتها كانت تستند إلى معلومات لا علاقة لها بالوثائق المزورة. وهذا ما جعل من تراجع البيت الأبيض إحراجاً شديداً يمكن أن يدفع الصحافة إلى القيام بهجوم لاذع على رئيس الوزراء طوني بلير في المدى القريب.

أبقى الديمقراطيون على هذا اللفظ في حال من الغليان حيث طالبوا بفتح تحقيق في الكونغرس حول هذه المسألة. سأل كارل ليفن العضو الممثل للأقلية في لجنة القوات المسلحة كيف أصبحت المزاعم المزيفة حول اليورانيوم جزءاً من القضية التي دفعت باتجاه الحرب، كما أشار تيد كينيدي إلى أن ذلك كان «خداعاً مقصوداً». وسواء كانت هذه الانتقادات تمثل تعبيراً عن قلق مشروع، أو أنها كانت مجرد مطية لمكاسب سياسية فإن هذه الجهود التي بذلوها لزيادة الشكوك حول البيت الأبيض كانت تمثل جزءاً طبيعياً من الحرب الحزبية المستمرة التي وعد الرئيس بوش بوضع نهاية لها. والآن، فالطريق التي اختارها الرئيس لتسويق الحرب للشعب الأمريكي، وتردده في مناقشة كيف تمت هذه المسألة برمتها بانفتاح وبصورة مباشرة، أظهر بما لا يقبل الشك أنه لن يلتزم بالوعد الذي قطعه.

غطى اللفظ حول قضية اليورانيوم على رحلة بوش إلى إفريقيا، بما في ذلك جهوده لزيادة تمويل الإغاثة بمعدل ثلاثة أضعاف من أجل محاربة مرض نقص المناعة المكتسبة،

والملاiria، وإعطاء الأفارقة الأمل عبر تشجيع التنمية. كان كل ذلك مؤشراً على ما يحمله المستقبل، ذلك أن إدارة بوش ستجد أن اللفظ المستمر حول العراق سوف يلقي بظلاله على إنجازاتها كلها.



رد البيت الأبيض بهجوم معاكس ضد منتقديه في وسائل الإعلام والكونغرس على عدة جبهات. ففي معرض محاولة البيت الأبيض الدفاع عن نفسه ضد الاتهامات التي كُلت له بممارسة سوء الأمانة، والتي أطلقها عليه جو ويلسون، قائد نائب الرئيس تشيني وأركان حملة البيت الأبيض للنيل من مصداقية جو ويلسون نفسه. فمن الزاوية الأشمل، حاول البيت الأبيض تمرير فكرة أن التقرير الاستخباراتي قد تم «طبخه» عبر إظهار أن وكالة المخابرات المركزية هي من أطلقته وأفسحت له الطريق نحو الظهور. فمعظم المراقبين - من منتقدي الحرب والمؤيدين لها، من ديمقراطيين وجمهوريين - اتفقوا على فرضية أن صدام كان يمتلك برنامج أسلحة دمار شامل. فقط الآن، وبعد ظهور الحقائق، فإن قيام بعض كبار المنتقدين، بالنأي بأنفسهم عما كانوا يعتقدون به سابقاً، واستخدامهم اللهجة الحزبية في هجومهم، اضطرنا إلى القيام بهذا الهجوم المعاكس.

لكن هذا الموقف لم يفلق الباب أمام السؤال الذي فرض نفسه على بساط البحث: كيف، ولماذا أخفقت استخباراتنا بهذا الشكل المريع حول العراق؟ وكيف للمزاعم حول صفقة النيجر التي اتضح أن لا مصداقية لها الآن، أن تحوّل الخطاب حول حال الاتحاد إلى أكثر الخطابات المدعاة للتدقيق على مدار السنة؟

في لقاءها الصحفي مع فريق الصحفيين على متن طائرة الرئاسة المتوجهة إلى أوغندا في الحادي عشر من شهر تموز، يوليو، أمطرت كوندوليزا رايس بوابل من الأسئلة - بلغ عددها أربعين سؤالاً - حول «الكلمات الست عشرة» المشؤومة. وبينما نبهت أن البريطانيين ما زالوا متشبثين بموقفهم بشأن المزاعم حول صفقة اليورانيوم، وأن تقويم الاستخبارات الوطنية أشار إلى جهود بذلت «للحصول على الكعكة الصفراء من أكثر من دولة إفريقية»، وليس فقط من النيجر، أضافت رايس قائلة: «إن لنا معايير ذات مستوى

أعلى لتضمنه في خطابات الرئيس. فتحن لا نتسبب في أن يكون الرئيس شاهداً على نفسه. ولهذا السبب، نقوم بإرسالها من أجل تدقيقها».

سئلت رايس: هل صحيح أن وكالة المخابرات المركزية عبرت عن شكوكها حول المزاعم بشأن صفقة النيجر للبيت الأبيض قبل الخطاب حول حال الاتحاد؟ أجابت رايس: «لقد قامت الوكالة بتدقيق الخطاب من ألفه إلى يائه: ولوقالت الوكالة، أو مديرها، احذفوا هذا المقطع من الخطاب، فسيتم حذفه من الخطاب: كان هذا الجزء سيختفي من دون أي مناقشة. وما قلناه لاحقاً، هو أننا لو كنا نعرف حينها ما نعرفه الآن من أن بعضاً من وثائق صفقة النيجر مزورة بشكل واضح، ما كنا وضعنا هذه الجزئية في خطاب الرئيس».

(اكتشفت رايس بعد عدة أيام على ذلك، أن مجلس الأمن القومي الذي تديره قد تحمل المسؤولية الرئيسة عن هذا الخطأ).

هل كانت رايس تحمل وكالة المخابرات المركزية وزر الخطأ المتعلق بالنيجر؟ وذلك كي تقوم بنقله بعض الصحف بعد ذلك اللقاء الصحفي - وهي محقة في ذلك، أنكرت رايس أن يكون هذا هو السبب. لكن وبعض مضي عدة ساعات على ذلك، علّق جورج تينيت، مدير وكالة المخابرات المركزية اللوم على هذا الإخفاق الاستخباراتي - بناء على طلب من البيت الأبيض. قال تينيت مظهراً ولاءه الذي سيساعد في إزاحة المسؤولية عن كاهل الرئيس ومن حوله: «أتحمل المسؤولية عن عملية الموافقة التي أعطتها الوكالة التي أديرها».

هل كان من الممكن رفع غطاء السرية عن الجزئية المتعلقة «بالكفكة الصفراء» في تقويم الاستخبارات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر، وذلك كي يتمكن الشعب الأمريكي من أن يحكم بنفسه حول ما إذا كانت الإدارة قد بالغت بشأنه؟ أجابت رايس عن هذا السؤال، وكانت بذلك تعكس وجهة السياسة المعلنة، أن البيت الأبيض «لم يشأ محاولة الدخول في أي نوع من أنواع رفع السرية بشكل انتقائي، لكننا ننظر في ما يمكن أن يتوافر بين أيدينا». لم تكن رايس مطلعة حينها على حقيقة أن الرئيس بوش كان قد وافق على «رفع السرية بشكل انتقائي» عن أجزاء من تقويم الاستخبارات الوطنية

بشكل يمكن نائب الرئيس أو كبير مساعديه سكوتر ليبى من استخدامها لشرح موقف الإدارة إلى عدد من الصحفيين المختارين بشكل انتقائي.

لم تعجب قادة الجمهوريين في الكونغرس مشاهدة ذريعة الرئيس لشن الحرب يتهاوى في الوقت الذي يقترب موعد موسم الانتخابات سنة 2004. بعضهم رأى في تطمح تينيت لتحمل المسؤولية مسوغاً لكي ينتأوا بأنفسهم - وبالرئيس الجمهوري - عن تحمل أي لوم بشأن ذلك. هاجم بات روبرتس، رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ تينيت بشدة، وقد وصفته صحيفة نيويورك تايمز بأنه «قلق بسبب المعالجة القذرة جداً للمسألة منذ البداية من قبل وكالة المخابرات المركزية». كما عبر روبرتس عن استيائه من «حملة التسريبات الصحفية التي تقوم بها وكالة المخابرات المركزية في محاولة منها للنيل من مصداقية الرئيس»؛ وهي إشارة إلى مسؤولين في وكالة المخابرات المركزية يدافعون عن أنفسهم بشأن التقارير الاستخباراتية حول أسلحة الدمار الشامل العراقية عبر تلميحهم إلى أن صانعي السياسة قد حذفوا بشكل انتقائي بعض ما جاء في التقارير الاستخباراتية بهدف جعل قضية الحرب أكثر قبولاً.

هذا الشجار كان سيجعل وكالة المخابرات المركزية التي تتمتع بحماية ذاتية تتنحى جانباً منتظرة بهدوء أخذ الثأر من البيت الأبيض. وكان من الممكن للانتخابات التي تلوح في الأفق أن تمثل بداية جيدة.

أحببت الصحافة هذا النوع من الشجار. هناك القليل من الأشياء التي يستمتع بها الصحفيون أكثر من تغطيتهم للفظ الناجم عن الشجار الداخلي بين أفرقاء الإدارة، والفرصة التي يوفرها هذا الشجار للثرثرة وتصفية الحسابات ومكايد الأبواب الخلفية. وخلال أيام، ستكون هناك صدمة أخرى من قبل وسائل الإعلام تساعد في زيادة كثافة التغطية أكثر فأكثر.

هذه المرة، لم يكن أعضاء «الصحافة الليبرالية» هم من فجّر القنبلة، بل المعلق، والناقد، والصحفي المحافظ المعروف، الماكر، ذو الحاجبين الشبيهين بصرصارين، روبرت نوفاك. ففي الرابع عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2003 وفي مقالة له بعنوان:

«مهمة في النيجر»، قدم نوفاك تحقيقاً عن الكيفية التي رتبت فيها مهمة ويلسون، والاستنتاجات التي توصلت إليها. قبل نهاية المقالة بقليل، تم الكشف عن سر كان من السهولة بمكان أن لا يوليه القارئ الاهتمام الكافي؛ لكن هذا السر بدأ يتدحرج ككرة الثلج باتجاه التحقيق الذي تعهدت وزارة العدل بإجرائه. كشف نوفاك أن «ويلسون لم يعمل أبداً لصالح وكالة المخابرات المركزية، بل زوجته فاليري بليم، التي تعمل بصفة عميلة للوكالة في مجال أسلحة الدمار الشامل. ذكر لي اثنان من كبار المسؤولين في الإدارة أن زوجة ويلسون هي من اقترح إفاده إلى النيجر للتحقيق في تقرير إيطالي [حول بيع الكعكة الصفراء]».

كانت الغاية من ذكر اسم زوجة ويلسون بالطبع، أن تلقى من التداول فكرة أن نائب الرئيس تشيني هو من قام بترتيب مهمة ويلسون إلى النيجر بشكل أو بآخر. كما أن حقيقة أن زوجة ويلسون متورطة، تحمل في طياتها نفحة من محاباة الأقارب، وهو ما يوحي بشعور غامض أن في المهمة ما يدعو إلى الريبة - كما لو أن ويلسون قد أوفد من قبل زوجته «في رحلة ترفيهية» وهنا أقتبس العبارة من خربشات على هامش نسخته الخاصة من العمود الذي كتبه ويلسون بخط يد نائب الرئيس تشيني نفسه، وليس أي شخص آخر.

لكن ما سبب الانفجار الذي أحدثته مقالة نوفاك لم يكن الاتهام باحتمال محاباة الأقارب؛ بل لأن اسم فاليري بليم قد ظهر للمرة الأولى في الصحافة وبجانبه عبارة «عميلة الوكالة». لقد ساهم كشف نوفاك عن موقع بليم بشكل غير مقصود في تحويل اللفظ الدائر حول قضية النيجر إلى فضيحة شاملة.

يعتبر الكشف المتعمد لهوية العميلة السرية في وكالة المخابرات المركزية (وهي بليم، بالرغم من أن لفظاً حصل فيما بعد، حول هذه النقطة في الصحافة) لشخص يعمل في الصحافة مثلاً، ولا صلاحية لديه لمعرفته، بمنزلة جنحة. من الواضح أن نوفاك لم يقدر خطورة الإعلان عن هوية بليم. بعد مضي عدة أشهر على هذا الإعلان، عندما بدأت وزارة العدل التحقيق في هذا التسريب، كتب نوفاك أن الناطق باسم وكالة المخابرات

المركزية بيل هارلو طلب أن لا يستخدم اسم بليم في العمود الصحفي لنوفاك لأنه وبينما «ربما لن يطلب منها أبداً القيام بمهمة خارجية مجدداً... فإن الإفصاح عن هويتها وارتباطها بالوكالة قد يتسبب في مشكلات لها لو قررت السفر إلى الخارج». وقد أثار هذا الطلب دهشة نوفاك باعتباره حجة غير مقنعة لحجب معلومات ذات صلة عن الشعب. دافع نوفاك عن ما قام به عبر التأكيد على أن هارلو لم يشر إلى أن بليم «أو أي شخص آخر سيكون عرضة للخطر»، وأنه علم باسم بليم (وليس بهويتها السرية) من دخول اسم زوجها إلى المرجع الشهير Who's Who in America.

ولكن من أين حصل نوفاك على المعلومات حول دور بليم في وكالة المخابرات المركزية في المقام الأول؟ قد تمر سنوات قبل أن يرى الجواب النور. ففي عموده الصحفي، عزا نوفاك ذلك إلى «اثنين من كبار المسؤولين في الإدارة».

كانت تلك إشارة تردد صداها في رواية نقلها مات كوبر في مجلة تايم، ونشرت بعد ثلاثة أيام من نشرها في العمود الصحفي لنوفاك في السابع عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2003. كتب كوبر أن «بعض المسؤولين الحكوميين» تحدثوا لمجلة تايم عن «زوجة ويلسون، فاليري بليم»، وتساءل عن دوافع الإدارة حول نشر قصة فاليري بليم: «هل أعلنت إدارة بوش الحرب على سفير سابق قام بمهمة تقصي حقائق للتأكد من اهتمام العراق باليورانيوم الإفريقي؟ ربما». كما استشهد كوبر بجو ويلسون الذي لم يكن لديه أدنى شك حول ما تقوم به الإدارة. أكد ويلسون أن «هذه وظيفة قدرة».

سواء كان ذلك إعلان حرب، أو وظيفة قدرة، أو هجوم علاقات عامة، تناثر أدراج الرياح، فقد اعتبرت وكالة المخابرات المركزية تسريب اسم فاليري بليم مسألة خطيرة. بعد مضي أسبوعين، وبحلول نهاية شهر تموز، يوليو، ذكرت وكالة المخابرات المركزية في رسالة لم يفصح عن مضمونها موجهة إلى القسم الجنائي في وزارة العدل «أن خرقاً محتملاً للقانون الجنائي يتعلق بالإفصاح غير المسموح به عن معلومات سرية قد حصل»، كما أعلنت وزارة العدل أن مكتب الأمن التابع لها، أي الوكالة، يحقق في القضية.

وفي الوقت الذي كانت إدارة بوش تتصدى للهجمات بشأن أساليبها الهجومية (المزاعم بشأن قضية النيجر، وحقن الرأي العام بمعلومات استخباراتية قبل بداية الحرب) فإنه يتعين عليها قريباً الإجابة عن أسئلة حول أساليبها الدفاعية - تسريب هوية فاليري بليم في مسعى منها لصد هجوم زوجها على هذه الإدارة.

في خضم كل هذا - في الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، بعد يوم فقط على نشر عمود نوفاك الصحفي - ومن دون أن يكون لدي اطلاع على التسريبات، أو أن أكون متورطاً في الجهود المبذولة للنيل من مصداقية ويلسون، تسلمت من آري فليشر منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. ولو كنت أتوقع شهر عسل في هذا المنصب، لعلمت بسرعة أن الأمر سوف يكون عكس ذلك.



في اليوم الثاني لاستلامي منصب السكرتير الصحفي، عقد المستشار الرئاسي دان بارتليت، وهو زميلي التكتاسي، المسؤول عن مجمل اتصالات البيت الأبيض اجتماع تخطيط مهم للعاملين تحت إمرته. كان الهدف من ذلك الاجتماع التأكد من أن فريق الاتصالات في البيت الأبيض يركز بشكل كامل على الحاجة إلى «كسب كل دائرة إخبارية»، والتأكد من أننا نساهم في «الخطة الإستراتيجية الأشمل» خلال الجهد المبذول في حملة إعادة الانتخاب القادمة. ولقد صدر هذا التوجيه بشكل مباشر عن الاجتماع حول الإستراتيجية المعقود في البيت الأبيض الذي كان قد عقد في تلك المرحلة.

كانت اللفظ الدائر حول الكلمات الست عشرة ما يزال يلبد أجواءنا أثناء عقد هذا الاجتماع. وقد اعترفنا لتونا أن المزاعم حول قضية اليورانيوم ربما كانت باطلة، ووجدنا أنفسنا محشورين في محاولتنا الدفاع عن ما لا يمكن الدفاع عنه - وهو موقع ليس مناسباً للرئيس أو لطاقمه في البيت الأبيض الانحشار فيه.

كنا بحاجة إلى إعادة تركيز النقاش على الإطار الاستراتيجي الأعم - الصورة الكبيرة للأمن القومي الذي كان الرئيس يركز عليه من دون هوادة أثناء حملة إعادة الانتخاب، وذلك ضد خصمه السيناتور جون كيري.

حدد بارتليت في ذلك الاجتماع الخطوط العريضة الرسالة التي ستقودنا إلى الفوز: إن الواجب الأهم الذي يشغل بال الرئيس في عالم ما بعد الحادي عشر من أيلول، هو حماية الشعب الأمريكي من الإرهابيين والأنظمة المارقة. الطريقة التي نضمن فيها الفوز في حربنا ضد الإرهاب هي أن نبقي في حال الهجوم، وأن نضع حداً لهذه التهديدات عبر مواجهتها. ويعتبر الشرق الأوسط الأكثر سلاماً والأكثر تحرراً والأكثر استقراراً، مفتاحاً لأمن بلدنا وأمانه. تتركز مهمتنا في إبقاء تركيزنا منصّباً على أمننا القومي، وتحديد الحرب على الإرهاب: هذه الحرب سوف تكون الموضوع المركزي في حملة إعادة انتخاب الرئيس.

في هذا السياق، لم تعد الحرب في العراق مسوغة وحسب، بل ضرورة. كان نظام صدام حسين يشكل تهديداً قبل الغزو، سواء كان يمتلك أسلحة دمار شامل، أم لا. نحن الآن بصدد استئصال القاعدة، وكنا نخوض حرباً شاملة ضد الإرهاب في كل من أفغانستان والعراق.

خلال الأسابيع العشرة اللاحقة، كان يتم استغلال كل فرصة مهمة في برنامج الرئيس للتركيز على هذه الرسالة. كان الجمهوريون في الكونغرس، والحلفاء في وسائل الإعلام مثل كتاب الأعمدة الصحفية المحافظين ومقدمي البرامج الحوارية الإذاعية يَضُمُون إلى هذه الجهود، ويزودون بأغلفة تتضمن موضوعات الحديث التي يتوجب طرحها بهدف مساعدتهم على إيصال هذه الرسالة كلما أمكنهم ذلك. كان يتم تزويد أفراد الطاقم بموضوعات الحديث اليومية، وكانت الردود السريعة على دوائر الأخبار نفسها، وضد أي هجوم أو أي مواقف صحفية سلبية تشكل أولوية قصوى - وهو جهد قاده بارتليت أثناء حملة سنة 2000.

كانت هذه الحملة قد حازمت أمرها لجهة أخذ زمام المبادرة وشن هجوم إعلامي بغية وضع كل الخيوط في أيدينا واستثمارها لصالحنا. لكن اللفظ الدائر حول الكلمات الست عشرة يرفض أن يختفي. كيف أمكن للزعم الخاطئ حول مسألة اليورانيوم في إفريقيا أن يجد طريقه إلى خطاب الرئيس حول حال الاتحاد؟ إذا كانت وكالة المخابرات المركزية

بإمرة تينيت هي المسؤولة، ألا يجب أن يتحمل تينيت بعض المسؤولية؟ وإذا لم يتحمل المسؤولية، فمن سيتحملها إذا؟ كانت هذه الأسئلة ترد في معظم الحوارات واللقاءات الصحفية. وبمرور الأيام، أصبح من الواضح بما لا يدع مجالاً للشك أن التعامل الجدي مع هذه الأسئلة يجب أن يكون حاسماً - وكلما كان ذلك أسرع، كان أفضل.

في نهاية المطاف، أخذ كل من آندي كارد، رئيس أركان البيت الأبيض، ودان بارتليت، المستشار الرئاسي على عاتقهما معالجة هذه الأزمة - تولى آندي مهمة توجيه الجميع في البيت الأبيض لتزويده بكل ما تسعفهم الذاكرة وبالوثائق المتعلقة بأصل المزاعم بشأن قضية اليورانيوم والكيفية التي تمت فيها معالجتها؛ أما دان فقد تولى مهمة تنظيم المعلومات وتهيئة عرض واضح ومباشر يظهر الكيفية التي وقع فيها هذا الخطأ الفظيع.

بالنسبة لأشخاص مكلفين بمعالجة مسألة الاتصالات لصالح منظمة معقدة مثل البيت الأبيض مثل دان ومثلي، فإن التوتر بيننا وبين «زبائننا» في وسائل الإعلام الإخبارية يشكل جزءاً رئيساً من توصيف الوظيفة التي يقوم بها كل منا. وعندما يكون المسؤولون بدءاً من الرئيس نفسه، يشعرون بالأمان في الأدوار التي يؤدونها، وملتزمين بالشفافية الكاملة، فإن هذا التوتر سيزول تلقائياً. فنحن مسموح لنا تشاطر المعلومات بشيء من الحرية، كما أننا قادرون عادة على التغلب على المقاومة لمبدأ الشفافية التي يقوم بها عادة أولئك الذين يميلون نحو الحذر الشديد، ويفضلون السرية (على الأخص، المحامون، وبعض كبار المستشارين). ولكن عندما يختار قادتنا نبذ الشفافية، وقيمون حواجز في وجه الكشف الكامل عن الحقيقة، فإن التوتر سيزداد. وهو ما يجعل من مهمتنا شيئاً لا يطاق إلى حد كبير. الأهم من ذلك، يمكن لهذا أن يقلل في نهاية المطاف من شأن الإدارة، ومن الرئيس نفسه.

في أغلب المنظمات، بما فيها إدارة بوش، هناك أشخاص يميلون نحو الاتجاهين في مثل هذه المسائل - فهناك من يفضل الكشف عن الحقائق، وهناك من يرفض هذا المبدأ. كما يعتبر فن إدارة لعبة شد الحبال بين الجهتين المختلفتين جزءاً من الوظيفة التي تقوم

بها. وفي عالم اليوم الذي تتحرك فيه دائرة الأخبار على مدى أربع وعشرين ساعة يومياً، فإن ضغط الوقت يزيد من تعقيد هذا التحدي كثيراً.

السرعة مرغوبة دائماً عندما تدلي بمعلومات، لكن الحصول على الحقائق كلها يمكن أن يستغرق بعض الوقت. عندما تكون المعلومات ناقصة، فإن وسائل الإعلام ستملأ هذا الفراغ بلغة إنشائية حزبية مثيرة للعواطف تؤجج الصراع واللفظ والسلبية، وفي أغلب الأحيان - سواء عن قصد أو من دون قصد - تجمع نحو استنتاجات تبسيطية يغلب عليه منطق الأبيض مقابل الأسود الذي يحدد مسار القصة قبل الكشف عن الحقيقة بكاملها.

القصة وراء اللفظ الذي أثارتها الكلمات الست عشرة كانت معقدة؛ ونظراً لأننا في البيت الأبيض، كنا بطيئين قليلاً في الحصول على المعلومات بشكل جماعي وتشاطرها فيما بيننا، فقد استمرت هذه القصة في الاشتعال على امتداد الأسبوع الثاني الذي مضى على استلامي منصب السكرتير الصحفي. في الثامن عشر من شهر تموز، يوليو، وبعد يومين من الاجتماع الذي عقدناه حول الاتصالات، قام بارتليت بتزويد الصحفيين ببعض الحقائق حول خلفية هذا اللفظ، وتزامن ذلك مع نزع غطاء السرية بشكل رسمي والإعلان عنه عبر قنوات وكالة المخابرات المركزية عن جزء من تقويم الاستخبارات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر بما في ذلك فقرات تتعلق بمحاولات العراق الحصول على اليورانيوم من إفريقيا، إلا أن تحقيقنا الداخلي لم يكن جاهزاً في ذلك الوقت، ولذلك فإن الحقائق القليلة التي أعلن عنها دان، لم تُرضِ وسائل الإعلام.

على امتداد الأيام اللاحقة تم الكشف عن وثائق أكثر، وبدأت القصة الكاملة حول المزاем بشأن اليورانيوم تتوضح بالتدريج. ففي الحادي والعشرين من شهر تموز، يوليو، تم عقد اجتماع ليلي متأخر بين مجموعة مختارة من كبار المستشارين في مكتب أندي كارد لمناقشة إستراتيجية الاتصالات التي علينا إتباعها لمعالجة هذا الموضوع. وقد حضر الاجتماع كل من كارد وبارتليت وكوندي رايس ونائبها ستيف هادلي ومستشار البيت الأبيض ألبرتو غونزاليز وسكرتيرة أركان البيت الأبيض هاربيت ميرز وأنا.

كان أحد موضوعات المناقشة تفصيلاً صغيراً تحول إلى قصة نقلها ريتشارد ستيفينسون، مراسل صحيفة نيويورك تايمز في البيت الأبيض قبل ثمانية أيام. استناداً إلى تلك القصة، تم إسقاط جزئية الزعم بأن «صدام حسين حاول شراء 550 طناً من اليورانيوم الخام من النيجر» من الخطاب الذي ألقاه الرئيس في سينسيناتي وذلك في السابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2002. وذكرت القصة أن مدير وكالة المخابرات المركزية، جورج تينيت، حذر شخصياً ستيف هادلي نائب مستشارة الأمن القومي أن هذا الزعم لا يمكن إثباته بأي دليل استخباراتي مادي. إذا كان هذا صحيحاً، فإنه يقودنا إلى السؤال الآتي: كيف لزعم اعتبر مهلهلاً تم إسقاطه من خطاب في سينسيناتي أن يتبوا موقفاً في أهم رسالة يوجهها الرئيس إلى الشعب الأمريكي، ألا وهي خطابه عن حال الاتحاد؟

كثيرون ممن ليسوا داخل الدائرة، لا يعرفون شيئاً عن ستيف هادلي، أما بالنسبة لنا، نحن العاملين معه، نعرف أنه شخص شريف. وكان سلوكه في تلك الليلة تأكيداً على تلك الحقيقة.

أكد هادلي على حصول ذلك الحديث بينه وبين تينيت. لكنه، وبعد ثلاثة أشهر، عندما كانت اللمسات الأخيرة توضع على الخطاب حول حال الاتحاد، كان قد نسي ما يتعلق بهذا الموضوع. وعندما عاد بذاكرته إلى الوراء، اعترف بأنه كان عليه أن يتذكر ذلك الحديث مع تينيت وتحذيراته حول المزاعم بشأن قضية النيجر. قال ستيف: «أنا مسؤول عن حجب هذه الحقائق، وفي هذه الحال، أعترف بأنني أفسدت كل شيء. أظن أن الحل الوحيد هو أن أقدم استقالتي».

كان هادلي في غاية الانزعاج وهو يرى أن تينيت قد تم تقديمه ككبش فداء، طالما أنه كان يعرف أن الخطأ خطؤه هو، ولا أحد سواه. كانت المشاجرات والاتهامات المتبادلة داخل أروقة الإدارة بين مختلف الوكالات والهيئات من بين الأشياء القليلة التي كانت تزعج بشكل جلي مسلك هادلي الهادئ، والوقور، والمتزن. وكان طرحه لفكرة تقديم استقالته

محاولة إثارية منه لرفع الحيف عن اسم شخص شعر بأنه تلقى كماً غير منصف من اللوم، وتحمل المسؤولية عن خطأ غير مقصود ظهرت نتائجه أمام العالم برمته.

وبينما كنت جالسا أتأمل ما قاله هادلي، فقد تم رفض عرضه الاستقالة كلياً من كل الحاضرين. كان هادلي أحد أكثر أعضاء الفريق موالاة لبوش، وأكثر المستشارين أهمية، وكان خطؤه أبعد ما يكون عن الإطار الجرمي. لكننا مع ذلك، اتفقنا على أن مقاربة قوامها المصارحة، والاستقامة، والأمانة هي في غاية الأهمية في الوقت الحاضر. وكان كل من بارتليت وهادلي الأكثر اطلاعاً وبشكل مباشر من أي عضو آخر في البيت الأبيض على عملية إعداد الخطاب والحقائق المتعلقة بهذه القضية، أفضل الحاضرين الذين يمكن لهما إطلاع العالم بأسره على ما حصل، ولماذا حصل ذلك. وبإمكان هادلي فقط توضيح هذا السجل المتعلق بتحديد مسؤولية إقحام هذه الكلمات الست عشرة في خطاب الرئيس.

في اليوم الثاني، أطلع كل من بارتليت وهادلي الصحفيين في قاعة روزفلت في البيت الأبيض على الكيفية التي سمح فيها للكلمات الست عشرة بالظهور في خطاب الرئيس حول حال الاتحاد. كان بارتليت بصفته مديراً للاتصالات في البيت الأبيض مشرفاً على عملية كتابة الخطابات، وبصفته الشخص رقم اثنين في مجلس الأمن القومي، كان هادلي المسؤول عن الموافقة على محتوى الحقائق المذكورة في الخطابات في مجال عمله. وبعد أن اعترف بأن تينيت طلب إليه سابقاً عدم تضمين المزايم حول صفقة النيجر، فقد أوضح هادلي للصحفيين المجتمعين أنه «أخفق» في تحمل مسؤولياته بشأن تدقيق الخطاب: «الحقيقة هي أنه بالإشارة إلى مذكرة وكالة المخابرات المركزية المؤرخة في يومي الخامس والسادس من شهر تشرين الأول، أكتوبر، وإلى المكالمات الهاتفية التي جرت بيني وبين تينيت، مدير وكالة المخابرات المركزية، أقر بأنه كان عليّ أن أتذكر عند حلول وقت إلقاء الخطاب حول حال الاتحاد، أن لفظاً كان يدور حول قضية اليورانيوم».

استمر اللقاء الصحفي الذي عقده بارتليت وهادلي لمدة ساعة وثلاث وعشرين دقيقة. أتصور أن ستيف اعتقد أنه كان أطول من ذلك، لكن ذلك اللقاء حقق غرضنا في وضع الكلمات الست عشرة وراء ظهورنا.

مع ذلك، لم تكن هذه سوى واحدة من المعارك التي واجهناها في البيت الأبيض. فالسؤال الأشمل حول التقارير الاستخباراتية في المرحلة التي سبقت الحرب كانت ما تزال تحوم فوق رؤوسنا. لماذا ارتكبت إدارة بوش، ومعها العديد من الخبراء الواسعي الإطلاع من كثير من دول العالم هذا الخطأ الفادح حول حقيقة وضع أسلحة الدمار الشامل لصدام حسين وبرنامج أسلحة الدمار الشامل الذي يتبناه؟ أكثر من ذلك، كان الصراع الجديد قد بدأ يتصاعد حول التسريب الواضح لهوية فاليري بليم من قبل مسؤولين في الإدارة بهدف تقويض سمعة جويلسون.



في السادس عشر من شهر أيلول، سبتمبر، أعلمت وكالة المخابرات المركزية وزارة العدل بأمر استكمال تحقیقاتها بشأن الإفصاح عن اسم فاليري بليم ووضعها السري، وطلبت أن يقوم مكتب التحقيقات الفيدرالي «بالمبادرة إلى إجراء تحقيق حول الموضوع». نصحت وزارة العدل وكالة المخابرات المركزية في التاسع والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر، سنة 2003 أن يقوم قسم مكافحة التجسس فيها بدعم فكرة طلب التحقيق. وكان المضمون الواضح هو وجود أسباب وجيهة للاعتقاد أن جريمة ما، قد ارتكبت عبر تسريب اسم بليم. وكان سيتم إعلام البيت الأبيض حول قرار وزارة العدل في وقت لاحق من ذلك اليوم.

الفضيحة المصنوعة خصيصاً على قياس واشنطن اكتمل نموها. وقد تمت هذه الفضيحة على وقع حملة إعادة انتخاب الرئيس. زادت الروح الحزبية من حدة هذا اللفظ، حتى عبر إطلاق تسمية على هذه القصة. فنحن في البيت الأبيض أطلقنا عليها ببساطة وصف: «التحقيق حول التسريب»، بينما أطلق عليها منتقدونا وصف «بليمفيت» في محاولة منهم لجعلها تبدو شريرة بالدرجة نفسها لأكثر الفضائح شهرة على الإطلاق. ربما كان أكثر الأسئلة حول التسريب سخونة يدور حول ما إذا كان كارل روف - وهو أكثر مستشاري بوش إثارة للجدل - متورطاً في هذه القضية.

أول سؤال تم توجيهه إليّ كان بالتحديد حول ما إذا كان روف متورطاً، وذلك في اللقاء الصحفي الذي جرى في السادس عشر من أيلول، سبتمبر سنة 2003، راسل مخيبر رئيس

تحرير صحيفة الرأي: Corporate Crime reporter، وهو أحد مساعدي رالف نادر، وأحد منتقدي البيت الأبيض الليبراليين، طرح سؤالاً محدداً. أتى هذا السؤال من حيث لا أشعر، لكن ذلك كان طبيعياً كونه أتى من مخبر، الفظ، والذي لا يهتم عادة بالأخبار اليومية. كان يهتم بالأخبار المفخخة التي تساعد بكل بساطة في التسبب بأكبر كم من الأذى لإدارة لا ينظر إليها باحترام.

قال مخبر: «بالنسبة لموضوع نوفاك - ويلسون، قال نوفاك في وقت سابق من هذه السنة - واقتبس مما قال - إن مصادر حكومية مجهولة أبلغته أن زوجة ويلسون هي عميلة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية. الآن، من الواضح أن حرق غطاء عميل لوكالة المخابرات المركزية هو جريمة فيدرالية. يعتقد ويلسون أن الشخص الذي فعل ذلك هو كارل روف. نسب إليه قوله في كلمة ألقاها الشهر الماضي [في المنتدى العام الذي عقد في الثاني عشر من شهر آب، أغسطس، في إحدى ضواحي سياتل] «في المحصلة، من المهم جداً بالنسبة إلي التأكد فيما إذا كان باستطاعتنا رؤية كارل روف يساق مكبل اليدين إلى خارج البيت الأبيض». هل كان كارل روف هو من أخبر...»

لم أكن مستعداً لتلقي مثل هذا السؤال بمعنى أنني لم أكن قد تحدثت إلى روف حول هذا الموضوع، بعد: لكن السؤال صيغ بطريقة منفرة عاطفياً عبر إشارته لروف أنه «حرق غطاء عميل لوكالة المخابرات المركزية» عن سابق تصور وتصميم، وهذه الطريقة جعلتني أقاطع مخبر بثقة: «لم أسمع هذا. هذا الكلام هو منتهى السخف». تابع مخبر متسائلاً فيما إذا كان روف قد أفصح عن اسم بليم لنوفاك: ومن جديد قلت: «إن هذا القول سخيف تماماً». وكان هذا هو الموقف الذي تبنيته في الوقت الذي استمرت الفضيحة بالتصاعد.

رأيت روف بعد اللقاء الصحفي في قاعة روزفلت بمدة وجيزة وتحدثت إليه بهدوء قرب الباب المؤدي إلى الرواق الفاصل بين قاعة روزفلت والمنطقة التي يتواجد فيها مكثبي. أردت التأكد أنني لم أقل ما لا يجب أن يقال. كان روف يعرف نوفاك معرفة جيدة منذ سنوات وكان يتحدث إليه بين الحين والآخر، وبالطبع كان معروفاً بأرائه السياسية

الصارمة. لكنه كان يعرف بالتأكيد أن تسريب معلومات سرية تتعلق بالأمن القومي هو تجاوز لكل الخطوط.

قلت لروف: «سئلت في قاعة اللقاءات الصحفية اليوم عن التعليق الذي أدلى به جو ويلسون، والذي ذكر فيه أنه يرغب برؤيتك تقاد خارج البيت الأبيض مكبل اليدين. فقد سألتني أحد الصحفيين فيما إذا كنت أنت أحد مصادر المعلومات لنوفاك، أو أنك أنت من «حرق الغطاء» من على زوجة ويلسون. لقد قلت إن هذا في منتهى السخف. أنت لم تكن أحد مصادر المعلومات لنوفاك، أليس كذلك؟»

«بالضبط».

قلت: «أردت فقط أن أتأكد».

قال روف: «أنت محق».

كانت المرة الثانية التي أدقق فيها مع روف يوم السبت الواقع في السابع والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر، 2003. كان مايك آلان، مراسل صحيفة واشنطن بوست في البيت الأبيض الممتلئ بالحيوية، في الثلاثينات من عمره، والذي غطى حملة الانتخابات الرئاسية سنة 2000، يعمل على جزئية تتعلق بالتحقيق في تسريب المعلومات بالاشتراك مع الصحفية المخضمة دانا بريست التي كانت تقوم بتغطية قضايا تتعلق بالاستخبارات لصالح صحيفة البوست.

استناداً إلى مايك، فقد أخبرهما أحد كبار المسؤولين أن اثنين من كبار المسؤولين في البيت الأبيض سبق لهما أن تحدثا إلى ستة من الصحفيين على الأقل حول زوجة ويلسون. لم يعرف مايك أسماء جميع المساعدين الذين زعم أنهم متورطون في فضيحة التسريب، لكنه بالاشتراك مع بريست ارتأيا أن مصدرهما لم تكن تعوزه المصادقية، ولهذا فقد قررا الاستمرار في تقصي هذه القصة.

كنت في كامب ديفيد في ذلك اليوم، حيث كان الرئيس يجتمع مع الرئيس بوتين ويعتزم عقد لقاء صحفي يلقي فيه كل منهما بياناً ثم يتلقيان عدداً محدوداً من الأسئلة من

الصحفيين المرافقين لهما. اتصل روف بمساعدتي التي أثق بها كثيراً، كليز بوكان ليبلغها أنه تلقى رسالة بالبريد الإلكتروني من مايك يسأله فيه عن القصة.

كان فحوى القصة التي نشرتها البوست واضحاً تماماً: أن البيت الأبيض كشف عن هوية بليم للنيل من مصداقية جو ويلسون، أو لمعاقبته. كانت القصة تضع تسريب هويتها على أعتاب البيت الأبيض محملة إياه مسؤولية التسريب. قبل ذلك، كانت القصة تركز فقط على «اثنين من كبار المسؤولين في الإدارة» حسب رواية نوفاك. لكن البوست تنشر الآن أن اثنين من كبار المساعدين في البيت الأبيض تحديداً هما من كشف عن هويتها للعديد من الصحفيين، ملمحة بذلك إلى إمكان وجود جهد منظم من قبل البيت الأبيض لكشف الدور الذي قامت به بليم، وعلاقتها برحلة زوجها إلى النيجر.

حدثت كليز إلى روف قبل عودتي إلى البيت الأبيض في حافلات الموظفين. وصلت إلى مكنتي بعد الواحدة من بعد الظهر بقليل، وبعد برهة وجيزة، تلقيت منها تقريراً عن ما جرى.

أعلمتني أن روف قال لها من تلقاء نفسه إن نوفاك اتصل به بشأن بليم. وهو لم يؤكد أن لبليم علاقة مع وكالة المخابرات المركزية لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذا الموضوع.

أجبت بشيء من الدهشة: «كارل تحدث إلى نوفاك؟»

قالت كليز إنه فعل ذلك. أصبت بصدمة لأن روف لم يذكر لي شيئاً عن هذا الاتصال عندما تحدثنا إلى بعضنا بعضاً في المرة الأولى. ناقشت مع كليز كيف أن هذا يتفق مع ما قلته سابقاً في قاعة اللقاءات الصحفية يوم السادس عشر من شهر أيلول، سبتمبر. فقد كان ما ذكرته حينها يتطابق مع ما قاله كارل لكليز الآن: فهو لم يكن أحد مصادر نوفاك لأنه لم يكن باستطاعته تأكيد ما لم يكن يعرفه.

شعرت أنه كان على روف أن يكشف لي عن هذا الحديث مع نوفاك سابقاً؛ لذا قررت الاتصال به. كرر على مسامعي ما كان قد أخبر كليز به في وقت سابق من ذلك اليوم: «لقد قال [أي نوفاك] إنه سمع أن زوجة ويلسون عملت مع وكالة المخابرات المركزية. أجبته

بأنتي لا أستطيع تأكيد هذا الخبر لأنني لم أكن أعرف». بعدها، وحيث كنت أعلم إلى أين سيتجه مسار القصة في المقال الذي سينشر في صحيفة البوست، سألت كارل سؤالاً غير قابل للبس أو التأويل: «هل كانت لك علاقة بهذا الموضوع بأي شكل من الأشكال؟» كنت أشير بوضوح إلى مسألة تسريب هوية فاليري بليم - وهي معلومات كان يعتقد أنها سرية - إلى أي صحفي.

أجاب كارل بشكل حاسم، «كلا: اسمع، لم أكن أعرف شيئاً عن زوجته بالمرّة».

لم يكن هناك أي ذكر حينها لمحادثة هاتفية أجراها كارل في الحادي عشر من شهر تموز، يوليو، مع أحدث مراسلي مجلة تايم في البيت الأبيض آنذاك، واسمه مات كوبر، هذه المحادثة بقيت طي الكتمان باعتبارها «سراً استثنائياً مضاعفاً» (وهذه العبارة الذكية هي لكوبر وليست لي). لمدة سنتين إضافيتين تقريباً، حينها فقط، وعندما تم إعلان الأمر على الملأ، وأبلغت به أنا أيضاً، علمت أن روف كشف عن هوية بليم إلى كوبر أثناء تلك المحادثة.

أعطتني عبارة «كلا» غير القابلة للتأويل التي قالها لي روف التأكيد الذي كنت أحتاجه للدفاع عن زميل عضوي في فريق بوش، وزميل تكساس عرفتته منذ أكثر من عشر سنوات، كان من دون شك، هدفاً رئيساً لأكثر منتقدينا الحزبيين شراسة.

بحلول صباح يوم الاثنين الواقع في التاسع والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر، كان جو ويلسون ضيفاً على برنامج 'صباح الخير يا أمريكا' في محطة ABC، وفيه تراجع ويلسون عن تأكيداته السابقة بأن روف كان مسؤولاً عن تسريب هوية زوجته. إلا أن ويلسون أكد أيضاً خلال تلك المقابلة أنه يعتقد أن روف «في الحد الأدنى، تغاضى عن هذا التسريب».

دققت مع روف في ذلك اليوم كي أؤكد أنه لم يسرب اسم بليم، أو يتغاضى عن تسريب اسمها. أكد لي أن ذلك صحيح، وكان ذلك آخر مرة أتحدث فيها مع كارل، أو أسمع منه عن أي شيء يتعلق بموضوع التسريب.



عندما كنت أسير باتجاه المكتب البيضاوي صباح يوم التاسع والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر، كان يمكن أن يكون كأي يوم عادي آخر في البيت الأبيض.

كما كنت أفعل غالباً، قابلت الرئيس في الصباح قبل اللقاء مع الصحفيين في ذلك اليوم. كانت مقابلي للرئيس مناسبة لأطلع على أفكاره حول الكيفية التي سأرد بها على واحد من الموضوعات المحددة، ولأتأكد من أنني أطلعه بشكل كامل على ما يدور في خلد الصحفيين، أو فقط لأتأكد من أن أسلوبه حيال معالجة أي موضوع يتوافق مع رؤيته. كانت الفرصة سانحة للقاء به في المكتب البيضاوي بعد الساعة السابعة صباحاً بقليل، وقبل الاجتماع اليومي مع كبار المسؤولين الساعة السابعة والنصف. في الأوقات الأخرى عادة ما كانت هذه اللقاءات تتم بعد أن يكون قد استمع إلى العرض من المخابرات ومكتب التحقيقات الفيدرالي، أو عندما يكون في طريقه إلى خارج المكتب البيضاوي متوجهاً إلى غرفة المؤتمرات من أجل القيام بمكالمة خاصة، أو من أجل اجتماع مع مجلس الأمن القومي.

لكن هذا اليوم ليس كبقية الأيام في البيت الأبيض. فقد كانت سحابة الفضيحة الداكنة ترمي بظلالها علينا في صباح هذا اليوم المتأخر من شهر أيلول.

ألقيت التحية وأنا أُلج إلى المكتب البيضاوي، متخطياً الأرائك عبر الختم الرئاسي الأزرق في وسط السجادة ذات اللون البيج الفاتح: «صباح الخير سيدي الرئيس». كان مكتبه متوضعاً أمام ثلاث نوافذ طويلة تتدلى منها ستائر من الجوخ الطويل الذهبي اللون يمكن لها أن تحجب طلقات الرصاص إلا أنها لا تحجب نور الشمس الذي يملأ المكتب. كان المكتب الأنيق مصنوعاً من أخشاب انتزعت من السفينة البريطانية HMS Resolute وهي سفينة استكشافية للأبحاث في المناطق القطبية انتشلها يوماً أحد صيادي الحيتان الأمريكيون. وقد استخدم هذا المكتب كل قادة الجيش تقريباً لأن البريطانيين، وكلفتة تقدير من قبلهم، قدموه للرئيس روزرفورد هيس. كان آندي كارد يقف إلى يسار الرئيس.

قال الرئيس بأسلوب لطيف: «مرحباً يا سكوت. ماذا في جعبة الصحافة هذا اليوم؟»

قلت، وأنا أعرف أن سؤاله كان شكلياً كونه مثلنا جميعاً يعرف جيداً أن ما سأقوله هو موضوع الساعة: «التقارير الصادرة حول التحقيق الذي قامت به وزارة العدل بشأن تسريب اسم فاليري بليم، أريد التحدث إليك بشأن هذا الموضوع قبل الاشتباك مع الصحفيين».

قال الرئيس بتلقائية: «ليس كارل من فعلها»، وكان يعني بهذا كبير مستشاريه، وكبير مخططيهِ الاستراتيجيين كارل روف. كلمة «فعلها» كانت تعني بوضوح الكشف عن هوية بليم للصحفيين. كان ما يزال يمسك بذراعي الكرسي الذي يجلس عليه وظهره إلى الوراء خلف مكتبه. كان يبدو في مزاج جيد.

بدأت القول، وأنا غير مدرك أن الرئيس ما زال لديه ما يريد قوله: «أعرف...».

تابع الرئيس قائلاً: «أخبرني انه لم يفعلها»، قاطعاً عليّ جملي من منتصفها.

كان قد مضى شهران على نشر نوافك لمقالته معلناً عن اسم بليم، ومستشهداً «بأثنين من كبار المسؤولين» كمصدر للتسريب. كان روف قد أنكر لتوه أمامي أن يكون هو من قام بعملية تسريب هوية بليم، وعلمت الآن أنه أبلغ الرئيس أنه غير متورط في ذلك.

حدق الرئيس بعد ذلك في آندي الذي رفع ذراعيه فوق مستوى خصره وكان يشير إلى الرئيس وهو يخفضهما نحو الأسفل أن يهدأ ويتوقف عن الكلام بشأن ما سيصبح بسرعة موضوعاً حساساً.

قال الرئيس وهو ينظر إلى آندي بشيء من الضيق في صوته: «ما الأمر؟ هذا ما أخبرني به كارل».

قال آندي: «أعلم ذلك، لكن ينبغي أن لا تتحدث إلى أي شخص حول هذا الموضوع، ولا حتى معي». كان آندي دائماً في غاية الحذر. في ذلك الصباح نشرت صحيفة واشنطن بوست خبراً مفاده أن وزارة العدل فتحت تحقيقاً جنائياً بشأن الكشف عن هوية بليم.

شعر آندي أن أول، وأهم مسؤولياته رئيساً لأركان البيت الأبيض، حماية الرئيس، ووقته، وسمعته، وإرثه. لقد خدم في إدارتين قبل هذه الإدارة، وكان يعرف كيف يمكن

للفضائح أن تحطم أصحابها في واشنطن. كان أندي يرى أن حماية الرئيس تتطلب أحياناً الوقوف بينه وبين كبار المساعدين الآخرين بمن فيهم كبير الناطقين باسمه.

لكن الرئيس وأنا، كانت تربطنا علاقة فريدة من نوعها بدأت في الولاية التي نشأنا فيها وهي موطنتنا، تكساس. لذا، لم يأبه الرئيس بالجهد الذكي الذي حاول أندي أن يبذله كي يمنعه من أن يتحدث معي حول ما قاله كارل. ظهرت على وجهه بعض أمارات الضيق الإضافية في الوقت الذي تمتم بعبارة: «لا بأس: أياً يكن الأمر»، وهو ينظر إلى الأمام بعيداً عني وعن أندي. كان هذا التعبير يظهر على وجه الرئيس من حين إلى آخر عندما كان أحد أركان البيت الأبيض يحاول أن يملئ عليه ما يجب عليه أن يفعله أو لا يفعله.

تابعت قائلاً، وأنا أنظر باتجاه الرئيس: «تحدثت إلى كارل أيضاً. قال لي الشيء نفسه».

سأل الرئيس: «هل تظن الصحافة أنه هو من فعلها؟»

أجبت: «سبق وأن أخبرت الصحافة أنه ليس هو من فعلها. لكنني متأكد أنهم سيسألونني عن الموضوع ذاته اليوم». ذكرت له القصة التي نشرتها صحيفة واشنطن بوست يوم الأحد، والتي أشارت فيها إلى أن اثنين من كبار المسؤولين في البيت الأبيض اتصلا على الأقل بستة من الصحفيين في واشنطن بغية الكشف عن هوية بليم وموقعها الحالي في وكالة المخابرات المركزية.

لم أشأ التطرق أكثر إلى حديث الرئيس مع كارل، وكان يعود ذلك جزئياً إلى القلق الذي كان ظاهراً حينها على أندي. لكنني افترضت عبر تعليقاته أنه سأل كارل سابقاً في ذلك الصباح فيما إذا كان واحداً من هذين المصدرين أم لا. كان الموضوع ما يزال طرياً في ذهنه، وشعرت بالثقة في دفاعي عن كارل طالما أن الرئيس نفسه قد تلقى تطمينات منه. وكان انطباعي حينها أن أندي كان على اطلاع كامل بما قاله كارل للرئيس.

حينها، نظرت إلى أندي وسألت: «هل نعلم عن أي شيء آخر يتعلق بالتحقيق؟»

أجاب أندي أنه لم يسمع بأي جديد حول الموضوع؛ وعلى حد علمه، نحن بانتظار سماع شيء من قبل وزارة العدل.

كانت تلك المناقشة في المكتب البيضاوي في ذلك الصباح - وهو اليوم الذي كنا سنُخطِرُ فيه بأن تحقيقاً بالفعل سيتم لاحقاً - لحظة كان سيتذكرها آندي وهو يدلي بشهادته أمام المدعين العامين، وكنت سأذكرها أنا، تحت القسم، أمام هيئة كبار المحلفين الفيدراليين. حولت المناقشة بعدها باتجاه المقاربة التي كنت أخطط للقيام بها في حوار مع فريق الصحفيين المتجمعين في البيت الأبيض في وقت لاحق من ذلك الصباح، وفي اللقاء الصحفي بعد ظهر اليوم نفسه، فقد كان الرد الرئيس للبيت الأبيض على هذا الهياج الإعلامي المتكاثر في الجو سيكون مني. كان الرئيس مرتبطاً بمناسبتين عامتين ضمن برنامج البيت الأبيض في ذلك اليوم، لكنه لم يكن في نيته تلقي أسئلة من الصحفيين حول أي من هاتين المناسبتين. فلم يكن أحد من أركان البيت الأبيض يرى أي فائدة يمكن جنيها لو قام بذلك، طالما أن الصحفيين سيركزون بشكل كامل على التحقيق في قضية التسريب.

قلت للرئيس: «أنوي القول إنك تعتقد أن أي تسريب لمعلومات سرية يجب أن يدقق فيه ويتابع إلى أقصى مدى ممكن، وأن وزارة العدل هي الجهة المناسبة لتقصي هذا الأمر. لا أخطط يا سيادة الرئيس الذهاب أبعد من ذلك».

أجاب الرئيس: «نعم، أظن أن هذا صحيح، اعتقد أنها مسألة خطيرة، وأمل أن يكتشفوا الشخص الذي فعلها».

وتوجهت نحو آندي قائلاً: «يا آندي، أنوي كذلك أن أقول إنه لم يرق إلى مسامعنا شيء يشير إلى تورط البيت الأبيض خارج ما قرأناه عن هذا الموضوع في الصحف، هل توافقني الرأي؟»

أجاب آندي: «لا أعرف شيئاً»، وأضاف: «آخر مرة سمعت آل فيها، أكد لي أنه لم يسمع بالأمر أيضاً». كان يشير هنا إلى آل غونزاليز، مستشار البيت الأبيض، وأحد أنصار يوش القدامى من تكساس. كنا جميعاً نتحدث بلسان واحد.

تفوه الرئيس ببضع كلمات تشجيع بينما كنت أتوجه إلى خارج المكتب، كنت أعلم أن اللقاء مع الصحفيين سيكون عاصفاً. كانت هذه أول فضيحة كبرى تعصف بالبيت الأبيض

في عهد بوش، وكان جمع الصحفيين يستعد للهجوم. كان الرئيس يتحضر للبدء في حملة إعادة انتخابه في السنة اللاحقة، ورأى الديمقراطيون الفرصة سانحة كي يحشرونا في موقف دفاعي، ويكيلوا ضربة موجعة لفرص الرئيس في إعادة انتخابه. كنت في قلب هذه العاصفة التي يتزايد أوارها - وكنت خط الدفاع الأول عن البيت الأبيض.

بعد مضي شهرين على تبوئي منصب السكرتير الصحفي في البيت الأبيض، كنت على وشك الولوح إلى أول امتحان لي في قاعة اللقاءات الصحفية. كان الكثير من التوتر التقليدي يجري بين الصحافة والسكرتير الصحفي اليوم. نصف الوقت الذي يمر أثناء اللقاء اليومي مع الصحفيين المتواجدين في البيت الأبيض ينقضي وهم يحاولون إيجاد ثغرة ولو صغيرة في ما يقوله السكرتير الصحفي وذلك كي يسجلوا عليه أي خطأ أو تناقض يمكن أن يقع فيه - وهي لحظة «أمسكت بك متلبساً». إن هذا طقس لا بد أن يمر به أي سكرتير صحفي، وهو أسلوب يحاول عبره الصحفيون إحداث ثقب في الجدار عندما يزودون بمعلومات منتقاة بعناية تتلى عليهم على الملأ.

كان لدي تصور جيد عما سوف أواجهه، وهو ما وفر لي فرصة تهيئة نفسي للقاء. العديد من زملائي في البيت الأبيض سوف يراقبون عن كثب أدائي في اللقاء الصحفي هذا اليوم، وسيكون أحد أسباب ذلك التحقق من كيفية أدائي لهذه المهمة تحت الضغط.

كان هناك نحو خمسة وثمانين سؤالاً خلال الحوارات غير الرسمية مع الصحفيين صباح ذلك اليوم بعيداً عن عدسة الكاميرا؛ سبعون من هذه الأسئلة تمحورت حول التحقيق بشأن قضية التسريب. تحدث الصحفيون، الواحد منهم تلو الآخر وهم يطلقون سهام أسئلتهم، ولم يكن ذلك يثير في أي إحساس بالضيق. أردت أن أتأكد من أنني أشعر بالراحة وأنا أتلقي أسئلة محددة سوف تطرح علي من قبل الصحافة بما في ذلك ما ستطرحه خلال اللقاء الصحفي بعد الظهر. تركت عن قصد مني لهذه الحوارات أن تأخذ وقتاً أطول بمعدل خمس عشرة دقيقة من المعتاد. وقد أكدت هذه الحوارات على ما كنت أعرفه: سوف يكون هناك هياج مجنون في قاعة اللقاءات الصحفية يتمحور بشكل كلي تقريباً حول تسريب هوية فاليري بليم.

منذ أن استشهد نوافك «باثنين من كبار المسؤولين في الإدارة» نشرنا معلومات عن هوية بليم، افترضت وسائل الإعلام أن مسؤولي البيت الأبيض هم المسؤولون عن هذا التسريب.

كان كارل روف الذي يعتبره منتقدو البيت الأبيض مانعة الصواعق، والعقل المدبر الميكيا فيللي النزعة للرئيس، هو المشتبه به ضمن التخمينات في طاحونة الشائعات في واشنطن. تم استحضار اسمه مراراً من قبل الصحفيين خلال الحوارات التي حصلت في ذلك اليوم، واللقاء الصحفي الذي حصل فيما بعد، وفي كل مرة، كنت أرفض فكرة أن يكون متورطاً في ما جرى.

ينتهي اللقاء الصحفي عادة عندما يقول المراسل السلبي الجالس في الصف الأول سواء من وكالة رويترز أو الأسوشيتد برس، أيهما يكون قد غطى ما يجري في البيت الأبيض مدة أطول: «شكراً». ولذا، فإن مدة اللقاء الصحفي يمكن أن تتراوح بين عشرين دقيقة كحد أدنى، ومعدل وسطي يتراوح بين ثلاثين وخمس وثلاثين دقيقة، ويمكن أن يصل إلى ما بين خمس وأربعين دقيقة، وخمس وخمسين دقيقة كحد أقصى. وكان اللقاء اليوم قد أخذ مداه الزمني الأقصى، في أغلب الأيام، يشير سجل اللقاءات الرسمي في البيت الأبيض، والذي يوضع في متناول الأيدي بعد ظهر كل يوم إلى طرح نحو عشرة موضوعات في ذلك اللقاء، أما اليوم، فهناك فقط موضوعان: التحقيق بشأن التسريب، والعراق.

لم تعطِ الصحافة أو أنا، السجلات داخل قاعة اللقاءات الصحفية بعداً شخصياً. فقد كنا نؤدي عملنا فقط، كان واجبي مساعدة الرئيس في تسويق مخططات وتوضيح آرائه وسياساته بأمانة ودقة، وبالطريقة التي يفضلها، أما مهمة الصحافة فتتلخص في نقل أخبار الرئيس وإدارته، وتحميلنا المسؤولية عن قراراته وسياساته، والتدقيق في طريقته في الحكم، وكذلك طريقة أركانه ومستشاريه، وعادة ما يكون الصحفيون الذين يغطون ما يجري في البيت الأبيض من بين الأفضل في مجال عملهم.

وهكذا، فبعد ظهر يوم الاثنين ذاك، ولم يكن قد مضى على استلامني منصب السكرتير الصحفي سوى أقل من ثلاثة أشهر، كنت مستعداً لخوض معركة كلامية. كان

هناك حشد صحفي كبير في قاعة اللقاءات الصحفية. بعض «الثابتين» (من المصورين) كانوا جاهزين لالتقاط صورة أو اثنتين تتناسب والعناوين التي ستتصدر الصفحات الأولى التي ستطبع في صحف البلاد صبيحة اليوم الثاني؛ وإذا استطاعت الصحافة أن تحشرني في زاوية، فستكون الصورة غير مرضية. تمت تهيئة الكاميرات المحمولة العائدة إلى عدة شبكات لأربعة أو خمسة من المصورين وتثبيتها على أعمدة ثلاثية القوائم على بعد ثلاثة أو أربعة أقدام إلى يساري، بالإضافة إلى كاميرا تدور بشكل مستمر بين الداخل والخارج خلف كتفي الأيسر. كانت شبكات الكبل تنهياً للبت المباشر على الهواء وذلك بهدف تغطية واحد من الأخبار الرئيسية في ذلك اليوم: البيت الأبيض قيد التحقيق بسبب ما نقل عن تسريب معلومات سرية عن مسؤول سري - وهذه تشكل جناية محتملة إذا حدثت بشكل مقصود ومتعمد.

أحسست بأنني جاهز تماماً. الجلسة الإعدادية التي كانت بمثابة «منصة قتل»، والتي تدربت عليها قبل عقد اللقاء الصحفي كانت مفيدة جداً (وهي بمثابة لقاء صحفي تمثيلي غير رسمي مع كل من نائبة السكرتير الصحفي ومساعدتها، وهو ما منحني فرصة التدريب على الإجابة على أسئلة وضبط إيقاع إجاباتي). كان كل من كارد وغونزاليز قد أكدا لي سلفاً أن أحداً في البيت الأبيض غير متورط في الكشف عن هوية بليم.

وبما أن الموضوع طرح في الحوارات الصباحية مع الصحفيين، فقد قمت بزيارة للرئيس قبل عقد اللقاء الصحفي للتأكد من موافقته على قلتي في معرض إجابتي عن أسئلة تتعلق باحتمال أن يقوم بطرد أي شخص يثبت تورطه في تسريب معلومات سرية، وخصوصاً تسريب اسم فاليري بليم. أخبرته بأنني أنوي القول إن أي شخص متورط في هذا الأمر لن يبقى في طاقم الإدارة.

وافق الرئيس على ما قلته، وأضاف بحزم: «سأطرد كل من يثبت تورطه في ذلك». لقد حصلت على موافقته الكاملة وغير المشروطة. سألني فيما إذا كنت قد حثت الصحفيين على التقدم للإدلاء بأي معلومات إذا كانوا يعرفون الأشخاص الذين تسببوا في التسريب. قلت له إنني سأذكر لهم هذا الطلب. قال: «حسنٌ؛ أظن أن عليك فعل ذلك». كنت أشعر

بالأدرينالين ينسكب في عروقي وأنا أعطي الإشارة لجوش ديكارد، وهو أحد مساعدي في الفريق الصحفي الذين يبذلون جهوداً كبيرة ولا يدفع لهم سوى القليل كي ينبه إلى أننا سنبدأ بعد دقيقتين، بحيث تستطيع شبكات الأخبار التهيئة لنقل حي ومباشر في اللحظة التي أُلج إلى قاعة اللقاءات الصحفية.

عندما يرى الزوار قاعة اللقاءات في البيت الأبيض، يقولون عادة «إنها تبدو أكبر على شاشة التلفزيون». إنها مكان ضيق وقذر، خصوصاً في الأيام التي تكون فيها معظم المقاعد الثمانية والأربعين مشغولة، ويكون صحفيون آخرون واقفين في الممرات الضيقة. سوف تشاهد تحت الأنوار المبهرة العديد من (الميكروفونات) وهي تتدلى من السقف، وكذلك المصورين الثابتين، وفرق مصوري الشبكات متلاصقين إلى جانب بعضهم بعضاً لدرجة أنهم يكادون يتسببون في انهيار المنصة؛ في هذا المشهد، لك أن تتخيل الحصول على مقعد مريح.

رفضت بحدة التلميحات التي تضمنتها الأسئلة، وتحديث الصحفيين أن يقوموا بتقديم أي معلومات تشير إلى أن عاملين في البيت الأبيض مسؤولون عن عملية التسريب. كررت التأكيد أن الرئيس يتوقع من كل العاملين في إدارته أن يلتزموا بأعلى معايير الأخلاق المهنية والسلوكية، وأن أحداً لم تمنح له صلاحية تسريب اسم زوجة ويلسون.

حاول تيري موران، المراسل الرئيس لشبكة ABC News في البيت الأبيض أن يحشرنني في الموضوع الذي كنت قد أكدت عليه في الحوارات التي جرت صبيحة ذلك اليوم ومفاده أن الرئيس متأكد من أن كارل روف لا علاقة له بالتسريب، كانت صورة لقائي مع الرئيس ما تزال حية في ذاكرتي، ولكن من دون قصد مني، غفلت أن أذكر، في معرض إجابتي على السؤال، الأسباب التي حدت بالرئيس إلى عدم توجيه البيت الأبيض إلى تقصي الأمر وكشف جذور هذا اللفظ، أو عدم إظهار أي اهتمام في معرفة ما إذا كان كبير مستشاريه متورطاً. وهو ما أدى في الحال إلى التساؤل: كيف «علم» الرئيس بذلك؟

كان من الأسهل إهمال ما جرى لاحقاً بالكلية، لو تم طرحه أثناء الحوارات الصباحية. ففي اللقاء الصحفي المنقول بواسطة (عدسات التصوير)، «تراقصت

حول السؤال» قبل أن أكرر جملة استخدمها أحياناً: «لسنا متعودين على مناقشة الأحاديث التي تجري بين الرئيس وكبار مستشاريه».

في جوابي على سؤال طرحته دانا باش من محطة CNN حول السبب الذي دعا الرئيس إلى عدم اعتبار المسألة موضوعاً أخلاقياً نظراً إلى أنه ألزم نفسه حين كان مرشحاً بإعادة فرض معايير الشرف والقيم الأخلاقية إلى البيت الأبيض، قلت: «لقد أرسى الرئيس معايير أخلاقية عالية المستوى وطلب من الأشخاص العاملين في إدارته الالتزام بها. لقد أوضح بشكل غير قابل للبس لجميع العاملين في إدارته أنه يتوقع منهم الالتزام بأعلى معايير السلوك الأخلاقي، ولوثبت أن أحداً في هذه الإدارة أياً كان موقعه، متورطاً في هذه المسألة، فإنه لن يستمر في العمل ضمن إدارته».

تم ترداد هذه الكلمات الأخيرة كثيراً في وسائل الإعلام على امتداد السنوات اللاحقة خصوصاً بعد أن ظهرت إلى الضوء معلومات مهمة. كنت واثقاً كل الثقة في ما قلته بسبب أنني حزت على موافقة الرئيس على قول ذلك، وبسبب أن التزامه بمعايير الشرف والاستقامة، وهو الالتزام الذي كان غالباً ما يردده، محفور في ذهني.

عندما أعلن عن ترشحه للرئاسة سنة 1999، قال بوش: «سوف نثبت أن السياسة، بعد حقبة تم فيها تمرغ المثل والقيم العليا بالوحل، يمكن أن تكون أسمى وأفضل. سوف نمنح بلادنا فرصة لبداية جديدة بعد موسم من التشكيك بالقيم».

في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2001، اليوم الأول لنا في البيت الأبيض، ذكرنا الرئيس جميعاً نحن العاملين في إدارته، وذلك في احتفال أدا القسم العلني لكبار أركان العاملين في البيت الأبيض، بضرورة الالتزام «بالمعايير السامية التي تعد من متطلبات المناصب العليا» وتجنب «حتى مجرد السماح بظهور المشكلات».

كان التزامه بالمثل الأخلاقية العليا قد جعل العديد منا، نحن العاملين معه، فخورين بتلبية النداء كي ننضم إلى فريقه. كنا نؤمن بأن هذا الرئيس ملتزم بشكل لا يقبل المساومة، بأشياء أفضل مما رآه الأمريكيون من أسلافه من القادة المنتخبين. كما أنه بنى سمعته جزئياً على أساس أنه يقول ما يعني، ويفعل ما يقول.

الآن، وبعد سنتين ونصف على انتخابه، بدأ السؤال يدور في أذهان الناس، حول ما إذا كانت هذه الإدارة ما تزال ملتزمة بهذه المعايير الأخلاقية السامية.

انتهى اللقاء الصحفي بعد خمس وأربعين دقيقة على بدايته. كان الوقت مناسباً كي أبدأ بتخفيض نسبة الأدرينالين في دمي بعد هذه الجلسة المشحونة، وأستمتع باللحظة. كانت ردة الفعل المتمثلة في الملاحظات التي تم إبدائها بعد اللقاء الصحفي من قبل نوابي ومساعدتي إيجابية جداً.

كانت النسخة الرسمية المكتوبة التي أصدرها البيت الأبيض للقاء الصحفي ذاك تبلغ اثنتان وثلاثون صفحة. الصفحات الأربع والعشرون الأولى كانت مكرسة للتحقيق بشأن التسريب. أكثر من مائة وعشرة أسئلة على امتداد ثلاث وثلاثين دقيقة ونصف الدقيقة مرت قبل أن نناقش في موضوعات لا علاقة لها بالتحقيق حول التسريب.

تلقيت الكثير من العناق عصر ذلك اليوم تعبيراً عن السعادة بالطريقة التي أدت فيها اللقاء تحت كثير من الضغط. تلقيت المديح من زملائي في البيت الأبيض وفي الإدارة، وحتى من عدد من الصحفيين المتواجدين في البيت الأبيض. حتى أن بيل بلانت، وهو صحفي ساخر مخضرم يعمل مراسلاً لصالح شبكة CBS News في البيت الأبيض، قال لي: «شاهدت الكثيرين ممن شغلوا منصب السكرتير الصحفي في مواقف صعبة. لم يكن ما حدث اليوم سهلاً أبداً. أريد فقط أن أقول إنك قمت بعمل جيد».

عندما التقيت بالرئيس في وقت لاحق من ذلك اليوم، قال كالآخرين: «قمت بعمل جيد، اليوم». عبرت له عن تقديري لرأي من دون أن أعرف أنه بالفعل شاهد أي جزء من اللقاء، أو أنه ببساطة أعلم عن فحواه بواسطة زملائي من كبار الموظفين.

لا أعرف إذا كان هذا أفضل أداء قمت به في غرفة اللقاءات الصحفية، لكنني شعرت بالارتياح لما قمت به، وحتى أن شعوري أصبح أفضل بعد أن تلقيت طائفة من العبارات اللطيفة على امتداد ذلك اليوم. أظهرت أنني على الأقل جاهز لأقوم بما علي القيام به للمساعدة في توجيه دفعة سفينة البيت الأبيض في عهد بوش التي تمخر عباب المياه المضطربة في بحر حملة إعادة انتخابه. كانت نشرات الأخبار الليلة الثانية على التوالي،

تبث في عناوينها الرئيسة قصة التسريب: تماماً كما كانت تفعل برامج الصباح الحوارية
والصحف في اليوم الثاني.

لن تكون تلك، المرة الأخيرة. وكالحرب التي تقبع في جذور الفضيحة، فهي لن تختفي
في أي وقت قريب.

11

الرهان على الرئاسة

كانت حلقة التسريب مجرد نتاج جانبي لأكثر قرارات بوش أهمية، وأكثر الموضوعات هيمنة على الساحة في واشنطن في الوقت الذي استلمت منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض: ألا وهي الحرب على العراق. الكثير من مظاهر هذه الحرب سوف تؤثر في ما تبقى من الفترة الأولى لرئاسة بوش، وخصوصاً مع اقتراب يوم الانتخاب.

على امتداد النصف الثاني من سنة 2003، وصولاً إلى سنة 2004، حيث أضحي احتلال العراق أكثر إثارة للجدل، اكتشف الديمقراطيون مدخلاً للنيل من مصداقية بوش، وحكمه على الأشياء، بل حتى كفاءته. هل بالغ الرئيس وفريقه، أو حرفوا التقارير الاستخباراتية حول أسلحة الدمار الشامل كي يضللوا الأمة عن سابق تصور وتصميم، ويجروها إلى الحرب؟ كيف للحرب التي شنت على العراق أن تكون جزءاً من الحرب ضد الإرهاب طالما أن العراق لم تكن له علاقة بأحداث الحادي عشر من أيلول، ولم تكن له أي صلة بالقاعدة؟ لماذا اندفع بوش باتجاه الحرب من دون أن تكون بعوزته أي خطة للانتصار في السلام؟ كيف أخطأت الإدارة في حساباتها بشأن قوة المتمردين بهذا الشكل الفاضح؟ فإما أن يكون بوش ومستشاروه قد قلبوا الحقائق (وفي هذه الحال، فإنهم أقل من أن يتصفوا بالصدق)، أو أن يكونوا أخفقوا في تبيان الحقيقة في الوقت الذي كانوا على عجلة من أمرهم لإسقاط صدام حسين (وفي هذه الحال، فإنهم أقل من أن يتصفوا بالأهلية).

في كلتا الحالتين، بدا الرئيس هشاً. وقد شكّل هذا تغيراً حقيقياً من المرحلة التي أعقبت انتخابات الكونغرس النصفية عندما كان بوش يحلق عالياً في استطلاعات الرأي لدرجة أن العديد من الخبراء توقعوا أن عملية إعادة الانتخاب ستكون رحلة سهلة.

كانت وسائل الإعلام في واشنطن قد دبت فيها الحياة وعاد إليها الزخم والنشاط بسبب احتمال أن المنازلة السياسية ستكون ساخنة. ومع البدء في طرح تساؤلات حول

مصادقية الرئيس، والحرب التي تزداد وتيرة كلفتها، بالإضافة إلى موضوع الانتعاش الاقتصادي الذي ما زال ينتظر منه أن يؤدي إلى خلق وظائف جديدة، فقد بدأت شعبيته تنهار، كما أن عدد الأمريكيين الذين لا ينظرون إليه بثقة يزداد مع الأيام. وقد أثر ذلك بدوره في التغطية الإعلامية، وهو ما يحدث عادة أثناء الحملة الدائمة. عندما يكون موقع الرئيس عالياً في استطلاعات الرأي، فإنه يصور من قبل وسائل الإعلام على أنه مستأسد؛ وعندما يكون موقعه منخفضاً، أو يميل نحو الانخفاض، فإنه يتعرض للهجوم من وسائل الإعلام. في حال جورج دبليو بوش، كان لوسائل الإعلام أكثر من حجة لتغيير نبرتها تماشياً مع الرأي العام. ولأن وسائل الإعلام أخفقت في أن تكون مشككة بما فيه الكفاية، أو جازمة في المدة التي سبقت الحرب، فإنها تبحث الآن عن وسيلة لمعالجة هذا التقصير عبر الوقوف في وجه رئيس ذي وضع هش بطريقة فيها الكثير من العدوانية.

بقي بوش، ومعه نحن، أعضاء فريقه واثقين، بقينا محافظين على كبرياننا المتتمر الذي انطلقنا به من البيت الأبيض، مدججين بألة حملة انتخابية هائلة يقودها كارل روف الشهير الذي لا يهاب شيئاً، وبقاعدة من الجمهوريين الممثلين حيوية، وشبكة من المؤيدين على امتداد البلاد من معلقين في قنوات الكبل الإخبارية، والنقاد الصحفيين، ومضيفي البرامج الحوارية الإذاعية الذين كان بالإمكان الاعتماد عليهم للدفاع عن الرئيس. أجرينا كل الحسابات السياسية ضمن سياق إستراتيجية الحملة الإجمالية، والتي كانت محسوبة بطريقة تضمن فيها أن موضوع الأمن القومي - خصوصاً الحرب على الإرهاب، وهي نقطة القوة عند بوش - سيبقى محور المناظرات العلنية.

أكثر من ذلك، فحتى عندما كانت شعبية بوش الشخصية تتراجع، تذكر بوش وأعضاء فريقه المثل القديم القائل: «ليس بإمكانك أن تهزم شخصاً موجوداً باستخدامك شخصاً غير موجود». كان بوش ما يزال «موجوداً»، وكان ما يزال «شخصاً» ذا حضور هائل، بينما لم يكن الديمقراطيون قد اتفقوا بعد على مرشح لانتخابات سنة 2004 - أي «شخص موجود» له نقاط ضعفه وهشاشته الخاصة به. حالما تمت تسمية المنافس الديمقراطي، بدأ كارل روف بتوجيه هجومه عليه، مجرياً مقارنات مناسبة للرئيس، وغير مناسبة

للمتحمدي. وكما تبين للجميع حينها، فإن أحداً لم يكن باستطاعته القيام بأفضل مما قام به روف.

على الرئيس أن يتخذ موقفاً متصلياً بشأن الحرب على العراق. ولن يكون هناك أي تراجع من قبله حول فكرة ضرورة الحرب. لن يكون هناك أي تخمين ثانٍ حول الحرب في العراق. لن تكون هناك أي شكوك بشأن النتيجة النهائية للحرب.

لم يعد لمسألتي تغيير نبرة الخطاب وإنهاء الحرب الحزبية في واشنطن أي أهمية أو اعتبار. لقد حان الوقت بالنسبة للمنافس بوش الذي تحركه الدوافع السياسية كي يقف بثبات، ويوضح بما لا يقبل الشك الخيار الذي يواجهه الشعب الأمريكي في الانتخابات القادمة. فرئاسته كانت على المحك، وإرثه كان في خطر. ولهذا فهو سيراهن على كل هذا بما يجري في العراق.

عند العودة بالذاكرة إلى هذه المسألة، يمكن القول إن تلك كانت الحقبة الحاسمة بالنسبة لرئاسة بوش. وكشفت الكثير عن شخصيته قائداً.



كنت بصفتي السكرتير الصحفي أشارك بانتظام في معظم اجتماعات الرئيس الأساسية: مثل المداولات حول السياسة المتبعة، والتواصل مع الكونغرس، واجتماعات الحكومة، وزيارات رؤساء الدول. وكموالي من ولاية تكساس، كنت عضواً موثقاً في فريق كبار مستشاري الرئيس، وكنت غالباً ما أجتمع به مع مجموعة منتقاة من أقرب المقربين ومن بينهم كارد، وروف، ورايس، وبارتليت.

كانت اللقاءات مع رؤساء الدول تضم عادة وفوداً صغيرة الحجم، متساوية في العدد وتمثل كلاً من الفريقين. كان وفد الرئيس يتكون عادة من السفير الأمريكي في الدولة المعنية، ومستشار الأمن القومي، ووزير الخارجية (أو أحد نوابه أو مساعديه)، ومدير مجلس الأمن القومي للمنطقة التي أتى منها الوفد الضيف، ورئيس أركان نائب الرئيس، أو المسؤول عن الأمن القومي في المنطقة (إذا لم يكن تشيني نفسه)، والسكرتير

الصحفي. كان وزير الدفاع يحضر أحياناً، أيضاً. في المكتب البيضاوي، كان كل من الرئيس وضييفه الأجنبي يجلس على كرسي موشى باللونين الأزرق الفاتح والذهبي قرب المدفأة. كان وفدنا يجلس في العادة إلى اليسار من بوش. وعادة ما يكون ثلاثة منهم يجلسون على أريكة واحدة، يلي ذلك اثنان أو ثلاثة يجلسون على كراسي. وكان الوفد الضيف يجلس في الطرف المقابل من الغرفة بالترتيب نفسه.

كانت رؤية بوش الإستراتيجية بشأن تغيير الشرق الأوسط عبر إقامة عراق حر وديمقراطي واحدة من الموضوعات التي أكد عليها في كل لقاء له مع رؤساء الدول. وكانت تلك اللقاءات، في المرحلة الأولى من تسلمي لمنصب سكرتيراً صحفياً، توحى لي بأن تفكير بوش بالتغيير الديمقراطي كان هو السبب الرئيس والمحرك لغزونا للعراق. فقد كان الغزو يمثل مهمة ذات أبعاد إستراتيجية أكبر بكثير من تلك التي كان يتم التركيز عليها علناً وتتمثل في إزالة «خطر كبير وداهم» قادم من العراق. وبينما كانت احتمالات اكتشاف أسلحة دمار شامل في العراق تتهاوى، فإن الحلم المتمثل بتغيير المنطقة أصبح الجزئية الأكثر أهمية في خطاب الرئيس - وخطابي.

قبل يوم واحد من استلامي منصب السكرتير الصحفي، حضرت اللقاء الذي تم بين الرئيس والأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان في المكتب البيضاوي. بدأ الاجتماع بمناقشة حول رحلة الرئيس الأخيرة إلى إفريقيا، والدعم غير المسبوق الذي قدمته الولايات المتحدة للقارة المنكوبة بما في ذلك أدوية لمعالجة مرض الإيدز، وتوسيع التجارة، ومكافحة الجوع، ودعم الجهود التي تبذلها القارة عبر قوات حفظ السلام في المناطق التي تشهد نزاعات وحروب أهلية.

انتقل الحديث بعدها حول العراق، وكان موضوعاً مغلفاً بالتوتر. فقد حث أنان بوش قبل الغزو، أن لا يقوم بتحريك إلا بدعم من الأمم المتحدة، وهي نصيحة رفضها بوش. كان بوش يعتبر أنان قائداً ضعيفاً، يختصر في شخصه الهيئة العديدة الفاعلية التي يمثلها. وكان أنان، الدبلوماسي اللطيف، الذي لا يأبه كثيراً للأضواء غير موحٍ بالثقة البتة، لبوش الحازم، والفاعل، والمهتم بالنتائج. ومع ذلك فقد كانت علاقتهما ودية ومبنية على الاحترام المتبادل.

شكر الرئيس أنان لإيفاده ممثله الشخصي سيرجيو فييرا دو ميلو الذي يتمتع بقدر واسع من الاحترام للمساعدة في مرحلة التحول في العراق. فقد شعر بوش وفريق السياسة الخارجية لديه أن من المهم أن يكون هناك وجود للأمم المتحدة في بغداد. فكلما كان هناك وجود أكبر للأمم المتحدة ودول أخرى في العراق - بما في ذلك الدول التي عارضت في البدء القرار الأولي لشن الحرب - كان الحمل أخف على كاهل الولايات المتحدة. بطبيعة الحال، كان هذا الموقف يشكل تناقضاً بشكل أو بآخر، إذا أخذنا بعين الاعتبار رغبة الرئيس بشن حرب استباقية من دون موافقة واضحة من الأمم المتحدة (بالرغم من أنه اعتبر قرار مجلس الأمن رقم 1441 بمثابة إعطاء ضوء أخضر له كي يقوم بذلك). من هنا، يمكن فهم تشجيع بوش الخجول لتواجد الأمم المتحدة في العراق، وكياسته الدبلوماسية الدائمة مع أنان وبعض القادة المشككين الآخرين، في السر وفي العلن.

لسوء الحظ، قتل فييرا دو ميلو بطريقة مأساوية في التاسع عشر من شهر آب، أغسطس، سنة 2003 بتفجير إرهابي استهدف فندق القناة في بغداد الذي كان يستخدم مركزاً محلياً للأمم المتحدة منذ سنة 1991. وقتل معه في هذا التفجير واحد وعشرون من أفراد طاقم الأمم المتحدة. وبنتيجة ذلك، قلصت الأمم المتحدة انخراطها وحضورها في بغداد في المستقبل المنظور.

أكد بوش في حديثه مع أنان على رأيه أن عراقاً ديمقراطياً وحرّاً، يمثل قاعدة أساسية للسلام في الشرق الأوسط. اعترف بأن الحال هناك تتجه نحو الصعوبات، إلا أنه أكد أن التحالف يسيطر تدريجياً على الموقف. قال إنه شعر أن بول بريمر يقوم «بعمل رائع» عبر إشرافه على الفترة الأولى من مرحلة التحول الديمقراطي الذي يشهده العراق. أكد أنان على الحاجة إلى إظهار أن «هناك ضوء في نهاية النفق» لسلطة التحالف الانتقالية التي يقودها بريمر، كما وصف المجلس العراقي الحاكم الذي كان قد أعلن عنه مؤخراً، وهو عبارة عن هيئة تمثيلية موسعة، تم تعيينه من قبل سلطة التحالف الانتقالية، «بالخطوة الإيجابية جداً» باتجاه وضع العراق على الطريق نحو السيادة. لقد تحولت الموضوعات التي يطرحها بوش بالنسبة لي إلى أمور مألوفة يوماً بعد يوم، وأنا أحضر لقاءاته مع زعماء العالم في دوري الجديد سكرتيراً صحفياً.

في اليوم الأول لاستلامي منصبي الجديد، كان الرئيس يستقبل رئيس الوزراء التشيكي فلاديمير شبيديلا. بدأ الرئيس اللقاء بشكر رئيس الوزراء على «الدعم القوي الذي أبداه في وجه الانتقادات العنيفة» بشأن العراق، وأعلمه أن إدارته لن تتسنى «هذه القيادة القوية». علمت فيما بعد، أن هذا هو أسلوب الرئيس؛ فقد كان يميل إلى الحكم على شخصية «وقوة» زعيم أي دولة عبر دعمه لقرار غزو العراق. وكان (شبيديلا) شأنه في ذلك شأن بعض القادة الذين عاشوا تحت ظل الحكم الشيوعي، يشاطرون حماسة بوش للحرية، ولهذا فقد وقفوا بقوة إلى جانبه في الحرب على العراق.

قال شبيديلا إنه يعتقد أن ما تفعله الولايات المتحدة في العراق «يهدف إلى المساعدة في جلب السلام والاستقرار» لمنطقة الشرق الأوسط. أجاب بوش قائلاً: «لقد أثرت نقطة مهمة جداً. فمن المهم أن نبقى في أذهاننا الصورة الكبرى المتمثلة برؤيتنا. فالموقف الذي اتخذناه في العراق سوف يجلب السلام والاستقرار. إنني أؤمن فعلاً أن عراقاً حراً وآمناً سوف تكون له تداعياته الطويلة المدى [على الشرق الأوسط]. فالحرية قوة».

في أواخر شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2003، قام الرئيس بزيارة إلى كانبيرة في أستراليا، بعد انتهاء مؤتمر القمة الاقتصادية لمنطقة آسيا الممتدة على المحيط الهادي الذي عقد في بانكوك تايلندة؛ وبعد أن توقف في كل من اليابان وسنغافورة وإندونيسيا. التقى بوش برئيس الوزراء الأسترالي جون هوارد الذي كان بوش يعدّه حليفاً جيداً وصديقاً. حضرت الاجتماع في غرفة مجلس الوزراء داخل مبنى البرلمان.

كان هوارد، بالرغم من الانقسام الشديد بين الأستراليين، يقف بقوة وراء قرار بوش للإطاحة بصدام حسين، واستطاع إقناع البرلمان الأسترالي بضرورة إرسال قوات لدعم الغزو والاحتلال الذين قادتهما الولايات المتحدة. ناقش كل من بوش وهوارد كما درجت عليه العادة في لقاءاتهما، عدداً من القضايا الملحة، بما في ذلك العراق، وعملية التغيير في الشرق الأوسط.

قال بوش لهوارد: «أشكرك على موقفك الحازم، وعلى صداقتك. من المهم أن يمتلك المرء الشجاعة للقيام بما هو صواب. هذا بالضبط، ما قمت به يا جون. سوف يغير العراق خريطة الشرق الأوسط. وسوف تتغير إيران» بسبب ما نقوم به في العراق.

في وقت لاحق في ذلك الاجتماع، سأل أحد مستشاري هوارد الرئيس بوش إذا كان يعتقد أن الثقافة الإسلامية يمكن أن تتبنى الديمقراطية.

أجاب بوش: «أظن أن ذلك سيحدث بمرور الوقت، وأعتقد أن العراق هو المكان المناسب» الذي سيجعل ذلك ممكناً. «سوف يتحول إلى دولة حرة وديمقراطية» مثله مثل «التحول الذي تشهده» كل من تركيا والبحرين.

أضاف بوش قائلاً: «أؤمن أن الحرية هي أعمق الآمال في قلب كل إنسان. وأظن أن هناك عدداً كافياً من القادة المسلمين ملتزمين بمبدأ الحرية وذلك لقيادة الدول الإسلامية في ذلك الاتجاه. أعتقد أن ذلك سوف يحدث».

في أوائل شهر تشرين الثاني، نوفمبر، استقبل الرئيس بوش رئيس وزراء سيريلانكا، رانيل ويكريميسينغ في البيت الأبيض. بدأ الرئيس بشكر رئيس الوزراء على «موقفه القوي» حيال العراق في آخر اجتماع عقدته الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول، سبتمبر. أكد رانيل أن الولايات المتحدة «لم يكن لها خيار سوى التدخل» عسكرياً، وهو ما أدى إلى توجيه انتقادات شديدة له في وسائل الإعلام في بلاده. أكد بوش أن «القرارات التي اتخذتها كانت استجابة للمخاوف الأمنية في أمريكا. كما أؤمن أيضاً أن المجتمعات الحرة هي مجتمعات مسالمة». أضاف أن الطريقة التي تعامل فيها مع صدام حسين جعلت دولاً مارقة أخرى مثل كوريا الشمالية تعرف كم أن الولايات المتحدة جادة في مواجهة التحديات. وقال بوش: «بعد خمسين سنة من الآن، سوف يقول الناس «شكراً» على ما نفعله في العراق. لقد وقفتم بصلافة في وجوه منتقديكم. أؤكد لكم أمراً واحداً: إن العراق الحر والأمن سوف يساعد في التوصل إلى سلام في الشرق الأوسط».

كان الثبات والشهرة التي تميزت بهما لغة الرئيس الطنانة، لافتة في لقاءاته مع قادة الدول الأجنبية. لقد أقنعني ذلك بصدق عاطفته تجاه فكرة زرع الديمقراطية بصورة قسرية كطريقة لإحلال السلام في الشرق الأوسط. يمكن للمرء أن يتساءل حول الحكمة من هذه الخطوة أو فاعليتها، ولكن ليس حول صدقية رؤيته الشخصية التي قادت إليها.

في ذلك الوقت، كانت من القوة والأمل بحيث إنتي بدأت أوؤمن بها أيضاً، وهو ما ساعد على قمع كل التشكيك الذي كان بداخلي حول القرار الأصلي.



كان التواصل مع الشعب الأمريكي حيال الوضع في العراق أكثر صعوبة. فبعد أن تم تسويق فكرة ضرورة الحرب عبر فكرة أن صدام كان يشكل تهديداً مباشراً وامتزائداً للمنطقة، وللولايات المتحدة، وللعالم، فإن الشعب ووسائل الإعلام كانت تزداد شكوكهم بشكل مطرد بعد انقضاء فصل الصيف من دون العثور على أسلحة الدمار الشامل. لذلك انتابنا شعور بالارتياح في نهاية شهر تموز، يوليو، وفره لنا نبأ مقتل نجلي الدكتاتور صدام عديمي الرحمة والمكروهين، عدي وقصي حسين؛ وأدى ذلك إلى تحول في اهتمام وسائل الإعلام لبرهة قصيرة. لقد جاء هذا النبأ مناسباً لتوقيت المؤتمر الصحفي الذي يعقده الرئيس عادة في منتصف الصيف؛ وهو حدث يتم عادة في نهاية شهر تموز، يوليو، أي مباشرة قبل أن يتوجه الرئيس وبعض أفراد طاقمه إلى كروفورد في ولاية تكساس لقضاء شهر آب، أغسطس، هناك. وكان ذلك سيكون المؤتمر الصحفي الرسمي الأول الذي يعقده بوش بعد الغزو.

كان من الصعب علينا دائماً، نحن أعضاء فريقه من المستشارين تقويم النبذة التي يستخدمها الرئيس عند مناقشته للوضع العراقي بشكل دقيق. لم نكن نريد له أن يظهر أي نوع من التشاؤم بالطبع، لكننا لم نكن نريد له أن يبدو منفصلاً عن الواقع المؤلم على الأرض، والذي تنقله وسائل الإعلام يومياً. ومع تغير الأحداث في العراق بشكل يومي وغير متوقع، ومع وقوع هجمات متكررة ضد القوات الأمريكية - بالرغم من إعلان الرئيس في شهر أيار، مايو، أن العمليات العسكرية الكبرى قد انتهت - فقد كانت هذه طريقاً لم يكن من السهل سلوكها.

ومع التحضير للمؤتمر الصحفي لشهر تموز، يوليو، اتفقنا أن على بوش قبول المسؤولية عن «الكلمات الست عشرة» الخاطئة في خطابه حول حال الاتحاد. سوف يحتل هذا القبول العناوين الرئيسية في وسائل الإعلام، طالما أنه يشكل خبراً بحد ذاتها. لكننا

كنا نأمل أيضاً في لفت الانتباه إلى تطورات أكثر إيجابية في الأسابيع الأخيرة في العراق. كان الرئيس يفضل لقاء صحفياً أقل رسمية قبل عقد المؤتمر الصحفي. كنت قد أعددت بمساعدة من نوابي، أسئلة، واقترحت أجوبة عليها كي يستطيع بوش مراجعتها في الليلة التي سبقت المؤتمر الصحفي. كان دان بارتليت، مدير الاتصالات يرغب في أن يقوم بوش بالتركيز على نقاط الرسالة الأشمل، وأن يعمل مع فريق كتابة الخطابات لإعداد كلمة الافتتاح. عادة ما تكون هناك جلستان في اليوم الذي يعقد فيه المؤتمر الصحفي حيث نتفحص الأسئلة التي يحتمل أن توجه إلى الرئيس. الجلسة الأولى كانت تعقد في المكتب البيضاوي مباشرة بعد وصول الرئيس، أو بعد لقائه الصباحي مع أجهزة المخابرات. تكون الجلسة الأولى أقصر من الثانية في العادة، وكانت تتراوح بين عشرين وثلاثين دقيقة. بينما الثانية التي تكون أقرب إلى الموعد المقرر للمؤتمر الصحفي عادةً، وتُعقد في المكتب البيضاوي فتتراوح بين ثلاثين وخمسة وأربعين دقيقة. كان كل من أندي كارد، وكوندي رايس، وكارل روف يحضرون عادةً. واحدة من هاتين الجلستين على الأقل. كان بوش يجلس إلى مكتبه في جلسات «منصة القتل» هذه بينما نوجه نحن إليه الأسئلة الصعبة أو القاتلة. كان بوش يحب أن يخلق جواً من المرح في هذه الجلسات، ساخراً من بعض الأسئلة بأجوبة مرحة لا يمكن له أن يتفوه بها علناً. كانت مناسبة له كي يسترخي، ويركز تفكيره، بالطريقة نفسها التي يقوم بها لاعب رياضي يشارك في البطولات العالمية، حيث يقوم بعملية استرخاء قبل البدء بالمباراة الحاسمة.

عندما تبدأ اللعبة، يكون الرئيس جاهزاً. يحقق إصابات دقيقة، على كل الأهداف التي يصوب عليها، الواحد تلو الآخر. أشار إلى التقدم الذي نحرزه في العراق في الوقت الذي اعترف أننا نواجه صعوبات هناك داعياً إلى التحلي بالصبر. قال إن أغلب مناطق العراق تشهد قدراً أكبر من السلام بالرغم من أن «فلول نظام صدام حسين بالتعاون مع الإرهابيين والمجرمين» ما تزال «تقوم بمحاولة أخيرة» لترويع الشعب العراقي والحد من عزيمة قوى التحالف.

أكد الرئيس أن «قيام عراق حر وآمن يعد مسألة حاسمة بالنسبة للاستقرار في الشرق الأوسط، وأن شرقاً أوسط مستقلاً يشكل مسألة حاسمة لأمن الشعب الأمريكي.

إن نجاح عراق حر سوف يثبت لدول أخرى في المنطقة أن الازدهار والكرامة الوطنية لا تتوافران إلا عبر حكومة ومؤسسات حرة تمثل الشعب. لا يمكن لأي من هذا أن يتحقق في ظل الديكتاتورية والقهر و... دعم الإرهاب. وفي الوقت الذي تتقدم الحرية في الشرق الأوسط، فإن احتمالات أن تقوم هذه المجتمعات بتفريخ عقائد الكراهية وإنتاج مجندين لصالح الإرهاب ستتلاشى بدرجة كبيرة».

ألمح بوش إلى مقتل عدي وقصي قائلاً: «في الوقت الذي رُفِعَ غطاء الخوف عن الشعب العراقي، وفي الوقت الذي يستعيد العراقيون ثقتهم بأن النظام السابق قد ولّى إلى غير رجعة، فإننا نتطلع إلى الحصول على المزيد من التعاون في بحثنا عن الحقيقة في العراق». كما عبر عن ثقته بأن الحقيقة حول أسلحة الدمار الشامل ستؤكد على مصداقية قراره بشأن خوض الحرب في العراق: «نعرف أن صدام حسين أنتج وامتلك أسلحة كيميائية وبيولوجية، وأنه استخدم الأسلحة الكيميائية. نحن نعرف ذلك. كما أمضى سنوات وهو يخفي أسلحة الدمار الشامل هذه عن أعين العالم. لدينا الآن فريق من المحققين الذين يبذلون أقصى جهودهم من أجل كشف الحقيقة».

تناول بوش أيضاً بعض القضايا الأخرى التي تهم الأمريكيين. متذكراً بأن هزيمة حملة إعادة انتخاب والده يعود بشكل رئيس إلى لا مبالاته الواضحة بمعاناة الشعب الاقتصادية («إنه الاقتصاد يا غبي»)، وواضعاً في ذهنه الانتقادات الحالية للانتعاش الاقتصادي على حساب «فقدان الوظائف»، أكد بوش على إنجازات إدارته الاقتصادية المتمثلة بالدعم الإضافي الذي يتلقاه دافعو الضرائب، وأصحاب الأعمال الصغيرة، وللمرة الأولى، أشار إلى ضرورة الانفتاح على فكرة التعديل الدستوري لمنع الزواج المثلي، وهو موضوع ساخن بالنسبة للقادة المسيحيين المحافظين.

شعرنا أن الرئيس قام بهذه المهمة بشكل جيد. ولكن عندما تشتم الصحافة في لعبة واشنطن أن سياسياً في موقع الدفاع، فإن انعطافاً حاداً من نوع خاص في قواعد اللعبة يطل برأسه: إذ لا يمكن التفريق في هذه الحال بين الحكام والفريق المنافس. ركزت عناوين الأخبار التي صدرت بعد المؤتمر الصحفي على مصداقية بوش التي تتراجع،

ومشيرة إلى إنكاره للاتهامات بشأن مبالغته في تسويق قضية الحرب على العراق. وكما يقول المثل القديم المأثور، عندما تكون في موقع الدفاع، فإنك تخسر - وتلك كانت البقعة غير المريحة التي وجد بوش نفسه محصوراً داخلها.

أتبعت محطة NBC News تغطيتها للمؤتمر الصحفي بآخر استطلاع للرأي العام، يظهر أن معدل الدعم للرئيس تراجع من نسبة 71 بالمائة في نيسان، أبريل، إلى 56 بالمائة الآن. في الوقت الذي ازدادت نسبة المعارضين له من 23 بالمائة إلى 38 بالمائة عن الفترة نفسها. من ناحية أخرى، كان ما يزال يحظى بدعم قوي فيما يتعلق بالحرب على الإرهاب، حيث ظهر أن 66 بالمائة ما يزالون يدعمون الطريقة التي يعالج فيها هذه المسألة. كما عبر 56 بالمائة عن اعتقادهم بأن هجوم الديمقراطيين على بوش له «دوافع سياسية».

مع ذلك، لم تكن الميول الشعبية مُرضية. فلو استمرت المشكلات في العراق بالتصاعد - خصوصاً لو استمرت الكُلف البشرية والمالية في الارتفاع، وبدأت الدوافع الرئيسة الحقيقية لشن الحرب تتكشف - فلن تكون المسألة سوى مسألة وقت قبل أن يبدأ الشعب الأمريكي في التراجع عن تأييد الحرب بشكل جماعي، جارفاً في طريقه الإدارة التي وضعت مصداقيتها على المحك برهانها على هذه الحرب.



خلال فصل الصيف ذاك، لم نكن قد فقدنا بعد الأمل في الكشف عن أسلحة الدمار الشامل. قام ديفيد كاي، وهو عالم يتمتع بقدر كبير من الاحترام، ومفتش له باع طويل في مجال الأسلحة، بتقديم التأكيد لنا سراً وعلناً أن هناك كل الأسباب التي تؤكد على الدليل اللعين أن سعي صدام للحصول على أسلحة الدمار الشامل سوف يتم الكشف عنه في نهاية المطاف. قاد كاي مجموعة المسح في العراق التي تتكون من أكثر من 1400 شخص في مهمة تقصي حقائق شكلها البنتاغون بالتعاون مع وكالة المخابرات المركزية للبحث عن أسلحة الدمار الشامل في العراق. استناداً إلى ما تم إعلانه به، شعرنا أنه وبالرغم من أن إمكان أن يكون الكشف عن مخزون ضخيم غير وارد، فإن كميات صغيرة

من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية ما زال من الممكن الكشف عنها، تزامناً مع الكشف عن الدليل على وجود برامج بحثية لتطوير أسلحة الدمار الشامل، لو حدث شيء مثل هذا، فسيؤدي، وبدرجة كبيرة، إلى إضعاف حدة هجوم الديمقراطيين الذين يؤكدون أن إدارة بوش بالغت في التركيز على التهديد، أو أنها تعمدت تضليل الشعب الأمريكي كي تتمكن من تسويق الحرب.

أعطانا تفاؤل كاي جرعة من الراحة في البيت الأبيض - وكانت راحة زائفة، كما تبين لاحقاً، ولكن في الوقت نفسه، سمحت لنا الجهود المستمرة التي كان يبذلها في العراق بالتفطية على (الحجج) التي ساققتها المخابرات من أجل تسويق الحرب، كان ما يزال بإمكاننا تأجيل - أو حتى تجنب - الخوض في مسألة الإقرار بأي آراء حاسمة حول الدافع الذي قاد إلى الحرب، وما ساعدنا في ذلك، كان استمرار مجموعة المسح في العراق في القيام بمهمتها؛ بالرغم من أنه كان يعوزنا الدليل الذي يدعم ما أقنعنا أنفسنا بكل ثقة، بالإيمان به.

في أوائل شهر تشرين الأول، أكتوبر، نشر كاي تقريراً داخلياً بشأن التقدم في التحقيق. حذر من أنه ما يزال من المبكر الوصول إلى استنتاجات نهائية. اكتشفت مجموعة المسح «عشرات من البرامج المتعلقة بنشاطات حول أسلحة الدمار الشامل»، لكنها لم تجد أي أسلحة دمار شامل. تلقفنا التقرير بسرعة كدليل على أن هذا يشكل خرقاً مادياً من قبل صدام حسين للقرار 1441، الذي منحه فرصة أخرى وأخيرة للالتزام بمطالب الأمم المتحدة بشأن نزع الأسلحة، أو مواجهة عواقب وخيمة. أظهر التقرير أن الرئيس كان محقاً بشأن «إزالة الخطر الذي كان نظامه يمثله بالنسبة للعالم» كما قال كولن باول. انتقلت نقطة الارتكاز التي كنا نستند إليها من أسلحة الدمار الشامل إلى برامج أسلحة الدمار الشامل، بالرغم من أنه لو سئلنا حول هذا الموضوع، لأجبنا بأننا مقتنعون أن أسلحة الدمار الشامل لا بد وأن تظهر في النهاية.

استغل منتقدو الحرب والديمقراطيون تقرير كاي لطرح إمكان أن تكون الإدارة في أدنى الأحوال، قد افعلت التهديد بأسلحة الدمار الشامل في العراق. وقد ضغطت دايان

سوير على الرئيس للتحديث حول هذا الموضوع أثناء مقابلة معه في البيت الأبيض بعد شهرين وذلك في شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة 2003. سألت سوير الرئيس، وهي تستشهد باستطلاع للرأي يفيد أن نسبة 50 بالمائة من الأمريكيين يعتقدون أن الإدارة بالغت في مسألة الدليل في مرحلة إعدادها للحرب، فيما إذا كان يعتقد أن إدارته كانت مخطئة أو مُضَلَّة.

رفض بوش أن يبتلع الطعم. قال إن أجهزة المخابرات كانت دقيقة وأنه «لم يكن هناك شك في أن صدام حسين كان يشكل خطراً». حاولت سوير محاصرته قائلة إنه قبل الحرب، كان هو وآخرون من إدارته، قد أكدوا أنه ما من شك في أن صدام حسين يمتلك أسلحة دمار شامل. في معرض إجابته، انتقل الرئيس إلى تأكيد الذي غالباً ما يلوذ به من أنه قام بالعمل الصائب بغض النظر عن وجود أسلحة الدمار الشامل، أو عدم وجودها. قال: «كان صدام حسين يمثل خطراً، والعالم الآن في وضع أفضل بعد أن تخلصنا منه».

ألحّت سوير من جديد، مركزة على التمييز بين أسلحة الدمار الشامل، وبين برامج أسلحة الدمار الشامل. وأشارت إلى أن الإدارة سبق لها التأكيد أن «هناك أسلحة دمار شامل، وليس على إمكان أن باستطاعته التحرك نحو امتلاك هذه الأسلحة».

كان جواب بوش موحياً، أكثر مما تأملت فيه حينها. سأل بوش: «حسن؛ ما هو الفرق؟» في المحصلة، لو كان صدام حسين يمتلك أسلحة دمار شامل، كان ما زال يشكل خطراً. رفض بوش القول فيما إذا كان باستطاعة إدارته أن تكون أكثر دقة في تحديد الأسباب الحقيقية للحرب، ونفي الانتقادات التي تتهمها بأنه ضللت الشعب الأمريكي. أكد من جديد أن الجميع اطلعوا على تقرير المخابرات نفسه، وخرجوا بالانطباع نفسه - أن صدام حسين كان يمثل تهديداً، وأنه كانت هناك حاجة للتعامل مع هذا التهديد.

حظيت أجوبة الرئيس بكم لا بأس به من الاهتمام الإعلامي، والنقد من قبل الديمقراطيين، لظ بعضهم أن المسوغ كان أن النظام العراقي شكل تهديداً مباشراً وهو ما استدعى عملاً استباقياً. لكن هذا لم يكن له تأثير سلبي على الرأي العام طيلة الوقت. قبل وقت قصير من إجراء المقابلة مع سوير، كانت قواتنا قد ألقت القبض على

صدام حسين حيث سحبته من «حفرة العنكبوت» التي كان يختبئ فيها. وفرت لنا هذه الأخبار الجيدة زخماً مؤقتاً لتسوية الحرب. مع ذلك، فإن الرواية بشأن المبالغة والخداع المتعمدين كانت قد ترسخت، على الأقل منذ أن ظهر اللفظ بشأن الكلمات الست عشرة.

كان انعدام الصراحة من جانبنا، والبطء في القيام بأي شيء من شأنه مواجهة المشكلة، حتى لو تمثل ذلك بإجراء تحقيق حول السبب الذي أدى بنا إلى الوقوع في هذا الخطأ، هو ما أدى إلى تكريسه. كان الرئيس محقاً في قوله (من المفترض) أن الجميع كانت لديه المعلومات الاستخباراتية نفسها التي تدفعه إلى التأكد والاعتقاد بأن صدام كان يمثل خطراً. لكنه هو من دفع البلاد بسرعة باتجاه الحرب استناداً إلى الطريقة التي رتب فيها مستشاروه هذه المعلومات الاستخباراتية كي تبدو أكثر خطورة، وأكثر إلحاحاً مما كانت عليه في واقع الأمر.

وبسبب استمرارنا في عدم الصدق والصراحة حول قضية الحرب، كان الرئيس يورط نفسه أكثر فأكثر، ويتسبب في المزيد من إثارة الشبهات، ويزيد من أوار الحرب الحزبية. وقد وفر كل ذلك الفرصة لبعض المنتقدين والحزبيين الديمقراطيين للقيام بطرح أسئلة يلمحون عبرها إلى عملية تضليل متعمد قام بها فريق بوش من صانعي السياسات طوّعوا عبرها التقارير الاستخباراتية لتسويق الحرب. ولكن بما أننا أثّرنا تجنب الخوض في مناقشة هذا الأمر، أو التدقيق الشامل في حقيقة كيف حدث كل هذا، لم يكن أمامنا من خيار سوى القيام بهجوم معاكس نطرح فيه علامات استفهام (وليس تقنيدات) حول أمانتهم وعدالة مواقفهم من هذه القضية. وهكذا بدأ أوار الحرب الحزبية يستعر من جديد.

يمكن في هذا المضمار اتهام وسائل الإعلام بأنها بالفت في التركيز على هذا اللفظ الذي سمح للطرف الآخر بالقيام بهجوم مكرر علينا بغية استحواذة على اهتمام كبير. لكن سياسة اللف والدوران والمراوغة التي اتبعناها أدت إلى بقاء العديد من الأسئلة المعلقة في الهواء من دون إجابة، وهو ما عرّض الإدارة إلى الكثير من الانتقاد المتزايد. كانت سرديّة يمكن تغيير مسارها فقط عبر الصراحة والاستعداد لتحمل بعض الألم

السياسي على المدى القصير عن طريق الاعتراف بأخطائنا. أدركنا في وقت متأخر أننا أضعنا فرصتنا في وضع حد لهذه السرية مرة وإلى الأبد. لكي يتم ذلك، كان على الرئيس أن يقوم بتحقيق شامل حول تسويق الحرب، متقبلاً المسؤولية بشكل جلي؛ ومن ثم، محاسبة كبار المسؤولين عن هذه القضية. بدلاً من ذلك، اختار الرئيس المضي في طريق كانت لا بد أن تؤدي إلى استحقاق أكبر يدفع ثمنه من رصيد مصداقيته وإرثه.

أدى هذا النهج في شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2004 إلى تراجع كبير في معركة كسب الرأي العام. استقال ديفيد كاي من منصبه كرئيس لمجموعة المسح في العراق في ذلك الشهر، وأقر في شهادة له أمام الكونغرس بعدم وجود أي أكوام من أسلحة الدمار الشامل. قال كاي «تبين أننا كنا مخطئين جميعاً، ربما من وجهة نظري». دعا كاي مثله مثل قادة الديمقراطيين المعروفين إلى تشكيل لجنة تحقيق مستقلة من خارج المؤسسة حول الإخفاق الواضح للاستخبارات الأمريكية. لكن كاي قال إنه لا يعتقد أن الإدارة مارست الضغط على المخابرات من أجل تضخيم التهديد الذي يشكله النظام العراقي. (في صيف سنة 2004، توصلت لجنة المخابرات في مجلس الشيوخ إلى الاستنتاج ذاته، مؤكدة أن صانعي السياسات تم تضليلهم بواسطة معلومات استخباراتية خاطئة، وواضحة بذلك حداً لأي تساؤل حول الكيفية التي استغل فيها صانعو السياسات المخابرات).

كان بوش ومستشاروه يخشون التحقيقات المستقلة من خارج الإدارة. ولكن في الوقت الذي تصاعد الزخم حول إجراء تحقيق مستقل آخر، تبين لنا إيجابيات التحرك بسرعة، وبشروطنا. أعلن بوش بعدها مباشرة، إنشاء لجنة مستقلة من الحزبين للتحقيق في مسألة تقرير أجهزة مخابراتنا حول أسلحة الدمار الشامل بما في ذلك، في العراق. تم تعيين أعضاء هذه اللجنة من قبل الرئيس، كما تم تحديد مجال عملها من قبل فريقه. ولكن صلاحية هذه اللجنة لن تتضمن النظر في الكيفية التي استخدمت فيها أجهزة الاستخبارات لتسويق فكرة الحرب. هذا ما أراد بوش وكبار مستشاريه أن يتجنبوه خوفاً من أن تكون نتائج مثل هذا التحقيق مدمرة سياسياً في الحد الأدنى - خصوصاً في السنة الانتخابية. كانوا مستعدين للسماح بأن تصبح الأمور أكثر تسييساً، وبعضهم عدها

معركة يمكن أن تنتهي بالتعادل، أو أن تستخدم لتنشيط القاعدة الحزبية، كما اعتقدوا أن الكلفة السياسية على المدى القصير يمكن أن تكون في حدها الأدنى.

لم يكن بوش يأبه كثيراً أو قليلاً للكيفية التي تم فيها الترويج للحرب، فالمهم بالنسبة إليه كان يتمثل في شيئين اثنين: سياسة الحكومة والنجاح في تطبيقها. يميل الناس عادة باتجاه التسامح إذا كانت النتائج تدعو إلى التفاؤل. إذا كانت السياسة صحيحة، وإذا كان من الممكن في بعد تعليل تسويق هذه السياسة، عندها لن يكون الفرق بين الاثنين ذا بال. بهذا المعنى، كان النجاح في الحكم بالنسبة إلى العقلية التي تحكم واشنطن، يعني كسب الرأي العام والحصول على نتائج إيجابية.

يبدو الرئيس حتى هذا اليوم غير آبه بعدم وجود أي ارتباط بين المنطق الرئيس، المسوغ لشن الحرب، وبين الدافع وراءها، كما أنه لم يبد أي اكتراث للكيفية التي رتب فيها هذه القضية، فالسياسة هي الأصح، وسيحكم التاريخ لها بذلك، عندما يتبوأ العراق الحر موقعه الثابت، ويبدأ الشرق الأوسط، بالتحول أكثر فأكثر باتجاه الديمقراطية.

وقد تشبث بوش بهذا الاعتقاد أثناء مقابلة له مع تيم راسيت في محطة NBC News في برنامج: «واجه الصحافة» في أوائل شهر شباط، فبراير، سنة 2004. سأله مضيف البرنامج: «في ضوء الإخفاق في العثور على أسلحة الدمار الشامل، هل تعتقد أن الحرب في العراق كانت حرباً اختيارية، أم أنها حرب أملت لها الضرورة؟»

أجابه بوش: «هذا سؤال لافت للنظر. أرجو أن تدقق في هذا الأمر أكثر قليلاً. هل كانت حرباً اختيارية، أم حرب أملت لها الضرورة؟ لقد كانت حملة أملت لها الضرورة. لم يكن لدينا أي خيار آخر في رأيي، خصوصاً عندما ندقق في التقارير الاستخباراتية التي دقت فيها، كانت تؤكد أن ذلك الشخص كان يمثل تهديداً.

اذكر أنني تحدثت إلى الرئيس حول هذا السؤال بعد المقابلة. كانت تبدو على محياها آراء الاستغراب، وسألني عن الغرض الذي كان راسيت يرمي إليه عبر هذا السؤال.

وهذا بدوره، أثار استغرابي، فبالأكيد كان على بوش التفكير ملياً وقبل شهور عدة على القيام بالغزو، بأن التمييز بين حرب ضرورية لا يمكن تجنبها، وبين حرب كان يمكن

للولايات المتحدة أن تتجنبها لكنها اختارت أن تشنها هو مسألة في منتهى الوضوح. من الواضح أن ذلك لم يكن جلياً بالنسبة لبوش، كما أن فريقه في مجلس الأمن القومي لم يشأ أن يتأكد من ذلك. فهو من رسم معالم السياسة في وقت مبكر. قام بعدها فريقه برسم الخريطة التي يستطيع عبرها تسويق هذه السياسة. يدهشني اليوم ذلك كدليل على غياب حس الفضول لديه، ومقاومته الضارة للتفكير؛ وهو ما كان على فريقه أن يملأه بصورة أفضل مما قام به.

يمكن أن يقول أكثر المراقبين حيادية أنه في سنة 2003، لم تكن هناك حاجة ملحة لمواجهة هذا التهديد الذي كان يمثله صدام حسين بغزو شامل، ومن هذا المنظور، لم تكن الحرب ضرورية. لكن هذا سؤال لا يبدو أن الرئيس راغب في الرد عليه.



جلست من دون حراك وبوجه جامد كالصخر في القاعة الشرقية الأنيقة في البيت الأبيض، بأذلاً أقصى جهد ممكن كي لا يبدو عليّ القلق أمام حشد من الصحفيين المجتمعين. مع ذلك، كنت أشعر أن عضلات جسدي تتشنج وأنا أستمع إلى جواب الرئيس المرتبك على سؤال مباشر وواضح.

كان ذلك بحلول نهاية مؤتمر وقت الذروة في شهر نيسان، أبريل، سنة 2004. كان الرئيس قد دعا جون ديكرسون، وهو مراسل مجلة تايم في البيت الأبيض ليطرح عليه سؤالاً. ونظراً إلى أن ديكرسون قام بتغطية نشاطات بوش منذ انتخابات سنة 2000، فقد أصبح وجهه مألوفاً ومريحاً. ونظراً لكونه يكره المخاطر، كان الرئيس يتردد في دعوة صحفيين لا يعرفهم كي يطرحوا أسئلتهم عليه، وكان يفضل بدلاً من ذلك الالتزام بقائمة من صحفيين توجد علامات بجانب أسمائهم على جدول المقاعد المتوضعة قبالة المنصة. كانت القائمة تضم دائماً أشهر الصحفيين من الشبكات الإعلامية المعروفة، والخدمات السلكية، والصحف، بالإضافة إلى صحفي واحد على الأقل لصالح إحدى محطات الراديو، وآخر لصالح إحدى المجلات الإخبارية.

كانت ميزة هذه المقاربة تكمن في أن الأسئلة التي يوجهها المراسلون الإعلاميون المعروفون تركز بشكل متوقع على العناوين الرئيسية التي ظهرت خلال الأسبوع. من النادر أن يتم طرح أي سؤال لا نكون قد أعددنا الرئيس للإجابة عليه مسبقاً. لم يسبق للرئيس أن أطيح به في اللعبة التي يمارسها، أو شعر أنه غير قادر إما على الاحتماء بأرائه الفلسفية، أو إيجاد طريقة للتشبيث بمجموعة من مواد الحديث التي يمكن أن يقرأ منها وهو يغط في النوم.

في تلك الليلة، كنت قد وضعت إشارة حول اسم مراسل جديد لإحدى المجلات الإخبارية، وكان مرد ذلك يعود بشكل رئيس إلى أن ديكرسون دعي لطرح سؤال منذ مدة قصيرة. لكنني كنت أعرف أن أسئلته الذكية لها سحرها الخاص الذي قد يلقي بالرئيس خارج المخطط المرسوم. كان يمكن أن تفرض النتيجة تغييراً في التغطية الإخبارية لليوم اللاحق يختلف عما أملنا أن يتم التركيز عليه، أو حتى - وهذا أسوأ - التسبب في خلق أخبار فعلية. ففي أحد المؤتمرات الصحفية على سبيل المثال، سأل ديكرسون الرئيس حول ما إذا كان يعتقد أن المسلمين يعبدون الإله نفسه الذي يعبد المسيحيون، وفي مؤتمر آخر، سأل فيما إذا كان يتفق في الرأي مع «كثيرين» من مؤيديه أن المثلية الجنسية هي شيء لا أخلاقي. كانت الموضوعات الاجتماعية المثيرة للجدل بعيدة جداً عن المنطقة التي يشعر الرئيس فيها بالارتياح، كي لا يتسبب في إثارة تعليقات كثيرة من قبل الناس. عندما أجاب الرئيس بالقول، نعم، المسلمون يعبدون الإله نفسه كالمسيحيين، أصيب بعض القادة الإنجيليين بالذعر. وعندما أجاب على سؤال حول المثلية الجنسية عبر الإشارة إلى ضرورة التسامح مع كل الأفراد، كانت ملاحظته الأولى أننا «كلنا آثمون»، وهو ما أدى ببعض منتقديه من اليسار إلى اعتبار ما قاله سقطة (لأن بوش كان يلمح إلى أن المثلية الجنسية إثم).

لكن ديكرسون كانت لديه طريقة مسالمة، وبمبسطة، وجد واقعية بعكس طريقة الرئيس، وهو ما جعل بوش منحازاً إليه. فقد كان سؤاله عادة يرد قبل آخر سؤال؛ وكان سؤاله يوحي بالبساطة إنما بشكل مخادع.

بادر الصحفي ذو الشعر المصفف بعناية إلى القول في الوقت الذي كان يلتقط الميكروفون اللاسلكي: «شكراً سيادة الرئيس». نهض بعدها واقفاً كي يطرح سؤاله: «في الحملة الانتخابية الماضية سئلت عن أكبر خطأ قمت به في حياتك، وكنت تحب أن ترد بدعابة أن أكبر خطأ كان مقايضة لاعب البيسبول سامي سوسا، لا بد أنك تعود بالذاكرة إلى ما قبل الحادي عشر من أيلول للتدبر في الأخطاء التي يمكن أن تكون قد قمت بها. بعد الحادي عشر من أيلول، ما هي أكبر أخطائك، ماذا تقول عنها، وما هي الدروس التي تعلمتها منها؟»

بدأ الرئيس الإجابة بتعليق مرح: «كنت أتمنى لو أنك أعطيتني هذا السؤال مكتوباً قبل مدة كافية، كي أستطيع تهيئة جواب مناسب له». ضحك الصحفيون الموجودون في القاعة. «أنا متأكد يا جون من أن المؤرخين سوف يعودون بذاكرتهم إلى الماضي ويقولون، يا إلهي، كان يمكن له أن يقوم بما قام به بشكل أفضل لو اتبع هذه الطريقة أو تلك. أنت تعرف أنتي - أنا متأكد من أن فكرة ما، ستجول في خاطري وأنا هنا وسط هذا المؤتمر الصحفي، بوجود كل هذا الضغط، محاولاً أن أخرج عليك بجواب على سؤالك، لكن هذه الفكرة لم تصل بعد». أعقبت جوابه هذا مدة طويلة من الصمت الثقيل.

هل أحسستم يوماً بثوانٍ مرت ببطء الدقائق؟ عبرت مئات من الأفكار دماغياً بينما كان ذلك الصمت الرهيب يلف المكان بإحراج لا مثيل له. وجدتني أتساءل: بالله عليك، يا سيدي. إنه ليس بالسؤال الصعب! فقط قل شيئاً من مثل: «أنا متأكد من أنني قمت بكثير من الأخطاء، وأن التاريخ سيحكم عليها. ولكن لدي عمل أقوم به، وبعضهم يريد مني العودة إلى الماضي (يمكنك استعمال عبارتك المفضلة: «التحديق في السرة»)، أو من ضرورة أن ننظر دائماً إلى الأمام، واضعين في أذهاننا الأهداف المهمة التي نحاول تحقيقها. هذا ما يتوقعه مني الشعب الأمريكي القيام به، وهذا ما أنوي القيام به».

تملأ الصحفيون المجتمعون بشيء من الضيق في مقاعدهم بينما استمر الصمت يلف المكان. عندما يتلثم امرؤ في العلن، يشعر جميع الحاضرين بالضيق. لا يوجد أمريكي واحد يرغب في رؤية رئيسنا في هذا الموقف المحرج، أو وهو يشعر بالارتباك من

على منصة وطنية كهذه. مع ذلك، هذا ما كنا نشاهده الآن. وبينما استمر الرئيس بوش في تعذيب ذاته باحثاً عن جواب، بدأت بتقريع نفسي. لماذا لم تطرح عليه هذا السؤال في الجلسة التدريبية قبل ذلك؟ استخدمنا هذا السؤال قبل ذلك من دون أن نستعمل عبارة «بعد الحادي عشر من أيلول» بالتحديد. إنه سؤال جد واضح - ما الذي دهاني؟ ولكن حينها وخنني رد فعل معاكس. انتظر لحظة! نحن نتحدث هنا عن رئيس الولايات المتحدة! ما كان له أن يصل إلى رئاسة الولايات المتحدة من دون أن تكون له قدرة الإجابة على سؤال في غاية البساطة. لقد تحدثنا عن الأخطاء؛ وتحدثنا عن الحادي عشر من أيلول. وتحدثنا عن غزو العراق. لماذا لم يكن باستطاعته استحضار أي من تلك النقاط التي أثرناها؟ في كل تلك المدة التي كانت هذه المناظرة تدور في رأسي، استمر الرئيس في التلعثم بينما كان يودي أن أصرخ بياس كي أقمه الجواب. استمر التلعثم للحظات بدت حينها أطول من ذلك بكثير.

أخيراً، خرج الرئيس علينا بجواب غير مترابط، وغير متناسق، وغير مقنع البتة على سؤال ديكرسون:

كنت سأغزو أفغانستان بالطريقة نفسها التي غزونا فيها أفغانستان. حتى لو عرفت حينها ما أعرفه اليوم عن وجود مخازن لأسلحة الدمار الشامل، لكنني طلبت إلى زعماء العالم مواجهة صدام حسين. أود لفت أنظاركم إلى أنني أوّمن بأننا سنكتشف الحقيقة حول الأسلحة. ولهذا السبب أرسلنا إلى هناك بعثة مستقلة. أتطلع إلى سماع الحقيقة حول أماكن وجودها. من الممكن أنها ما تزال هناك. ويمكن أن تكون مخبأة. تماماً مثل الخمسين طناً من غاز الأعصاب في مدجنة لتربية الديوك الرومية.

أحد الأشياء التي تحدث عنها تشارلي ديلفر [أحد مفتشي الأسلحة التابع للأمم المتحدة] أنه فوجئ بمستوى الرعب الذي وجدته بين الناس الذين يتوقع أن يعرفوا مكان وجود الأسلحة، وخوفهم من الحديث عنها لأنهم لا يريدون التعرض للقتل. هناك رعب ما يزال معششاً في أرواح بعض الناس في العراق. فهم قلقون من احتمال تعرضهم للقتل ولذلك، فإنهم لن يتكلموا.

لكن الأمور ستنتهي إلى استقرار يا جون. سوف نكتشف الحقيقة حول الأسلحة في وقت ما، من المستقبل. ولكن حقيقة أنه كانت لديه المقدرة على صنع هذه الأسلحة يقلقني اليوم، بالنسبة نفسها التي كانت ستقلقني حينها. إنه شخص خطر. إنه شخص بالحقيقة - ليس بحوزته فقط أسلحة دمار شامل - السبب الذي يدعوني إلى قول ذلك بثقة هو أنه قام باستعمالها. وليس في ذهني أي مجال للشك أنه كان بודה لو استطاع أن يتسبب في الأذى لأمريكا، أو دفع أموال لبعض الناس كي يتسببوا في الأذى لأمريكا، أو تدريب بعض الناس كي يتسببوا في الأذى لأمريكا لأنه كان يكرهنا.

أمل أنتي - لا أريد أن أبدو وكأنني لم ارتكب أي أخطاء. أنا متأكد من أنني ارتكبت بعضها. أنا لم - لقد حشرتني في الزاوية هنا، وربما لست سريعاً في المشي كما يجب، في محاولتي للخروج بالجواب المناسب*.

وفي محاولة يائسة منه للخروج من هذا المأزق، التفت حوله، وعلامات الارتياح تبدو واضحة على محياه، طالباً الاستماع إلى سؤال آخر قائلاً: «نعم يا آن؟»

كانت مراقبة بوش وهو يتخبط في الإجابة على سؤال بسيط، كما شعرت أنا وكل من كان موجوداً في الغرفة، توحى بأنه لا يستطيع الفكك مما ظن أن الصحافة ما زالت مصرة على انتزاعه منه: وهو الاعتراف بعد مرور سنة على ظهور الحقيقة، أن قراره بشن الحرب على العراق كان خطأ. لذلك، وبسبب عدم رغبته في القيام بمثل هذا الاعتراف، تحول جوابه إلى تعليل آخر للغزو بالرغم من أن هذا كان بالضبط عكس ما سأله ديكرسون.

وبينما كنا نخطو خارج القاعة الشرقية بعد انتهاء المؤتمر الصحفي محاولين اللحاق بالرئيس بسرعة، تبادلت مع بارتليت حديثاً هامساً. كان الرأي بيننا مشترك في أن إجابة الرئيس على سؤال ديكرسون لم تكن موفقة.

كان الرئيس بانتظارنا داخل المدخل الرئيس المؤدي إلى غرفة الطعام الرسمية غير المضاءة، وكانت ربطة عنقه منحلة الآن. الضوء الوحيد الذي دخل إلى الغرفة كان

ينبعث من الشقوق الناجمة عن الأبواب المواربة، ومن الفتحتين اللتين تؤديان إلى الغرفة الحمراء المضاءة بإضاءة خافتة، وأيضاً من الفتحة الموجودة في غرفة طعام العائلة القديمة المجاورة.

كنا، دان وأنا نعرف ما هي الخطوة الثانية. إنها وقت نوم الرئيس؛ ولم يكن حينها معنياً بسماع تحليل نقدي عميق لأدائه مباشرة بعد خروجه من طنجرة الضغط الإعلامية. ولذلك بدأنا بإطناّب الرئيس على استعماله للنبرة الصحيحة، وتمرير رسالته بشأن ما قامت به حكومته قبل الحادي عشر من أيلول من أجل معاربة الإرهاب، وما قامت به أيضاً بشأن العراق. ثم قام دان بالتطرق ببراعة إلى الجواب المرتبك للرئيس رداً على سؤال ديكرسون. كان علينا إثارة هذا الموضوع ضمن الوقت القليل الذي نعرف أنه كان لدينا من أجل لفت انتباه الرئيس.

قال بوش: «نعم، أنا أعرف. كنت أفكر طوال الوقت حول ما أرادوا أن ينتزعوه مني - القول بأن حربنا في العراق كانت خطأ. ولست مستعداً للإقرار بهذا. لقد كان القرار الصائب». كانت نبرته واثقة أكثر مما ينبغي، وهادئة، وغير نزقة. سمعته يؤكد هذا الموقف الحازم من صوابية قراره حتى في أحاديث عادية. شعر بكثير من الرضا عن أدائه في تلك الأمسية بالرغم من تعثره في الإجابة على سؤال ديكرسون.

قلت له: «شعرت أنك كنت على السكة الصحيحة عندما ذكرت كيف يمكن للمؤرخين أن يحكموا على قرارك عندما ينظرون إلى الماضي. كل ما كان يجب أن تضيفه هو أنك تخطط للتركيز على المستقبل».

وافق بوش قائلاً: «نعم، أنت محق. حسنٌ يا شباب، شكراً على ما قمتم به من عمل جيد»؛ اتجه بعدها نحو الزاوية بطريقته السريعة ليلحق برئيس الخدم الذي كان يوقف له المصعد إلى مسكنه الخاص في الطابق العلوي، وتبعه أحد العملاء السريين.

كانت هناك العديد من المناسبات الأخرى خاصة وعلمية دافع فيها الرئيس عن أهم قرار اتخذته إدارته، ولكن قليلاً من تلك المناسبات ستبقى في الذاكرة بالوضوح نفسه لتلك التي حدثت مساء البارحة. لقد أصبحت رمزاً لقائد غير قادر على الاعتراف أنه

أخفاً في التقدير، وغير راغب في النضوج في منصبه عبر تعلمه من أخطائه - لقد كان عناده أقوى من أن يسمح له بالتغير أو النضوج.

سمحت لي معرفتي الشخصية بجورج بوش باستنتاج بعض الأسباب التي تحول بينه وبين الاعتراف بارتكاب خطأ جسيم. أحد الأسباب كان خوفه من أن يبدو ضعيفاً؛ فالمسؤول الأكثر ثقة بنفسه لا يتردد في الاعتراف بإخفاقه، وفي الثقة بقدرة الناس على مسامحة أولئك الذين يطلبون التكفير عن أخطائهم ويظهرون جاهزيتهم للتغيير.

هناك سبب آخر يتمثل في الألم الشخصي الذي لا بد وأن يعاني منه لو كان عليه الاعتراف أن الحرب ضد صدام ربما كانت غير ضرورية. لقد كان ذلك صعباً على أي كان، أقلهم الرئيس، مواجهة فكرة أن قراره كان خاطئاً.

لو اختار إصدار بيان صادق حول الحقائق لكان أجدي له - من مثل «نحن نعرف أن صدام لم يكن يمثل ذلك التهديد الذي كنا نعتقده. ومع ذلك، كانت الحرب عادلة ومسوغة. كان صدام ديكتاتوراً متوحشاً، ارتكب العديد من الجرائم ضد الإنسانية. كانت أمامه فرصة كي يتغير، إلا أنه اختار المواجهة. المهم الآن، هو أن نتابع العمل سوية والسير في طريق نحو الأمام نجمع عليها باتجاه نهاية ناجحة - نهاية نتفق عليها جميعاً. هذه هي الطريقة التي نستطيع بواسطتها، نحن في داخل الوطن، خدمة قواتنا المسلحة التي تقاتل خارج الحدود، واحترام التضحيات التي قدمها العديد منهم وما يزالون يقدمونها».

ولكن بوش ليس ذلك الشخص الذي ينظر إلى الخلف بعد أن يكون قد اتخذ قراره. فبدلاً من أن يعاني من أي إحساس بالذنب أو الألم، اختار بوش أن لا يسير باتجاه التشكيك فيما قام به، أو اتخاذ القرار الصعب بإجراء مراجعة للذات وتقويم صادق لما قام به. وبدلاً من النظر إلى الخلف، اختار النظر إلى الأمام مركزاً على تحديات المستقبل بدلاً من الندم على الماضي. كان هذا الأمر صحيحاً بشكل خاص عندما تعلق بقرار لا يمكن العودة عنه، وله عواقبه الخاصة، مثل قرار الحرب في العراق.

ولكن بين الحين والآخر، لم يكن هناك مفر لبوش من مواجهة هذه الشكوك. كان يؤمن بأن واحدة من أهم مسؤولياته بوصفه رئيساً في زمن الحرب عيادة الجرحى والتخفيف

من معاناة أسر القتلى. كان يفعل ذلك غالباً سواء في واشنطن أم خلال تنقلاته في البلاد. كنت أألزمه كظله في تلك المناسبات.

زار الجرحى في مركز «والتر ريد أرمي» الطبي عدداً من المرات. كان من الملهب للمشاعر الاطلاع عن كثب على معنويات وشجاعة أولئك الذين قدموا تضحيات جسام - بدءاً من الذين عانوا من جروح رضية في رؤوسهم وانتهاء بمن فقدوا أطرافهم. أراد معظمهم العودة إلى العراق والانضمام مجدداً إلى رفاقهم بالرغم من أن إصاباتهم كانت تقف حائلاً دون تحقيق رغباتهم. من المحمود أن التقدم الطبي الحديث قادر على إنقاذ حياة أعداد أكبر مما كان عليه الأمر في الحروب الماضية. إحدى أكثر الصور التي رسخت في ذاكرتي التقطت أثناء واحدة من زيارات الرئيس إلى مركز «والتر ريد». كان يتنقل بين غرفة وأخرى، وهو يعود الجنود المصابين. دخلت إلى إحدى هذه الغرف قبله مباشرة ووقفت في الممر. كانت الإنارة في الغرفة ضعيفة. كانت أم شابة من تكساس وابنها البالغ من العمر سبع سنوات جالسين بجانب الزوج والأب. كان يجلس في مقعد متحرك من دون حراك. كان رأسه مغطى بالشاش الأبيض وبضمادة من أعلى رأسه نزولاً باتجاه عينيه. وكان واضحاً أنه لم يكن يعي ما يجري من حوله؛ كانت الإصابة الدماغية التي يعاني منها شديدة.

دخل الرئيس إلى الغرفة بعدي مباشرة. مشى باتجاه الأم وعانقها، ثم وضع يده على كتف الصبي وقال له: «والدك رجل شجاع جداً». عند انتهاء الزيارة القصيرة تلك، التفت بوش إلى الجندي ووضع يده بلطف على الكرسي المتحرك، ثم انحنى وقبل أعلى رأسه قبل أن يهمس في أذنه: «ليباركك الرب». استدار بعدها ومشى باتجاه الباب في طريقه إلى الخارج. رفع يده اليمنى وهو ينظر إلى الأمام، ومسح دمعة طمرت من عينه. في تلك اللحظة، كان بإمكانني رؤية الشك في عينيه وإدراكه استحالة تغيير النتائج الناجمة عن قراره.

رأيت الرئيس مرات عديدة يدخل إلى الغرفة أو إلى المنطقة التي تجتمع فيها عائلة أحد المصابين. كان يعانق الأم أو الزوجة. كان يرافقهم بحضور الآباء والأولاد ويستمع

إليهم وهم يروون قصصاً عن أحيائهم. غالباً ما كانت تلتفت إحدى الأمهات إلى الرئيس وتقول، «إنه المهمة. وتأكد من أن ابني لم يميت سدى».

كانت هذه الزيارات ذات أثر في زيادة عزم الرئيس على إنهاء المهمة بنجاح - أي التقدم نحو الأمام. وهكذا، تحول التشكيك العابر في نهاية المطاف، إلى سبب آخر يزيد من تصميمه الذي لا يتزعزع على متابعة ما بدأه.

بالإضافة إلى ذلك، كان هناك سبب آخر دفع بوش إلى تجنب الإقرار بالأخطاء ألا وهو تصميمه على الفوز بالعبة السياسية بأي ثمن. لم يكن بوش مستعداً لمنح وسائل الإعلام التابعة للمؤسسة السياسية في واشنطن أي شيء يمكن للنقاد أن يستخدمونه لتدميره وتدمير جهوده التي يبذلها من أجل إعادة انتخابه. كان يعرف أنه في المناخ السياسي الدارج هذه الأيام، لو حدث واعترف بارتكاب خطأ حول موضوع له عواقبه الخاصة مثل قرار خوض الحرب، فإن منتقديه الحزبيين سوف ينتهزون هذه الفرصة لتمزيقه إرباً إرباً. ربما لم يكن مخطئاً حول هذه النقطة، لكنني أؤمن أن اختيار مبدأ الصراحة والصدق كان يمكن أن يساعده في التكفير عن هذا الخطأ، والارتقاء فوق الروح الحزبية، وجمع قادة الحزبين بهدف الاتفاق على إجماع حول العراق. ربما لا يكون هذا الإجماع مطابقاً لأهداف بوش، أو للطريقة التي يفضلها من أجل تحقيق نتائج ناجحة، لكنه كان سيخدم بلادنا وأولئك الذين طلب إليهم الدفاع عنها بصورة أفضل بكثير.

أخيراً، كان هناك إصرار بوش على استمرار الالتزام بقاعدته الانتخابية. وكان القلق الذي ساوره من تكرار أخطاء والده السياسية، يثير الخوف لديه من أن تبدأ قاعدته المحافظة بالتصديق لو ظهر وكأنه يتراجع عن التزاماته في العراق. كان بوش ووروف يعتقدان أن القاعدة تريد قائداً قوياً وحاسماً وثابتاً بشأن آرائه ومعتقداته أكثر من أي شيء آخر. وطالما أن التثبيت بالقاعدة الانتخابية والمحافظة على قوة الزخم فيها يشكلان ضرورة مطلقة من وجهة نظرهما، فإن تردد بوش في الإقرار بالخطأ كان على الأقل مفهوماً - ولو أنه لم يكن حكيماً.

بالنسبة إلى بوش ومستشاريه (وعلى الأخص، كارل روف). فإن الانفتاح والصراحة في مثل هذه الظروف يعنيان فتح باب المتاعب. وربما كانوا محقين في ذلك - على المدى القصير. أما على المدى الطويل، فإن عجز الرئيس عن مواجهة واقع قراراته الخاصة كما حدث في تلك اللحظة المربكة في المؤتمر الصحفي، سيتحول إلى حاجز يكبر حجمه باطراد بينه وبين الشعب الأمريكي. وسيؤدي أيضاً إلى تدمير أي فرصة متبقية للتعاون الحزبي، وإلى استعمار أوار الحرب الحزبية التي ستشل واشنطن والنظام السياسي الأمريكي - وهذا كله سيحدث بينما كان بإمكان أولادنا وبناتنا العسكريين الذين يقاتلون خارج الحدود الحصول على عكس ذلك من واشنطن.

ولكن في شهر أيار، مايو، سنة 2004، كان بوش وروفر يركزان على المكاسب على المدى القصير - أي الانتخابات التي كانت ستجري في الخريف، قطع الرئيس وعداً على نفسه بإنجاز ما أخفق والده في إنجازه، أي الفوز بولاية ثانية. وكان هذا يعني أن عليه العمل بشكل مستمر ضمن إطار الحملة الانتخابية: لا تشرح شيئاً، ولا تعتذر عن شيء، ولا تنسحب من أي مواجهة. لسوء الحظ، كانت لهذه الإستراتيجية مثالبها وآثارها السلبية، لا تعد بذاكرتك إلى الماضي، لا تعد النظر في أي شيء، ولا تقبل بالحلول الوسط؛ خصوصاً إذا كان الأمر يتعلق بالعراق.

كان خطأ بوش الخطر الأول يتمثل في الإسراع باتجاه مواجهة عسكرية مع العراق. لقد حرفت رئاسته عن مسارها وأساءت إلى حد كبير إلى نظرة الاحترام التي كان الناس يرمقونه بها. وكان خطأه الخطر الثاني يتمثل في تعاميه عن خطئه الأول، وفي رفضه المحافظة على روحية الثنائية الحزبية خلال زمن الحرب، ورفضه أيضاً تغيير مساره عندما تطلبت الأحداث ذلك.

أتصور أن آرائي حول العراق تحولت بشكل متزامن مع آراء معظم الأمريكيين. فقبل الغزو، لم أكن متأكداً من ضرورة شن حرب استباقية جديدة. العديد من الناس يحبذون فكرة الذهاب إلى الحرب. بالطبع إذا هوجمنا، علينا الرد بحزم. الأمر في العراق كان مختلفاً. فلم يكن هناك هجوم وشيك، ولم يعرف عن العراق أن له أي

علاقة بالهجوم على أمريكا (باستثناء إطلاق النار على طائراتنا في منطقة الحظر الجوي) ، ولم يكن التهديد ملحاً .

لكن أحداث الحادي عشر من شهر أيلول أثرت على طريقة تفكيرنا بشكل عميق . كان الإحساس بالصدمة والغضب الذي مررنا به قد جعل العديد منا يأخذ على نفسه عهداً بالانتقام ممن قاموا بتنفيذ هذه الهجمات بأي طريقة ممكنة . كان نجاحنا العسكري السريع في قلب نظام حكم طالبان في أفغانستان قد عزز من الدعم الشعبي للرئيس وإدارته . وكانت الثقة في بوش ومستشاريه الذين نجحوا في هذا الامتحان في أعلى مستوى لها ، ومن ثم فقد مال الناس إلى تأييد رؤيتهم السياسية .

كنت جزءاً من هذا الميل . فكوني موالياً من تكساس ، لحق بالرئيس إلى واشنطن يعدوني أمل كبير ، ويفعمني شعور بالود الشخصي تجاهه ، ونظراً لكوني أفتخر بعضويتي في فريقه ، كنت جاهزاً لمنحه هو ومستشاريه للشؤون الخارجية الذين يتمتعون بالكثير من الخبرة كل الثقة فيما يتعلق بالعراق . لكن ، لسوء الحظ ، أظهرت التطورات اللاحقة أن رغبتنا في منح الثقة لحكمة بوش وفريقه لم تكن في محلها .

ربما ما تزال آرائي اليوم في مسار آراء معظم الأمريكيين . وبالرغم من أنني أجبرت على الاستنتاج بأنه لم يكن علينا أبدأ الإسراع في المبادرة إلى الحرب في المقام الأول ، فقد كنت أتمنى أن نتجح في هذه الحرب . لكن يجب الاتفاق على وضع تعريف لعبارة النجاح بواسطة إجماع بين قادة الحزبين الذين يركزون على القيام بما هو أفضل للأمة . من الواضح أن قواتنا المسلحة موجودة هناك منذ مدة طويلة ، وهي مطالبة ، كما عائلات أفراد هذه القوات ، بأن تتحمل أكثر ما يمكن لها تحمله بكثير . يجب علينا إيجاد طريقة - اليوم قبل الغد - لتقليص عدد قواتنا هناك بصورة ملحوظة في قلب العراق بحيث تستطيع قواتنا التركيز على نشاط الإرهابيين ، وعلى الانتشار السريع من أجل مساعدة العراقيين عند الضرورة . القلق الذي ينتابني هو نوع القلق نفسه الذي ينتاب معظم الأمريكيين . ما هي نهاية اللعبة؟ أين الضوء في نهاية النفق؟ إذا كانت هناك حاجة إلى مساعدة خارجية أكبر ، فإن علينا بناء نوع أشمل وأكبر من التحالف ،

ربما يكون ذلك تحت مظلة الأمم المتحدة، ربما عبر تحالف مع القوى الإقليمية بحيث تتحمل الدول الأخرى جزءاً من هذا العبء.

هل يمكن لمثل هذا الحل أن يتحقق في هذا الوقت المتأخر، مع فقدان الكثير من الأرواح وهدر الكثير من الأموال؟ أمل أن يتم ذلك. إلا أنه من المحزن أن شيئاً من هذا ربما لن يحدث أبداً في عهد هذا الرئيس. فقد تضررت مصداقيته في كل من أمريكا وحول العالم بسبب رفضه الحديث بصدق عن حربه، وعن كلف هذه الحرب. كل ما يستطيع فعله الآن هو تجهيز ملف هذه الأزمة، وتسليمه إلى خلفه.

لم يكن للأمر أن يصل إلى هذا الحد؛ فحتى بعد وقوع الخطأ الأول المتمثل في الإسراع بالتوجه إلى الحرب في العراق، لم تكن الحال قد وصلت إلى وضع ميئوس منه بعد. ولكن أحداً من دائرة الرئيس الضيقة - بمن فيهم أنا - لم يكن يمتلك من الحكمة أو الشجاعة المقدار الكافي كي يحثه ليكون أكثر انفتاحاً وصدقاً مع الشعب الأمريكي.

بدلاً من ذلك، فعلى امتداد سنتي 2003 و2004، وبينما كانت الأخبار السيئة ترد من العراق، كان الرئيس وكبار مستشاريه متشبثين بالاعتقاد أن الحرب التي ارتهن رئاسته لها سوف تصل إلى نهاية سعيدة. وفي الوقت الذي كانت الأخبار السيئة ترشح ببطء من العراق قبل أن تتحول إلى سيل جارف، كان الرئيس يصصر على آرائه.

في شهر أيار، مايو، سنة 2004، ظهرت إلى العلن الصور المريعة من سجن أبو غريب ملطخة بالعار الكثير من الأمريكيين، ومسببة إحساساً بالغثيان في كل أنحاء العالم وهو ما أدى إلى إلحاق أضرار كبيرة بجهودنا الرامية إلى كسب قلوب وعقول شعوب العالم الإسلامي.

وفي الوقت الذي ازدادت أعداد القتلى والجرحى في صفوف الجيش الأمريكي إلى درجة أبعد بكثير مما كان متوقعاً (وصل عدد القتلى إلى ألف من الجنود قبل الانتخابات بفترة قريبة)، كنت أراقب الرئيس وهو يمسك بالرقم المؤلم بقوة وبشكل شخصي أثناء تلك

الزيارات الخاصة التي كان يقوم بها إلى المستشفيات، واللقاءات التي يجريها مع عائلات المصابين. وبالطريقة نفسها التي تحولت فيها الحرب في فيتنام إلى هاجس بالنسبة إلى إدارتين متلاحقتين منذ أربعة عقود، تحول العراق إلى هاجس بالنسبة إلى مؤسسة رئاسة جورج بوش، وإلى جورج بوش شخصياً. كنت أرى المرة تلو الأخرى كيف كان منظر جندي محارب يعاني من جراح خطيرة في المعركة، أو صورة زوجة، أو ابن جندي شاب يعرفان أنه لن يعود إليهما أبداً. يسبب لبوش ألماً شخصياً وحزناً عميقين. لكن ردة الفعل التي لا يمكن لبوش أن يسمح لنفسه أن يشعر بها، كانت التشكيك في نفسه وصحة دوافعه. كانت اللحظات المؤلمة التي قضاها محاولاً التخفيف من حدة آلام من فقدوا أحبائهم في العراق - الخسائر التي وقعت بسبب بها في النهاية، قرار بوش بالذهاب إلى الحرب - تزيد من تصميمه على إثبات أن خياره المتمثل في القيام بغزو العراق كان الخيار الصحيح، وأن تضحياتهم قد تمت من أجل هدف نبيل.

كانت هناك لحظات من الأمل مهزوجة باليأس. كان نقل السيادة بشكل رسمي إلى حكومة عراقية انتقالية في الثامن والعشرين من شهر حزيران، يونيو، سنة 2004 عاملاً مساعداً في تعويم معنويات الشعب الأمريكي. وكان هذا النقل بمثابة ترجمة عاطفية لمنطق بوش في غزو العراق - ألا وهو نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط - وزاد في الأمل أنه بالرغم من الزيادة في معدل الخسائر، فإن الحرب في العراق سوف تثبت أنها حرب عادلة ومعلقة في أعين المؤرخين.

وبينما انطلقت الحملة الانتخابية سنة 2004، ومعها الجو الحزبي المتشنج الذي أضحى نموذجاً للسنة الانتخابية بالمعيار الوطني، اتخذت بعض القضايا مواقعها تحت الضوء، بما في ذلك الاقتصاد، ولجنة التحقيق بشأن أحداث الحادي عشر من أيلول، والجدل العنيف الدائر حول خدمة بوش في الحرس الوطني في سبعينيات القرن الماضي، والنقاش حول خطة بوش لتقديم تغطية للوصفات الطبية للمسنين المستفيدين من الرعاية الصحية.

لكن ثلاثاً من القضايا الجوهرية في قلب الحوار الدائر بشأن العراق استمرت في ملاحقة بوش ورئاسته: هل كان المنطق الذي استند إليه بوش في شنه الحرب على العراق مضللاً بشكل متعمد؟ هل كان قرار الحرب على العراق صحيحاً، أو يستحق كل هذا العناء؟ هل كانت معالجة الإدارة للوضع على الأرض مقنعة أو مرضية؟ كانت معركة الحملة الدائمة للسيطرة على الرأي العام، وصياغة سردية تصب في مصلحتنا حول كل واحدة من هذه الموضوعات الثلاثة ستلعب دوراً حاسماً في تقرير نتائج الانتخابات.

12

حريق في الأجمة

في غضون ذلك، وفي الوقت الذي بدأت الأسباب الحقيقية لحربنا في العراق تتكشف بشكل تدريجي في ضوء السباق نحو الرئاسة، والذي بدأ يلوح في الأفق استمرت إحدى حلقات الدراما العراقية في الكشف - وهي قصة الكشف عن هوية فاليري بليم عميلة وكالة المخابرات المركزية كجزء من المعركة الحزبية المتصاعدة بين إدارة بوش ومنتقديه في الكابيتول هيل في وسائل الإعلام. لقد كانت حكاية طويلة بدأت تنال مني شخصياً بشكل متصاعد.

يوم الثلاثاء الواقع في الثلاثين من شهر أيلول، سبتمبر، 2003، وهو اليوم الذي تلا تأكيد بشكل واضح أن كارل روف لم يسرب أي معلومات سرية أمنية - شخصية فاليري بليم - كان يوم سفر. لم يكن هناك أي لقاء صحفي في البيت الأبيض: كانت هناك حوار على متن الطائرة الرئاسية في طريقها إلى قاعدة سان أندروز الجوية، حيث مقر أفضل طائرة معروفة في العالم في شيكاغو.

كان الرئيس يتخذ الوضعية المعتادة الخاصة للتصوير في حفل غداء أقامه مع تشيني من أجل جمع التبرعات استعداداً لتمويل حملة إعادة الانتخاب لسنة 2004 التي تلوح في الأفق. التقى بعدها بمجموعة من كبار رجال الأعمال المحليين وذلك بهدف تسليط الضوء على القضايا الاقتصادية الملحة، وخلق فرص للعمل.

نحو الساعة الثامنة والنصف من مساء الليلة السابقة، أعلمت وزارة العدل مستشار البيت الأبيض آل غونزاليز أن المسؤولين هناك فتحوا تحقيقاً جنائياً حول تسريب هوية فاليري بليم. بناء على طلب آل، ستقوم الوزارة بإرسال خطاب رسمي حول هذا الموضوع يوم الثلاثاء. سأل آل فيما إذا كان البيت الأبيض بحاجة إلى إعلام العاملين فيه مساء ذلك اليوم، أو الانتظار حتى صباح اليوم الثاني. أفادت وزارة العدل أن الصباح موعد مناسب.

منذ أن انتشر نبأ إجراء التحقيق الجنائي في الأيام القليلة الماضية، كنت على تواصل مستمر مع آل ومع نائبه ديفيد ليتش، بما في ذلك صبيحة ذلك اليوم قبل أن أغادر البيت الأبيض برفقة الرئيس. أردت التأكد من أنني على تواصل على مدار الساعة مع وزارة العدل، كما كنت بحاجة إلى نصيحة من آل حول كيفية الإجابة على أسئلة الصحافة عن الموضوع.

أبلغ آل جميع كبار الموظفين بموضوع التحقيق قبل الساعة السابعة والنصف بوقت قليل أثناء اجتماعنا اليومي بينما كنا جميعاً جالسين في المقاعد الجلدية المخصصة لنا حول طاولة المؤتمرات المصنوعة من الخشب، والممتدة على طول قاعة روزفلت. وجّهنا إلى ضرورة أن يقوم كل منا بإعلام أفراد الطاقم العاملين لديه المحافظة «على المواد كلها التي يمكن أن تكون لها علاقة بموضوع» التسريب، وقال إن «الرئيس وجّه إلى ضرورة التعاون بشكل كامل مع هذا التحقيق». قال آل أيضاً إن مذكرة سوف تعمم بواسطة البريد الإلكتروني على العاملين في البيت الأبيض كلهم نحو الساعة الثامنة والنصف تتضمن تعليمات محددة.

أوضح آندي كارد أن الرئيس أراد أن يصل إلى حقيقة هذه المسألة، وأن على العاملين في البيت الأبيض أن يدلّوا بالمعلومات ذات الصلة إلى وزارة العدل. كان صمت مطبق يلف القاعة بينما أنصت جميع من فيها بعناية إلى ما كان يقوله كل من آل وآندي.

تحدثت إلى الرئيس حول هذا التطور الجديد في قضية التسريب صباح ذلك اليوم في المكتب البيضاوي، كما تحدثنا حوله أيضاً في الرحلة الجوية القصيرة على متن طائرة الهيلوكبتر البحرية الرئاسية من المنطقة العشبية الجنوبية في البيت الأبيض إلى قاعدة أندروز الجوية. اتفقنا، الرئيس، ودان بارتليت، وأنا، على وجوب أن يدلي الرئيس بتعليق حول التحقيق، خصوصاً وأتينا أخطرنا الآن رسمياً بشأنه.

أثناء الحوارات التي جرت في الطائرة الرئاسية، أحطت طاقم الصحفيين علماً بالمذكرة التي وجهتها وزارة العدل إلى آل. كنت قد تحدثت مسبقاً إلى بعض الصحفيين

صبيحة ذلك اليوم قبل مغادرتي البيت الأبيض وكان الجميع قد تسلموا نسخاً من المذكرة التي أرسلها آل إلى كل العاملين.

الطاقم الصحفي هو عبارة عن مجموعة صغيرة من الصحفيين الذين يغطون تحركات الرئيس عندما لا تكون هناك أمكنة كافية لجميع الصحفيين، أو عندما تتطلب عوامل لوجستية ذلك. هناك في العادة خمسة عشر من الصحفيين في الطاقم، ويمثل هذا عدد المقاعد المخصصة لهم في الطائرة الرئاسية. يجلسون عادة في الجزء الخلفي الأيسر من الطائرة وراء القسم المخصص للعملاء السريين مباشرة. توجد ثلاث نقاط مخصصة للخدمات الطباعية السلوكية، بما في ذلك وكالة الأسوشيتد برس، ووكالة رويترز، ووكالة أخبار بلومبيرغ. هناك أيضاً نقطة مخصصة للمشرف على الطباعة الذي ينتمي عادة إلى إحدى الصحف الكبرى التي تعمل على تحقيق سبق صحفي. توجد نقطة مخصصة لمراسل إحدى الإذاعات، وأخرى مخصصة لصحفي في مجلة إخبارية (من تايم، أو نيوزويك، أو يو. إس. نيوز، أو ناشونال جورنال)؛ وهناك نقطة مخصصة لأحد مراسلي النقل المباشر أو لأحد المخرجين، واثنان للشبكة التي يتبع لها المصور ومهندس الصوت؛ أما النقاط الأخرى فهي مخصصة لمصورى الكاميرات الثابتة. كل ما يقومون بتغطيته يجب أن يتم الإطلاع عليه في أقرب وقت ممكن من قبل الطاقم الأكبر في البيت الأبيض.

استناداً إلى ما اتفقت بشأنه مع الرئيس في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم، أنهيت تعليقاتي الافتتاحية الموجهة إلى الطاقم الصحفي المرافق بالقول: «إن الرئيس يريد الوصول إلى حقيقة هذه المسألة مثله مثل أي شخص آخر، وهو يؤمن بضرورة متابعة الموضوع حتى نهايته، كما قلت لكم بالأمس. كان الرئيس يعبر دائماً عن قلقه بشأن تسريب المعلومات السرية، وهو فعل يعتبره الرئيس مسألة خطيرة ويجب أن ينظر إليها بمنتهى الجدية. يتوقع الرئيس من كل فرد في هذه الإدارة أن يلتزم بأعلى معايير السلوك المهني». أضفت قائلاً إن الرئيس يؤمن «أن أي شخص لديه معلومات تفيد هذا التحقيق، يجب عليه التقدم بها إلى وزارة العدل».

بعد انتهاء الرئيس من الاجتماع في شيكاغو، تمت مرافقة العصابة الصعبة المراس المكونة من مجموعة صحفيي البيت الأبيض، والصحفيين الذين يمثلون الصحافة المحلية إلى غرفة صغيرة حيث كان سيجري فيها نقاش حول طاولة مستديرة. جلس الرئيس في الوسط، محاطاً بكبار رجال الأعمال المحليين، وإلى جواره كان العمدة ديلي الذي نشأت بينهما علاقة جيدة تطورت على مدار الأيام. بدأ الرئيس بالإدلاء بتعليقات حول الاقتصاد. ثم قال إنه سيتلقى سؤالاً أو اثنين. كنت قد رشحت له اثنين من الصحفيين، وأحطته علماً بالأسئلة التي يحتمل أن يطرحها عليه.

حصل ديب ريكمان، الصحفي الذي يغطي أخبار البيت الأبيض لوكالة أسوشيتد برس على الفرصة الأولى. سأل الرئيس: «هل تعتقد أن وزارة العدل يمكن لها أن تقوم بتحقيق حيادي، أخذين بعين الاعتبار المضمونات السياسية لتسريب معلومات عن وكالة المخابرات المركزية، ولماذا لا يكون محقق خاص أفضل لهذه المهمة؟»

أجاب الرئيس: «هناك تسريب للكثير من المعلومات السرية في واشنطن. إذا كان هناك تسريب من قبل أشخاص يعملون في إدارتي، فإنني أريد أن أعرف من هم هؤلاء. وإذا كان ذلك الشخص قد خالف القانون، فسيتم التعامل معه بالشكل المناسب». أضاف أنه يثق في خبرة المسؤولين في وزارة العدل المنتخبين لمتابعة هذه التحقيقات، وأنه وجه إدارته إلى التعاون معهم بشكل كامل.

نادى الرئيس بعدها على بوب كيمبر: بما أننا كنا في المدينة التي تصدر منها الصحيفة التي يعمل بها. غطى بوب أخبار البيت الأبيض لصالح صحيفة شيكاغو تريبيون، كما قام بتغطية أخبار الرئيس منذ انتخابات سنة 2000. قال الرئيس: «نعم، دعوني أتذكر، كيمبر - هو من شيكاغو، أين أنت؟ هل أنت من مشجعي فريق «كابس» أو فريق «وايت سوكس»؟» أعقب هذا السؤال ضحك في الغرفة. أضاف الرئيس: «انتظر لحظة، لا يبدو هذا عادلاً، أليس كذلك؟»

كيمبر الذي لم تردعه هذه الوخزات غير المؤذية من الرئيس، قال: «أخبرنا بالأمس أن كارل روف ليس له دور فيها...»

قاطعه الرئيس قائلاً: «نعم».

تابع كيمبر قائلاً: «هل تحدثت إلى كارل، وهل تثق به؟»

قال الرئيس: «لا أعرف أن أحداً في إدارتي قد سرب معلومات سرية، ولو حدث وقام أي شخص بتسريب معلومات سرية، فإني أريد أن أعرف ذلك، وسوف نتخذ الإجراء المناسب».

انتهت المهمة. لقد أوضح الرئيس بما لا يدع مجالاً للشك أنه ينظر إلى هذا التحقيق بمنتهى الجدية، وأنه يكره تسريب المعلومات السرية، وأنه يرغب في الوصول إلى الحقيقة حول هذا الموضوع. كما أوضح أن أي شخص في إدارته سيطرّد من عمله فيما لو ثبت أنه المسؤول عن هذا التسريب.

لَمَحَتِ الحوارات التي جرت في البيت الأبيض صباح اليوم الثاني إلى أن الصحافة بدأت تشير بأصابعها إلى شخص جديد تحوم حوله الشبهات في قضية التسريب هو رئيس أركان نائب الرئيس، سكوتر ليبى.

هكذا بدأت القصة. بينما كنت على وشك الانتهاء من هذه المحادثة، قال لي جون روبرتس كبير مراسلي محطة CBS News في البيت الأبيض: «سؤال أخير. قلت منذ مدة بشكل قاطع إنك تلقيت تأكيدات من كارل روف أنه لا علاقة له البتة بهذا الموضوع. هل تلقيت منذ ذلك الحين، تأكيدات مشابهة من رئيس أركان نائب الرئيس؟»

أجبت، وأنا أهم بمفادرة المنصة: «يا جون، لن أستدرج إلى التدقيق في كل الأسماء - فقد أوضحت ذلك مؤخراً - لن أستدرج إلى الدخول في قائمة لمناقشة اسم كل عضو في إدارة البيت الأبيض».

ناشدني روبرتس بشيء من التهكم الذي أثار بعض الضحك: «إنه اسم واحد فقط». تابعت: «كان هناك اتهام وحيد ومحدد. وقد قمت بالإجابة عنه في حينه. لكنني لن أستدرج إلى الدخول في قائمة أسماء من على هذه المنصة».

قال روبرتس: «لكنها قائمة قصيرة»، مثيراً بذلك ضحكاً أكثر، في الوقت الذي كنت أخطو خارج الباب المتحرك باتجاه مكتب الصحافة.

لم يكن لدي الكثير من الوقت كي أقوم بإجراء تقويم نقدي لتلك المحادثة مع أركان فريقتي في ذلك الصباح. فقد كان الرئيس الكولومبي، أوريببي، سيلتقي بالرئيس بعد مدة وجيزة. ولما كنت أعرف أهمية الالتزام بالوقت بالنسبة للرئيس، قمت بالتقاط دفتر ملحوظاتي، وأخبرت أركان فريقتي أننا سنتحدث أكثر قبل اللقاء الصحفي؛ ثم مشيت مسافة نحو عشرين قدماً باتجاه المكتب البيضاوي من أجل الانضمام إلى اجتماع مجلس الأمن القومي قبل اللقاء مع الرئيس وقبل اجتماعه مع أوريببي.

بعد دخولي إلى منطقة المكتب البيضاوي مباشرة، صادفت سكوتر ليبي في طريقتي. كان غالباً ما يمثل نائب الرئيس في اجتماعات الرئيس مع قادة الدول عندما لا يحضر تشيني. وكنا غالباً ما نجلس إلى جانب بعضنا بعضاً. ولما كنا قد وصلنا باكراً، سألته فيما إذا كان بإمكانني التحدث إليه لبرهة. خرجنا سوية عائدين باتجاه المدخل الذي يوصل بين منطقة الموظفين المشرفين على المكتب البيضاوي وبين منطقة الانتظار في الرواق.

قلت: «يجب أن تعرف أن الصحافة بدأت تطرح أسئلة أكثر، حولك، وفيما إذا كنت أنت من سرب اسم فاليري بليم».

أصفي سكوتر باهتمام. تابعت قائلاً: «قلت لهم إنني لن أستدرج إلى الدخول إلى قائمة بأسماء موظفي البيت الأبيض، لأجيب فيما إذا كان أي موظف متورطاً في التسريب. أريد منك أن تعرف لماذا. طالما أن هناك تحقيق وشيك، لا أستطيع أن أضع نفسي في هذا الموضع. أريد أن تعلم أنني لا أحاول أن أتركك تتعرض لسهامهم».

عبر سكوتر عن تقديره لإعلامي إياه قبل وقت كافٍ؛ ولكنه أضاف شيئاً آخر. كان يبدو مرتاحاً لموقفني بالرغم من أنه لا يشعر هو، أو أي شخص آخر مكانه بالسعادة من هذا الموقف. لكنني شعرت أنني قمت على الأقل بفعل ما كان عليّ فعله للتأكد من أنه حصل على هذه المعلومة مني، وليس عبر وسائل الإعلام.

كان صباح يوم السبت الواقع في الرابع من شهر تشرين الأول، أكتوبر، مريحاً بالنسبة لي. انتابني هذا الشعور وأنا أخطو باتجاه غرفة الجلوس في شقتي ذات غرفة النوم الوحيدة وسط المدينة، لأقرأ صحيفتي نيويورك تايمز وواشنطن بوست. لم أكن قد حلقت

ذقتي أو استحمت بعد: كوني نمت حتى الساعة السابعة صباحاً أي بعد ساعتين على موعد استيقاظي في أيام العمل العادية، وكنت أفكر في النزول إلى قاعة الرياضة البدنية في الطابق السفلي. كنت في العادة أحاول الاستمتاع صبيحة كل يوم سبت في المنزل. اللهم إلا إذا اضطررت للذهاب إلى المكتب. كنت أذهب إلى المكتب عادة بعد ظهر أيام الأحد لأنجز بعض الأعمال قبل بداية الأسبوع. بطبيعة الحال، ونظراً لأنني أعيش داخل دائرة من الأخبار على مدار أربع وعشرين ساعة يومياً، كنت دائماً تحت الطلب، وكنت أعمل من منزلي أيام عطلة نهاية الأسبوع حتى لو لم اضطر للذهاب إلى المكتب.

وصلتني مكالمة من آندي كارد نحو الساعة الثامنة والنصف صباحاً. قال: «تحدث الرئيس ونائبه إلى بعضهما بعضاً هذا الصباح. وهما يريدان منك أن تعطي الصحافة التأكيدات نفسها حول سكوتر كما فعلت حول روف».

لا أشرب القهوة في العادة. أشرب الكولا التي لا تحتوي على سعرات حرارية كي ينتظم معدل الكافيين الصباحي في دمي. كنت ما أزال أرتشف الكولا، إلا أن ما قاله آندي أزعجني أكثر مما فعله بي الشراب.

قلت: «حسن». وما قلته لم يكن مؤشراً على رفضي الغريزي للقيام بما طلب مني أن أقوم به. أخبرته بأنني سأتجه إلى المكتب، وسأتحدث إليه أكثر بعد أن أصل إلى هناك.

وبعد أن استحمت وارتديت ثيابي استعداداً للتوجه إلى البيت الأبيض، تساءلت عن السبب الذي دعا سكوتر إلى عدم التحدث إلي أولاً، لو كانت له مشكلة مع المقاربة التي اتبعتها. استناداً إلى تعليقات آندي، كان من الواضح بالنسبة لي أن سكوتر طلب إلى نائب الرئيس شخصياً أن يوجهني إلى القيام علناً بإنكار تورطه في القضية. والآن، وبحكم أن التحقيق على الأبواب، لم ترق لي فكرة الإشارة إلى أركان البيت الأبيض والدفاع عنهم فرداً تلو الآخر. في وقت سابق من الأسبوع، تحدثت إلى كل من آل وديفيد؛ وقد نصحتني بشدة بعدم القيام بأي تعليق جديد حول قضايا تتعلق بالتحقيق، بما في ذلك أسماء الأفراد. وفي أمس القريب، أبلغت الصحافة أنني لن أقوم بذلك، وكنت أعلم أنني إذا فتحت الباب لواحد من هؤلاء، فسيكون من المستحيل عليّ في واقع الأمر إغلاقه

فيما بعد، إذا بدأت أسماء متورطين آخرين بالظهور إلى العلن. وستساءل الصحافة عن السبب الذي دعاني إلى سؤال سكوتر عن احتمال تورطه، ولماذا لم يسأل البيت الأبيض موظفيه كلهم السؤال نفسه.

لكنه كان أمراً أتى من فوق. نتيجة لذلك، كنت على وشك تجاوز الخط الذي رسمته لنفسى علناً حالما بدأ التحقيق يأخذ مجراه مع بداية الأسبوع.

بعد أن وضعت حقيبتى في المكتب، توجهت مباشرة إلى مكتب أندي. كان يقف أمام مكتب مساعده في ردهة الانتظار التي يتقاسمها مكتبه مع نائبه في الجانب المقابل.

عرفت عن طريق تعليقات أندي المتشنجة على الهاتف أن ما كان يقوله لم يكن قابلاً للنقاش، كما أنني لم أكن أتوقع منه تزويدي بأي معلومات إضافية حول الحوار الهاتفي الذي دار بين الرئيس ونائبه.

لا أعرف إلى اليوم، شيئاً عما دار بين الاثنين؛ لكنني على ثقة عبر معرفتي بالرئيس، وعبر أحاديثي السابقة معه، أنه لم يكن يعرف شيئاً عن ليبي، أو روف، أو أي شخص آخر قد يكون متورطاً في الكشف عن هوية بليم للصحفيين. لم يكن للرئيس أن يقوم بتضليلي عمداً. وبينما أتمنى أن أقول الشيء نفسه بالنسبة لنائب الرئيس، فإنني أقول وبكل بساطة إنني لست متأكداً من ذلك. فالمعلومات التي ستصبح علنية عن طريق إجراءات قانونية في المستقبل ستطرح تساؤلات حول أفعال نائب الرئيس التي لم يعلن عنها أبداً.

أعلمت أندي أنني سأتلو بشأن سكوتر التصريح نفسه الذي تلوته حول كارل، فيما لو تلقيت التأكيدات نفسها من سكوتر. سألني أندي عن نوع التصريح الذي تلوته بشأن كارل، فأخبرته أنني قلت إنه ليس متورطاً في قضية تسريب هوية بليم، كما أنه لا يوافق على مثل هذا التسريب. كما قلت لأندي إنني عندما أتحدث إلى سكوتر، فسأدعو بعض الصحفيين وذلك للتأكد من أنهم سينشرون ذلك.

عندما عدت إلى مكنتي طلبت إلى عامل الهاتف في البيت الأبيض أن يبحث عن سكوتر ويصلني به. وجرياً على عادته، فقد كان مسافراً مع تشيني الذي كان يمضي عطلة نهاية الأسبوع في منزله بمدينة جاكسون هول في ولاية وايومينغ.

كانت المكالمة قصيرة. لم يكن سكوتر كثير الكلام بالأصل. كان يعلم السبب الذي دعاني إلى الاتصال به، بما أنه هو من أثار المسألة التي تم توجيهي إلى التحدث بشأنها. سألته: «هل كانت لك أي علاقة بعملية التسريب؟»

أجاب سكوتر: «كلا، قطعياً».

قلت: «حسنٌ: أنوي إعلام الصحفيين أنك لم تفش بالمعلومات السرية، ولا يمكن لك أن تتفاوض عن شيء كهذا. هل هذا صحيح؟»

أجاب: «نعم». تحدثنا بعدها عن أسماء الصحفيين الذين أخطط للاتصال بهم. وضع سكوتر السماعة، وبدأت في التحضير لمهمة لم أكن راغباً فيها.

دعوت صحفياً من مجلة نيوزويك سمعت أنه يعمل على قصة حول سكوتر، وصحفياً من وكالة الأسوشيتد برس، وآخر من صحيفة نيويورك تايمز. في اليوم نفسه، التقيت مصادفة بمراسل صحيفة واشنطن بوست مايك آلان خارج مبنى البيت الأبيض، ودعوته إلى ذلك اللقاء؛ وهو ما جعل عدد الصحفيين أربعة يمثلون أربعاً من كبريات وسائل الإعلام - وهو عدد كبير يساهم في نشر الخبر على نطاق واسع خصوصاً وأن هذا الخبر سيتم تناقله عبر خط وكالة الأسوشيتد برس. أخبرت الجميع أن سكوتر أكد لي أنه «لم يقم بتسريب المعلومات السرية، وأنه لا يتفاوض عن فعل كهذا»، وتأكدت من أن المسؤول عن اللقاءات الصحفية المناوب في ذلك اليوم على علم بذلك كي لا يفاجأ هو الآخر فيما لو اتصلت بعض وسائل الإعلام كي تحصل على الخبر بقصد المنافسة مع الصحف الأخرى.

بالتأكيد، كان الخبر ييث على الشريط الإخباري لوكالة الأسوشيتد برس جزءاً من موضوع أكبر يتعلق بالتحقيق في قضية التسريب. كنت سعيداً بالطريقة التي تمت معالجة هذه المسألة بهذا الشكل. كان ذلك يعني أنني نجحت في تضمين دفاعي «الرسمي» عن سكوتر من دون أن ألفت الكثير من الانتباه إلى هذا النوع من الدفاع.

علمت بعد فترة وجيزة من شأن ماكورماك، وهو أحد نوابي الآخرين، وكبير الناطقين باسم مجلس الأمن القومي، أن إليوت أبرامز وهو أحد كبار أعضاء مجلس الأمن القومي قد أنكر أي تورط له في قضية التسريب، في حديث له مع أحد الصحفيين الذي اتصل به

مباشرة بناء على «شائعات». من المحزن أن هذا هو الأسلوب المتبع من قبل بعض النشطاء الحزبيين الأقل تشكيكاً في واشنطن عند وقوع أي فضيحة: أطلق شائعة في وسائل الإعلام، وانتظر لترى إن كان سيكون لها التأثير المطلوب. لم تكن هناك أي معلومات بالمرّة تشير إلى تورط أبرامز في مسألة التسريب هذه، لكنه كان ينظر إليه باعتباره كبير الصقور من غير المحافظين في مجال السياسة الخارجية، وكان مؤيداً لتغيير النظام في العراق. كان قد حصل على عفو من الرئيس بوش الأب عندما أدين مرتين بتهمة حجب معلومات عن الكونغرس في فضيحة إيران- كوترا السيئة الذكر. لهذه الأسباب، كان يعد دائماً هدفاً سهلاً لكل المزاعم غير الموثقة.

بالنسبة لي، كان إليوت خبيراً متعاقداً في شؤون السياسة الخارجية، وزميلًا لم يبخل بمد يد المساعدة لي وخصوصاً في ذلك اليوم. اتصلت به وحصلت منه على التأكيدات نفسها؛ فكرت أنه من الأفضل قيامي بإيصال إنكاره هو الآخر، إلى الصحفيين أنفسهم الذين تحدثت إليهم بشأن سكوتر، بما أن إليوت كان قد تحدث لي عن هذا الموضوع لتوه. من الأفضل التصريح عن هذا الموضوع دفعة واحدة وفي الحال، وذلك في الدائرة الإخبارية نفسها بدلاً من إعطاء تصريح لجهة ما، اليوم؛ ولجهة أخرى، غداً، وهكذا. وبناء عليه، فقد طلبت لقاء الصحفيين من جديد.

ازداد شعوري بالإحباط لأن هذا كان عكس ما أردت له أن يتم. كنت أضع نفسي في قلب التحقيق عبر الدفاع عن أشخاص ضد رغبتني، وعكس النصائح التي قدمها لي مستشار البيت الأبيض.

عادت موضوعات الأسئلة الصحفية في الأسبوع الآتي تحتل المساحة الواسعة المعتادة في الحوارات واللقاءات الصحفية، إلا أن التحقيق في قضية التسريب بقيت في قلب الدائرة. كان المساعدون في البيت الأبيض بمن فيهم أنا، كل على طريقته، يبحثون في سجلاتهم الإلكترونية، ومراسلاتهم، وقوائم الاتصالات الهاتفية التي أجروها، ومفكراتهم، الملحوظات التي دونوها؛ ومن ثم، ينسخون كل ما من شأنه أن يصب في خانة طلب وزارة العدل من الوثائق حول الموضوع.

يوم الاثنين، وفي معرض ردي على أحد الأسئلة، أكدت في اللقاء الصحفي أنني تحدثت إلى كل من كارل، وسكوتر، واليوت، وأن كلاً منهم بدوره أنكر أي تورط في قضية تسريب هوية فاليري بليم. وكما توقعت، فقد تساءل الصحفيون عن سبب سؤالي هؤلاء الأشخاص الثلاثة بالتحديد، ولماذا لم يطلب الرئيس من أركان البيت الأبيض الآخرين الإجابة عن السؤال نفسه. قمت ببعض التراقص اللغوي في معرض جوابي على هذه الأسئلة، نظراً لعلمي أنني لم أكن مخولاً للحديث عن كل جوانب القصة.

أدركت متأخراً أنه كان على الرئيس أن يخالف رأي مستشاريه ويطلب إجراء تحقيق داخلي لتقرير من يمكن أن يكون في دائرة الشبهة من بين أركان البيت الأبيض. كان عليه أيضاً إعطاء الأوامر بتزويد الرأي العام بأكثر كم ممكن من المعلومات حالما يتم التوصل إليها، وذلك لكي لا تحتل الفضيحة عالماً مستقلاً بعد ذاته. لكنه اختار أن لا يقوم بذلك، ربما لأنه كان يشعر أن بقاءه بعيداً عن مجريات القصة سوف يحصنه ويحميه ضد أي ضرر سياسي محتمل. ولكن بدلاً من أن يكون الأمر كذلك، احتلت القصة حيزاً أكبر، وعاشت فترة أطول، وهو ما ساعد في إذكاء روح التشكيك، وتسعير أوار الحرب الحزبية التي تعهد أن يشفي واشنطن منها.

شاطرني دان بارتليت فيما بعد، الرأي بأن ديفيد أدينغتون مستشار نائب الرئيس عبر عن قلقه بعد أن علم أنني برأت ساحة سكوتر علناً. حذر أدينغتون بارتليت بصورة محددة أنه ما كان عليّ القيام بالحديث علناً عن التحقيق، أو مناقشة ما قام به، أو لم يقم به أي شخص. أجاب بارتليت، «إن رئيسك هو من طلب إلينا القيام بذلك»، لويت شفتاي لبرهة قصيرة بينما كنت أنا وبارتليت نهز برأسينا. ولقد انتابنا نوع من الشك.

كان يُنظر إلى أدينغتون بصفة عامة كواحد من أكثر المسؤولين سرية في البيت الأبيض. وبمرور الوقت، تبين لي أنه واحد من أكثر الناس رغبة في تقديم المساعدة لي. كان يتقاسم المعلومات معي ويبادر بإسداء النصيح لي بصفة سرية كي لا يزل لساني في اللقاءات الصحفية بصفتي السكرتير الصحفي. أكثر ما كان يثير اهتمامي هو الحصول على الصورة الكاملة عندما أبحث عن معلومات عند أحد الزملاء. لم يكن ذلك سهلاً

على الدوام في مكان مثل البيت الأبيض حيث لم يكن بعضهم يبدي أي اهتمام يذكر بالصحافة. أو ينظر إليها «كمجموعة ضغط» أخرى. لكن ديفيد كان متفهماً لحاجتي في أن أكون على اطلاع على مجريات الأمور كي أكون فاعلاً ودقيقاً في عملي. فلو علم بشيء، كان يشعر أن عليه تقديم المساعدة. لم يكن بحاجة إلى التلقين ليتقاسمها مع أحد، أو إلى لعبة العشرين سؤالاً كي يستنتج ضرورتها.

ولكن، لسوء الحظ، لم يكن أحد يستمع إلى نصائح أدينغتون، أو يأبه لها على ما يبدو، خصوصاً من قبل أولئك الذين كانوا يدفعون بي أكثر فأكثر، باتجاه الجحيم الذي كنت ألج إليه من دون وعي مني.



في اللقاء الصحفي الذي عقده في العاشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر، أدليت بأخر تعليق لي حول التأكيدات التي قدمها كل من روف وليبي. فبعد وقت قصير، سيبدأ عملاء من مكتب التحقيقات الفيدرالي، ووزارة العدل بدء التحقيق مع المسؤولين في البيت الأبيض.

تحدثت إلى كل من آل وديفيد حول وضعي الشخصي بعد أن اتصل بي مكتب التحقيق الفيدرالي. قال لي ديفيد بعد أن ذكرني بأنه لا هو، ولا آل يعدان نفسيهما محامين شخصيين بالنسبة لي: «لا تستطيع في هذا اللقاء أن تتحدث بطريقة تشبه طريقة حديثك بصفتك ناطقاً رسمياً باسم البيت الأبيض. لا بد من أن تجيب على الأسئلة بانفتاح وبصورة كلية. وهذا بعكس الأسلوب الذي تتبعه في وظيفتك حيث لا تقدم هناك سوى النزر القليل من المعلومات بوصفك ناطقاً صحفياً. ليس عليك أن تتطوع بتقديم معلومات أكثر مما يطلبون في أسئلتهم؛ ولكن عليك أن تكون صريحاً، وأن تستجيب لما قد يسألك عنه». هذه النصيحة لم تأت مثل مفاجأة بالنسبة لي؛ لكنها ساعدتني في تعزيز هذه الأفكار بشكل مسبق.

كان آل وديفيد قد اقترحا أن يقوم أحدهم من مكتبهما بحضور أي مناقشات يمكن أن تطرح بيني وبين مكتب التحقيقات الفيدرالي. تبين لي أن ذلك ستكون طريقة مناسبة

أيضاً بالنسبة إليهم كي يبقوا على اطلاع على مجريات التحقيق، وأن يكون بإمكانهم إطلاع الرئيس على أي مستجدات. مع ذلك، كان من دواعي سروري قبول العرض الذي تقدم به.

تم أول لقاء بيني وبين عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي بعد عدة أيام في إحدى غرف المؤتمرات في الطابق الثاني كان مكتب المستشار قد وفرها في مبنى مكتب أيزنهاور التنفيذي في محيط البيت الأبيض، مقابل الممشى التنفيذي الغربي الذي يؤدي إلى مدخل الموظفين في الجناح الغربي. كان الضوء يدخل إلى تلك الغرفة ذات السقف العالي من نوافذ كبيرة في أحد جوانبها. ولم يكن يوجد في الغرفة سوى طاولة مؤتمرات خشبية كبيرة تحيط بها كراسي جلدية.

أدار النقاش جون إيكينرود، العميل الخاص المسؤول عن التحقيق لصالح مكتب التحقيقات الفيدرالي منذ اليوم الأول. انضم إليه لاحقاً اثنان عميلان آخران أجلسا إلى جانب الطاولة التي تواجه الباب؛ كنت في الطرف الآخر في مواجهة النافذة من خلفهم.

كان قد تم تزويدهم بنسخ من كل الوثائق الموجودة في ملفاتي والتي كنت قد سلمتها إلى مكتب المستشار في الأسبوع الثاني من شهر تشرين الأول، أكتوبر. أذكر رسالة إلكترونية كنت قد استلمتها من صديقة لمساعدتي الشخصية كارمن إنفويل. كانت صديقة كارمن قد حضرت درساً أو محاضرة في جامعة كاليفورنيا منذ عدة سنوات لجو ويلسون، قالت إن ويلسون ذكر خلالها، أن زوجته تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية. لم تكن لدي أي فكرة حول ما إذا كانت هذه القصة صحيحة أم لا.

كان التحقيق ما يزال في مراحله الأولى، وبدأ أن العملاء كانوا يركزون على معرفة كيف تصرف البيت الأبيض بما في ذلك، فريق مكتب الاتصالات في البيت الأبيض، وكيف تعامل مع وسائل الإعلام.

كان تيد أوليوت، المحامي الثلاثيني، الذكي، والبارع، ، والعامل في مكتب المستشار في البيت الأبيض يصغي في الوقت الذي كنت أجيب على الأسئلة. كنت أعرف تيد قليلاً عن طريق العمل معه حول قضايا أخرى، وكان دائماً يظهر أنه منفتح ومستعد لمزيد المساعدة.

كان هو وزميله راؤول يانس قد كلّفا بحضور جلسات التحقيق في مكتب المستشار. تعرفت إلى تيد بصورة أفضل خلال تلك المرحلة، وكنت أظن أن آل وديفيد لم يكن باستطاعتهما اختيار من هم أفضل من هذين الشخصين لهذه المهمة المثيرة للجدل، والتي يتم تسليط الضوء عليها بشكل كبير.

بعد اللقاء الأول مع محققي مكتب التحقيقات الفيدرالي، أذكر أنني قلت لتيد ونحن نسير خارج الرواق المؤدي إلى مبنى المكتب التنفيذي عائدين إلى الجناح الغربي: «فوجئت بأنهم لم يسألوني أي أسئلة ملموسة عما يمكن أن أكون أعرفه، مثل محادثات مع روف وليبي». في الاجتماع الثاني الذي أظن أنه حصل بعد أسبوعين، كانت الأسئلة تتمحور حول ما يمكن أن أعرفه، ولم يستغرق أي من اللقاءين أكثر من ساعة واحدة لكل منهما.

في الثلاثين من شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة 2003، عقد جيم كومي، نائب المدعي العام مؤتمراً صحفياً في وزارة العدل. أعلن أن المدعي العام جون أشكروفت أعفى نفسه من التحقيق ليتجنب أي شكل من أشكال صراع المصالح. صرح كومي بعدها أنه سمى مدعٍ خاص للإشراف على التحقيق في التسريب - وهو باتريك فيتزجيرالد من شيكاغو. كان فيتزجيرالد ينظر إليه بكثير من التقدير بصفته مدعياً عاماً للولايات المتحدة، والذي كان يعرف عنه الالتزام بالقانون، وعدم التأثر بالسياسة.

لم يكن كومي ليتحدث في الأسباب التي حدثت به إلى تعيين المستشار الخاص عدا قوله إن «جملة من الحقائق» تراكمت على امتداد الأشهر القليلة الماضية أدت إلى اتخاذ مثل هذا القرار. أضاف: «لا نريد أن يعرف الناس الذين يهمننا أمرهم أننا مهتمون بأمرهم. كما أننا لا نريد أن نشوه سمعة من يمكن أن يكون بريئاً، أو من يمكن أن لا يوجه إليه أي اتهام».

اتصل بي رون روس نائب رئيس وحدة مكافحة التجسس في وزارة العدل الذي يرأسه جون ديون لترتيب موعد للقاء الفريق المشرف على التحقيق قبل أيام من استدعائي للمثول أمام هيئة المحلفين الكبرى. سألتني هذه المرة فيما إذا كنت أنوي القدوم بمفردي من دون مرافقة أحد من مكتب المستشار. أوضح لي أنهم يفضلون التحدث إلي على انفراد. وافقت. لم يتغير الموقف بالنسبة لي إلا بنسبة ضئيلة، بالرغم من أنني كنت

مهماً لسماع أي ملاحظة كان يمكن لتيد أن يبديها لي. شككت في أن فريق التحقيق أراد أن يبقي المعلومات على أكبر نطاق ممكن من السرية في الوقت الذي كانوا يتابعون الاستماع إلى شهادتي أمام هيئة المحلفين الكبرى.

قبل ذلك، عندما علمت أن استجوابي سيتمحور حول تبرئتي العلنية لكل من روف وليبي وأبرامز، فقد استشرت زوجة شقيقي ستيفاني ماكليان التي كانت مساعدة مدعي المقاطعة في مقاطعة سان جوزيه، كما استشرت شقيقي دادلي، الذي كان يعمل كاتباً في مكتب قاض فيدرالي في مدينة أوستن.

كانت وجهة نظر ستيفاني أن أقوم بتوكيل محام في هذه القضية، بالرغم من أنني قلت لها إنني لا أعرف شيئاً عن التسريب الحقيقي، وأن دوري كان مقتصرأً على الدفاع عن البيت الأبيض، وعن عدد محدود من المسؤولين بعد أن حدث ما حدث. لكنها أوضحت بحدسها أنه لا يمكن للمرء أن يعرف بشكل مؤكد كيف يمكن للكلمات التي تم التلفظ بها أن تُؤوّل، أو - وهذا أسوأ - تُحرّف، خصوصاً ضمن سياق تحقيق سياسي مسلطة عليه الأضواء، يتم أثناء حملة انتخابية.

لم يلزم دادلي نفسه بتقديم أي نصح محدد لي: إلا أنه نصحني بصفته شقيقي، وأيضاً بصفته محامياً مطلعاً على مجريات الأمور بتوكيل محام. ولقد سألته فيما بعد، بعض الأسئلة الأساسية المهمة. ربما كان هو وتوأمة برادلي، وشقيقنا الأكبر، مارك يضايقونني في صغري. لكننا الآن مقربون جداً من بعضنا بعضاً كما ينبغي أن يكون كل الأشقاء. كان من المطمئن والمشجع بالنسبة لي معرفة أن باستطاعتي اللجوء إليه عندما أشعر بالضغط تزداد من حولي.

كان الزملاء من حولي يعتقدون أن من الجنون عدم توكيل محام. قالت لي نائبتي كلير بوكان وهي صديقة عزيزة، وقفت دائماً إلى جانبي: «عليك أن توكل محامياً».

إلا أنني، وعلى العكس من كثير من زملائي قررت أن لا أوكّل محامياً. سأقول الحقيقة للمحققين - أي ما أعرفه، وما أتذكره. ومع عدم وجود أي شيء أخفيه، ومع الأخذ بالاعتبار أن ما يربطني بالقضية أتى بعد حدوث عملية التسريب، شعرت بالارتياح كوني

اتخذت هذا القرار. (لست ألمح هنا إلى أن زملائي كان لديهم ما يخفونه، وأنا هنا أعبر فقط عن مشاعري الخاصة حول قراري).

وهكذا في عصر ذلك اليوم البارد، كنت في مكتب وحدة مكافحة التجسس المتوضع في أحد الطوابق العليا من مبنى وزارة العدل، على بعد عدة أحياء من البيت الأبيض.

كانت الغرفة التي التقينا فيها مظلمة نوعاً ما. كانت الطاولة طويلة، رأيت عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالية الذين قابلوني في المرة السابقة. عرّف رون روس عن نفسه، كما عرّفني على الآخرين المتواجدين في الغرفة. جلست إلى منتصف الطاولة مقابل عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالي. كما فعلت في اللقاءات السابقة في مبنى المكتب التنفيذي. جلس أعضاء فريق المدعين عبر الطاولة أيضاً إلى اليمين مني. لكن فيتزجيرالد لم يكن في الغرفة.

وبينما كانت اللقاءات السابقة مباشرة، وبعيدة عن أي توتر، بدأ هذا اللقاء بشكل مختلف. روس الذي لفت نظري لكونه مدع جاد ومهني، سألتني لماذا برأت ساحة روف وليبي. ثم طلب توضيحاً عن سبب عدم ذكري في اللقاء الأول أن كارل سبق له أن تحدث إلى نوفاك. فوجئت نوعاً ما، ونظرت إلى أحد عملاء مكتب التحقيق الفيدرالي وقلت: «أخبرت كل شيء عندما سألتني في اللقاء الثاني. لم تسأل عن هذا الموضوع في اللقاء الأول». لم يعلق العميل بشيء. قلت في نفسي: حسن، يريدون الظهور بمظهر القساة كي يتأكدوا من أنني قلت لهم كل شيء أعرفه، أو أستطيع تذكره، وكي يتأكدوا أن تحقيقهم أوغل في العمق في محاولة منهم معرفة الحقيقة.

بعد عدة دقائق، دخل بيتر زيدنبيرغ، الذي يشغل منصب المدعي من وحدة الاستقامة العامة إلى الغرفة. عرّف عن نفسه، وبدأ شخصاً ودوداً. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن ينال ثقتي واحترامي للروح المهنية والودية التي أظهرها.

لعب دور الشرطي الطيب مقابل روس، الشرطي الشرير موضحاً أنهم يحاولون فقط تبيان الحقيقة. قال إنه شاهد في العديد من المرات كيف يمكن أن تكون ذاكرة الشاهد ضبابية عندما يُطلب إليه تذكر أشياء حدثت منذ أسابيع، أو أشهر، وأنهم

فقط يريدون التأكد من أنهم تحدثوا إليّ قبل مثولي أمام هيئة المحلفين الكبرى. توقعت خلال تعليقاته، أنه كان يراقب المناقشات الأولية عبر ما تبين أنها نافذة يكشف زجاجها عن جانب واحد فقط، وهي النافذة التي كانت على يميني، مثل تلك التي يشاهدها المرء في مسلسل (Law and Order).

لم يستمر اللقاء أطول من ذلك، عدت بعدها إلى البيت الأبيض لأستأنف القيام بواجباتي سكرتيراً صحفياً. مع ذلك، تساءلت عن سر مقاربتهم المتشددة في البداية. شعرت بشيء من عدم الاستقرار كوني كنت متعاوناً معهم ومنفتحاً عليهم بشكل كامل. أتصور أنهم استخدموا هذا التكتيك لمحاولة هز أعصاب من يستجوبونهم للتأكد من صدق ما يقولونه. لكن الطريقة التي آلت إليها الأمور أراحتني، وشعرت أنهم اطمأنوا إلى أنه لم يكن لدي ما أخفيه.

كان شريط مثولي أمام هيئة محلفين فيدرالية كبرى يدور أمامي. وكما خمنت، فإن هذا الإحساس انتاب زملائي أيضاً، لقد ضغط هذا الشريط على عقلي بسبب المضمونات الخطيرة التي تتصف بها طبيعة التحقيق. ولقد توقف العاملون في البيت الأبيض عن الحديث مع بعضهم بعضاً حول أي شيء محدد يتعلق بالتحقيق في التسريب، بما في ذلك احتمال أن يكون أي منهم قد تم استجوابه، أو احتمال أن يكون أياً منهم قد وكل أحد المحامين (كما في حال كل التحقيقات التي يتم تسليط الأضواء عليها في واشنطن، فقد وكل جميع المسؤولين الذين مثلوا أمام هيئة المحلفين الكبرى محامين وذلك زيادة منهم في الحذر، حتى لو كانوا يعرفون أنهم غير متورطين)؛ وكان هذا هو الشيء الوحيد تقريباً الذي سمعته من زملائي عندما كانوا متجهين للمثول أمام هيئة المحلفين الكبرى، طالما أن الصحافة كانت محتشدة خارج غرفة هيئة المحلفين الكبرى بشكل يومي، وأن زملائي لم يرغبوا في أن أسمع بهذا الأمر من صحفي. بالإضافة إلى ذلك، كان الصمت يلفنا جميعاً، فقد كنا نشعر بالقلق يخيم فوق رؤوسنا.

تساءلت من دون أن ينتابني التوتر: هل كانت نصيحة ستيفاني في محلها؟ هل كان عليّ أن أتكلم على نصيحة محام؟ عندما توافق على العمل لدى رئيس الولايات المتحدة، لا يخطر ببالك، كجزء من توصيف وظيفتك، أنك ستستجوب من قبل مكتب التحقيقات

الفيدرالية، أو تدلي بشهادتك أمام هيئة محلفين كبرى تحت تهديد تعرضك للاتهام بحنث في اليمين.

قيل إن هيئة المحلفين الكبرى بدأت بالاستماع إلى الشهادات في نهاية شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2004. استدعيتُ للمثول أمام المحلفين بعد ظهر يوم الجمعة في السادس من شهر شباط، فبراير.

التقيت بروس وأحد العملاء خارج الرواق في ردهة بالطابق العلوي في مبنى المحكمة الفيدرالية في بريتمان قرب مبنى الكابيتول في شارع بنسلفانيا. كان الطقس عصر ذلك اليوم غائماً وبارداً، بالرغم من أن ذلك متوقع في واشنطن في تلك الفترة من السنة. وكان هناك رذاذ خفيف من المطر بين الحين والآخر.

أبلغوني بأنهم سوف يكونون مستعدين لمقابلتي قريباً جداً، وأن عليّ أن أتماسك. كان كلاهما ودوداً عصر ذلك اليوم. جلست على كرسي في الرواق الفارغ، والسيئ الإضاءة.

مشيت باتجاه غرفة هيئة المحلفين الكبرى عبر قاعة ضيقة وصغيرة. ولجت إلى الغرفة غير ملم بما يمكن أن أتوقعه. طلب إلي الجلوس على كرسي خشبي قرب الباب عند طرف طاولة لها شكل حرف L. كان فريق المدعين إلى يميني في مواجهة المحلفين الذين كانوا يجلسون كما في مقاعد في مسرح في مواجهتنا، ومن فوقنا.

خمنت أن هناك ما بين خمسة وثلاثين إلى أربعين من المحلفين موجودون. وكان كاتب الاختزال عبر الممر يدون كل الأسئلة وأجوبتي عليها.

كان زيدنبيرغ، المدعي العام لوحدة الاستقامة هو من قام بتوجيه الأسئلة. وكان من الصعب معرفة من كان موجوداً حينها لأن موضع الكرسي التي كنت أجلس عليها لم يسمح لي بذلك. بالإضافة إلى أنه لم يجز أي تعريف بالحضور. ربما كان باتريك فيتزجيرالد، وهو الشخص الذي أحسست أنني أعرفه عبر اهتمام الصحافة به، ولكن لم أكن قد التقيت بعدُ به، موجوداً، لكنني لم أراه، فقد كان تركيزي منصّباً على الإجابة على الأسئلة.

التفتُ قليلاً باتجاه اليسار، وذلك كي يكون بإمكانني رؤية المحلفين ولو بشكل جزئي، في الوقت الذي كنت أنظر إلى زيدنبيرغ. أول ما سألني كان حول صحة ما قيل إنني لم أقم بتوكيل محام. أوضحت بأنني لم أوكل محامياً ولكنني تحدثت إلى شقيقي دادلي عدداً من المرات حول الموضوع.

طرح علي بعدها سلسلة من الأسئلة أمام هيئة المحلفين الكبرى، سبق لي أن أجبت على معظمها في لقاءات سابقة. بما في ذلك جرد لأحاديثي مع كارل وسكوتر، والتأكيدات التي قدمتها لي بأنهما غير متورطين بقضية تسريب هوية بليم.

لكن كانت هناك بعض الأسئلة التي لم يطرحوها علي من قبل. سألني زيدنبيرغ فيما إذا كنت قد أبلغت كوندي رايس أن عليها القول إن كارل ليست له علاقة قبل أن تظهر على أحد البرامج الحوارية يوم الأحد في الثامن والعشرين من شهر أيلول، سبتمبر سنة 2003. (لم تتحدث رايس عن هذا الموضوع علناً في أي من هذه البرامج الحوارية).

فكرت ملياً. أذكر أنني تحدثت إلى كوندي يوم السبت ذاك - وهو يوم السبت نفسه الذي اتصلت فيه بروف بعد أن علمت أنه تحدث إلى نوفاك، وأكد لي حينها أنه لا علاقة له بموضوع تسريب معلومات سرية - كما أفعل عادة مع المسؤولين في الإدارة قبل أن يظهروا في برامج الأحد الحوارية. وكان هذا الإجراء نوعاً من تهيئتهم للإجابة عن أسئلة مشابهة. والتأكد من أن الجميع «يقرؤون من نفسها الصفحة»: علمنا أن المقالة التي ظهرت في عدد الأحد في صحيفة واشنطن بوست سوف تثير أسئلة عن احتمال تورط البيت الأبيض في التسريب. هل أمليت على كوندي ما يجب أن تقوله حول كارل روف؟

قلت، ربما أكون قد فعلت، لكنني لا أستطيع تأكيد ذلك. أوضحت بأنني ربما أحطتها بما صرحت به أمام الصحافة، وأنني ربما اقترحت عليها الإشارة إلى ما قلته من دون أن تتطرق إليه هي بنفسها.

أصبت بصدمة عندما طرح علي السؤال الثاني. سأل زيدنبيرغ إذا كان صحيحاً أن الرئيس أبلغني في المكتب البيضاوي أن كارل روف أخبره بأنه غير متورط في القضية؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي أسأل فيها عن أي شيء عرفه الرئيس أو قاله. وطالما أن الرئيس لم يتم سؤاله بعد، عرفت أن أندي هو من أطلع المحققين على ذلك في مناسبة سابقة. وعبر معرفتي أن الرئيس يفضل أن تبقى أحاديثه الخاصة طي الكتمان، ترددت للحظة. لكن المسألة هنا مختلفة. كنت أعرف أن الصدق هو الخيار الوحيد. وبالرغم من اختناق صوتي، تمكنت من التأكيد أن الرئيس قال ذلك بالفعل.

استكمل زيدنبيرغ استجوابه، وسأل المحلفين إذا كانت لديهم أي أسئلة. فقط امرأة من أصول إفريقية كانت تجلس في آخر الغرفة في الصف الأول كان لديها سؤال. طلبت إلي تعريف ما تعنيه لي عبارات «الخلفية»، و«الخلفية البعيدة»، و«ليس للنشر».

أجبت بالقول إن العبارات المذكورة تعني أشياء مختلفة قليلاً لمختلف الناس. قلت «إن عبارة «خلفية» تعني لي أن صحفياً يمكن له أن يقتبس مما قلته من دون أن يذكر بالاسم. عادة ما يتفق الصحفي والمصدر على الكيفية التي ينسب فيها الخبر: «مسؤول رفيع في البيت الأبيض»، أو «مسؤول رفيع في الإدارة»؛ ولو أراد المصدر أن يكون أكثر بعداً، ربما يمكن استخدام عبارة «مسؤول في الحزب الجمهوري». أما بالنسبة إلى عبارة «الخلفية البعيدة»، فإن معظم الصحفيين يعتبرونها معلومات يمكن لهم استعمالها في تقاريرهم من دون أن يتمكنوا من الإشارة مطلقاً إلى المصدر بشكل مباشر. وأخيراً، عبارة «ليس للنشر» تعني بالنسبة لي أن الصحفي لا يستطيع استعمال المعلومات التي بحوزته في تقاريره بأي شكل من الأشكال».

انتهت الجلسة في غضون ساعة. شكرني روس وأحد العملاء، وهما يسيران بجانبني وأنا عائد باتجاه الرواق. قالاً إنني بينما أنا حر من الناحية القانونية للتحدث حول ما جرى معي، فإنهما يفضلان أن تبقى شهادتي أمام هيئة المحلفين الكبرى سرية.

وبينما كنت أتجه نحو الدرج، كانت هناك صحافية تقف في الردهة، وقد عرفتني وتبعنتني أثناء نزولي على الدرج. قدمت نفسها لي بصفتها مخرجة في محطة CBS. وسألتني عن مكان وجود محامي. نظرت خلفي وداعبتها بالقول: «لا أدري. ألم تريه هناك

في الخلف؟» بعد أن تلفت حولها لبضع ثوانٍ، قلت لها إنني لم أؤكل محامياً. أعربت عن دهشتها من ذلك لأن جميع من رأتهم يدخلون إلى هناك، كانوا برفقة محامين.

تجمع عدد آخر من الصحفيين خارج مبنى المحكمة وهم يحاولون الاحتماء من المطر الخفيف الذي كان يتساقط ذلك اليوم. رسمت ابتسامة لا مبالية، وأنا أقف لتلقي بعض الأسئلة. وقبل صعودي إلى سيارتي، قلت: «أنا سعيد بالقيام بدوري في التعاون الكامل مع التحقيق كما وجهنا الرئيس».

استمر التحقيق لأشهر من دون أن يتسبب ذلك في انحراف حقيقي عن سكة الحملة الناجحة لإعادة الانتخاب. مع ذلك، لم يكن العاملون في البيت الأبيض يتحدثون إلى بعضهم بعضاً حول هذه المسألة. كان مكتب المستشار قد وضع حظراً منذ مدة طويلة على الجميع بعدم التحدث علناً حول هذا الموضوع بمن فيهم أنا. كانوا قد أنفقوا سراً مبالغ كبيرة على المحامين، وأهدروا ما يكفي من الوقت وهم يجيبون على أسئلة المحققين، ولذلك لم يشأ أحد منهم القيام بأي شيء يمكن أن يكلفنا مصاريف أكثر، أو أن تلف أكثر، مواعيدنا التي تلفت فعلاً.

أتصور أن بعضهم قد انزلق أحياناً، ووجدوا أنفسهم يشتكون من الساعات التي قضوها أمام هيئة المحلفين الكبرى، أو يثرثرون حول «من يمكن أن يكون قد فعلها». في بعض المناسبات، حتى الرئيس نفسه، لم يملك إلا أن يتحدث عن الموضوع. أذكر أنني سمعته في المكتب البيضاوي، أو على متن طائفة الرئاسة يشكو من أنه قد يضطر إلى توكيل محام، ومن احتمال أن يتم استجوابه.

قابل باتريك فيتزجيرالد الرئيس، وبعض أعضاء فريقه لمدة سبعين دقيقة تقريباً في المكتب البيضاوي في نهاية شهر حزيران، يونيو، سنة 2004 بحضور «القاذف» كما كان الرئيس يطلق على محاميه الخاص، جيم شارب. أدلى آل غونزاليز بشهادته أمام هيئة المحلفين الكبرى قبل أيام من ذلك: كما تمت مقابلة نائب الرئيس في أوائل شهر حزيران، يونيو، سنة 2004. ليست لدي أي معلومات بشأن طبيعة الأجوبة التي قدمها الاثنان للمدعين.

مثّل كارل روف أمام هيئة المحلفين الكبرى في الخامس عشر من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2004. وقد أدى مثوله أمام المحلفين قبل أسابيع من إجراء الانتخابات إلى قيام الديمقراطيين باستغلال هذه الفرصة لإطلاق الاتهامات صوب الرئيس. كانت حملة كيري التي تبحث عن مساحة لها في هذه المرحلة المتأخرة من الحملة الانتخابية قد دعت روف والبيت الأبيض «إلى الكشف عن دورهما في هذه الفعلة الشنعاء». وكان هذا المثل الوحيد الذي قام به روف أمام هيئة المحلفين الكبرى قبل الانتخابات، لكنه لم يكن الأخير. في مستهل التحقيق، كان الرئيس قد اتخذ قراراً بعدم إجراء تحقيق داخلي. قال إنه كان يريد أن يذهب إلى أبعد مدى في التحقيق في هذا النشاط المشبوه الذي يحيط بمسلسل التسريب، لكنه لم يأمر أيّاً من أركان البيت الأبيض بالقيام بتحقيق، أو يبادر إلى اتخاذ خطوات لرفع الغطاء عن الحقيقة، أو إطلاع الشعب عليها. اختار الرئيس أن يترك موضوع التسريب وعواقبه للمستشار الخاص حصراً. وذلك - على الأقل جزئياً - بناء على نصيحة تلقاها من محامي البيت الأبيض، وبعض من كبار مستشاريه.

شكلت هذه المقاربة تناقضاً صارخاً مع الطريقة التي قارب بها البيت الأبيض اللفظ الدائر بشأن الكلمات الست عشرة التي قادت إلى الفضيحة. فما حدث في تلك القضية، أنه حالما تم اتخاذ القرار بتحديد الكيفية التي تسربت فيها الكلمات إلى خطاب الرئيس، وصلنا بسرعة مقبولة إلى حقيقة ما جرى، وتشاطرنا المعلومات بأفضل ما نستطيع. لقد كانت مقاربة ذلك اللفظ بهذا الشكل المنفتح والصادق، سبباً في اختصار الوقت الذي كان يمكن أن تبقى موضوعه فيه على رف الأخبار، ووضع حد لأي زخم يدعو إلى إجراء تحقيق خارجي حول هذا اللفظ بشكل خاص في الوقت الذي أيد إجراءه مبدئياً أعضاء الكونغرس من الديمقراطيين.

ولكن عندما أصبح الأمر يتعلق بالكشف عن هوية بليم، تركنا الأمر لتحقيقات خارجية قام بها صحفيون ومدعون عامّون، بحيث أفسحنا المجال للقضية في أن «تتحول بشكل قاسٍ إلى حالٍ دائمة من التشكيك والتقاتل»، كما وصف بوب وودوارد فضيحة ووترغيت في كتابه المعنون: Shadow وتأثيرها على كل من خلف نيكسون.

كان من المفروض إيضاح المخاطر التي رافقت هذه المقاربة. ولكن في خضم الجمعية التي تطفئ على الحياة في البيت الأبيض، فإنك تتعلم أحياناً الدروس الخاطئة من التاريخ، وتخفق في الاعتراف بهذه الحقيقة. يصبح انتباهك مركزاً على حماية الرئيس، لدرجة أنك لا تتبين أنك ترمي بالنرد، وتفقد سيطرتك على المشكلة.

لم أكن أعرف شيئاً عن التسريب، أو عن أسبابه. ونظراً لأن أحداً لم يعلمني بالجهود المبذولة للنيل من مصداقية ويلسون، تعاملت مع الموضوع بكل بساطة، من مبدأ حسن النية، وهكذا كان موقفني من كبار مستشاري الرئيس. اعتقدت، مستنداً في ذلك بدرجة كبيرة إلى التأكيدات المطلقة التي تلقيتها من روف وليبي أن البيت الأبيض لم يكن متورطاً في تسريب معلومات سرية، أو خلق بيئة أدت إلى هذا التسريب. ولكن من المحزن القول إنني علمت أن ما جرى هو العكس من ذلك تماماً.

هل كنت سأتبني هذه المسألة بشكل صريح ومباشر، لو علمت بالحقائق والظروف التي رافقتها، ولو كنت بقيت في عملي فترة أطول، أو لو كانت لدي خبرة سابقة بالتحقيقات الجنائية؟ أظن أنني كنت سأقوم بذلك. كنت وما زلت أعتقد أن عبارة «لا تعليق لدي» تمثل إستراتيجية سيئة في مجال الاتصالات. فهي مثيرة قطعاً للشبهات وتمثل أسلوباً دفاعياً. ولكن في هذه الحال، اضطررت أن أتماشى مع القرار الذي تم اتخاذه؛ وليتني لم أفعل.

تعهد المرشح جورج دبليو بوش إلى انتخابات الرئاسة في حملة سنة 2000 بأن يكون مختلفاً؛ إلا أنه اختار بعد وصوله إلى البيت الأبيض أن يكون على شاكلة من سبقوه. وتتماماً مثلما فعلت رئاسة كلينتون عندما كان عليها مواجهة عملية استجواب، فقد قمنا بتأجيل أوار أعداد لا تنتهي من الفضائح والتحقيقات التي أقسمنا على تجاوزها، وذلك عبر انغماسنا في اللف والدوران، وبناء الجدران العازلة، وإنشاء السياج، والمراوغة، والإنكار، وتغيب منطق الاتصالات، والخداع واللامبالاة.

كان القرار بغزو العراق السبب الحاسم في حرف رئاسة بوش عن مسارها. كما أن تبنيها المفرط للألعاب السياسية المتوضعة في قلب ثقافة الخداع في واشنطن أبقى الرئاسة خارج مسارها. عندما كان يمكن للصدق أن يساعد في التخفيف من كثافة الغبار

السياسي المتساقط بسبب الكشف عن المنطق الرئيس المؤدي إلى الحرب، فقد اخترنا أن نستعمل سياسة اللف والدوران، والمراوغة.

وبينما صبت هذه الأساليب في صالحنا على المدى القصير، ولم تتسبب في أي أذى لمسألة إعادة انتخاب الرئيس - التي كانت غايتنا الرئيسة في البداية - فإن تأثيرها على المدى الطويل قلل من شأن رئاسته ومن مصداقيتها، وأبقى واشنطن عاجزة عن الانتقال إلى حقبة ما بعد الحرب الحزبية التي انغمست فيها على امتداد سنوات سابقة.

أما باتريك فيتزجيرالد، المستشار الخاص، فقد كان مصمماً على القيام بشيء واحد فقط - ألا وهو عمله. وكان هذا يعني أنه غير معني بالتجاذبات الحزبية، أو أي مواعيد مصطنعة من أجل الوصول إلى الحقيقة في ثقافة واشنطن التي تعوزها الحقيقة. ونظراً لكونه غير معروف خارج نطاق فريقه المكون من أعضاء حازمين في روحهم المهنية، فقد تم النظر في توجيه اتهامات بعرقلة سير العدالة لواحد على الأقل، أو ربما اثنين من مسؤولي البيت الأبيض.

ضمن إطار القضايا الكبيرة، لم تساعدنا حكاية التسريب في جهودنا التي نبذلها من أجل مواجهة التحديات في العراق، أو الوضع المتفجر في الشرق الأوسط، أو مصالحنا الأمنية هناك. ما فعلته هذه الحكاية هو أنها أسهمت في استمرار ثقافة الخداع المدمرة في واشنطن، والمتجذرة في مرتعها الخصب المتمثل في الحرب الحزبية التي يخوضها قادتنا المنتخبون في واشنطن. حدث كل هذا في وقت كان الجنود الأمريكيون، رجالاً ونساء، يقاتلون خارج الحدود، ويأملون في العودة إلى الوطن يوماً ما، ويلتئم شملهم مع أحبائهم.

ولكن بالنسبة لنا، نحن المتواجدين في البيت الأبيض أثناء ذلك كله، فليس هناك ما نفعله سوى لوم أنفسنا على هذا الاهتمام الشعبي الذي أثارته قضية التسريب. ما يزال انعدام الصدق والصراحة والأمانة والاستقامة حتى يومنا هذا، يوجب النار التي أشعلها منتقدونا، وي طرح أسئلة حول أمانة الرئيس واستقامته، وهي مزايا كانت يوماً ما، من بين أعظم الصفات التي يتحلى بها.

ضمن ذلك كله، ويا للمفارقة، أبقى البيت الأبيض بنجاح على واحدة من أكثر القضايا إحراجاً وأكثرها ضرراً بعيدة عن التمحيص، وهي القضية الأكبر التي تقع في قلب اللفظ الدائر حول الكلمات الست عشرة: كيف استغل صانعو السياسة المعلومات الاستخباراتية حول العراق من أجل الترويج لقضية أن العراق يشكل تهديداً «خطيراً ومتصاعداً» بشكل يسوغ شن الحرب الاستباقية.

كانت الأسئلة المحيطة بالقضية الأكبر، أعظم من إدراك معنى اتخاذ القرار بغزو العراق، والدروس التي سيقدمها للتاريخ. إن تقصي هذه الأسئلة، بالإضافة إلى قرار الرئيس وكبار مستشاريه الهادف إلى تجنب أي نتائج محتملة للصدق والصراحة حولها، تقع أيضاً في قلب المفهوم الذي حرف الرئاسة عن مسارها، ومنعها من العودة إلى سكتها الصحيحة من جديد.

فبدلاً من الالتزام بالصدق والصراحة عندما كنا بأمس الحاجة إليهما وإلى استعمالهما لصالح الرئيس، فقد قرر تجنبهما خوفاً من أن يتسببا في ضرر سياسي له. وافقه مستشاروه على قراره هذا. وكانت نتيجة ذلك فقدان ثقة الشعب؛ وأضحى هو رئيساً يتعلق بأهداب الاعتقاد أن التاريخ والأجيال القادمة سوف يتفاضون عن الخداع المتجذر في هذه المقاربة، ويلمّع إرثه لو قدر لرؤيته حول النجاح في العراق أن تتحقق في نهاية المطاف.

لكنني لم أر أي دلائل على هذا المنحى منذ شهور طويلة. إلا أنه وبالعودة إلى نهاية سنة 2004، كان الرئيس في طريقه لحفر اسمه في التاريخ بطريقة أخرى: عبر فوزه بجائزة الرئاسة لمرحلة ثانية.

13

الانتصار والوهم

اتجهت صوب المكتب البيضاوي في وقت متأخر من صبيحة يوم الثالث من شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة 2004. كنت أتوقع أن أشهد الرئيس وهو يتلقى مكالمة من خصمه في الانتخابات، السيناتور جون كيري، يعترف فيها بخسارته. كانت ليلة طويلة. حتى بوش الذي ينام باكراً في العادة، بقي مستيقظاً حتى الخامسة صباحاً - وهو الوقت الذي يستيقظ فيه عادة - وكان يخطط أن ينام لمدة ساعتين. غادرت البيت الأبيض نحو الساعة الخامسة والنصف، وعدت إليه بعد عدة ساعات.

كان اليوم السابق قد أعاد إلى ذاكرتي بعضاً مما حدث يوم انتخابات سنة 2000، ما عدا أن (الدراما) هذه المرة حدثت في ولاية أوهايو وليس في ولاية فلوريدا. ففي وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، وقبل أن تغلق مراكز الاقتراع أبوابها في البلاد كلها، كان المزاج معكراً. أدلى الرئيس والسيدة بوش بصوتينهما في كروفرود، ثم توقفنا في ولاية أوهايو قبل أن تقلهما طائرة الرئاسة مع ابنتيهما - ومن كان يرافقهم من كبار المستشارين - إلى واشنطن. وقبل أن نصعد إلى حافلات الموظفين التي كانت ستقلنا إلى البيت الأبيض، سمع دان بارتليت من كارل روف الذي أبلغه ماثيو دود، كبير المشرفين على استطلاعات الرأي لدى الرئيس أن استطلاعات رأي الناخبين الذي أدلوا بأصواتهم تحمل في طياتها أنباء مزعجة للرئيس. هذا التشخيص الذي لا يبشر بخير جعلنا، نحن العاملين في النسق الأعلى من عالم بوش، نشعر بالقلق.

بدا مزاجنا يتغير مع حلول المساء. عندما بدأت النتائج من ولايات مثل جنوب كارولينا وفيرجينيا بالوصول، كان واضحاً أن استطلاعات رأي الناخبين الذين أدلوا بأصواتهم لا تستند إلى أي أساس. كانت النتائج متقاربة جداً ولكنها كانت أميل لصالحنا. ساد نوع من التفاؤل الحذر في الجو. تنقلت بين مكثبي في الجناح الغربي وبين قاعة روزفلت

الملاصقة، التي كانت قد هيئت من أجل الحفلة التي سيقيمها كبار الموظفين للاحتفال بالانتصار. كانت زوجتي جيل، وأنا - كنا قد تزوجنا في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، المنصرم - نستمتع بصحبة الرئيس السابق جورج، إتش، دبليو بوش لعدة دقائق، عندما دخل ليلقي التحية على المستشارين المجتمعين. كانت جيل التي لم تلتق قبل ذلك بالرئيس سعيدة جداً بالتحدث إلى رجل الدولة العجوز، الودود واللطيف. كان الرئيس الحالي يتابع الأخبار من مسكنه الخاص في البيت الأبيض مع عائلته المباشرة والكبيرة - أبويه وأنسبائه، من الأزواج والزوجات - بالإضافة إلى جمع من أصدقائه القدامى.

توجهت فيما بعد إلى غرفة الطعام العائلية القديمة الموجودة أسفل المسكن الخاص مباشرة، والتي كان كارل روف قد رتبها بحيث تصبح جاهزة للاستخدام كغرفة حرب لليلة الانتخابية. كانت متوضعة بشكل مناسب بحيث لا يفصل بينها وبين الرئيس سوى الدرج فيما لو قرر الرئيس أن يعرف ما يجري شخصياً. وقد قام بذلك عدة مرات في تلك الأمسية في الوقت الذي كان على اتصال دائم مع كارل روف بالهاتف. كانت هناك عدة طاولات في أحد جوانب الغرفة وعليها بضع أجهزة كومبيوتر بحيث يمكن لبعض الموظفين ومنهم كارل، مراقبة نتائج الانتخابات في كل ولاية. في الجانب الآخر، كانت هناك شاشة تلفزيون كبيرة ومسطحة، مثبتة على إحدى الشبكات التي تغطي الأخبار السياسية.

كانت الخطة تقتضي بإفساح المجال لعدد محدود من كبار مساعدي الرئيس السياسيين - روف وكبار مساعديه، إسرائيل هيرنانديز وسوزان رالستون، وحفنة من المساعدين الآخرين. ولكن عندما هبط الليل، واستمر السباق الانتخابي متقارباً جداً، فقد وصل بعض كبار موظفي البيت الأبيض كي يطلعوا على آخر مستجدات وجهة هذا السباق. وكنت واحداً من هؤلاء.

بحلول منتصف الليل، بدأت بعض الشبكات تعلن أن فلوريدا قد صوتت لصالح بوش. امتلأت غرفة الطعام العائلية القديمة بأصوات التهاني والابتهاج، وبالرغم من أن روف المهتم بالأرقام شعر أننا فزنا في ولاية أوهايو أيضاً، إلا أن أياً من محطات التلفزيون لم تشر إلى احتمال مثل هذا الفوز بعد. كان آندي كارد قد بدأ بإجراء اتصالات جس نبض

خفيفة مع معسكر كيري محاولاً بكياسة، تشجيعهم على النظر في فكرة إجراء المكاملة التي يتجنب كلا المعسكرين إجرائها، وهي الاعتراف بالخسارة. كان يجري الاستعداد لإقامة حفلة الانتصار في قاعة الاحتفالات في مبنى رونالد ريفان في أسفل الشارع. أما في البيت الأبيض، فقد كنا تواقين جميعاً إلى اللحظة التي سيكون باستطاعتنا فيها الاحتفال، ومشاهدة الرئيس وهو يلقي خطاب الانتصار.

لكن الليلة كانت ما تزال تتحرك بتثاقل. حلت الساعات الأولى، وكانت محطات التلفزيون الوطنية - ربما كانت على جانب كبير من الحذر بعد أن أساءت إلى نفسها جداً في انتخابات سنة 2000 - ما تزال مترددة في إعلان النتائج في ولاية أوهايو ذات حجم الصوت الانتخابي الهائل.

وبينما كان الوقت يخطو باتجاه الساعة الرابعة صباحاً، شعرنا أن كتلة الأصوات المحسوبة لنا والبالغة نحو 150000 صوت انتخابي سوف تمنحنا الفوز في ولاية أوهايو، ومن ثم، ستمنحنا الفوز في الانتخابات. إلا أن الشبكات كانت ما تزال مترددة في إعلان النتائج، وكان كيري وبعض أركان حملته الانتخابية ما يزالون يأملون في أن تعدل نتائج انتخابات المناطق في ولاية أوهايو النتائج. أما في البيت الأبيض، فلم يكن هناك سوى قلة من المستشارين تريد من بوش إعلان الفوز من دون انتظار مكاملة الاعتراف بالخسارة من كيري. كانوا يأملون أن تؤدي هذه الخطوة في تثبيط عزيمة الديمقراطيين لاستدعاء محامين، وتكرار صورة ما حدث سنة 2000. لكن آخرين حثوا الرئيس بوش على الانتظار، وهذا ما كانت عليه الأمور عندما قرر الرئيس أن ينهي تلك الليلة متوجهاً إلى مسكنه الخاص في الساعة الخامسة صباحاً.

تسربت إلينا شائعات بشكل سري عبر مايك ماكوري من حملة كيري، أنه إذا منحننا كيري وقتاً كافياً للتفكير، فإنه سيجري اتصاله بالرئيس. قام بذلك بالفعل في وقت لاحق من ذلك الصباح.

بعد وصولي إلى البيت الأبيض في ذلك الصباح، وذلك بعد أن أخذت قسطاً من الراحة لمدة ساعتين، قصدت المكتب البيضاوي فوراً لمقابلة الرئيس. قلت له: «تهانينا يا سيدي. إنه انتصار رائع».

رد الرئيس: «شكراً يا سكوت، لقد قمتَ بعمل رائع، عمل رائع بالفعل».

بعد ذلك بفترة وجيزة، كان كل من روف، وكارن هيوز، ودان بارتليت، ومايك غيرسون، كبير كتاب خطابات الرئيس، وأنا مع الرئيس في المكتب البيضاوي. كنا نتوقع اتصالاً من كيري في أي لحظة. وكان دون رمسفيد الذي كانت الابتسامة على وجهه تصل ما بين أذنيه، قد أطل برأسه قليلاً لتهنئة الرئيس.

بعد الساعة الحادية عشرة بدقيقتين، أطل مساعد بوش آشلي إيستس وخاطب الرئيس قائلاً: «سيدي الرئيس، السيناتور كيري على الهاتف». قفل الرئيس عائداً إلى مكتبه ليجلس ويأخذ المكالمات. كان بإمكاننا سماع المحادثة فقط من جانب بوش: «أعتقد أنك كنت خصماً مثيراً للإعجاب. لقد خضت حملة قاسية. أمل أن تكون فخوراً بالجهد الذي بذلته. لا بد أنك كذلك».

عندما وضع بوش السماعة بعد ثلاث أو أربع دقائق، قال وصوته يتهدج قليلاً: «هذا لطف كبير منه». ثم بدأت الدموع تنهمر من عينيه. كانت لحظة عاطفية مؤثرة. لقد حجز بوش لنفسه مكاناً في التاريخ عبر فوزه بولاية ثانية. بدأ بمعانقتنا فرداً فرداً. وبدأت دموعنا تنهمر بدورها. كانت تلك المعانقات حميمية ونابعة من الأعماق. بعد عدة دقائق، وصل أندي كارد وانضم إلى مهرجان العناق مع كل من جوهاغن، وبليك غوتسمان، وآشلي. نزل بوش بعدها إلى القاعة حيث يوجد مكتب نائب الرئيس، حيث هنا الاثنان بعضهما بعضاً. اتصلت السيدة بوش بعد دقائق من مغادرته، وبعد مدة وجيزة ذهب بوش إلى مسكنه لرؤيتها وتحضير نفسه قبل خطاب الانتصار الذي كان سيلقيه عصر ذلك اليوم.

أذكر أنني كنت أركن سيارتي تحت مبنى ريفان في مرآب السيارات من أجل الاحتفال عصر ذلك اليوم. كانت حافلات الموظفين ملأى بكبار الموظفين الذين كانت الفرحة تغمرهم. كانت تلك مناسبة لنا كي نستمتع بلحظات من الفرحة الذي حرمانا منه منذ أربع سنوات. في الداخل، كان المبنى يغص بالمؤيدين والموظفين الذين ملأوا المكان بالهتافات.

كانت كلمة بوش مختصرة. شكر فيها مؤيديه والموظفين - مشيراً إلى بعضهم تحديداً بعبارات مثل «المهندس» كارل روف - وماداً يده إلى أولئك الذين صوتوا لخصمه. تحدث

عن العدد الذي لم يسبق له مثيل من الذين أدلوا بأصواتهم، وعن الانتصار التاريخي. ثم تناول موضوع جدول الأعمال التي سيشكل برنامج مدة رئاسته الثانية. قال: «لأننا بذلنا جهوداً جبارة، نحن ندخل الآن موسم الأمل». تعهد بالبدء في عملية التطوير الاقتصادي، وبإصلاح النظام الضريبي، ودعم الأمن الاجتماعي، والاستمرار في تحسين أوضاع المدارس الحكومية. كما أعاد التأكيد على مساعدة «الديمقراطيات الوليدة في العراق وأفغانستان». والاستمرار في الحرب ضد الإرهاب. كانت الكلمة في محلها تماماً وتتناسب مع الروح الاحتفالية. كانت كلمة مفعمة بالأمل وملينة بالتفاؤل بشأن الإنجازات العظيمة التي كان يتطلع إلى تحقيقها في مرحلة ولايته الثانية.

أقام دان صبيحة اليوم الثاني احتفالاً لفريق الاتصالات الذي يرأسه في قاعة روزفلت. قام الرئيس بزيارة مفاجئة لكي يشكر الجميع على ما بذلوه من جهد. عندما انتهى من كلمته، نادى عليّ بأعلى صوته: «أين سكوت؟ هل هو موجود هنا؟»

أشار بعضهم باتجاهي. تابع بوش: «أود أن أعبر عن شكري الخاص لسكوت. لقد قام سكوت بعمل رائع. لم تتسبب في إثارة أي خبر». وتابع بهذه الروح المرحية: «أود أن أشكر لأنك لم تصرح - بشيء».

أثار هذا القول الأخير الضحك الذي يستحقه. لكنه كان يعكس مشاعر بوش المتمثلة في عدم رغبته في أن يقوم سكرتيه الصحفي بإثارة الجدل من دون سبب، وخصوصاً في خضم الحملة الانتخابية. لقد تفوه بكلام مشابه في الحفل الذي أقيم تكريماً لأري فليشر عند رحيله، قائلاً إن فليشر قام بعمل عظيم كونه لم يقل أي شيء على الإطلاق.

عقد بوش في ضحى ذلك اليوم اجتماعاً للحكومة. قال في بداية الاجتماع: «أتوقع أن تحاك شائعات وتوقعات حول تغييرات في المناصب الحكومية في مدة حكمنا الثانية. حسن، يمكن أن تحدث بعض التغييرات، ولكن لم يتسن لي الوقت بعد، للتفكير في هذا الموضوع». تحدث بعد ذلك عن أهداف المرحلة الثانية من الولاية. تحدث عن مزايا الوصفات الطبية في الرعاية الصحية - التي ستوضع موضع التنفيذ قريباً - وكذلك عن الحاجة إلى أن تصبح مدخرات المتقاعدين المقترحة «واقعية وحقيقية». على الصعيد

الداخلي، ساعد موضوع التعليم بوش على الفوز بالانتخابات وذلك عبر تحديد قضية يعتبرها الديمقراطيون حكراً عليهم، لا بل نجح في تحويلها إلى نقطة قوة بالنسبة للجمهوريين لأننا، كما قال، نملك «فلسفة ورؤية».

سوف تشكل المرحلة الثانية فرصة لتعزيز موقع بوش في التاريخ. إن إعادة صياغة أفكار الديمقراطيين حول التعليم، والرعاية الصحية، والضمان الاجتماعي ضمن أطر المحافظين أسهم في نزع احتكار الديمقراطيين لهذه القضايا الجوهرية لسنين عديدة قادمة، أو، على الأقل، هذا ما اعتقده كل من بوش وكارل روف. ومع وجود أغلبية جمهورية في مجلسي النواب والشيوخ، فقد اعتقد الرجلان - على الأخص، روف - أن بالإمكان إطلاق عصر جديد من سيطرة للحزب الجمهوري ليكون جزءاً من إرثهما الشخصي.

أبلغ الرئيس الحكومة بأنه سوف يدفع بقانون إصلاح تحديد المسؤولية الطبية، وسوف يصر على الانضباط المالي، ويسعى إلى استصدار قانون للطاقة، ثم يلتفت بعدها إلى ثلاث من أكبر المبادرات الداخلية: الضمان الاجتماعي، والإصلاح الضريبي، وإصلاح الموازنة.

ولكن الأهم من ذلك كله، أن الرئيس أكد أن مقاربته للحكم سوف تكون على المنوال نفسه الذي كانت عليه إبان مرحلة ولايته الأولى. سوف تستمر الحملة الدائمة. أوضح بوش أن الكيفية التي سنسوق فيها القضايا الكبرى هي على قدر كبير من الأهمية في الوقت الذي نتحرك إلى الأمام. لقد استطعنا تسويق أهدافنا عند الشعب الأمريكي وكان بهذا يشير إلى الانتصار الذي تحقق في الانتخابات. أكد للحكومة أنه عندما كان الأمر يتعلق بتسويق أهم القضايا في جدول أعماله «فإننا سنندفع لإتمامه». يجب أن يتم التركيز على تغيير منحنى الرأي العام، ومن ثم الضغط على الكونغرس لدعم موقف الإدارة.

كانت تلك فلسفته في ممارسة الحكم، وكان يشاطره إياها كارل روف، الذي التفت الآن للحديث عنه. فلقد امتدح بوش روف واصفاً إياه «بالمهندس اللماح» الذي يستنبط «الإستراتيجية الكاملة»، من أجل إعادة الانتخاب؛ وقد أدار «حملة إعادة انتخاب لا تشوبها شائبة». لقد كانت الحملة تدار بشكل لا يصدق. كانت تقف إلى جانبنا حشود

جماهيرية كبيرة ورائعة». ومن البديهي القول إن هذا المهندس يكرس اهتمامه لإدارة حملة «تسويق القضايا الكبيرة» للشعب الأمريكي. لقد بدا وكأن يوم الانتخاب ما هو إلا محطة في رحلة لا تنتهي.

بعدها أدلى تشيني ببعض التعليقات. فقد تذكر أنه سبق له أن ناقش خطأ مع الرئيس في هذا الوقت نفسه منذ أربع سنوات. قال نائب الرئيس: «أتذكر الحديث الذي دار بيننا بعد إعادة عد الأصوات في انتخابات سنة 2000، وكان الحديث حول ما إذا كان علينا التخفيف من نشاطنا؛ وأذكر أنك قلت إن ذلك ليس خياراً، وقد أتى أكله. التفويض هذه المرة هو في غاية الوضوح». (لم يلحظ أحد في هذا الحديث عن مبدأ «التفويض» أن الانتصار بهذا الفارق الضئيل، هو من أضيق الهوامش في أي حملة إعادة انتخاب في تاريخ الرئاسة.) قال تشيني إن السنوات الأربع المقبلة تمثل «فرصة لإتمام المهمة».

تحول الحديث بعد ذلك باتجاه موضوع العراق. قال كولن باول وزير الخارجية إن «العراق يحتل الأولوية في أذهاننا. إننا نعمل للتحضير للانتخابات سنة 2005، ولا بد من وضع حد للخروق الأمنية، وعلى الأخص في المثلث السني».

تدخل الرئيس قائلاً: «كانت لحظة حاسمة في تاريخ أفغانستان عندما تمت الانتخابات، يجب أن تؤمنوا بأن الناس توافقون إلى الحرية، حتى في المناطق المحرومة. العراق سوف يغير العالم». لكنه اعترف بأن النتائج المتوخاة التي يتم التوصل إليها يمكن أن تكون «قبيحة».

تحدث وزير الدفاع، دونالد رمسفيلد عن أسر العسكريين، وعن آبائهم وأمهاتهم. قال: «لم أتوقف عن التفكير بهم. لا بد أن نتيجة الانتخابات هي مصدر اطمئنان [لهم]». تحدث كيف أن الشعب العراقي كان «يقاوم التخويف» وسط «الإجراءات القاسية» التي كان عليهم مواجهتها - وكان بذلك يلمح بشكل غير مباشر مثل كولن باول، إلى الفوضى والقتل في مناطق مثل الفلوجة حيث كان المخربون والإرهابيون يتسببون في الكثير من الخراب. كما أكد على أهمية الانتخابات العراقية القادمة في شهر كانون الثاني، يناير، لانتخاب الجمعية الوطنية الانتقالية.

وافق الرئيس على ذلك قائلاً: «الانتخابات مهمة من دون شك. إنها ترغب الناس على الاختيار. فإما أن يفوتهم القطار، أو يستقلون قطار» الديمقراطية. أضاف بوش أنه تحدث إلى قادة عراقيين أمثال الياور وعلاوي حول نتائج انتخابات الرئاسة الأمريكية، وقالاً إنهما «مرتاحين» لفوز بوش.

قال رمسفيلد: «كانوا سيتحولون إلى خبز محمص لو خسرت».

أجاب بوش: «خبز فرنسي محمص». انفجر جميع من كان بالقاعة بعدها بالضحك. أوضح كل من خطاب الانتصار والاجتماع الحكومي بما لا يدع مجالاً للشك طريقة تفكير بوش لكل من كان يعرفه. كان مصمماً حتى النهاية على التقدم إلى الأمام بعقلية هجومية لتسويق أفكاره الكبيرة، وحفظ مكان له في التاريخ. اعتقد أن الانتخابات كانت بمنزلة تصديق على سياساته في المرحلة الرئاسية الأولى، بما في ذلك قراره بغزو العراق، ومنحته تفويضاً لتنفيذ خطط وأهداف مرحلة الولاية الثانية التي حدد معالمها. الآن أصبح عليه القيام بأفضل ما يجيد فعله - شن الحملات، قرر القيام بجولات في طول البلاد وعرضها، مسخراً الآلة الإعلامية لصالحه، والفوز بمعركة كسب الرأي العام مركزاً على كل صوت انتخابي، وكل استطلاع للرأي، وكل ولاية على حدة. لا بد أن يضطر الكونغرس قريباً جداً للإذعان والجلوس إلى طاولة المفاوضات بشروط بوش. ولن تكون هناك منذ البداية أي حاجة إلى الثنائية الحزبية التي تعتمد مبدأ الأخذ والعطاء والحلول الوسط. هذه الأساليب التي شكلت العامل الحاسم في نجاح بوش في ولاية تكساس، لا مكان لها في اللعبة السياسية المعتمدة في واشنطن.

كانت تلك الروحية نفسها واضحة في المؤتمر الصحفي الأول الذي عقده بوش بعد إعادة انتخابه. فقد أعرب عن نيته في الإنفاق من «رأسماله السياسي» في سبيل تنفيذ أهدافه المبهمة بدءاً بموضوع التدقيق بالضمان الاجتماعي؛ وعندما حوِّصر في مسألة التعاون مع الديمقراطيين، قال بوش إنه راغب في القيام بذلك. حتى أنه ألمح بشكل عابر إلى مسألة توحيد الأمة، وهو الموضوع الذي كان أحد موضوعات جدول أهدافه منذ أربع سنين. قال بوش: «أحد مظاهر خيبة الأمل الناجمة عن التواجد في واشنطن يكمن في

المراة والعقلية التقسيمية اللتين تنتجها هذه المدينة، لا ألوم هنا هذا الحزب أو ذاك. هذا هو واقع الحال في واشنطن دي سي، وأحياناً تتفاقم هذه المشكلة بسببكم [يقصد وسائل الإعلام]. لأن في هذا تسلية عظيمة لكم. هي كذلك في الواقع - إنها مسلية بالنسبة للبعض. وهذا ما يجعل ممارسة الحكم عملية صعبة أحياناً. ولكن، وبغض النظر عن كل ذلك فإن التزامي بالتعاون مع الديمقراطيين «ما يزال موجوداً».

لكن بوش أوضح أيضاً أنه إذا كان عليه الدفع بشيء يحتاج فيه إلى دعم قليل من الديمقراطيين كما فعل بالنسبة إلى مشروع قانون الوصفات الطبية تحت مظلة الرعاية الصحية، فإنه سيقوم بذلك. قال: «النتائج تهمنا بالتأكيد»، وكان من الواضح بالنسبة لبوش، أن «النتائج» تعني تنفيذ جدول أهدافه بالطريقة التي تراءت له (ولرؤف) - وليست نسخة مبللة لطختها تدخلات من الديمقراطيين. بالعودة إلى الوراء، يتضح أن الالتزام بالترفع عن الصراعات الحزبية كان مسألة تعوزها الحماسة.

كان العراق ما يزال بطبيعة الحال، يشكل الأولوية المطلقة. فقد أكد الرئيس في مؤتمره الصحفي على الرأي نفسه الذي تحدث بشأنه مع فريقه في مجلس الأمن القومي في لقاءات خاصة: إنها فقط مسألة وقت قبل أن تتحول الديمقراطية في العراق إلى واقع. سيندفع العراقيون إلى الأمام، وسيتحملون مسؤولياتهم في مجال الأمن، ومن ثم، فإن البحث في سحب القوات الأمريكية يمكن أن يصبح مسألة جدية. وقد عدت الانتخابات القادمة في شهر كانون الثاني، يناير، لحظة تاريخية في هذه العملية. قال بوش: «سنتعاون مع حكومة علاوي للوصول إلى مبتغانا الذي يتمثل في الانتخابات في سبيل تحقيق الاستقرار، وسوف نستمر في تدريب القوات العراقية. وسيكون بإمرة قادتنا العسكريين كل ما يحتاجونه لإكمال مهمتهم».

كان كل ذلك جزءاً من رؤية بوش المثالية حول العراق كمنصة إطلاق لتغيير الشرق الأوسط. وقد دافع عن هذه الرؤية في مؤتمره الصحفي. قال: «هناك أسلوب يتبعه بعضهم في العالم، مفاده أن محاولة الدفع بمجتمعات باتجاه الحرية هي مضيعة للوقت.

لقد سمعت بهذه الانتقادات... إنني أعارض بشدة أولئك الذين لا يرون الحكمة في محاولة دعم حرية المجتمعات في شتى أرجاء العالم. إذا كان يهمننا الدفاع عن بلدنا على المدى الطويل، فإن أفضل الطرائق للقيام بذلك يكمن في نشر الحرية والديمقراطية».

كانت خطط وأهداف مرحلة الولاية الثانية مبهمة تماماً: إصلاح بعض من أكبر البرامج المحلية وأكثرها إثارة للجدل، خلق الظروف الملائمة للإبقاء على أغلبية جمهورية دائمة، وفي الوقت نفسه، تحقيق النصر في حرب خارجية كبيرة، والبدء نتيجة لذلك بتغيير منطقة ملتهبة إلى واحة من السلام والديمقراطية. لكن بوش وبعضهم من أركان فريقه كانوا واثقين من ذلك. كانت ثقتنا كبيرة بأسلوب قيادة بوش المتمثل بمبدأ كف اليد، وهو ما وضع الكثير من التفاصيل الحاسمة بين أيدي أعضاء تابعيه في فريقه الموثوق. وبعكس كل من الرئيسين جونسون وكارتر اللذين غرقا في كومة من الطعالب نتيجة ولعهم بالتفاصيل الدقيقة، فإن بوش كان يلتزم بالصورة الشاملة، ومن ثم كان يحقق النجاح على عدة جبهات في وقت واحد.

كان كبار مستشاري بوش للشؤون الإستراتيجية والسياسية يعتقدون أنهم استوعبوا حقيقة الكيفية التي تمكنهم من الانتصار على طريقة واشنطن. ولكن هل كانت ثقتهم بالنفس حول «التفويض» الممنوح لنا مبنياً على أساس من الوهم؟ وهل تعرض أحدهم لواحد من الأخطار الدائمة التي يواجهها القائمون على الحملات الناجحة - مؤمنين بعالمهم الذي يدورون فيه، ومتجاهلين كم كان الدعم الشعبي لبوش مهزوزاً؟

السنتان القادمتان سترويان الحكاية. أما الآن، فإن بوش العاقد العزم والممتلئ بالحماس، وفريقه في البيت الأبيض الذي استعاد زخمه ونشاطه يندفعون إلى الأمام يقودهم الإحساس بالانتصار.



غادر بوش برفقة السيدة بوش إلى كامب ديفيد في عصر يوم الخميس ذاك، لتصفية ذهنه والاسترخاء بعد حملة شرسة. ولكنه كان سيبدأ نقاشاً جدياً مع آندي كارد حول حكومته وكذلك حول طاقم البيت الأبيض. كان بعض أعضاء الحكومة يخططون لترك

مناصبهم. وكان آندي يشجع بعض أعضاء الحكومة الآخرين على النظر في المكاسب التي سيجنونها جراء تقديم استقالاتهم بدلاً من الانتظار إلى حين إقالتهم.

التغيير بين الحين والآخر مسألة مهمة جداً للمحافظة على حيوية البيت الأبيض. يحتاج الرئيس إلى كم كبير من النصائح الحكيمة والصادقة وواضحة الرؤية. يمكن للدم الجديد أن يساعد في الإبقاء على هذه المصادر حيوية ونشطة. أكثر من ذلك، إن العمل عضواً في فريق كبار الموظفين في البيت الأبيض ينهك صاحب العلاقة ويستهلكه، وهو بمنزلة طريق تحرق صاحبها. وكلما طال عليك الوقت كموظف داخل جو الخداع في البيت الأبيض، أصبح من الصعب عليك أكثر رؤية الأشياء بوضوح وموضوعية. ولذا تصبح معرفة متى وكيف يمكن إجراء التغيير، مسألة مهمة جداً للرئيس ورئيس أركانه.

كان آندي كارد يستوعب ذلك كله. فقد حذر العديد منا، نحن العاملين المستقبليين في الجناح الغربي منذ البداية أن أحد أهم الأشياء التي علينا معرفتها هي «متى يتعين علينا تقديم الاستقالة». انطلق كارد الآن إلى كامب ديفيد لتشجيع الرئيس كي يبدأ بهذه العملية بتعيين رئيس أركان جديد للبيت الأبيض.

بقيت على اتصال وثيق مع آندي خلال مدة التخطيط. كانت طاحونة الإشاعات في واشنطن قد بدأت في تخميناتها حول التغييرات القادمة، ولم أشأ أن أكون غير مدرك لما قد يحدث فجأة في أي لقاء صحفي. في الوقت نفسه، فهمت أن هذه العملية ستكون في غاية السرية. كان الرئيس يؤمن بوجوب إبقاء الخطط سرية إلى أن يتم وضع اللمسات الأخيرة عليها. كان آندي والرئيس يطلبان مشورة بعض المستشارين الموثوقين؛ وكان مكتب مستشار البيت الأبيض يدقق بهدوء في كل الوجوه الجديدة المحتمل تعيينها في ملاك البيت الأبيض. كان يتم عادة تداول بعض الأسماء المحددة ضمن الدائرة الداخلية، وعندها كنت اكتشف ما يجري، هذا إذا لم يكن الرئيس نفسه يعلمني بذلك. كان الهدف من ذلك الاستفادة القصوى من التغييرات في الوقت نفسه تقريباً، وتشكيل حكومة متكاملة لمرحلة الولاية الثانية قبل نهاية السنة.

يوم الجمعة في كامب ديفيد، شارك الرئيس أيضاً في اجتماع لمجلس الأمن القومي حول العراق، وقد قدم كل من الجنرال أبي زيد، رئيس القيادة المركزية، والجنرال كيسي، رئيس مسرح العمليات في العراق، وجون نيغروبونتي، السفير الأمريكي في العراق رؤاهم عبر بث الدائرة المغلقة التلفزيوني.

كان الوضع في مدينة الفلوجة الموضوع الرئيس في النقاش، وهو موضوع أثار القلق منذ نهاية المعارك الأولى قبل ثلاثة أشهر. كان المخربون ما يزالون يسيطرون على المدينة، كما أن بوش وفريقه قرروا أن هؤلاء المخربين يجب أن تتم هزيمتهم مرة وإلى الأبد، وقبل حلول موعد الانتخابات. في الأسبوع الأول من شهر تشرين الثاني، نوفمبر، حذر رئيس الوزراء، المالكي علناً المتسللين أن النافذة المفتوحة لهم للوصول إلى تسوية سلمية مع الحكومة تغلق بسرعة؛ وأن القوات الأمريكية بدأت بمهاجمة المدينة بالفارات الجوية ونيران المدافع. وسوف تتضمن القوات العراقية قريباً إلى القوات الأمريكية في حرب دموية ومكثفة داخل المدينة نفسها، تحت مسمى: عملية غضب الشبح. وسوف تطبق القوات الأمريكية والعراقية على المدينة بشكل كامل خلال بضعة أيام، تنتقل بعدها إلى عمليات تمشيط بحلول منتصف الشهر.

ولكن خلال تلك المدة نفسها، وقعت عمليات عنف أكبر في مناطق أخرى من العراق، مثل مدينة الموصل. كان ذلك بداية لما أطلق عليه بعضهم معركة عصر «التغلب على الخلد» ضد المتسللين: اهزمهم في مكان ما، وسيخرجون عليك من مكان آخر.

صباح يوم الاثنين الثاني، وبعد عودة الرئيس من كامب ديفيد، قام بزيارة نادرة إلى حيث اجتماع كبار الموظفين في قاعة روزفلت. قال: « اتخذت قراراً واحداً، طلبت من آندي البقاء في منصبه رئيساً لأركان البيت الأبيض. صفق كبار الموظفين، وعبر آندي عن عميق امتنانه للشرف الذي حظي به.

كانت الرسالة هنا توحى بالاستمرارية وليس التغيير. إنتي معجب جداً بآندي كارد. كنت دائماً أعده واحداً من أشرف العاملين في إدارة بوش. وكان آندي نفسه يعتقد أنه من الأفضل بالنسبة إلى البيت الأبيض تغيير رئيس أركانه. وكما أخبرني آندي بنفسه

في وقت لاحق، فقد حث الرئيس على إجراء مثل هذا التغيير، لكن هذا الاقتراح جوبه بالرفض القاطع. بالعودة إلى الوراء، فقد كان ذلك ينبئ بما سوف يأتي لاحقاً فيما يتعلق بعملية التغيير في الولاية الثانية.

اعتاد الناس أن يسألوني عن سبب الولاء الشديد الذي يظهره أركان بوش له. وكنت أجيب: «نحن موالون له، ولكنه هو موالٍ لنا أيضاً. إنه طريق باتجاهين. إن ولاءنا المتبادل يغذي بعضه بعضاً.

يحب بوش الإبقاء على ما اعتاد عليه، ولا يحب التغيير، خصوصاً فيما يتعلق بأعضاء أساسيين في فريقه كان قد منحهم ثقته واعتمد عليهم. أدى ذلك إلى نشوء رباط قوي بين بوش وبين عدد منا، أي من كبار الموظفين، وخصوصاً أشخاص تكساسيين وآخرين مثل أندي. كانت جاذبيته الشخصية وطبيعته التلقائية عاملاً مهماً في خلق بيئة عمل ممتعة حيث يرغب الناس في أن يبقوا حيث هم - ربما أكثر مما يجب.

كانت قدرة جورج دبليو بوش على استلهاً مثل هذا الولاء مظهراً من مظاهر القوة الكبيرة لديه «بصفته شخصاً». أما بالنسبة إلى بوش «الرئيس»، فقد كانت مصدر ضعف كامن أيضاً. إن الإزعاج الذي يسببه التغيير لبوش يجعل من الصعب عليه التراجع عن العلاقات القوية التي ينشئها، واتخاذ قرارات واضحة حول ما هو أفضل.

بالعودة إلى الماضي، يبدو من الواضح أن فرصة قد ضاعت مع بداية مرحلة الولاية الثانية المتمثلة في تعيين أشخاص لهم رؤية وآفاق جديدة في فريق البيت الأبيض، وفي فريق مجلس الأمن القومي. بدلاً من ذلك كله، شاهدنا تعزيزاً لمواقع الفريق ذي اللون الواحد داخل الحكومة، وداخل البيت الأبيض. خصوصاً بين كبار المستشارين في مجلس الأمن القومي. كانت هناك تغييرات؛ لكن تلك التغييرات زادت من وتيرة التجانس في الرأي بينهم وبين أذن الرئيس.

خرج وزير الخارجية كولن باول. أبلغني كارد فيما بعد أن باول وبوش اتفقا سابقاً على أن يبقى في منصب وزير الخارجية حتى انتهاء الولاية الأولى. ومع حلول موعد المرحلة

الانتقالية، أعاد باول النظر في موقفه وكان على استعداد لإعادة النظر في مسألة البقاء مدة أطول ضمن شروط محددة. ولكن بعد الاجتماع معه لمناقشتها، اتفق الرجلان على أن موعد الفراق قد حان.

كنت أشعر بالأسف لرحيل باول، مثل الكثيرين من الأمريكيين. كنت أعرف فيه الشخص الذي يقدم النصيحة الصادقة والمباشرة المبنية على سنوات طويلة من الخبرة كقائد عسكري، وكخبير في السياسة الخارجية. أكثر من ذلك، لم يتردد أبداً في التعبير عن مواقفه بوضوح.

لكن الرئيس شعر على ما يبدو أنه لم يعد بحاجة إلى صوت باول المعتدل كي يضعه في مواجهة آراء صقور مثل تشيني ورمسفيلد. وقد تم إبداله بكوندي رايس الموثوقة جداً، والمتكيفة جداً، والتي كانت أكثر من مستعدة لتغيير موقعها كمستشار للأمن القومي. كانت الضغوط والتحديات الهائلة تحيط بهذا المنصب من كل حذب وصوب - بالإضافة إلى اللفظ المتزايد بشأن العراق منذ مدة قريبة. كان بإمكانني التنبؤ بأنها كانت تتوق إلى بداية جديدة في موقع آخر، وكان منصب وزير الخارجية هو الموقع الوحيد الذي كانت تطمح إلى احتلاله، باعتقادي.

شعر بعض أعضاء فريق بوش، بمن فيهم الرئيس نفسه، بأن رايس قادرة على ضبط بيروقراطيي وزارة الخارجية (بمن في ذلك الكادر الموالي للديمقراطيين) ضمن خط سياسة الإدارة، سواء كانوا متفقين معها أم لا؛ بعكس كولن باول الذي أوكل الكثير من المسائل إلى الدبلوماسيين المحترفين المختصين بالشؤون الخارجية. هذا الموقف الذي اتخذته، بالإضافة إلى آرائه السياسية المستقلة، جعل بعض العاملين في مؤسسة السياسة الخارجية يعتبرون أنه لم يكن يتصرف ضمن روحية الفريق. باعتقادي، كان مثلاً على ما تدل عليه عبارة روحية الفريق من معنى. لقد كان يبحث عن مصالح الشخص الذي يعمل في خدمته، وكذلك في خدمة بلاده التي أقسم على الولاء لها بكثير من العناية والحكمة. كان من الخطأ عدم إيجاد طريقة تؤدي إلى الاحتفاظ به.

من الصعب على المرء القول إنه يعرف كوندي رايس. إنها تلعب وهي تضع أوراقها قريباً جداً من صدرها، وتحفظ عادة بأرائها لتناقشها مع بوش في جلسات خاصة. بمرور الوقت، أدهشتني بحصافتها التي حمت سمعتها بواسطتها، وبفض النظر عن الأخطاء التي يمكن أن ترتكب، فإنها كانت قادرة دوماً على إبقاء يديها نظيفتين، حتى عندما تكون المشكلات ضمن نطاق سلطتها المباشرة بما في ذلك موضوع أسلحة الدمار الشامل التي كانت الدافع وراء الحرب في العراق، وقرار غزو العراق، والكلمات الست عشرة في خطاب الرئيس حول حال الاتحاد، وإستراتيجية التخطيط والتنفيذ لمرحلة ما بعد الحرب في العراق. يقول بعضهم إنه كان عليها أن تدفع بقوة أكبر باتجاه لفت الانتباه إلى التهديدات وتوجه أنظار البيت الأبيض نحو موضوع الإرهاب قبل وقوع هجمات الحادي عشر من أيلول. بالرغم من أنها كانت كبير مستشاري الرئيس لشؤون السياسة الخارجية، ومنسق فريق الأمن القومي، فقد جبرت المسؤولية عن هذه الأمور لتقع بدرجة كبيرة، على عاتق أشخاص مثل مدير وكالة المخابرات المركزية السابق جورج تينيت، وبول بريمر، ودون رمسفيلد، وكما يحب الرئيس بوش أن يقول، إذا كان ما يهم هو النتائج، فإن التاريخ لا بد أن يحكم عليها بقسوة باعتبارها الشخص المسؤول عن الإشراف على رسم عدد من السياسات الحاسمة - والسيئة الطالع، أقله على المدى القريب - الإدارة بوش.

ولكن مهما كان نوع الأخطاء التي ارتكبتها في مجال إدارة السياسة، فقد كانت بارعة في مجال العلاقات العامة. كانت تعرف كيف تتأقلم مع الإزعاجات المحتملة، وتتجاهل المشكلات الكامنة، وتخرج من هذا كله وهي تشع كنجمة. لا يستطيع سوى القلة من الناس التصرف تحت الأضواء بطريقة أفضل؛ بالطريقة التي تعلق فيها على الأخطاء بفصاحة تلقائية وسلسة، ونزوعها نحو التقليل من شأنها.

لكنها كانت في اللقاءات الخاصة تمتدح حدس بوش وتعززه، بدلاً من انتقاده أو طرح تساؤلات بشأنه. وبمقدار ما أستطيع قوله استناداً إلى الاجتماعات والمناقشات الداخلية، فقد انتظمت كوندي بشكل لا عودة عنه، في مسار تفكير بوش. وإذا لم تكن هي من يحدد

له مسار تفكيره، فإنها بالتأكيد تعرف كيف تقرأه، وكيف تترجم أفكاره ومشاعره وميوله، وتحولها إلى سياسات ملموسة.

بدأت رايس بداية قوية في منصبها الجديد كوزيرة للخارجية. ونظراً لأن المكون الأساسي لهذا المنصب يرتكز إلى الدبلوماسية العامة، ولدوره القوي في مجال العلاقات العامة، فقد كان مناسباً جداً لشخصيتها الطيبة أو المرنة وقد أحاطت نفسها بفريق عمل موثوق ومجرب خدم مصالحها بشكل جيد.

تمت ترقية ستيف هادلي من موقعه كنائب للمستشار، إلى منصب مستشار الأمن القومي. لعب هادلي البعيد عن الأضواء، ذي الشخصية المستوية، والذكي الذي لا يكل ولا يتعب، في معرض اهتمامه بالتفاصيل، دور ميسر الأمور بالنسبة لطريقة تفكير الرئيس، ومجلس الأمن القومي التابع له. كان يعمل لساعات طوال، وكان في المحصلة يعلم أنه يعمل في خدمة شخص واحد، ألا وهو الرئيس بوش. لكنه كان يتأكد من أن كل مسؤول تابع له لا بد وأن يطلع على التفاصيل كي يكون باستطاعته تقديم كل ما يلزم في مجال السياسة. ولذلك فإنه لم يتم عزل أحد أو تهميته.

ذكرت بعض التقارير فيما بعد أن آندي كارد أجرى عملية إصلاح كاملة في فريق مجلس الأمن القومي، بما في ذلك استقالة دون رمسفيلد. كان هذا يبدو معقولاً بالنسبة إلي بالرغم من أن آندي لا يمكن أن يقر بذلك علناً. (شعر بأن دوره وسيطاً نزيهاً في العملية السياسية يتطلب منه هذا من النوع الحصافة). على أي حال، قرر الرئيس أن على رمسفيلد أن يبقى. رمسفيلد ذو شخصية قوية، لا يكل ولا يمل من السعي لتحقيق أهدافه، وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن سنوات خدمته الطويلة في المجال الحكومي وخبرته المشتركة تجعله ملماً بدقائق الأمور بطريقة فريدة، وتؤهله لكي يكون الحكم الوحيد على قراراته. كان بوش يبدي دوماً اهتماماً عظيماً به - أكثر مما ينبغي. أحياناً. وكان إبقاؤه في منصبه مع بداية مرحلة الولاية الثانية يعني أن وزارة الدفاع ستدار على المنوال نفسه؛ وهو المنوال الوحيد الذي يجيده رمسفيلد - أي على طريقته.

تم إجراء تغييرات في بعض المواقع الرئيسية في الإدارة. فقد تولى آل غونزاليز الذي شغل منصب مستشار البيت الأبيض خلال مدة الرئاسة الأولى، وزارة العدل. كان غونزاليز من أشد الموالين للرئيس، وهو صديق ومساعد له منذ أيام تكساس، وكان يخدم مصالح الرئيس بكثير من الولاء إلى أن وصل هذا الأخير إلى البيت الأبيض. لقد تعامل مع منصب مستشار البيت الأبيض كما لو كان المعامي الشخصي للرئيس: فقد كان يعمل بجد لإيجاد الحجج القانونية والحماية اللازمة لأكثر الخيارات السياسية التي تقوم بها الإدارة إثارة للجدل. وتضمنت هذه بشكل خاص بعض المواقع التي كان يؤدي تشيئي ومستشاره ديفيد أدينغتون من الداخل دور البطل فيها - على سبيل المثال، قرار توسيع الصلاحيات التي تسمح باستخدام أساليب الاستجواب التي كان من المحرم استعمالها ضد المحتجزين في قضايا الإرهاب: وكان موقف الحكومة يتمثل في أن «المقاتلين الأعداء» الذين يعتقلون في الحرب ضد الإرهاب، لا تنطبق عليهم الحماية التي تفرضها اتفاقية جنيف، وكذلك قرار استخدام المحاكم العسكرية بدلاً من المحاكم المدنية لمحاكمة المشتبه فيهم في قضايا الإرهاب.

من السهل تبيان الأسباب التي حدثت بالرئيس، الوفي لأصدقائه القدامى والموثوقين، والكاره للتغيير، كي يرغب في أن يكون غونزاليز في منصب المدعي العام. (تمت تسمية هاريت ميرز، من تكساس أيضاً للحلول محل غونزاليز في منصب مستشار البيت الأبيض.) لكن عملية الانتقال هذه أثبتت أنها ستثير مشكلات أكثر مما توقعها أي منهما. لا بأس في أن يكون مستشار البيت الأبيض موالياً بشكل شخصي للرئيس؛ لكن هذا يصبح أكثر مدعاة للتساؤل عندما يكون هذا الشخص في منصب المدعي العام الذي تتطلب وظيفته أن يكون محايداً في تطبيق قانون البلاد، حتى لو ألحق ذلك الضرر بالرئيس والحزب الذي ينتمي إليه.

تمت الموافقة على تعيين غونزاليز في هذا المنصب بأغلبية ضئيلة استندت بشكل رئيس إلى الولاء الحزبي، حيث صوت ستون عضو مجلس شيوخ (ستة منهم فقط من الديمقراطيين) لصالحه بينما عارضه ستة وثلاثون عضواً (جميعهم من الديمقراطيين)؛

ويعود ذلك إلى المواقع السابقة المثيرة للجدل، والتي شغلها غونزاليز. كان هذا التقارب في نتيجة التصويت ينبئ بما تعنيه عبارة المشكلات المرتبطة بتولي المنصب، ونظراً لعدم قدرته على الفصل بين موقعه وبين علاقته الوثيقة مع الرئيس، ولعجزه عن إظهار نوع من الاستقلالية، ولارتباطه الشديد بالمكائد السياسية الدائرة في البيت الأبيض، فقد وجد آل نفسه متورطاً في العديد من القضايا المثيرة للجدل والضارة، بما في ذلك تلك القضية التي ما تزال تثير الكثير من الشبهات، والتي تتمحور حول ما إذا قامت وزارة العدل بعزل عشرات من المدعين العامين الأمريكيين بسبب انتماءاتهم الحزبية. وبعد أن وقع في خضم من سياط الاتهامات والاتهامات المضادة، انتهى الأمر بآل إلى تقديم استقالته في شهر آب، أغسطس، سنة 2007، وكان هناك ما يشبه الإجماع في أن مدة توليه منصب المدعي العام لم تكن لها فاعلية تذكر.

كانت هناك وزارة أخرى في الحكومة بحاجة إلى قيادة جديدة مع مستهل مرحلة الولاية الثانية، وهي وزارة الأمن الداخلي، التي ما تزال في مراحل طفولتها الأولى، والتي ما تزال تحاول تحديد هويتها ومهامها. فالتكديس الهائل والفوضوي للعشرات من الوكالات المستقلة التي تم تجميعها تحت مسمى واحد، وتركز على هدف جديد (التهديد المادي «للوطن» الأمريكي) يتعارض أحياناً مع التفويضات القديمة، أدى إلى عرقلة العمل في وزارة الأمن الداخلي بسبب الصراعات البيروقراطية الداخلية، والتحديات المتعلقة بالتنسيق بين مختلف مكوناتها، والمعقدة بشكل لا يصدق، ومعنويات العاملين المنخفضة.

كانت الوزارة بحاجة إلى قائد ذي مهارات عظيمة، وإمكانية إدارية، ورؤية قوية استشرافية، بالإضافة إلى نزاهة غير مشكوك بها. ولكن لسوء الحظ، فقد كان الشخص الأول الذي اختاره الرئيس بوش لهذا المنصب لا يمتلك أيّاً من تلك الصفات - وهو برنارد كيريك، أمين شرطة نيويورك السابق الذي وصّى به بخرارة، عمدة نيويورك السابق، رودولف جولياني.

كانت هناك صداقة وثيقة تربط جولياني بكيريك، وهي صلة شبيهة بالصلة التي تربط بين بوش وبين بعض الموالين التكساسيين له. بالعودة إلى الماضي، يمكن القول إن

علاقتها كانت وثيقة جداً. فقد قادت هذه الصداقة الوثيقة جوليانى إلى إغفال حقيقة أن هناك العديد من الأفعال غير الأخلاقية التي لطخت إلى درجة كبيرة سجل كيريك في مجال الخدمة العامة. وقد أودت بعض هفوات كيريك به إلى بعض المشكلات القانونية. فقد اعترف سنة 2006 بأنه مذنب في اثنين من الانتهاكات الأخلاقية، وتم تغريمه على كل منهما؛ وفي سنة 2007، وجهت إليه تهم في ست عشرة قضية تتعلق بالتزوير بواسطة الهاتف، والتزوير بواسطة البريد، والتأمر، والكذب على مصلحة جباية الضرائب. (أعلن أنه غير مذنب، لكنه لم يحاكم بعد بشأن القضايا اللاحقة).

بعد أن رشح بوش كيريك لمنصب وزير الأمن الداخلي في شهر كانون الأول، ديسمبر، سنة 2004، بدأت عمليات الكشف عن سلوكه تعلن على الملأ. كانت هذه واحدة من الحلقات التي قدمت فيها الصحافة مثلاً عن الدور الحاسم الذي يمكن لها أن تلعبه في الكشف عن الارتكابات التي يقوم بها المسؤولون الحكوميون. بصراحة، قامت وسائل الإعلام بعمل أفضل مما قامت به إدارة بوش فيما يتعلق بسبر المعلومات حول كيريك. ولم يكن أمام كيريك بعدها سوى تقديم استقالته.

في شهر كانون الثاني، يناير، أقدم بوش على ترشيح مايكل تشيرتوف لمنصب وزير الأمن الداخلي؛ وهو مدع عام فيدرالي سابق، وقاضٍ في محكمة الاستئناف الأمريكية، ومسؤول في وزارة العدل. كان تشيرتوف معروفاً في البيت الأبيض حتى أنه عمل (بالتعاون مع فيت دينه) على صياغة مشروع قانون الوطنية، وهو قانون استند إلى مبادرة روجت لها الإدارة كثيراً، وتحول فيما بعد إلى قانون مثير جداً للجدل. لكن إمكاناته في إدارة بيروقراطية حكومية معقدة وواسعة كانت ماثار شك؛ وقد لاحقته الاتهامات بالتقصير خلال إعصار كاترينا بشكل لم يكن أحد يتوقعه.

كان توسيع دور كارل روف الرسمي داخل البيت الأبيض أحد أهم التغييرات ذات المغزى، والتي حصلت في المرحلة الانتقالية سنة 2004. سبق وأن تمت تسمية روف للحلول محل هاريت ميرز (مستشار البيت الأبيض الجديد) نائباً لرئيس الأركان. أدى هذا الموقع الجديد إلى أن يصبح الملف المناط بروف أكبر حجماً عبر إعطائه دوراً في تنسيق السياسة الداخلية، والسياسة الاقتصادية، والأمن القومي (بشكل جزئي، بحيث

لا يتضمن ذلك سياسة الحرب) ، والأمن الداخلي - وهي دور ذو مدى واسع بالنسبة لشخص يعده العديد من الناس حتى في واشنطن، ناشطاً سياسياً بعيد النظر. وكما وصف بيتر بيكر الأمر في صحيفة واشنطن بوست بشيء من روح الدعابة، حيث كتب ما يلي: «في مدة رئاسة بوش الأولى، كان المراقبون من خارج البيت الأبيض غالباً ما يشكون في أن كارل روف هو وراء كل ما يحدث. الآن، أصبح الأمر رسمياً».

عدت هذه الخطوة بصورة جزئية، مكافأة لكارل روف الذي قام بدور «المهندس»، والشخص الذي قاد حملة إعادة انتخاب ناجحة لرئيس كان يعاني من حرب صعبة بشكل متزايد في العراق. لكنها أيضاً أعادت التأكيد، وزادت من الشعور بأن إدارة بوش ملتزمة إلى أبعد مدى بالحملة الدائمة كإجراء عملياتي طبيعي في واشنطن. فممارسة الحكم لن تكون فرعاً من فروع شن الحملات وحسب، بل سيكون سيد من يقود الحملات مسؤولاً عن الحكم بشكل علني - وهو بذلك ينزع برقع الإدعاء بأن هناك فرقاً بين المبدأين. كان روف في أعماقه متقلقاً من الناحية السياسية، لكنه كان بالأساس، العقل السياسي المدبر. لقد كان من المستحيل التفريق بين الاثنين.

وكان يكمن وراء كل هذا وذاك، الساحر، نائب الرئيس تشيني. ما كان باستطاعة أحد أن يدير هذه الأوركسترا بأفضل مما كان يحدث خلف الستائر، وذلك في الوقت الذي كان العرض الكبير يجري هناك فوق خشبة المسرح. كان ينسل بهدوء إلى قلب الاجتماعات الداخلية، ومنها، وكان تأثيره وتلويحه بصولجانه غالباً غير مرئيين بالنسبة للعالم الخارجي: نادراً ما كان تشيني يكشف كل أوراقه، كما أنه لم يكشف أبداً عن الكيفية التي يقوم فيها بأفعاله. ومع ذلك، كان تشيني يحصل دائماً على كل ما يريد، وذلك في كل مجال من مجالات السياسة التي كان يضع يده فيها، من غزو العراق، إلى توسيع السلطة الرئاسية، إلى معاملة المحتجزين، إلى استعمال أجهزة المراقبة ضد المشتبه بهم في قضايا إرهابية. كان ينظر إلى العالم باعتباره بؤرة من الشر: وهكذا فلا بد من محاربة الشر بكل الوسائل الضرورية - بما في ذلك الوسائل التي تعد مؤلمة.

في المحصلة، كان شكل الإدارة، والتوجه الذي أخذته في مرحلة الولاية الثانية قد بدأ يتضح. لم تضخ الإدارة دماً جديداً وأفكاراً جديدة من مصادر في الخارج، لا بل

قامت بإسكات بعض الأصوات التي كانت تمثل رؤية مستقلة (مثل الوزير باول) وقامت بترقية أناس معروفين بولائهم لبوش، والذين تضمن بشكل عملي عدم تحديهم للتفكير التقليدي السائد في البيت الأبيض (مثل كوندي رايس وآل غونزاليز). كما عززت من سيطرة عقلية الحملة الدائمة داخل الإدارة عبر إعطاء كارل روف موقعاً أقوى على الطاولة، ضامنة بذلك أن لا تكون الاعتبارات السياسية بعيدة أبداً عن مركز النقاش حول السياسة في مدة الولاية الثانية.

ونظراً لأنني كنت محاصراً في قلب معمة البيت الأبيض، فقد كنت أدافع علناً عن كل قرارات بوش. تلك كانت مهمتي. لكنني لم أقدر مضموناتها بشكل كامل بالنسبة إلى مستقبل الإدارة، كما لم أتبين حجم المشكلات الخطرة التي ستساعد في خلقها في السنوات الأربع القادمة.



كانت الإدارة الأمريكية التي استعادت نشاطها واستجمعت شجاعتها بعد فوزها في الانتخابات مرة أخرى، مستعدة للبدء في شن حملة هجومية جديدة تهدف إلى إحداث تغيير تحولي. كان في الموضوع هذه المرة وهو الضمان الاجتماعي. ولم تكن لترضينا أي خطة للإصلاح يمكن أن تعرض علينا كيفما اتفق. رسم الرئيس خطأ على الرمال: يجب أن تكون حسابات التقاعد الشخصية أو الخاصة جزءاً من الحل. كانت الفكرة تقتضي بتوفير خيار للناس كي يقوموا باستثمار جزء صغير - 2 إلى 4 بالمائة من أموال ضمانهم الاجتماعي في «بورصات» آمنة، وصناديق نقد تبادلية، ووسائط تقاعدية أخرى مناسبة. كانت تلك مبادرة جمهورية صرفة. وكانت تناسب الموضوع الذي كان الرئيس غالباً ما يردده حول «مجتمع الملكية»: كانت تشجع الناس على أخذ المبادرة، وتحمل المسؤولية بكل ما يتعلق بشؤون مستقبلهم: وكانت مسؤولة مادياً عن إيجاد حلول للديون الكبيرة وغير الممولة.

كانت مبادرة محلية شجاعة، أمل بوش أن تكون علامة فارقة في رئاسته. وكان يخطط لتمريرها في حملة هائلة يشنها أملاً في ممارسة ضغط شعبي على الكونغرس لتحقيق ذلك.

عقد اجتماع لمديري الضمان الاجتماعي في البيت الأبيض في السادس عشر من شهر كانون الأول، ديسمبر، لمناقشة الإستراتيجية التي ستتبع لتمرير خطة الرئيس حول الضمان الاجتماعي في السنة القادمة. ركزت المناقشة على معركتين لا بد لنا من شنهما. ستهدف المعركة الأولى إلى «توعية» الناس بشأن المشكلات المالية والاقتصادية التي تواجه الضمان الاجتماعي، والحاجة إلى حلها. كان الهدف من هذا الجهد خلق جو أزمة سوف يساعدنا في الحصول على الدعم الشعبي الضروري لنفرض على الحزبين الموافقة على خطتنا الإصلاحية في الكونغرس. أما المعركة الثانية فستكون حول اقتراح الحلول، والتأكد من أن حسابات التقاعد الشخصية ستكون جزءاً منها.

كان ديفيد هوبس، ضابط الارتباط مع السلطة التشريعية التابع لبوش يفهم الكونغرس، وما يستجيب له أعضاؤه: «يشكل كل من تحديد المشكلة، ووضع أعضاء الكونغرس أمام مسؤولياتهم سبعين بالمائة من الحل. نحن بحاجة إلى الضغط الشعبي على الكونغرس». الخطة المقترحة لخلق هذا الضغط تضمنت القيام بجولات واسعة في الولايات والمناطق التي يقطن فيها أعضاء الكونغرس. كان بوش سيستعمل الآمال الناجمة عن إعادة انتخابه لضمان تأييد أعضاء الكونغرس من ذوي الآراء المتأرجحة كرافعة يمارس بواسطتها الضغط المطلوب.

اتفقنا على عقد اجتماع دوري للمديرين مرة في الأسبوع، وأن يجتمع نوابنا أكثر من ذلك. انتهت حملة إعادة الانتخاب، وسيعود النشاط إلى الحملة الهادفة إلى إعادة تشكيل التفكير الأمريكي؛ وهو ما يتطلب تقديم حركات معقدة ودائمة التجدد لكبار اللاعبين للتأكد من أن رسالة قوية ومتوازنة، وذات صدى طيب سوف تصل إلى الناس من طريق كل القنوات المتوافرة بين أيدينا.

ولكن بالعودة إلى الكيفية التي بذلنا عبرها جهداً هائلاً في سبيل هذه الحملة في بداية سنة 2004، فإنني أتساءل فيما إذا كنا حينها نستثمر مواردنا بحكمة. كنا نبذل جهوداً طائلة لتسويق خطتنا التي كانت مجرد مخطط؛ في الوقت الذي كنا نقتر في تركيزنا على عناصر أخرى في العملية التي ربما كانت على الأقل، توازيها في الأهمية. لم نكن نكرس

ما يكفي من الوقت لمناقشة أعضاء الكونغرس بغية الاتفاق على تفاصيل خطتنا من أجل الإصلاح. لم نكن نقوم إلا بالحد الأدنى من التواصل مع الديمقراطيين للخروج بذلك النوع من الإجماع الذي سيحدث تغييراً جذرياً في القانون سيجعل من الأسهل تمريره والموافقة عليه. بدلاً من ذلك، كنا نقفز كالضفادع متجاوزين خطوات مهمة، كما كنا نقفز مباشرة إلى خشبة المسرح بالطريقة الأكثر فطرية - والمتمثلة بالجهد المبذول من أجل العلاقات العامة.

كان كل ذلك يذكر بشكل غامض بالطريقة المتسارعة التي أغلقنا فيها دائرة النقاش حول ضرورة الحرب في العراق، واخترنا بدلاً من ذلك أن نحولها إلى حملة متسارعة تسويقية هائلة. استخدمنا مقارنة مشابهة في إعدادنا لحملة الضمان الاجتماعي. فبالنسبة إلى العراق، كان هناك تهديد يجب مواجهته، أما بالنسبة إلى موضوع الضمان الاجتماعي، فهناك أزمة لا بد من حلها.

حتى عندما كنا على وشك الانتهاء من إعداد خططنا، كانت تلاحقنا الأخبار السيئة حول موضوع آخر حملاتنا الكبيرة - ألا وهي الحرب في العراق. فعلى امتداد آخر شهرين من سنة 2004، استمر المخربون والإرهابيون في العراق في إحلال الخراب والدمار. كان العنف المستمر يشكل مصدر قلق خصوصاً وأن أول انتخابات مقررة كانت على الأبواب. وبحلول أوائل شهر كانون الأول، ديسمبر، قرر الرئيس زيادة مستوى عدد القوات إلى ما يقرب من 150000 من الجنود لتقديم عنصر أمان إضافي من أجل الانتخابات في شهر كانون الثاني، يناير، ولإبقاء الضغط على المخربين.

في الوقت نفسه تقريباً، وبالتحديد في السابع من شهر كانون الأول، ديسمبر، تحدثت صحيفة نيويورك تايمز عن ورود برقية سرية من رئيس المخابرات المركزية في بغداد مفادها أنه من غير المحتمل أننا سننجح في السيطرة على الوضع في المدى المنظور. كما قدّم مسؤول آخر في وكالة المخابرات المركزية، والذي كان قد زار العراق قبل ذلك بزمان قصيرة، تقويماً مشابهاً. لاحظت المقالة أيضاً أن بوش رفض إحصاءً سبق أن قدمته المخابرات الوطنية وكان يتضمن أن «المستقبل في العراق يلفه الغموض حتى نهاية سنة 2005»، واصفاً إياه بأحد الاحتمالات من ضمن احتمالات أخرى كثيرة.

كان ذلك يشكل إحياء أولياً بأن الفوز في انتخابات الولاية الثانية لن يؤدي إلى تغيير منهجية هذه الإدارة بشأن الأخبار السيئة. فالرئيس الذي مُنح تفويضاً انتخابياً، والذي لن يكون عليه خوض انتخابات أخرى في المستقبل، كان عليه أن يستغل بالتأكيد هذه الظروف ويحاول الوصول إلى مقاربة على شكل إجماع لتحسين سياسة كانت نتائجها أقل من مرضية. إلا أن بوش وفريقه قررا أن لا يقوموا بذلك.

يوم الأربعاء الواقع في الثامن من شهر كانون الأول، ديسمبر، وفي الوقت الذي وصل فيه مستوى العنف في العراق إلى مستويات مرتفعة، وتدنت فيه الحال الأمنية، التقى الوزير رمسفيلد بالجنود الذين كانوا سيرسلون إلى العراق في القاعدة التي سينطلقون منها في الكويت. أمطر بوابل من الأسئلة المحددة التي تتعلق بضعف التجهيزات، وتمديد زمن بقاء الجنود في العراق. سأل توماس ويلسون المتخصص في جيش الحرس الوطني من ولاية تينيسي عن النقص في أعداد عربات النقل القتالية. سأل ويلسون: «لماذا علينا نحن الجنود أن نتولى بأنفسنا البحث عن قطع معدنية من الخرقة، وزجاج بالستي رديء الصنعة كي نركبه على واجهات عرباتنا؟»

كان رد رمسفيلد علامة فارقة في حياته المهنية - ولم تكن علامة إيجابية. أجابه وزير الدفاع: «كما تعلم، فأنت تخوض الحرب بالجيش الذي لديك». أضاف فيما بعد قائلاً: «إنه ليس الجيش الذي تريده، أو ترغب في أن يكون تحت إمرتك فيما بعد. لو فكرت بالموضوع ملياً، لعلمت أنه قد يكون كل سلاح العالم بإمرتك وأنت تقود دبابة، ولكن يمكن أن يتم تفجير تلك الدبابة».

ثارت ثائرة أعضاء الكونغرس من الديمقراطيين احتجاجاً على تعليقات رمسفيلد التي وصفوها «بالمثيرة للصدمة» و«القاسية القلب». عندما سئلت عن هذه التعليقات في الحوارات الصحفية صباح اليوم الثاني، دافعت عن رمسفيلد شخصياً. ولكنني كنت أكثر حصافة من أن أحاول الدفاع عن تعليقاته. قلت: «الوزير رمسفيلد له طريقته الخاصة التي يتحدث عبرها بشكل مباشر مع قواتنا بشكل مؤلم، ولا بد أنكم لاحظتم ذلك بالأمس. فالوزير مهتم جداً بجنودنا ومجنداتنا، وهو مصمم على القيام بما يلزم لمعالجة كل

ما يمكن أن يثير قلقهم». لكن تعليقاته ساعدت في تثبيت الرواية الإعلامية التي يقتنع الجميع بها: إن هذه الإدارة ترسل قوات مسلحة سيئة التجهيز لمحاربة التهديد الذي يمثله الإرهابيون والمخربون؛ والأسوأ من ذلك، إن مسؤولي الإدارة هم إما غير مدركين للمشكلات الحاصلة، أو غير قادرين على حلها، أو غير مهتمين بهذا البتة.

حتى الإيحاءات الحسنة النية التي أريد لها أن تخلق انطباعات إيجابية عن الجهد المبذول من أجل الحرب في تلك الفترة ارتدت سلباً على مطلقها، ففي الرابع عشر من شهر كانون الأول، ديسمبر، قُتل الرئيس وسام الحرية وهو أعلى وسام مدني في البلاد، إلى من يتمتعون بميزات استثنائية، واستقامة وإنجازات، لثلاثة من القادة الذين وصفهم «بالرجال الذين لعبوا دوراً محورياً في أحداث عظيمة، والذين كانت لجهودهم الفضل في جعل بلادنا أكثر أمناً وأكثر تقدماً في مجال الحرية الإنسانية». كان هؤلاء الثلاثة لاعبين أساسيين في تنفيذ السياسة بشأن العراق وهم جورج تينيت، المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية، والقائد السابق للقيادة المركزية، الجنرال المتقاعد تومي فرانكس، والرئيس السابق لسلطة الائتلاف المؤقت في العراق، بول بريمر.

في مقابل الأخبار المحبطة الواردة من العراق، بالإضافة إلى زيادة عدد أفراد جوقه المنتقدين الذين يوجهون سهام نقدهم إلى هؤلاء الثلاثة مجتمعين - خصوصاً تينيت الذي نقل عنه وصفه لإخفاق المخابرات حول أسلحة الدمار الشامل في العراق «بالمفطس المتهور»، وبريمر الذي ارتكب جملة من الخطوات الكبرى غير المحسوبة خلال الأشهر الأولى من الاحتلال - أثارت هذه الاحتفالية الكثير من النقد. ألم تكن هذه هي الإدارة التي يفترض بأنها تبني أمجادها على أساس النتائج، والتي تؤمن بمبدأ المسؤولية والمحاسبة؟ إذا كان الأمر كذلك، لم الاستعجال في منح أوسمة إلى أشخاص أسهموا في التخطيط لحرب يبدو أنها كانت حرباً خرقاء وغير مفهومة؟

كانت ردة الفعل المتصاعدة ضد الحرب تهدد بمحاصرة الرئيس نفسه، ففي مؤتمره الصحفي الذي يعقده نهاية السنة، والذي عقده في العشرين من شهر كانون الأول، ديسمبر، أرغم بوش على الدفاع عن وزير دفاعه، قام بذلك بصفة شخصية:

أعرف طيبة قلب الوزير رمسفيلد. أعرف كم هو مهتم بالقوات المسلحة. يذهب دائماً برفقة زوجته إلى مركز والتر ريد الصحي في مدينة بيتسدا لتقديم العزاء والمواساة. لقد رأيت الألم - أو سمعت الألم في صوته، ورأيت الألم في عينيه عندما كنا نتحدث عن الخطر في العراق، وحقيقة أن شبابنا وشاباتنا هناك معرضون للأخطار. وهو - هو شخص طيب وأخلاقي. إنه شخص عطوف. أحياناً تكون طريقته قاسية؛ ولكن توجد تحت هذه الطريقة القاسية، شخصية طيبة تهتم جداً بالقوات المسلحة، وبالألام التي تتسبب بها الحرب.

هذا هو التقويم النمطي الذي يقدمه بوش الذي غالباً ما يتحدث عن الأشخاص الذين يحبهم عبر شخصياتهم الداخلية - رجل طيب، رجل أخلاقي - بدلاً من الحديث عن سلوكهم الحقيقي وأفعالهم. لم يحاول بوش الدفاع عن الكلمات التي اختار أن يتلفظ بها رمسفيلد، والتي تلفظ بها بشكل سيئ في الكويت، أو الأخطاء التي ارتكبها في الأحكام التي أطلقها حول الطريقة التي تدار بها الحرب. بدلاً من ذلك، قام بكل بساطة بإجراء تقويم للصفات الخبيثة في شخصية الرجل، كما لو أن هذه الصفات تتفوق على أفعاله، وتمحو عواقبها السلبية. يمكن للمرء أن يطلق على هذه المقاربة منظوراً مسيحياً تطهيرياً حيث يغسل التسامح كل نتائج الأعمال القذرة. لكن ذلك لم يكن يتفق مع الصورة التي رسمتها لنفسها إدارة يفترض أنها تركز على مبدأ المحاسبة، كما أنها لم تكن مقنعة للأمريكيين الذين تزداد تعاستهم وهم يتساءلون فيما إذا كان أبنائهم يموتون، ومقتنياتهم تتبخر في سبيل لا شيء.

حاول الرئيس في المؤتمر نفسه أيضاً، وذلك بعد أن قمنا بمناقشة خطة خلف الكواليس، إعطاء الانطباع الذي يمكن أن تطلق عليه وسائل الإعلام «تقويماً صريحاً ويقظاً» للحال في العراق. تحدث عن التفجيرات الانتحارية، واعترف بوجود صعوبات، كما أعطى الانطباع أن قواتنا المسلحة تحتاج إلى البقاء في العراق لمدة أخرى قادمة، من دون إعطاء مهلة زمنية لذلك.

أظهر استطلاع نشرته صحيفه واشنطن بوست في اليوم الثاني أن 56 بالمائة من الأمريكيين يعتقدون الآن بأن الحرب كانت «خطأ»، و«لا تستحق أن تخاض»، وارتأت

الغالبية أن على رمسفيلد أن يستقيل. حاولت الإدارة ممارسة عملية الدوران الإيجابي، والإنكار، والآن - متأخرة - الصراحة والواقعية، ولكن من دون جدوى. فقد كانت الأخبار الفاضحة الواردة من الميدان تبث رسالتها الخاصة بنفسها، وهي رسالة وجدها الأمريكيون مثيرة للقلق بشكل متزايد.

أما بالنسبة لنا نحن القابعين داخل البيت الأبيض، فإننا لم نلاحظ إشارات التحذير التي تتضاعف يوماً إثر آخر، في الوقت الذي كانت السنة الجديدة على الأبواب. كان معدل التأييد للرئيس متراجعاً ولا يتجاوز الحد الأدنى للغالبية إلا بفارق بسيط، وهو الأدنى من بين كل الاستطلاعات التي كانت تجري قبل أي خطاب حول حال الاتحاد. من الواضح أن الرئيس لم يحظَ بأي دعم إضافي في مرحلة ما بعد الانتخابات. فالنية الحسنة التي أظهرها قبل أربع سنوات عندما بدأ مرحلة رئاسته الأولى ضاعت ولم يبق لها أثر، ولم يكن بوش يفعل إلا أقل القليل كي يبعثها من جديد. كان يبدو مصمماً على خوض اللعبة على طريقة واشنطن، من دون أن يقدر مدى أسهام سياساته وأفعاله في تسميم الجو العام.

لم يوفر الانتصار في الانتخابات بفارق ضئيل أي تفويض حقيقي لبوش. فلم تكن هناك سوى انقسامات وتكتلات، ولم يكن أحد بيننا ممن هم في الدائرة الداخلية الضيقة للرئيس قادراً على تصور مدى جدية المشكلة في ذلك الوقت، بدلاً من ذلك، فقد تعلقنا بأهداب فكرة التفويض، رافضين قبول حقيقة أنها لم تكن سوى مجرد وهم.

في تلك الأثناء، كانت الأحوال في العراق مستمرة في التدهور. بالنسبة للرئيس وفريقه لشؤون السياسة الخارجية، فإن الخطة كانت تسير في المسار المرسوم لها، وكانت المصادر مثبتة في أماكنها استعداداً لمواجهة العاصفة التي تقترب رويداً، رويداً. كانت قواتنا مستمرة في ملاحقة المهربين والإرهابيين من دون هوادة، وكان دبلوماسيونا مستمرين في دفع العملية السياسية إلى الأمام. كانت الانتخابات التي ستجري في العراق في شهر كانون الثاني، يناير، تشكل أولوية مطلقة، وكانت تعد بمنزلة نقطة تحول يمكن أن تعطي العراقيين الأمل، وتزرع روح اليأس في نفوس المهربين. بعد انتخاب حكومة انتقالية، يجب

أن يتحول الاهتمام باتجاه مشروعات إعادة البناء الصغيرة التي يمكن أن تقدم مساعدة ملموسة وآمناً للمواطنين في أنحاء البلاد كلها. في الوقت نفسه. كنا سنتابع عملية تدريب القوات العراقية بحيث يكون باستطاعتها تحمل قدر أكبر من المسؤولية عن أمن البلاد. وكانت الصيغة التي كنا نعتمدها في الغالب تقول: في الوقت الذي تنهض القوات العراقية، فإن القوات الأمريكية سيكون بإمكانها أن تجلس.

كان برنامجاً ذا صدى منطقي للنجاح على المدى الطويل في العراق. المشكلة في أن هذا البرنامج لم يتطابق البتة مع الواقع. كانت هناك مشكلات جد خطيرة لم يتم بعدُ تحديدّها ومن ثم، مواجهتها.

لم يكن عديد القوات الأمريكية داخل العراق كافياً، وقد استهلكت طاقاتها إلى أبعد مدى عبر تكرار عمليات إعادة الانتشار. كانت القوات المسلحة تحمل أعباء هائلة، وكانت تتصرف حيالها بشكل جيد: لكن إنهاء العنف، والحفاظ على أمن تلك البلاد الشاسعة كانا يشكلان تحدياً كبيراً ومشكلة حقيقية، إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم القوات المسلحة المتواجدة على أرض العراق. كانت الحال الأمنية المتدهورة تعيق بشكل متزايد أعمال إعادة البناء، فقد تباطأت المشروعات بسبب الهجمات التي كانت غالباً ما تُشن، وهو ما منع عن العراقيين الكثير من الخدمات الأساسية. وكان الوقت الذي استهلكته عملية تجهيز القوات العراقية وتدريبها كي تصبح مؤهلة لإمساك بزمام الأمن بمعزل عن المساعدة الأمريكية طويلاً جداً. والأسوأ من كل ذلك، كان الانقسام الطائفي المتصاعد، والضارب في عمق التاريخ، والذي قام بتأجيج أواره المخربون، والمليشيات التي لا تجد من يضبطها، والإرهابيون. كانت القوات الأمريكية تقوم بواجبها على خير ما يرام، لكن لم يكن بإمكانها أن تقوم بأكثر مما قامت به. كانت بحاجة إلى دعم أكبر من واشنطن، لكن واشنطن أصبحت أكثر استقطاباً في الوقت الذي استمر الصراع.

كانت طريقة بوش في إدارة المشكلات في العراق تثبت خيبتها يوماً بعد يوم في تحقيق المهمة الموكولة إليها. كان يتلقى تقارير أولاً بأول، وبانتظام في الوقت الذي حاول تحسين الوضع بواسطة الإقناع الشخصي أو ممارسة الضغط على القادة العراقيين. لكنه كان

معزولاً عن واقع الأحداث على الأرض، ومن ثم، فقد بدأ بالسقوط في فخ الإيمان بحنكته الشخصية. أخفق في قضاء ما يكفي من الوقت كي يبحث عن معلومات مستقلة يستقيها من طيف واسع من خبراء من خارج دائرة البيت الأبيض الذين لديهم خبرة دقيقة وميدانية حول العراق، و - ربما كان ذلك هو الأهم - الذين لهم آراء مختلفة، بمن فيهم أولئك الذين يختلفون معه في سياساته.

إن إخفاق بوش في فتح أبواب البيت الأبيض لأفكار جديدة في مرحلة ولايته الثانية، جعله بالفعل يبدأ في دفع الثمن.

14

الكشف للعيان والشعور بالمهانة

بحلول منتصف سنة 2004، كان باتريك فيتزجيرالد المدعي الخاص يعمل جاهداً كي يضع اللمسات الأخيرة على التحقيق بشأن عملية التسريب. حامت التوقعات حول إمكان أن يقوم فيتزجيرالد بتوجيه اتهام أو اثنين، أو أن يضع اللمسات الأخيرة على تحقيق معقد ومحاط بالفوضى. لكنه كان بحاجة إلى اثنين من الصحفيين لإكمال تحقيقه، لذلك فقد سعى إلى الاستماع إلى شهادتيهما أمام هيئة المحلفين الكبرى منذ نحو السنة.

أحد هذين الصحفيين كان ماثيو كوبر، وهو مراسل مجلة تايم في البيت الأبيض، ويمتاز بسرعة البديهة، ولطف التعبير. أما الأخرى فكانت جوديث ميللر الصحفية التي تعمل في واشنطن لصالح صحيفة نيويورك تايمز، والتي كتبت بشكل مستفيض حول أسلحة الدمار الشامل التي يملكها صدام حسين، والتي اعتمدت فيها على تقارير استخباراتية مسربة من حكومة الولايات المتحدة، وحكومات أجنبية أخرى، في المرحلة التي سبقت عملية الغزو.

رفض كل من كوبر وميللر إطلاع فيتزجيرالد على ما يعرفانه حول قضية التسريب. كانا مصممين على الالتزام بالعقد الصحفي القاضي بعدم إفشاء المصادر السرية، أو الإفصاح عن هوية تلك المصادر لأي شخص، وخصوصاً بطريقة يمكن أن تقضي إلى إفشاء سرية مصادرها أمام الرأي العام. كان ذلك يشكل بالنسبة إلى كل من كوبر وميللر واحدة من الحريات الأساسية لمبدأ الصحافة. فغالباً ما يعتمد الصحفيون على مصادر ترفض الإفصاح عن هويتها للحصول على معلومات تساعد في وضع المسؤولين الحكوميين أمام مسؤولياتهم. وإذا كان سيتم التلويح باستخدام تهمة إهانة المحكمة لإرغام الصحفيين على إفشاء مثل هذه المصادر، فإن ذلك سوف ينفر الناس من التحدث

إلى الصحفيين بالطلق. وهو ما سيجعل من الصحافة المختصة بمجال التحقيقات مجالاً أكثر صعوبة في المستقبل.

كانت هناك بطبيعة الحال انعطافة غريبة نتجت عن دفاع كل من كوبر وميلر عن موقفيهما في هذه القضية؛ ذلك أن رفضهما إفشاء أسماء مصادرهما في قضية التسريب، لم يكن يعني أن الصحفيين كانا يقومان بحماية أولئك الشجعان الذين دقوا ناقوس الخطر لافتين إلى الأخطاء التي ارتكبتها الحكومة بحق الصالح العام، بل كانا يحميان المسؤولين الحكوميين الذين يعتقد منتقدو الحكومة أنهم استخدموا هذه التسريبات كسلاح في الحرب الحزبية التي يخوضونها. كان من الصعب على بعضهم في أوساط الشعب، خصوصاً منتقدي الإدارة، أن يروا في ما قام به كل من كوبر وميلر موقفاً مهنيّاً يوحى بالشجاعة الصحفية. في أيام فضيحة ووترغيت، تم نقل الحملة التي شنها آنذاك مراسلو الصحف الذين حاربوا من أجل الحقيقة إلى شاشات السينما بواسطة ممثلين كروبرت ريدفورد وداستين هوفمان. أما هذه الحكاية، فقد أكدت على ما يبدو، لبعض نقاد الإدارة على الأقل، أن الصحفيين لم يعودوا تلك الشخصيات البطولية، بل انخرطوا الآن في الحرب الحزبية نفسها التي يقومون بتغطيتها.

أما فيتزجيرالد الذي أصدر مذكرتي استدعاء بحق الصحفيين فقد رفض الدفاع الذي قدمه حول حرية الصحافة، وأصر على أن شهادتيهما حاسمة كي يكون باستطاعته وضع اللمسات الأخيرة على التحقيق الذي يجريه، ولكي يتخذ قراره فيما إذا كان سيعتبر ما حدث يشكل جريمة أم لا. فقد حصل على أوراق تنازل موقعة من مسؤولين في الإدارة يعفي الصحفيين من أي اتفاق سابق معهما حول سرية المعلومات، كما استصدر أمراً قضائياً يلزمهما بضرورة الإدلاء بالشهادة. إذا رفض كوبر وميلر، فسوف توجه إليهما تهمة إهانة المحكمة، وتلقي بهما في السجن إلى أن يوافقا على الكلام.

لم يغير التنازل الموقع من المسؤولين الذي يعفيهما من أي مسؤولية، شيئاً بالنسبة لهما، نظراً لاحتمال أن تكون مصادرهما قد تعرضت للإكراه كي توقع على مثل هذا التنازل أمام تحقيق جنائي بهذا الحجم. لم يكن هذا يشكل في رأيهما ضمانة اختيارية غير إجبارية. أما فيتزجيرالد، فكان يرى أنها مسألة تتعلق بكشف الحقيقة

حول احتمال ارتكاب جريمة جنائية، وما يمكن لمحكمة الاستئناف أن تدعم هذا الطلب باعتباره «حاجة ملحة» للحكومة لشهادتيهما.

أثارت هذه القضية اهتماماً شديداً في الدوائر الإعلامية في الوقت الذي أصر كوبر وميللر على موقفيهما. وكان ما يشبه الحمى المجنونة يسري خارج مبنى المحكمة الفيدرالية كلما أطل هذان الصحفيان.

في شهر آب، أغسطس، سنة 2004، أصدر القاضي توماس هوغان في محكمة المنطقة التابعة لمقاطعة كولومبيا حكماً قضائياً اعتبر فيه كلاً من كوبر ومجلة تايم مذنبين بجريمة تحقيق المحكمة. أما ميللر فقد تلقت ضربة مشابهة في شهر تشرين الأول، أكتوبر، من السنة نفسها. تم فرض غرامة على الاثنين، وحكم عليهما بالسجن. وقد أبقى القاضي بموافقة فيتزجيرالد، على الأمرين القضائيين حتى انقضاء مدة استئنافهما.

حكم في نهاية المطاف على ميللر بالسجن بتهمة إهانة المحكمة. وكان عليها بدءاً من السادس من شهر تموز، يوليو، 2005، قضاء مدة خمسة وثمانين يوماً من أصل أربعة أشهر في السجن قبل حصولها أخيراً على ضمان شخصي بالتنازل من المصدر الذي كانت تحميه. وكان ذلك الشخص هو سكوتر ليببي الذي أبلغها استناداً إلى شهادة ميللر التي أدلت بها فيما بعد، أن زوجة ويلسون هي عميلة لوكالة المخابرات المركزية بالرغم من أنها لم تنقل هذه المعلومة أبداً. أما سكوتر ليببي فقد أفلت من عقوبة السجن بعد أن أعفاه مصدره - كارل روف - بشكل اختياري في اللحظة الأخيرة من عبء سرية المعلومات.

بحلول شهر تموز، يوليو، سنة 2005، بدأت التقارير تتوالى أن روف تحدث إلى مات كوبر حول القصة التي كتبها هذا الأخير عن مهمة جو ويلسون إلى النيجر. في الرابع من شهر تموز، يوليو، كتب أحد الصحفيين العاملين في مجلة نيوزويك، والذين يتمتعون بقدر وافر من الاحترام، أن كارل هو أحد مصادر كوبر. تلقى تأكيداً من محامي كارل الشخصي وهو روبرت لاسكين. إلا أن لاسكين أبلغ إيسيكوف أن كارل «لم يقم بإفشاء أي معلومات سرية»، كما أنه «لم يخبر أي صحفي أن فاليري بليم

تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية». لاحظ إيسيكوف أن ما جرى بالضبط بين كوبر وكارل كان «غير واضح».

وفي يوم الأحد الواقع في العاشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2005، أي بعد انقضاء ستة أشهر من سنة بوش الأولى في ولايته الثانية، وبعد انقضاء سنتين تقريباً على نشر عمود نوفاك الصحفي الذي كشف فيه عن هوية فاليري بليم - وهي جزئية معلوماتية مهمة رفض كوبر سابقاً الاعتراف بإفشائها، أضحت علنية للمرة الأولى.

علمت عبر إشاعات سرت هنا وهناك أن إيسيكوف كان لديه مصدراً آخر يفرف منه معلومات لصالح مجلة نيوزويك تتضمن تفاصيل محددة عما قاله كارل لكوبر. أذكر أنني كنت أتأمل في احتمال أن يكون كوبر قد سأله عن زوجة ويلسون، ولكن، وكما أوضح كارل لكثير ولي، بشأن اتصاله مع نوفاك فإنه لم يكن باستطاعته التأكيد على أي شيء لأنه لم يكن يعلم أي شيء عن الموضوع. كما أن الرئيس أبلغني بنفسه أنه تلقى تأكيدات بأن كارل لم يقم بإفشاء أي معلومات. ربما لم أشأ التصديق أن كارل كان صريحاً بما يكفي، أو أن ما قاله لي - وللرئيس - لم يكن صحيحاً.

في وقت لاحق من صباح ذلك اليوم، اتصلت بي هاريت ميرز، وهي من الموالين القدامى لبوش من ولاية تكساس، والتي استلمت منصب مستشار البيت الأبيض خلفاً لآل غونزاليز بعد أن تم التصديق على تعيينه بمنصب المدعي العام، بواسطة عامل المقسم في البيت الأبيض. وكانت هاريت مثلي، قد عملت في البيت الأبيض في عهد بوش منذ اليوم الأول. كان الجناح الغربي هادئاً في ذلك اليوم. كان باستطاعتي إنجاز الأعمال التي كان علي القيام بها في ذلك اليوم، ومشاهدة بعض البرامج الحوارية السياسية المسجلة يوم الأحد، والتحضير للأسبوع الآتي من دون أي عراقيل.

كانت هاريت تتصل من مكتبها، وقالت إنها بحاجة للمجيء إلى مكثي للتحدث في موضوع هام. دخلت وأغلقت الباب خلفها، وقالت: «هناك بعض الأخبار التي قد تشر غداً عن كارل وتتعلق بقضية التسريب، والتي قد تناقض ما قلته أنت منذ نحو سنتين».

قلت وفي ذهني ما ذكره تقرير إيسيكوف من دون أن أخذ الوقت الكافي لأستوعب تماماً ما قالت: «سمعت بهذا». أعادت هاربيت التأكيد بأننا لا نستطيع التعليق على موضوع التحقيق بشكل علني. وفي واقع الأمر، كانت تطالبني بالامتناع عن الحديث حول هذا الموضوع، مشيرة بوضوح إلى تعليقاتي السابقة حول الموضوع نفسه.

ثم، وقبل أن تخرج من باب مكثي، قالت هاربيت: «هل تعلم يا سكوت، أشعر دائماً بالاستياء بسبب شعوري بأنني أجعل وظيفتك أكثر صعوبة».

رددت بشكل شبه تلقائي كي أخفف عن شخص أحبه فعلاً، أي إحساس بالذنب: «لا بأس، إنه عملي». بعد مغادرتها مكثي، تساءلت عما يمكن لهذه المقالة أن تذكره، وكيف يمكن لها أن تناقض ما كنت قد قلته. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، عرفت الحقيقة. لقد كشفت مقالة إيسيكوف أن كارل سبق له أن تحدث مع كوبر بالتحديد عن أن زوجة ويلسون تعمل لدى وكالة المخابرات المركزية.

استناداً إلى إيسيكوف، فقد كتب كوبر إلى رئيسه مايكل داي في مدير مكتب مجلة تايم في واشنطن بواسطة البريد الإلكتروني يعلمه فيها أن كارل حذره «بعدم الذهاب بعيداً في الحديث عن ويلسون». وتابعت رسالة كوبر الإلكترونية ملاحظة أن كارل قال إن رحلة ويلسون لم تتم بتفويض من مدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت. «قال كارل روف إن زوجة ويلسون التي تعمل على ما يبدو لدى وكالة المخابرات المركزية حول قضايا تتعلق بأسلحة الدمار الشامل هي من فوضت ويلسون القيام بهذه الرحلة». وتابع كوبر: «هناك خلل وشبهة ليس فقط في أصل القصة، بل في التقرير برمته. فقد لمح [روف] بقوة إلى أن هناك الكثير مما يمكن استخدامه لإثبات الاهتمام العراقي بالحصول على اليورانيوم من النيجر».

أوضح كوبر في بداية رسالته الإلكترونية أن هذه المعلومات سرية، وأن روف تحدث إليه فقط «على خلفية من السرية الشديدة المضاعفة لنحو دقيقتين قبل أن يغادر لتمضية إجازته»، استناداً إلى إيسيكوف.

كان تاريخ الرسالة الإلكترونية صباح يوم الجمعة الواقع في الحادي عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2003 - أي قبل ثلاثة أيام من نشر عمود نوفاك الصحفي الذي كشف عن هوية بليم. وأشارت الرسالة إلى القصة التي كانت تعمل عليها مجلة تايم حول ويلسون، ورحلته إلى النيجر، والجهود المبذولة من قبل البيت الأبيض للنيل من مصداقيته والتي كانت تحمل عنوان: «هل هي حرب ضد ويلسون؟». ونشرت في السابع عشر من تموز، يوليو، سنة 2003.

وفي مقالته المنشورة في مجلة نيوزويك، فجر إيسيكوف آخر قنبلة له في هذا السياق:

كانت الكلمات التي استعملها روف عن قضية بليم مختارة بعناية: قال روف في مقابلة له مع محطة CNN، السنة الفائتة عندما سئل عما إذا كانت له يد في قضية تسريب اسم بليم: «لم أكن أعرف اسمها. لم أسرب اسمها». لم يعترف روف أبداً علناً وعلى الملأ، بأنه تحدث إلى أي صحفي حول السفير السابق جوزيف ويلسون وزوجته. ولكن محاميه روبرت لاسكين أكد الأسبوع الماضي في مقابلة له مع مجلة نيوزويك أن روف كان المصدر السري الذي أعطى لكوبر الإذن للإدلاء بشهادته وذلك بناء على طلب من محامي كوبر والمدعي فيتزجيرالد.

كتب إيسيكوف: «لا شيء في رسالة كوبر الإلكترونية يشير إلى أن روف استعمل اسم بليم، أو أنه كان يعرف أنها عميلة سرية. ومع ذلك، يجدر التنبيه أن روف كان يتحدث إلى كوبر قبل نشر عمود نوفاك الصحفي؛ أي، بعبارة أخرى، قبل نشر هوية بليم. كان فيتزجيرالد يبحث عن دليل يؤكد أن روف تحدث إلى صحفيين آخرين أيضاً».

استناداً إلى ما ذكره إيسيكوف، فقد ذكر «مصدر مقرب من روف أن قراءة متأنية للرسالة الإلكترونية توضح أن المعلومات الواردة فيها ليست جزءاً من جهد منظم للكشف عن هوية بليم، لكنها جزء من جهد بذل لثني مجلة تايم عن نشر أخبار تبين فيما بعد أنها مزيفة».

كان أكثر المصادر احتمالاً هو لاسكين، محامي روف، بما أن أجزاء أخرى من المقالة نسبت إليه. وقد أشير إلى أن المصدر كان متخوفاً من أن يدخل في ملف القضية ما كان

كارل قد أدلى به بشكل شخصي أمام هيئة المحلفين الكبرى جزءاً من التحقيق الذي ما زال في مراحله الأولى. من الواضح أنني وقعت في شرك الخديعة. ففي الأسابيع والأشهر التي تلت ذلك، اكتشفت أن عملية الخداع تخطت روف بمسافة طويلة.

كل هذا الكشف أمام العيان سوف تكون له قريباً آثاراً مؤلمة ومثيرة للقشعريرة فيما يتعلق بعلاقتي مع الصحفيين. ففي برنامج Late Edition على قناة CNN الذي بُثَّ يوم الأحد الواقع في السابع عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2005، لخص مقدم البرنامج جون كينغ الذي كان لزم من طويل كبير مراسلي محطة CNN في البيت الأبيض رأي زملائه في قاعة اللقاءات الصحفية: كانوا ميالين إلى التساهل معي إلى حد ما، لأنهم كانوا يعرفونني ويعرفون سمعتي التي أتمتع بها، ولكن لم يكن بإمكانهم الذهاب بعيداً في ذلك من دون تفسير علني وواضح للأحداث من قبلي.

كان رأي الصحفيين مؤلماً لكنه كان أيضاً مفهوماً. لم يكن ذلك يصل إلى حد توجيه الاتهام لي بقدر ما كان اتهاماً للإدارة التي كنت أعمل في سلكها. كان القصد واضحاً: إذا كان بعض أهم كبار المسؤولين في إدارة بوش غير صادقين مع كبير الناطقين باسم الرئيس، فكيف يمكن لأحد أن يقتنع أنهم سيكونون صادقين مع الناس؟ فالبيت الأبيض يعاني من أزمة خطيرة تتعلق بمصداقيته، ويبدو أن نار هذه الأزمة سوف تلسعني.



كان التأثير الذي أحدثه الحوار يوم الأحد، والقصة التي كانت مجلة نيوزويك على وشك نشرها أشبه بتلقي ضربة لم تكن بالحسبان. لم أتوقع أبداً تلقي مثل هذه الضربة، خصوصاً بعد التأكيدات الشخصية التي قدمها كارل لي وللرئيس. وعلى الأقل ليس قبل عدة أيام من تحولها إلى العلن. وحتى حينها، كنت قد أقنعت نفسي بعدم تصديق الضجة المثارة في واشنطن وذلك بسبب التأكيدات الشخصية التي تلقيتها حول هذا الموضوع.

كان اللقاء الصحفي الذي تلا ما كشفه إيسيكوف إلى العلن وما أحدثه من إرباك، قاسياً ومؤلماً في آن. أذكر أنني، وبعد المدة الأولى التي انقضت على حكاية التسريب منذ سنتين تقريباً، استعملت هذه الجملة: «لن أقوم بالتعليق على تحقيق ما يزال قائماً». وهو

ما كان ينهي هذا النوع من الأسئلة بسرعة، ولكن الأمر بالأمس ليس مثله اليوم: ذلك أنه وبالنظر إلى ما أكدته بكثير من الثقة في مستهل خريف 2003، فقد أشار جون روبرتس مراسل محطة CBS على أنني كنت في الواقع قد قمت بالتعليق بينما كان التحقيق ما زال جارياً ولمدة أسبوعين. وتساءل عن سبب هذا التغيير. كان روبرتس محقاً، وكنت أعرف أنه كذلك. وبالرغم من أنني برأت ساحة روف من حيث المبدأ، قبل طرح مسألة التحقيق، فإنني لم أبرئ ساحة ليبي بطلب من الرئيس ونائبه إلا بعد أن أبلغنا بأنه سيتم التحقيق في هذه القضية.

قال ديفيد غريغوري مراسل محطة NBC بسخرية إنه من «السخف» عدم قيامي بالإجابة حول ما إذا كنت ما زلت مصراً على تأكيداتى السابقة من أنه لا يوجد تورط لأي من روف أو ليبي أو أبرامز، متهماً إياي بعدم التجاوب، وذلك باستعمالي عبارة «لن أقول شيئاً» حول الكشف الذي قامت به مجلة نيوزويك. وتبعه تيري موران من محطة ABC الذي لوح بعصاه في الهواء قائلاً إنني «في وضع صعب» قبل أن يسألني بتهكم: «فجأة أصبحت تكن احتراماً لقدسية التحقيقات الجنائية؟» أخيراً، وبعد مضي وقت طويل على تركي لمنصبي في البيت الأبيض بدأت أتبين حقيقة أن الوقوف في وجه حافلة الصحافة المسرعة في تلك الأيام كان مبعثه بالدرجة الأولى الرغبة في حماية الرئيس والبيت الأبيض من إحراج سياسي آخر، وليس احترام قدسية التحقيق.

تناولنا في ذلك اليوم عدة موضوعات أخرى، إلا أن الصحفيين ثابروا على العودة إلى الموضوع نفسه الذي كان في المرتبة الأولى في سلم اهتماماتهم. وكانت نشرات الأخبار في تلك الأمسية سلبية بمقدار ما كانت قارصة.

كنت أشعر أن شيئاً ما، كان يسقط مني في طريقه إلى الجحيم في كل مرة كان الصحفيون، كل بدوره، يهاجمونني. لقد كانت سمعتي تتداعى، جزءاً إثر جزء. وتبعته في نهاية المطاف، محبتي لتلك الوظيفة. بقيت أستعرض شريط ذكرياتي مثلما كنت أفعل عندما كان إخوتي الأكبر سناً مني يمسكون بي بشدة أحياناً ونحن نتعارك عندما كنا

أطفالاً (على الأقل إلى أن بدأت أكبر وأجاريهم في الحجم والقوة). لم يكن بإمكانني فعل أي شيء حيال ذلك سوى أن أكابر وأتظاهر بالشجاعة، وأرفض إعطاءهم الانطباع بأنهم هزموني. ولم يكن مقدراً لهذا اللقاء الصحفي أن ينتهي بالسرعة المرجوة.

إن السخرية التي تلقيتها في ذلك اليوم، وكذلك في الأيام التي تلتها، كان لها ما يعالها بالرغم من كونها محبطة ومذلة في الوقت عينه، بالنظر إلى ما قلته سابقاً. وبما أن يديّ كانتا مكبلتين، فكل ما كان باستطاعتي فعله حينها هو اللجوء إلى موقع الدفاع وإسناد ظهري إلى الحائط.

كان اللقاء الذي جرى مع نوابي بعد اللقاء الصحفي كئيباً. كانوا يعرفون أنني حُشرت في زاوية مستحيلة. قال أحد النواب: «هذه هي طبيعة الأشياء»، وقال ترينت داي وهو مصدر لا ينتضب من النصائح الصريحة: «لا يوجد ما يمكنك فعله حيال ذلك، فأنت في موقع صعب». أما الآخران، دانا بيرينو، وفريد جونز الناطق الرسمي باسم مجلس الأمن القومي، فقد عبرا عن تعاطفهما الصادق لي شخصياً.

بعد أن عدت إلى مكثبي في وقت لاحق عصر ذلك اليوم، تلقيت اتصالاً هاتفياً من كارل روف. قال: «أريد فقط أن أعبر لك عن أسفي لما تمر فيه». ومع الأخذ بعين الاعتبار التحقيق المستمر فقد عرفت أن هذا يتضمن اعتذاراً كاملاً بأقصى ما يمكنه من التعبير. من الواضح بالنسبة لي أن كارل كان يهتم بحماية نفسه من إجراءات قانونية محتملة، ومنع العديد من منتقديه من إسقاطه.

كانت تغطية الشبكات الإخبارية بواسطة المراسلين في البيت الأبيض في تلك الليلة غير متسامحة البتة، وهو أمر مفهوم - كانت قاسية على مصداقية البيت الأبيض وعلى مصداقيتي أنا شخصياً، وهو ما أساء إلى الرئيس نفسه. كل واحدة من هذه الشبكات، أعادت بث مقاطع من تصريحاتي سنة 2003، وبينت كم تبدو متناقضة مع ما قلته لاحقاً. لخص جون روبرتس المسألة كلها كما يلي: «كان يوماً بائساً في البيت الأبيض الذي لم يتمكن من الدفاع عن تصريحاته المثبتة على شرائط تسجيل، ولم يستطع أن يشرح لماذا كان ما يردده دائماً بكل ثقة منذ واحد وعشرين شهراً لا يعدو أن يكون كذبة».

ختم بيل بلانتي. زميل روبرتس، تقريره صباح اليوم الثاني بالقول: «إن هناك أشخاصاً آخرين يبدو أنهم متورطون في هذا الجدل المتعلق بنشر اسم أحد ضباط وكالة المخابرات المركزية، ولكن إذا كان روف غير مستهدف في هذا التحقيق، فإن البيت الأبيض في أسوأ الأحوال، ما يزال يبدو غيباً.

في صباح اليوم نفسه، أدار كارل اجتماع أركان البيت الأبيض نظراً لغياب آندي. وكالعادة، كنت أنا ثاني المتحدثين وذلك بعد استعراض سريع لجدول مواعيد الرئيس لذلك اليوم. قبل أن يحيل كارل الدور لي للكلام، قال كلاماً قصد أن يسمعه كل الزملاء من كبار الموظفين أنه «آسف فعلاً» لما مررت به.

توقف كارل للحظة وهو ينظر إلى بتمعن كما لو أنه كان ينتظر مني أن أقول: «لا تقلق بشأن هذا الموضوع، فالأمر ليس بهذه الأهمية». إلا أن كل ما كان باستطاعتي القيام به آنذاك كان لي شفتي من دون أن يظهر على وجهي أي تعبير، في الوقت الذي أومأت برأسي بشكل خفيف، معبراً له عن رد فعلي على إحساسه بالذنب بالقول بما يشبه الهمس: «شكراً، أقدر لك هذا». في اليوم اللاحق وجدت اعتذاراً مكتوباً بخط اليد بانتظاري على كرسي مكتبي.

وفي وقت لاحق من ذلك الأسبوع، أصبح من المعروف (وقد أكد ذلك محامي كارل الشخصي، روبرت لاسكين بشكل سري) أن كارل كان المصدر الثاني لعمود نوافك الصحفي الأصلي الذي كشف عن هوية بليم. حقق كل من المراسل في البيت الأبيض ديك ستيفينسون، وزميله مراسل نيويورك تايمز، ديفيد جونسون سبقاً صحفياً وذلك لأنهما كانا أول من أعلن عن هذا النبأ صباح يوم الجمعة. وكان ذلك جزءاً من خطة كارل ولاسكين.

أصر محامي كارل أمام الصحفيين على القول إنه لم يسرب هوية بليم أو يكشف عنها. استناداً إلى لاسكين، فإن نوافك قال إنه سمع أن زوجة ويلسون كانت تعمل لصالح وكالة المخابرات المركزية، وأن كارل أجاب: «سمعت بذلك أيضاً». أما المقالة المنشورة في مجلة تايم فقد ذكرت أن مصدراً مجهولاً (لاسكين) «ناقش المسألة تحت تأثير الاعتقاد أن السيد روف كان صادقاً في قوله إنه لم يكشف عن هوية السيدة ويلسون».

ذكرت الحكاية التي روتها صحيفة نيويورك تايمز أن نوفاك أعطى وصفاً «للمسؤولين الرفيعين في الإدارة» في عمود لاحق نشر في الأول من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2003. استناداً إلى نوفاك، فإن مصدره الرئيس الذي لم يكشف عنه بعد، «لم يكن محارباً حزبياً»؛ أما المسؤول الثاني (روف) فقد أكد قائلاً: «نعم، أنت ملم بهذا الموضوع».

وفي مؤتمر صحفي عقد يوم الاثنين الثاني، بحضور رئيس الوزراء الهندي الزائر، سينغ، سأل تيري هانت مراسل وكالة الأسوشيتد برس الرئيس عن كارل وقضية التسريب. قال هانت: «سيدي الرئيس، سبق وقلت إنك لا تريد أن نتحدث عن موضوع ما يزال قيد التحقيق؛ ولذا فأنا أود أن أسألك، وبغض النظر عن احتمال أن جريمة قد ارتكبت، هل ما يزال في نيتك طرد أي موظف يثبت أنه متورط في قضية التسريب المتعلقة بوكالة المخابرات المركزية؟ وهل أنت منزعج بسبب أن كارل روف أخبر أحد الصحفيين أن زوجة جو ويلسون كانت تعمل في قسم أسلحة الدمار الشامل بوكالة المخابرات المركزية؟»

قال الرئيس: «إن تحقيقاً في منتهى الجدية يجري هنا». ثم تابع قائلاً:

كما أن الموضوع تتناوله الصحف، وأعتقد أنه من الأفضل للجميع الانتظار حتى يكتمل التحقيق قبل أن تقفز إلى استنتاجات. وسأقوم أنا بذلك أيضاً. لا أعرف كل الحقائق. أريد معرفة كل الحقائق. أفضل مكان يمكن أن تتم فيه معرفة الحقائق هو من قبل شخص يقضي وقته في التحقيق بشأن ذلك، أريد لهذا الأمر أن ينتهي في أقرب وقت بحيث نصل جميعاً إلى الحقيقة، وإذا ارتكب أحدهم جريمة ما، فلن يستمروا في العمل معي في هذه الإدارة.

كان السطر الأخير جزءاً من خطة الرئيس «لتوضيح» أسباب الطرد من العمل. اعتقد بارتليت أن على الرئيس أن يقول شيئاً حول ذلك السؤال الذي كنا نعرف جميعاً أنه سيطرح نفسه، وأن من الأفضل أن يبادر ويعيد تحديد ضوابط الطرد من العمل لشخص يمكن أن يكون متورطاً في التسريب، وتحديداً كارل. ونظراً لأنني كنت أشعر بأنني مصاب من الناحية النفسية، فقد وافقت دان من دون ضجة على مخططة، ولم أبد أي اعتراض عليه بالرغم من أنه لم يكن متناسباً مع ما ألزم الرئيس نفسه به في السابق.

صورت وسائل الإعلام الأمر على أنه تغير في الموقف، وهو ما كنا نتوقعه من وسائل الإعلام، ولكن كان من الأفضل المبادرة إلى القيام بذلك في أقرب وقت، حيث إن ذلك كان أفضل من تأجيله إلى وقت لاحق في المستقبل. أحسست بخيبة الأمل وأنا أرى الرئيس يتراجع، ويسير عكس الاتجاه، لكنني كنت أتفهم دوافعه. كان الوضع المتمحور برمته حول كارل، الذي كان ما يزال يصر على أنه لم يسرب بمعرفة أو بقصد منه هوية بليم السرية، ما يزال ضبابياً على الأقل بالنسبة للرئيس، ولكن كارل كان عضواً مهماً في فريق الرئيس.

في أحد أيام تلك المرحلة ولم أعد أتذكر كيف حدث ذلك، أذكر أن آندي قال لي في حديث خاص بيننا كيف أن عدداً من موظفي البيت الأبيض شعروا بالاستياء لأنني تركت وحيداً أتعرض للجلد من قبل وسائل الإعلام من دون أن أكون قادراً على الدفاع عن نفسي، بينما كان بعضهم الآخر منهم يرى أنه كان على البيت الأبيض أن يدافع عن كارل بقوة أكبر. أظن أن آندي شعر بالاستياء لأنني حُشِرْتُ في الزاوية، ويعود ذلك بشكل جزئي إلى اتصاله بي في أول يوم سبت من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2003، لكن إمالة اللثام عن روف لم تكن المرة الأخيرة التي تم فيها النيل من كلماتي ومن مصداقيتي.

بعد ثلاثة أشهر، وجّه باتريك فيتزجيرالد، المستشار الخاص الاتهام إلى رئيس أركان نائب الرئيس، سكوتر ليبى الذي تم توجيهه لتبرئته هو بالتحديد، بعرقلة سير العدالة، كما وجهت إليه تهمتان تتعلقان بالإدلاء بمعلومات كاذبة أمام عملاء مكتب التحقيقات الفيدرالية، وتهمتان أخريان بالحنث باليمين أمام هيئة المحلفين الكبرى. وكان سيتم الكشف في ذلك الوقت أنه تحدث عن بليم ليس إلى ميلر وحسب، بل إلى كوبر أيضاً، ولكنه لم يتحدث إلى نوافك - وهذا مناقض للتأكيدات العلنية التي صرحت بها علناً من أنه أكد لي العكس. كما كُشِفَ أنه تقاسم هذه المعلومات السرية مع سلفي آري فليشر، في محاولة منه استخدامهم في سبيل تسريب المعلومات إلى الصحفيين. (أدلى فليشر بشهادته فيما بعد مؤكداً بأنه لم يكن يعرف أن المعلومات كانت سرية).

في غضون الأسابيع والأشهر اللاحقة انبرت اللجنة الوطنية للحزب الجمهوري للدفاع عن روف بقوة، وكان رئيسها كين ميهلمان، الذي تم اختياره بعناية، يشغل منصب كبير

مساعدي روف، وكان أيضاً زميلاً سابقاً لي. وكان المنظرون المحافظون وقادة الفكر قد انضموا إلى حملة الدفاع عنه، وتولى تنظيم هذه الحملة جزئياً محامي كارل، وميهلمان، ومارك كوراللو، الناطق الرسمي المخضرم الذي تعاقد معه كارل بشكل شخصي لمعالجة مسألة التحقيق.

وفي النهاية، وبعد المثل مطولاً ولمرات عديدة أمام هيئة المحلفين الكبرى، نجا كارل من توجيه أي اتهامات له. أشارت التقارير إلى أنه لم يفصح عن مناقشته مع مات كوبر حول بليم في البداية، أمام هيئة المحلفين الكبرى. ثم، وبعد أن علم محاميه روبرت لاسكين عن هذا الموضوع في حديث عابر مع صحفي آخر من مجلة تايم، أشيع أن روف وضع نفسه تحت رحمة المحلفين.

دافع كين ميهلمان عن شرفي واستقامتي بقوة عندما استضيف في البرامج الحوارية، وقد فعل دان بارتليت الشيء نفسه على شاشة محطة CNN. لكن أفضل من دافع عني من ذوي المصداقية كانوا مراسلي البيت الأبيض المعروفين جيداً، والذين سبق لهم أن قرعوني بشدة بعد أسبوع على الكشف عن تورط روف؛ وبعد ذلك، في الأسبوع الذي تم توجيه الاتهام إلى ليبي. وكانوا يتمتعون بالمصداقية نظراً لأنهم لم يكونوا يعتمدون على الحقائق أو يدورون من أجل غايات حزبية، بل كانوا بكل بساطة، يعبرون عما يعتقدون أنه الحقيقة.

على سبيل المثال، عندما أطل ديفيد غريغوري، كبير مراسلي محطة NBC في البيت الأبيض، وأشد خصومي قسوة وبعداً عن التسامح في قاعة اللقاءات الصحفية، مع كريس ماثيوز في برنامج Hardball في الحادي والثلاثين من شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2005، سئل عما أنا فيه. وكان ذلك يوم الاثنين الذي تلا الاتهام الوحيد الذي وجهه فيتزجيرالد في موضوع التحقيق، وأثناء استمرار فيتزجيرالد بالتحقيق في دور روف في الوقت الذي كنت أكرر فيه موقفني الدفاعي المتمثل بعبارتي «لا تعليق لدي» حول القضية برمتها من على المنصة:

سأل ماثيوز غريغوري: «لقد تحول الجو إلى حار نوعاً ما، في قاعة اللقاءات الصحفية في هذه الأيام، أليس كذلك؟»

أجاب غريغوري: «بالتأكيد، يمكن أن يكون حاراً، وقد أصبح بالفعل حاراً خصوصاً عندما تسمع تصريحات سكوت ماكليان حول عدم تورط هؤلاء الأفراد بأي شكل من الأشكال أو الطرق أو الصيغ». ثم تابع يقول:

أعني أن سكوت في موقف صعب، ونحن نفهم ذلك، لأنه طلب إليه، وإلى كل موظفي البيت الأبيض، من قبل هاريت ميرز المستشارة في البيت الأبيض، عدم الخوض في هذا الموضوع بتاتاً.

ولكنه في الواقع أدلى بتصريح علني أفاد فيه أنه تلقى تأكيدات بشكل مباشر من كل من روف وليبي تفيد بأنهما غير متورطين البتة في أي من هذا، وهذا لم يكن صحيحاً. لأنه حتى لو لم يرتق ذلك إلى مستوى الجريمة، ونحن نعلم أن اتهاماً قد تم توجيهه إلى سكوتر ليبي بارتكاب جريمة عرقلة سير العدالة، والحنث باليمين، فإن كارل روف لم توجه إليه تهمة ارتكاب أي جريمة؛ لقد تورطاً في واقع الأمر بأحاديث حول ضابط سري تعمل في سلك وكالة المخابرات المركزية. ليس عليك أن تصدقتي، ولكن هذا هو ما قاله المدعي الخاص فيتزجيرالد عن سرية... [بليم].

هذا هو الوضع الذي هو فيه الآن. إنها مسألة تتعلق بالمصادقية؛ ولقد قال لنا سكوت، اسمعوا: أنتم معشر الصحفيين تعرفونني، فأنا شخص ذو مصداقية. وهذا صحيح. سمعته فوق الشبهات. لكن المسألة تتعلق بالشعب الأمريكي كما تعلم. فلو قلت شيئاً تبين فيما بعد أنه غير صحيح، فإن المسألة تصبح جدية.

في اليوم الذي سبقه، وضمن برنامج Reliable Sources على محطة CNN، الذي يقدمه الصحفي الإعلامي هوارد كورتز، بالتعاون مع صحيفة واشنطن بوست، انبرى جون روبرتس مراسل محطة CBS للدفاع عني. سأله كورتز: «هل تعتقد يا جون أن

سكوت ماكيلان مدين باعتذار للصحافة والجمهور بسبب - ما تبين لاحقاً أنه إنكار مضلل في قضية تسريب معلومات عن وكالة المخابرات المركزية؟»

قال روبرتس: «حسنٌ، أنت تعلم يا هوارد أنني قد أكون ضمن أقلية في هذا المضمار، لكنني أظن أنه يمر في وقت صعب بسبب هذا الموضوع»، وتابع قائلاً:

أنت تعلم أنه لا يخرج إلى العلن ويتحدث عن هذا الموضوع من تلقاء نفسه... إنه يخرج إلى هناك ويحاول بأمانة أن يعرض أي شيء يطلب إليه البيت الأبيض أن يقوله. من الواضح أنه زُوِدَ في شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2003 بمعلومات سيئة جداً. هل أخطأ في التصريح عن هذه المعلومات؟ لا أظن ذلك. أعتقد أن من زوده بهذه المعلومات هو المخطئ - المخطئون هم الذين زودوه بما يتضح الآن أنها كانت معلومات خاطئة.

لذا أعتقد أن سكوت - كما تعلم، فأنا أعرفه منذ سنين عديدة. وكانت لي معه علاقة عمل جيدة. أعتقد أنه صادق فيما يقوله. وأعتقد أنه يدافع عما يؤمن به. كما أنني أعتقد أنه طلب إليه حمل مياه غيره، وتبين فيما بعد أن هذه المياه كانت آسنة.

في اليوم نفسه، وفي ظهور له وهو يجلس إلى الطاولة المستديرة في برنامج This Week With George Stephanopoulos، تصدى تيري موران أيضاً، وهو كبير مراسلي محطة ABC في البيت الأبيض، للدفاع عن سمعتي بصراحته المعهودة. سأل ستيفانوبولوس: «ما الذي سيفعله البيت الأبيض الآن بسكربتيره الصحفي سكوت ماكيلان، وبحقيقة أنه في مناسبة، إثر مناسبة، إثر مناسبة، ليس لديه ما يقوله سوى الإنكار الكامل لأي تورط لكارل، أو أي تورط لليبي؟»

أجاب موران بالقول: لقد حشر السكرتير الصحفي في وضع صعب بشكل لا يصدق، لقد كنت في القاعة. كان يطلعنا على معلومات كاذبة مرة إثر أخرى من دون أن يعرف ذلك».

سألت كوكي روبرتس، وهي إحدى المشاركات في النقاش: «هل تظن أنه كان يعرف؟»
 أجاب موران: «كلا»، وأضاف: «لقد أشار إلى أنه يريد أن يروي لنا القصة»: وكان
 يشير بذلك إلى تعليقاتي الأمنية حين كنت على المنصة، والتي قلت فيها إن أحب شيء
 إليّ هو أن يكون باستطاعتي التحدث حول أحداث أحاطت بتبرئتي العلنية لكل من
 روف وليبي.

قال ستيفانوبولوس: «عليّ إذاً أن أطرح السؤال الآتي حسنً، قلت إنه لم يكن يعرف
 شيئاً عن الموضوع، وإذاً، فهل يعني هذا أن كارل روف كان يكذب عليه؟»
 قال موران: نعم، نعم.

سأل ستيفانوبولوس: «ماذا سيفعل الرئيس حيال ذلك؟»

قال موران: «يجب عليه القيام بشيء ما»، قبل أن يستدرك متوقفاً - وهو محق في
 هذا - التفعيل المستمر للجدار الأصم الذي يمثل إستراتيجية التواصل الفظيعة في البيت
 الأبيض: «ينبئني حدسي أنهم سينحّون الأمر كله الآن جانباً. سوف يقولون إنها قضية
 جنائية يتم التحقيق فيها بصورة مستمرة، ولذا فنحن سننحّي بها جانباً».

أضاف روبرتس، في إشارة منه إلى بيل كلينتون: «كانت عندنا رئاسة مؤخراً كذب فيها
 الرئيس على سكرتيره الصحفي، وعلى الجميع في البيت الأبيض».

ألح ستيفانوبولوس بالسؤال: «ولكن ماذا سيفعل الرئيس؟»

تدخل جورج ويل قائلاً: «في هذه المرحلة، سيغير الموضوع، إنها عادة قديمة في
 العمل السياسي، وتتلخص في أنه إذا لم تعجبك الأخبار، أخرج واصنع أخبارك
 بنفسك»: وكما توقع أن هذا ما سيقوم به الرئيس بالضبط، فقد أعلن هذا الأخير
 عن تسمية مرشح جديد لعضوية المحكمة العليا بعد إعلان هاريت ميرز عن سحب
 ترشيحها قبل عدة أيام على ذلك.

رشح الرئيس سام أليتلو لعضوية المحكمة في صباح اليوم الثاني مباشرة. لكن هذا لم يؤثر البتة في رفع إحساسي بالمهانة المؤلمة، أو يبعد الضربات المستمرة التي كملت لمصداقية إدارة بوش.



وفي مقابلة له مع ميهلمان، رئيس الحزب الجمهوري، قال جون كينغ من محطة CNN:

أنت تصف سكوت ماكليان بالرجل المستقيم. أوافقك الرأي. بالرغم من أن قلبي هذا قد يشكل خطراً عليّ. من المفترض أن أكون موضوعياً هنا. إنه شخص مستقيم. إنه يقوم بأصعب وظيفة في واشنطن. لقد كنت في قاعة اللقاءات الصحفية نفسها عندما طرحت أسئلة مشابهة في عهد هذه الإدارة، وأسئلة مشابهة في عهد إدارة كلينتون. ولوراقبت ما جرى، سواء أكنت موضوعياً أم لا، فقد عانى من بعض الضرر الذي وقع في تلك القاعة. إن مصداقيته أضحت محل تساؤل بالنسبة لأولئك الذين يقومون بتغطية نشاطات الرئيس يومياً بسبب ذلك.

بعد ذلك، طرح كينغ على ميهلمان السؤال الآتي: «وإذاً، فأنت تقول بالأساس إن هذا ثمن مقبول: سكوت ماكليان، الشخص الذي كان مالياً لهذا الرئيس منذ أن كان هذا الأخير حاكماً لولاية تكساس. هل تعد مصداقية هذا الرجل ثمناً مقبولاً مقابل الدفاع عن كارل روف؟»

رد ميهلمان قائلاً: «ما أقوله هو أن سكوت ماكليان، وكارل روف، وجورج دبليو بوش مهتمون بالعملية نفسها أكثر من اهتمامهم بمعايير المصداقية الشخصية»: وتابع قائلاً:

يريدون الوصول إلى وضع حد لهذه القضية. يريدون أن يتأكدوا من أن العدالة ستأخذ مجراها. ولكي تأخذ العدالة مجراها لا يعني أن يقوم البيت الأبيض والرئيس بإصدار تصريحات من على المنصة حول تحقيق عن البيت الأبيض. ولذلك فأنا أعتقد، وبكل صراحة، أن ما يقوم به مدعاة للإعجاب: كما أظن أن حقيقة رغبته في وضع نفسه ثانياً، والعملية أولاً هي بالضبط ما نتحدث عنه عندما نقول إن المرء يأتي إلى واشنطن بهدف الخدمة، وليس لكي ينتابه القلق بشأن نفسه.

كان تمسكي بالعبارات الصريحة التي تفوهت بها أمام السائلين في قاعة اللقاءات الصحفية شكلاً آخر من أشكال خداع الذات وذلك لاعتقادي بأن سمعتي ومصادقيتي أمام الصحافة يمكن أن لا تتأثرا في غياب وجود تفسير شخصي ومنطقي؛ وهو التفسير الذي تم منعي من البوح به لأنني التزمت بالتوجيهات التي قضت بأن لا أقوم بالتعليق على ما حدث.

بالعودة إلى الماضي، يمكن القول إن العلاقة القوية المبنية على الثقة المتبادلة التي نشأت بيني وبين الجسم الصحفي المتمركز في البيت الأبيض لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى السماح للناطق الرسمي المطعون في مصداقيته في أن يجتاز - وبالكاد - الأشهر القليلة الآتية.

كانت هناك لحظة أثناء حكاية التسريب أجدني متردداً بالخوض فيها. ولكن بما أنني ملتزم بقول الحقيقة كما أعرفها، وطالما أن تلك اللحظة لها بعض الصلة بما نحن بصددده إذا أخذنا بعين الاعتبار توقيتها وطبيعتها، فإنني أشعر أن الكشف الكامل عنها هو الخيار الوحيد المتاح أمامي.

اللحظة التي أتحدث عنها حدثت سنة 2005 عندما كان الاهتمام منصباً على كل من روف وليبي، وهذه اللحظة محفورة في ذاكرتي. لا أذكر اليوم الذي حصلت فيه بالضبط، ولكنها أعقبت اجتماعاً لأركان البيت الأبيض في مكتب أندي كارد. كان يتقاسم جناحاً يتكون من مكتبين، بالإضافة إلى ثلاثة من المساعدين الذين كانوا يحتلون المنطقة المشتركة التي تصل بين المكتبين وكانت تستعمل أيضاً كردهة انتظار ومدخل إليهما. أما المكتب الثاني فكان يشغله نائب رئيس الأركان لشؤون السياسة، وكان حينها كارل روف نفسه.

ضم الاجتماع الذي عقد في مكتب أندي عدداً من المديرين، أو مساعدي الرئيس، وبعض النواب، أو نواب مساعدي الرئيس. أعتقد أن من بين الحاضرين في ذلك الاجتماع كان بعض المساعدين الخاصين.

بعد الاجتماع، كان بعضهم منا ما يزال يتجه نحو الباب باتجاه المنطقة المشتركة للجناح، ونختلط مع بعضنا بعضاً أمام المدخل قرب باب مكتب كارل، وأمام طاولة

مساعده القدير تايلور هيووز . كان سكوتر ليبي يمشي باتجاه المدخل وهو يتهيا للمفادرة عندما استدار كارل كي يلفت انتباهه.

سأل كارل: «هل لديك وقت لتقوم بزيارة؟»

أجاب ليبي: «نعم».

كانا على بعد عدة أمتار مني قبل أن يختفيا وراء الباب المغلق في مكتب كارل.

لم تكن لدي فكرة عما دار بينهما، ولكن ما كان يجمع بينهما مثير شبهة، ذلك أنني لم ألحظ مطلقاً قبل ذلك أنهما أمضيا لوحدهما وقتاً معاً؛ أو الاختفاء وراء أبواب مغلقة، والقيام بزيارات خاصة. كان باب كارل مفتوحاً دائماً إلا إذا كانت هناك حاجة ملحة تستدعي الخصوصية. وكان مألوفاً بالنسبة لي أن أطل من الباب، وأقطع عليه عمله للحظة. كان كارل يبدو مشغولاً بشكل دائم وهو يعمل على قضايا، وأحداث، ومخططات لا تنتهي. ولو أردت الحصول على معلومات منه بغية التحضير للقاء الصحفي، وهي معلومات كان علي الحصول عليها تحت ضغط عامل الوقت، كان علي إتباع أسهل الطرق لتحقيق ذلك، ألا وهو الذهاب إليه مباشرة.

لماذا بقيت هذه اللحظة عالقة في ذهني بهذا الوضوح؟

لأن هذين هما الزميلان، وأحدهما من أصل تكساس مثلي، اللذان وضعت مصداقيتي على المحك من أجل الدفاع عنهما. وهما الشخصان اللذان أكدا لي بصورة قاطعة أنهما غير متورطين في تسريب هوية فاليري بليم. كما أن واحداً منهما على الأقل، وهو روف، قام بتضليلي بسبب أنه لم يشاطرنني المعلومات المطلوبة؛ وكانت الإشاعات التي تلامس الحقيقة تشير إلى أن الآخر، ليبي، فعل على الأقل، الشيء نفسه.

عقد هذا الاجتماع السري بين الرجلين في لحظة كانت الضربات تنهال عليّ من قبل الصحافة لأنني دافعت بشكل علني عن الاثنين عن طريق ادعائي أنهما غير متورطين في تسريب هوية بليم في الوقت الذي كشفت معلومات مؤخراً عن أن العكس قد حصل. لم أرَ هذين الشخصين، على امتداد السنوات الأربع التي عملنا فيها سوياً في البيت الأبيض، يجتمعان لوحدهما أبداً قبل ذلك. أما الآن، فهما يجتمعان بشكل خاص وراء الأبواب

المغلقة في وقت متأخر من اللعبة عندما كانا ما يزالان يخضعان للتحقيق، وتحت المجهر الشعبي المتزايد.

لم أعرف شيئاً عما تمت مناقشته، ولكن ما الذي يمكن لأي شخص مطلع أن يستنتج بشكل عقلائي ومنطقي طبيعة الموضوع الذي كانا يناقشانه؟ وكما هي الحال بالنسبة إلى الحقيقة الكاملة التي ننشدها حول تورط بعض الأشخاص في هذه القضية، فإننا لن نعرف أبداً بشكل مؤكد.



قادني الإحساس بالحرق الذي يتعاضم من حولي إلى التفكير لبرهة، في الاستقالة . إلا أنني لم أشعر أبداً بأن الرئيس نفسه قد ضلّني عن سابق تصور وتصميم، أو أنه حجب عني معلومات ذات صلة. وبالرغم من بعض الشكوك التي كانت تحوم في الداخل حول النهج الذي نسير عليه، فقد بقيت مصمماً على احترام التزامي أمامه، من دون التبصر بمدى الصعوبات التي تحوط هذا الالتزام.

أتخيل أن بعضهم كان يتصور أن استقالتني في تلك اللحظة ستساعد الرئيس. ربما كانت ستساعد. إلا أن الإذعان اللا شعوري الذي أبداه بوش، والذي كان في بعض الأحيان عاملاً مساعداً في تمرير سياسة الخداع هو مما وضعنا في هذا الموقف المربك. وسوف يستمر في التسبب بضربات كارثية لرئاسته، ولرأي الناس فيه، فبدلاً من التزام خيار الانفتاح والصراحة لمنع الفضيحة من أن تترسخ، فقد سمح للشبهة أن تزداد، وللحرب الحزبية أن تزدهر.

بعد أكثر من ثلاثين سنة، كانت ثقافة الفضيحة الدائمة التي وسمت إرث نيكسون تلاحق رئيساً آخر أخفق في تعلم دروس ووترغيت، دفعت بالتأكيد الثمن نتيجة لذلك، ولكن إدارة بوش دفعت ثمناً أكبر من ذلك بكثير - وكذلك البلاد التي تعهدت هذه الإدارة بخدمتها.

15

الانسلاخ عن الواقع

تم الإعلان عن بدء المؤتمر نحو الساعة الخامسة صباحاً من يوم الثلاثاء الواقع في الثلاثين من شهر آب، أغسطس، سنة 2005. كنت قد استيقظت قبل ذلك بفترة وجيزة لأن النوم جفاني. وصلنا إلى كاليفورنيا قادمين من تكساس قبل يوم واحد حيث أمضى الرئيس كماداته الجزء الأكبر من شهر آب، أغسطس، وهو يعمل من بيته في مدينة كروفورد. وكالعديد من أركان المرافقين، كان ما يزال على توقيت وسط أمريكا. أتى الرئيس إلى مدينة سان دييغو، لإبداء بعض الملحوظات بمناسبة إحياء الذكرى الستين للانتصار على اليابان وذلك ضمن كلمة يلقيها أمام مجموعة من المتقاعدين، ورجال البحرية، وقوات من العمليات الخاصة، وضباط من القوى البحرية، والبحارة، والملاحين العاملين في القاعدة الجوية في الجزيرة الشمالية. الوزير رمسفيلد الذي كان مسافراً بشكل منفصل، كان هناك أيضاً. بعد ذلك، كان جدول الرئيس يتضمن زيارة إلى بعض الجرحى من رجال البحرية في المركز الصحي القريب قبل العودة إلى كروفورد لقضاء الأيام القليلة الباقية من الصيف هناك.

كانت إحدى المزايا القليلة التي نتمتع بها عندما نكون ضمن الطاقم المرافق للرئيس، أو «طاقم الطريق» كما كنا نطلق على أنفسنا، تتمثل في الإقامة معه في أحد الفنادق الفخمة. في هذه الرحلة، كانت غرفتي في فندق ديل كورونادو التاريخي وهو فندق خمسة نجوم يقع على شاطئ ديل مار في مدينة سان دييغو - على بعد عدة غرف من الجناح الذي يقيم فيه الرئيس.

كانت الرحلة إلى الغرب قد تم التخطيط لها وإقرارها منذ مدة طويلة. ولم يكن أحد يتوقع حينها أنها ستصادف عطلة نهاية الأسبوع الذي سيضرب فيه إعصار كارثي الولايات المتحدة. كان من الصعب تصور حجم التأثير الذي سيحدثه إعصار كاترينا

بقوته التدميرية التي ستغطي أكثر من 90.000 ميلاً مربعاً. وكان الهدف من الدعوة إلى المؤتمر صباح هذا اليوم وضع بعض كبار أعضاء طاقم الرئيس في آخر مستجدات الوضع الحالي في أعقاب الإعصار، وأهم من ذلك، وضعهم في صورة خطط الرئيس الآنية.

علمنا منذ مدة أن الإعصار سيكون شديداً، وأن نتائجه ستكون سيئة. وكان الرئيس قد اتخذ خطوة غير اعتيادية تمثلت في إعلانه ولايتي لوزيانا وميسيسيبي منطقتي كوارث وذلك يومي السبت والأحد السابقين على التوالي وذلك قبل أن يضرب الإعصار. (جاء هذا الإعلان استجابة للحاكمين كاثلين بلانكو وهالي بربور، وكانت الإدارة على اتصال بهما؛ ويعود السبب في ذلك جزئياً إلى أن كلفة الاستعدادات للطوارئ التي قامت بإعدادها الولايتان يمكن أن تعوضها الحكومة الفيدرالية بعد انحسار الإعصار.) تم اتخاذ إجراءات أولية قاسية جداً صبيحة يوم الأحد بما في ذلك إصدار أول أمر بالإخلاء القسري في تاريخ نيو أورلينز، أصدره عمدة المدينة راي ناغين (سبق للرئيس أن حثه على القيام بذلك في اتصال هاتفي).

ومع ذلك، وبمرور الوقت، تواردت أنباء أكثر سوءاً. من هنا برزت الحاجة للدعوة إلى عقد هذا المؤتمر.

هناك في واشنطن، كان دان بارتليت هو الذي اقترح إجراء هذه المكالمات عن طريق نظام الاتصال في البيت الأبيض، وهو نظام خدمة اتصالات عسكري يدار بواسطة عامل المقسم؛ وهذا النظام مخصص لقضايا الأمن القومي وكبار الموظفين من أعضاء وكالة الاتصالات التابعة للبيت الأبيض، ويقدم تسهيلات كاملة في مجال الاتصالات بالرئيس، ونائب الرئيس، ومجلس الأمن القومي، والأمن السري، وكبار موظفي البيت الأبيض، بما في ذلك الاتصالات الآمنة وغير الآمنة. من بين الموصولين بهذا النظام، كان رئيس أركان البيت الأبيض، آندي كارد الذي كان يقضي إجازته في ولاية مين، ونائب رئيس الأركان لشؤون السياسات، كبير المستشارين كارل روف، وبارتليت، وجوهاغين، نائب رئيس الأركان لشؤون العمليات، وأنا. كنا، هاغين وأنا، مسافرين مع الرئيس بوش. ومن

بين مهامه الأخرى في البيت الأبيض كان منصب ضابط الاتصال الداخلي للتنسيق مع المسؤولين في الإدارة الذين يتولون مهمة التحرك في حال حدوث كوارث طبيعية.

بالعودة إلى تلك المرحلة، أذكر أنني لم أكن في أحسن أحوالي. فمئذ بضعة أسابيع قبل ذلك، تعرضت للتشهير بدعوى أنني زورت الحقائق عبر تأكيدي على أن كارل روف ليس متورطاً في تسريب هوية فاليري بليم. ونتيجة لذلك، تلقت مصداقيتي بوصفي ناطقاً باسم الرئيس ضربة موجعة، وهو ما كان يتم تذكيري به، ويضبط عليّ بشكل متزايد عندما أكون على المنصة في قاعة اللقاءات الصحفية في البيت الأبيض، عقب الكشف عن الحقيقة مباشرة. استهلكتنى هذه الأحداث نفسياً بشكل هائل، وشعرت بحاجة إلى أخذ إجازة من جو واشنطن - بعيداً عن زملائي، وبعيداً عن الأضواء؛ كنت بحاجة إلى وقت أخلد فيه إلى نفسي كي أرتاح مما كنت أعاني منه. ولذلك أخذت إجازة لبضعة أيام وسافرت مع زوجتي جيل إلى مخبأ بعيد منعزل في ولاية كارولينا الشمالية، وأخذنا معنا كلبينا. ومع ذلك، فقد كنت ما أزال أشعر بالوهن وبقليل من الإحباط، في الوقت الذي بدأ ذلك الأسبوع المشؤوم.

قبل أن أستحم أو أحلق ذقتي، وكنت ما أزال أرتدي قميص القصير الأكمام، وسروالي القصير، بدأت أنتقل بين البرامج الإخبارية الصباحية. ذكرت الصحف التي تم إيصالها إلى بابي أن مدينة نيو أورلينز قد نجت على ما يبدو من ضربة كارثية، إلا أن مراسلي البرامج الصباحية المتواجدين في ذلك المكان كانوا ينقلون أخباراً عكس ذلك. كنت ما أزال بانتظار ملخص عن التقرير الصباحي اليومي الذي كان سيتضمن تقريراً عن وضع الإعصار كاترينا من الداخل، وذلك من غرفة العمليات في البيت الأبيض.

رن جرس الهاتف. كان دان بارتليت وأنا، أول من تم ربطهما بنظام الاتصال. وفي الدقائق التي سبقت ربط الآخرين بالنظام المذكور، أطلعني دان باختصار على آخر المستجدات مما عرفه عن الوضع. قال دان: «إن الوضع سيء». وهو أسوأ مشهد يمكن أن يحدث لنيو أورلينز. لحق الدمار الكامل بأغلبية مناطق ساحل الخليج، على امتداد الجنوب الشرقي لولايتي لويزيانا والميسيسيبي أيضاً.

لكن أكثر خبر إثارة للصدمة كان يتعلق بالدمار الذي أصاب مدينة نيو أورلينز. فأغلبية مساحة المدينة تقع تحت مستوى سطح البحر، وهي منخفضة على شكل وعاء تحيط به حواجز وجدران صد للفيضانات. كان إعصار كاترينا من الدرجة الثالثة ترافقه هبات إعصارية تبلغ خمسة وعشرين قدماً في الوقت الذي كانت عين الإعصار على بعد أربعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من المدينة. وقد ازداد اتساع عرضه وهو يقترب من الشاطئ، بالإضافة إلى أن سرعة رياح هذا الإعصار تجاوزت 103 أميال من المركز. وقد علمت الآن أن الحواجز قد تم تخطيها. وهذا يعني أن مياه الفيضان لن تنحسر في مدة قريبة.

تم وصل أعضاء فريق بوش بالنظام واحداً إثر آخر. لم نطلع على تقرير مفصل حول الوضع: جميعنا سمع كيف أن الحال أصبحت أكثر سوءاً، إما عبر الصور والتقارير الواردة من شاشات تلفزيوناتنا، أو من التقارير الداخلية الصادرة عن البيت الأبيض. علمنا أن إعصار كاترينا تسبب في خسائر جسيمة وأحدث دماراً شاملاً، واجتمعنا على رأي يقضي بأن على الرئيس العودة إلى واشنطن في أقرب وقت ممكن.

كانت الخطة التي وضعناها تقضي بأن يعود الرئيس فوراً إلى مدينة كروفورد، وذلك بعد زيارته الصباحية للقاعدة البحرية والمستشفى. وهذا سيوفر الوقت للجميع في حاشية الرئيس كي يحزموا أمتعتهم مساءً في ولاية تكساس، ويعودوا إلى واشنطن صبيحة اليوم الثاني. ولكن بالعودة إلى تلك اللحظة، يمكن القول إنه كان من المستحسن لو عدنا مباشرة إلى واشنطن. إلا أن أحداً لم ينتابه إحساس بأن العودة بهذا الشكل اللولبي ستكون له أي آثار سلبية طالما أن الرئيس على اطلاع كامل على كل شيء، وطالما أن الشعب يعرف أنه قطع إقامته في تكساس لهذه الغاية.

سأل كارل روف: «هل يمكن لنا ترتيب رحلة استطلاع جوية للرئيس في طائرة الرئاسة؟ يجب علينا إطلاعه على الدمار الذي لحق بمدينة نيو أورلينز، وعلى امتداد ساحل ولاية الميسيسيبي وولاية ألاباما وهو في طريق العودة إلى واشنطن». كالعادة، كان روف يفكر من منطلقات سياسية. هذه كانت وظيفة روف، ولم يكن أحد آخر باستطاعته أن يجيدها بالدرجة نفسها. كان منطق تفكيره في هذا الوضع جلياً: التحليق فوق هذه المنطقة المنكوبة سيعكس على الأقل قلق الرئيس واهتمامه بالوضع.

كانت تقديرات روف الفطرية حول موضوعات كهذه تصيب هدفها عادة، لكن هذا الاقتراح أشعرنني بالضيق. لم ترق لي الفكرة، ولذلك فقد سارعت إلى القول: «أعتقد أن هذه فكرة سيئة» مؤكداً «أنه سيكون على ارتفاع عشرة آلاف قدم في الجو: ينظر من عل إلى الناس الذين يتم إنقاذهم من على أسطح المنازل. سوف يكون ذلك انسلاخاً عن الواقع، وانعزال عنه. وإذا كان لا بد له من الذهاب، فليكن ذلك على الأرض مختلطاً بالناس الذين يعانون من هذا الإعصار بشكل مباشر».

أضفت قائلاً: «أو ليكن هذا الاستطلاع في رحلة بطائرة هيلوكبتر، هذا إذا لم يكن باستطاعته أن يكون على الأرض: وإذا لم يكن بإمكانه القيام بذلك أيضاً، فمن الأفضل له العودة مباشرة إلى واشنطن من دون أن يطير فوق المنطقة المنكوبة».

أضاف بارتليت على الفور: «أنا موافق»، ولم يعترض أحد على ذلك. شعرت بأن القضية طويت: لن يكون هناك طيران لتفقد الدمار الذي أحدثه إعصار كاترينا.

كنت واثقاً جداً من أنني كنت محقاً في رأيي، ومن ردة فعلي الفطرية حول هذا الموضوع. تذكرت أنني عندما كنت صغير السن، كنت برفقة والدتي، التي كانت عمدة مدينة أوستن، في الزيارة التي قامت بها شخصياً إلى المناطق التي ضربتها فيضانات مدمرة. كما تذكرت كيف قمت أنا وجوها غين قبل سنة من الآن، بمرافقة الرئيس في الزيارات الأربع التي قام بها إلى فلوريدا خلال عدة أسابيع، وكان يزورها في كل مرة حدث فيها إعصار كبير تسبب في تدمير المنازل وإلحاق الضرر بالممتلكات.

كان الرئيس يستوعب دوره قائداً لحملة التخفيف من الآلام في أوضاع كهذه، وكان يؤدي هذا الدور ببراعة ملفتة، وهو يبدي اهتماماً حقيقياً وتعاطفاً مع ضحايا هذه الكوارث. كان يسير مترجلاً في جولات على المناطق المتضررة، ويشاهد بأم عينيه الدمار الذي لحق بالمنازل، ويخفف عن آلام العائلات المنكوبة مقدماً الدعم لها. وكانت زيارته إلى ولاية فلوريدا تتضمن رحلات جوية بطائرة الهيلوكبتر برفقة الحاكم (شقيقه جيب)، وبعض المسؤولين الآخرين، وذلك لكي يكون بمقدوره مشاهدة الدمار عن كثب. ولقد تفهم

هاغن هذه العملية بشكل جيد، وكان يتصرف دائماً على أساس التخطيط لأحداث كهذه تبعاً لهذا الفهم.

بالمقابل، كان التحليق لمشاهدة آثار الإعصار، كاترينا من على متن أكثر طائرات العالم ترفاً وتميزاً وهي طائرة الرئاسة من طراز بوينغ 747، سوف يطبع في عقول العاملين في الصحافة والناس عموماً صورة عن رئيس لا مبالٍ ومتحجر القلب. وطالما أنه ليس في برنامجنا أن نحط على الأرض، فقد شعرت أنه من الأفضل لنا العودة إلى واشنطن العاصمة، ونبدأ عملية الإشراف على عملية الطوارئ من هناك.

لذا، كان من دواعي سروري أن ألقى تأكيدات بواسطة نظام دارة الاتصالات أنه لن يكون هناك تحليق لطائرة الرئاسة فوق المناطق المنكوبة. ولكن، ولسوء الحظ، يبدو أنني تسرعت جداً في قبول هذه التأكيدات.

انتهت هذه المحادثة بعد وقت قصير، في الوقت الذي كانت تناقش فيه الخطط النهائية. قلت: «في أول نشاط لي هذا الصباح، سوف أخبر الطاقم الصحفي المرافق عن التغيير في خطة الرحلة. سوف أخبرهم أن هناك رحلة محتملة إلى منطقة ساحل الخليج بنهاية الأسبوع. وسوف أخبر الصحفيين أيضاً عن آخر المستجدات التي يحاط بها الرئيس علماً، وأن من المحتمل أن يشارك في مؤتمر بالدارة المغلقة صباح غد من مزرعته».

كان الجميع سعداء بهذه الخطة.

لكن الرئيس بوش كان يسبقنا بخطوة واحدة. عندما انتهى الاتصال، وتوجه هاغن إلى إطلاعه على ما توصلنا إليه من أفكار، تحدث الرئيس أولاً، أبلغ هاغن أنه قرر أن من الضروري العودة إلى واشنطن. بدأ كامل أفراد الفريق المرافق بالإعداد للسفر، وكان عليهم البدء في مشهد مرتجل في حفلة الرقص المعدة بعناية، والتي نطلق عليها تسمية «الرحلة الرئاسية».

ركزت بصفتي سكرتيراً صحفياً على الحكاية التي سردناها أمام وسائل الإعلام الإخبارية حول ردة فعل الرئيس على إعصار كاترينا. كنت أعلم كم كان ذلك مهماً.

كانت الكوارث الطبيعية تعد على نطاق واسع، امتحاناً للزعامة الرئاسية. فالصحافة والناس يريدون رؤية رئيسهم وهو يتصرف بحزم مستخدماً سلطاته كافة في أعقاب حدوث الكارثة مباشرة. كما يتوقعون قيامه بزيارة المنطقة المنكوبة بأسرع ما يمكن. حيث تستخدم الصحافة هذا الفعل من الرئيس كمقياس لاهتمامه بما يجري.

تعقد الوضع الحالي بسبب أن الرئيس «يمضي إجازته حالياً في كروفورد» حسب ما أكدته الصحافة؛ وهو ما كان منتقدونا يستخدمونه بشكل منتظم للإشارة ضمناً إلى أنه غير مكترث بالموضوعات المهمة. ولكن بصراحة، وبحكم كوني أعيش الواقع من الداخل، أنا أعتبر أن هذا التأكيد خارج السياق، ومناسباً لأن يكون سرديّة مُرضية سياسياً لا أكثر ولا أقل - خصوصاً عندما تظهر مشكلة ما، فجأة في مكان ما، من العالم، كما حدث هذا الأسبوع. فالرئيس لا يكون أبداً في إجازة. يمكن أن يذهب أحياناً إلى مكان ما، كي ينفس الضغط الذي يكاد يطبق عليه، ويصفي ذهنه، ويهرب من المعمة في واشنطن؛ لكنه لا يعطي نفسه إجازة ليوم كامل أبداً، وخصوصاً في عصر تقانة الاتصالات المتقدمة التي نعيشها اليوم. فكل شيء، أو كل شخص يحتاج إليه، هو إما معه، أو في متناول يده على مدار أربع وعشرين ساعة في اليوم، وسبعة أيام في الأسبوع، بدءاً من إطلاعه على القضايا الأمنية، وآخر مستجدات الأخبار السرية، وانتهاء بتوفير الاتصال الفوري مع القادة على امتداد البلاد والعالم.

اغتنمنا فرصة بقائنا في كروفورد هذا الأسبوع للقيام برحلة باتجاه الغرب تهدف من ضمن أهداف أخرى، إلى تعريف الكبار في السن بوصفات الأدوية في نظام العناية الصحية الجديد والذي سيتم تطبيقه قريباً، بالإضافة إلى إحياء ذكرى الانتصار على اليابانيين في الحرب العالمية الثانية، والزيارة المرتقبة لجنود البحرية الجرحى. بالنسبة إلى أي شخص عادي، يعتبر برنامج مثل هذا، منهكاً - كقيام مسؤول تنفيذي كبير بإلقاء سلسلة من الخطابات على سبيل المثال. لكن هذا لم يمنع منتقدينا من الهجوم على الرئيس «الذي يقضي إجازته في كروفورد» من أجل شحن متزايد للجو بهذه الأفكار. أذكر أنه كان عليّ أن أضع الأمور في نصابها بعد عدة أشهر عندما ذكرت مقالة في صحيفة نيويورك تايمز ما أرادت إظهاره كحقيقة، أن الرئيس شعر بالارتياح يوم عرف

أن مدينة نيو أورلينز قد نجت من ضربة كارثية بينما كان «يقضي إجازة في كروفورد».
في الحقيقة، كان الرئيس في مدينة سان دييغو، ولم تكن نشعر بالارتياح. لكن مصطلح
«الإجازة» يعد مناسباً لاختلاق القصة المناسبة - التي تزعم أننا أسأنا التقدير، وقد كان
ذلك صحيحاً.

فهمت أن كل ذلك كان جزءاً من السياسة المعمول بها في واشنطن، ولكنني أردت
التأكد من أن ما يزعم أنها كانت «إجازة» لم تفسر على أن «الرئيس كان يستجم بينما
كانت نيو أورلينز تفرق». هنا تكمن أهمية التنظيم الحصيف لخطط السفر، وإطلاع
الصحافة عليها بشكل كامل، وبكل شفافية. ولكن لسوء الحظ، كانت ستطفي على هذه
القضية مشكلات سياسية وإدارية أكبر سيتم الكشف عنها في الأسبوع الثاني.

كانت مسألة تحديد موعد قيامنا بالسفر إلى مدينة نيو أورلينز بعد ذاتها تشكل
مجموعة من التعقيدات. كانت الممارسات المعيارية للبيت الأبيض في عهد بوش لا
تتضمن أن يقوم الرئيس بالظهور في منطقة الكوارث الطبيعية. كنا نريد أولاً وقبل كل
شيء، التأكد من أن شيئاً لا يمكن أن يعرقل سرعة التحرك في حال الطوارئ، وجهود
إعادة الإعمار في أعقاب حدوث الكارثة مباشرة. فحتى لو كانت مثل هذه الزيارة من
قبل الرئيس غير معلنه على نطاق واسع، فإن المرافقين، والطاقم الصحفي، والعملاء
السريين، وعناصر الدعم سيشكلون حاشية من الحجم الكبير: ناهيك عن الطاقم الذي
يجب أن يسافر قبل الرئيس لتنسيق كل ما يتعلق بهذه الزيارة مع الأشخاص المسؤولين
على الأرض. عندما تحل المصيبة، وتكون حياة الناس في الميزان، فإنه ليس من المنطقي
أن تشتت جهود عشرات من العمال والمسؤولين وتتحول من جهود الإنقاذ إلى التركيز
على ترتيب زيارة رئاسية.

ثانياً، لم يشأ الرئيس يوماً أن يبدو ظهوره بهذا الشكل وكأنه استثمار للمأساة من
أجل غايات انتخابية. لهذين السببين، فإن المحافظة على فسحة زمنية تفصل بين وقوع
الكارثة، وقيامه بزيارة المنطقة المنكوبة كانت تبدو بالنسبة للرئيس هي ما يجب القيام
به. فعلى سبيل المثال، لم يقم بزيارة موقع الضربة في نيويورك إلا يوم الرابع عشر من

أيلول، أي بعد ثلاثة أيام على وقوع الهجمات سنة 2001، وفقط بعد أن تم التأكد تماماً من أن تلك الزيارة لن تعرقل أعمال الإنقاذ وجهود إعادة الإعمار التي كان يقوم بها المتطوعون الأوائل.

تم ترتيب جدول زيارتنا إلى نيو أورلينز ضمن هذه الاعتبارات، وكنت أنوي القيام بشرح كل ذلك لوسائل الإعلام قبل أن يلقي الرئيس كلمته في المناسبة الأولى صبيحة ذلك اليوم الواقع في الثلاثين من شهر آب، أغسطس، في مدينة سان دييغو. ولكن كما يحدث أحياناً، فقد انحرفت خططي عن مسارها قليلاً. فنظراً إلى ضيق الوقت بسبب أن الرئيس كان تواقاً للبدء في إلقاء الكلمة بعد وصوله مباشرة، أسرعت عبر المنطقة المفصولة بالحبال أمام المنصة إلى المنطقة المخصصة للصحافة. استطعت بالكاد أن أعلن أمام الصحفيين أن الرئيس سوف يعود إلى العاصمة واشنطن صبيحة اليوم الثاني. ولكن، وقبل أن أتمكن من إعطاء أي تفاصيل إضافية، ظهر الرئيس الذي يحافظ بدقة على مواعيده كالعادة، على المنصة جاهزاً لإلقاء كلمته، توقفت وأبلغت الصحفيين أنني سوف أزودهم بالتفاصيل بعد أن ينتهي الرئيس من إلقاء كلمته، من دون أن أشتت ذهن الرئيس، أو أستفزه كي ينظر إليّ شذراً.

بدأ الرئيس كلمته بالحديث عن الدمار الذي أحدثه الإعصار:

في صباح هذا اليوم نتوجه بقلوبنا وصلواتنا من أجل إخوتنا المواطنين على امتداد ساحل الخليج الذين عانوا كثيراً من إعصار كاترينا. إن هذه أيام محنة وامتحان بالنسبة إلى سكان هذه المنطقة. نعرف أن العديدين تواقون للعودة إلى منازلهم. وهذا ليس ممكناً في الوقت الحالي. أولويتنا القصوى الآن هي إنقاذ الأرواح، ونحن ما زلنا في خضم عمليات البحث والإنقاذ. إنني أحث الجميع على إتباع التعليمات الصادرة عن الولاية والسلطات المحلية.

بعدها، تابع الرئيس بقية خطابه، الذي ركز على إحياء ذكرى الانتصار على اليابانيين. وعندما انتهى من إلقاء الخطاب، بدأت مباشرة في شرح تفاصيل التغيير الذي حصل على الخطة إلى الطاقم الصحفي. وقد أطلعت الصحفيين على البرنامج

الذي كنا ناقشناه في مؤتمر الدارة المغلقة لكبار المسؤولين، كما أعلمتهم أن الرئيس استلم تقريراً بآخر المستجدات عن تقدير لحجم الضرر، والجهود المبذولة حالياً.

سأل أحد الصحفيين إذا كانت لرحلة العودة إلى واشنطن دلالة رمزية معينة طالما أن بإمكان الرئيس ممارسة صلاحياته من منزله في كروفورد. أجبت: «كلا؛ فهذه واحدة من أكثر العواصف تدميراً في تاريخ أمتنا، والرئيس اتخذ قراراً بعد أن استلم تقريراً بشأن آخر المستجدات هذا الصباح بالعودة إلى واشنطن والإشراف على الجهود المبذولة من هناك. وهو ما - هناك الكثير من الجهات المشاركة في هذه في هذه الجهود المبذولة - وهو ما يتطلب جهداً طويلاً ومستمراً من قبل الجهات الفيدرالية كافة التي تعمل جنباً إلى جنب مع الولاية ومع المسؤولين المحليين لمساعدة الناس على تجاوز آثار الدمار والخراب».

على بعد أمتار قليلة، كان الرئيس يصافح عدداً من السكان المحليين الذي عبروا عن آمانياتهم له بالتوفيق عبر حاجز الحبال الذي يفصل بين الجانبين. وأثناء عودته باتجاه المنطقة الواقعة خلف المنصة، أشار مساعد السكرتير الصحفي، جوش ديكارد إلى ضرورة أن نقوم بإعداد أنفسنا للمغادرة. أراد من الطاقم الصحفي أن ينضم إلى الموكب كي يكون جاهزاً للانطلاق حالما يكون الرئيس قد قرر المغادرة. وبينما كان يرافق الطاقم الصحفي، توجهت نحو المنطقة الواقعة خلف المنصة حيث كان الرئيس والوزير رمسفيلد يصافحان كبار مستقبليهم.

وبينما كنت أقف جانباً استرعى انتباهي أن مارثا راداتز التي كانت حينها مراسلة محطة ABC في البنتاغون، كانت برفقة مجموعة من ضباط الجيش المسافرين مع رمسفيلد. تساءلت عما تفعله هنا، خلف الكواليس، طالما أن هذه المنطقة ليست في العادة متاحة أمام الصحافة. إنه المكان الذي يمكن للرئيس أن يأخذ فيه قسطاً من الراحة، وأن لا يقلق بشأن «ممارسة رياسته الخاصة» طالما أن أحداً لا يسجل كل كلمة يقولها أو يحصي عليه كل حركة يقوم بها.

وقع نظري على إريك راف، وهو ضابط اتصالات متقاعد من الحزب الجمهوري، والناطق باسم رمسفيلد، وكنت أعرفه منذ عدة سنوات. تنحيت به جانباً وسألته: «ما

الذي تفعله هنا؟» وكنت أقصد راداتز. نظر راف حوله بدهشة وقال: «إنها برفقة الوزير، ولكن ليس لدي أي فكرة عن سبب وجودها هنا خلف الكواليس». بعدها مباشرة طلب راف أن تتم مرافقة راداتز إلى خارج تلك المنطقة؛ ولكن بعد فوات الأوان.

في الوقت الذي توجه راف نحو راداتز، لاحظت أنها كانت تحمل بيدها كاميرا صغيرة للتصوير. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، علمت أن إحدى الصور التي التقطتها كانت تمثل لحظة خاصة. فقد قدم مارك ويلز، وهو مطرب يؤدي الأغاني الريفية، والذي قام بالغناء في حفل إحياء ذكرى الانتصار على اليابانيين قبل وصول الرئيس، هدية صغيرة للرئيس وكانت عبارة عن آلة غيتار تحمل الخاتم الرئاسي. قبل الرئيس الهدية وهو مبتسم، قام بعدها بمداعبة بعض أوتار الغيتار. كانت تلك لحظة لطيفة خففت من وطأة يوم شاق. أنا متأكد من أن ويلز أعجب بهذه اللفتة من بوش. أما راداتز، فقد اعتبرت أن صورة الرئيس وهو يداعب أوتار الغيتار جديرة باللحظ، كما علمت في وقت لاحق من ذلك اليوم.

تم إخراج راداتز من تلك المنطقة؛ لكن الصورة التي التقطتها كانت قد وصلت إلى وكالة الأسوشيتد برس، وكان مقابل تلك الصورة صورة أخرى لعائلة على ساحل الميسيسيبي يتم إنقاذها من على سطح المنزل الذي تقيم فيه بالإضافة إلى صور أخرى يظهر فيها سكان نيو أورلينز وهم يتمسكون بجوانب أسطح منازلهم التي كانت تبتلعها تدريجياً مياه الفيضان.

هذا بالضبط ما كنت أخشاه: صورة للرئيس بوش يبدو فيها كأنه غير مكترث لما يجري، حيث إن جل اهتمامه ينصب على متابعة برنامج من دون أن يأبه لمعاناة ضحايا إعصار كاترينا - القتلى، والمشردين، والمفقودين. هل كان ذلك التصرف عادلاً؟ هناك لحظات أخرى للرئيس في ذلك الصباح كان من الممكن التركيز عليها: الملاحظات التي أبدتها بشأن العواقب الخطيرة لإعصار كاترينا، وقراره المتضمن تغيير برنامج كيركز على موضوع الإعصار، وعيادته للجرحى من جنود البحرية في المستشفى العسكري. لكن وسائل الإعلام ومنتقدينا اختاروا التركيز على صورة الغيتار. كانت رمزاً مناسباً لما اختار العديد من العاملين في الصحافة أن يصدقوه عن الرئيس بوش، وعن أولوياته.



لسوء الحظ، كانت المشكلة أعمق بكثير من مجرد نشر صورة واحدة. وكان لا بد من انقضاء يوم أو يومين قبل أن نبدأ باستيعاب هذه المشكلة بشكل كامل؛ ولكننا كنا قد أخطأنا في طريقة تعاملنا مع إعصار كاترينا منذ البداية. ونحن بذلك جعلنا من أنفسنا عرضة للنوع نفسه من الانتقاد الذي أطلقت له العنان الصحفية راداتز والصورة التي نشرتها.

أدركنا بشكل متأخر أنه كان من الأفضل لو قام الرئيس بوش بإلغاء رحلة اليومين إلى الغرب، والعودة إلى واشنطن يوم السبت أو الأحد قبل أن يفلت إعصار كاترينا من عقاله. حتى لو أننا قفلنا عائدين من تكساس إلى واشنطن يوم الاثنين، لكان ذلك أفضل بكثير؛ ولكانت الرسالة قد وصلت: إن الرئيس يتفهم حال الطوارئ هذه، وأنه يأخذها على محمل الجد، وهو منخرط فيها شخصياً، كما أنه يريد أن يكون التجاوب الفيدرالي هو الأولوية المطلقة بالنسبة إلى كل فرد في الإدارة. بدلاً من ذلك، آخرنا وسوفنا وتابعنا أداء الأعمال اليومية كما لو أن شيئاً لم يحصل؛ ونحن بذلك قمنا بإرسال الرسالة المعاكسة تماماً: البيت الأبيض في عهد بوش يركز على كل شيء إلا على إعصار كاترينا.

كيف أخفقنا بهذا الشكل المروع؟ لم تكن المشكلة تتمثل في نقص في المعلومات. فخطورة هذه العاصفة كانت واضحة، وتم إبلاغنا بها مسبقاً من قبل ماكس ميفيلد مدير مركز الأعاصير الوطني. وبينما كانت المعلومات التي تلقيناها بعد هبوب إعصار كاترينا يومي الاثنين والثلاثاء غير كاملة، ومتناثرة وغير دقيقة، فإن الإحصاءات التي تلقيناها كانت كافية لنعرف أن هذه العاصفة مدمرة - وربما كانت هي «العاصفة الكبرى» التي كان سكان مدينة نيو أورلينز، والمتخصصون في إدارة الطوارئ يتوجسون منها.

كانت المشكلة تكمن في تركيبة عقولنا. كان البيت الأبيض في عهدنا قد مر بكثير من الكوارث بدءاً من أعاصير السنة الفائتة، ونكوصاً إلى الكارثة غير المسبوقة في الحادي عشر من أيلول. ربما كنا كمن أصابه شيء من الخدر («ماذا، هل هي كارثة أخرى؟»)، أو، ربما كنا نعبر عن شيء من الرضا («مررنا بحوادث مشابهة من قبل»). افترضنا أن المسؤولين المحليين والفيدراليين سوف يقومون بعملهم المعتاد الذي سيؤدي إلى تخفيف

حدة الخراب مثلما فعل مسؤولو ولاية فلوريدا الموسميون في السنة الفائتة؛ كما تذكرنا كيف تفوق الرئيس بوش على نفسه وهو يطمئن الأمة ويخفف عنها عشية حدوث هذه الكوارث. فبدلاً من أن نحسب حساباً لأسوأ سيناريو ممكن، ونتصرف على أساسه، فقد جازفنا بالظن أن إعصار كاترينا لن يفلت زمامه من أيدينا، ولن يكون مدمراً أو كارثياً على النحو الذي ظهر عليه. ولذلك فقد تركنا لردة فعلنا المؤسساتية أن تسير من دون قيادة مباشرة. وبدلاً من اغتنام الفرصة والإمساك بزمام المبادرة، والتحكم فيما يجري على الأرض في مدينة نيو أورلينز، تركنا للأحداث أن تتحكم بنا. لقد كان ما فعلناه خطأ دفعنا ثمنه غالياً.

بعد ذلك مباشرة، ساءت الأحوال أكثر فأكثر. فقد صدر عنوان رئيس مرعب في إحدى وسائل الإعلام بعنوان - حكاية لا مبالاة - وتبعه بعد ذلك مباشرة عنوان آخر - حكاية عدم الأهلية. وقد ثبت في الأيام الثلاثة اللاحقة، أن استجابة الحكومة لكارثة الإعصار كانت بطيئة وغير كافية، وكانت الصحافة، ومعها الجمهور يربطون بين صورة رئيس غير مكترث بما يجري، وبين الأخبار الواردة عن التعاطي المضطرب لإدارته مع الكارثة، وهو ما أثار حكايات لا يمكن مقاومتها عن إخفاق الحكومة؛ هذا الإخفاق الذي ما إن يبدأ بالترسخ في أذهان الناس حتى تصبح إزالته من أذهانهم عملية شبه مستحيلة.

منذ صباح يوم الثلاثاء، ذاك، لم نعد نعرف كيف، أو من أين ستأتينا الضربة الآتية. توجهنا بفرح إلى تكساس كي نجمع أغراضنا ونمضي ليلة استراحة قبل أن نغادر إلى العاصمة واشنطن في اليوم الثاني.

أثناء ذلك كله، كانت الآلاف من الناس محتجزة إما في السقيفة، أو على أسطح المنازل، أو في أي مكان آخر في مدينة نيو أورلينز بانتظار مساعدة، وهم لا يحملون سوى الثياب التي يرتدونها. انقطع التيار الكهربائي عن المستشفيات الممتلئة بالنزلاء الذين يعانون من شدة المرض. وكانت الملاجئ بما في ذلك القبة العظيمة في مدينة نيو أورلينز، ومركز المؤتمرات تغص بعشرات الآلاف من المشردين عن ديارهم، والجوع، والمرضى، والمذعورين. وقد زادت التقارير المتناقضة المتسربة من داخل المدينة من حدة الفوضى: كان الناس يتحدثون عن انتشار أعمال النهب والسلب، وأعمال العنف، والعصابات

المسلحة من القتل الذين ينشرون الذعر في المدينة (ثبت فيما بعد أن بعض هذه القصص كان مبالغ فيها، ولكن كان من المستحيل في حينها التمييز بين الواقع والخيال).

كانت المشكلات الأساسية التي يتعين على البيت الأبيض في عهد بوش مواجهتها كبيرة وضاغطة. وكانت الكارثة الموازية التي حلت بالبيت الأبيض في مجال العلاقات العامة، وبدأت بالتكشف قد زادت من وطأة هذه المشكلات. وفي وقت ما، من صبيحة يوم الأربعاء، علمت أن كارل روف ما زال يدفع باقتراحه غير الموفق الذي عرضه في لقاء الدارة المغلقة، وأنه أقنع الرئيس بالفعل بالقيام برحلة استكشاف جوية فوق المنطقة المنكوبة التي ضربها إعصار كاترينا.

تحدثت إلى دان بارتليت حول هذا الموضوع بالهاتف. كنت ما زلت على موقف الحازم أن هذه فكرة سيئة. لم يخالفني دان الرأي، إلا أنه أوضح أن كارل مقتنع بأننا بحاجة إلى القيام بذلك - وأن الرئيس موافق على ذلك.

لم يبق لدي وقتها سوى القليل من الروح القتالية. وقد اضمحلت إلى حد كبير، رغبتني في القيام برد قوي في أعقاب الهجوم الكاسح الذي شنته علي وسائل الإعلام بسبب تأكيداتني السابقة حول قضية بليم. تجاهلت الأمر بشكل كلي، ولم أعترض عليه. لم أشأ إثارة الموضوع مع الرئيس. كنت أعرف أنها خطوة خاطئة، ولكن لم تكن لدي فكرة حول كم الخراب الذي ستحدثه هذه المسألة لصورة الرئيس.

قبل مغادرة كروفورد، تحدثت إلى الصحفيين على أرض المطار الإسفلتية. شرحت لهم كيف أدار الرئيس مؤتمراً بالدارة المغلقة حول عمليات الإغاثة لمنكوبي الإعصار من مزرعته. أكدت على أن الرئيس يعطي الأولوية القصوى لعملية إنقاذ الأرواح، أما أولويته الثانية فتتركز حول الإستراتيجية البعيدة المدى لمواجهة احتياجات مئات الآلاف من المواطنين اللاجئين. ركبنا بعدها في الطائرة الرئاسية في طريقنا إلى واشنطن، بما في ذلك التحليق فوق منطقة الإعصار، وهو ما كان كارل روف قد أصر على القيام به.

جرت عملية التحليق بسلاسة من الناحية التقنية. وبينما كانت الطائرة الرئاسية تقترب من مدينة نيو أورلينز، انخفضت إلى ارتفاع أدنى، وانتقل الرئيس من مقصورته

الخاصة إلى الجانب الأيسر من الطائرة حيث يجلس عادة رئيس الشرطة السرية. وقد وفر له هذا الموضع، الزاوية الأكثر وضوحاً للدمار الذي أحدثه إعصار كاترينا. انضم إليه كارل روف، ونائب مستشار الأمن الداخلي، جي. دي. كراوتش، بالإضافة إلى أحد قباطنة الطائرة، وأنا. كما تم استدعاء مصوري الكاميرات الثابتة في الطاقم الصحفي لالتقاط صور لمدة دقيقتين بينما كان بوش ينظر من عل باتجاه المدينة الهلالية الشكل، والتي تغمرها مياه الفيضان.

استغرقت مدة الطيران خمساً وثلاثين دقيقة على ارتفاع 2500 قدم فوق مدينة نيو أورلينز، والمدن الساحلية في ولاية الميسيسيبي وهي مدن سليديل، وويفلاند، وباس كريستيان، وغالفورت، وبيلووكسي، وباسكاغولا. شاهدنا في مدينتي ويفلاند وباس كريستيان مقاطع إسمنتية معزولة في الأماكن التي كانت البيوت الخشبية موجودة، وكانت الانقاض «تبدو من الجو وكأنها أكوام من أعواد الكبريت على مد النظر»، كما وصفها التقرير المقدم من الصحفي بيتر بيكر، مراسل صحيفة واشنطن بوست. كان المزاج في المقصورة عكراً جدياً. شعر الجميع بمن فيهم الرئيس بالصدمة من جراء مشاهدة الخراب الذي خلفه ذلك الإعصار.

تضمنت نشرات الأخبار مساء ذلك اليوم صوراً للرئيس وهو يحدق عبر النافذة، وتبعتها في ذلك الصحف الصادرة في طول البلاد وعرضها صبيحة اليوم الثاني. تجسد الانطباع الذي كان يشير في نفسي أشد الخوف في كل صورة من هذه الصور التي تم التقاطها. وقد لخص الكاتبان وين سليتر وجيمس مور هذه الحادثة بأسلوب بليغ في كتابهما «المهندس: كارل روف والخطة الكبرى للوصول إلى السلطة المطلقة»:

تصدرت صورة بوش وهو يحدق عبر النافذة في تلك البقعة المريحة نصف المضاءة محاطاً بالأمان والراحة اللتين توفرهما الطائرة الرئاسية. ويمعن النظر من عل في مدينة ضائعة ومدمرة وغارقة تدريجياً في الفوضى. الصفحات الأولى من الصحف الصادرة صباح اليوم الثاني. كانت هذه الصور من بين أكثر الصور التي تسببت في الضرر لرئاسته. كان الرئيس يبدو منسلخاً عن الواقع ومشلول الإرادة وعاجزاً حتى عن استيعاب كيف يمكن له أن يسخر حكومته لخدمة شعبه.

والأسوأ من هذا وذاك، أن هذه الصور لم تعطِ أي انطباع بأن الرئيس مهتم أو قلق بشأن الكارثة التي تتكشف من تحت جناحي الطائرة الكبيرين.

لم تعد للقائي الذي جرى مع الصحفيين في وقت سابق فائدة تذكر بعد نشر الصور في الصحف. فقد كانت الصورة التي رسمتها للرئيس تدل على أنه مهتم جداً، وأنه كرس وقته بشكل كامل لهذه المسألة؛ إلا أن الصور التي نشرت له وهو يحدق عبر نافذة الطائرة الرئاسية بالناس الذين تحتجزهم مياه الفيضان في الأسفل طبعت له في أذهان الناس صورة مختلفة كلياً وجزئياً. لقد كانت درساً عملياً يمثل السلطة المطلقة التي تجسدها هذه الانطباعات في عالم اليوم الذي تحكمه المراثيات.

الخراب الذي شاهده الرئيس أثناء عملية التحليق كان له تأثير كبير عليه بالتأكيد؛ ولكن من المستحيل أن يشعر المرء كما يجب بعذابات أولئك الذين يعانون في الأسفل وهو يسترق النظر من الطائرة الرئاسية التي فيها كل مقومات الترف والراحة. لا يمكن للمرء أن يشعر بالتعاطف الحقيقي إلا إذا التقى وجهاً لوجه مع الضحايا. لقد استوعب بوش بالتأكيد حجم الدمار الذي أحدثه الإعصار أثناء زيارتنا الأولى إلى المنطقة بعد يومين على انحسار الإعصار بالرغم من أنه لم يلتقِ أبداً حتى في هذه الزيارة بأي من الأشخاص الأكثر تضرراً من الكارثة في مدينة نيو أورلينز.

الطريقة التي يتم فيها تعريف كلمة «القيادة» في أمريكا هذه الأيام تثير الضحك. فهي تتطلب القوة والثبات والحزم بالإضافة إلى تركيز لا يتزعزع على الالتزامات المباشرة اليومية التي يتعين عليه الوفاء بها. وتتضمن أيضاً إظهاراً مرثياً للمشاعر، والأحاسيس، والتعاطف، والحزن - وهي مزايا أكثر لطفاً، مما يجعلها تخوض صراع مع الشدة والقسوة اللتين نتوقعهما من قادتنا. كان بوش يفهم هذين الدورين، وكان في معرض تصديه لمتطلبات المصلحة التي يفرضها موقعه، قد استطاع أن يعتمد على قدرته غير المحدودة في إخفاء مشاعره - أي أ، ن يبني جداراً داخل ذاته يعزل في داخله ردات الفعل العاطفية والنفسية المختلفة التي تتسبب بها جملة من القضايا الضاغطة التي تواجهه بشكل يومي.

ساعدته هذه الإستراتيجية في أن يكشف عن شخصية قيادية هادئة ومرتزة في وقت الأزمات. وكان بوش يرى أن هذا النوع من الهدوء مؤشر على مزايا القائد المنضبط الذي يركز على اتخاذ قرارات صعبة، وتوزيع المهام على من حوله بحكمة وروية تشبه طريقة المسؤول التنفيذي الكبير، صاحب الكلمة المسموعة. وعند هذا المفصل في رئاسته، وبحكم كونه قد مر بعدد من الأزمات التي شكلت اختباراً لقيادته، فقد كان يعرف كم من السهل أن يترك لمشاعره أن تسيطر عليه، وتشل تفكيره. حدث هذا الأمر مع رئيس آخر من تكساس: ليندون جونسون في ذروة الحرب في فيتنام. كان بوش مصمماً على أن لا يدع شيئاً مشابهاً يحدث له، سواء كان ذلك بسبب حرب في الخارج، أو كارثة داخل حدود الوطن.

تعني عبارة القائد القوي وقت الأزمات بالنسبة لبوش أن لا يسمح لنفسه بأن يقع فريسة لمشاعر الألم والقلق. إنها تعني قيامه بحل المشكلات ببرود وبتؤدة مستنداً في ذلك إلى رؤية إستراتيجية. وهو بنتيجة ذلك قد يبدو منسلخاً عن واقع الناس المعيشي. وهذا بالضبط ما حدث عشية إعصار كاترينا. فقد كان الناس في طول البلاد وعرضها يشاهدون الصور المرعبة في شاشة التلفزيون: جثث تطفو فوق مياه الفيضان، أو منكبة على وجوهها على الأرصفة، أو عائلات محاصرة فوق أسطح منازلها وهي تستغيث طالبة الطعام والماء، أو أشخاص يحتمون تحت ألواح من علب الكرتون. كان بوش يريد أن يظهر بمظهر المسيطر على الوضع، ولكنه كان بحاجة إلى أن يظهر بأنه مهتم بمصائب الناس - وأنه متفهم للوضع الذي يمرون به، وأنه يشارك الأمريكيين هذا الشعور بالرعب والغضب، وأنه مصمم على اتخاذ كل ما يلزم من أجل تحريك البيروقراطية في واشنطن لتستجيب لمطالب الناس. لكن الصور التي التقطت له أثناء التحليق فوق منطقة الإعصار لم تظهر أياً من ذلك، وفي الوقت الذي بدأ بوش يظهر أنه مهتم بما يجري من دون افتعال أي ضجة، كان الوقت على ذلك قد فات.

في اليومين اللاحقين، كان عليّ وعلى دان بارتليت أن نقاتل على واحدة من جبهات هذه المشكلة، ألا وهي جبهة العلاقات العامة. تحدثنا مطولاً إلى الرئيس بوش حول الحاجة

إلى إظهار أنه مهتم بما يجري وذلك بشكل علني. إلا أن الجانب المتعلق بالسياسة العامة للمشكلة كان أكثر خطورة بكثير، وكان ما يزال مغيّباً.

كان العديد من المسؤولين داخل البيت الأبيض ينكرون أي مسؤولية للإدارة فيما يتعلق بإعصار كاترينا. ركزنا خلال الأسبوع الأول، على ضعف الاستعدادات التي قام بها مسؤولو الولاية والمسؤولون المحليون لمواجهة الإعصار. وهو أمر صحيح. ولكننا أهملنا إلى درجة كبيرة حقيقة أن الحكومة الفيدرالية هي الداعم الأساسي، وهي آلية الأمان التي ينبغي اللجوء إليها للتعويض عن أي ضرر يحدث على المستوى الأدنى. عندما تكون رئيساً، يكون الدولار في جيبك - وهي حقيقة لم يفهمها جورج دبليو بوش كما ينبغي، حتى الآن.

عصر يوم الأربعاء، ترأس بوش في البيت الأبيض الاجتماع الأول لوحدة طوارئ تم تشكيلها حديثاً على المستوى الحكومي تابعة للبيت الأبيض من أجل التعامل مع إعصار كاترينا. قال في بداية الاجتماع: «سوف نتعامل مع هذا الموضوع لمدة طويلة». وتابع قائلاً:

إن تنسيق المسؤوليات مع المسؤولين المحليين والمسؤولين على مستوى الولاية هو أمر هام. هناك قضايا على الأرض لا بد من معالجتها. نحن بحاجة لأن نعرف من هو المسؤول، ومن هو المشرف على سير العمليات ميدانياً. لقد تحدثت لتوي مع حاكم ولاية لويزيانا [كاثلين] بلانكو وأبلغتها أنه إذا أرادت تكون معنا، فإننا نحن من سيشرف على سير العمليات على الأرض.

إنها كارثة مريعة. فبعض أجزاء من ولاية ميسيسيبي قد تم محوها من الخريطة. إنه شيء يفوق الوصف. في مدينة نيو أورلينز، زالت أحياء بكاملها. إننا نتحدث هنا عن عملية إعادة بناء مدينة. لا يمكن وصف كم هو مريع الوضع هناك.

ختم بوش حديثه الافتتاحي بكلمات بسيطة: «هناك مشكلة، ويتعين علينا حلها».

كان تشيرتوف، وزير الأمن الداخلي قد بدأ سلسلة لقاءات إعلامية يومية بحضور المسؤولين عن وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية بمن فيهم مايك براون. كان يطلع

الإعلاميين على آخر المستجدات في الوضع الميداني، ويراجع معهم الأولويات على المدى القصير، والمتوسط، والطويل. كانت الحاجات الأولية ملحة: إنقاذ الأرواح، والسيطرة على الفيضان، وإخلاء مدينة نيو أورلينز بالكامل، وإيصال الماء والطعام إلى المحاصرين، ومواجهة المشكلات الأمنية، وإيصال المعونة الطبية لمن يحتاجها. وكانت ندرة المعلومات الموثوقة تساهم في تعقيد كل هذه القضايا. اعترف تشيرتوف بأن «معرفة ما يجري حقيقةً على الأرض، ما تزال مشكلة». حتى الآن، عندما سأل الرئيس عن فعالية اتصالات الطوارئ بالنسبة للمتطوعين المحليين وعلى مستوى الولاية، فإنه أبلغ بأن عدداً محدوداً من الاتصال عبر المحطات الفضائية موضوع بتصرفهم. أطلع الوزير رمسفيلد وسائل الإعلام على آخر المستجدات بشأن قيامه بنشر وحدات عسكرية في المنطقة، خصوصاً في مدينة نيو أورلينز؛ وهو ما دفع الرئيس إلى التصريح بأن من المحتمل أن تكون هناك حاجة إلى جعل الاستجابة لمعاناة نيو أورلينز مسألة فيدرالية. وفي معرض تلميحه إلى تدهور الحال الأمنية في المدينة، أعلن أن «هذه منطقة حرب، وأكد لكم. إنني قلق من اندلاع أعمال شغب. إننا بحاجة إلى أن نقرر [فيما إذا كنا سنطلب من الحكومة الفيدرالية استلام زمام الوضع] في الأيام القليلة المقبلة».

تناول أعضاء آخرون في الحكومة مسألة الأولويات التي تقع ضمن مجال عملهم، كالنقل، والصحة، والطاقة، والقضايا البيئية. ختم الرئيس بالقول: «سوف أدعو إلى اجتماعات متكررة إلى حين تتم سيطرتنا على المشكلة». لقد كانت جلسة كئيبة.

في الوقت الذي ركز المسؤولون في وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية والحكومة على الخطوات الميدانية لمساعدة المنطقة التي اجتاحتها الخراب، فقد حاولنا التصدي لمهمة الاتصالات. لكننا لم نفلح في ذلك. فقد كانت الهوة التي تفصل بين الرسائل المطمئنة التي كنا نود إيصالها وبين الوقائع على الأرض عميقة جداً، وواضحة جداً.

بعد انتهاء اجتماع وحدة الطوارئ، تحدث الرئيس بوش إلى الأمة من حديقة الزهور في البيت الأبيض. حدد الخطوات التي تم اتخاذها من أجل إنقاذ الأرواح، كما تحدث

عن الخطة الشاملة التي ستظهر إلى العلن قريباً من أجل إعادة البناء على المدى الطويل. حاول أن يترك الانطباع بأن شحنات أساسية من الطعام والماء والأدوية تصل إلى مستحقيها. صحيح أن خفر السواحل، بالإضافة إلى فرق البحث والإنقاذ الأخرى، كانت تقوم بأعمال بطولية؛ إلا أن الصور التي بثتها شاشات التلفزيون لعشرات الآلاف من الأشخاص المحاصرين في مدينة نيو أورلينز، والذين تعوزهم المؤن كانت أيضاً صورة حقيقية، وأعطت الانطباع بأن الرئيس كان مجرد متعهد لتقديم الطعام في الحفلات، همه الأكبر إعطاء الانطباع الوهمي بأن كل شيء على ما يرام. في وقت لاحق من اليوم نفسه، قدّر عمدة نيو أورلينز راي ناغين عدد الموتى في المدينة بالآلاف، (الحمد لله أنه كان مبالغاً جداً في تقديراته، ولكن لم يكن باستطاعة أحد التأكد من ذلك في حينه).

كان دان بارتليت يعمل جاهداً كي تكون قناة الاتصالات على الصعيد الفيدرالي فعالة بما فيه الكفاية. فبالإضافة إلى اللقاءات الصحفية اليومية التي تقوم بها وكالته، تشجع مدير وكالة إدارة الطوارئ للقيام بجولة من المقابلات خصوصاً مع الشبكات التلفزيونية. وأجرى الوزير تشيرتوف العضو الحكومي المسؤول الأكبر عن التعامل مع المسألة مقابلات أكثر. لكن تشيرتوف وبروان أثبتا أنهما بعيدان جداً عما يجري. ففي مقابلة له مع تيد كوبل في برنامج Nightline قال براون إن مركز الاجتماعات يؤوي نحو 5000 شخص، وأن الطعام والماء قد توزيعهما من قبل وكالة إدارة الطوارئ. إلا أن العدد الحقيقي كان يتجاوز 25000 شخص، ولم يكن المركز يحتوي على أي تجهيزات على الإطلاق. كما قام تشيرتوف بنفسه ما قيل إنه يجري في مركز الاجتماعات من أمور خطيرة رأى أن ذلك مجرد إشاعات.

ولأن التقديرات المملوءة بالتفاؤل كانت تتناقض بشكل واضح مع تقديرات وسائل الإعلام، وما تظهره الصور فإن التصريحات الوردية التي أدلى بها براون وتشيرنوف ومسؤولون آخرون فندتها تقارير الصحفيين - وهو أمر مفهوم.

وبينما كان بارتليت يركز على إستراتيجية الاتصالات بإطارها العام، فقد كنت أركز على التفاصيل اليومية، وكنت أسعى إلى التنسيق الكامل مع زملائي في الوكالات ذات

الصلة - على سبيل المثال، عبر التأسيس لاجتماع يومي عن طريق الدارة المغلقة لتقاسم المعلومات الجديدة الأكثر أهمية. بطبيعة الحال، كان من الأفضل ترك مسألة شرح القضايا العملية إلى من هم أقرب إلى ذلك. كان دوري ينحصر في الحديث حول ما يقوم به الرئيس، والاجتماعات التي يعقدها، وحول الصورة الأكبر التي تصورناها حول دور البيت الأبيض.

ولكن في هذا المجال أيضاً، كانت الهوة الكبيرة بين الرسالة المتوخاة وبين الواقع مستمرة في الاقتطاع من رصيدنا. فيوم الخميس، وفي مقابلة أجرتها معه دايان سوير في برنامج Good Morning America، وبثت على الهواء مباشرة، أثار الرئيس بوش زوبعة أخرى ضمن ذلك الإخفاق اللولبي الذي يدعى إعصار كاترينا. هذه المرة لم تكن المشكلة تكمن في الصور التي تم عرضها بل في الكلمات التي تفوه بها الرئيس نفسه. عندما سألته سوير عن سبب بقائه هو وفريقه «في إجازة» بينما كان إعصار كاترينا يضرب ساحل الخليج، أجاب الرئيس بأسلوب دفاعي: «بدأت بالتحضير للعودة يوم الثلاثاء، عندما تبين لنا المدى الحقيقي للإعصار. قلت للطاقم المرافق إنني عندما أعود إلى واشنطن عصر يوم الأربعاء فإنني أريد أن يكون التقرير جاهزاً على مكثي، كما سادعو إلى اجتماع للحكومة أتوقع فيه أن تعلموني بالضبط ما الذي ستقوم به وزاراتكم للتخفيف من وطأة الوضع».

لم يرَ الملايين الذين شاهدوا اللقاء ما يطمئن في رد الرئيس، هل صحيح أنه لا أحد في الإدارة «استوعب مدى الضرر الذي تسبب به الإعصار» إلا يوم الثلاثاء، في حين أن بوش نفسه أعلن عن حال الطوارئ قبل ثلاثة أيام من ذلك؟ الأمريكيون الذين سمعوا في السابق الرئيس، وأيدوا آراءه الناقدة والمتحاملة التي قارنت بين العقلية البيروقراطية وبين روحية القيادة الفعلية، كانوا مستاءين لسماحهم أن بوش لم يطلب سوى القليل زيادةً على «تقرير جاهز على مكثي» بحلول عصر يوم الأربعاء - وذلك بعد أكثر من خمسين ساعة على هبوب الإعصار. بدا الرئيس وكأنه، في لحظة الأزمة هذه، يمارس أسوأ أشكال الإدارة البيروقراطية التي لا صلة لها بالواقع - وهو عكس ما وعد به الناخبين تماماً.

بطبيعة الحال، أستطيع الآن رؤية هذا الإخفاق في التواصل بسهولة ووضوح أكبر مما كنت قادراً على رؤيته حينها. كنت آنذاك كبقية أفراد الفريق، منهمكاً في معالجة التحديات الآنية الهائلة التي كنا نواجهها بما في ذلك الخطوات العملية للتخفيف من حدة المأساة، وأيضاً، القيام بجهود مكثفة في مجال الاتصالات كي نطمئن الجمهور ونطلعهم على مجريات الأمور. تظهر الأخطاء التي ارتكبناها في غاية الوضوح، فقط إذا نظرنا إليها بمنظور اليوم - أي من خارج المعمة.

في الساعة السابعة من صباح يوم الجمعة، أي قبل قيامه بأول زيارة إلى ساحل الخليج، ترأس بوش لقاء مشتركاً حول إعصار كاترينا مع قادة من وزارة الدفاع ووزارة الأمن الداخلي. عقد الاجتماع في غرفة اجتماعات آمنة في مركز الاجتماعات في البيت الأبيض. كان الأمريكيون يشاهدون على مدى ثلاثة أيام كاملة صوراً مريعة عن المعاناة الإنسانية على شاشات تلفزيوناتهم. كانت تلك الصور تقطع القلوب، تساءل العديد كيف يمكن لحكومة فيدرالية بمواردها الهائلة، أن تسمح بحدوث شيء من هذا. وكانوا يطالبون بإجابات.

بدأ بوش الاجتماع بتوجيه رسالة صارمة بناء على إلحاح من كبار مستشاريه. كان واضحاً ومباشراً. قال: «إننا لا نسيطر على الوضع ميدانياً. المكان يعج بالفوضى. يجب إعادة وضع مدينة نيو أورلينز تحت السيطرة. ويجب أن نعيد فرض النظام بأسرع ما يمكن». عبر عن قلقه المستمر بشأن قضايا تتعلق بالقيادة والمراقبة كانت تقف عائقاً أمام التعاون بين حكومة الولاية وبين الحكومة الفيدرالية. وبعد أن أشار إلى أن الكثير من العمل والجهد الشاق قد بذل في هذا المجال، قال بشكل واضح: «لست سعيداً بالنتائج البتة». كانت الرسالة واضحة. الإخفاق بعد الإخفاق في مواجهة إعصار كاترينا غير مقبول بالمرّة. اختتم الرئيس كلماته الافتتاحية بالطلب إلى الجنرال مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركة، أن يعيد كل الأفراد العاملين في وحدات الحرس الوطني المتمركزة في الخارج إلى الديار ممن شردت عائلاتهم بفعل إعصار كاترينا.

اتصل الوزير رمسفيلد بالأميرال كيتينغ الذي ظهر على شاشة الدارة المغلقة من القيادة الشمالية بولاية كولورادو المسؤولة عن الدفاع عن الأرض الأمريكية. حدد كيتينغ

الأولويات العسكرية - وهي إنقاذ الأرواح وحمايتها دعماً للجهود المحلية وجهود الولاية والجهود الفيدرالية. كما عرض لنظام المراقبة والقيادة المعمول به حالياً، والإمكانات التي وضعت في الخدمة بما في ذلك بعض القطع البحرية، ونحو مئتي طائرة عامودية (هيلوكبتر)، وأعداد متزايدة من وحدات الحرس الوطني؛ وكانت جميعها بإمرة وحدة كاترينا القتالية المشتركة المتمركزة في كامب شيلبي بولاية ميسيسيبي، وكانت تحت قيادة الجنرال راسل هونوري الذي ظهر على شاشة أخرى تبث من ساحل الخليج.

كانت المقاربة الحازمة والقيادية التي قدمها هونوري الذي تم تعيينه لقيادة الوحدة القتالية قبل يومين فقط قد تركت انطباعات قوية لدى بوش. قال هونوري إن ولاية لويزيانا ما تزال حتى الآن تعد «مشكلة كبيرة»، بينما لاحظ أن الوضع في ولاية ميسيسيبي مستقر إلى حد ما. كما أكد أن الوضع في داخل القبة العظيمة في مدينة نيو أورلينز «مستقر وتحت السيطرة». في الساعات الأربع والعشرين الماضية تم إجلاء 15000 شخص من الإستاد. أما الآن، فإن مركز الاجتماعات هو محل اهتمامنا. ما يزال هناك ما بين 25000 و30000 شخص موجودين هناك بعد أربعة أيام على الضربة التي وجهها الإعصار، والأولوية الآن تكمن في تزويدهم بالطعام والماء والأدوية. تحدث هونوري عن التقارير التي أوردت أنباء عن «إطلاق نار وخروج على القانون» فوصف الوضع في مركز المدينة بأنه «أزمة» لا بد من «السيطرة عليها في غضون الإثنتي عشرة ساعة القادمة». كما ذكر أنه تم تحريك وحدات الحرس الوطني كي تضبط الوضع الأمني في المنطقة. أعطى الجنرال هونوري صورة القائد الذي يسيطر على الوضع تماماً، كما أعطى الانطباع بأنه على اطلاع تام على المهمة التي عليه القيام بها، ولديه ما يكفي من الحزم لتنفيذها.

تلا ذلك نقاش حول الوضع الأمني. في معرض رده على سؤال وجهه إليه الوزير تشيرتوف، قال هونوري إن حوادث إطلاق نار معزولة قد جرى رصدتها، ولكن يبدو أن التقارير المتعلقة بحوادث اغتصاب حول منطقتي القبة العظيمة ومركز الاجتماعات لا تستند إلى حقائق. قال إن ما يرغب به الناس الموجودون داخل مركز الاجتماعات هو فقط الخروج منه. أما فيما يتعلق بحوادث النهب والسلب، فقد اعترف هونوري بأن الناس

«يبحثون عن الطعام لأنه ليس لديهم طعام». هناك ما يكفي من المؤن من طعام وماء، بالإضافة إلى أن القوة العسكرية في طريقها إلى المنطقة، ولكن تأمين المنطقة والبدء في توزيع المواد على المواطنين سيستغرق بعض الوقت.

وضع الجنرال كارل ستروك قائد وحدة المهندسين في الجيش الأمريكي الحضور في صورة آخر المستجدات حول إصلاح الحواجز الإسمنتية وشفط مياه الفيضان في مدينة نيو أورلينز. لاحظ أن مياه الفيضان استقرت عند مستوى معين، وأن منسوبها مستمر بالانخفاض.

تحول النقاش بعد ذلك إلى إمكان اعتبار التحرك الحكومي قضية فيدرالية، والتأكيد على أن مدينة نيو أورلينز أصبحت تحت سيطرة الجيش الأمريكي؛ كان هذا واحداً من الخيارات التي سبق أن نوقشت بعمق منذ بداية الأسبوع. كان بوش يعتقد أن الجيش هو المنظمة الوحيدة المنضبطة بما يكفي كي تأتي وتضبط الوضع بسرعة. وعندما تم التطرق إلى الوضع الحالي، وإلى جهود الإغاثة، قال الأميرال كيتينغ إن الوحدات العسكرية مستعدة للتحرك إذا صدرت الأوامر إليها بذلك، ولكن لم يتخذ أي قرار نهائي بهذا الشأن.

أدى هذا إلى نقاش حول صور المعاناة الإنسانية التي كانت تعرض في وسائل الإعلام. لاحظ أحدهم أن بعض هذه الصور التقطت منذ ثلاثة أيام، ومع ذلك فقد أعيد عرضها من دون شرح من قبل شبكات التلفزيون الإخبارية. في ظل مثل هذه الظروف، لم يكن مستغرباً أن يكون شعور الأمريكيين بالثقة في تحرك حكومتهم متدنياً جداً. اختتم بوش الاجتماع بالقول: «إن من واجبنا ومسؤوليتنا أن نفكر بوضوح». كان محقاً، بالطبع. ولكن ذلك كان يوم الجمعة في الثاني من شهر أيلول، سبتمبر. أتت الرسالة متأخرة جداً بعد أسبوع طويل.

لم تقدم زيارة بوش إلى منطقة الفيضان عصر ذلك اليوم سوى القليل لتحسين معدل قبول الناس للطريقة التي عالجت بها الإدارة إعصار كاترينا. بالنسبة إلى معظم الأمريكيين لم تقدم هذه الزيارة في واقع الأمر سوى اثنتين من اللحظات الجديرة باللحظ وشكلت كل من هاتين اللحظتين إحراجاً للرئيس. تمثلت الأولى في تركيزه اللافت على

استراحة السيناتور الجمهوري ترينت لوت، وهي المنزل الذي يقضي فيه إجازته عادة، والذي تعرض لضرر كبير جراء الإعصار، حيث تحدث بوش بحماس مفرط قائلاً: «من قلب حطام منزل ترينت لوت - لقد خسر منزله بالكامل - سوف يتم بناء منزل رائع مكانه». وتابع موضحاً أنه يتطلع إلى الجلوس في شرفة المنزل الجديد معه. ونظراً لأنه كان محاطاً بمنازل مهدمة للآلاف من سكان ولاية ميسيسيبي - معظمهم من الفقراء الذين لن يكون بمقدورهم إعادة ترميم مساكنهم إلا بالكاد، ناهيك عن بناء منزل فخم لقضاء إجازة فيه - فإن هذه العبارات قيلت في توقيت سيئ في أفضل الأحوال، وبدت قاسية القلب في أسوأها.

الخطيئة المضحكة الثانية التي تمخضت عنها هذه الزيارة أصبحت أكثر شهرة من سابقتها. ففي لقاء غير رسمي أمام عدسات الكاميرات التلفزيونية، وكان يحيط به العديد ممن المسؤولين الفيدراليين والمحليين، استدار بوش وأشار تحديداً إلى مايكل براون الذي كان يمطر بالانتقادات، وأغدق عليه مديحاً مستخدماً في ذلك عبارة أضحت معيبة: «براوني، أنت تقوم بعمل رائع!» حتى براون نفسه بدا عليه الاضطراب، ولا غرو في ذلك؛ ذلك أن معظم الأمريكيين توصلوا إلى الاستنتاج بأن مدير وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية كان على قائمة من قرر الرئيس استبدالهم. كانوا بكل بساطة، يتساءلون عن موعد قيام الرئيس باستخدام الفأس ضده، ومن الذي سيخلفه. (في نهاية المطاف، استقال براون بعد عشرة أيام، وذلك في الثاني عشر من شهر أيلول، سبتمبر). أن يقوم بوش بكيل المديح له على الملأ، أوحى بأن الرئيس، الذي يُعرف عنه تقديره الشديد للولاء الشخصي، إما أن يكون الصواب قد جانبه في حكمه، أو أنه ما يزال غير قادر على الإحساس بالسوء الذي وصلت إليه الأحوال في ساحل الخليج. في كلتا الحالتين، أوحى هذه الحادثة بأشياء سيئة حول إدارة بوش.

أبلغنا الرئيس فيما بعد أنه لم يكن لديه خيار سوى كيل المديح «لبراوني» في تلك اللحظة. شرح لنا موقفه قائلاً، منهياً ما قاله بسؤال يتضمن الجواب: «كان واقفاً هناك بالضبط. وكنت أحاول رفع معنويات الجميع. ماذا كان من المفترض عليّ القيام

به؟ كان معه بعض الحق: إذ كان علينا أن لا ننضعه في هذا الموقف. كان الدافع مفهوماً، بل جديراً بالثناء. إلا أن وضعه موضع التطبيق شكل ضربة أخرى لهذه الإدارة التي تترنح مصداقيتها.

وحالما تترسخ عبارة محددة في وسائل الإعلام، سواء كانت جيدة أم سيئة، فإن من الصعب أن تبطل من زخمها واندفاعها. في هذا الوقت، ترسخت عبارة «إدارة بوش تتجاهل الدمار الذي أحدثه إعصار كاترينا» بشكل كامل في أدبيات وسائل الإعلام، مع لحظ أن تفاصيل كثيرة من خارج السياق تقعم في خضم هذه السردية. أخذت كوندي رايس إجازة لمدة يومين قررت أن تقضيها في نيويورك في ذلك الأسبوع، وبينما هي في نيويورك، ثمة من رآها وهي تحاول شراء زوج من الأحذية من بوتيك فاخر. لم يكن في هذا ما يمكن أن يثير شهية الصحفيين لاعتباره خبراً يستحق الذكر، خصوصاً وأن وزيرة الخارجية لا علاقة مباشرة لها بجهود الإغاثة في كارثة حلت بداخل البلاد. لكن هذا لم يمنع المنتقدين أو وسائل الإعلام من التقاط هذه الحادثة واعتبارها «إثباتاً» آخر على اللا مبالة التي تبديها إدارة بوش تجاه المعاناة الإنسانية. وقد خرجت صحيفة Daily News الأكثر انتشاراً في نيويورك بعنوان عريض جَذِل يلخص القصة التي استمر الحديث حولها لأسابيع آتية: بينما يفرق الجنوب، رايس تتعرض للبلل في نيويورك.

تظهر أحداث مثل هذه أنه حتى مع وجود الكثير من المواد التي تشير الانتقاد، ومع وجود الكثير من الحقائق المهمة التي يمكن الكشف عنها، فإن المنتقدين مبالغون لاستغلال الأحداث التافهة لتحقيق مكاسب سياسية، كما أن وسائل الإعلام تجد أن من الصعب مقاومة ما تراه مهماً من الناحيتين الرمزية والنفعية، وهو ما يؤدي في الغالب إلى تراشق سياسي سخيف لا يضيف أي قيمة تذكر لمهمة البحث عن الحقيقة. أما في حال إعصار كاترينا، فإن أساس مشكلاتنا هناك كانت أكبر وأوضح من أن تطفئ عليها قصص تافهة كالقصة التي تحدثت عن شراء كوندي لزوج من الأحذية.



قمت بتغطية جزء بسيط فقط من قصة ردة الفعل الوطنية على إعصار كاترينا، لأنني أردت أن أركز بالدرجة الأولى على الأحداث الأولى التي شهدتها خلال الأسبوع الأول المدمر. وبينما كانت مدينة نيو أورلينز وبقية منطقة الخليج تكافح من أجل استعادة عافيتها بشكل كامل من الدمار الهائل الذي أصابها به الإعصار، فقد بدأ المؤرخون والصحفيون بنشر تفاصيل عن قائمة بالأخطاء التي ارتكبت وذلك قبل وأثناء وبعد الإعصار. لقد كانت حكاية مهمة غنية بالدروس والعبر التي يمكن الاستفادة منها في المستقبل.

فيما يتعلق بالغاية المتوخاة من هذا الكتاب، فإنني أريد أن أؤكد على أن إعصار كاترينا كان نقطة تحول فاصلة بالنسبة إلى بوش وإدارته. وقد ترك هذا الإعصار لطخة لا يمكن إزالتها عن رئاسة بوش. فالجانب التجاري الطاغى على الجهود المبذولة لمساعدة الناس المقيمين في منطقة ساحل الخليج لم يقنع الأمريكيين بأن يتسامحوا مع الطريقة الأولية التي تعاملت فيها الإدارة والتي أعدت إعداداً رديئاً، والاستعدادات والخطط غير الكافية.

تبين أن إدارة بوش بطيئة ومتناقلة، ويعود ذلك جزئياً إلى أن هذه الإدارة كانت تعتقد أنها سيدة فن إدارة الطوارئ. لكن إعصار كاترينا كان مختلفاً، ونيو أورلينز كانت مختلفة. ولسوء الحظ، فقد تعامل كل من البيت الأبيض ووكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية مع إعصار كاترينا بالطريقة نفسها التي تعاملت فيها مع الأعاصير الأربعة الكبرى التي ضربت منطقة فلوريدا السنة الفائتة. لم تتخذ حينها أي إجراءات استثنائية منذ البداية. فبدلاً من نشر فرق عسكرية مؤلفة كانت المنطقة تحتاجها، فقد تم الاكتفاء بعدد محدود من الجنود الراجلين في البداية بالرغم من حقيقة أننا كنا نعرف أن إعصار كاترينا يمكن أن يكون «الإعصار الكبير» الذي كان يخشاه سكان مدينة نيو أورلينز منذ مدة طويلة. على سبيل المثال، بالرغم من أن كميات كبيرة وغير مسبوقة من المؤن قد تم تحضيرها قبلاً وذلك في معرض الاستعداد للضربة التي سيوجهها

الإعصار، فإن تلك الكميات كانت قليلة جداً إذا أخذنا بعين الاعتبار الحجم الهائل لهذه المأساة، كما أن هذه المؤن لم تأخذ طريقها بسرعة وكفاية إلى من يحتاجها بشدة وذلك في الأيام الأولى من الكارثة.

كان ذلك إخفاقاً على صعيدي الرؤية وروح المبادرة. إذ عندما ضربت العاصفة وتبين أن حجم الدمار كان أسوأ مما توقعه أي شخص، كان عجزنا عن التأقلم مع الكارثة يعكس إخفاقنا في تحمل المسؤولية.

قضينا معظم أيام الأسبوع الأول في حال من الإنكار. إن التنصل من المسؤولية وتحميلها للآخرين، والتخفيف من حدة الواقع المؤلم يشكلان جزءاً من الطبيعة الإنسانية التي يجب أن تبقى تحت المراقبة. لكن ذلك لم يحدث. ونحن في فريق الاتصالات، تحملنا قسطنا من اللوم. ففي الوقت الذي كنا نحاول حماية الرئيس وسمعته، بدلاً من قبول تحمل المسؤولية منذ البداية، والتحرك باندفاع لمعالجة المشكلة، فإننا حاولنا تجيير المسؤولية بعيداً عن البيت الأبيض والحكومة الفيدرالية.

تحولت واحدة من أسوأ الكوارث في تاريخ أمتنا، إلى واحدة من أسوأ الكوارث بالنسبة إلى رئاسة بوش. فقد حدد إعصار كاترينا والطريقة الخرقاء التي تعاملت بها الحكومة الفيدرالية مع هذا الأمر سمة المرحلة الثانية من ولاية بوش. وقد أصبح الموقف من هذه الكارثة أكثر سوءاً عندما يقارن بقرارات سابقة اتخذها الرئيس بوش، بما في ذلك أولاً وقبل كل شيء، إخفاقه في أن يكون منفتحاً وصريحاً بشأن العراق، واندفاعه نحو الحرب بخطط مبتورة، واستعدادات غير كافية لمرحلة ما بعد هذه الحرب.

أدى العنف المستمر في العراق - التفجيرات الانتحارية، والمتفجرات اليدوية الصنع، ونيران القناصة، والخسائر البشرية اليومية في صفوف الجنود الأمريكيين - إلى التسبب في فقدان الأمل لدى الكثيرين، وظهور تحفظات عميقة حول الجهد المبذول لمرحلة ما بعد الغزو. لقد بدأ القصور والعمى في الرؤية اللذان تجليا في الطريقة التي

تعاملت فيها هذه الإدارة مع إعصار كاترينا بالتحول إلى عدسة سيختبر عن طريقها الكثير من الأمريكيين، وخصوصاً المستقلين منهم، والمؤيدين للحرب من بين أولئك الذين يقفون في الوسط، الطريقة التي أدار فيها بوش وإدارته العراق في مرحلة ما بعد صدام.

16

بعد المحاكمة

كان تصريحاً في غاية البساطة، ثلاث كلمات فقط خرجت من فم الرئيس الذي تقوه بها بطريقة مباشرة ولهجة حاسمة: «نعم، أنا فعلت». لكن هذه الكلمات أثارت في نفسي شعوراً بالصدمة وعدم التصديق. وثبت لي في أعقابها أنها كانت الضربة الحاسمة - وهي الضربة المؤلمة الأخيرة التي جعلتني أتأكد أنه ليس بإمكانني الاستمرار في العمل لدى إدارة بوش إلى ما لانهاية.

كنت أُلج إلى الطائرة الرئاسية الرابضة في مطار تشارلوت في كارولينا الشمالية بعد ظهر يوم السادس من شهر نيسان: أبريل، سنة 2006. كان الرئيس يجلس إلى مكتبه في الطائرة، وعندما لمحني، أشار إليّ وإلى دان بارتليت. كان كلانا قد صعد إلى الطائرة ورائه مباشرة. سألتنا بوش: «لماذا يصرخ؟»

كان يقصد بسؤاله مراسل محطة ABC الإخبارية، جيف موريل الذي قام بتغطية الأحداث في البيت الأبيض، والذي كان يصيح منادياً بوش وهو على الأرض الإسفلتية للمطار منذ دقائق قليلة. في ذلك الصباح كان الرئيس قد أدلى ببعض التصريحات بشأن إستراتيجيتنا في العراق، وشارك في جلسة من الأسئلة والأجوبة مع أعضاء مجلس تشارلوت للشؤون الدولية. في غضون ذلك، كان مجلس الشيوخ في واشنطن يحرز بعض التقدم الملحوظ حول إصلاح شامل لموضوع الهجرة، وقررنا أن نقترح على الرئيس الإدلاء بتصريح في المطار للترحيب بهذه الجهود الحزبية المشتركة.

لم يكن بوش يقبل أن تطرح عليه أسئلة من الصحفيين عصر ذلك اليوم، ولكن موريل كان يتوق إلى الحصول على جواب من الرئيس حول أهم خبر عاجل ورد في ذلك اليوم ويتعلق بملف في المحكمة له علاقة بمحاكمة سكوتر ليبي من قبل باتريك فيتزجيرالد،

المدعي الخاص. سمع دان السؤال الذي طرحه موريل، وأطلع بوش على فحوى سؤاله. قال دان إن الصحفي كان يسأل عن شهادة ليبي أمام هيئة المحلفين الكبرى وحكاية تسريب تقويم المخابرات الوطنية التي كشف فيتزجيرالد عن إجراءاتها القانونية.

أضفت: «يؤكد أنك أنت من أعطى الأوامر بتسريب حكاية تقويم الاستخبارات الوطنية». أجاب بوش ببساطة: «نعم، أنا فعلت». كانت تعبيرات وجهه تتم عن أنه غير راغب في أن يخوض في التفاصيل أكثر من ذلك. ولم أتوقع منه أن يفعل، طالما أن محاميه الشخصي جيم شارب نصحه بعدم مناقشة أي تفاصيل تتعلق بمحاكمة ليبي.

لم أكن متأكداً مما سأقوله. فقد علمت لتوي بالملف الذي أعده المدعي فيتزجيرالد طريق التقارير الإعلامية. ولكن هذا التصريح الذي كان بمنزلة قنبلة، سيزيد إذا ما ثبتت صحته، من حدة الضرر الذي سببته قضية فاليري بليم لإدارة بوش - ولي شخصياً كوني كبير الناطقين باسمها. صدمتني مفاجأة سماع اعتراف الرئيس بكل بساطة بصحة هذه الاتهامات، كما لو كان يتحدث عن شيء لا يزيد أهمية عن نتيجة مباراة في البيسبول.

تعود جذور هذه الحكاية إلى شهر تموز، يوليو، سنة 2003 عندما كنت أحضر نفسي لاستلام منصب السكرتير الصحفي. كان اللفظ المتشابك حول الكلمات الست عشرة الملتبسة التي تضمنها الخطاب حول حال الاتحاد، بما في ذلك الزعم غير المثبت بشأن اليورانيوم من النيجر، وتسريب اسم فاليري بليم وهويتها كعميل لوكالة المخابرات المركزية ما يزال دائراً. في خضم هذه المناظرات، صرحت مستشارة الأمن القومي حينها، كوندوليزا رايس علناً أن تقويم المخابرات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر، سنة 2002 قدم دليلاً يدعم فكرة أن العراق حاول الحصول على اليورانيوم من إفريقيا، وتحديدًا من النيجر. ولكن عندما سئلت فيما إذا كان من الممكن أن يتم رفع السرية عن تقويم الاستخبارات الوطنية بحيث يكون بمقدور الشعب الأمريكي أن يحكم على الدليل بنفسه، أجابت رايس - وكان هذا ضمن خط سياسة الإدارة - أن البيت الأبيض «لم يشأ محاولة الدخول إلى نوع من رفع السرية بطريقة انتقائية» بالرغم من أنها أضافت أننا ندقق في احتمال أن تكون أجزاء من هذا التقويم قابلة للطرح علناً عبر رفع السرية عنه بواسطة القنوات الرسمية.

بالاستناد إلى الشهادة التي كان ليبي يدلي بها أمام هيئة المحلفين الكبرى وذلك في الوقت نفسه الذي كانت راييس تؤكد أن البيت الأبيض يعارض «رفع غطاء السرية بصورة انتقائية». فإن الرئيس بوش بنفسه كان متورطاً في حقيقة الأمر بعملية رفع غطاء السرية بصورة انتقائية. فقد أصدر أوامره باستعمال فقرات من تقويم الاستخبارات الوطنية الصادر في شهر تشرين الأول، أكتوبر، بغرض النيل من مصداقية الهجوم الذي يقوم به جو ويلسون ضد مصداقية الإدارة - وهي الحملة التي تضمنت في نهاية المطاف تسريب هوية بليم، وأدت إلى إصدار لائحة اتهام ضد سكوتر ليبي.

الآن، ومع التلفظ بهذه الكلمات الثلاث البسيطة «نعم، أنا فعلت»، فإن الرئيس كان يقول لي إن شهادة ليبي بشأن تقويم الاستخبارات الوطنية - الذي اطلعت على تفاصيل أكبر حوله فيما بعد - كانت صحيحة، وإن تصريحاته وتصريحاتي حول حرمة سرية الاستخبارات كانت فارغة من المضمون.

لم يتردد الديمقراطيون في الوثوب على هذا الدليل الأخير على قيام إدارة بوش بحجب الحقيقة على الأقل. قال السيناتور عن مدينة نيويورك، تشارلز شومر، إذا كان الرئيس قد أصدر أوامره بتسريب المعلومات، فإن على الشعب الأمريكي «أن يعرف ما الذي يميز تسريبه للمعلومات عن التسريب الذي قام به الآخرون الذين أدانهم الرئيس بنفسه».

غالباً ما كان الرئيس بوش يشجب بشدة عمليات التسريب الانتقائية. ففي شهر كانون الأول، ديسمبر الفائت، أدان بشكل علني تسريب صحيفة نيويورك تايمز لمعلومات سرية للغاية حول برنامج المراقبة غير المسموح به، والذي تم الأمر بتطبيقه في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول وذلك لإتاحة المجال لوكالة الأمن القومي كي تقوم بعمليات تنصت على الاتصالات الدولية التي يمكن أن يقوم بها المشتبه بهم أو المعروفون بانتمائهم إلى تنظيم القاعدة.

توصلت في الأيام التي تلت الكشف عن رفع غطاء السرية عن تقويم المخابرات الوطنية إلى قناعة شخصية حاسمة. وكان رفع الغطاء عن هذه المعلومات بشكل سري قد نال من مصداقية ما كان يكرره الرئيس دائماً، وما كنت أردد صداه بالوتيرة نفسها في المؤتمرات

الصحفية. لا أعتقد أنه كان في نية الرئيس بوش تضليلي أو تضليل كبار مستشاريه مثل كوندي: إلا أن أفعاله السرية كانت تعني أننا تعرضنا لعملية خداع سواء كان ذلك عن قصد أو من دون قصد.



عندما تم الكشف عن عملية رفع الفطاء عن سرية تقويم الاستخبارات الوطنية، كانت إدارة بوش تمر بأوقات حرجة. فالتفاؤل والزخم اللذان شعرنا بهما بعد حملة إعادة الانتخاب الناجحة، تبخرت بسرعة. فقد تعرضت الإدارة إلى الصدمة عند محاولتنا استمالة الرأي العام واستعماله للضغط على الكونغرس لإصلاح الضمان الاجتماعي. وبالرغم من أن الإدارة قامت بحملة هائلة تهدف إلى تجيش الدعم الشعبي من أجل إصلاح الضمان الاجتماعي، فقد أظهرت استطلاعات الرأي أن غالبية الأمريكيين يرفضون مفهومنا المفضل لموضوع الحسابات الشخصية، ويقفون ضد فكرة الحاجة إلى القيام بتغييرات في البرنامج الشعبي. في نهاية شهر أيار، مايو، سنة 2005، عندما قام رئيس الغالبية النيابية في الكونغرس روي بلانت بوضع لائحة تتضمن «تشريعاً بشأن تحديد الأولويات» يعمل به بعد يوم النصب التذكاري، لم يكن مشروع إصلاح الضمان الاجتماعي ضمن تلك اللائحة؛ وكان هذا مؤشراً على موت مشروع إصلاح التأهيل كواحد من أهداف الحزب الجمهوري على المدى القصير. وعندما ضرب إعصار كاترينا، كان الأمل باستعادة الزخم لهذا المشروع قد تلاشى إلى الأبد.

بحلول ربيع سنة 2006، كنا نحن العاملين في البيت الأبيض في عهد بوش نكافح على امتداد أشهر طويلة محاولين التغلب على الإحساس بالعجز الذي تسببت به طريقة تعاملنا الأولية مع إعصار كاترينا، والحال التي تزداد تردداً في العراق (بما في ذلك تدمير المسجد الذهبي في سامراء الذي أدى إلى تأجيج الصراع المذهبي هناك)، وما رافق ذلك من انخفاض ملحوظ في معدل التأييد للرئيس.

في الثامن والعشرين من شهر آذار، مارس، أعلن أندي كارد استقالته من منصب رئاسة الأركان في البيت الأبيض. ولقد فرض على الرئيس قبولها ليس بالطريقة التي

يرغب فيها هو أو غيره ترك البيت الأبيض. لكن وقت التغيير قد حان، وكان آندي البعيد كل البعد عن الأنانية وذو الخبرة الطويلة في مجال العمل الحكومي، يعرف ذلك جيداً. فقد كان مستعداً لتلقي الضربة فيما لو كان ذلك يساعد في تحسين معدل قبول الجمهور لبوش والفريق الذي يساعده في قيادة البلاد.

قال لي آندي عندما كنا نتحدث عن هذا الموضوع في مكتبه: «فكر بالأمر. هناك أربعة، أو ربما خمسة أشخاص في الإدارة يمكن أن تشكل استقالة أي منهم فرقاً بالنسبة للجمهور. أحد هؤلاء الأشخاص هو أنا، وهناك نائب الرئيس، وهذا لن يحدث، وهناك كوندلي، وهذا لن يحدث، وهناك رمسفيلد، وهذا ليس من الممكن أن يحدث؛ لكن هذا يبقى بينه وبين الرئيس». كان الخيار الوحيد أمام آندي يكمن في أن يبادر هو إلى تقديم استقالته، ويفسح المجال لرئيس أركان جديد كي يدير العرض.

ساعد هذا الحديث مع آندي في ترسيخ فكرة إجراء تغيير في وضعي داخل البيت الأبيض. ولقد بدأت في التفكير في هذا الموضوع منذ شهر تموز، يوليو، سنة 2005 عندما تبين أن ما قلته في معرض دفاعي عن كارل روف، وفيما بعد، عن سكوتر ليبى حول اللفظ الدائر بشأن تسريب اسم بليم كان مغايراً للحقيقة. شعرت بأنني ورقة محروقة. لقد مررنا بتجربة الكشف عن التجسس غير القانوني على الاتصالات، وبفضيحة السرقة من أحد المتاجر التي قام بها أحد كبار المساعدين السابقين، بالإضافة إلى حادثة إطلاق النار في رحلة الصيد التي كان بطلها نائب الرئيس، وكانت تشبه الفضيحة. ومع الكشف عن طريقة رفع الغطاء عن سرية المعلومات الواردة في تقويم الاستخبارات الوطنية، شعرت بأنني أحترق شيئاً فشيئاً. لكنني لم أشأ ترك الرئيس في خضم هذا اللفظ الهائج. شعرت بأنني لو فعلت ذلك، فسأعتبر نفسي غير منصف بحقه، وسيكون هذا سيئاً بالنسبة إلى الإدارة. بدأت بالتفكير أن الخامس عشر من شهر تموز، يوليو، سنة 2006 حيث ستكتمل حينها مدة السنوات الثلاث التي قضيتها سكرتيراً صحفياً، هو موعد مناسب لاتخاذ الخطوة الثانية في مهنتي. وسوف أعلن عن هذه الخطوة عندما يحين الوقت، وقررت أن هذا سيكون ربما في شهر أيار، مايو.

ونظراً لأن أندي كان على وشك مغادرة موقعه، فقد تقرر أن يأخذ مكانه جوش بولتين رئيساً لأركان البيت الأبيض. كان يشغل في السابق منصب مدير مكتب الإدارة والميزانية، وقبل ذلك، كان نائب رئيس الأركان لشؤون السياسة. كان من الأتباع الموثوقين؛ وقد عمل مع بوش منذ أن كان مدير السياسة في الحملة الانتخابية الرئاسية الأولى.

تحدثت إلى جوش في اليوم الأول الذي أعلن فيه تعيينه بديلاً عن أندي (وهكذا كان باستطاعتي إخبار الصحافة بهذا الموضوع بشكل كامل)، والذي تزامن مع الإعلان عن استقالة هذا الأخير. أشار أيضاً إلى أنه يرغب بزيارتي قريباً، لكنه لم يشر إلى أن أمراً عاجلاً يدور في ذهنه، أو أن لديه شيئاً يشغل باله. ويريد أن يتحدث معي بشأنه - فقط أراد أن يطلع مني على أفكار حول الاتصالات في البيت الأبيض.

ولكن في الأسبوع اللاحق بعد أن غادر الرئيس إلى كامب ديفيد يوم الخميس لقضاء عطلة نهاية أسبوع مطولة لأنها تزامنت مع عيد الفصح، طلب جوش أن أوافيه إلى مكتبه. كانت هناك تقارير في الأفق تتحدث عن نيته إجراء تغيير في منصب السكرتير الصحفي، وكنت مستعداً لإبلاغ جوش أنني مستعد لترك منصبي في تاريخ نتفق عليه معاً، وأن هذا التاريخ لن يتجاوز الخامس عشر من شهر تموز، يوليو. افترضت أنه لن يعترض على هذا التوقيت. فكرت في استباق حمى وسائل الإعلام حول احتمالات التغيير في مواقع البيت الأبيض، والتي تلي في العادة تغيير رئيس الأركان؛ إلا أن افتراضي كان خاطئاً.

رحب بي جوش، جلست بعدها على أريكته. وقبل أن يكون باستطاعتي التفوه بأي كلمة، اتجه مباشرة إلى الموضوع قائلاً بنبرة لطيفة وموزونة: «ما سأقوله الآن لن يكون من دواعي سروري؛ في الواقع، أنت محبوب من الجميع هنا. وأنا شخصياً أحبك، ولكنني أعتقد أن البيت الأبيض هذا مشلول بدرجة كبيرة، ويحتاج إلى تغيير. وأحد المواقع التي قررت أن يتم التغيير فيها هو منصبك. عندما طلب الرئيس إلي شغل منصب رئيس الأركان، أكد لي أنني أملك كامل الصلاحيات لإجراء تغييرات أجد أنها ضرورية لضخ النشاط من جديد في مفاصل البيت الأبيض. هذا ليس قراره، أو قرار دان بارتليت؛ إنه قراري أنا».

كنت ألقى كل ذلك وأنا جالس، ولكنني لم أكن أشعر بالسعادة وأنا أصغي إلى جوش وهو يبدأ الحديث قبل أن يعطي نفسه مجالاً لكي يسمع ما أردت أن أقوله. بعد ذلك قلت: «أتفهم ذلك، يجب أن تعرف أنني كنت أفكر بموضوع ترك المنصب منذ مدة طويلة؛ وكنت أفكر أن شهر تموز، يوليو القادم المصادف لخط نهاية الثلاث سنوات هو الموعد المناسب لذلك».

قال جوش: «حسنٌ، في هذه الحال، هذا يسهل الأمر كثيراً. كنت أنوي إبلاغ كبار الموظفين يوم الاثنين القادم أن أي شخص يفكر في ترك منصبه خلال الأشهر القليلة القادمة عليه أن يبادر إلى القيام بذلك. أريد أن يكون أفراد الفريق الذين سيمارسون أعمالهم حتى نهاية السنة في مواقعهم خلال الأسبوعين القادمين. يمكنك إبلاغ الصحافة أن هذا هو السبب الذي دفعك إلى ترك المنصب الآن. فكرت في أن يوم الغد هو الوقت المناسب لك كي تعلن عن استقالتك».

أترك منصبي خلال أسبوعين؟ أعلن عن ذلك غداً؟ ليس هذا ما كان يجول في خاطري. كانت ردة فعلي العاطفية قوية ومباشرة، فكرت في نفسي: إنه مستعد للإلقاء بي إلى الذئاب. استعرضت المدة التي عملت فيها مع الرئيس، وكم كنت وفياً له، وكيف أقيت بنفسني أمام الحافلة خلال مدة اللغظ الدائر حول تسريب اسم فاليري بليم - وكيف ضحيت بمصداقيتي من أجل هذه الإدارة. والآن، فهو غير معني البتة في أن يترك للعاصفة الحالية أن تمر بسلام. أشكرك على كل شيء، فمت به يا سكوت - ولا تنسى أن تتبّه كي لا يرتطم بك الباب وأنت في طريقك إلى الخارج.

مع ذلك، وفي الوقت نفسه، كان عقلي يتفهم جيداً ما كان يحصل. كنت أعلم أن هذا ليست له أي دوافع شخصية. كان جوش يفعل ما شعر أن عليه أن يفعله، وكان يود أن يتم ذلك بسرعة. غالباً ما كنت في موقف دفاعي منذ أن تم الكشف عن تورط روف في عملية التسريب في شهر تموز، يوليو من السنة الفائتة. ولا يمكن لأي سكرتير صحفي أن يبقى مدة أطول في منصبه في مثل هذه الظروف.

مع ذلك، لم أكن أنوي الاستسلام بهذا الشكل. أخبرت جوش أنني بحاجة إلى بضعة أيام كي أرتب بعض الأمور. قلت: «أرى أن الإعلان عن ذلك مع بداية الأسبوع القادم أفضل من الإعلان عنه الآن». أنهى جوش اللقاء بالقول إن عليّ أن أتحدث إلى دان، وترتيب موعد معه بشأن توقيت الإعلان عن الاستقالة.

كان التوقيت لافتاً على جبهة العاملين في البيت الأبيض. فقد طالب بعض كبار القادة العسكريين السابقين باستقالة الوزير رمسفيلد، أو إقالته. سئلت عن هذا الموضوع أثناء اللقاء الصحفي قبل لقائي بجوش. دافعت عن رمسفيلد بشدة قائلاً إن الرئيس يرى أنه «قام بعمل ممتاز في المرحلة التي واجهنا فيها تحديات في تاريخ أمتنا». وكان الجنرال بيت بيس رئيس هيئة الأركان المشتركة قد دافع بشدة أيضاً عن رمسفيلد في وقت سابق من ذلك اليوم.

صباح اليوم اللاحق وبعد انتهائي من قراءة التغطية الإخبارية التي نشرتها صحيفة نيويورك تايمز، وصحف أخرى على صفحاتها الأولى، تحدثت جوش إلى كل من دان وأنا. شعر أن هناك حاجة لتصعيد وتيرة الدفاع عن رمسفيلد عبر الاقتراح على الرئيس الإدلاء بتصريح بهذا الشأن. شعرت بأن نقل الفريق الصحفي إلى كامب ديفيد سيكون عملاً مرهقاً جداً. اتفقنا على أن يقوم الرئيس بدعوة وزير دفاعه إلى اجتماع، يدلي بعدها بتصريح يكون بمنزلة دعم له. (في نهاية المطاف، ترك رمسفيلد العمل في إدارة بوش في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، سنة 2006 عشية الخسائر الكبيرة التي مني بها الحزب الجمهوري في الانتخابات النصفية. المرة الأولى التي سمعت فيها الرئيس يتحدث عن احتمال ترك رمسفيلد لمنصبه كانت ضمن حديث عابر سمعته بعد أيام قليلة على الإعلان عن استقالتي).

غادرت في وقت مبكر من صباح يوم الجمعة العظيمة من عطلة عيد الفصح - قضيت مع زوجتي جيل العطلة في منتجع في جنوب فرجينيا على امتداد خليج تشيسبيك. تحدثنا مطولاً عن الموضوع، كما يفعل المتزوجون عادة. لم تكن جيل سعيدة بالأسلوب الذي اتبعه جوش وهو يدفع بي إلى خارج الباب. تفهمت مشاعرها، ولكن، وبما أنني بدأت أنظر إلى المسألة من زاوية أكثر عقلانية منذ أن انتهى النقاش الأولي بيني وبينه، فقد حاولت

إقناعها بتبني مواقف أكثر فلسفية. قلت، في النهاية كنت أستعد لتقديم استقالتي على أي حال، وبالرغم من أنني كنت أود القيام بذلك على طريقتي، فإن عدة أشهر في هذا الاتجاه أو ذاك لن يكون لها تأثير كبير على المدى الطويل.

أعادت جيل الكرة. لم تستطع أن تفهم كيف يمكن للرئيس أن يترك لجوش معالجة المسألة بهذه الطريقة بعد كل ما قمت به من أجله. مرة أخرى، تفهمت مشاعرهما. فأنا وجيل استمتعنا بعطلتي نهاية أسبوع قضيناها برفقة الرئيس والسيدة بوش في منتجع كامب ديفيد، ومجموعة أخرى مختارة من الضيوف، وقد شعرت هي كما شعرت أنا بمحبة كبيرة لكليهما. لقد كان من الصعب عليّ أن أشرح لها أن الأمر ليس شخصياً.

قلت أخيراً: «أنا متأكد من أن الرئيس وأنا سوف نتحدث عن هذا الأمر في الأسبوع القادم. دعينا نستمتع بعطلة نهاية الأسبوع هذه. وأن لا نقلق بشأن هذه المسألة». ولقد تمتعنا بالفعل بهذه العطلة بالرغم من أنني لا أستطيع الزعم بأن أفكاراً عن البيت الأبيض وعن التغيير في وضعي لم تزحف إلى رأسي مرة أو اثنتين.

تحدثت إلى دان عبر الهاتف في نهاية الأسبوع. كنت أرتب مع جيل متاعنا في غرفتنا المظلة على خليج تشيسبيك. اتفقت مع دان على أن يكون يوم الثلاثاء أو الأربعاء القادم موعداً للإعلان عن استقالتي.

قال دان: «أشعر بالأسف لهذا المنحى الذي اتجهت إليه الأمور».

قلت له مؤكداً: «لا بأس، أنا مستعد للتحرك إلى الأمام. لقد مررنا بتجارب مريضة في السنوات القليلة الماضية. وأظن أن التغيير سيكون مفيداً جداً بالنسبة لي. جيل منزعة بعض الشيء بسبب هذا الأمر، وتعاني من مشكلة في تفهم ما يجري؛ لكنني بخير».

استدعاني الرئيس في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين إلى المكتب البيضاوي.

بدأ بالقول بينما كنت أهم بالجلوس على الكرسي القريب من مكتبه: «سمعت أنك تحدثت إلى جوش الأسبوع الماضي. لقد أبلغته أنني أظن أنه ليس بالإمكان إيجاد بديل أفضل منك».

تابع بوش الحديث لدقيقة أو دقيقتين حول تقديره الكبير لما قمت به، وأنه سيفتقدني كثيراً. كان سحره يملأ المكان، ولكن كان من الصعب التنبؤ بصدقته مشاعره، وفيما إذا كان ذلك مجرد محاولة منه للتخفيف عني، ولكن في الوقت الذي كان يتكلم، حدث شيء لم أره في حياتي من قبل: كانت الدموع تنهمر على خديه.

وجدت نفسي في موقف غريب وأنا أواسي الرئيس: «لا بأس يا سيدي، أنا مستعد للرحيل. كانت المهمة طويلة».

بقيت في مكتبه لمدة قصيرة، تعانقنا بعدها بحرارة، وفي الوقت الذي كنا نهم بمفادرة المكتب معاً، التفت إلي بوش وقال: «سمعت أن جيل منزعة جداً».

أجبت: «أجل يا سيدي، إنها كذلك. من الصعب عليها أن تفهم ما حدث. ولن يكون من السهل عليّ أن أشرح لها الأسباب، بسبب أنه ليست لديها خلفية سياسية».

قال بوش: «إنها تحبك كثيراً، وقلقها الوحيد هو بشأنك. ما رأيك في أن أتصل بها؟» توقفت للحظة ثم قلت: «أعتقد أنها ستقدر لك ذلك جداً؛ ويمكن أن يساعد اتصالك في التخفيف عنها. إنها تحبك وتحب السيدة بوش كثيراً».

قال: «سوف أتصل بها».

تحدثت إلى جيل في وقت لاحق عصر ذلك اليوم. سألتها: «هل تحدث الرئيس إليك؟» قالت: «نعم تحدث إلي هو وجوش، كل على انفراد».

سألتها: «كيف جرت الأمور؟»

ردت: «لم يكن على الرئيس أن يتصل. لقد كان لطيفاً جداً وحاول مساعدتي على تفهم ما جرى. وجوش بدوره كان لطيفاً».

كان باستطاعتي التخمين أن جيل تأثرت كثيراً من اللفتة التي قام بها الرئيس والتي تمثلت باقتطاعه جزءاً من وقته كي يتحدث إليها. لم يكن لديها الكثير مما تقوله بشأن

هاتين المكالمتين. وكانت ما تزال منفعة بسبب ما قد يحدث لي؛ ولذلك فإن جوش بولتين لم يكن على قائمة أفضل الأشخاص بالنسبة لها في ذلك الوقت.

في يوم الأربعاء ذاك، وقبل أن يتوجه إلى مدينة توسكيغي في ولاية ألاباما، مشيت مع الرئيس باتجاه طائرة الهيلوكبتر الرئاسية. ولكن كان علينا التوقف في أحد الأماكن أولاً - وكان ذلك المكان يقع جنوب المنطقة العشبية خارج المكتب البيضاوي حيث تم إبلاغ الصحفيين بالتجمع هناك بانتظار تصريح صحفي. كان ذلك في المكان نفسه الذي أدلى فيه الرئيس بتصريح منذ ثلاث سنوات تقريباً مفاده أنني سأحل محل آري فليشر في منصب السكرتير الصحفي. وبينما كنا نسير من المكتب باتجاه الميكروفون الذي ينتظرنا، قال لي الرئيس إنه سيبذل جهداً كي لا يخلق صوته.

تبين لرجال الصحافة مباشرة، حالما رأونا نمشي باتجاههم أنني الجثة التي تمشي على قدمين. تحدثت أنا أولاً:

صباح الخير للجميع. أنا موجود هنا الآن لأعلن أنني سأستقيل من منصب السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. سيدي الرئيس [كان علي هنا أن أنظف حلقي بسرعة شديدة لأنني شعرت بشيء من الاختناق في صوتي]، كان شرفاً استثنائياً وامتيازاً بالنسبة لي أن أقوم بالعمل لديك لأكثر من سبع سنين حتى الآن، كانت السنتان والأشهر التسعة الأخيرة منها بصفة السكرتير الصحفي. يمر البيت الأبيض الآن بمرحلة انتقالية، ولذلك يمكن أن يكون التغيير مفيداً، والوقت مناسب الآن للبدء في إجراء التغيير بدءاً من هذا المنصب. أنا مستعد للتحرك إلى الأمام، فقد بقيت في هذا الموقع مدة طويلة؛ ويغمرني الحماس أنا وزوجتي ونحن على وشك البدء في فصل جديد من حياتنا معاً. لقد حققت الكثير على مدى السنوات الأخيرة مع هذا الفريق، ويغمرني الإحساس بالشرف والامتنان لأنني كنت أشكل جزءاً صغيراً من هذا الفريق الرائع والموهوب الذي يضم أشخاصاً أفاضل. بدأت علاقتنا هناك في تكساس، وأتطلع إلى أن تستمر في المستقبل. [عندها، قال الرئيس: «أوافقك على هذا»، وأثار هذا ضحك الآخرين] بالرغم من أنني أمل أن

أصل إلى هناك قبل أن تصل أنت إليها [وأثار هذا التعليق الضحك من جديد].
 قدمت طيلة هذه المدة أفضل ما أستطيع، يا سيدي؛ وقدمت لك الولاء كله. وسوف
 أستمري في تقديم ما أستطيعه إلى أن يستلم خلفي هذا المنصب خلال الأسبوعين
 أو الثلاثة القادمة. شكراً لكم على منحي هذه الفرصة.

بعدها، جاء دور الرئيس:

في البداية أود أن أوجه الشكر لسكوت على الخدمات التي قدمها لبلاده.
 لست أدري إن كان الطاقم الصحفي يدرك ذلك أم لا؛ ولكن مهمته كانت مملوءة
 بالتحديات بدءاً من التعامل معكم جميعاً بشكل منتظم. وأعتقد أنه تولى المهمة
 الموكلة إليه بشكل راقٍ وبأمانة. إنه بحق يمثل ما هو أفضل في عائلته، وفي الولاية
 التي قدمنا منها، وفي بلادنا. سيكون من الصعب إيجاد بديل لسكوت. ومع ذلك،
 إنه هو من اتخذ القرار، وأنا قبلته. في يوم من الأيام القادمة، سوف نسترخي
 هو وأنا على كرسيين هزازين في تكساس، ونتذكر الأيام الخوالي الحلوة، والمدة
 التي قضاها في منصب السكرتير الصحفي. وبودي أنؤكد لكم أن شعوري حينها
 سيكون شعوري نفسه اليوم، وهو أنني سأقول له: لقد قمت بمهمة رائعة يا سكوت.

مرّ التصريحان على خير. ولكن عندما تحدث الرئيس عن جلوسنا في كرسيين هزازين،
 حدثت فيه وفكرت في نفسي. لست ذلك الرجل العجوز، يا سيدي! أذكر أنني كنت أنظر
 في وجوه بعض الصحفيين، الذين تعرفت إليهم جيداً خلال سني عملي في البيت الأبيض.
 كانوا يقومون بما هو مناط بهم، إنها قصة أخرى يقومون بتغطيتها في تلك السلسلة التي
 لا تنتهي من أخبار البيت الأبيض. ولكنني رأيت أيضاً بعض تعبيرات التعاطف في وجوه
 بعضهم الآخر. فقد نشأت بيننا علاقة طيبة بالرغم من كل المباحكات والمناوشات التي
 جرت في مدة اللفظ التي سادت حينها. ولكنهم كانوا جميعاً بشراً أيضاً، وكان من الجميل
 أن ترى هذه المسحة الإنسانية والشعور بالزمالة ترسم على وجوههم.



وإذاً، فهذا ما تعنيه عبارة نهاية الطريق. لحظات الوداع، وحفلات الوداع، والرسائل اللطيفة والكلمات الطيبة التي وردت واختفت. فمئذ ثلاثة أسابيع أعلنت تقديم استقالتني. والآن، أنا بمفردي أحمل آخر علبة فيها مقتنيات الشخصية، وأنزل على الدرج المؤدي إلى الطابق الأرضي باتجاه حي ويست إيكسيكيوتيف أفنيو، الذي كنت سأقود سيارتي عبره للمرة الأخيرة عصر ذلك اليوم الربيعي اللطيف.

لم يكن يتواجد هناك حينها سوى شخص واحد - وودي، وهو الضابط المتقاعد من فرقة الخدمة السرية، بهيئته المهنية الصارمة وهو يرتدي بزته العسكرية البيضاء جالساً في موقعه يحرس المنطقة التي تقع ضمن مدخل الموظفين في الجناح الغربي، حيث يصور وزراء الحكومة غالباً في تلك المنطقة من قبل مراسلي وكالات الأنباء وهم يترجلون من سياراتهم في طريقهم لحضور أحد الاجتماعات. كان وودي أكثر أهمية بالنسبة لي من بعض الأشخاص الذين يتولون حماية الرئيس، ومن بعضنا، نحن أفراد الفريق العامل معه. وكان قد نشأ بيني وبينه نوع من الصداقة.

بينما كان يلتفت، تنبه أنني أسير باتجاهه، همّ وودي بالوقوف من وراء مكتبه المقوس. أما وقد انتهت التزاماتي الوظيفية الآن، فقد شعرت في تلك اللحظة أن مشاعري طفت عليّ لأول مرة في ذلك اليوم. لقد كانت تجربتي أشبه بركوب مزلاج أودي بي إلى الكثير من الدوران والمنعطفات في كل الاتجاهات: وهي تجربة لم يكن أحد منا يتصورها في العشرين من كانون الثاني، يناير، سنة 2001. كنا قد عدنا لتونا من آخر رحلة لي مع الرئيس في ذلك اليوم - وكانت ليلة قضيناها في فلوريدا.

قلت لـ وودي وأنا أصافحه، وأنظر في عينيه: «الوداع يا وودي. شكراً لك على كل شيء، كان شرفاً لي أن أتعامل معك».

قال وودي: «إن من دواعي سروري معرفتك، أنت رجل طيب يا سكوت. أتمنى لك حظاً سعيداً».

أجبت: «شكراً يا وودي، انتبه لنفسك».

قال: «انتبه لنفسك أيضاً يا سكوت».

كنت أتمنى أن تطول هذا الحوار وقتاً أطول، لكن صوتي بدأ يتهدج، وشعرت بأن عيناى بدأتا تغرورقان بالدموع، ولذلك فقد أشحت بوجهي واتجهت خارج الباب. لم أشأ أن أظهر مشاعري أمام وودي، ذلك الرجل الطيب الذي يمثل العديد من الرجال والنساء الذين يُيقنون على حيوية البيت الأبيض، ويحفظون أمنه. نحن، أعضاء طاقم الموظفين، نأتي ثم نذهب، لكنهم هم من يبقى: وبيقاتهم تبقى روح الاستمرارية والألفة التي تذكرنا أن البيت الأبيض ليس ملكاً لأي رئيس أو حزب، بل هو بيت الأمة.

وفيما كنت أصعد إلى سيارتي، أخذت نفساً عميقاً. وبعد أن قمت بتثبيت نظاراتي الشمسية في مكانها، وسيطرت على دموعي، قدت سيارتي عبر حواجز التفتيش ملوحاً بيدي للمرة الأخيرة لزملاء وودي في الفرقة العسكرية. لا أعرف بالضبط فيما إذا كانت تلك طبيعتهم، أو أن الحلوى التي كانت جيل بعدها لهم هي السبب في تعاملهم الطيب معي. لكن رجال الأمن هؤلاء، كانوا دائماً ودودين ومهنيين ولطيفين جداً تجاهي. كان قد مضى ما يقرب من خمس سنوات على المرة الأولى التي قدت فيها سيارتي إلى البيت الأبيض مروراً بتلك الوجوه الباسمة والمتحفزة في أن. كان قد مضى ما يقرب من ثلاث سنين على تلك اللحظة التي انحنى فيها رجل الأمن الواقف على حاجز التفتيش في حي ويست إيكسيكيوتيف أفنيو باتجاهي وقال: «لقد أصبحت بمنزلة الرحم في هذا المكان، أنت تعرف ذلك».

هذه العبارة كانت كلمة السر التي يستخدمها رجال الأمن السري لوصف منصب السكرتير الصحفي. أجبت حينها، والابتسامة تطفو فوق وجهي: «أعرف ذلك». الآن، وفي هذه اللحظة، كنت أنا رَحماً للمرة الأخيرة.

كانت تلك اللحظة مليئة بالمشاعر بالنسبة لي، كوني استثمرت جل وقتي في البيت الأبيض. ولكن تلك اللحظة أحاطتني أيضاً بهالة من الهدوء ما فوق الواقعي. كنت واعياً تماماً لكل ما يحيط بي، وأنا أنظر من حولي للمرة الأخيرة، وأقود السيارة ببطء عبر محيط البيت الأبيض. وبينما كنت أجتاز حاجز التفتيش الأول، لوح لي رجل الأمن مودعاً. وعند الحاجز الثاني، شاهدت رجل الأمن وهو يلوح لي بيده محيياً كما لو أنه كان يريد أن يقول «انتبه لنفسك»، تماماً كما كنت ألوح له بيدي.

وصلت إلى آخر حاجز للتفتيش: وهناك لوحت بيدي مودعاً رجل الأمن الذي يربض إلى جانبه الكلب المدرب على اكتشاف المتفجرات، وهو الشخص المولج بالإشراف على موقع الحراسة الأخير قبل الانعطاف للمرة الأخيرة باتجاه المخرج الذي يفضي إلى خارج منطقة البيت الأبيض. اتجهت نحو المنزل لأكون مع زوجتي جيل. كي نبدأ بالتخطيط سوياً لمستقبلنا.

ولكن بعد مرور خمس سنوات من العمل داخل معمة رئاسة كانت تفيض يوماً بالآمال، والآن، ولشديد الأسف، انخرقت عن مسارها بشكل مريع، لم يكن باستطاعتي رؤية الأشياء بوضوح كامل. كنت ما زلت أتساءل: ماذا حدث.



بعد مرور أقل من سنة، أي في أوائل سنة 2007، كنت أتابع محاكمة سكوتر ليبي في واشنطن، وكان فضولي يدفعني نحو معرفة المزيد الذي يمكن أن يوصلني إلى الحقيقة. وفي الوقت الذي أقر أننا قد لا نعرف كل الحقائق المتعلقة بحكاية تسريب اسم وهوية فاليري بليم، فإن الكثير من تلك الحقائق قد تم كشفها بعد انتهاء محاكمته.

لم يكن بمقدور أحد أن يعرف حقيقة حكاية فاليري بليم أكثر من المستشار الخاص باتريك فيتزجيرالد وفريقه. فقد كانت لديهم الصلاحية للإطلاع على كل الوثائق والتسجيلات المتوافرة. وقاموا باستجواب العديد من الناس. استجوبوا العديد من الناس تحت القسم أمام هيئة المحلفين الكبرى: ووضعوا أيديهم على أجزاء اللغز كله الذي يمكن أن يتم الكشف عنه. بعضها ما يزال غير معروف، أو مغلق عليه بقوة القانون، ومن غير الممكن أن يتم الكشف عنه. بعض هذه الأجزاء قد لا يكشف عنه أبداً من قبل أفراد مثل تشيني، أو ليبي، أو روف لأنه لا يوجد ما يدفعهم إلى القيام بذلك.

لكن فيتزجيرالد هو مدعٍ مستقيم، ويتمتع بقدر كبير من الاحترام؛ وقد عرض الحقائق في محاكمة ليبي بطريقة مباشرة، وكانت القضية التي عرضها مؤثرة، ومقنعة بالنسبة للمحلفين والمراقبين الخارجيين. نتيجة لذلك، أدين ليبي بارتكاب أربع جنايات

تتعلق بالكذب وعرقلة سير العدالة. أمر القاضي بتغريم ليبي 250000 دولار، وحكم عليه بالسجن مدة ثلاثين شهراً في أحد السجون الفيدرالية.

لسوء الحظ، لم يكن بمقدور هذه المحاكمة الإجابة على جميع الأسئلة التي كان يتداولها الأمريكيون. وسأقوم على امتداد الصفحات الآتية بعرض استنتاجاتي غير النهائية التي أرجو أن تكون ذات فائدة.

هل أراد البيت الأبيض أن يرفع الغطاء عن وضع فاليري بليم انتقاماً من زوجها، جو ويلسون وذلك بسبب اتهامه للإدارة بسوء استخدام أجهزة المخابرات؟ لا أعتقد أن ذلك يعود إلى رغبة الإدارة في الانتقام منه؛ بل أميل إلى الاعتقاد أن بليم أصبحت ببساطة منصة انطلاق لحملة أوسع يقودها نائب الرئيس تشيني للنيل علناً من مصداقية ويلسون، ومن ثم، وضع حد لأي تأثير ممكن للانتقادات التي وجهها للإدارة. فالرئيس كان على علم بهذه الحملة الأوسع بشكل عام، وقام بتفويض تشيني باستخدام أجزاء من تقويم الاستخبارات الوطنية لدعم هذه الحملة. وعندما حاول نائب الرئيس معرفة الكيفية التي تم عبرها اختيار ويلسون من قبل وكالة المخابرات المركزية للسفر إلى النيجر، حينها أصبحت هوية زوجته ودورها في الوكالة في متناول اليد.

وكما أظهرت الوثائق التي كشف عنها فيتزجيرالد والمكتوبة بخط يد نائب الرئيس، فقد تساءل تشيني فيما إذا كانت الرحلة قد ساعدت في الترتيب لها زوجته بقصد الاستجمام على نفقة الدولة، ومبنية على ذريعة محاباة الأقارب. وفي الوقت الذي بدأ تشيني وسكوتر ليبي، رئيس أركانه، بالتنقيب عن جذور هذه القصة، بدأ تداول اسم بليم بين مسؤولي الإدارة في وكالة المخابرات المركزية، ووزارة الخارجية، ومكتب نائب الرئيس.

دافع بعضهم عن ليبي ورووف قائلين بأنها ليسا من قام بتسريب اسم بليم وهويتها إلى نوافك. في الحقيقة، أول من فعل ذلك كان نائب وزير الخارجية ريتشارد أرميتاج. ولكن قبل أن يقوم نوافك بالكشف عن هوية بليم إلى الجمهور، كان روف وليبي قد أبلغا صحفيين آخرين عن هويتها - وأصبح روف المصدر المؤكد الثاني لنوافك الذي استند إليه في مقاله.

تحول ليبي إلى لاعب أساسي في لعبة النيل من مصداقية ولسون بينما أصبحت هوية بليم، كما أوضح فيتزجيرالد في مرافعته الختامية، مجرد سلاح آخر جاهز للاستخدام في معارك واشنطن السياسية. بالنسبة لليبي، كما قال فيتزجيرالد، فإن بليم «لم يكن اسمها فاليري ولسون، ولم تكن حتى مجرد شخص: بل كانت مجرد حجة، أو حقيقة جاهزة للاستعمال ضد جو ولسون». أظن أن فيتزجيرالد كان محقاً في ذلك.

هل قام نائب الرئيس تحديداً بتوجيه رئيس أركانه ليبي للكشف عن اسم بليم وهويتها؟ لا أعرف. زعم محامو ليبي أن فيتزجيرالد كان يسعى إلى تحريك غمامة من الشك باتجاه موقع نائب الرئيس أثناء مدة المحاكمة من دون تقديم أي بديل. لكن المستشار الخاص رفض هذا الزعم بشدة. أوضح فيتزجيرالد في هذا الصدد «أننا لم نضع تلك الغمامة هناك. لقد استقرت تلك الغمامة فوق مكتب نائب الرئيس لأن المتهم عرقل سير العدالة وكذب بشأن ما حدث».

هل كان بوش يعلم شيئاً عن كشف هوية بليم؟ لا أستطيع التكهن بأنه كان يعلم شيئاً عن هذا الموضوع، وذلك استناداً إلى أحاديثي معه في تلك الفترة. كانت عباراته في واقع الأمر تدل على أن روف قام بتضليله أيضاً. أوضح فيتزجيرالد أيضاً، وهذا مثبت في ملفات المحكمة، أن «الرئيس لم يكن يعلم شيئاً» عن الدور الذي قام به ليبي «في الكشف عن وظيفة السيدة ولسون في وكالة المخابرات المركزية». هل كان تفويضه السري لتشيبي لاقتباس أجزاء من تقويم المخابرات الوطنية هو ما حرّك مسألة الكشف عن هوية بليم؟ ربما. لقد حرّض ذلك بالتأكيد الجهود المجهولة المصدر للقيام بهجوم مضاد على اتهامات ولسون. للأسف، هذه هي الطريقة التي تدار فيها اللعبة في واشنطن.

هل تم ارتكاب جريمة ضمنية من قبل أي مسؤول في الإدارة عبر الكشف عن هوية بليم؟ لا أعرف. فقد كان ريتشارد أرميتاج المصدر الأول لروبرت نوكاك فيما يتعلق بهوية بليم، وكان المدعون العامون ميالين إلى الاعتقاد أن هذا التسريب كان غير مقصود من أرميتاج. لكن من الزيف التأكيد أنه كان الوحيد الذي أفشى بالمعلومات حول هوية بليم. نعرف الآن أن ليبي، وروف، وآري فليشر كشفوا عن هويتها أيضاً أمام صحفيين قبل أن

ينقل نوافك الخبر. ويبدو أن فليشر أفشى بهذه المعلومات من دون أن يعلم أنها ذات طابع سري، بينما استمر روف في القول إنه لم يتم بتسريب اسمها، وأنه كشف عن هويتها أمام كوبر فقط كي يمنعه من نقل أخبار غير صحيحة.

هل قام هؤلاء بارتكاب جريمة براسطة إفشاء هوية بليم؟ لا أستطيع الجزم بذلك. ويعود ذلك جزئياً إلى أن هذا هو موضوع تقني وقانوني لست مؤهلاً لإعطاء رأي فيه. لم يتهم أي من هؤلاء الأشخاص بارتكاب جريمة بسبب إفشاء هويتها؛ لكنني أعرف أن ما فعلوه كان خطأ وضاراً بالأمن القومي. بغض النظر عما إذا كان الكشف عنها يضر بأي مصادر أو أساليب. كانت بليم ضابطاً سرياً تعمل مع وكالة المخابرات المركزية حينها، وكان عليهم أن لا يتحدثوا إلى الصحفيين حول هذا الموضوع سواء أكان ذلك جرماً يعاقب عليه القانون أم لا.

فقد حاول مكتب نائب الرئيس تقصي الأسباب التي دعت إلى إفشاء ويلسون إلى النيجر. وعندما تم ذكر اسم زوجته، بدأ هذا الخبر ينتشر في أروقة وزارة الخارجية والبيت الأبيض مسبباً في خلق بيئة من المبررات لتداول هويتها. وكما ظهر في ملفات المحكمة فيما بعد، فقد حاول ليبي الاستعانة بمساعدة آري فليشر كي يتم نشرها بين الصحفيين. وبعد أن اتصل نوافك بروف، ذهب هذا الأخير إلى ليبي ليعلمه أن نوافك سينشر مقالاً حول دورها. كما كشف روف عن هويتها لمات كوبر، الصحفي في مجلة تايم.

أما بالنسبة لما قاله لي كل من روف وليبي عندما قمت بتبرئتهما علناً في اللقاء الصحفي، فإن بإمكانني الاستنتاج أن الاثنين ضللاني عمداً. أعدت طرح هذه الحقائق في هذا الكتاب. ولكن ضعوا جانباً ما كتبت، وتأملوا حقيقة أخرى مهمة. فكل المراقبين المحايدون، واستناداً إلى الحقائق التي أصبحت معلنة، يجمعون على أن ما قلته لصالحهما في حينه كان كاذباً؛ فقد كانا في حقيقة الأمر متورطين في الكشف عن هويتها - أو تسريب هويتها - من دون أن يفصحا عن اسميهما لبعض الصحفيين. كما أنني أعلنت حينها على الملأ أن تعليقاتي تلك كانت مبنية على تأكيدات شخصية من قبل كل من روف وليبي. قلت حينها: «إنهما أكدا لي أنهما غير متورطين» في قضية تسريب معلومات سرية. ما كنت أبداً أن أدلي بتصريح كهذا لو كنت أعلم الحقائق التي ذكرتها آنفاً.

لم يقم أي منهما بتصحيح مسار الوقائع عندما كان بإمكانهما القيام بذلك. بدلاً من ذلك، تركا كلماتي تقف في العراء لمدة سنتين. كان روف ظريفاً جداً عندما صرح لمحتفي CNN و ABC الإخباريتين قائلاً: «لم أكن أعرف اسمها، ولم أقم بتسريب اسمها» وذلك سنة 2004. لم يكن عليه معرفة اسم بليم كي يقوم بتسريب هويتها كما فعل مع مراسل مجلة تايم في البيت الأبيض مات كوبر، وكما أكد لبوب نوفاك. وهكذا فقد تركني كل من روف وليبي بشكل متعمد أن أقول للجمهور أكاذيب تصب في صالحهما - وهو سوء استخدام واضح لدور السكرتير الصحفي للبيت الأبيض. لكنني أحمل نفسي مسؤولية السماح لشيء مثل هذا أن يحدث. كان يجب عليّ أن لا أسمح بأن أوضع في هذا الموقف - انتهى.

من الواضح بالنسبة لي أن سكوتر ليبي مذنب أيضاً بجريمتي الحث باليمين وعرقلة سير العدالة؛ وهما الجريمتان اللتان حكم عليهما بموجبهما.

عندما ألغى الرئيس بوش الحكم القاضي بسجن ليبي، ومن ثم حماه من قضاء ليلية واحدة خلف القضبان، شعرت بكثير من خيبة الأمل. فهذا الشكل من التعامل يقلل من قيمة نظامنا القضائي. هذا لا يعني أنني كنت أتمنى رؤية شخص عملت إلى جانبه يوماً ما، وهو يمضي مدة عقوبته في السجن. فالسجن ليس مزحة، ولا أرغب في رؤية أحد أعرفه، أو أهتم له يدخل السجن. وبكل تأكيد، لا يدخل هذا ضمن بوتقة المشاعر الشخصية السلبية بالنسبة إليّ. الحياة أقصر من أن يسفح المرء وقته أو طاقته من أجل مشاعر الانتقام. لكنني أؤمن بحكم القانون، وأظن كذلك أن الرئيس، أياً كان، والطاقم الذي يعمل معه أمامهم التزام خاص يقضي بأن يكونوا جميعاً تحت مظلة القانون نصاً وروحاً. للرئيس بوش بالتأكيد، الحق والسلطة اللذان يخولانه إلغاء العقوبة على ليبي. ولكن لجوءه إلى هذا الخيار، أوصل رسالة سلبية جداً لأمريكا والعالم - مفادها أن السلوك الإجرامي في الولايات المتحدة لا يعاقب عليه إذا كان يصب في مصلحة قضية سياسية، هذا إذا كان الذين يدعمون هذه القضية السياسية لديهم السلطة للقيام بذلك؛ خصوصاً وأن أولئك الذين هم في السلطة يملكون مفتاحاً لنظام عدالة مختلف.

كما شرحت سابقاً في هذا الكتاب، أظن أن من المؤسف أن العقلية الحزبية المتمثلة في إستراتيجية الحملة الدائمة التي تتبنى مقولة «الرابع يأخذ كل شيء» قد فرضت الكثير من التأثير على الطريقة التي تحكم فيها بلادنا. فالتدخل من أجل إيقاف حكم قضائي نزيه وعادل أخلاقياً بسبب أن المتهم على صلة بأشخاص من ذوي النفوذ السياسي يعد واحداً من أعراض هذا التوجه المستهجن.

وماذا عن الكلمات الست عشرة التي أثارت كل هذا اللفظ؟ هل كانت إدارة بوش مذنبه بتهمة التعمد في تضليل الشعب الأمريكي بست عشرة كلمة؟ لا أظن ذلك. أظن أن الباحثين في مركز أنينبيرغ لتقصي الحقائق السياسية الذي يصف ذاته بالمدافع غير حزبي عن الناجحين، والهادف إلى التخفيف من حدة الخداع والاضطراب في الرؤية في السياسة الأمريكية كشفوا عن مكن الداء في موقعهم الإلكتروني الموسوم factcheck.org:

لا شيء في المعلومات الجديدة يشير إلى أن العراق ضُبط يوماً وهو يحاول شراء اليورانيوم، ويؤكد تقرير مجلس الشيوخ أن محلي المخابرات الأمريكية توصلوا إلى استنتاج مفاده أنهم يشككون في أن يكون العراق قد قام بمجرد محاولة لشراء هذه البضاعة. في حقيقة الأمر، اعترف كل من البيت الأبيض ووكالة المخابرات المركزية أن الكلمات الست عشرة كان يجب أن لا تكون ضمن الخطاب الذي ألقاه بوش.

لكن ما قاله - من أن العراق سعى للحصول على اليورانيوم - كان بالضبط ما أبلغته به أجهزة الاستخبارات في كل من بريطانيا وأمريكا. إذا يمكن القول إن بوش قد تعرض لشكل من أشكال الخداع، ولكن ذلك لا يعد شكلاً من أشكال الكذب.

عدت «الكلمات الست عشرة» التي تضمنها خطاب بوش حول حال الاتحاد في الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني، يناير، سنة 2003 بمنزلة دليل على أن الرئيس قاده الولايات المتحدة إلى حرب وهو يعرف أنه يستخدم معلومات كاذبة. تظهر التقارير الجديدة أن بوش يؤكد بما لا يرقى إليه الشك، ما قالت المخابرات البريطانية، وأن المخابرات الأمريكية لديها الاعتقاد نفسه.

هذا لا يعني أن إدارة بوش بريئة في الطريقة التي تعاملت مع التقارير الاستخباراتية في الفترة التي سبقت إعلان الحرب. وكما أوضحت في هذا الكتاب، قادت عقلية الحملة أحياناً الرئيس بوش وكبار مستشاريه إلى اللجوء للنف والدوران، والاختباء، واللجوء إلى الظل، والمبالغة في الحقائق، والتعمية على البديهيات، وتجاهل التحذيرات التي كان من الضروري أن ترافق حججهم التي كانوا يسوقونها. وبدلاً من أن يلجؤوا إلى خيار الصراحة والصدق، فقد اختاروا تسويق الحرب؛ وهم بذلك، أساءوا إلى الشعب الأمريكي، وإلى ديمقراطيتنا. إلا أن ذلك لا يعد على الدرجة نفسها من القول إنهم ضللوا الشعب الأمريكي وكذبوا عليه بشكل مقصود - وهي كلمات ذات شحن عاطفي تنحو باتجاه طمس بعض الحقائق والدروس المهمة في خضم ضباب القنصر السياسي المهيمن على جو الاتهامات التي لا يمكن إثباتها. من وجهة نظري، فإن الدليل يصب في صالح أحد الاتهامين، وليس الآخر. لكن ممارسة تكتيكات الحملة الدائمة التي تصب الزيت على نار ثقافة الخداع في واشنطن تشكل مشكلة بعد ذاتها.

لا أعتقد أن الطريق إلى ديمقراطية أفضل تمر طريق المزاعم المبالغ فيها، أو الهجومات الحزبية المضللة، أو الاتهامات التي لا أساس لها، والمبنية على سوء النية. لا يمكن رؤية أي من الحزبين الرئيسيين في بلادنا خزاناً للشر، لأن الغالبية الساحقة من زعمائنا في طريق الكونغرس، وعلى كل مستويات العمل الحكومي هي مجموعة من المواطنين الشرفاء، وذوي النيات الحسنة، والجادين الذين يحبون بلادهم، ويرغبون بالقيام بالشيء الصحيح. في معرض تشخيصنا للمشكلات التي نعاني منها، والتغيرات كافة التي يجب أن نجريها، أعتقد أن من المهم جداً الالتزام بالحقيقة. حتى عندما تكون أقل وضوحاً، أو أكثر تعقيداً وضبابية مما يرغب المتطرفون الحزبيون من الجانبين أن يختاروا تصديقه.

17

تغيير ثقافة الخداع

عندما وصل جورج بوش إلى البيت الأبيض، ظننت أن وجوده فيه كان بمنزلة فرصة حقيقية للتحرك بعيداً عن العقلية الحزبية المفرطة، والتسييس المبالغ فيه، والذي يطبع الحياة في واشنطن. لكن ذلك لم يتحقق. كانت مقاربة الحملة الدائمة التي قمنا بإدانتها علناً، ونأينا بأنفسنا عنها في الحملة الانتخابية سنة 2000 هي ما تبينناه مباشرة بعد يوم الانتخاب. تماهت آلة الحملة الدعائية الهائلة لبوش بالكامل مع طريقته في الحكم عندما انتقل إلى البيت الأبيض من دون وجود أي مراقبة كافية أو تفتيش قدير أو حسابات. في المحصلة، عملت تلك الآلة ليس فقط على الالتفاف على وسائل الإعلام، وهزيمة خصومنا، بل جعلتنا نلتف على أنفسنا ونهزم ذاتنا.

يقال إن التقليد هو أكثر أنواع المجاملات إخلاصاً. إذا كان ذلك كذلك، فإن أعضاء فريق إدارة كلينتون سيشعرون بالكثير من الإطراء عندما يلقون نظرة على إدارة بوش. بنينا بطرقنا الخاصة، على شاكلة النمط الفني نفسه الذي أسست له إدارة البيت الأبيض في عهد كلينتون، ورفعنا وتيرته إلى مستوى أعلى. وكان هذا مفيداً من زوايا عديدة لبوش، تماماً كان مفيداً لكلينتون. كان بمقدور بوش تمرير المشروع التاريخي المتمثل في قانون إصلاح التعليم، وخفض الضرائب، واتخاذ إجراءات جديدة مهمة لتمتين الأمن الداخلي (بالرغم من أن بعضها كان مثيراً للجدل)، وتغطية نفقات الوصفات الطبية للمسنين المشمولين بنظام الرعاية الصحية، وتوسيع التجارة، والقيام بجهود غير مسبوقة لمحاربة الأوبئة التي تفتك بإفريقيا - بالإضافة إلى نجاحات لافتة في الحرب على الإرهاب في الخارج.

ربما تتفقون مع بعض هذه السياسات، وتعارضون بعضها الآخر؛ ولكن لا يمكن إنكار أن رئاسة بوش كانت متساوقة إلى درجة كبيرة. كما أن تأثيرها على مسار التاريخ ما يزال في طور الكشف، وسوف يستمر في ذلك إلى أمد طويل. بهذا المعنى، يمكن عد بوش

رئيساً حقق تأثيراً سياسياً عظيماً إن شئنا سلباً، أو شئنا إيجاباً. إنه مجرد مثال آخر على السلطة القصيرة المدى التي تتصف بها الحملة الدائمة.

ولكن إذا تبين للرئيس بوش وأعضاء فريقه وجود العديد من المطبات في مقاربة الحملة الدائمة لمفهوم ممارسة الحكم، واستوعبوها، فإن هذا سيصب في صالح الإدارة والأمة. كان لاعتمادنا المفرط على فلسفة الحملة الدائمة أكبر الأثر على رئاسة جورج بوش عندما كان الأمر يتعلق بالعراق. لم يكن لأي قرار بمفرده أن يحرف عربة البيت الأبيض عن مسارها؛ إلا أن الطريقة التي تم فيها تنفيذ قرار المضي في طريق الحرب - بدءاً من عرض القضية على الجمهور وانتهاءً بالتحضير لمرحلة ما بعد الحرب، ونحن في طريقنا إليها - أدت إلى حرف مسارنا بشكل سيء جداً.

كانت فكرة تمرير الحرب من طريق حملة التسويق السياسي لها بدلاً من المناقشة الصريحة والعلنية للحاجة إليها مع الشعب الأمريكي محفوفة بالمخاطر. إننا نرى اليوم نتائجها المدمرة وهي تفرض نفسها. فواشنطن اليوم في حال من الاستقطاب الشديد، ويبدو أن كلاً من البيت الأبيض والكونغرس عاجزان عن اتخاذ موقف موحد يخدم مصلحة أمتنا وقواتنا المسلحة عبر الإجماع على فكرة المضي قدماً معاً من أجل وضع نهاية مقبولة وناجحة للحرب في العراق. فقد شاهد الرئيس مصداقيته التي بدا يوماً وكأنه لا يمكن المساس بها: - أمانته، والإحساس بالثقة الذي يمنحه للآخرين - تهاوى تاركة تساؤلات حول خداع متعمد تسري في أوساط الجمهور.

ما زلت أكن الود والإعجاب لشخص جورج بوش. أراه شخصاً محترماً بالأساس، وأعتقد أنه لا هو، ولا البيت الأبيض في عهده قد سعيا بشكل متعمد أو شعوري لخداع الشعب الأمريكي. لكنه مع مستشاريه خلطوا بين الحملة الدعائية وبين المستوى العالي من الصدق والصراحة، لأنهما الدعامة الأساسية لبناء الدعم الشعبي، ثم المحافظة عليه في زمن الحرب. لو تم الالتزام بمبدأ الانفتاح والصراحة في مستهل إدارته، لكان مستوى التأييد الشعبي للرئيس بوش أقوى في هذه الأيام. بقي مستوى التأييد الشعبي منخفضاً بشكل ملحوظ ولم يسبق له مثيل طيلة هذه المدة لأن هاتين سمتين ما تزالان

غائبين حتى يومنا هذا. بهذا المعنى يمكن القول إن كبار مستشاريه أساءوا إليه وخصوصاً أولئك الذين يعملون بشكل مباشر في مجال الأمن القومي.

كل ما يمكن للرئيس أن يقوم به اليوم ينحصر في الأمل في أن تكون رؤيته بشأن العراق صحيحة، واضعاً بذلك الشرق الأوسط على مسار جديد يعل قراره بالذهاب إلى الحرب. إنني أرحب بتطور كهذا لأن فيه مصلحة لأمريكا، وللعراق، وللعالم. يعرف بوش كيف تكافئ الأجيال القادمة النجاح على حساب الصراحة والصدق. ولكن بينما يتحرك التاريخ لينطق بحكمه في السنين والعقود القادمة، فإنه لن يكون بمقدورنا تلميع الحقائق التي سعى هذا الكتاب لإبرازها، والدروس التي يمكن أن نتعلمها من فهم هذه الحقائق بشكل أفضل. إن السماح لثقافة الحملة الدائمة أن تبقى في وضع المسيطر على عقولنا قد لا تأخذنا باتجاه حرب جديدة، ولكنها سوف تستمر في تقليص فرصة إجراء مراجعة متأنية، والوصول إلى حلول وسط على الصعيد الحزبي، والوصول كذلك إلى حلول ذات معنى لكل المشكلات التي يرغب الشعب الأمريكي أن يراها محلولة.

حاولت تجنب الخوض في سؤال من قام بإشعال فتيل الحرب الحزبية، ومن هو المسؤول عن ثقافة الخداع الحالية في واشنطن. قد تحتاج مجرد محاولة الإجابة عن هذا السؤال إلى كتاب كامل. في اعتقادي، أن نظرة موضوعية غير محازبة إلى الحقائق سوف تقضي إلى الاستنتاج بأن الكثير من اللوم والمسؤولية يقعان على الطرفين - بدءاً برئيسي الحزبين، مروراً بالقيادة الديمقراطية والجمهوريين في الكونغرس، والمنتقدين الحزبيين، وقادة مجموعات المصالح، وانتهاءً بالمعرضين الخفيين في وسائل الإعلام الوطنية وفي واشنطن.

من كان منا بلا خطيئة، فليقذف الحجر الأول. سوف يكون من الصعب، إن لم أقل من المستحيل إيجاد شخص عاش في عالم واشنطن التدميري هذا - وهو عالم نما وترعرع بمعزل عن المشكلات التي يعاني منها الشعب الأمريكي، والأولويات التي يهتم بها - وبقي بالفعل «بلا خطيئة». هذا هو السبب الذي حدا بالعديد من الأمريكيين، خصوصاً أولئك الذين يشكلون الغالبية العريضة في الوسط، إلى الإحساس بخيبة الأمل، وحتى بالقرف،

من السياسة. ولهذا السبب، نحن بحاجة إلى تخطي تقاذف اللوم وتبادل الاتهامات، والتركيز بدلاً من ذلك على تنظيف النظام. الأخبار الجيدة في هذا الصدد هي أننا بدأنا نلمس الرغبة في حصول شيء كهذا، حقيقية، وهي تتنامى في أرجاء البلاد كافة.

هل من الممكن الفصل بين القيام بالحملة وبين ممارسة الحكم؟ هل تعد محاولة التحكم بمصادر الدعم الشعبي لأسلوب الحكم كما تتطلبها مقتضيات الحملة الدائمة جريمة؟ لا أظن ذلك. ستكون تلك طريقاً من الخطر السير فيها. يجب على قادتنا السياسيين أخذ الرأي العام بعين الاعتبار؛ ولكي يكون بإمكانهم أن يمارسوا الحكم بصورة فعالة، فهم بحاجة إلى الدعم الشعبي. بهذا المعنى، يمكن أن تتزامن ممارسة الحكم مع القيام بالحملة، وأي ادعاء مفير لذلك سيكون شكلاً من أشكال حماقة.

الفش والخداع المتعمد هما أمران مختلفان تماماً بطبيعة الحال؛ وكذلك سوء استخدام المكاتب الحكومية والموارد المالية لغايات حزبية صرفة. هذه تعد جرائم، ويجب أن تكون كذلك. لو توفر دليل مادي ملموس على أن أحد الموظفين الحكوميين تجاوز الحدود القانونية المرسومة، فإنه يجب أن يتعرض للمحاسبة. لكن محاولة تعريف طريقة العمل في مؤسسة واشنطن على أن لها إرثاً فضائحياً، هي انحراف عن الهدف، فهي تسمح لجذور المشكلات في أن تستمر من دون انقطاع. لسوء الحظ، يمسك قادتنا المنتخبون في كلا الحزبين بطرفي خيط المسألة. فهم من ناحية، يدينون نظرياً الحملة الدائمة، ومن ناحية أخرى، فهم متمسكون بأساليبها الأكثر تدميراً والأكثر خداعاً.

يجب أن تتم مواجهة التجاوزات التي تمثلها الحملة الدائمة، ووضع حد نهائي لها. إنها حملة ذات طابع تدميري لخطابنا السياسي الوطني، إن نتائجها السلبية واضحة للعيان في مجالي السياسة والعمل السياسي.

ليس المقصود من انتقاد النظام إيجاد أعذار أو تبرئة للقادة المنتخبين من أي من الحزبين جراء اتخاذهم قرارات، أو قيامهم بأساليبها، أو استخدامهم وسائل تؤدي إلى تجاوزات تدميرية تسببها الحملة الدائمة. الغالبية الساحقة من هؤلاء هم أناس طيبون، إلا أنهم انتخبوا لكي يمارسوا القيادة، ويوحدوا الأمة، ويبحثوا عن الحلول الوسط،

ويضعوا مصلحة الأمة فوق مصالحهم الحزبية. القلة القليلة منهم تتطحنوا لقيادتنا خارج إطار التجاوزات الحزبية. الرئيس بوش يدفع ثمناً غالياً بسبب إخفاقه في القيام بذلك. تلاشت نسبة التأييد الشعبي لسياسته بنسبة كبيرة نتيجة لذلك. لكن توجيه إصبع الاتهام إلى شخص بعينه يلقي بظلال كثيفة على المشكلات الأكبر التي تجب مواجهتها وتصحيحها.

يجب على قادتنا المنتخبين البدء في عملية التغيير عبر وضع حد لتعليب عقولهم كي يقوموا بكل ما قام به الآخرون. فهم يتبؤون أفضل المواقع التي تمكنهم من تغيير الواقع الراهن؛ ولا أحد يستطيع القيام بذلك أكثر من الرئيس نفسه. لا أحد بحوزته مايكروفون أعلى صوتاً من مايكروفون الرئيس. ولا أحد يملك منصة أكثر اتساعاً من المنصة التي يقف عليها الرئيس؛ لذلك فإن المسؤولية الرئيسة بالنسبة إلى المبادرة في إجراء التغيير تقع على عاتقه (أو عاتقها) *.

كان بإمكان الرئيس ممارسة تأثير إيجابي فوري على ثقافة واشنطن عبر اتخاذ بعض الخطوات التي لا تتطلب موافقة الكونغرس. لا أقصد الإشارة إلى أن مثل هذه الخطوات ستكون سهلة المنال، أو يمكن المحافظة عليها. إنها تتطلب وعياً مستمراً للتجاوزات التي تسبب بها الحملات الدائمة، ووعياً بالأخطار على المدى البعيد، والمتمثلة في الانخراط بالعمل السياسي بعقلية المتجه إلى الحرب، وبالحاجة إلى وقف ضخ الدم إلى شريان ثقافة الفضائح بما في ذلك عدم القيام بأي فعل داخلي، والسرية، وبناء الجدران العازلة، والتشويش، والمراءاة.

يمكن أن يبدأ المرشحون للرئاسة بمصارحة أنفسهم بشأن مخاطر الحملة الدائمة، ليس فقط من زاوية الخطط السياسية الحالية وحسب، بل من ضمن السياق الأشمل للتاريخ الأمريكي، وتطوره عبر الأجيال. إن قراءة كتاب *The Permanent Campaign and Its Future* «الحملة الدائمة ومستقبلها» وهو الكتاب الذي قام بتحريره كل من نورمان أورينستاين وتوماس مان، والذي أشرت إليه في أحد الفصول السابقة من هذا الكتاب، سوف يوضح للكثيرين المعنى المقصود وراء ذلك. بالإضافة إلى ذلك، فإن إحدى

الخطوات الأولى المهمة في هذا الصدد تتمثل في استشارة بعض الباحثين المتخصصين في هذا الحقل لمعرفة كيفية التعامل مع المشكلات الناجمة عن الحملة الدائمة.

وكما انتهت عبر مشاهدتي لجورج بوش، فإنه لا يكفي أن تنادي بالوحدة وتتعهد بتغيير النبرة. معظم الأمريكيين مستعدون لكليهما. لكن العبارات الرنانة لا معنى لها من دون أن تترافق بخطوات عملية. ما هي التغييرات المؤسسية التي يمكن لأي رئيس قادم أن يجريها لمواجهة مظاهر الضرر الذي تتسبب به الحملات الدائمة، أو التخفيف من حدته؟ أي طرق ينبغي على أي رئيس قادم إتباعها كي يجعل من المناقشات والحلول الوسط الحزبية في جوهر الحكم، أي أن تكون النبراس الدائم الذي يسير الجميع على هديه؟ لن يكون من السهل التغلب على التجاوزات الناجمة عن الحملة الدائمة. لا بد للرئيس من أن تكون لديه خطة محددة تطمئن الناس حول التزامه بالإصلاح، وأن تكون هذه الخطة أكثر من مجرد كلمات فارغة من المضمون.

يجب على الرئيس المنتخب الإصرار على أن يقوم المشرفون على المرحلة الانتقالية إلى الحكم الجديد بالاطلاع على الحملة الدائمة - ما هي، وكيف تعمل، وعواقب ممارستها. يجب على الرئيس المنتخب أن يصر أيضاً على أن يولي كبار موظفيه اهتمامهم بهذه الدروس والعبر. هذا سوف يساعد الإدارات القادمة على تجنب الوقوع في بعض المطبات التي وقعت فيها إدارة بوش مثل نقل كامل جهاز الحملة الدائمة الهائل إلى البيت الأبيض - وهي خطيئة خطيرة خصوصاً عندما لا تكون هناك قوة موازية قوية تعيد التوازن إلى ذلك المكان.

وعندما يستلم الرئيس مهام الحكم، يجب عليه إظهار التزام لا يتزعزع بثلاثة مبادئ مهمة: (1) انفتاح عالي المستوى، وصراحة مقرونة بالأمانة عندما يخاطب الشعب الأمريكي: (2) روحية لم الشمل والوحدة التي تتجاوز الانقسامات الحزبية والخلافات العقائدية بغية تشجيع التعاون بين كل المجموعات والأفراد: (3) استعداد دائم لممارسة الحكم وتوجيهه باتجاه الوسط، باحثاً عن حلول وسط كي يتم حل المشكلات بدلاً من الاحتماء بالقاعدة الحزبية الضيقة.

أظن أن العديد من الناس سوف يرحبون بهذه المبادئ من الناحية النظرية. ولكن كيف يمكن تطبيقها على أرض الواقع؟ هناك جملة من الأفكار الجيدة في أذهان الناس: وهاكم بعضاً منها للتأمل فيها علماً أن تطبيقها لا يأخذ وقتاً طويلاً، وليس بحاجة إلى قانون من الكونغرس.

أنصح بالقيام بتغيير جذري في تركيبة كبار موظفي البيت الأبيض. وقد خلصت إلى هذا الاستنتاج بناء على تجربتي في البيت الأبيض، وكذلك عبر التدقيق في بنية البيت الأبيض التي أقامتها الإدارة التي سبقت تلك التي خدمت فيها. أولاً، يجب على الرئيس تعيين نائب لرئيس الأركان لشؤون الحكم. وسيكون هذا المنصب مسؤولاً عن التأكد من أن الرئيس ملتزم دوماً، ومن دون انقطاع بممارسة أقصى درجات الانفتاح والصراحة، وأن يتخطى العقلية الحزبية من أجل تحقيق الوحدة.

من الناحية التنظيمية، يجب على نائب رئيس الأركان هذا، أن يرتبط مباشرة بالرئيس، وبرئيس أركان البيت الأبيض، وسيكون مديرو السياسة، ومدير شؤون الموظفين، وكبير مستشاري الرئيس للشؤون السياسية، ومستشار البيت الأبيض تابعين له ولرئيس أركان البيت الأبيض. وبموجب هذه الصلاحيات والمسؤولية، سيكون هذا الشخص بحاجة إلى مساعد ذي موهبة وكفاءة يعمل في مكتبه مباشرة. ربما يحتاج أيضاً إلى ثلاثة مساعدين، لكل منهم مسؤوليات محددة:

- مساعد يركز على موضوع الوحدة، ويكون على اطلاع كامل على السياسة التشريعية، والأجهزة السياسية. يجب أن يعمل على التأكد من أن الأولويات السياسية والتشريعية، وأولويات صنع السياسة منطلقة من الرغبة في التعاون البناء مع قادة الحزب المعارض للوصول إلى أرضية مشتركة. على سبيل المثال، عندما يبدأ العمل على تطوير تفاصيل برنامج الرعاية الصحية الجديد، يجب عليه التأكد من مشاوره ليس المشرعين فقط من كلا الحزبين أولاً بأول، وبصورة مستمرة، بل أيضاً ممثلي مجموعات أصحاب المصالح من الجانبين والتي لها علاقة بالبرنامج الذين يجب أن تكون لديهم الفرصة في المساهمة في تلك المحادثات - من منظمات

الأطباء والمرضى، وشركات التأمين والشركات الصحية الربحية وغير الربحية، وروابط حقوق المرضى، واتحادات العمال، ومجموعات المستخدمين، وآخرين.

● مساعد يركز على مسألة الشفافية، مطلع بشكل كامل على الوثائق الرئاسية، وعمليات التوثيق، بالإضافة إلى الرد على الطلبات الواردة من مجموعات المواطنين ومجموعات أصحاب المصالح حول معلومات تتعلق بصنع السياسات في البيت الأبيض. يمكن أن يشرف مساعد الرئيس لشؤون الشفافية على عملية توثيق المعلومات الاستخباراتية والإحصاءات الحكومية الأخرى، والتأكد من أن السرية المطلوبة لحماية المصالح الأمنية لا يساء استعمالها لتكون وسيلة لحماية الإدارة من عمليات كشف تعد محرجة أو غير مريحة من الناحية السياسية.

● مساعد يشرف على شؤون المزاج العام، ويكون على اطلاع كامل على هيكلية نظام الاتصالات في البيت الأبيض، بما في ذلك معالجة اللفظ الذي يحظى بقدر كبير من التغطية الإعلامية التي لا بد أن تظهر في الشق التنفيذي. تتضمن مهمته التأكد من أن الرسائل التي تختار الإدارة إيصالها تعكس احتراماً لقادة الحزب الآخر، وتأخذ بعين الاعتبار القلق المشروع، والاحتياجات المشروعة لكافة الأمريكيين. سيكون هذا المساعد مسؤولاً عن تحديد التكتيكات السياسية البغيضة كافة التي تعمق الهوة التي لا لزوم لوجودها في واشنطن، وكذلك بين المجموعات الاجتماعية والعرقية والدينية والجغرافية؛ ومن ثم، وضع حد لها.

يجب أن يكون نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم رجل دولة متمرس، له خبرة طويلة، ويتمتع بقدر كاف من المعرفة والمهارة والاحترام بشكل يؤهله كي يعمل عبر الخطوط الحزبية. كما يجب أن يتمتع بفهم وإدراك عميقين للحملة الدائمة وعواقبها المحتملة، بالإضافة إلى إدراك لوسائل حكم بديلة - أي المناظرات، والإجماع، والحلول الوسط، والتعاون. ومن المهم أن يتمتع بحضور قوي وشخصية قوية. يجب أن تكون لديه الجرأة ليثبت عينيه في عيني الرئيس أو كبار مستشاريه حين تقتضي الضرورة، ويقول: «مع كل الاحترام، أنت مخطئ». سيكون دور نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم حاسماً في ضبط

وتحجيم الحملة الدائمة، والتأكد من أن المستشار السياسي أو طاقم المستشارين لا يمارسون تأثيراً مفرطاً على الأحداث التي تجري داخل البيت الأبيض.

يشكل هذا تراجعاً مهماً أمام الواقعية. أظن أنه من غير الواقعي الأمل في أن لا يكون لكبار مستشاري الرئيس السياسيين تأثير لافت في البيت الأبيض. فالهدف من وراء ذلك هو خلق توازن بين الاعتبارات السياسية، وبين الاعتبارات غير السياسية؛ كما يرى هذا المنصب الجديد الذي يركز على شؤون الحكم أحد مظاهر خلق هذا التوازن.

يجب على نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم أن تكون لديه المعرفة الكاملة بما يجري داخل الإدارة كي يستطيع القيام بدوره بشكل فاعل. يجب أن يدعى إلى كافة الاجتماعات التي تعقد على مستوى كبار الموظفين، وتتعلق بالقضايا التشريعية، وقضايا شؤون الموظفين، والاتصالات، واتخاذ القرارات ذات الصلة بالقضايا الداخلية والخارجية على حد سواء. ويجب أن تقدم له الوثائق والمعلومات الضرورية كافة، كما يجب أن يكون على اتصال مباشر ودائم مع الرئيس، وبينما يقوم رئيس الأركان بمهمة الوسيط النزيه، مترفعاً عن الممارك التي تحدث بين الجدران والتي لا بد من وقوعها في أي إدارة - وهو الدور الذي شغله آندي كارد - فإن نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم سيكون مسؤولاً مباشراً عن الأولويات الموكولة إليه. وإذا قام بالمهام الموكولة إليه خير قيام، فلا بد له من أن يصطدم بمستشاري الرئيس السياسيين من حين لآخر. وفي الحقيقة، إذا لم يصطدم بهم أبداً، أو لا يصطدم بهم إلا نادراً، فهذا يعني من وجهة نظري، أنه لا يقوم بواجبه كما يجب.

بإمكان نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم أن يقوم بالكثير لمساعدة الرئيس في الانتقال ببلادنا صوب نوع من القيادة الشفافة، واستيعاب التيارات كلها، والصراحة - وهي مزايا يتوق الأمريكيون إليها باعتقادي؛ وهم على استعداد لتبنيها عندما يلمسونها. دعوني أتحدث بشيء من الاستفاضة حول كل من هذه الموضوعات على حدة.

أولاً، الشفافية. في عصرنا الذي يتميز بتغطية إخبارية على مدار أربع وعشرين ساعة يومياً، وعلى امتداد سبعة أيام في الأسبوع، ويتميز كذلك بالاتصالات الفورية،

فإن من المنافي للعقل التفكير أن إدارة ما، يمكن أن يكتب لها النجاح من دون اعتماد مبدأ الشفافية. يتطلب عصر المعلومات بشكل متزايد الانفتاح والصراحة. لا يملك أي فرد أو مؤسسة السيطرة على الرأي العام في عالم يمتلك مجموعة واسعة من مصادر التأييد الشعبي، بدءاً بالتعليقات الواردة في المواقع الإلكترونية، مروراً بالصحفيين المدنيين وانتهاءً بصحافة المواقف على اليمين واليسار، بالإضافة إلى المصادر المتنوعة للأخبار والآراء وطرق الحصول عليها، وتحديدًا عبر الإنترنت. هذه التوجهات جميعها تعد ظواهر صحية لمبدأ الديمقراطية، وضمان المحاسبة، وبذل الجهد من أجل الوصول إلى الحقيقة.

أما التمسك بمبدأ السرية خارج إطار المعلومات الأمنية القومية السرية الضرورية، فيشكل بعد ذاته كارثة في مثل هذه البيئة حيث إن محاولة البيت الأبيض لإخفاء الأسرار لا تأتي أكلها؛ إذ سرعان ما تطفو تلك الأسرار على السطح. من الأفضل بكثير إتباع مبدأ الانفتاح والمصارحة بشأنها بدلاً من السماح للشبهات بأن تنمو، أو السماح للآخرين في أن يحددوا معالم القصة.

ولا تقل أهمية عما تقدم، الإشارة إلى أن التمسك بالانفتاح والصراحة يؤدي إلى تغيير إيجابي، وإلى ممارسة مبدأ المحاسبة الداخلية. ففي البيئة المنفتحة، لا يمكن كنس المشكلات وإخفاؤها تحت السجادة. فالشفافية تشجع على المبادرة إلى التصحيح، بما في ذلك إحالة الناس إلى المحاسبة عند الحاجة.

الاستيعاب بصفته مظهراً من مظاهر القيادة، يعني التأكد من أن الحوار والتوصل إلى حلول وسطى مع الكونغرس لا يقل أهمية عن القيام بالحملة بغية استمالة التأييد الشعبي؛ ذلك أن على الرئيس أن يبقي يده ممدودة إلى أعضاء الكونغرس، ويدخل في حوار مبني على الثقة وحسن النية، ومنطق الوسطية السياسية كي يفعل التشريعات، ويجد حلاً للمشكلات التي لها طابع الأولويات، ويمكن أن يطلب إلى نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم تولى مهمة تسويق هذه الجهود وتسهيلها.

الترويج لقيادة الاستيعاب يعني من ضمن ما يعنيه أن الرئيس سيتلقى بشكل دائم النصيح من خبراء من خارج منظوم البيت الأبيض، ومن باحثين ورجال دولة متقدمين في السن، من مختلف المشارب والآراء ومستشارين - بالأخص حول قضايا جدلية، أو مهمة. وتعني أيضاً التأكد من أن الفريق الحاكم لدى الرئيس يعمل ضمن آفاق تتجاوز الأطر الحزبية بشكل أكبر مما كانت عليه الأمور في الماضي القريب، بما في ذلك العدد الوافر من أعضاء في هذا الفريق ممن ينتمون إلى الحزب الآخر، بالإضافة إلى زعيم مستقل أو اثنين يعملان مع الفريق. هذا التجاوز للأطر الحزبية ستكون له أهمية خاصة في بيئة واشنطن الحزبية المتطرفة التي تتحرك ضمن سياقات عقائدية وفكرية.

يجب أن يتم التغيير بدءاً من حكومة الرئيس: إذ ليس كافياً قيام الرئيس بتسمية عضو أو اثنين من الحزب المعارض في مناصب حكومية قليلة الشأن (كما كانت الحال بالنسبة إلى قيام بوش بتعيين الديمقراطي نورمان مينيتا في منصب مغمور نسبياً، وأعني به وزارة النقل). فلماذا لا يعين وزير للخارجية مثلاً، أو للدفاع، أو المالية من الحزب المعارض؟ من السهل التفكير بأشخاص وسطيين، وقادرين، ومتميزين من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، ممن يمكن أن يكونوا مناسبين لشغل هذا المنصب أو ذاك بطريقة تدعو إلى الإعجاب. يا لها من لفظة قوية ترمز إلى الوحدة الوطنية، لو حدث وأنت هذه اللفظة من رئيسنا القادم!

من الحكمة أيضاً أن تعكس الحكومة التنوع الإثني والعرقى والديني والجغرافي والجنسوي في أمريكا. (وهذا هدف سعى بوش لتحقيقه بشكل مثير للإعجاب). يمكن تحقيق ذلك بسهولة عبر اختراق الحواجز الحزبية لتشكيل فريق رئاسي من دون التضحية بميزات رئيسة مثل الفطنة والخبرة والتدريب والمحاكمة الفكرية والاستقامة.

تعني الحاجة إلى الاستيعاب من ضمن ما تعنيه محاولة التواصل النشط مع قادة مختلف الدوائر الانتخابية من المؤيدين التقليديين للإدارة أو من غير المؤيدين لها. فالرئيس في خدمة جميع الناس، وعلى البيت الأبيض أن يكون مرآة لذلك. فالرئيس الديمقراطي المقبل يجب أن يسجل سابقة عن طريق قضاء بعض الوقت مع مجموعات

من المحافظين التقليديين مثل المسيحيين الإنجيليين، ومالكي الأسلحة، والناشطين من أجل الحياة، والمؤيدين لخفض الضرائب، في حين أن على الرئيس الجمهوري المقبل التواصل مع مجموعات حقوق المثليين، واتحادات المعلمين، ومجموعات الضغط من أجل حقوق الحيوان، والمدافعين عن البيئة من بين فئات كثيرة أخرى. حتى لو بقي كل فرد على رأيه، فإن قاسماً مشتركاً يمكن اكتشافه ويكون أساساً لبناء التغيير المنشود. في أي حال، إبداء الاحترام المتبادل، والرغبة في الإصغاء سوف يحقق الكثير لتخفيف حال الاحتقان التي تسود جو واشنطن.

سياسة الاستيعاب تعني أيضاً المراقبة الدائمة للاتصالات الرئاسية، وتلك التي تجري في البيت الأبيض لضمان أن ترتقي اللغة إلى ما فوق السياسة الحزبية، أو أن تخفف، أو حتى تلغي استخدام سياسة الأرض المحروقة - على الصعيدين الداخلي والخارجي بين المنظمات الرئيسية المؤيدة لهذا الحزب أو ذاك، بما في ذلك جهاز الحزب الوطني.

لا توجد مشكلة في ثقافة الرسالة. فهي مفيدة وضرورية في بيئة وسائل الإعلام المعاصرة. ولكن من المهم إبقاؤها ضمن سياق سوية راقية من الصراحة، والصدق والاحترام للرأي الآخر. من المنظور نفسه، يمكن رؤية الانخراط في حملة لتجيش الناس وراء مبادرات سياسية معينة أمراً حيوياً، ولكن ليس على حساب مبدأ تبادل الرأي والحلول الوسط. لا يجوز النظر إلى المجموعات المدنية، أو المنظمات الصناعية، أو المنظمات غير الربحية، أو روابط الناشطين كأسلحة يجب استخدامها في الحرب الحزبية، بل كشركاء يمكن أن يساهموا في حل المشكلات عبر تقصي الفرص والخيارات ودراستها.

يمكن للتركيز على مبدأ الصراحة أن يساعد في ضمان أن لا يتحول اللفظ الذي لا مفر منه، والذي يظهر عادة مع بداية أي إدارة، إلى حال دائمة من الشك والحرب. إذا قام نائب رئيس الأركان لشؤون الحكم بعمله بشكل مُرضٍ، فإن الرئيس لن يسمح لأي لفظ في أن يتحول إلى تحقيق خارجي، أو إجراء قضائي، على الأقل، قبل القيام بجهد مخلص لحل تلك المشكلة داخلياً. عندما تخرج الفضائح إلى العلن - وسوف تخرج إلى العلن - يجب على الرئيس أن يأمر بإجراء تحقيق في العمق، ويتخذ من ثم، الإجراءات

العلاجية الضرورية بما في ذلك الكشف عن المنظور الحقائق كلها، وتحميل من يلزم المسؤولية؛ حتى لو كلفت تلك الإجراءات الإدارة خدمات بعض الموظفين الموهوبين.

في المناخ الحزبي الراهن والسائد هذه الأيام، نسمع أحياناً عبارة «الولاء» باعتبارها فضيلة سياسية سامية. فالرؤساء يطالبون مستشاريهم والطاقم التابع لهم بالولاء؛ وهم يبادلونهم الولاء بطرقهم الخاصة حيث يؤمنون لهم الحماية من المحاسبة. هذا النوع من الولاء يشكل إساءة بالغة للشعب الأمريكي. يجب على موظفي الخدمة العامة أن يتذكروا قيامهم بالقسم للولاء لدستور الولايات المتحدة. ولاؤنا الأول هو للأمة والشعب. عندما تحتدم الصراعات، يجب أن تكون الأولوية هي الولاء للأمة على حساب الولاء للحزب، أو الولاء الشخصي. وإذا كان ذلك يعني توجيه إصبع الاتهام باتجاه الخطأ، أو الإصرار على وجوب معاقبة من يسيء استغلال منصبه بشدة، فليكن ذلك. إن الاستعداد للالتزام بهذه القاعدة أمر مهم لأي رئاسة تبحث عن طرائق لترتقي فوق الجو الفاسد الذي يسود السياسة هذه الأيام.

الرئيس الملتزم بجوهر المبادئ التي بينتها، والبيت الأبيض المبني على أساس الالتزام بها، يمكن لهما أن يفعلا الكثير لضبط العمل على الإيقاع الصحيح، وتثبيط زخم سياسة الأرض المحروقة في واشنطن. لكن لاعبين آخرين في هذه اللعبة السياسية لهم دورهم الهام أيضاً.

يمكن للكونغرس أن يساعدنا في تجاوز الحرب الحزبية وثقافة الخداع. أعضاء الكونغرس الحاليون منهمكون في جمع التبرعات المالية، وإرضاء أصحاب المصالح الخاصة، والتفوق على خصومهم عبر المناورات للفوز في الانتخابات القادمة - كل هذه العناصر هي من سمات الحملة الدائمة. طُرحت العديد من الأفكار البناءة من أجل تغيير نظام الكونغرس. وهذه الأفكار جديرة بالمتابعة، لكن القيادة يمكن أن تقوم بتغيير نبرة الخطاب وأساليبه الآن، إن أرادت ذلك. لسوء الحظ، يتحول قادة الحزبين من موقع رجال دولة، إلى رجال أحزاب. إن هؤلاء القادة بالذات - رئيس المجلس ورئيسي الأغلبية والأقلية في مجلسي النواب والشيوخ - هم من يجب أن يمسك بزمام المبادرة.

ويمكن لوسائل الإعلام المساعدة في تغيير ثقافتنا السياسية أيضاً. فالكثير مما تقوم به صحيح، ولكن الأخطاء التي ترتكبها تطفئ في الغالب على صحة ما تقوم به.

بدأت الشبكات الإخبارية تفقد مشاهديها مؤخراً. هناك العديد من الأسباب وراء ذلك، بما فيها كثرة مصادر الأخبار وانتشارها، والعديد من تلك المصادر مصممة لتناسب أذواق ومصالح نوعيات محددة من المشاهدين. لكنني أعتقد أن السبب الرئيس في ذلك يعود إلى أن تلك الشبكات مربوطة إلى الماضي. فمكاتب الأخبار الوطنية في تلك الشبكات ما زالت تركز على السباق الذي يطبع الحملة الدائمة، ليس فقط أثناء سني الانتخابات، بل بصورة مستمرة، مؤكدة على جوانب اللفظ، ومركزة على الربح والخاسرين في واشنطن بدلاً من الفوص في القضايا الحقيقية التي يهتم لها الأمريكيون - الاقتصاد، والرعاية الصحية، والتعليم، والجريمة، والحرب، والسلام.

وسائل الإعلام الإخبارية بحاجة إلى طرق جديدة للإبداع إذا أرادت أن تتحرر من انخفاض معدل مشاهديها، وتتملص من الأخاديد التي عقلت فيها. الشعب الأمريكي يتوق إلى الحقيقة - ليس فقط ذلك المظهر من الحقيقة الذي يبرز المناوشات الحزبية الصغيرة، واللفظ الدائر حالياً، بل إلى الحقيقة بمعناها الأشمل. بما في ذلك الحقائق الصعبة التي نادراً ما نسمع أنه تم التركيز عليها في التلفزيون، أو حظيت بتغطية واسعة في صحفنا ومجلاتنا الرئيسية. فالشبكة الإخبارية التي بمقدورها إيجاد طريقة تحول فيها اهتمامها من المبالغة في التركيز على اللفظ السائد، وعلى سباق الخيل التقليدي، والتغطية التي يتم فيها التركيز على الصورة، إلى إظهار تركيز أكبر على من هو على صواب، ومن هو على خطأ؛ ومن هو الذي ينطق بالحقيقة، ومن هو الكاذب، بالإضافة إلى التركيز على الحقائق الأكبر حول مجتمعنا وعالمنا، سوف يكون بإمكانها تحقيق نتائج مذهلة في بيئتنا الإعلامية التي تتميز بالتغير السريع. أراهن أنني لست المشاهد الوحيد الذي سيعود إليه الزخم والحماس عبر برامج كهذه. الدراما السياسية مسلية بالنسبة لي، كما هي الحال بالنسبة لمعظم السياسيين؛ إلا أن خدمة أكبر كانت ستقدم للأمريكيين فيما لو ركزت هذه الأخبار بشكل أكبر على الحقيقة بمعناها الأشمل؛ وحينها سيكونون أكثر استجابة للأخبار.

هناك تغييرات ميدانية في ممارسات وسائل الإعلام يمكن أن تقضي بدورها إلى إحداث تغيير كبير في ثقافتنا السياسية: إذ يجب على المراسلين أثناء الحملات الانتخابية بذل جهد أكبر وذلك عبر إحراجهم للمرشحين حول قضايا محددة تتعلق بالشأن السياسي العام، بدلاً من تقبل حديثهم في العموميات وميلهم نحو استخدام العبارات الرنانة. يجب على كتاب الصحف ومعدّي البرامج التلفزيونية مراقبة حجم العمود الصحفي، والكم الزمني الذي يكرسونه من أجل الحديث عن المنافسة في حقول استطلاعات الرأي، والأساليب المتبعة في الحملة، والخطط العامة، مقارنةً بالمحتوى السياسي لتلك المساحات. يجب عليهم التركيز على أهداف محددة لكل نوع من أنواع التغطية الإعلامية كي لا يطفئ أسلوب تغطية المباريات الرياضية على اللعبة السياسية بشكل ينسي المواطنين معرفة ما يحتاجون إلى معرفته كي يستطيعوا تحديد خياراتهم.

يجب على المنافذ الإعلامية تكريس مصادر أكثر من أجل الخروج بأفكار ومعلومات تساعد في التثبت من الحقائق التي تقدمها الحملات السياسية، والسياسيون القائمون على رأس عملهم، أو منظمات المصالح الخاصة. وعندما يحاول أحد المرشحين أن يلوي عنق الحقيقة، يجب أن لا يتردد الصحفيون حينها في الإشارة إلى ذلك، عندما يستعمل إعلان تجاري تلفزيوني أسلوب الشحن العاطفي، وتشويه الصورة، وتقديم حقائق انتقائية مضللة كي يسوق وجهة نظر معينة، فإن على المنظمات الإخبارية فضح هذه الأساليب حتى لو أثار ذلك غضب تلك الجهة المعلنة.

هناك بعض المنظمات التي تشير إلى الطريق باتجاه تغطية إعلامية أفضل. أشرت سابقاً إلى مركز أنينبيرغ لتقصي الحقائق السياسية كنموذج لمجموعة غير حزبية تناضل من أجل تحسين مستوى الأمانة في خطابنا السياسي. نحن بحاجة إلى منظمات أخرى على شاكلة هذا المركز. كما أننا بحاجة إلى تشجيع وسائل الإعلام للقيام بالدور الحاسم المنوط بها دعاءً لمبادئ الصدق والشفافية والاحترام المتبادل بين قاداتنا السياسيين؛ وهناك إشارات مشجعة على أن شيئاً مثل هذا سوف يحدث بالفعل. أصبح موضوع «تدقيق الحقائق» في الدعاية التي تقوم بها الحملة جزءاً طبيعياً في التغطية السياسية في العديد

من الصحف، كما أن تقارير برنامج «Keeping Them Honest» أي «التأكد من صدقهم» في محطة CNN، يطرح مقارنة مشابهة تهدف إلى التدقيق في الحقائق قبل إرسالها إلى محطات الكابل التلفزيونية. والآن، تحتاج وسائل الإعلام إلى مؤسسة هذا النوع من التغطية الإعلامية، وجعله النقطة المركزية في التغطية السياسية التي يقومون بها.

وسائل الإعلام نفسها بحاجة إلى من يساعدها كي تحافظ على صدقيتها. تسعدني رؤية أعداد متزايدة من المراكز الإخبارية التي تستخدم محققين في الشكاوى للعمل كمحامين عن العدالة والمعايير الأخلاقية في العمل الصحفي. يقوم هؤلاء بالتحقيق في اتهامات تتعلق بالتحامل، ومراقبة الممارسات التي تجري في غرف الأخبار، وانتقاد التقارير غير المنصفة أو الكاذبة عندما يكتشفونها. وهم بذلك يؤدون دوراً تجاه وسائل الإعلام يشبه الدور الذي أقترح أن يقوم به نائب رئيس هيئة الأركان لشؤون الحكم بحيث يكون نوعاً من الضمير المؤسسي. أعتقد أن هذا يشكل اتجاهاً مفيداً، وأتمنى له الاستمرار والانتشار.

أمل أن تكون ردة فعل أصدقائي في وسائل الإعلام - بمن فيهم المهنيون المخلصون في طاقم البيت الأبيض الصحفي الذين استمتعت جداً بالعمل برفقتهم - إيجابية على الانتقادات التي أوردتها في هذا الكتاب. أعلم أن أغلب الصحفيين يلجئون إلى عالم الصحافة مسلحين بالمثل العليا. كما أؤمن بأن العديد منهم يوافقني الرأي أن الوقت قد حان من أجل إعادة التأكيد على التزامنا بهذه المثل، من أجل خير أمتنا.

أخيراً، أرى وجوب أن يكون لكل مواطن دور في تغيير نبرة نظامنا السياسي. يجب على المواطنين الأمريكيين المشاركة في صياغة لغة خطابنا الوطني، وتبني فكرة قيام قادتنا السياسيين بالاستجابة إلى مطالب الشعب الحقيقية، بل حتى بالمطالبة بها. وبينما أخط هذه الصفحات، تسعدني جداً رؤية هذا الكم الهائل والجديد من الاهتمام بالانتخابات الرئاسية لسنة 2008 عند الملايين من الشعب الأمريكي، بمن في ذلك وسطيين من كلا الحزبين، ومستقلين وأفراد ينتمون إلى مجموعات لم تكن تبدي في السابق سوى اهتمام ضئيل بمبدأ المشاركة السياسية - الفئات العمرية الشابة، والأقليات العرقية والدينية.

أمل أن يسود هذا الاتجاه الجديد ويستمر في السنوات القادمة. أعتقد أن هذا يمكن أن يحدث في ظل قيادة سليمة بدءاً بالرئيس، مروراً بالكونغرس، وانتهاءً بوسائل الإعلام.

تلعب حالياً التقانات الجديدة دوراً في تشجيع المواطنين العاديين على القيام بنشاط أكبر في هذا المجال. وتعد (الإنترنت) منصة للملايين من الناس لطرح أفكارهم، وآرائهم، وملحوظاتهم، وتقاريرهم فيما يتعلق بالقضايا المحلية والوطنية والعالمية، مقدمة في ذلك منبراً للعديد من الناس الذين لم يكن أحد من قبل يسمع أصواتهم. كما أن مواقع الشبكات الاجتماعية تسهل على المواطنين تشكيل مجموعات تجمع بينها مصالح محددة مثل تقديم الدعم لأحد المرشحين، أو المخاوف بشأن السياسة الخارجية أو البيئة. بعض الرسائل التي ترد عبر الإنترنت، تكون أحياناً صفيقة أو غير حضارية، كما أن بعض مقاطع الفيديو التي ترد عبر خدمة You Tube قد تكون فاضحة أو سخيفة. لكن حقيقة أن معظم الناس يشعرون أنهم قادرون على التعبير عن أنفسهم وعن آرائهم هي شيء جيد؛ وبمرور الوقت، يجب أن ترغب القادة السياسيين على أن يكونوا أكثر استجابة لإرادة مواطنين أكثر نشاطاً ووعياً.

الأهم من ذلك، أننا بوصفنا مواطنين، يمكن لنا أن نساعد في تغيير نبرة الخطاب الوطني عبر بذل جهود أكبر في التواصل مع الآخرين متجاوزين خطوط الحزب، والعقيدة، والخلفية ضمن مجتمعاتنا. ابحث لنفسك عن طرق للمشاركة. انضم إلى مجلس المكتبة المحلية في الجوار، أو إلى رابطة النقل العام، أو الرابطة المدنية؛ وتعلم كيف تتواصل مع الناس الذين تختلف معهم في الرؤية حول موضوعات تتعلق بالشؤون العالمية أو البيئة. استمع إلى هواجس جيرانك الذين يمكن أن يصوتوا لمرشح آخر غير ذاك الذي تفضله أنت، صل في أماكن عبادة مختلفة مع أشخاص يكسبون لقمة عيشهم بطرق لم يسبق لك أن تخيلتها. من الممكن أن تكتشف أن هناك قواسم مشتركة لم تخطر على بالك، تجمعك بهؤلاء الناس. ولو حدث واكتشفنا طرائق تمكننا من العمل سوية وبشكل بناء بدءاً بالقواعد، فمن الممكن أن تجد جرعة صغيرة من هذه الروحية طريقها إلى ردهات الكونغرس والبيت الأبيض أيضاً.

سوف تتحسر إدارة جورج بوش قريباً جداً لتصبح جزءاً من التاريخ. وسوف يناقش المؤرخون في المستقبل الآثار البعيدة المدى للقرارات المشؤومة التي اتخذها جورج بوش وكبار مستشاريه على امتداد سنين طويلة قادمة. لكنني أمل أن يبادر الأمريكيون إلى المشاركة في النقاش حول ما يمكن لنا أن نستخلصه من العبر فيما يتعلق بالطرق الصحيحة والخاطئة لممارسة الحكم كما حدث في السنين الثماني الأخيرة من تاريخنا المشترك. يمكن أن يكون من الصعب، أو حتى المؤلم، النظر إلى الخلف ورؤية أخطائنا. ومن المغري أن نقوم بالتركيز على الانتصارات الواضحة أو نتجاهل التاريخ بشكل كامل، وذلك في سعينا الدائم للوصول إلى غد أفضل. لكنني مقتنع بأن هناك الكثير مما سنجنيه لو قمنا بمراجعة متأنية وصريحة ودقيقة لذاتنا... وهذا يتطلب منا أن ننظر بأمانة إلى ما حدث.



شكر وتقدير

أنا مدين بشكل خاص إلى الفريق العامل في دار Public Affairs وبالأخص، مؤسسها ورئيس تحريرها بيتر أوسنوس، ومديرة التسويق وكبيرة المحررين فيها ليزا كوفمان. لقد كان التزامهما ودعمهما ورؤاهما لا تقدر بثمن. وكانت لآراء والأسئلة التحريرية التي طرحتها ليزا فائدة عظيمة. كما قام روبرت كيمزي وفريق الإنتاج العامل معه بعمل عظيم، وكذلك كريسوننا شميدت في تحرير المخطوط. وساعدت الناشرة سوزان واينبيرغ ومديرة الإعلان ويتني بيلينغ على تجاوز المشكلات المتعلقة بالنشر والإعلان.

كارل ويبير، له مني أعظم التقدير؛ فعمله الاستثنائي، وتنبيهات التحريرية ومقترحاته دفعت بهذا المشروع إلى الأمام، وساعدت في إتمامه في الوقت المناسب. لقد قدم في هذا السبيل أكثر مما كان متوقعاً، ولذلك فأنا ممتن لمساعدته.

قدمت ميمي باردجي بعض المساعدة في مجال البحث؛ وأنا أشكرها على العمل العظيم الذي قامت به واستجابتها السريعة.

قدم كريغ وايلي، وكيل الأدبي ومؤسس وكالة كريغ وايلي يد المساعدة لي في الإبحار في عالم نشر الكتب. ولولا كريغ، لما كان باستطاعتي مجازاة فريق العمل المدهش في مؤسسة Public Affairs، فله مني أعظم التقدير.

كان لي شرف العمل إلى جانب العديد من الناس الطيبين في البيت الأبيض، وأخص بالذكر من بينهم، العاملين في مكتب السكرتير الصحفي خلال مرحلة شغلي لذلك المنصب. فمقابل العيوب التي عانيت منها، والأخطاء التي ارتكبتها، قاموا بفعل كل ما هو صواب. إن الفضل في كل نجاح حققناه يعود إليهم. أنا ممتن أبداً لكل من كلير بوكان، وشان ماكورماك، وترينت داي، ودانا بيرينو، وفريد جونز. كما أتقدم بالشكر لكيت ستار ومايك أنتون. قامت كل من كارمن إنغيل وتينا هارفي بعمل رائع كمساعدتين خاصتين لي. كما أشكر كلاً من ناثن كارلتون، وجو كيلدا، وديفيد شيرزا، وبرايان برافو الذين أشرفوا

على الأخبار العاجلة وقاموا بعمل بحثي رائع. مساعدو السكرتير الصحفي بام ستيفينز، وإيرين هيلي، وآشلي سني، وأدم ليفين وريد ديكينز، وجوش ديكارد قاموا كذلك بعمل رائع. أقدر للوي كاسانو عمله العظيم ومساعدته. شكر خاص موصول لكل المساعدين من العاملين وأخص منهم أماندا دوفونو، وجورجيا غودفري، وبيتر واتكينز، وجون روبرتز، وراشيل سانبيرغر، وويل هولي، وتيريزا باغليوكا، وهاري وولف، وكاراتون كارول، وكريغ ويليامز، وليز دونان.

منّ الله عليّ بعائلة رائعة. كما دائماً، كانوا جاهزين لتقديم يد العون لي من البداية إلى النهاية خلال مرحلة إعدادي لهذا الكتاب. أشكر بشكل خاص والدتي كارول كيتون ستريهورن.

الأهم من بين ما تقدم، أشكر زوجتي جيل لمحبتها ونصائحها ولتوفيرها أسباب الراحة لي، وتوجيهاتها وذلك طيلة المدة التي قضيتها في منصب السكرتير الصحفي، وأثناء إعداد هذا الكتاب. لا أستطيع أن أتصور أنني كنت قادراً على تجاوز كل ما مررت به لولاها.

